



العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

مَوْسُوعَةٌ

التَّوْرَةُ الْحُسَيْنِيَّةُ

الجزء السادس

تأليف

الأستاذ محمد نعمة السماوي



شعبة الدراسات والبحوث



العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

شعبة الدراسات والنشر

كربلاء المقدسة

ص.ب (٢٣٣)

هاتف: ٣٢٢٦٠٠٠، داخلي: ١٦٢-١٧٥

www.alkafeel.net

info@alkafeel.net

السماعي، محمد نعمة

موسوعة الثورة الحسينية / تأليف الأستاذ محمد نعمة السماعي. - الطبعة الرابعة. - كربلاء، العراق
: العتبة العباسية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، شعبة الدراسات والنشر، 1440 هـ.

= 2018.

7 مجلد؛ 24 سم

يتضمن ارجاعات بيبليوجرافية

1. الحسين بن علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الامام، 61-4 هجري. 2. معركة كربلاء، 61 هـ. -- اسباب ونتائج. الف. العنوان.

BP193.13.A3 S26 2018

مركز الفهرسة ونظم المعلومات

الكتاب: موسوعة الثورة الحسينية / الجزء السادس.

الكاتب: الاستاذ محمد نعمة السماعي.

الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة.

مراجعة: شعبة الدراسات والنشر.

الاخراج الطباعي والتصميم: علاء سعيد الأسدي، محمد قاسم النصراوي.

التدقيق اللغوي: مصطفى كامل محمود، عمار كريم السلامي.

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة: الرابعة.

عدد النسخ: ١٠٠٠.

محرم الحرام ١٤٤٠ هـ - تشرين الأول ٢٠١٨ م

الفصل الأول

ملاحظات حول بعض ملامح المجتمع

العراقي (في عهد يزيد)

ممثلاً بمجتمع الكوفة

ملاحظات حول بعض ملامح المجتمع العراقي

(في عهد يزيد) ممثلاً بمجتمع الكوفة

أمير المؤمنين عليه السلام وتكوين الطليعة العقائدية

أراد أمير المؤمنين عليه السلام - عند انتقاله من المدينة إلى الكوفة وجعلها مركز الخلافة الإسلامية - انشاء وتربية طليعة عقائدية جديدة واعية تسير خلفه لانجاز كل المهمات التي كان عليه انجازها، وفي مقدمتها ايقاف الانحراف الذي تعرضت له الأمة الإسلامية والفوضى التي عمت ارجاء الوطن الاسلامي جراء انماط الحكم السابقة، وتكون طبقات جديدة استأثرت بالأموال العامة بحجج وأساليب مختلفة وكونت لها جاهاً ومركزاً متميزاً باسم الإسلام وفي ظله، مع أنها لم تلتحق بركبه الا في وقت متأخر وقبيل وفاة الرسول صلى الله عليه وآله بعدة أشهر.

وكان في مقدمة من ينبغي التصدي لهم معاوية بن أبي سفيان وجماعة آخرون أعلنوا خروجهم على الإمام عليه السلام وحرهم له تحت ذرائع مختلفة، وقد أوضحنا في غضون هذا الكتاب الحجج والأسباب التي أعلنوها مبررين بها خروجهم عليه وحرهم له فيما بعد. كانت المهمات التي نهض بها أمير المؤمنين عليه السلام ثقيلة ومتعددة، وكان من شأنها أن ترهق أهل العراق الذين ذهبوا معه عدة مرات تاركين وطنهم وعوائلهم لمحاربة معاوية وأعدائه وفقد آلاف منهم في سوح المعارك، كما كان من نتيجتها أيضاً وجود الآلاف من الأرامل والأيتام في الكوفة خاصة.

وقد تعب الكثيرون منهم في النهاية، ووجد معاوية لدى بعضهم ممن لم يستطيعوا تحقيق طموحاتهم غير المشروعه في ظل الامام من الأشراف ورؤساء القبائل، آذاناً صاغية ليدس فيها ما يتيح له استمالتهم إلى جانبه وتجنيدهم في خدمته طابوراً خامساً يثيرون الناس على أمير المؤمنين (عليه السلام) ويخذلونهم عن الحرب معه وإلى جانبه ويجعلونهم يتكاسلون عن نصرته ويثيرون حوله الشكوك والاقاويل وينشئون الاحزاب والفرق المعادية له بمختلف الحجج ولشتى الأسباب، كفرقة الخوارج، وقد تحدثت عن ذلك كتب التاريخ بإسهاب.

حتى سئم أمير المؤمنين (عليه السلام) منهم في نهاية المطاف وقد جرّعه غيظاً وحزناً وتمنى الموت أو القتل ليفد على ربه الكريم ويتخلص من أولئك الذين لم تثرهم حمية الاسلام وجبنوا عن مواجهة باطل أعدائهم الواضح المعلن، إذ أدرك أنهم لم يعودوا بمستوى المهام التي انتدبهم لتحقيقها تحت قيادته، وكان اداؤهم يسجل انخفاضاً كبيراً عن نقطة الشروع الأولى في بداية سني حكمه القصيرة التي لم تبلغ عدد أصابع اليد الواحدة.

لقد كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يحاول استنهاضهم دائماً، وكان يأمل أن تكون الطليعة العقائدية منهم ومن غيرهم في نهاية المطاف، حتى ولو امتدت الاعوام لتخرج هذه الطليعة في زمن غير زمنه وربما في غير زمن أبنائه أيضاً، وكان يأمل أن يكون انتماؤهم للإسلام حقيقياً، وموقعهم منه قريباً في كل زمان وهو نفس توجه الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً من قبل إذ أن هذا الدين، وقد أنزل كخاتم للديانات لا يختص بزمن نزوله، وإنما تمتد مهمته مع الناس إلى نهاية الاجل الذي تحددهم أن يعيشوه على هذه الأرض، ويتعامل مع مختلف الأجيال في مختلف الأمكنة ويريد أن تظهر منها الطلائع العقائدية التي تأخذ بأيدي الجميع إلى حيث يضعونه منهجاً وحيداً لتنظيم حياتهم وتحقيق سعادتهم.

ولا عجب أن نجد أن كل توجه من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أو من أحد من أوصيائه كان

ينصب في هذا الاتجاه، وهو تربية المسلمين واعدادهم لتقبل الإسلام في كل وقت.

ورغم ابعاد الأئمة عليهم السلام عن المناصب القيادية التي أهلوا وأعدوا لها إعداداً خاصاً من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله، ورغم شعورهم بالغبن والظلم عليهم وعلى الأمة نتيجة ذلك، فإن عملهم كشهداء على الأمة ومربين لها، يصححون ما يمكن تصحيحه من أوضاعها وانحرافات الحكم فيها جعلهم يرسون قواعد ثابتة، لا بد أن يؤخذ بها في المستقبل لتكون أساساً لأوضاع مستقرة قائمة على أساس الإسلام ومناهجه، دون أن تشوبها شوائب الشرك أو الجاهليات المستحدثة؟ فقد «كانوا يعملون عملاً مهماً جداً لانقاذ وجود الأمة في المستقبل، وضمان عدم انهيارها الكامل وتفتتها كأمة بعد سقوط التجربة، وذلك باعطاء التحصين الكامل المستمر لها»^(١).

عمل الأئمة عليهم السلام كان واحداً: تحصين الأمة ضد السقوط.

وكما أوضحنا من قبل، فقد كان عمل الأئمة الثلاثة الأوائل، أمير المؤمنين وولديه الحسن والحسين عليهم السلام، منسجماً بهذا الخصوص، وكان يأخذ بعداً واحداً بدأ مشوار السير فيه أمير المؤمنين عليه السلام، إذ أنه بتصرفاته قبل استلام منصب قيادة الأمة الفعلي، وبعد ذلك أيضاً، عندما سنحت له هذه الفرصة ليقودها بشكل مباشر، وجد أن الانحراف قد وصل حداً خطيراً جداً، وعلى ذلك فإنه لم يكن يتعامل مع الفترة الزمنية القصيرة التي عاشها فقط، وإنما كان يحمل هدفاً أكبر من ذلك. أمير المؤمنين كان يحس بأنه قد تدارك المريض وهو في آخر مرضه، أدركه حيث لا ينفع العلاج، ولكنه كان يفكر في ابعاد أطول وأوسع للمعركة.

«لم يكن يفكر فقط في الفترة الزمنية التي عاشها، وإنما كان يفكر على مستوى آخر

(١) الشهيد الصدر: أهل البيت: ص ١٣٢.

أوسع وأعمق، هذا المستوى يعني أن الإسلام كان بحاجة إلى أن تقدم له - في خضم الانحراف - أطروحة واضحة صريحة نقية لا شائبة فيها ولا غموض، لا التواء فيها ولا تقيد، لا مساومة فيها ولا نفاق ولا تدجيل»^(١).

وهذا ما لم يستطع أن يفهمه أركان الحكم الأموي، الذين عززوا الانحراف ووسعوه؛ لأنه حقق لهم مصالحهم الشخصية وكان ينسجم مع منظورهم وتطلعاتهم وطموحهم البعيد عن النظرة الإسلامية الخالصة التي تعد منصب الخلافة امانة ثقيلة موثقة بعهد مع الله سبحانه وفق شروط وقواعد لا يستطيع اداءها إلا من أعدوا وهيئوا لهذا النصب اعداداً خاصاً من قبل رسول الله ﷺ نفسه.

«فقد كنا، وأبوك فينا، نعرف فضل ابن أبي طالب لازماً لنا»

وقد رأى الأمويون، وفي مقدمتهم معاوية ان امامة الأمة طالما قد خرجت عملياً عن الصفوة التي أعدها رسول الله ﷺ وأعدَّ الأمة لاستقبالها وتقديمها رائدة لمسيرتها، فإن هذا الأمر ممكن ان يتكرر معهم أيضاً ويحصلوا على الخلافة وانهم لم يفعلوا شيئاً سوى أن فعلوا ما فعله غيرهم من قبل.

وفي هذا المجال، احتجَّ معاوية على محمد بن أبي بكر، عندما عاتبه هذا الاخير على موقفه العدواني من أمير المؤمنين (عليه السلام)، وخروجه عليه وادعاء الأمر لنفسه دونه، قائلاً في رسالة مكتوبة:

«فقد كنا، وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب وحقه لازماً لنا مبروراً علينا، فكان أبوك وفاروقه، أول من ابتزَّه حقه وخالفه على أمره، على ذلك اتفقا واتسقا... ثم قام ثالثهما عثمان، فهدى بهديهما وسار بسيرهما.. أبوك مهد مهاده، وبني للملكه وساده،

(١) الشهيد الصدر: أهل البيت: ص ١٣.

فان يك ما نحن فيه صواباً، فأبوك استبد به ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك من قبل، ما خالفنا ابن أبي طالب، ولسلمنا إليه، ولكننا رأينا أباك فعل ذلك من قبلنا، فأخذنا بمثله، فعب أباك بما بدا لك أو دع»^(١).

ومن محتوى رسالة معاوية هذه، نجد أنه كان يعرف لأمر المؤمنين ﷺ فضله وحقه، غير أنه عندما وجد أنه قد استبعد عن هذا الحق من قبل أناس ربما كان معاوية يراهم أقل فضلاً وشرفاً منه، ورغم الفضل الذي كان يقرُّ به الجميع لأمر المؤمنين، وجد أن الفرصة سانحة أمامه أيضاً لينال نصيباً من الغنيمة، وادعاء الأمر لنفسه والثوب على كرسي الخلافة والتمهيد لكي يبقى الكرسي في أسرته بعد ذلك، طالما أن المسألة قد أصبحت رهن إشارته وتوطدت له الأمور في النهاية، واستطاع اخضاع الأمة، وجرها للاستسلام والركوع أمامه.

الأئمة ﷺ يواجهون أساليب دولة الظلم

وقد رأينا أن معاوية قد واجه أمير المؤمنين ﷺ في بداية الأمر، بأهل الشام الذين استسلمهم إلى صفه بشكل تام، وجعلهم ينظرون إلى الاسلام بمنظاره، ووفق التصور الذي أراده.

وقد استطاع بعد ذلك استدراج كل من لم يجد له مصلحة مع الإمام، وكل الخارجين عليه والطامعين بهال أو سلطة، ليضمهم إلى صفه كذلك ويحاربه بهم، بعد ان لم يبق مع الامام منهم في نهاية المطاف سوى اعداد محدودة لم تكن تصل إلى مستوى تلك الاعداد الأولى، وقد أراد ان يعدهم لمعركة حاسمة مع معاوية، غير انه ﷺ اغتيل قبل اتمام هذه المهمة وترك أهل العراق يتخبطون ويتخاصمون، بينما كان معاوية قد نجح إلى حد بعيد

(١) مروج الذهب: ج ٣ ص ١٦.

برص صفوفه، وفق أساليبه الخاصّة التي انتهجها والتي لم يهدف من ورائها إلا إلى تقوية دولته وسلطانه ومصالحه.

وقد رأينا ان الرشوة والعطاء الكيفي، والقمع، وابتكار الاحاديث وتأويل القرآن وإثارة النعرات الجاهلية، كانت في مقدمة تلك الأساليب التي لا يمكن القول بأي حال من الأحوال أن الإسلام يقرها أو يقبل بها.

مجتمع مستهدف، لا بد من تحطيمه من الداخل

وعندما تستتب الأمور لمعاوية في النهاية، ويلتفت إلى ملكه الواسع العريض، فإنه لا بد أن يجد أسبقيات في العمل، يرى أن يضعها أمامه، وفي مقدمتها سد الثغرات التي يرى أنها قد تكون خطراً عليه أو على من سيأتي بعده من أبنائه.

وكان لا بد أن يرى في أهل العراق الخطر الأول، وقد عانى فيما سبق ما عانى منهم، بعد أن ساروا خلف أمير المؤمنين (عليه السلام) لحربه وكانت منهم طليعة عقائدية واسعة لا تزال اعداد كبيرة منها تشكل ثقلًا اجتماعياً ملحوظاً وقد تنمو وتتسع في المستقبل اذا لم تراقب وتلاحق.

كان معاوية يرى أن عليه اخضاع مجتمع العراق هذا، الممثل بمجتمع الكوفة، إما باستمالة بعض عناصره المؤثرة والقوية إلى جانبه أو بضرب وقمع الذين لا يرى أملاً بجعلهم يستجيبون له، كما فعل مع حجر بن عدي الكندي وأصحابه حينما أقدم على قتلهم صبراً، وهي أول بادرة تحصل في الاسلام وفي ظل (الدولة الإسلامية) ضد رعاياها المسلمين، أو باستعمال اشد العمال قسوة ووحشية عليهم، مثل زياد ابن أبيه.

وكان العراقيون -رغم هدوئهم واستجابتهم الظاهرية لمعاوية وعماله- يتوقون لتلك الأيام التي وقفوا فيها خلف أمير المؤمنين (عليه السلام) وعاشوا في ظل دولته العادلة،

ويحنون إليها ويستعيدون السيرة الوضاعة للإمام، ويتطلعون إلى من يسير فيهم سيرته ويأخذهم بعدله واستقامته، وكانوا يتطلعون إلى آله عليه السلام من بعده، مع أنهم قد تخلوا في النهاية عن الإمام الحسن عليه السلام بفعل ضغوط معاوية واغراءاته وخططه. وقد رأينا كيف أنهم راسلوا الحسين عليه السلام ودعوه إلى الثورة على معاوية، إلا أنه لم يستجب لهم في ذلك الوقت لأنهم قد يتخلون عنه كما تخلوا عن أخيه من قبل، بعد أن أصبح معاوية أكثر قوة، ولأن الظروف الموضوعية للثورة لم تكن معدة بعد، ولأن معاوية لو ثار عليه الحسين عليه السلام لما اكتفى بقمع الثورة واستئصال القائمين بها وحسب، وإنما كان سيعمد إلى عرضهم أمام الأمة كخوارج أو ذوي مطامع خاصة ومفرقين لوحدة الأمة وجمعها ولسوء صورهم أمامها بما كان يملك من الوسائل العديدة التي جعلت منه هو نفسه أقرب المقربين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله - بنظر العديد من أبناء الأمة، وفي مقدمتهم أهل الشام - بما افتراه من أحاديث مزورة على لسان الرسول الكريم صلى الله عليه وآله نفسه وبما وضع من أقاصيص وروايات، ودفع للعديد من محترفي الدين والفقه والقصة ليروجوها بين الناس بشكل مقبول ينطلي على السذج والبسطاء منهم، وكان حرياً به أن يعمد إلى خطة من خططه الجهنمية لتشويه ثورة الحسين عليه السلام ضده لو أنه قام بها في عهده.

يد تحمل السيف.. ويد تقدم الرشوة

أسفر معاوية عن وجهه أمام أهل العراق بعد قيامه باغتيال الإمام الحسن عليه السلام بالسم، عندما أبلغهم صراحة أنه لم يكن يقاتلهم ليصوموا أو ليصلوا أو ليحجوا أو ليزكوا وقد علم أنهم كانوا يفعلون ذلك، وإنما قاتلهم ليتأمر عليهم، هكذا نسخ قانون الاسلام ومفهوم الخلافة فيه.

أخبرهم أنه جعل الإمارة الهدف النهائي له، وأراد أن يقر في أذهانهم أنهم إذا ما تحدوا هذه الإمارة ووقفوا في وجهه، فإن عليهم أن يتوقعوا منه حرباً مدمرة، وفي هذه

المرة سترجح كفتته؛ لأنهم الآن بغير قائد بعد تخليهم عن قادتهم الحقيقيين، وكان تصريحه هذا يشكل أكبر تهديدًا وتحدٍّ لهم.

ولم يكن هذا هو الأسلوب الوحيد الذي اتبعه معهم، فقد حاول أن يشق صفوفهم ويفرقهم باستمالة بعضهم إلى جانبه واسترضائهم بالأموال والمناصب والسلطة والجاه، إضافة لأسلوب الارهاب الذي عمد اليه فعلاً.

وربما كان أسلوب الرشوة بالأموال والمناصب هو أنجع الأساليب وأكثرها فائدة بالنسبة له، كما أنه برمييه إياهم بزياد الذي كان محسوباً عليهم فيما مضى ومطلعاً على أمورهم، والذي كان يأخذ الناس على الظن والتَّهمة والشك ويوغل في القتل والدماء والجريمة لأنفهِ سبب، وربما بدون سبب في أغلب الأحيان، والذي أصبح أسطورة يتناقلها الناس، ولعل تهديدات ابن زياد فيما بعد بأنه كان من أشبه الناس بأبيه، وقد تشبه به فعلاً، كان لها أكبر الأثر في القضاء على ثورة مسلم في الكوفة وسُحِبَ الثورة المتجمعة في البصرة، وقد أتيح لمعاوية عن طريق زياد أن يرسى طريقة جديدة للحكم لم يكن يلجأ إليها في الظاهر وهي أسلوب العنف والارهاب والبطش، وتعزيز نظام الشرطة والشرطة السرية (العيون) والعرفاء، ووضعهم كقوة مقابلة لقوة رؤساء القبائل وغيرهم لإقامة موازنة تضمن وقوع الجميع في قبضته وبين يديه، ان وجود هذه القوة الموظفة المستخدمة للدولة وهي قوة الشرطة والعرفاء، تتلقى أجورها منها مباشرة لقاء خدماتها وتنفيذ أوامرها دون مناقشة أو تردد، جعل ولاؤها للدولة ورموزها بشكل غير محدود- فهي قوة مشتراة إذا صح التعبير باعت ولاؤها بثمن محدد قبضته سلفاً وحددت مواعيد ثابتة لقبضه في المستقبل.

إن مركز أفراد هذه القوة تعزز في ظل دولة الظلم والغشم والعسف، وبرز وجودها الطفيلي المتضخم على حساب البنية الاجتماعية السليمة؛ لأن همتها هي حماية مصالح

قيادة الدولة وحسب، مهما كانت اتجاهات هذه القيادة.

وإذا ما أضفنا إلى ذلك أسلوب الرشوة والعطاء الكيفي من قبل السلطة التي استأثرت بكل أموال الأمة، أدركنا إلى أي حد نجح معاوية في تفتيت المجتمع الإسلامي في العراق خاصة وكتبته واخضاعه، في وقت مر فيه هذا المجتمع بتجربة كبيرة مع أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي اغتيل في النهاية وأدى ذلك إلى قيام أكبر مؤامرة على الإسلام انتهت بتولي معاوية شؤون الخلافة.

وربما كان في ذلك خيبة أمل كبيرة لديهم هزت نفوسهم وزعزعت تصوراتهم الصحيحة عن الإسلام نفسه، خصوصاً وأن حملة مأكرة كانت تجري فعلاً لايجاد تصورات جديدة عن معاوية، إذ لم يستطع العديدون منهم ان يفهموا كيف أن عدو الإسلام نفسه هو الذي سيطر على مقدرات الأمة الإسلامية في نهاية المطاف.

توسيع طبقة الهمج الرعاع.. خطوة على طريق سلب الشعور بالمسؤولية

على أن أهم ما لجأ إليه معاوية مع مجتمع العراق، هو أسلوبه الذي اتبعه مع أهل الشام من قبل، وهو عمله على سلب هويته الرسالية وانتائه الحقيقي للإسلام وشعوره بالمسؤولية، وتحويله إلى مجتمع غوغائي متناحر يرتع فيه الجهل والنميمة والغش ومختلف الأمراض الاجتماعية الأخرى الذميمة، وجعله ينصرف عن اهتماماته العليا التي كرسها الإسلام، إلى اهتمامات حياتية هزيلة تتركز بكسب العيش اليومي وفقدان الاهتمام بالأمور العامة وما تقوم به الدولة والقنوع بالسلامة في ظل الجور والظلم والأخذ على التهمة والظن، وفقدان الرغبة في تحري المصادر الصحيحة للعلوم الإسلامية.

لقد كان افراغ المجتمع من شعوره بالمسؤولية في ظل خيبة الأمل التي شعر بها الكثيرون من أبنائه، وهم يرون أبعد الناس عن الإسلام، على رأس السلطة التي تحكم

باسمه، كان ذلك أكبر سلاح استخدمه معاوية للتمادي في جرّ المجتمع إلى المزيد من التناحرات والخلافات وعدم الشعور بالمسؤولية العامة والاهتمام بالأمور الشخصية العادية، وابعاده عن التدخل في سياسة الدولة وشؤونها التي ظلت حكراً عليه دون أن يسمح لأحد أن يناقش أو ينتقد أو يقوم، وقد كان ذلك تكريساً لسياسة الاستعباد التي أضاف إليها من جاء بعد معاوية لمساتهم الشخصية وخبراتهم الخاصة ومهاراتهم لتطويع الناس واخضاعهم، وكانت حصيلتها ازدياد الانحراف لا في مجال السياسة والحكم وحسب، وإنما في كل المجالات الأخرى.

معالم الانحراف وأبطاله : القلوب معك والسيوف مع بني أمية

ان مسألة تحويل المجتمع الاسلامي إلى الشكل الذي أصبح عليه في عهد معاوية ويزيد بعد ذلك ومن جاء بعدهما من (الخلفاء) موضوع لدراسات اجتماعية وتاريخية مفيدة، نستطيع من خلالها وضع أيدينا على الطريقة التي تحول بها المجتمع الاسلامي إلى مجتمع لا يحمل مواصفات الأمة المسلمة الأولى ومقوماتها.

وقد شخّص أمير المؤمنين (عليه السلام) الحال الذي أوصل معاوية أهل الشام إليه، وقد رأى ببصيرته الصادقة أنه سيستمر في نهجه لتحويل الأمة كلها عبداً واتباعاً للدولة التي يعمل على تأسيسها «وأيّم الله لتجدن بني أمية لكم أرباب سوء بعدي، كالناب الضروس... لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم الا نافعاً لهم أو غير ضائر بهم. ولا يزال بلاؤهم، حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم الا كانتصار العبد من ربه والصاحب من مستصعبه، ترد عليكم فتنتهم شوءاء مخشية، وقطعاً جاهلية، ليس فيها منار هدى ولا علم يرى...»^(١).

(١) نهج البلاغة: ص ٢٣٥.

«والله لا يزالون حتى لا يدعوا الله محرماً الا استحلوه، ولا عقداً الا حلّوه، وحتى لا يبقى بيت مدرٍ ولا وبر الا دخله ظلمهم ونبا به سوء رعيهم، وحتى يقوم الباكيان، يبكيان، باك يبكي لدينه، وباك يبكي لدنياه، وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده، إذا شهد اطاعه، وإذا غاب اغتابه... أعظمكم فيها غناء أحسنكم بالله ظناً»^(١).

ولم يكن ما قاله الإمام (عليه السلام) رجماً بالغيب، وإنما جاء تأكيده على أن الأمة ستشهد تلك الأوضاع المأساوية كنتيجة حتمية لاستسلامها ووقوعها فريسة ولقمة سائغة بين يدي معاوية، ونتيجة تخليها عن رسالتها ومبدئها، وسوف نرى مصداق وصف الإمام (عليه السلام) لهذا المجتمع عندما نتمعن فيه وندرسه خلال الفترة التي بدأت من دخول مسلم الكوفة واستمرت الى مجيء الإمام الحسين (عليه السلام) ومقتله في كربلاء، إذ سترز أماننا العديد من اللوحات المحزنة التي ترينا الحال السيئة التي وصل إليها الناس، رغم رغبتهم تخطي هذه الحال، إلا أن عجزهم عن ذلك يشير إلى عمق الهوة التي تردوا فيها وما عادوا يشعرون بالقدرة على التخلص منها...

ولعل تلك الحال المتذبذبة بين الرغبة في النهوض بين يدي إمام الامة لإكمال شوط المسيرة الاسلامية الصحيح، وبين التخاذل عند ظهور بواذر الشدة الأموية، هي التي جعلت الفرزدق الشاعر يصف أهل الكوفة للحسين (عليه السلام) بقوله:

«القلوب معك والسيوف مع بني أمية»^(٢)

وجعلت مجمع بن عبد الله العامري يقول:

(١) نهج البلاغة: ص ٢٤١ - ٢٤٢.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٦، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٠٩ والبداية والنهاية: ج ٨ ص ١٦٩.

«وأما سائر الناس فإن قلوبهم تهوي اليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك»^(١).

إلى غير ذلك من الأقوال المشابهة التي تؤكد هذا المعنى.

فقد كانت الايدي التي تمسك هذه السيوف ضعيفة لا تملك إلا أن تكون بمستوى القلوب الضعيفة التي فقدت حماسها وقدرتها على الصمود وشعورها بالمسؤولية الرسالية تجاه الأمة وحرصها وغيرها على الدين الذي حاربت من أجله ورأته في النهاية رهينة بيد الطغمة التي ناوأته قبل ذلك وشنت عليه الحرب.

أهداف دولة الظلم: الفئة الجاهلة، الفئة الأوسع

وبدا واضحاً، أن من أهداف دولة الظلم الأموية الأساسية إيصال الاعداد الغفيرة من أبناء المجتمع الاسلامي -لا في العراق وحده، وإنما في كل أقطار الإسلام- إلى حال تصنف فيه ضمن الفئة الثالثة من عناصر المجتمع التي وصفها أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «الناس ثلاثة، فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجا وهمج رعا، اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق»^(٢).

فهؤلاء ليس لهم من العلم أو قوة المبدأ ما يمكن أن يعصمهم من التأثير السريع بمختلف التيارات والقوى الموجودة على الساحة والتي يمكن أن تتلاعب بهم وتوجههم وفق أهوائها ومصالحها، انهم كتلة بشرية واسعة تكمن قوتها باجتماعها، فهم -على حد تعبير أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً- «إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرقوا لم يعرفوا»^(٣).

فهم كقطع من الأنعام، متشابه الملامح والتصرفات والأشكال، وسلوك أي

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٨.

(٢) نهج البلاغة: ص ٦٩١ ومروج الذهب: ج ٣ ص ٤٣.

(٣) نهج البلاغة: ص ٧١٢.

واحد منهم مرهون بسلوك القطيع كله، وإذا ما اجتمعوا شكلوا موجة قوية قد لا تقف أمامها أي قوة أخرى، ولأنهم لم يتميزوا بعلم أو بجاه أو مركز اجتماعي، فلا يكاد المرء يعنى بالتعرف على أي منهم، ولا يكاد يميز اشكاكهم المتكررة المعادة التي لا يجد علامة مميزة لتذكرها.

ان أي واحد منهم بمفرده قد لا يثير الانتباه بموهبة أو علم أو فن أو صنعة نادرة أو أدب رفيع.. كل فرد منهم يشكل عنصراً من عناصر المجتمع، يتأثر ولا يؤثر ولا يبدع أو يفكر الا في حدود حياته والتزاماته اليومية البسيطة المتكررة أيضاً.. ومن هنا جاء وصف الرسول الكريم ﷺ لهم بأنهم «... لا يعبا الله بهم»^(١).

وقد لفتت مبادرة معاوية ومحاولاته لتوسيع هذه الفئة الجاهلة في أهل الشام وجعلها الفئة الأوسع، على حساب تقليص الفئة العالمة والواعية من المجتمع، نظر المؤرخ الكبير، المسعودي، فذكر لنا الأثر الذي تركه فيهم معاوية في النهاية ونجاحه بجعلهم ينظرون إليه كأعظم شخصية بعد رسول الله ﷺ، وجعله في مركز الضوء والاشعاع الوحيد الذي يمكن أن تتجه إليه الأنظار وترمقه باحترام كبير كبديل طبيعي للرسول ﷺ...

«ثم تدبر تفرقهم في أحوالهم ومذاهبهم، فانظر إلى اجتماع ملئهم عليه، ان رسول الله ﷺ أقام يدعو الخلق إلى الله اثنتين وعشرين سنة، وهو ينزل عليه الوحي، ويمليه على أصحابه فيكتبونه ويدونونه ويلتقطونه لفظة لفظة، وكان معاوية في هذه المدة بحيث علم الله - ثم كتب له ﷺ قبل وفاته بشهور، فشادوا بذكره، ورفعوا من منزلته بأن جعلوه كاتباً للوحي، وعظموه بهذا، وأضافوه إليها، وسلبوها عن غيره، واسقطوا ذكر

سواه..»^(١) وهو أمر جند له معاوية قوى كبيرة ووظف له كل إمكانات الدولة... حتى امتد تأثيره على أجيال لاحقة من المبهورين المفرغين المجردين من كل كفاءة ووعي؛ لأن من قاموا بتلك الحملة الاعلامية كان لهم أيضاً تأثير وشهرة وبريق، وكان ينبغي أن يكون لهم ذلك لينجحوا في حملة الدعوة لمعاوية باعتباره أكبر شخصية بعد رسول الله ﷺ حسب ما رَوَّجوا له.

لقد أراد معاوية أن يجعل من أهل الشام النموذج الشائع المطلوب - كما رأينا من قبل - وقد أشاد بهم مراراً باعتبار «أن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذين عن بيضته التاركين لمحارمه»^(٢).

وأراد بالمقابل التقليل من شأن أعدائهم التقليديين في ذلك الحين، وهم أهل العراق، وقد عاب عليهم سيرهم خلف أمير المؤمنين (عليه السلام)، وكان بذلك يريد أن ينحازوا اليه كلية كأهل الشام ويكونوا مثلهم في غفلتهم وجهلهم، وعندها فقط سينالون رضاه بعد أن يشكلهم بالصورة التي يريد ومع أنه لم يعلن ذلك صراحة، إلا أنه كان غالباً ما يصفهم وقد وقفوا ضده بـ«المتهكين لمحارم الله، والمحلين ما حرّم الله، والمحرمين ما أحلّ الله..»^(٣) وماذا يمكن أن يقول عنهم غير ذلك وهم لم يستجيبوا له، وقد تمردوا على سلطته، حتى بعد أن ملك وتمكن.

وماذا يمكن أن يقوله عن أمير المؤمنين (عليه السلام) نفسه بعد أن قرر اتخاذ أسلوب السباب المباشر ضده..؟ هل كان يمكن أن يقول هذا عليّ كما وصفه الرسول الكريم ﷺ والكتاب المجيد وأشاداً به، ومع ذلك فأنا أسبه وأمر بسبه؟ أم أنه كان سيلجأ إلى حملة

(١) مروج الذهب: ج ٣ ص ٤٣.

(٢) مروج الذهب: ج ٣ ص ٥٥.

(٣) مروج الذهب: ج ٣ ص ٥٥.

شديدة من التزوير والتلفيق بحقه ليظهره بمظهر المستحق لهذا السباب الذي جعله جزءاً من فروض عبادة أهل الشام وغيرهم؟

لقد كان يدرك أن بين صفوف أهل العراق من يكنُّ الحقد والعداوة والكراهية لهذا النمط الفرعوني الجديد من الحكم بزعامتة، استقلالية هؤلاء، وعدم تأثرهم بالأعباء وميلهم للنقد البناء وصحواتهم المتكررة بعد أن أدركوا اخطاء مجتمعهم الذي كان يساق لتبني مواقف الظلم والذي كان يجر إلى مهاوي الانحراف، جعلت معاوية يدرك أن عوامل الصحوة موجودة دائماً يمكن أن تثيرهم وتحفزهم ضده.

كان مجتمع الكوفة مجتمعاً مفتوحاً لم يتلق الاسلام عن طريق معاوية وحزبه وشيعته، ولم ينظر إليه بمنظاره وعينيه، وقد سنحت له فرصة القرب من أمير المؤمنين عليه السلام ورأوا فيه ما لم يروا في غيره ولم تستطع الدعايات المضللة أن تغشهم بشأنه، رأوا فيه صورة واضحة للإسلام نفسه، وناطقاً حقيقياً باسمه، ومجسداً لتعاليمه وأحكامه ومبادئه، ومطبّقاً عادلاً لقوانينه.

كما أنهم رأوا معاوية في صورته الحقيقية أيضاً، والتي لم يرسمها بريشته هو، لهم، بل بالصورة التي كان يبدو عليها فعلاً.

كما كان معاوية يحسب الف حساب لأهل العراق (وشرهم) واجتماعهم، وربما صح عنه ما قاله في وصيته ليزيد بشأنهم قبيل موته.

«وانظر أهل العراق، فإن سألوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إليّ من أن تشهر عليك مائة الف سيف»^(١).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٦٥، وقال له بشأن أهل الشام أيضاً «.. وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم..» ويبدو من كلامه أنه كان يريد عزلهم وعدم تواصلهم

شجاعة، أم معرفة بواقع حال الخصوم!

لقد نجح معاوية في تفريق هذه السيوف، وجعلها تضرب بعضها الآخر، وكان وضع هذا المجتمع العراقي في الكوفة الذي لا يحسد عليه بعد مقتل أمير المؤمنين (ع) نتيجة لدأب معاوية وزياد وسعيهما المستمر لتفتيته واضعافه وتفرقة أبنائه إلى الحلد الذي أصبح فيه يتخاذل لتهديدات مجردة من عبيد الله بن زياد، وقد جاء وحيداً إلى الكوفة بعد وفود مسلم إليها، الا من بضعة أفراد تساقط معظمهم في الطريق.

ولو نظرنا إلى ابن زياد عند قدومه إلى الكوفة وعمله فيها، من الزاوية التي نظر بها يزيد إليه، لرأينا أنه كان يتمتع بقدر كبير من الشجاعة والجرأة ممّا أتاح له التغلب على أهل الكوفة بأجمعهم، غير أننا متى ما درسنا أوضاع الطرف الآخر، وهم أهل الكوفة أنفسهم، علمنا أنه كان يدرك أن شجاعته وجرأته ما كانتا لتجديا وتنسجما، ولما كان قد لجأ إليهما أصلاً وربما لم يفد إلى الكوفة نهائياً، لو لم يكن يعرف حال أهل الكوفة بعد تطويعهم وترويضهم واخضاعهم - من قبل أسلافه - وجعل العناصر القوية المتنقذة أداة بيد النظام الحاكم الذي كان يعتبر هو أحد دعائمه الرئيسية.

وقد رأينا كيف أنه أسقط في يده وانهارت شجاعته التي كان يتظاهر بها عندما أنبأه هانىء بقوة المعارضة الموجودة في الكوفة، وكاد يستسلم له عندما وعده بالأمان، لولا أن استنهضه مهران مولاه، وشجعه على عدم التخاذل أو التنازل، وكيف أنه - في المرة الثانية - عندما حوَصر من قبل مسلم في القصر، قد استوحش وخاف وطلب من الأشراف البقاء معه... كما أن له مواقف أخرى رأى فيها أن الهزيمة أسلم له.. كما فعل عند هربه من البصرة فيما بعد.

الكوفة.. المدينة المعسكر... الخليط المتنافر

ومن المهم عند الحديث عن مجتمع الكوفة الذي يمثل أكبر شريحة من أهل العراق أن نشير هنا إلى أن هذه المدينة التي ضمت هذا المجتمع كانت حديثة التكوين نسبياً، فقد بدأ الشروع بتخطيطها وإنشائها سنة ١٧هـ أو قبيلها بقليل، فعمرها لم يتجاوز ٤٣ سنة إلا بقليل عند وقوع أحداث الثورة.

وتمتاز الكوفة التي تقع على الفرات على أرض زراعية خصبة، عن المدائن بخلوها من الذباب والغبار والبعوض وتكاد تكون منزلاً برياً بحرياً.

وقد اختطها سعد بن أبي وقاص إثر معركة القادسية وانتصار المسلمين، وقد أريد لها أن تكون حامية ومقرّاً لجيش المسلمين الذي اتسع بشكل ملحوظ أثر تلك المعركة الكبيرة التي شجعت الكثيرين فيما بعد على الالتحاق بقوى الفتوحات لما أفاء الله على الجيش المنتصر من أموال ومكاسب، حتى قيل ان نصيب الجندي الواحد من فيء المدائن بلغ اثني عشر ألفاً^(١).

بدأ بناؤها بالقصب ثم باللبن على أثر حريق شب في مجموعة من بيوتها، فلما «أذن للناس بالبناء، نقل الناس أبوابهم من المدائن إلى الكوفة فعلقوها على ما بنوا وأوطنوا الكوفة»^(٢) وكانت سعة طرقها «أربعين ذراعاً، وما يليها ثلاثين ذراعاً، وما بين ذلك عشرين، وبالأزقة سبع أذرع، وفي القطائع ستين ذراعاً»^(٣).

(١) طبقات ابن سعد، ج ٦ ص ٤ ومختصر كتاب البلدان: ص ١٦٦ وفي الطبري ج ٢ ص ٤٦٦ «فقسم سعد الفيء بين الناس بعد ما خمسّه، فأصاب الفارس اثنا عشر ألفاً، وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل».

(٢) الطبري: ج ٢ ص ٤٨٢.

(٣) الطبري: ج ٢ ص ٤٧٩.

وقد خط سعد المسجد في البداية ثم بنى قصر الكوفة الذي كان يدعى قصر سعد، من بقية أبنية الأكاسرة في الحيرة.

ومن المعلوم أن أمير المؤمنين (ع) رفض النزول به عند مقدمه الكوفة واتخاذها عاصمة الدولة الإسلامية.

وقد أعاد زياد بناء المسجد والقصر فيما بعد.

وخلال الفترة الممتدة بين سنة ١٧هـ وحتى سنة ٦١هـ أصبحت الكوفة أكبر مدينة إسلامية يسكنها خليط كبير من الناس من مختلف الاجناس والديانات.. وكانت تشرف على طريقين رئيسيين يمتد أحدهما حتى أذربيجان مروراً بخراسان والسند وما وراء النهر ويمتد الثاني حتى الساحل الهندي مروراً بالبصرة والخليج وسرنديب (سيريلانكا)...

وقد تضاربت التقديرات في عدد سكان الكوفة وضواحيها وتوابعها، وتراوح بين تسعة ملايين وأربعة ملايين...

وإذا ما علمنا أن الكوفة قد أصبحت مركزاً لجيش المسلمين الثري والواسع أدرنا السبب الذي جعل سواهم من غير المسلمين من المسيحيين واليهود وغيرهم يستوطنون تلك المدينة المهمة، فبريق الذهب الذي كان يتدفق عليها كان له أثره البالغ عليهم..

وهذا هو السبب نفسه الذي جعل أهل البلدان المفتوحة يفدون إليها بعد وصول المسلمين إليهم ودخول أعداد كبيرة منهم في الاسلام، لتشابك المصالح وفتح الطرق.

اختلاط جميع هؤلاء وهم من الأغلبية المسلمة في مدينة واحدة (الكوفة) لم يكن مألوفاً من قبل، وقد سكن الكوفة في البداية الجيش الإسلامي إثر معركة القادسية، وكان أفراد ذلك الجيش ينتمون إلى مختلف القبائل العربية التي كان أغلبها من اليمن

وقد ذكر أن عدد أهل اليمن بلغ اثني عشر ألفاً من قبائل قضاة وغسان وبجيلة وخنعم وكندة وحضر موت والازد ومذحج وحمير وهمدان والنخع... وكان عدد أفراد القبائل العدنانية التي تضم تيمناً وبني العصر ثمانية آلاف، أما بنو بكر، وهم بنو أسد وغطفان ومحارب ونمير فكانوا أقل منهم عدداً.

ونستطيع القول إن شرائح واسعة من كل قبيلة عربية حتى في أقصى الجزيرة ومن كل مكان من الدولة الإسلامية قد استوطنوا الكوفة.

كما أن جيش سعد ضم عناصر كثيرة من أصحاب رسول الله ﷺ وحتى من أولئك الذين شاركوا في معركة بدر^(١).

كانت طبيعة تنظيم المدينة لغرض التعبئة والعطاء والاحصاء تقتضي أن يجتمع أفراد القبيلة الواحدة مع بعضهم ومع أقرب القبائل اليهم ومع أحلافهم، فكان هناك شعور بالانتماء القبلي ربما طغى على ما عداه في خضم ذلك المحيط الواسع من الناس وخصوصاً في ظل الدولة الأموية التي عاملتهم على أساس مواقفهم من معاوية أيام حكم أمير المؤمنين (عليه السلام)، ولم تقف منهم موقفاً عادلاً منذ البداية.

وقد حاول سعد في البداية تقسيم المجتمع الكوفي المستحدث إلى أسباع يضم كل واحد منها مجموعة من القبائل المتقاربة والحليفة بعد الاستعانة بذوي الخبرة من نساب العرب وذوي رأيهم وخبرائهم، وهذا ما يوضحه الطبري:

«فصارت كنانة وحلفاؤها من الأحابيش وغيرهم وجديله سبعاً

(١) سكن الكوفة سبعون بدرياً وثلثمائة من أصحاب الشجرة، ترجم ابن سعد حياة مائة وخمسين منهم - طبقات ابن سعد: ج ٦/ ٤ - ٤٣، وكان في جيش سعد «بضعة وسبعون بدرياً، وثلثمائة وبضعة عشر ممن كانت له صحبة، فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك، وثلثمائة ممن شهد الفتح وسبعائة من أبناء الصحابة، في جميع أحياء العرب» الطبري: ج ٢ ص ٣٨٦.

وصارت قضاة وبجيلة وخنثعم وكندة وحضر موت والأزد سبعاً

وصارت مذحج وحير وهمدان وحلفاؤهم سبعاً

وصارت تميم وسائر الرباب وهوازن سبعاً

وصارت أسد وغطفان ومحارب والنمر وضبيعة وتغلب سبعاً

وصارت اياد وعك وعبد القيس وأهل هجر والحمراء سبعاً^(١).

وقد استمر هذا التقسيم حتى أيام زياد ابن أبيه حيث عمد إلى نظام آخر يجعله أكثر قدرة على السيطرة على الكوفة وهو نظام الأرباع، ولعل تطور الأوضاع فيما بعد لصالح الامويين وامتلاكهم القوة والنفوذ جعل زياداً يطور التشكيلة الادارية لصالح الدولة ويطور نظام العرافة مقابل النظام القبلي لاقامة توازن يتيح له السيطرة التامة على الجميع.

فقد جعل زياد الربع الأول من أهل المدينة وعليهم عمرو بن حريث، والربع الثاني من تميم وهمدان وعليهم خالد بن عرفطة، والربع الثالث من ربيعة بكر وكندة وعليهم قيس بن الوليد بن عبد شمس والربع الرابع من مذحج وأسد وعليهم أبو بردة بن أبي موسى^(٢).

والأمر الذي أكد عليه زياد هو جعل رؤساء هذه التجمعات من المواليين للدولة المندفعين لتنفيذ أوامرها دون نقاش أو تردد، وقد شارك قسم منهم في مذبحه الطف فيما بعد.

ولأن أعداد ممن سكن الكوفة من القبائل كانت كبيرة، ولم يكن سكنهم قد تم

(١) الطبري: ج ٢ ص ٤٨١.

(٢) خطط الكوفة: ص ١٥ - ١٦.

بشكل تدريجي بطيء، فكان لا بد من استحداث نظام يتيح لمسؤول السلطة التعرف على أحوالهم وتنظيم عطائهم.

وفي زمن سعد تم إعادة تعريف الناس، وقد روي عن عطية بن الحارث قوله «أدركت مائة عريف... كان العطاء يدفع إلى أمراء الاسباع وأصحاب الرايات، والرايات على أيادي العرب، فيدفعونه إلى العرفاء والنقباء والأمناء، فيدفعونه إلى أهله في دورهم»^(١) وقد توسعت مهمات العرفاء وامتدت لتشمل ندب الناس للقتال والقيام بتسجيل المواليد الجدد والوفيات والاخبار عن المتخلفين عن القتال إلى غير ذلك من المهمات الأخرى.

وقد استعان العرب المسلمون في بداية أمرهم بذوي الخبرة من ذوي الأديان والأجناس الأخرى، فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أصحاب ثغور الكوفة وهي حلوان وماسبذان وقرقيسياء والموصل «أن يستعينوا بمن احتاجوا إليه من الأساورة ويرفعوا عنهم الجزاء»^(٢) وكان الأمر نفسه بالنسبة للكوفة أيضاً، ومن المعلوم ان أناساً من الحمراء استجابوا للمسلمين فأعانوهم أسلم بعضهم قبل القتال وأسلم بعضهم غباً القتال^(٣).

وقد تمت أكبر عملية مصاهرة في التاريخ بين القبائل التي استوطنت الكوفة من جهة وبينهم وبين أهل السواد من الكتائبين من جهة أخرى «كان في النخع سبعمائة امرأة فارغة وفي بجيلة ألف فصاهر هؤلاء ألف من أحياء العرب وهؤلاء سبعمائة

(١) الطبري: ج ٢ ص ٤٨٢.

(٢) الطبري: ج ٢ ص ٤٨٢.

(٣) الطبري: ج ٢ ص ٣٩٨.

وكانت النخع تسمى أصهار المهاجرين وبجيلة..^(١).

وقد روى عن مسلم مولى حذيفة قوله: «تزوج المهاجرون والأنصار في أهل السواد يعني في أهل الكتائبين منهم»^(٢).

ملاحظات عن مجتمع الكوفة

ولسنا نؤرخ للكوفة هنا، غير أننا نستعرض حالة المجتمع الكوفي ممثل المجتمع العراقي بالقدر الذي يفيدنا بهذه الدراسة...

ويستطيع الباحث الدارس أن يرى جملة من الملاحظات حول هذا المجتمع الجديد، في فترة الأحداث المهمة في العصر الأموي، التي كانت الكوفة مسرحاً لها، ومن أهم هذه الملاحظات:

مجتمع مستحدث

١- ان مجتمع الكوفة مجتمع مستحدث يضم اخلاطاً من الناس من مختلف الأجناس والأديان والانحدارات والبيئات، وفي مجتمع كهذا، فارق كل واحد من أبنائه بيئته الأصلية بعد ارتباطه بها ارتباطاً عاطفياً وشعورياً قديماً، يجد هؤلاء صعوبة في التطبع مع (الغرباء) من أبناء القبائل والاجناس الأخرى الذين جمعتهم معهم وحدة الانتماء العسكري بعد القادسية وانشاء الكوفة لتكون حامية للجند ومركز القوة الضاربة لجيش الإسلام.

وليس من الهين على من اعتادوا حياة البداوة وجو الصحراء المفتوح الفسيح ومع أشخاص على شاكلتهم وطباعهم أن ينسجموا مع (أغراب)، حتى وان كانوا من

(١) الطبري: ج ٢ ص ٤٣٣.

(٢) الطبري: ج ٢ ص ٤٣٧.

قبيلتهم أو قبائل قريبة لهم ضمن دور محدودة المساحة وشوارع وأزقة لا يستطيعون النفاذ إلى العالم إلا من خلالها.

ولا بد أن يولد الاختلاط الواسع شعوراً بعدم الراحة أو الاطمئنان والشعور بالغربة والحرص على السلامة الشخصية والمكسب الشخصي والتحفز حيال الآخرين، واعتماد بعض قيم العصبية البالية بشكل ملحوظ، مما يؤلّد بالتالي بعض المشاكل والصعوبات تزداد بمرور الزمن.

ان تعايش كل انماط الحياة الغربية عن بعضها في جو واحد وبشكل مفاجيء وبسرعة قياسية من شأنه أن يخلق مجتمعاً لا متممياً في النهاية.

وقد سبق القول أن أمير المؤمنين (عليه السلام) أراد أن يجعل من مجتمع الكوفة -الذي ضم صفوفه مقاتلي الاسلام في البداية- معسكراً دائماً لطلائع الإسلام ومحاربيه الاصلاء، ويقف بهم بمواجهة التيارات التي أعلنت الحرب على الإسلام مع أنها أعلنت الانضمام اليه وتلك التي حسبت ان مصالحها سوف تتضرر في ظلّ دولة الاسلام العادلة.

ويبدو أن أعداءه أدركوا السبب الذي جعله يغادر المدينة، حيث مقر الأحزاب القرشية والقوى المتصارعة الأخرى التي تسلل قسم منها واتخذ له مناطق نفوذ في أماكن أخرى من الدولة الاسلامية كالشام مثلاً، وعلموا أنه إذا ما نجح بتجميع أولئك المقاتلين الأوائل وأبنائهم ومن سيلحق بهم فإن ذلك سيشكل أكبر نكسة يمكن أن تحل بهم ولن يستطيعوا النهوض بعدها.

وهكذا كان تركيز معاوية والحزب القرشي المعادي للإسلام موجهاً بشكل متوازن لتحقيق أمرين:

أ- تفتيت مجتمع الكوفة كتجمع إسلامي يشكل قوة ضاربة سريعة مستعدة في

أي وقت للإنتصار للإسلام ورفد حملات الفتح ونشر الدعوة، وجعله مجرد تجمع قبلي يفكر كل فرد فيه بنفسه وسلامته الشخصية وقبيلته كحامٍ أول له، وكان سعي معاوية بهذا الاتجاه بارزاً وواضحاً واتخذ أساليب متعددة.

ب- إنشاء مجتمع موحد الأهداف والنظرات غير أنه بعيد عن الإسلام، وجعل القوة الضاربة الأساسية المتمثلة بالجيش من بين أبنائه، ليتم بهم لا مجرد توسيع الفتوح- التي لا بد أن أهدافها تختلف عن أهداف سابقاتها وإنما ضرب أية حركة أو تمرد أو عصيان أو معارضة، وقد نجح معاوية بذلك إلى أبعد حد، وأصبح الجيش قوة أسطورية في شراسته وأساليبه غير المشروعة، يخيفون به كل من أقدم على معارضتهم برأي أو فعل.

وكان مجرد التلويح به لأهل الكوفة بعد القضاء على ثورة مسلم كافياً لارهاب الناس وجعلهم ينكمشون ويتراجعون ويحلّون بين مسلم وعدوه.

مجتمع الشك

٢- ان مجتمع الكوفة مجتمع يقظ؛ لأنه يعيش في جو متحرك وأحداث متسارعة ومتغيرات، ولأنه يشكل طليعة مقاتلي الاسلام ومنهم من شارك في عدة حروب حتى منذ عهد رسول الله ﷺ في بدر وغيرها وانتهاء بالقادسية، ولأن فيه أبناء المقاتلين الذين استشهدوا في سبيل الإسلام وعوائلهم. وكانوا يرون لأنفسهم حقاً لأنهم في مقدمة المضحين.

من هنا، إن أي حدث ما كان ليمر أمامهم مهما كان بسيطاً دون أن يتناولوه من زوايا عديدة ووفق وجهات نظر معينة، فمجتمعهم ليس مجتمعاً راكداً متجانساً يدين بالولاء لشخص معين أو طائفة معينة، حتى تمر عليه الأحداث وتمرّر عليه الخطط دون

أن يحرك ساكناً.

وكان الشك والحذر أحد الأمور الرئيسية التي طبعته بطابعها، وهكذا وصل الأمر به إلى التشكيك حتى ببعض مواقف أمير المؤمنين عليه السلام نفسه، بعد أن استطاع معاوية -مع أركان حزبه- أن يلعبوا لعبتهم الماكرة في (التحكيم)، مما جعل هذا المجتمع ينشق بشكل نهائي وتبرز فيه جماعة (الخوارج) المتعصبة التي تأخذ بظاهر الكتاب وتفسره على هواها.

وحتى بعد القضاء على الموجة الأولى منهم، بيد أمير المؤمنين عليه السلام اتسع الشق بين أقارب هؤلاء وعوائلهم وقبائلهم الذين كانوا ضمن جيش الامام، وأصبحوا مستهدفين بعد ذلك لأكبر حملة اعلامية مظلمة بقيادة معاوية والرتل الخامس (المخبرين والعملاء) من أتباعه في الكوفة نفسها.

ان الكوفيين -وقد رأوا أنهم كانوا في مقدمة المضحين، ثم فاز بالمكاسب من لم يكن قد قدم ما قدموا، ووصل الأمر إلى حد اضطهادهم وإيقاع الظلم والأذى بهم- أحسوا بإحباط شديد نتيجة ذلك، جعل الكثيرين منهم، يتوسلون بنفس الوسائل المصلحية التي توسل بها أعداؤهم لضمان مصالحهم أو لحماية أنفسهم على الأقل.

الكوفة ودولة الظلم.. استغلال العطاء والرواتب

٣- تشكل علاقة هذا المجتمع - من الناحية المعيشية - بالدولة أمراً مهماً، فرواتب المقاتلين وعوائلهم تستلم بشكل مباشر عن طريق عرفاء وأمناء ونقباء تعينهم الدولة لهذا الغرض، فهم يرون فيها الممول الأول بل الوحيد لهم وهي مصدر رزقهم الأساسي، ولعلمهم في ظل دولة إسلامية عادلة كدولة أمير المؤمنين عليه السلام لا يخشون غبناً أو حيفاً، ويبقى هم بعضهم في التحايل على الخروج للقتال وتثبيت الدولة وحمايتها من أعدائها.

غير أن دولة الظلم الأموي التي استأثرت بواردات الأمة الإسلامية وتصرفت بها بشكل كيفي يضمن لها بالدرجة الأولى تثبيت أركانها ودعائمها وشراء من تتوسم فيه النفع لها أو تدفع ضرره عنها، قد تلاعبت بالعطاء وحرمت منه الكثيرين بمرور الزمن وفُرقت فيه بين الناس لأسباب وأعذار شتى.

وكان ذلك مصدر تهديد مستمر للجميع إذا ما لاحت بادرة من بوارد الخلاف والمعارضة، وكان مجرد التلويح بذلك يجعل الكثيرين ممن يرون في العطاء مصدر رزقهم الوحيد ينحنون ويتراجعون ويسكتون عن كل الانتهاكات والخروج المتعمد والانحراف عن الإسلام.

وأفضل مثال على هذا تلويح ابن زياد وأتباعه من (الاشراف) بهذا الأمر الذي أدّى إلى تراجع العديدين عن نصرة مسلم أو الالتحاق بالحسين (عليه السلام) تحت وطأة شعورهم بأن ابن زياد سينفذ تهديداته فعلاً؛ لأن سوابق الدولة بهذا الشأن عديدة ومتنوعة.

الموالي.. القوة المتنامية

٤- كان الذين دخلوا الاسلام من غير العرب -وخصوصاً من الفرس حتى قبل معركة القادسية نفسها- يشكلون أعداداً كبيرة، ورغم اسلامهم وارتباطهم بعلاقات قري ومصاهرة مع القبائل العربية، فإن الدولة الأموية رأت فيهم خطراً عليها؛ لأن مجاميع كبيرة منهم عاشت في ظل عدالة أمير المؤمنين (عليه السلام)، وربما كانت تميل إليه، وقد أصبحوا بعد ذلك مضطهدين في أيام معاوية، الذي فكر حتى باستئصالهم وقتل نصفهم وترك النصف الباقي للزراعة والمهن والطرق إلا أنه عدل عن ذلك فيما بعد.

فقد روي عن زياد ان معاوية دعا «الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال: إني رأيت هذه الحمراء قد كثرت، وأراها قد طعنت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم

على العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق، فما ترون؟ فقال الأحنف: أرى أن نفسي لا تطيب، أخي لأمي وخالي ومولاي، وقد شاركناهم وشاركونا في النسب، فظننت أني قد قتلت عنهم - واطرق - فقال سمرة ابن جندب: اجعلها إليّ أيها الأمير، فأنا أتولى ذلك منهم وأبلغ منه - قال: فقوموا حتى انظر في هذا الأمر - قال الأحنف: فقمنا عنه وأنا خائف، وأتيت أهلي حزيناً، فلما كان بالغداة أرسل إلي، فعلمت أنه أخذ برأيي وترك رأي سمرة^(١).

وإذا ما أدركنا أن زياد ابن أبيه كان ينتمي إليهم بحكم تربية (عبيد) له، وأنه ألحق فيما بعد بأبي سفيان، أدركنا أيضاً أنه كان يريد تبييض صفحته وإعلان براءته وبعده عنهم بشن حملة ظالمة عليهم.

كان الموالي أو الحمراء ينتمون إلى مجتمعات ذات حضارة مهنية - إذا صح التعبير - ويختلفون عن عرب الجزيرة الذين أتيح لهم بالتالي الإختلاط بهم وأخذ الكثير من الأمور عنهم، وهذا ما جعل الدولة الأموية التي غالباً ما تنهج نهجاً منحازاً للعرب وقريش، لأمور سياسية بحتة وليس حباً في العرب ولا قريش تخشى منهم لأنهم أصبحوا قوة مؤثرة لكنها مضطهدة في عصرها وربما وقفت مع قوى المعارضة العربية ضدها وهذا ما فعلته بعد ذلك في العديد من الاحداث.

استقطاب قوى التأثير

٥- ركز الحكم الأموي على استقطاب قوى التأثير من زعماء القبائل وغيرهم، وحاول معاوية - منذ أيام أمير المؤمنين (ع) - مراسلة بعضهم واستمالتهم بالأموال والوعود بالمراكز والجاه في ظل دولته إذا ما استتب الأمر له.

(١) العقد الفريد: ج ٣ ص ٣٦١.

وقد رأينا أن العديدين منهم استجابوا له منذ ذلك الحين كالاشعث بن قيس وكان لهم دور بارز في مهزلة التحكيم التي أجبروا أمير المؤمنين عليه السلام فيها على الاستجابة لطلب معاوية للتحكيم بعد رفع المصاحف، وحرصوا بعض قصيري النظر من الخوارج وغيرهم لتمرير المخططات الشريرة كما كان للعديد منهم الدور البارز بجعل الناس تتخلى عن الامام الحسن عليه السلام، ثم عن مسلم (رضوان الله تعالى عليه) والحسين عليه السلام فيما بعد.

ان (الاشراف)، كموقع اجتماعي يشكلون -إذا ما كانوا دون أي خلفيّة رسالية- خطراً على الأمة ككل؛ لأنهم في هذه الحالة لا يرون أمامهم الا مصالحهم وامتيازاتهم المتعلقة بمصالح ساداتهم وكبرائهم وحكامهم، أنهم يرون أن حياتهم مرهونة بحياة أولئك الأسياد، فينحازون إليهم ضد أي طرف قد يرون فيه خطراً على هؤلاء الأسياد؛ لأنّ الخطر قد يكون عليهم هم أنفسهم.

إنهم على امتداد التاريخ يقفون سنداً لفرعون ومطامع فرعون ورغبات فرعون ويزينون له كل أعماله، ويعرضونها على الناس على أنها الشيء الصحيح الوحيد الذي كان عليه القيام به.

وقد رأينا دور هؤلاء الكبير في الإلتفاف حول ابن زياد حين قدومه إلى الكوفة، وكانوا قبلها قد أحنوا رؤوسهم أمام ثورة مسلم، ثم دورهم الكبير في تخذيل الناس عنه ولجؤهم إلى أسلوب التهديد بجيش الشام وقطع العطاء عنهم، وكان لذلك أثره حينما رأى الناس أن زعماءهم قد تخلوا عنهم وانقادوا لابن زياد دون تحفظ.

علماً أننا رأينا نمطاً مغايراً من هؤلاء الاشراف، نمطاً رسالياً يراي امامه إلا الاسلام، ورأى أن حياة الأمة كلها رهينة بوجود الاسلام وازدهاره ونقائه.

وقد عمد ابن زياد إلى سجنهم وقتل البعض الآخر منهم، إضافةً إلى من سجن

من عموم النَّاس فبلغ عددهم -فيما روي- أكثر من الفين، وهؤلاء هم الذين بقوا على ولائهم للحسين عليه السلام ينتظرون قدومه للثورة معه.

مطلوبون للعدالة الاموية

٦- عملت الدولة الأموية على جعل الشعور السائد بين أبناء الكوفة بأنهم مخطئون ومطلوبون للعدالة لأنهم أو آباءهم من قبل سبق وأن وقفوا ضدها مع أمير المؤمنين عليه السلام وإن الدولة متكرمة عليهم إذ (تسأحهم) ولا تعتمد إلى قتلهم أو استئصالهم جميعاً، وإنها لم تعتمد إلى الشدة إلا مع بعضهم فقط، كما كانت تصريحات معاوية ومخاطباته إياهم تتم دون إقامة أي اعتبار أو شأن لهم، لقد اعتبروا -منذ البداية الطرف- المعادي الأول للدولة، وما يشكل الهاجس الأول لها الذي تضعه في أولوياتها وتحسب له كل حساب. كما أن ذلك جعل تصرفات أهل الكوفة تتسم بالخطر حيال الدولة وجعلهم يبدون لها غير ما يكونون وينتهزون الفرص للانقضاض عليها؛ لأنها لم ترهم في يوم من الأيام أنها كانت إلى جانبهم وأنها كانت عادلة معهم.

الروح القبليّة

٧- كان اتجاه الدولة الأموية يستهدف تعميق الروح القبليّة لدى أهل الكوفة وغيرهم أيضاً، وجعل شعور الانتماء للقبيلة غالباً على شعور الانتماء للإسلام نفسه، وكان ذلك من شأنه أن يجعل الكوفة بمجموعها كتلة كبيرة، إلا أنها هشة يستطيع الحاكم تفكيكها بكلمة منه.

ومن المعلوم أن الروح القبليّة كانت هي الآصرة الوحيدة بين أبناء القبيلة قبل الإسلام، ولم تتح المدة الكافية بعد حكم الرسول صلى الله عليه وآله وحتى تسلط معاوية على مقدرات المسلمين للقضاء على العصبيّة القبليّة، حتى جاء هذا فعمقها لغرض إثارة الخلافات

والمشاكل بين الناس، وهذا ما يتيح له إضعاف كل مدينة وجعلها تنقاد له، كما يتيح له اصطيد معارضيه من بين أبناء القبائل مهما بدت قبيلته قوية ومتماسكة إذ أنه يجد له دائماً أعواناً وأنصاراً من أعدائها ومن أبنائها أيضاً.

وكان الاحتكاك القوي بين أبناء القبائل يولد مشاكل كثيرة تلجئهم إلى الاستعانة بأقاربهم، وقد روي «أن أهل الكوفة في آخر عهد علي، كانوا قبائل، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته، فيمر بمنازل قبيلة أخرى، فينادي باسم قبيلته، يا للنخع أو يا لكندة، فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مر بها فينادون يا لتميم أو يا لربيعة، ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها وتثور الفتنة»^(١).

العريف.. والنقيب: توزع الولاء بين القبيلة والدولة

٨- إن إنشاء نظام شبه عسكري يتمثل بالعرفاة والنقابة وما شابهها تابع للدولة مباشرة، مع أن العريف قد يمارس عمله داخل قبيلته، إلا أن ارتباطه لا يكون مع رئيس قبيلة وإنما هو مسؤول عن أعماله أمام الدولة مباشرة، من شأن ذلك أن يوجد تخللاً داخل القبيلة الواحدة ليتوزع ولاؤها بين الدولة الممثلة بالعريف الحافظ للسجلات والموزع للعطاء وبين رئيس القبيلة، ويجعلها منقاداً بالتالي للدولة.

كما أن توسيع جهاز الشرطة والشرطة السرية (العيون)، وهي فئة تدين بالولاء والطاعة لمن يدفع لها (الدولة)، مهما كانت توجهاتها، من شأنه أن يوجد مركزاً من مراكز القوة تضفيها الدولة إلى رصيدها.

وقد رأينا كيف تصرف المسؤول عن شرطة ابن زياد إبان تحلّي جموع الكوفة عن مسلم وكيف استنفر العرفاء والجند والعيون لالقاء القبض عليه، وكيف عملوا بعد

(١) ابن أبي الحديد- شرح نهج البلاغة: ج ٣ ص ٢٣٩.

ذلك لإعداد العدة لمواجهة الامام الحسين عليه السلام .

ولعل الشرطة والعرفاء هم أكثر من أخذ بجدية تهديدات ابن زياد، وقد انتموا إليه بحكم مناصبهم وكان ولاؤهم له وحده؛ لأنه المتحكم الأول بأرزاقهم ومصائرهم ومستقبلهم، إذ أنهم لم يكونوا يرون مستقبلاً أو حياة إلا مع الدولة التي تدفع لهم.

وكان (العيون) الضمير الخفي الذي ثبتته الدولة بديلاً عن الضمائر الحقيقية التي قد يفصح أصحابها عن أعمالهم ونياتهم، فلا يجدون من يحاسبهم أو يقف أمامهم سوى ضمير الدولة المتجسس عليهم النافذ إلى كل حلقات المجتمع.

كان من شأن العيون أن يظل الناس على حذرٍ في أفعالهم وأقوالهم وأنهم في ظل مراقبة دائمة، وكان من شأنه منع الكثير من التحركات ضد الدولة أو كشفها في الوقت المناسب، وهو ما رأينا مصداقاً له مع العين الذي أرسله ابن زياد لكشف مسلم.

(ولا تزاوره وزر أخرى...) القانون الالهي المعطل

٩- عمدت الدولة الأموية إلى أسلوب يناقض الأسلوب الاسلامي السائد وحتى غير الاسلامي مما لم يتعارف عليه من قبل، وهو الأخذ على الشك والتهمة والظنة وأخذ القريب بالبعيد والولي بالولي والاب بابنه والابن بأبيه والعريف أو رئيس القبيلة بأحد أتباعه أو مسؤول الشرطة بمخالف للدولة...

إن هذا القانون يجعل جميع الناس متهمين أمام الدولة، فالمتهم مجرم بنظرها حتى تتم براءته، وهو قانون تعسفي لم يكن جديراً بأن ينشأ إلا في ظل دولة كالدولة الأموية، وكانت بادرته في هذا القانون مجاًلاً لدول أخرى عديدة وحتى يومنا هذا لتجعل منه سلاحاً ذا حدين، تقمع به معارضيهها وتستميل إلى جانبها من تشاء بكل يسر وسهولة.

ان شعور الفرد بأنه مسؤول عن أحد أفراد قبيلته، مع أنه قد لا يكون من ذوي

الرئاسة أو الزعامة فيها، يززع آخر الحصون ويجعل الناس يرفعون رايات الاستسلام البيضاء أمام عنف الدولة وارهابها.

وإذ نجح هذا السلاح بقمع ثورة مسلم، توقع الجميع أن ينجح في جعل الناس يتخلون عن الإمام الحسين عليه السلام إذا ما قدم إلى الكوفة، وهو ما حصل بالفعل نتيجة ارهاب الدولة وممارستها التعسفية بحق الناس مما ولّد ردود فعل كانت ذروتها الخوف الشديد منها.

المجتمع المستهدف بالظلم: مستنقع تنمو فيه الجرائم القاتلة

١٠- ان مجتمعاً مستهدفاً بالظلم تبرز فيه ظواهر عديدة معظمها غير صحي وغير صحيح، فليس في هذا المجتمع أهمية لأي فرد الا بمقدار ما يقدمه من خدمات للدولة وإلا بقدر طاعته لها وتفانيه في خدمتها واتخاذها مقاييسها ومواضعاتها وأعرافها قانوناً عاماً له، كون هذه الدولة (إسلامية) ترفع الشعارات العامة للإسلام، أكسبها ذلك سلاحاً تشهره على من يعترضون على تصرفاتها التي تستهدف تثبيتها ودعمها بالدرجة الأولى، وتحتج بأنها دولة مسلمة، مع أن قوانين الاسلام وتشريعاته آخر ما تفكر بها، فهي تستبدلها بقوانينها هي مكتفية برفع اللافتة العامة التي تشير إلى أنها دولة إسلامية، وكأنها تطلب من الناس الا يطلبوا منها غير ذلك.

وغالباً ما تنجح في مسعاها إذا كان معظم أبناء المجتمع مجردين من الرصيد الذي يجعلهم على اتصال مستمر بشريعتهم الاسلامية، وتتركز اهتماماتهم بالأمر الحياتية البسيطة التي لا تتيح لهم التطلع إلى اهتمامات عامة أخرى وينطبق عليهم وصف أمير المؤمنين عليه السلام بـ «الهمج الرعاع» الذين تتلاعب بهم قوى التأثير ويعنقون مع كل ناعق.

في مجتمع كهذا يسهل تجنيد الاغلبية بأقل الكلف والأثمان، وغالباً ما تجد من يتطوع

ليكون عيناً على اخوانه حتى دون مقابل سوى نظرة رضا من زعيم أو شيخ قبيلة متنفذ أو عريف أو نقيب أو حتى أحد أفراد الشرطة العاديين.

وأصبح رئيس الدولة أو ممثله رمزاً وحيداً بديلاً حتى عن الذي استخلف من قبله (إذا صح ما زعمه حقاً) وهو الله جل وعلا، وأصبحت رغباته واهواؤه هي القانون الوحيد، فكان رد الفعل الأول هو ألا يعتمد من يريد الاحتجاج على تصرفاته وانتهاكاته، إلى اعلان ذلك صراحة، وأن لا يكون المكان الطبيعي لقوى المعارضة الأماكن العامة المكشوفة المعروضة امام العيون والرقباء والجواسيس وأعوان الدولة، وان يعتمد العديدون من أبناء المجتمع إلى إظهار غير ما يكونون وأن تكون مشاعرهم وشعاراتهم المعلنة غير تلك التي يعتقدون بها حقاً.

من هنا، ظهرت بوادر ازدواجية بالسلوك قد تكون الطابع المميز في مجتمع الظلم، وأصبح ذلك أحد وسائل الحماية من ظلم الدولة وجورها، وإذا ما استمرت حالة الظلم وذلك السلوك المزدوج، الواعي والمحسوب، في البداية، فإنه سيكون حالة سائدة تنطلق بلا وعي لتكون هي الحالة الشائعة في الأجيال القادمة فيما بعد.

وكأن الآباء الذين أرسوا ذلك بدافع من حماية الذات ضد الدولة الجائرة، واعتادوا عليه، وضعوا قانوناً لأبنائهم في هذا المجال.

ومن هنا نشهد اتهام مجتمع الكوفة دون غيره بظاهرة التقلب والتلون، ولا شك أنها نشأت في أعقاب تسلط الدولة الأموية على كل مقدرات المسلمين، ولم يكن غيرهم -ممن انحازوا للنظام الأموي- بحاجة إلى ذلك وخصوصاً أهل الشام لأنهم تبنا مواقف وأهداف الدولة وأعلنوا ولاءهم المطلق لحاكمها منذ البداية دون قيد أو شرط ولأنهم كانوا كانوا نتاج تربيته واعدادها منذ البداية.

تنوع الاتجاهات

١١- في مجتمع غير متجانس عرقياً واجتماعياً ودينياً، مع أنَّ الدين السائد هو الإسلام والجنس السائد هم العرب، تبرز ظواهر صراع واختلاف وعصبية، ويسهل النفاذ إلى أدق مفاصل هذا المجتمع وعناصره بمساعدة العناصر الأخرى التي لا يستطيع أحد أن يحكم بتوحد مصالحها واتجاهاتها.

فقد ضم مجتمع الكوفة عرب اليمن وهم الأغلبية - كما أوضحنا من قبل - وعرب الجزيرة من القرشيين والبدو ونصف المتحضرين والمتحضرين العرب المسلمين والنصارى واليهود، ومنهم الفرس من المسلمين وغيرهم، وكانوا أكبر جالية سكنت الكوفة وربما بلغ عددهم نصف عدد سكانها فيما بعد، والانباط والسريان وغيرهم أيضاً.

وكان من ضمن المسلمين أعوان الدولة الأموية وموالوها وحزبها، والخوارج، وموالو آل البيت عليهم السلام.

كانت الكوفة مركزاً لأكبر تجمع في ظل الإسلام، شاركت فيه تلك الاعداد الهائلة لدوافع وأهداف مختلفة، وقد رأينا السبب الذي من أجله أقيمت الكوفة كحامية ضمت محاربي الاسلام وكيف توسعت وانضم إليها من رأى أن مصلحته تقتضي العيش في هذه المدينة التي بدا انها تحتاج إلى خدمات عديدة، وأن جيوب أبنائها تحتاج إلى أن تنفق ما ملئت به من ذهب أو فضة.

في مجتمع كهذا تتوالد حالات هجينة وعادات غريبة وقيم غير مألوفة وانماط غير معروفة من السلوك والتعامل، في مجتمع شهد ازدهاراً نسبياً في الحياة الاقتصادية وتغييراً في الحياة الاجتماعية، وكان بشكل عام لا يخضع لتوجهات الدولة وإرادتها، ولذلك رأت هذه الدولة ضرورة اختراقه والتغلب عليه، وقد فعلت ذلك بتشجيعه على

إظهار كل ممارساته السلبية كالعصبية وتبني مواقف دولة الظلم والانخراط في وظائفها العامة كالعرافة والشرطة مرتزقة ومأجورين.

ولو أننا تتبعنا طبيعة التركيبة الاجتماعية لأهل الكوفة - عند ورود مسلم إليها - لرأينا أن عموم الناس فيها من غير المؤثرين، ومن الذين يميلون مع كل ريح وينعقون مع كل ناعق، وهم طبقة السذج والبسطاء وعوام الناس الذين لا يحملون أدنى شعورٍ بالمسؤولية وينجرفون مع الاحداث وصناعها ويميلون مع أهوائهم ورغباتهم، ان من هؤلاء ورغباتهم، منهم طبقة، مستضعفة مسحوقة مضطهدة لا تتاح لها وسائل العيش الكريم أو وسائل التعبير عن احساسها ورغباتها وآرائها.

أما اشراف الناس ورؤساؤهم والذين يقفون في قمة المجتمع ويطمحون بإضافة شرف إلى شرفهم بالتقرب من الطبقة الحاكمة العليا، ولأن هذا الشرف مرهون بموقفهم منها فعلاً فهم يتسابقون إلى خدمتها، وهؤلاء خليط من رؤساء القبائل والشرطة والعرفاء والحاشية والاثرياء وأبناء الأثرياء والوجهاء وقادة الجيش وأبناء المتنقذين وذوي الجاه القديم والصيارفة والمحتالين واللصوص والجواسيس وغيرهم. ان أكثرهم شرفاً وجاهاً يرى أن مركزه أقل من مركز أي نديم لقائد الدولة أو صعلوك اصطفاه وكيله في الكوفة ليكون عيناً له أو شرطياً في خدمته أو عريفاً يحصي على الناس حركاتهم وسكناتهم.

كانت عروش الاشراف هشة ضعيفة تدافعت وتزاحمت تحت عرش واحد رآته جديراً بالخدمة هو عرش الحاكم، وعرشه فقط.

وهكذا جاء تساقطهم السريع بين برائته وتسابقهم لخدمته دون أي حساب لمقومات الشرف الحقيقي الذي يحث عليه الإسلام.

ورأس السلطة في الكوفة - كما رأينا - هو ابن زياد، وقد جاء خلفاً للنعمان بن بشير خصيصاً لقمع ثورتها ضد الدولة، ويكاد يكون (مهران) خادمه ومستشاره ومربيه ووزيره في نفس الوقت.

ولا ننسى هنا أن نشير إلى وجود فئة مؤثرة واعية وقوية، غير أنها ربما تجبر على الصَّمت في ظل أوضاع وظروف استثنائية قاسية، وربما كانت هذه من بين فئة العوام المسحوقين المضطهدين أو رؤساء القبائل أو الوجهاء المتنفذين، غير أنها كانت تتمتع بقدر من الحس والادراك والوعي والعلم ممَّا جعلها قادرة على تقييم موقف الدولة برمتها والوقوف منه الموقف المناسب، تلك الدولة التي سيطرت على الأمة فسلبتها حقوقها وتصدت للأئمة الحقيقيين عليه السلام وأعلنت الحرب عليهم، وهكذا كانت هذه الفئة غالباً ما تلجأ إلى إثارة الناس على الحكم الظالم وتدعو لآل البيت عليه السلام ونهجمهم في الحكم والحياة.

وقد شهدنا نماذج عديدة من هؤلاء ذهبوا في ذلك إلى حد الاستشهاد، رغم أن الدولة لم تستطع أن تفعل شيئاً حياًل الكثيرين منهم لاستسلامهم الظاهري لها وعدم ابداء العداوة المعلنة، ومع ذلك فإنها لجأت إلى اعتقال الآلاف منهم بُعيد القضاء على ثورة مسلم وتوقع قدوم الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة.

ولا بد لنا - عند التحدث عن مجتمع الكوفة في عهد يزيد - من استعراض نماذج معينة من أعوان السلطة ممن كان لهم تأثير في مجرى الأحداث التي تزامنت مع ثورة الحسين عليه السلام، لتكوين صورة واضحة عن أحداث تلك الفترة العصيبة، وستتناول بإيجاز عبيد الله بن زياد، وعمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن.

الفصل الثاني

أحاديث عن رموز الجريمة في كربلاء

عبيد الله بن زياد حاكم الكوفة الأموي

نتيجة طبيعية لانحراف الحكم

يمثل ابن زياد أحد رموز مجتمع الظلم الذي لا سيادة فيه لقانون الاسلام، وإنما لرغبات الحاكم ونزواته وأهوائه.

ومع أنه أحد أعوان الظالم الذي يتصرف وحيداً بأمور الدولة- يزيد- والذي يستأثر بالسلطة لنفسه ويخطط لجعلها في أولاده وذريته من بعده، إلا أن ابن زياد بتبنيه قضية ذلك الظالم واعتبارها قضيته الشخصية، واعتبار أي خروج عليه خروجاً عليه هو ومساً بكرامته وحقوقه المزعومة المكتسبة بحكم الولاء وبجعل نفسه جزءاً من يزيد ببذل أقصى جهوده في سبيل استرضائه وكسب ودّه الذي كان قد فتر وخف في الفترة القليلة السابقة، بذلك كله جعل من نفسه جزءاً أساسياً من دولة الظلم ورأى أن وجوده ضروري لإدامتها واستمرارها.

وهكذا جعل يزيد مثلاً أعلى له، بدل المثل الأعلى الحقيقي الذي كان ينبغي أن يستجيب له استجابة حرة واعية في ظل أوضاع سليمة يسود فيها الإسلام حقاً، فكان يزيد سيده ومولاه وصاحب القوة الوحيد بنظره.

ومع أنه قد شخص كأشدّ الظالمين عنفاً وشراسة في التاريخ الإسلامي، إلا أنه لم يعد- حتى بنظر نفسه- باستجابته الدليلة لسيده يزيد، سوى أحد أعوانه الكثيرين الذين تحلّوا عن ارادتهم طواعية له، واندفعوا لتنفيذ خططه وبرامجه دون تحفظ ودون

تساؤل عن طبيعتها ومغزاها.

ولربما ألقى تبعة أعماله وتصرفاته على يزيد- لو كانت الظروف غير الظروف التي مارس فيها ظلمه- أو كان قد وفد على ربه وساءله عن سبب الظلم الذي أقدم عليه.

وقد اعتذر فعلاً- بعد ذلك- عن أفعاله المشينة التي ارتكبها وفي مقدمتها اقدامه على قتل الحسين عليه السلام، فقد «قال لأحد أصحابه بعد هلاك يزيد: أما قتلي الحسين فإنه أشار عليّ يزيد بقتله أو قتلي فاخترت قتله»^(١).

لم يقل أنه كان يختلف مع الحسين عليه السلام في المواقف ووجهات الرأي، وأنه أقدم على فعلته لأن الحسين عليه السلام كان يشق وحدة المسلمين وصفهم، وأنه قام بما قام به لأنه كان يعتقد صواب موقفه، وأنه كان عملاً خالصاً لله، وأنه كان يريد به جمع وحدة المسلمين خلف إمام عادل كيزيد، وانه كان مقتنعاً حقاً بعدالته واستقامته، وإنما كان كل ما استطاع الاعتراف به هو أنه كان يستجيب ليزيد تحت وطأة الخوف على حياته؛ لأن يزيد كان بنظره مصدر القوة الوحيد القادر على إنهاء تلك الحياة أو جعلها تمتد إلى مستقبل أفضل في ظله.

كان ابن زياد نتيجة طبيعية لانحراف الحكم وابتعاده عن خط الاسلام، كما كان يزيد بالضبط، وقد كان أحد الذين يهتمهم الحفاظ على مصالح هذا الحكم وامتيازاته وسلطانه لأنه يستمد منه مصالحه وسلطانه هو.

وقد رأينا تبجحاته وصلفه امام مسلم وزين العابدين وزينب عليها السلام بعد ذلك، وهي تبجحات من لم يعتقد بالله أبداً ولم يؤمن به ولم يحسب أي حساب لموت أو آخرة أو جزاء.

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٧٤.

ابن زياد: بين دناءة الأصل ورفعة المنصب

ولو شئنا الحديث عن نسبه لقلنا أنه عبيد الله بن زياد ابن أبيه، أو ابن سمية، البغي المشهورة في الجاهلية، وقد رأينا كيف استلحق معاوية أباه بأبيه، أبي سفيان، بعد أن رأى مصلحة في ذلك، ضارباً عرض الحائط بقوانين الاسلام وأعراف العرب على السواء.

ففي خطبة الغدير نفسها، تلك الخطبة التي جعل فيها الرسول ﷺ ولاية علي بن أبي طالب ﷺ على كل من يؤمن بالله ورسوله ﷺ، وصرح بواضح القول أمام أكبر تجمع للمسلمين في عهده بعد أن أخذ بيده ورفعها أمامهم «من كنت مولاه فعلي مولاه.. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله».

في تلك الخطبة نفسها التي اشتملت على توصيات وتحذيرات عديدة ورد قوله ﷺ، وكأنه يرى المستقبل ببصيرته وعلمه الذي علّمه الله: «لعن الله من ادعى إلى غير أبيه، ولعن الله من تولى غير مواليه، الولد للفراش وللعاهر الحجر»^(١).

وكان الذي حذر منه الرسول ﷺ قد وقع، وكأنه كان يبدو -بشكل متعمد- يحاول مخالفة البنود والتوصيات والتحذيرات التي وردت في خطبة الغدير.

وهذا الاستلحاق -الذي كشف جوانب فضيحة الزنا التي ارتكبتها أبو سفيان وسمية أم زياد في الجاهلية- حدث في زمن الاسلام، وبعد حوالي نصف قرن من وفاة

(١) رواه الطبري: الزوائد: ١٥ / ٤ عن زيد بن أرقم قال: «كنا مع رسول الله ﷺ بغدير خم ونحن نرفع غصن الشجرة عن رأسه فقال...» ثم ساق الحديث. وروى الحديث أحمد عن امامه قال «قال ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر... ومن ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليّه لعنة الله إلى يوم القيامة» رواه أحمد في الفتح الرباني: ص ٢١٨، وروى أحمد والشيخان في الفتح الرباني في: ٤١ / ١٧ أن أبا عثمان لقي أبا بكره فقال له: ما الذي صنعتُم؟ اني سمعت سعد بن أبي وقاص يقول سمع بإذنه من رسول الله ﷺ وهو يقول: ومن ادعى أبا في الاسلام غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام، فقال أبو بكره: وأنا سمعت رسول الله ﷺ كذلك.

الرسول ﷺ فقط، يعيد قانوناً جاهلياً مندثراً الغاه الاسلام، ويشكل استهتاراً مطلقاً بكل أحكام الله وتشريعاته، كما يشكل استهانة بالأمة الإسلامية وكأنها لا شيء أمام رغبة معاوية وزیاد ومصالحهما.

وكان لذلك أثر نفسي على الجميع، فالمستلحق ملعون على لسان نبي الاسلام ﷺ، والأمة ترى ذلك الانتهاك يقع من قبل أكبر مسؤول في الدولة الإسلامية والذي يفترض فيه أن يكون أميناً على تطبيق كل شرائع الاسلام الذي يحكم باسمه وقد نصب نفسه خليفة لرسول الله ﷺ.

ولم يكن زياد غيباً لكي لا يدرك الجانب الضعيف من المسألة كلها، وانها لا تعدو ان تكون مسرحية هزلية ابطاها معاوية وهو، وأنها مهما بلغت من قوة الحبكة وجودة الحوار والتمثيل، فإنها لن تستطيع بالتالي اقناع الناس بشرعية مولده وانتائه الصحيح لأبي سفيان، الذي لا يشرف المرء حقاً الانتماء اليه، وانها لن تكون الا مدعاة لجلب المزيد من السخرية والاستهزاء به، مهما بدا مخيفاً ومهماً أوغل في البطش والقتل وسفك الدماء.

نظرة السخرية والاستنكار من المجتمع التي لا يستطيع زياد مقابلتها بنظرة مثلها، أو بنظرة واثقة تدل على النسب الصحيح، قد تدفعها وتكفُّها يد غادرة قاتلة تمسك السيف والسوط معاً...

ولم يكن عبثاً جدية ابن زياد وعبوسه ولجوؤه إلى الارهاب والقسوة، إنه يفرض بذلك على كل فرد الاعتراف بطهارة مولده وصحة نسبه، ويعوض عن نقصه بلجوئه لتلك القسوة المعلنة التي اشتهر بها، واشتهر بها ابنه عبيد الله فيما بعد.

ولا شك ان عقدة ذلك النسب المغشوش قد انتقلت من الأب إلى ابنه، يضاف إلى

ذلك ما لحق هذا الولد من أمه مرجانة المجوسية التي عُرِفَت بالبغي أيضاً، والتي طلقها «زياد» فتزوج بها شيرويه، وقد نشأ زياد في بيت شيرويه هذا.

وتدل حادثة -ورويت عرضاً- ان ابن زياد ربما تعرض لمن يسخر منه ومن نسبه. وإنها ربما لم تكن المرة الأولى التي يتعرض فيها لذلك، وربما كان ذلك في صغره أكثر، قبل أن يكون له جاه وسطوة ونفوذ.

قال له عبيد الله بن ظبيان التيمي، في معرض الاستهزاء به: «يرحم الله عمر بن الخطاب، كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الزانيات وابناء الزانيات!

فقال عبيد الله بن زياد ابن أبيه: يرحم الله عمر كان يقول: لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر إلا أخرج مائتاً»^(١).

لم يستطع دفع التهمة عن أمه أو مقابلتها بمثلهما، وكل ما استطاع قوله لمن رمى أمه بالزنى هو أن أمه حمقاء.

هل يستطيع أحد أن يدعي أن نشأة ابن زياد لم يكن لها تأثير على نفسه وتصرفاته في أي وقت من الأوقات..؟ وان سليل الدنس والزنا كان لا يتصدى بدافع عقدة النقص هذه، لسلالة الطهر والقداسة..؟

القسوة المفرطة تعبير عن الشعور بالنقص

لقد عرفنا من هو زياد، وكيف اشتهر بالقسوة والظلم والأخذ على الشبهة والشك والظن، واعتمد ذلك قانوناً بديلاً عن قانون الاسلام العادل.

وما كان عبيد الله إلا كزياد في هذا الأمر - كما عبر هو عن ذلك لأهل البصرة قبيل

(١) البيان والتبيين: الجاحظ: ج ٢ ص ٢٤٢.

مغادرتها استجابة لأمر يزيد بالتصدي للإمام الحسين عليه السلام والعمل على قتله - «أنا ابن زياد، أشبهته من بين من وطئ الحصى، ولم ينتزعي شبة خال ولا ابن عم»^(١).

وأكمل تهديده لأهل البصرة بعد أن قتل رسول الحسين عليه السلام إليها قائلاً: «فو الذي لا اله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه ولاأخذن الأدنى بالاقصى حتى تسمعوا لي، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق»^(٢).

وفي خطابه نلمس اصراره على استعمال نهج أبيه من قبل، بل واستعمال نفس كلماته، كان أبوه قد قال في أول خطبة له في أهل البصرة من قبل: «وإني أقسم بالله لأخذنّ الولي بالمولى، والمقيم بالطاعن والمقبل بالمدير، والصحيح منكم بالسقيم»^(٣).

لقد تشبّه به فعلاً في ظلمه وقسوته وخروجه المتعمد على قوانين الاسلام، كما في خضوعه ليزيد، كما خضع ذاك لمعاوية.

كانت قسوته تلك قد لجأ إليها مع كل الذين كان يحتمل أن يتصدوا لدولة الظلم الأموية بالقول أو الفعل، وفي دوامة السعي للحفاظ على تلك المملكة التي أسسها معاوية لولده، راح ابن زياد يتعقب كل رافضي تلك المملكة وأعدائها مهما كانت توجهاتهم وغاياتهم، لم يهمه من أمرهم سوى أنهم كانوا أعداء له.

«روي أن قيس بن خرشة وفد على النبي صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسول الله، أبايعك على ما جاءك من الله، وعلى أن أقول بالحق فقال له النبي صلى الله عليه وآله : عسى أن يكون عليك من لا تقدر

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٨٨، والبداية والنهاية: ج ٨ ص ١٦٥.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ١٩٧.

على أن تقوم معه بالحق وفي رواية: «يا قيس عسى أن مد بك الدهر أن يليك بعدي ولاة لا تستطيع أن تقول بحق معهم»^(١)، فقال قيس: والله لا أبائعك على شيء إلا وفيت لك به، فقال النبي ﷺ: إذا لا يضرك شيء.

فكان قيس يعيب زياد ابن أبيه، وابنه عبيد الله، وكان يقول: قال لي النبي ﷺ: لا يضرك شيء، فأرسل إليه عبيد الله بن زياد وقال له: أ أنت الذي تزعم أنه لن يضرك شيء؟ فقال: نعم، قال: كذبت أنت تفترى على الله ورسوله، فقال: لا والله ولكن إن شئت أخبرتك بمن يفترى، قال ابن زياد: ومن هو؟ قال: من ترك العمل بكتاب الله وسنة رسوله، قال: ومن ذاك؟ قال: أنت وأبوك ومن أمركما.

قال ابن زياد: لتعلمن اليوم أنك قد كذبت، وصاح قائلاً: اتئوني يصاحب العذاب، فمال قيس عند ذلك فمات^(٢) ولم يضره ابن زياد، ولعل الأجل قد امتد به تلك الساعة حتى يسمع الجلال رأي الاسلام فيه، ولعل موته في تلك الساعة كان يشكل معجزة من معاجز رسول الله ﷺ تأخر ظهورها حتى تلك اللحظة، لتلفت نظر أولئك الذين أعرضوا عن الاسلام وفي مقدمتهم ابن زياد نفسه، غير أن لسلطان الهوى والانحراف غشاوة تعمي القلوب والأبصار.

وثمة أمر تلفت هذه الحادثة نظرنا إليه، لم نسمع عنه من قبل وهو ان لابن زياد مرتزقاً بوظيفة (صاحب العذاب) وهو من يقوم بتعذيب من لا يرضى عنه، وهي بادرة خطيرة في (الدولة الاسلامية) جعلت منها الانظمة السلطوية المشابهة سيفاً سلطته

(١) رواه الطبراني (كنز العمال) ١٩٥-١١.

(٢) معالم الفتن - سعيد أيوب ط ١ دار الكرام ٤ ١ هـ: ص ٢٣٠-٣٢١ عن السيوطي قال: (أخرجه الطبراني والبيهقي (الخصائص الكبرى: ج ٢ ص ٢٥٤) وأخرجه الحسن بن سفيان في مسنده وقال ابن حجر رجاله ثقات (الاصابة: ج ٥ ص ٢٥٥).

فوق رؤوس الناس، فلم تكتف بقتلهم وقطع ارزاقهم وانما عمدت إلى هذا الأسلوب الشائن في معاملة البشر.

لقد لجأ زياد من قبل إلى هذا الأسلوب حينما سمل عيون معارضي الدولة وصلبهم على جذوع النخل، غير أنه ربما لم يستحدث وظيفة مخصوصة لهذا الغرض.

وربما كان ابن زياد أبرع من أبيه في هذا المضمار إذ جعل هذه الوظيفة دائمية لعل صاحبها يتفَنَّ بمهنته ويتقنها إلى الحد الذي يحقق طموح الجلاد ويسعده.

ابن زياد كان مرشحاً من قبل معاوية للتصدي للحسين

وغالباً ما يغطي أعوان فرعون ضعفهم واستسلامهم لفرعون بالافراط في القسوة والتظاهر بها أمام المجتمع.

كتب يزيد مهدياً ابن زياد وهو يصدر إليه أمر التصدي للإمام الحسين عليه السلام، وكانت لهجته تدل على أنه ربما يلغي القرار الذي أصدره معاوية بإلحاق زياد بأبي سفيان، وتدل أيضاً على أن يزيد نفسه وحتى ابن زياد ما كانا يريان القرار يتمتع بأي قدر من الشرعية أو الواقعية.

«انه قد بلغني أن حسيناً قد سار إلى الكوفة، وقد ابتلي به زمانك من بين الأزمان، وبلدك من بين البلدان، وابتليت أنت به من بين العمال، وعندها تعتق أو تعود عبداً كما ترقُّ العبيد وتعبَّد»^(١).

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٦٧ والعقد الفريد: ج ٥ ص ١٢٧، وقد ذكر الطبري أنه ذكر في رسالته إليه «... أنه قد بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح واحترس على الظن، وخذ على التهمة...»: ج ٣ ص ٢٩٣. ولعل لسرجون كاتب معاوية ووزيره، ثم وزير يزيد بعد ذلك اليد الطولى بمثل هذه التوجيهات والقرارات الصادرة عن يزيد؛ لأنه لا تبدو فيها أية مسحة إسلامية أو ظل لقانون أو مبدأ إسلامي... وسرجون كما هو معلوم من

لقد انتدب يزيد ابن زياد لهذه المهمة الصعبة، وهو يعلم أنه سيستجيب له استجابة مطلقة، وسيعمل على إرضائه كما يعمل العبد على إرضاء سيده، وقد وضعه في محك شديد يختبر فيه إخلاصه وطاعته.

وقد كان معاوية وسرجون - وزير الدولة ومستشارها - يتوقعان هذا اليوم من قبل، ويدركان الثورة المرتقبة على يزيد.

ويبدو من مجمل أوضاع ابن زياد وحرصه على تولي منصب أبيه، أنه كان موضع دراسة فاحصة من قبل معاوية ومستشار دولته، وقد رأيا أنه الرجل المناسب للقيام بهذه المهمة، ما دام قد وضع هدفاً وحيداً أمامه وهو نيل الإمارة الواسعة في ظل سيده وابن عمه المزعوم.

وكانت مسألة تكليفه مدبرة قبل موت معاوية واستخلاف يزيد، الذي دعا مستشار الدولة سرجون «فأخبره الخبر. فقال له: أكنت قابلاً من معاوية لو كان حياً؟ قال: نعم. قال: فاقبل مني، فإنه ليس للكوفة إلا عبيد الله بن زياد فولها إياه.

... وأخرج عهداً مكتوباً من قبل معاوية لابن زياد على الكوفة، فقال: هذا رأي معاوية ومات وقد أمر بهذا الكتاب، فأخذ برأيه وضم المصريين (الكوفة والبصرة) إلى عبيد الله، وبعث إليه بعهدة على الكوفة»^(١).

كان عبيد الله بعد وفاة أبيه حريصاً على الولاية والإمارة؛ لأنه قد أتاحت له فرصة

نصارى الشام.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٥ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٨٧. وروي في العقد الفريد أن يزيد استشار جماعة من أهل الشام فقال: «يا أهل الشام، اشيروا عليّ، من أستعمل على الكوفة؟ فقالوا: ترضى من رضي به معاوية؟ قال: نعم. قيل له: فان الصك بامارة عبيد الله بن زياد على العراقيين قد كتب في الديوان. فاستعمله عليها فقدمها قبل أن يقدم الحسين»: ج ٥ ص ١٢٦.

التمتع بالملذات والامتيازات الاستثنائية في ظل إمرة أبيه نفسه الذي أخذه من أمه ومن زوجها شيرويه المجوسي الذي قضى طفولته في أحضانها وتربى على يديه.

ويدل على أصله ومنشئه في بيت أمه مرجانة وزوجها شيرويه لهجته ولكنته غير العربية، واستعماله التكلف لبعض الاصطلاحات والكلمات العربية في غير مواقعها المناسبة «وإنما أتى عبید الله بن زياد في ذلك أنه نشأ في الأساورة عند شيرويه الأسواري زوج مرجانة أمه»^(١) وكان لهذا السبب «يرتضخ لكنة فارسية من قبل زوج أمه شيرويه الأسواري»^(٢).

وقد وجه الخطاب إلى هانئ بن عروة، أحد وجوه الكوفة - بعد أن قبض عليه بحيلة غادرة، متهماً إياه بأنه خارجي، وهي حجة تشهر بوجه كل من يقف بوجه الدولة - قائلاً له: «أهروري منذ اليوم» يريد (أحروري)، وهذه الهاء تشترك في قلبها من الحاء أصناف من العجم»^(٣).

«وكان يقلب القاف كافاً»^(٤) وقد قال يوماً: «من كاتلنا كاتلناه، يريد: من قاتلنا قاتلناه»^(٥).

ولا شك أن لابن زياد بعض المواهب الاستثنائية في بعض أمور الحياة والحكم والسياسة على طريقة معاوية وزياد، ولا شك أن ذلك الأسلوب الجاهلي الذي يعتمد المصلحة ويتجرد من كل القيم، قد أشهر بوجه الأسلوب الاسلامي المستقيم فكان له

(١) البيان والتبيين: ج ١ ص ٧٣ والأساورة قوم من العجم بالبصرة نزلوها قديماً، كالأحامرة في الكوفة...

(٢) العقد الفريد: ج ٢ ص ٣٠٧، والكامل في اللغة والأدب: ج ٢ ص ١٦٢.

(٣) والكامل في اللغة والأدب: ج ٢ ص ١٦٣، والبيان والتبيين، ج ١ ص ٧٢.

(٤) البيان والتبيين: ج ١ ص ٧٣.

(٥) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٨٤.

شأنه الكبير في جعل الانحراف يتخذ أبعاداً مشروعة لأنّ الذي تبنيه هم أركان الدولة، وقد وجدوا من بين فقهاء الدولة ووعاظها المأجورين من يبرر لهم ذلك.

ففي المقاييس الأموية يبدو ابن زياد موهوباً وبارعاً إلى الحد الذي يعجب معاوية نفسه، ومع ذلك كانت لمعاوية مؤاخذه واحدة عليه وهي لكنته غير العربية.

روى أبو الحسن قال: «أوفد زياد عبيد الله بن زياد إلى معاوية، فكتب إليه معاوية: ان ابنك كما وصفت، ولكن قوّم من لسانه» وكانت في عبيد الله لكنة؛ لأنه كان نشأ بالأساورة مع أمه (مرجانة) وكان زياد قد زوجها من شيرويه الأسواري [ودفع إليها عبيد الله]^(١)، وكان قال مرة: «افتحوا سيوفكم» يريد سلوا سيوفكم، فقال يزيد بن مفرغ:

ويومَ فتحت سيفك من بعيد أضعت وكل أمرك للضياع
وقال لسويد بن منجوف: «اجلس على است الأرض، قال سويد: ما كنت أحسب أن للأرض أستا»^(٢).

بين معاوية وابن زياد: محاورات ومداولات

لقد انتدب يزيد ابن زياد لمهمة التصدي للحسين عليه السلام وقمع الثورة التي بدأت تلوح ضد النظام الأموي المنحرف، وكان يعلم أنه سيستجيب له استجابة ذليلة، وسيعمل على إرضائه كما يعمل العبد على إرضاء سيده، وقد وضعه أمام محك صعب اختبر فيه إخلاصه وطاعته التي لم تكن موضع شك في أي حال من الأحوال. كان ابن زياد بنظر معاوية رجل الدولة الناجح الذي يمكن أن يقف خلف ابنه يزيد ويدعم ملكه بعد أن

(١) المعارف: ابن قتيبة: ص ١٥١.

(٢) البيان والتبيين: ج ٢ ص ٤١٠ - ٤١١.

يودّعه هو ويتركه وحيداً لإدارة شؤون أكبر أمة وأكبر دولة في ذلك الحين.

ولم يكن عبثاً أن يرسله زياد إليه، فهو كان يريد أن يعهد إليه معاوية بإمارة من إماراته العديدة الممتدة على أكثر بقاع الأرض.

وقد رويت لنا قصص عديدة نرى من مجملها أن معاوية أراد منذ البداية مساومة ابن زياد وشراءه بعقدٍ لا رجعة فيه.

روى لنا الطبري عن مسلمة بن محارب ومحمد بن ابان القرشي، قالاً:

«لما مات زياد، وفد عبيد الله إلى معاوية فقال له: من استخلف أخي (يقصد زياداً) على عمله بالكوفة؟ قال: عبد الله بن خالد بن أسيد، قال: فمن استعمل على البصرة؟ قال: سَمرة بن جندب الفزاري: فقال له معاوية: لو استعملك أبوك استعملتك. فقال له عبيد الله: أنشدك الله أن يقولها إليّ أحدٌ من بعدك: لو ولّاك أبوك وعمّك وليّتك.

فلما قال له عبيد الله ما قال ولّاه خراسان، ثم قال له حين ولّاه:

«إذا عزمتم على أمر فأخرجوه للناس، ولا يكن لأحد فيه مطمع، ولا يرحض عليكم وأنت تستطيع، وسار عبيد الله إلى خراسان في آخر سنة ثلاث وخمسين وهو ابن خمسٍ وعشرين سنة من الشام، وعليه عمامة وكان وضيئاً، والجعد بن قيس ينشده مرثية زياد»^(١).

وربما كان ابن زياد يرى أن معاوية سيجعله مكان أبيه حتماً وربما لم يكن عنده شك

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ فيكون عمره عام ٦١ وهي السنة التي أقدم فيها على جريمة قتل الحسين وأصحابه ثلاثة وثلاثين عاماً. لا كما ذكر بعض الباحثين أن سنّه في ذلك العام كانت إحدى وعشرين سنة...

بذلك، إلا أن جواب معاوية جعله يدرك أن بالإمكان اهماله، وهو ما جعله يتنازل إلى الحد الذي يستعطف فيه معاوية لتوليته وتكليفه بالإمارة، وهذا ما أتاح لمعاوية أن يجعله متفانياً في خدمته وإرضائه بشئ السبل.

ولعل الذي يؤيد هذا الرأي ما رواه الاندلسي عن ابن دأب قوله:

«لما قدم عبيد الله بن زياد على معاوية بعد هلاك زياد فوجده لا هيا عنه أنكره، فجعل يتصدى له بخلوة ليسبر من رأيه ما كره أن يشرك به عمله، فاستأذن عليه بعد انصداع الطلاب وإشغال الخاصة وافتراق العامة، وهو يوم معاوية الذي كان يخلو فيه بنفسه، ففطن معاوية لما أراد، فبعث إلى ابنه يزيد، وإلى مروان بن الحكم، وإلى سعيد ابن العاص، وعبد الرحمن بن الحكم، وعمر بن العاص، فلما أخذوا مجالسهم أذن له، فسلم ووقف واجماً يتصفح وجوه القوم، ثم قال:

أما بعد يا أمير المؤمنين، فقد عسف بنا ظنّ فرّج، وفزع صدّع، حتى طمع السحيق، وبئس الرفيق، ودب الوشاة بموت زياد، فكلهم متحفّز للعداوة، وقد قلّص الإزرة، وشمّر عن عطافه، ليقول؛ مضى زياد بما استلحق به، وولّى على الدنيا من مستلحقه. فليت أمير المؤمنين سلم في دعتة، وأسلم زيادا في صنعتة، فكان ترب عامّته، وواحد رعيّته، فلا تشخص إليه عين ناظر ولا أصبع مشير، ولا تذلق عليه ألسن كلمته حيا ونبشته ميتا، فإن تكن يا أمير المؤمنين حابيت زيادا بولاء رفات، ودعوة أموات، فقد حاباك زياد بجذّ هصور وعزم جسور، حتى لانت شكائم الشرس، وذلت صعبة الأشوس، وبذل لك يا أمير المؤمنين يمينه ويساره، تأخذ بهما المنيع، وتقهر بهما البزيع، حتى مضى والله يغفر له؛ فإن يكن زياد أخذ بحق فأنزّلنا منازل الأقربين يا أمير المؤمنين نمشي الضّراء ونذبّ الخفاء، ولنا من خيرك أكمله، وعليك من صوبنا أثقله، وقد شهد القوم، وما ساءني قريهم ليقروا حقاً، ويردّوا باطلاً؛ فإنّ للحقّ منارا واضحا، وسبيلا

قصدا؛ فقل يا أمير المؤمنين بأي أمريك شئت، ولا نستكثر بغير حقنا.

فنظر معاوية في وجوه القوم كالمتعجب، فتصفّحهم بلحظه رجلا رجلا وهو متبسم، ثم اتجه للقاءه وعقد حبوته وحسر عن يده وجعل يومئ بها نحوه، ثم قال معاوية:

قد صفقت يداي في أبيك صفقة ذي الخلة من ضوارع الفصلان، عامل اصطناعي له بالكفر لما أوليته، فما رميت به إلا انتصل، ولا انتضيته إلا غلّى جفنه، وزلّت شفرته، ولا قلت إلا عاند، ولا قمت إلا قعد، حتى اخترمه الموت، وقد أوقع بختره، ودل على حقه، وقد كنت رأيت في أبيك رأيا حضره الخطل، والتبس به الزلل، فأخذ مني بخط الغفلة، وما أبرئ نفسي، إنّ النفس لأثارة بالسوء؛ فما برحت هناة أبيك تحطب في جبل القطيعة حتى انتكث المبرم. وانحل عقد الوداد. فيا لها توبة تؤتف من حوبة أورثت ندماً أسمع بها الهاتف وشاعت للشامت؛ وأراك تحمد من أبيك جدا وجسورا: هما أوفيا به على شرف التقحم. وغمط النعمة؛ فدعها فقد أذكرتنا منه ما زهدتنا فيك من بعده، وبها مشيت الضراء ودببت الخفاء؛ فاذهب إليك، فأنت نجل الدغل، وعرة النغل؛ والأخر شرّ.

فقال يزيد: يا أمير المؤمنين، إنّ للشاهد غير حكم الغائب، وقد حضرك زياد، وله مواطن معدودة بخير، لا يفسدها التظني ولا تغيّرها التهم، وأهلوه أهلك التحقوا بك، وتوسطوا شأنك، فسافرت به الرّكبان، وسمعت به أهل البلدان، حتى اعتقده الجاهل، وشك فيه العالم، فلا يتحجّر يا أمير المؤمنين ما قد اتسع، وكثرت فيه الشهادات، وأعانك عليه قوم آخرون.

فانحرف معاوية إلى من معه فقال: هذا، وقد نفس عليه بيعته، وطعن في إمرته،

يعلم ذلك كما أعلمه؛ يا للرجال من آل أبي سفيان! لقد حكموا وبدّهم يزيد وحده.
ثم نظر إلى عبيد الله فقال: يا بن أخي، إني لأعرف بك من أبيك، وكأنني بك في غمرة
لا يخطوها السابح؛ فالزم ابن عمك، فإنّ لما قال حقاً.

فخرجوا، ولزم عبيد الله يزيد يرد مجلسه ويبطأ عقبه أياماً، حتى رمى به معاوية إلى
البصرة واليا عليها. ثم لم تزل توكسه أفعاله حتى قتله الله بالخازر^(١).

وربما كانت هذه واحدة من مسرحيات معاوية العديدة التي اعتاد حبكها بمهارة
منقطعة النظر وإخراجها إخراجاً فنياً عالي الأداء، وهي لا تقل عن مسرحية استخلاف
يزيد التي حشد لها كل طاقات الدولة وامكانياتها، فهنا نجد خطباء افذاذاً على غرار قس
ابن ساعدة وكأننا لم نتعرف على خطيب لم يتغلب بعد على لكتته ويستطيع تقويم لسانه،
وربما لم يكن اداء هذه المسرحية قد تم بالشكل الذي ذكر هنا.

ان معاوية كان يدرك مكامن الخطر على يزيد من بعده، ويدرك أنها قد تكون في
العراق أو في الحجاز أو حيث يكون الإمام الحسين عليه السلام بالدرجة الأولى، أو ابن الزبير
كمنافس محتمل مكشوف العداوة طالب للأمرة والملك، أو من منافسين محتملين قد
يبدون أمام الأمة أكثر لياقة من يزيد وإن لم يعبروا عن طموحهم بهذا الشأن مثل مروان
بن الحكم أو سعيد بن العاص أو عبد الرحمن بن الحكم أو عمرو بن العاص أو حتى
ابن زياد نفسه الذي كان يرى نفسه أكثر مؤهلات من يزيد.. ولم تكن هناك جرأة على
الدم أكثر من تلك التي امتلكها زياد وابنه، كما صدقت فيه فراسة معاوية فيما بعد. وقد
أراد أن يكون خادماً مطيعاً دائماً الولاء ليزيد يشد به ازره ضد أية قوى معارضة، سواء
كانت من خصومه المعروفين أو من المحتملين حتى من أصدقاء اليوم الذين يشكلون

(١) العقد الفريد: ج ٤ ص ١٧٢-١٧٥.

حاشيته ومستشاريه وخاصته.

ولنستعرض المسرحية باختصار.

ابن زياد يلاحق (عمه) معاوية الذي تظاهر بالانشغال عنه متعمداً، ليكتشف حقيقة نواياه بشأن توليته أحد مناصب الدولة، وينجح بعد محاولات في ذلك. ومعاوية يحضر مجلسه ذاك ابنه يزيد وبعض خاصته وهم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحكم وعمر بن العاص، ويشير لابن زياد لكي يعرض قضيته.

يبدأ ابن زياد الكلمة التي كان يبدو أنه قد أعدها بعناية فائقة، وأكد فيها على دوافع معاوية لاستلحاق زياد بنسبه التي كانت المصلحة الشخصية في مقدمتها، ولو لم يكن الأمر كذلك لقرَّب أولاده وأنالهم ما أناله من مراكز ومناصب وعز، وأشاد بزياد والده، كأحد الذين أقاموا صروح الدولة الأموية القائمة، وأياديه حتى على معاوية نفسه.

ويبدو أن معاوية كان يحتمل ما سوف يقوله ابن زياد، ولعله دسَّ عليه من يتسمع منه ذلك ويأتيه بأخباره، فأعد ردّاً مناسباً تهجم فيه على زياد، وأشار إلى أنه قد أخطأ باستلحاقه إياه، وإن زياداً قد الحق الضرر به أكثر مما أفاده.

وإن عبيد الله بسعيه هذا في مدح أبيه قد الحق بقضيته الضرر، أكثر مما أفادها وبشكل استفزَّ معاوية وجعله يدعوه بنجل الدغل وعرة النغل.

كانت غصبة معاوية المفتعلة، ربما منعت الآخرين عدا يزيد- الذي أعد له أبوه دوره بعناية أيضاً- من التدخل لتلطيف الجو.

من تدخل لصالح ابن زياد هو يزيد فقط، وقد أراد معاوية أن يثبت أن يزيد هو الوحيد الذي وقف إلى جانبه في هذا الموقف الدقيق الذي امتنع فيه الآخرون عن مساعدته.

كانت غضبة معاوية تحذيراً لكل من أراد منافسة يزيد أو فكر بها، وكان وضعه ابن زياد إلى جانب يزيد عندما أوصاه أن يلزمه تحذيراً آخر بالمزيد من حمامات الدم يقدم عليها ابن زياد بأوامر مباشرة من يزيد الذي كانت له اليد الوحيدة بابقائه ومنحه المزيد من الامتيازات، وأنه لن يحجم حتماً حتى عن التفوق في مجال سفك الدماء على زياد نفسه.

وقد رأينا عهد معاوية المكتوب بعد ذلك وتوصيته أن يقوم ابن زياد بالجريمة التي خطط لها قبل ذلك.

ولعل معاوية أراد لهذه الرواية أن تنتشر لتحسّن صورة يزيد في أذهان الناس.. فرغم أن معاوية اشتهر بحلمه المعروف، إلا أن يزيد كان يبدو هنا أنه أكثر حليماً منه وأنه كان يعد مفاجآت عديدة ستبرز في المستقبل إذا ما أتيحت له فرصة الامساك بالحكم. وهناك العديد من الحوادث التي حاول فيها معاوية إظهار يزيد وكأنه الرجل الوحيد الصالح لحكم الدولة الإسلامية.

وحسبنا من المسرحية كلها هذه الجملة الوحيدة من معاوية، عندما خاطب ابن زياد قائلاً: «فالزم ابن عمك، فإن لما قال حقاً»، كان ثمن ما قاله يزيد ان يظل عبيد الله في خدمته عبداً مطيعاً على الدوام.

بين لذة الحكم والخوف من فقدان الامتيازات

كانت لذة الحكم والامتيازات التي يتيحها السلطان المطلق هي الحلم النهائي الكبير الذي يحلم به ابن زياد، وقد رأى أن الاستسلام للسلطان يهون بجانب تحقيق حلمه ذاك، فما قيمة أن يخضع ليزيد وهو يرى جميع الناس خاضعين له..؟ ان تفكيره الذي ينصب على المتطلبات الدنيوية وحسب، ولا يحسب أي حساب لسلطان آخر، هو

السلطان الوحيد والباقي بعد فناء كل شيء، وهو الله سبحانه وتعالى، قد دار في محيط دنيا سيده الذي لم يعرف الله بدوره أيضاً.

ومن هنا كان حرصه على السلطان وما يتيح له من حياة مرفهة، ومن هنا كان خوفه الدائم من زواله؛ لأنه عندها سيفقد كل رصيده في الحياة التي عاشها وسبواجه أمراً - أن لم يكن متيقناً منه حتى الآن، فإنه محتمل جداً وهو الحساب العسير أمام الله، ورغم أنه يحاول أن يتناسى هذا وينكره إلا أن هاجساً ما يظل يقلقه خصوصاً وأنه يتظاهر بعبادة الله ويحكم في جهاز للحكم جعل من الإسلام عطاءً شرعياً له وادعى وحدانية الله وخلافة رسوله ﷺ.

«قال عبيد الله بن زياد، وكان خطيباً، على لكنة كانت فيه: «نعم الشيء الامارة لولا قعقة البرد والتشنن للخطب»^(١).

وكان محقاً - من وجهة نظره - بهذه المخاوف لأن الامارة أتاحت له امتيازاً على سائر الناس، فهو لم يحكم في ظل دولة إسلامية حقة ليكون له ما لهم وعليه ما عليهم وإنما كان يحكم في ظل دولة الظلم والانحراف، وكان يحكم مساحة واسعة صنعت قبيل انتهاء حكم يزيد (العراق وسجستان وخراسان والبحران وعمان).

«وهو أول من عرّف العرفاء^(٢) ودعا النقباء، ونكّب المناكب^(٣)، وحصل الدواوين، ومُشي بين يديه بالعمد^(٤)، ووضع الكراسي، وعمل المقصورة، ولبس الزيادي، ورَبّع

(١) البيان والتبيين: ج ١ ص ١٣٤ - ١٣٥ والبرد جمع بريد واصل البريد الدابة ثم جعل للرجل. وفي هامش النسخة «وإنما قال هذا لأن الوالي لا يدري بما يأتيه (البريد) من خير أو شر، فهو يجزع لرؤيته ويخاف».

(٢) العرفاء: جمع عريف، وهو القيم بأمر القوم وسيدهم.

(٣) المناكب: جمع منكب وهو عريف القوم.

(٤) العمدة: جمع عمود.

الأرباع بالكوفة، وخمّس الأخماس بالبصرة، وأعطى في يوم واحد للمقاتلة والذرية من أهل البصرة والكوفة، وبلغ بالمقاتلة من أهل الكوفة ستين ألفاً، ومقاتلة البصرة ثمانين ألفاً، والذرية مائة وعشرين ألفاً. وضبط زياد وابنه عبيد الله العراق بأهل العراق»^(١).

«وأخبرنا مسلمة أن النجارية الذين قدم بهم عبيد الله بن زياد البصرة الفان، كلهم جيد الرمي بالنشاب»^(٢)

ويصح اعتبار ابن زياد -من وجهة نظر غير المسلمين وأولئك الذين لا يتبنون النظرية الإسلامية في الحياة والحكم حتى وإن كانوا متجنسين به رسمياً، رجل دولة من الطراز الأول، فهو قد استحدث أساليب تضمن بقاء النظام القائم واستمراره. وكان معنى الاكثار من المقاتلة واستخلاص الحرية لحمايته الشخصية ولضبط الأمور في البصرة وتربيع الأرباع في الكوفة وتخميمها في البصرة أيضاً، ما يدل على مواهب واستعدادات للقيادة الجيدة وارساء نظام حكم مستمر ومستقر، أما على أي شيء يقوم نظام الحكم هذا ولماذا تراد استمراريته فهو ما ينبغي مناقشة هؤلاء به، فنحن -كما قلنا- لا نتناول دولة جاهلية في أيام الرومان أو الفرس ولا نتناول دولة علمانية حديثة، تلجأ إلى هذه الأساليب وغيرها لغرض تقوية نفوذ هذه الدولة وسلطانها وجيشها، وهو ما يبدو بحد ذاته هدفاً وغاية لزعيم هذه الدولة وأركان حكومته، وإنما نتناول دولة يفترض أن تكون في كل توجهاتها وغاياتها وأساليبها دولة إسلامية حقاً، وهذه نقطة دقيقة ينبغي الالتفات إليها منذ البداية إذا ما أريد بحث أمثال هذه المواضيع. يريد ابن زياد تقوية الدولة، لكن هل الدولة الإسلامية المحمدية الحقّة؟ أم الدولة الفرعونية..؟

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٢٧٥.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٤٤.

وهل حارب أعداءها واستعد لهم بجيش قوي لأنهم أعداء الاسلام أم لأنهم أعداء رئيس الدولة وأعداء حاشيته وعمله ومرتزقته؟

هل حارب الحسين عليه السلام وقتله لأن الحسين عليه السلام لم يكن يجسد الخط الرسالي الحقيقي للإسلام ولجده رسول الله صلى الله عليه وآله أم لأنه كان يريد إزالة دولة الظلم والانحراف وإعادة الأمور إلى مجاريها؟

وحتى الخوارج الذين حاربهم ابن زياد، هل فعل ذلك لأنه كان يختلف معهم عقائدياً ويخشى منهم على الإسلام أم لأنهم أعداء دولته؟

وهل تلك (البطولات) التي سيتحدث عنها كل أولئك المنخدعين بشخصيته ومواقفه، والتي أبدأها بمواجهة الخوارج كانت نتاج غير حقيقيّة على الإسلام أم نتاج خوف من زوال سلطته هو وامتيازاته التي حصل عليها في ظل تلك السلطة؟ لقد اتخذ اجراءات عديدة لحمايته الشخصية من أعدائه المحتملين.

إنّه قسم البصرة والكوفة وفق نظام مستحدث يكفل إقامة توازن فيهما يضمن سيطرته التامة عليهما ومن ثم سيطرة سيده قائد وزعيم دولة الظلم والانحراف.

علينا أن نفتش عن الدوافع من وراء أعماله قبل أن نكون مبهورين بتلك الأعمال على اعتبار أن أية دولة ستلجأ إليها لتقوية نظامها والحفاظ على أمنها ووحدتها.

وكان ابن زياد حريصاً على تحسين صورته الشخصية ولو على حساب الدولة التي يحكم فيها كقائد مرموق وعلى حساب الأمة المظلومة التي سلبت مكاسبها في ظل دولة الظلم.

كان يرى نفسه أهمّ من بضعة ملايين من المسلمين، بل من كل ملايين المسلمين

الذين كانوا تحت حكمه وحكم سيده، ولم يكن يتخرج من تنصيب موظفيه مهما كان سلوكهم واستهتارهم معلناً، ولعله وجد في استهتار قائد الدولة نفسها مبرراً لتنصيب أحد المشهورين بشرب الخمر أو من الذين يدمنون الشراب والياً على رام هرمز وهي بلد بولاية خوزستان، لمجرد أنه كان نديماً لأبيه زياد فيما مضى وكان زياد عنه راضياً، وهذا ما توضحه الرواية:

«لما ولي عبيد الله بن زياد بعد موت أبيه، أ طرح حارثة بن بدر^(١) وجفاه، فقال له حادثة: مالك لا تنزلي المنزل التي كان ينزلي أبوك؟ أتدعي أنك أفضل منه أو أعقل؟ قال له: ان أبي كان برع في الفضل بروعاً لا تضره صحبة مثلك، وأنا حدث أخشى أن تحرقني بنارك^(٢)، فإن شئت فترك الشراب وتكون أول داخل وآخر خارج.

قال: والله ما تركته الله فكيف أتركه لك؟

قال: فتخير بلداً أوليكه، فاختار سُدَقَ^(٣) من أرض العراق - فولاه إياها -.

فكتب إليه أبو الأسود الدؤلي وكان صديقاً له:^(٤)

أحار بن بدرٍ قد وليت ولايةً	فكن جرذاً فيها تخون وتسرق
وباهٍ تميماً بالغنى، إن للغنى	لساناً به المرء الهيوبه ينطق
وما الناس الا اثنان إمّا مكذب	يقول بما يهوى وأما مصدق

(١) وكان شاعراً أديباً ظريفاً يعاقر الشراب ويصحب زياداً.

(٢) وروى المبرد أنه قال له: «فمتى قربتك فظهرت رائحة الشراب منك لم آمن أن يظن بي» الكامل في اللغة والأدب: ج ١ ص ٢١٥.

(٣) قال له حادثة: توليني رام هرمز فإنها أرض عذاة (الأرض الطيبة)، وسدَقَ فإن بها شراباً وُصفَ لي، فولاه إياهما. الكامل في اللغة والأدب: ج ١ ص ٢١٥.

(٤) وذكر المبرد في الكامل ان الذي قالها أنس بن أنيس: ج ١ ص ٢١٥.

يقولون أقوالاً ولا يحكمونها فإن قيل يوماً حَقَّقُوا لم يحققوا
 فدع عنك ما قالوا ولا تكثر بهم فحظك من مال العراقيين سُدِّق
 فوقع في أسفل كتابه: لا بُعْدَ عليك الرشْد^(١).

وواضح من تهكم أبي الأسود الدؤلي أو أنس بن أنيس أن المجتمع كان يرصد حالات المخالفة التي يقوم بها رجال السلطة الكبار أمثال يزيد وابن زياد ويراقب تصرُّفاتهم ولكنه لا يملك منعها أو الحد منها ويكتفي بموقف التفرج منها.

إنَّ جيلاً قديماً مثل جيل أبي الأسود عاصر الرسول ﷺ وعاش في عهد أمير المؤمنين (عليه السلام) لا يستطيع أن يفهم كيف أن سكيراً يصرُّ على عصيانه - رغم معرفته بذلك - يُؤوَّى على بلد إسلامي لأن به شراباً وُصِفَ له، ويتم الأمر وكأنه مسألة عادية كانت تتم من قبل في دولة الاسلام الأولى، وأن الأمر لا يدعو برمته إلى القلق أو التذمر بأي حال من الأحوال.

ولتذكر ثانية أننا نتحدث عن دولة (اسلامية) يحكمها (خليفة) ينوب عن رسول الله ﷺ نفسه، أو هكذا يفترض فيه أن يكون.

نظام جديد ملك جديد

بعد اقامته في خراسان سنتين من ٥٣هـ حتى ٥٥هـ، ولي البصرة وعاد بالفين من الجنود النجادية، نظم البصرة بنظام الاخماس ولجأ إلى نظام العرفاء والامناء والنقباء والشرطة لضبط البصرة التي كانت توجد فيها حركة قوية للخوارج.

وعندما دعا معاوية الناس إلى بيعه يزيد ابنه وجعله ولياً للعهد بعد ذلك بسنة وبعد وفاة زياد كان ابن زياد من أول الداعين إلى ذلك والماندفعين إليه بحماس منقطع

(١) العقد الفريد: ج ٢ ص ٣٧٣ - ٣٧٤، والكامل في اللغة والأدب: ج ١ ص ٢١٤.

النظير ولعله كان يريد بذلك إزالة الأثر الذي تركه موقف زياد السلبي من مبايعة يزيد ومعارضته لها.

وسنرى كيف أن جهود معاوية قد أثمرت معه، إذ اندفع بعد أن أصبح يزيد رئيساً للدولة، إلى أقصى حد ممكن لتثبيت عرشه مستعملاً أكثر الوسائل دموية ووحشية لهذا الغرض، إذ كان الأمر في نظره يستحق ذلك، وكان عليه أن يبدو بمظهر الحريص الموالي لسيدته المحب له، وقد قبض ثمن ذلك مسبقاً ووُعدَ بثمن آخر دفعة أخرى تضاف للدفعة الكبيرة التي مُنحت له من قبل.

وكان يرى الافادة من اقطاعيته الواسعة لأقصى حد ممكن، فرغم ما تظاهر به من جد وحماس في خدمة الدولة، إلا أنه -كشأن أي حاكم- لا يحمل تصوراً إسلامياً صحيحاً ولا ينطلق من رغبة الأمة وإرادتها واختيارها؟ حاكم مستبد مطلق جعل سيفه وسوطه بديلين عن القانون الصحيح، تلوح له المتع الدنيوية السفلى هدفاً بحد ذاتها، فما دام قد أخضع الجميع بهذا السيف فهو يرى أن من حقه أن يجني ثمار نصره، مكاسب دنيوية عاجلة.

غير أنه أدرك أنه كان مرصوداً من قبل الأمة الواعية المدركة، وأنه سيكون محل نقدها وسخطها إذا ما تمادى وأفرط في سلوكه الفاحش، وكان له بيزيد عبرة، رغم أن قوة مركز يزيد التي أعدها معاوية من قبل تجعله بعيداً عن التعرض للنقد والتجريح، خصوصاً وأنه بدا بعد الاقدام على الجريمة التي ارتكبت في الطف بحق الامام الحسين وأصحابه عليهم السلام، أقوى مما كان في السابق، رغم أن الثورة حملت معها بذور الموت للنظام كله وجعلت الأمة تدرك فداحة خسارتها إذ تستسلم للنظام الأموي ذلك الاستسلام المهين، وتفكر بجدية للخلاص منه بعد ذلك، ويظل تفكيرها الجدي قائماً لمنع قيام كل نظام منحرف بعد ذلك، وإن ادعى الإسلام وحكم باسمه.

وقد عمّر ابن زياد (البيضاء)، وهو قصر بناه في البصرة، وكان فيها تصاوير الحيوانات كالأسد والكلب والكبش، ويزعمون أنه لما تم بناؤها أمر وكلاءه ألا يمنعوا أحداً من دخولها ويسمعوا رأي الناس بشأنها، ولعله أراد أن يتباهى امام جماهير البصرة بما أبدعه مجتمع الترف الذي تصدر سدة الحكم.^(١) وقد زعم أنه انفق عليها ألف ألف أرسلها اليه يزيد^(٢).

وبتعميره (البيضاء) وتزيينه إيّاها برسوم الحيوانات في بيئة لم تشتهر بالبناء والرسم، كان ابن زياد يحسب أنه قد حقق أمنية كبيرة، وأصبح من حقه أن يلفت الأنظار المشدوّهة بهذا الأمر الذي كان يريد أن يمتاز به ويسجل به تفوقاً على الآخرين، ولا نحسب أنه كان الوحيد في هذا الأمر، فظاهرة الترف كانت قد بدأت تشيع قبل ذلك بأعوام عديدة، وبدأ أفراد حتى ممن حسبوا على الصحابة باقتناء الدور والقصور والظهور بأبهة لم تكن مألوفة عند العرب خصوصاً.

أما في أيام يزيد، فقد كان عمال الدولة ورجال الحاشية والحكم يتسابقون في التشبه

(١) وقد روى الجاحظ في البيان والتبيين: ج ٤ ص ١٨ قال: لما بنى عبيد الله بن زياد البيضاء، كتب رجل على باب البيضاء: «شيء، ونصف شيء، ولا شيء. الشيء: مهران الترجمان، ونصف شيء: هند بنت أسماء، ولا شيء: عبيد الله بن زياد!»

ولعل الرجل كان يعني أموراً عديدة، إذ يرى دناءة نسب ابن زياد وسيطرة مهران عليه سيطرة تامة... وورد في الهامش أن «والبيضاء: دار عمرها عبيد الله بن زياد ابن أبيه بالبصرة، ولما تمّ بناؤها أمر وكلاءه أن لا يمنعوا أحداً من دخولها وأن يتحفّظوا كلاماً إن تكلم به أحد، فدخل فيها أعرابي وكان فيها تصاوير ثم قال: لا ينتفع بها صاحبها ولا يلبث فيها إلّا قليلاً، فأتي به ابن زياد وأخبر بمقالته، فقال له: لم قلت هذا؟ قال: لأنني رأيت فيها أسداً كالبحا وكلباً نابحاً وكبشاً ناطحاً، فكان الأمر كما قال، ولم يسكنها إلّا قليلاً حتى أخرجه أهل البصرة إلى الشام ولم يعد إليها»، معجم البلدان، ج ١ ص ٥٣٠.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٧٤.

بحياة سيدهم، كما بيّنّا ذلك في مكان آخر من هذه الدراسة، وكان الولاء ليزيد - يبدو في بعض وجوهه - أن يعيشوا حياة يزيد «وغلب على يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب»^(١). وهو أمر طبيعي أن يفعل الجميع ذلك ممن لم يتحصنوا بحصانة الاسلام، ما دام (خليفة المسلمين) نفسه قد تمادى فيه لأبعد حد.

كان ابن زياد صاحب لهو ورهانٍ على الخيل كما روى لنا الطبري عن عيسى بن عاصم الأسدي قال: «إن ابن زياد خرج في رهانٍ له، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة بن أدية، أخو أبي بلال، فأقبل على ابن زياد فقال: خمس كنّ في الأمم قبلنا، فقد صرن فينا ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾»^(٢) وخصلتان أخريان لم يحفظهما جرير [أحد ناقلي الخبر]، فلما قال ذلك ظن ابن زياد أنه لم يجترئ على ذلك إلا ومعه جماعة من أصحابه، فقام وركب وترك رهانه، فقيل لعروة: ما صنعت؟ تعلمنّ والله ليقتلنك، فتواري، فطلبه ابن زياد، فأتى الكوفة فأخذ بها، فقدم به على ابن زياد، فأمر به فقطعت يداه ورجلاه، ثم قتله وأرسل إلى ابنته فقتلها»^(٣).

كان ذلك سنة ٥٨ هـ أي قبل هلاك معاوية واستخلاف يزيد بستين، ومن الرواية السابقة نعلم أن ابن زياد صاحب رهانٍ وهو، وأنه كان يعد حلبات لسباق الخيل تجتمع فيها الناس، وهو أمر ربا بدا شائعاً وربما رافقته ضروب من الملاهي الأخرى، وتدل الرواية على خوف ابن زياد وجنبه عندما هرب من ابن أدية الخارجي حينما تصور أن

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٨٢.

(٢) سورة الشعراء ١٢٨ - ١٣٠.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٢٥٤.

معه جماعة من أصحابه.

كما تدل على قسوته المتناهية وولعه بالتمثيل بجثث ضحاياه، وإقدامه حتى على قتل النساء.

وكان صاحب شراب رغم تظاهره بغير ذلك، وقد رأينا كيف أنه كان من حاشية يزيد قبل توليته على خراسان والبصرة، ويزيد - كما هو معلوم - مشهور بالادمان على الشراب، كما رأينا كيف كان يجلس مع يزيد بعد مقتل الإمام (ع) ويزيد ينشد أبياتاً من الشعر، يحث فيها ساقيه على أن يسقيه شربة تروي مشاشه ويسقي ابن زياد شربة مثلها، فهو صاحب السر والأمانة ومساعدته لتسديد مغنمه وجهاده، فقد «جلس ذات يوم على شرابه وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد قتل الحسين، فأقبل على ساقيه فقال:

اسقني شربة تروِّي مشاشي ثم مل فاسقٍ مثلها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي
ثم أمر المغنين فغنوا به»^(١).

اسطورة في الارهاب وسفك الدماء... مع الخوارج أولاً

على أن الصفة التي اشتهر بها آل زياد وخصوصاً زياد وعبيد الله، هي القسوة المتناهية مع الناس دون سبب، والجرأة على سفك الدماء، وذلك ما أكسبهم سمعة اسطورية في هذا المجال، لم يغلبهم فيها في ذلك العهد الا الحجاج.

وقد جعل إقدامهم على تنظيم حمامات الدم المتواصلة لأعداء الدولة الناس يخشونهم خشية شديدة، وقد سمعنا العديد من الاقاصيص التي رويت لنا عن ولع زياد وابنه بالقتل دون تحفظ... وهذا ما دعا معاوية للتفكير بكتابة أمر يولي فيه ابن زياد

(١) مروج الذهب: ج ٣ ص ٨٢.

الكوفة بعد وفاته اذا ما فكرت بالخروج على حكمه ورجعت إلى قيادتها الشرعية المتمثلة بالإمام الحسين عليه السلام.

وقد مارس ابن زياد مهماته منذ أن ولاه معاوية خراسان عام ٥٣هـ، (بكفاءة) عالية الاداء جديرة أن ترضي سيده وتجعله يرى أنه جدير بمهمات كبيرة في المستقبل.

فقد أقام بخراسان سنتين^(١) ثم ولاه البصرة بعد أن وقعت فيها بعض المشاكل، وبعد أن رفضوا عامله السابق عليهم وهو عبد الله بن عمرو بن غيلان، ووفدوا إلى معاوية يرجون عزله.

وفي سنة ٥٨هـ «اشتد عبيد الله بن زياد على الخوارج، فقتل منهم صبراً جماعة كثيرة، وفي الحرب جماعة أخرى»^(٢).

وقد رويت قصة مفادها أن معاوية عزل ابن زياد سنة ٥٩هـ ثم أبواه بتوصية من الأحنف كما زعم^(٣)، وأغلب الظن أن معاوية لجأ إلى ما لجأ إليه لكي يريه أن أمر عزله

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٤٤.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٥٤.

(٣) ذكر الطبري في تاريخه: ج ٣ ص ٢٥٧ أن عبيد الله بن زياد وفد في أهل العراق إلى معاوية فقال له: «إنّك لو فديت على منازلهم وشرفهم، فأذن لهم، ودخل الأحنف في آخرهم، وكان سيء المنزلة من عبيد الله فلما نظر إليه معاوية رحب به، وأجلسه معه على سريره، ثم تكلم القوم فأحسنوا الثناء على عبيد الله والأحنف ساكت. فقال: مالك يا أبا بحر لا تتكلم؟ قال: ان تكلمت خالفت القوم. فقال: انهمضوا فقد عزلته عنكم، واطلبوا والياً ترضونه. فلم يبين في القوم أحد إلا أتى رجلاً من بني أمية أو من أشرف أهل الشام، وقعد الأحنف في منزله، فلم يأت أحداً. فلبثوا أياماً، ثم بعث اليهم معاوية فجمعهم، فلما دخلوا عليه، قال: من اخترتم؟ فاختلفت كلمتهم، وسمي كل فريق منهم رجلاً، والأحنف ساكت. فقال له معاوية: ما لك يا أبا بحر لا تتكلم؟ قال: ان وليت علينا أحداً من أهل بيتك لم نعد لعبيد الله أحداً، وان وليت من غيرهم فانظر في ذلك. قال معاوية: فإني قد أعدته عليكم، ثم أوصاه بالأحنف، وقبح رأيه في مبادئه، فلما هاجت الفتنة لم يف لعبيد الله

بسيط وأن الأمر الوحيد الذي يتيح له البقاء هو التفاني المطلق في خدمة دولته.

وإن الأحنف لم يرد التدخل في أمر تولية أحد يراه هو مناسباً، وترك الأمر لمعاوية يتحمّل مسؤولية ذلك وحده، إذ أنه لم يكن ليولي من يرضى عنه الأحنف بأي حال من الأحوال، وربما أراد جس نبضه ليرى مدى استعدادده للتدخل في شؤون الدولة، وقد فوّت الأحنف هذه الفرصة عليه.

كما رويت قصة أخرى عن عبث الشاعر ابن المفرغ بعباد، أخي زياد وقوله فيه اشعاراً تناقلتها الناس، كما رويت عنه أشعار ساخرة بشأن استلحاق زياد بأبي سفيان، وقد طلب عبيد الله من معاوية أن يقتله إلا أنّ معاوية رفض ذلك وطلب منه أن يؤدّب وحسب.

وقد تحمل ابن زياد هجاء ابن مفرغ وسخريته ولم يستطع فعل شيء معه لأن معاوية قد أمنه، بل وأعادته إلى البصرة، إلى حيث ابن زياد نفسه، ويبدو أن تلك كانت محاولات متكررة من معاوية لاختبار ولاء ابن زياد لقائد الدولة الأموية.

كما نشط ابن زياد - قبل اقدمه على جريمته الكبرى في الطف - في محاربة الخوارج في كل مكان كان يكلف بادارته واشتهر باعتباره أكبر محارب وعدو لهم^(١).

وبما أن الخوارج عرفوا باعتبارهم أسوأ مفسرين لآيات القرآن الكريم وبنود الاسلام عامة وكانوا على حد تعبير أمير المؤمنين (عليه السلام) ممن طلبوا الحق فأخطئوه، وكان لهم دور كبير بمهزلة التحكيم وقد أجبروه (عليه السلام) على قبولها بإيعاز خفي من أعوان معاوية

غير الأحنف».

(١) وقد روى الطبري أن زياداً وابنه قتلا من الخوارج ثلاثة عشر ألفاً وحبس عبيد الله منهم أربعة آلاف: ج ٣ ص ٣٧٥، وقد روي عنه قوله: «فما عملت بعد كلمة الاخلاص عملاً هو أقرب إلى الله عندي في قتلي من قتلت من الخوارج» الطبري: ج ٣ ص ٣٧٤.

المندسين في جيشه، ثم قتله بعد ذلك وتوبة الكثيرين منهم وقيامهم بإعلان الثورة على الحكم الأموي، ورفض أي نمط للحكم سواء أكان مقارباً لحكومة أمير المؤمنين (عليه السلام) أم حكومة معاوية ودعوتهم للالتزام الحرفي بنصوص الكتاب الكريم بغض النظر عن المناسبات التي نزلت بها أو التقيد بأحكام النسخ والتفسيرات التي أوردتها رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو أمير المؤمنين (عليه السلام) وصيه من بعده، وكانوا معروفين بخروجهم الدائم على الدولة والمجتمع والاسلام في آن واحد، ومن هنا فإن ابن زياد - كأبيه - اكتسب شهرة بمقاومتهم وإبادتهم بشكل بدا فيه وكأنه بطل يؤدي للإسلام أفضل الخدمات.

فلا شك في أن الخوارج كانوا من أشد الفرق تحريماً للإسلام، ويستتبع ذلك أن يكون المحارب لهم - في نظر العديدين - من أبطال المسلمين.

ألم يحاربهم أمير المؤمنين (عليه السلام) نفسه؟ وقد كان بذلك ينصر الاسلام...

وقد حاربهم معاوية، فلا بد أنه كان ينصر الاسلام أيضاً...!!

بهذه الحجة قد يواجه المدافعون عن معاوية خصومهم...

ويواجه المدافعون عن أقطاب الدولة الأموية كزياد وعبيد الله خصومهم أيضاً...

وهي حجة تبدو قوية في الظاهر، غير أننا إذا ما درسنا وقائع التاريخ الاسلامي في ذلك العهد ونظرنا إلى الدوافع وراء اعلان الحرب على الخوارج من قبل حكومة أمير المؤمنين (عليه السلام) أدركنا أن هؤلاء سيكونون بذرة اختلاف وفرقة بين أبناء الأمة، وأنهم بذلك ساعدوا على تمرير بعض المخططات الرهيبة عليها مثل مهزلة التحكيم، وأنهم سيكونون ذريعة لكل حاكم يريد ضرب خصومه فلا يجد أنسب من توجيه وإلصاق تهمة الانتساب إليهم للخصوم.

إن دوافع معاوية لم تكن - بالتأكيد - نفس دوافع علي (عليه السلام)، فمعاوية يريد تثبيت

دولته وتحصينها ضد كل خطر محتمل مهما كان مصدره ويهمه استقرار هذه الدولة واستتباب الهدوء فيها ليمرر كل مخططاته وألأعبيه، وهؤلاء من الذين يقفون حجر عثرة في سبيل ذلك، فأراد القضاء عليهم ليتم له ذلك.

ومن هنا جاءت توصية أمير المؤمنين عليه السلام :

«لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فإخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه.

قال الشريف: يعني معاوية وأصحابه»^(١).

فمعاوية أدرك طلبه وأقام دولته على الباطل، وهذا ليس مبرراً لإلباس حكمه ثوب الشرعية نزولاً على نظرية الحكم الواقع، ولا يؤهله ذلك لأن يقف في مقدمة من يتصدى للطرف الآخر الذي لا يقل عنه خطورة.

وقول أمير المؤمنين عليه السلام واضح هنا، وكانت له إشارات عديدة واضحة - عن العلم الذي تعلمه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - أن من سيلي أمور الأمة ومقدراتها هم معاوية ورهطه، وكانت علامات ذلك تبدو من خلال انحراف الأمة وراء الفتن والأهواء وقادة السوء الذين تزعمهم معاوية.

فأمير المؤمنين عليه السلام يرى هنا طرفين، أحدهما طلب الحق فأخطأه وهم الخوارج الذين ضلوا بشبهات وتفسيرات غريبة تبناها واعتقدوها وربما كانت نواياهم مخلصه رغم خطئهم القاتل الذي جر على الأمة الويلات.

والثاني معاوية ورهطه الذين لم تكن لهم أربة في الحق ولم يكونوا من أرباب الدين والصلاح «وكان مترفاً يذهب مال الفياء في مآربه وفي تمهيد ملكه، ويصانع به عن

(١) نهج البلاغة: ص ٩٤.

سلطانه وكانت أحواله كلها مؤذنة بانسلاخه عن العدالة واصراره على الباطل وإذا كان كذلك لم يجوز أن ينصر المسلمون سلطانه وتحارب الخوارج معه وإن كانوا ضالين»^(١).

فلم يكن تصدي الدولة الأموية وحررها للخوارج بدافع من حرصها على الإسلام، وإنما كان بدافع الحفاظ على كيائها كدولة مملوكة لمعاوية وأعوانه، وكان ابن زياد - على هذا الأساس - جديراً بأن يقوم بهذه المهمة بنفس الحماس الذي قام به أبوه من قبل، فأى طرف أو جهة تخرج على الدولة، فإن ذلك يعني الخروج عليه هو ويعني مزاحمته شخصياً على المكاسب والامتيازات التي حصل عليها والتي ما كانت تتاح له أبداً لو كان يعيش في ظل دولة إسلامية حقيقية.

وهذا هو سر تفانيه في خدمة الدولة وخوض الحروب من أجلها حتى اشتهر بذلك وحتى اعتقد بعض من يعالجون الأمور دون النظر إلى مسبباتها، أنه كان بطلاً من أبطال الإسلام ما دام قد حقق تلك النجاحات الباهرة في حروبه مع الخوارج الذين أضروا بالأمة فعلاً، وكان مجيء معاوية للحكم في نهاية المطاف نتيجة لتصرفاتهم واندفاعهم الأحمق وراء الشبهات والأضاليل.

وقد بالغ ابن زياد في قسوته في معاملة الخوارج ولجأ إلى أشد الأساليب عنفاً حتى مع النساء، فقد سمعه أحد الذين كانوا في مجلسه ذات يوم يذكر البلجاء الخارجية، فحذر أبا بلال، أحد أصحابها «فمضى إليها أبو بلال فقال لها: إن الله قد وسع على المؤمنين في التقية»^(٢) فاستتري؛ فإن هذا المسرف على نفسه، الجبار العنيد قد ذكرك، قالت: إن يأخذني فهو أشقى بي، فأما أنا فما أحب أن يعنت إنسان بسببي فوجه إليها عبيد الله بن زياد، فأتي بها فقطع يديها ورجليها، ورمى بها في السوق... ثم إن عبيد

(١) ابن أبي الحديد: شرح النهج: ج ٥ ص ٤٤٧.

(٢) التقية والتقاء بمعنى الوقاية والحفظ.

الله تتبع الخوارج فحبسهم... ثم قتل من كان في الحبس منهم بعد ذلك»^(١).

وقد هزم مرداس الخارجي وأصحابه وعددهم أربعون شخصاً جيشاً جرده ابن زياد عليهم يتألف من الفي رجل.

وقد سخر أحد الشعراء وهو عيسى بن فاتك من جيش ابن زياد الذي ضم المرتزقة (ذوي الجعائل) كما ساءهم أي الذين يعطون أجوراً لينبوا على آخرين في القتال، رغم تشجيع السلطة إياهم وتسميتهم بالمؤمنين عند استنفارهم لقتال أعدائهم.

فلما استجمعوا حملوا عليهم
بقية يومهم حتى أتاهم
يقول بصيرهم لما أتاهم
ألفاً مؤمن فيما زعمتم
فظل ذوو الجعائل يقتلونا
سواد الليل فيه يراوغونا
بأن القوم ولوا هاربينا
ويهزمهم بأسك أربعونا^(٢)
وفي معركة أخرى جرد لها ابن زياد أربعة آلاف من الجنود استطاعوا التغلب على
الخوارج مستغلين انشغالهم بالصلاة، وهي حيلة ربما دبرها ابن زياد لقائده.
«وكان عبيد الله لا يلبث الخوارج^(٣)، يحبسهم تارة ويقتلهم تارة، وأكثر ذلك يقتلهم
ولا يتغافل عن أحد منهم»^(٤).

وهذه مأثرة ابن زياد الوحيدة، غير أنه كان يريد أن يحمي بها دولته وسلطانه، ولم يكن ينتصر للإسلام بأي حال من الأحوال.

(١) الكامل في اللغة والأدب: ج ٣ ص ١٣٨.

(٢) الكامل في اللغة والأدب: ج ٣ ص ١٤٠-١٤١.

(٣) لا يدعهم يلبثون يوماً من غير أن ينكل بهم، والعقد الفريد: ج ٢ ص ٢٤٠، وما بعدها وج ١ ص ١٨٢.

(٤) الكامل في اللغة والأدب: ج ٣ ص ١٤٥، والعقد الفريد: ج ١ ص ١٨٣.

طاقة الشر التي أريد لها أن تتفجر في الكوفة

لقد كان عبيد الله - بنظر معاوية - (طاقة كبيرة)، أراد لها أن تتفجر في أكثر الاماكن حرجة وحساسية، وكان يعده لهذه المهمة التي لم يرد أن يُلطَّخ يد ابنه بها ظاهرياً ويلقي وزرها على ابن زياد ومنفذه من شرطة العراق وأشرفه من أعوان الدولة.

وعندما أهم خروج الحسين عليه السلام إلى العراق يزيد كان عهد معاوية المكتوب والمودع لدى مستشار الدولة المسيحي سرجون هو مفتاح القضية كلها بنظره.

ولعل ابن زياد كان فخوراً بهذا الاختيار الذي كان الدافع إليه هو قسوته حتماً، ولعل فخره بتلك القسوة التي أتاحت له تلك المنزلة لدى سيده حتى أنه عهد إليه بمهمة التصدي للحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وآله، جعله يصمم على أن يكون عند حسن ظنه فعلاً، كما كان عند حسن ظن أبيه من قبل، ويوغل في الجريمة إلى أبعد حد ممكن بعد أن جعله يزيد أمام طريقين لا ثالث لهما، أما ان يظل معه ويتسع ملكه، أو يعود عبداً كما كان.

لقد كان ابن زياد يضع يزيد مثلاً أعلى وحيداً، ويرى فيه القوة الوحيدة القادرة على رفعه أو خفضه، ويرى أن فشله في مهمته قد يعني الموت المحقق له إمّا على يد أنصار الحسين عليه السلام من أهل الكوفة أو غيرهم، أو بيد يزيد بعد ذلك، إذا ما أتاحت له فرصة النجاة من هؤلاء، وهو أمر دفعه إلى فعل المستحيل في مواجهة مسلم الذي كان يبدو وكأن الوضع كله كان لصالحه.

وربما دفعه خوفه من عقاب يزيد إلى إظهار تلك الشجاعة والتَّهور في هذه المواجهة، مع أنه كاد أن يستسلم مرتين في تلك المواجهة: مرة لهانئ، ومرة لأصحاب مسلم عندما رأى من دلائل الحال ما يشير إلى أنها كانا يتمتعان بقوة كبيرة، وأنَّ اعداداً

غفيرة من جماهير الكوفة كانت تساندتهما، لو لم يشجعه مستشاره وخادمه (مهران) على الصمود ولو لم يمل إلى جانبه (أشراف) الكوفة ووجهاؤها وبعض المتنفذين فيها ويخذلون الناس عن نصرة مسلم، مستغلين سمعة ابن زياد كطاغية معروف لا يتورع عن اللجوء إلى أفسى الأساليب وحشية ودموية، وسمعة جيش الشام المتفاني في خدمة سيده، والذي أشاعوا أنه كان في طريقه إلى الكوفة.

قانون دولة الظلم

وعندما قدم ابن زياد الكوفة وهو متلثم، ظن الناس أنه الحسين عليه السلام، فأقبلوا يسلمون عليه، «وقالوا: مرحباً بك يا بن رسول الله، قدمت خيرَ مقدم، فرأى من تبشيرهم بالحسين عليه السلام ما ساءه»^(١) فهو لا يتحمل أن يزاحمه أحد في ملكه وحكومته، وبعد أن أقطعه يزيد الكوفة وجعله والياً مطلقاً عليها من قبله.

وقد علموا فيما بعد -عندما دخل القصر- أن من سلموا عليه لم يكن سوى عبيد الله بن زياد «فدخلهم من ذلك كآبة وحزن شديد، وغاز عبيد الله ما سمع منهم»^(٢).

وفي أول خطبة له فيهم لم يعد إلى توجيه تهديداته القوية التي اعتاد توجيهها من قبل، وإنما مزج اللين بالشدّة. ولعله خاف أنه إذا ما كان عنيفاً معهم منذ الوهلة الأولى، فربما يكون رد فعلهم عنيفاً أيضاً، وربما تمكنوا منه فقتلوه أو طردوه في أحسن الأحوال، وهكذا فإنه خطب فيهم قائلاً: «فإن أمير المؤمنين -يقصد يزيد، أصلحه الله- ولا ني مصركم وثرغركم، وأمرني بانصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم وبالشدّة على مريبكم وعاصيكم، وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده، فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البر، وسوطي وسيفي على من ترك أمري

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١.

وخالف عهدي، فليبق امرؤ على نفسه، الصديق ينبيء عنك لا الوعيد»^(١).

وعندما لم يجد رد الفعل السلبي الغاضب، وكأول تدبير وقائي، عمد «أخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً فقال اكتبوا إلي الغرباء ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشقاق فمن كتبهم لنا فبرئ ومن لم يكتب لنا أحداً فيضمن لنا ما في عرافته ألا يخالفنا منهم مخالف ولا يبغى علينا منهم باغ فمن لم يفعل برئت منه الذمة وحلال لنا ماله وسفك دمه وأيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صلب على باب داره وألقيت تلك العرافة من العطاء وسير إلى موضع بعمان الزارة»^(٢).

ان هذه التعليقات المشددة التي آثرنا نقلها كاملة هنا، تبين ان النظام الحاكم كان قد طور جهازه الاداري بحيث تتاح له فرصة تعيين موظفين مأجورين تابعين له مباشرة دون الرجوع إلى رؤساء قبائلهم (عرفاء أو مختارين أو رؤساء محلات أو شرطة أو عيون، ...) يقومون بضبط محلاتهم ومناطقهم وأماكن عملهم لمصلحة الدولة.. وكان من جملة تلك الأعمال تنظيم قوائم بأسماء كل المطلوين والغرباء والمشتبه بهم، وهذا الأمر يتطلب ان يكون لكل عريف أو نقيب مجموعة من الشرطة أو العيون المتطوعين لقاء هدايا أو أجور معينة، ويتطلب أن يكون هذا العريف نفسه عيناً للدولة في منطقته، تعلم عن طريقه كل ما تريد معرفته، وهو أسلوب متطور في قياس ذلك الزمن، وقد رأينا انه قد لجأ إليه عندما كان في البصرة، وقد أرسى ذلك الأسلوب من قبل معاوية وزياد.

وما كان أحد ليلجأ إليه بالشكل الذي لجأ إليه من قبل لو كانت الدولة الاسلامية

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١.

قد اخذت مسيرتها الصحيحة منذ البداية وابتعدت عن خطّ الانحراف، وكانت الرقابة الطبيعية قد نمت - لا من قبل أناس مأجورين مرتزقة، يعملون وفق هواهم ومصالحهم - وإنما من قبل الناس أنفسهم؟ رقابة ذاتية، يرى فيها كل مسلم نفسه مسؤولاً عن الأمة كلها فيأخذ دوره الإيجابي للحفاظ عليها وعلى مكاسبها التي تتحقق في ظل الاسلام.

غير أن الدولة التي تريد تعزيز سلطانها وبسط نفوذها على أساس غير إسلامي، وتدرّك أنها غير شرعية حتى ولو ادعت ذلك، وتدرّك مدى المعارضة الشعبية الواسعة التي تواجهها، ترى أن الأسلوب الامثل لإلزام الناس بالطاعة والخضوع هو تشديد الرقابة عليهم، وقمع المعارضين بأشدّ الاساليب وحشية ودموية واللجوء إلى أسلوب الرشوة والعتاء الكيفي، وهو ما فعلته الدولة الأموية بالضبط وأصبح سنّة للدول التي جاءت بعدها.

وقد لجأ ابن زياد إلى الدهاء والمكر اللذين طالما لجأ إليهما والده من قبل؛ فهو قد علم قبل مقدمه الكوفة أن أغلب الناس كانوا يميلون إلى الحسين عليه السلام، ومن لم يكن يميل إليه لم يظهر ذلك أمام تنامي الثورة الشعبية التي ظهرت بعد هلاك معاوية، فحينما دخل الكوفة، وظن الناس أنه الحسين عليه السلام ورحبوا به، ثم شتموه بعد أن علموا من هو، رأى أن لا يؤاخذهم على موقفهم ذاك وإن يتناسى كل موقف مناوئ له ولدولته.. لأنه إن أخذهم في ذلك الوقت المبكر، فربما كان يفتح جبهة للحرب لم يكن عليه أن يفتحها الآن، وما عليه الا أن يسكت ويطمئنهم إلى أنه لم يعرف أحداً قد شتمه أو رفضه أو أراد إلحاق الأذى به، وهكذا قال في صبيحة اليوم التالي عندما جلس على المنبر وخطب في الناس: «إني لأعلم أنه قد سار معي وأظهر الطاعة لي من هو عدو للحسين حين ظن أن

الحسين قد دخل البلد وغلب عليه، والله ما عرفت منكم أحداً^(١).

لقد تبرع بتسجيل نقطة لصالحهم أراد التملق لهم بها وفتح باب الرجعة أمامهم.. وأوجد لهم عذراً مقبولاً لدى الدولة، انهم فعلوا ما فعلوه معه لأنهم ظنوا أن الحسين عليه السلام قد دخل الكوفة واستتب له الأمور، ولو لم يكن الأمر كذلك لما مال أحدٌ إليه.

بهذا المنطق المتلوي الذي كان جديراً بمعاوية وزياد خاطبهم.

وبذلك طمأنهم وأتاح لهم الانتقال إلى صفه، وهو ما تم له في النهاية.

إن أسلوب الدسيسة والمراقبة والتجسس، طالما نجح في كشف العديد من أعداء الدولة الأموية، وكان أسلوباً قديماً متبعاً في أنظمة الحكم الغابرة.. وقد رأينا خبرة معاوية بأساليب السياسات الفرعونية القديمة، وكيف كانت الملوك تسوس رعيتهما وتضبط شؤونهم، ولطالما لجأ أولئك الغابرون إلى اعتماد المراقبين والجواسيس ونشرهم بين الناس لرصد أقوالهم وتحركاتهم ونقلها إليهم.

وهو أسلوب لا يزال سائداً حتى اليوم وقد تطورت أنظمتها وأساليبه إلى حد بعيد.. غير أننا إذا ما لاحظناه في مطلع العهد الأموي نرى أنه قد تطور بشكل هائل قياساً لما كان عليه في السابق، خصوصاً وأنه لم يعتمد في الحكم الإسلامي الذي أراد الرقابة أن تكون ذاتية، وأن يقوم هذا المجتمع بنفسه برد كل منكر، ويقوم كل فرد بمراقبة نفسه وتقويمها وعرضها على مبادئ الإسلام في عملية (جهاد أكبر) مستمرة لا تنتهي إلا بانتهاء حياة الإنسان نفسه.

وقد دعا ابن زياد «مولى لبني تميم فأعطاه مالا، وقال له: انتحل هذا الأمر، وأعنهم

بالمال واقصد لهاني ومسلم وانزل عليه»^(١)، وقد نفذ الرجل مهمته بمهارة خبير متمرس ووصل إليها وأخبر زياداً بالأمر، وواجه هائناً بذلك أمام ابن زياد الذي استدرجه إلى الجنود أمامه بعد أن آمنه، ثم نكل به وضربه وحبسه، وقتله بعد أن قتل مسلماً في نهاية المطاف.

وقد أتاحت لمسلم وهاني فرصة قتله في بيت هاني، إلا أنها أيا ذلك لأسباب دينية بحتة، حيث روي أن مسلماً نقل حديثاً عن الرسول ﷺ مفاده أن الغدر ليس من شيم المؤمنين، وقد أوضحنا ذلك في كتابنا (مسلم بن عقيل).

وقد رأينا حوار المتشجع مع مسلم وادعاءاته الباطلة بأحقية يزيد وشرعية حكمه وشمته أمير المؤمنين وآل البيت ﷺ في كتب التاريخ وكما ذكرها الطبري.

وقد رأينا كيف أنه أقدم على جريمة قتلها بعد أن استتبت له الأمور وأيقن بخضوع أهل الكوفة وانصرافهم عن قضية مسلم، وكانت استجابتهم له قبل ذلك ربما بدافع اعتقادهم بضعف الدولة الأموية التي مثلها أمامهم النعمان بن بشير الوالي الضعيف، وانهم إذ رموا به - أي بابن زياد نفسه - فقد تحاذلت الأغلبية منهم، كما ساعد على ذلك قيام (الاشراف) بمهمة تخذيل الناس عن مسلم^(٢) وكما سنوضحه - فيما بعد بصورة

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٥٥ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٨٩، وروى الطبري أن ابن زياد اصدر اليه تعليمات مفصلة وقال له: «خذ ثلاثة آلاف درهم، ثم اطلب مسلم بن عقيل، واطلب لنا أصحابه، ثم أعطهم هذه الثلاثة آلاف فقل لهم: استعينوا بها على حرب عدوكم، وأعلمهم أنك منهم، فإنك لو أعطيتها إياهم اطمأنوا اليك ووثقوا بك، ولم يكتموك شيئاً من أخبارهم، ثم أغد عليهم ورح، ففعل ذلك، وملاحظات ابن زياد هذه ملاحظات خبير متمرس بأمثال هذه المهمات التي يبدو أنه قام بالعديد منها فيما سبق...» الطبري: ج ٣ ص ٢٨٣.

(٢) ولخص الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٩٣-٣٩٤ دور الاشراف بتخذيل الناس عن مسلم عندما حاصر ابن زياد في القصر... «فلما بلغ ابن زياد اقباله تحرّز في القصر وأغلق الباب وأحاط مسلم بالقصر وامتلاً المسجد والسوق من الناس، ومازالوا يجتمعون حتى المساء. وضاق بعبيد الله

أكثر تفصيلاً - بعون الله.

من يحمي من؟ السلطان أم الجندي

ان مشاهد عديدة تبرز أمام الباحث المتأمل في تاريخ تلك الأيام القليلة الحاسمة، وهي جديرة بمزيد من الدراسة والبحث والنظر لأنها تتعلق بمنعطف كبير أثر على مجرى تاريخ الأمة كله فيما بعد.

ومن تلك المشاهد ما يتعلق بعبيد الله بن زياد نفسه، قائد الحملة المضادة لمسلم والحسين عليه السلام فيما بعد ومرتكب مجازر الطف الرهيبة.

فرغم الشجاعة الظاهرية التي كان يدعيها ويبدو بها كاد أن يتخاذل ويستسلم أو يهرب عدة مرات، لولا المصير المعد له من قبل يزيد لو فعل ذلك.. وسنرى كيف أنه -بعد هلاك يزيد- سينسحب ويهرب من البصرة ويلجأ إلى امرأة من قبيلة قوية لتجيره ريثما يلتحق بركب الأمويين المرعوبين إثر الحدث المفاجيء.

إن الشجاعة الظاهرية مصدرها السلطان القابع في دمشق بجيوشه وأمواله، ولم

أمره وليس معه في القصر إلا ثلاثون رجلاً من الشرط وعشرون رجلاً من الأشراف، وأهل بيته ومواليه. وأقبل أشراف الناس يأتون ابن زياد من الباب الذي يلي دار الروميين، والناس يسبون ابن زياد وأباه فدعا ابن زياد كثير بن شهاب الحارثي وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج فيسير ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم، وأمر ابن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضر موت فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس وقال مثل ذلك لابن شور الذهلي وشبث بن ربعي التميمي وحجار بن ابجر العجلي وشمر بن ذي الجوشن الضبابي وترك وجوه الناس عنده استئناساً بهم لقلته من معه.

وخرج أولئك نفر يخذلون الناس، وأمر عبيد الله من عنده من الأشراف أن يشرفوا على الناس من القصر فيمنوا أهل الطاعة، ويخوفوا أهل المعصية ففعلوا فلما سمع الناس مقالة أشرافهم أخذوا يتفرقون...

يكن لابن زياد قضية حقيقية مقابل قضية الثورة لكي يندفع إلى أبعد حدٍّ محققاً إحدى الحسينيين إما النصر وإما الشهادة.

فقد كاد عبيد الله أن يتخاذل أمام هانئ لولا مهران مستشاره.

وتملكه الرعب عندما حوَّصر من قبل مذبح قبيلة هانئ لولا أن استنجد بشريح القاضي للادلء بشهادة كاذبة امامها، ولولا تحاذل عمرو بن الحجاج القائد المنافس لهانئ والذي دفعته الجموع الثائرة امامها لقصر ابن زياد للمطالبة بهانئ، فاكتمى بتقديم فروض الولاء والطاعة، واكتفى بشهادة شريح بأن هانئاً كان لا يزال حياً.

كما تملكه الرعب ثانية عندما حاصره مسلم في القصر لولا أن سارع إلى الاستنجاد بالإشراف ودعاهم لتخذيل الناس عن مسلم ملوحين بجيش الشام وقوة (الخليفة) المتربص هناك.

وقد أبى عبيد الله ان يتصدى لمسلم ويخرج لقتله عندما نصحه بعض أعوانه بالخروج فيمن معه من أتباعه وشرطه.. ورأى أن القضية لا تستحق منه أن يجازف بحياته، فهل يضمن له يزيد الجنة بعدها؟ بعد أن ضمن له مكاسب عديدة بعد انجاز مهمته.

غير أنه عندما اطمأن إلى ذهاب مسلم بعد ان لم يبق معه أحد من أهل الكوفة، أخذ يهدد أهل الكوفة مجرداً كل شجاعته وعجرفته وأعوانه داعياً الجميع لأكبر حملة تفتيش عن شخص، بدا وكأنه يشكل بمفرده خطراً حقيقياً على الدولة.. وألقى خطاباً نارية تهدد فيها وتوعد، وسلط رئيس شرطته الحصين بن تميم على دور أهل الكوفة دون النظر إلى حرمتها.

وتم له في النهاية بعد وشاية من شاب سكير - هو ابن المرأة التي آوته - اكتشاف

مكانه وتجريد قوة للقبض عليه بعد حيلة دنيئة وبعد أن أمنه قائد تلك القوة على حياته. وبعد مقتل مسلم وهانئ قام بأكبر حملة اعتقالات للعناصر الموالية للإمام (ع). ذكر بعض المؤرخين أن عدد المعتقلين تجاوز الألفين، ولعله جرد لهذه المهمة كل ما لديه من شرطة وعرفاء وأشراف ووجهاء وعيون ونقباء وأمناء مكملًا العملية بالقيام بأكبر عملية تعبئة لمواجهة الإمام الحسين (ع)، كما سنرى في غضون هذه الدراسة بعون الله.

شجاعة أم سوء خلق

ان ما يلفت النظر عند استعراض سيرة ابن زياد هو سوء الخلق الذي امتاز به لا أمام أعدائه وحسب، وإنما أمام أنصاره والموالين له، حتى وإن كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة بين قومهم، ولن نتعرض لسلوكه السيء مع هانئ ومسلم - وقد سبق أن تكلمنا عن ذلك في كتابنا - فقد يوجد التبرير اللازم لذلك وهو أنها من أعدائه وخصومه.

لقد عاتبه أسماء بن خارجة وهو من أعوانه عتاباً خفيفاً على عدم الوفاء بعهده لهانئ، وكان أحد الذين دعوا هانئاً للحضور أمامه على أن له الامان، وقد التفت اليه ابن زياد، كأنه لا يشعر بوجوده ولم يحس به الا في تلك اللحظة التي تكلم فيها، وقال له: «وانك لنا فأمر به فلهمز وتعتع ثم ترك فحبس»^(١) فترة قصيرة، مع أن أسماء قد يتبجح أمام الناس بمكانته (المرموقة) عند ابن زياد.

ومع أن ابن الاشعث كان مقرباً منه هو الآخر، وكان أحد وجوه وأشراف الكوفة المعروفين، الا أن ابن زياد نخسه بالقضيب في جنبه (وهو ما يفعله المرء مع حمارة عادة) عندما سمع أن مسلماً كان في احدى دوره وأمره أن يأتي به حالاً، وقد استجاب ابن الاشعث استجابة ذليلة، وقد حسب عندما استعصى عليه أمر القبض على مسلم ان

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٦.

بإمكانه إعطائه الأمان، وفعل ذلك وأمنه، وعندما أخبر ابن زياد بما كان أمانه إياه سخر منه ابن زياد وقال له: «..ما أنت والأمان كأنا أرسلناك تؤمنه إنما أرسلنا لتأتينا به فسكت»^(١).

انه يخاطبه باستعلاء وكأنه يقول له: انما أنت أحد عبيدنا وخدمنا وما عليك الا الطاعة، ونرى العديد من هذه اللقطات الملفتة للنظر عندما نستعرض سلوكه قبيل معركة الطف وبعدها.

إن هذه الظاهرة تبدو لنا في سلوك أولئك الجافين الغلاظ الذين لا يحكمهم قانون سوى قانونهم الشخصي ومصالحهم وامتيازاتهم وهوامهم؟ وهيهات أن نجد لهذا الخلق السيئ أثراً لدى الناس الرساليين الذي يرون أن أقل ما ينبغي أن يمنحوه للآخرين هو الخلق العالي القويم، وشتان ما بين طاغية وداعية إلى الإسلام وإلى الله.

ويبرز سوء سلوكه ببعض الفاظه البذيئة وحتى مع الذين لا يستدعي الأمر معهم ذلك^(٢) وقد رويت لنا حوادث عديدة عن ذلك.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٠.

(٢) روى المبرد في الكامل: ج ٢ ص ١٢٧ عن الرياشي قال: دخل أبو الأسود الدؤلي على عبيد الله ابن زياد وقد أسنَّ، فقال له عبيد الله يهزأ به: إيه يا أبا الأسود، انك لجميل، فلو تعلقت تميمه ترد عنك بعض العيون. فقال أبو الأسود:

أفنى الشباب الذي أفنيت جدته كدّ الجديدين من آتٍ ومنطلقٍ
لم يتركنا لي في طول اختلافهما شيئاً أخاف عليه لذعة الحَدَقِ

وروى الجاحظ، البيان والتبيين: ج ٢ ص ٢١١ «ان سويد بن منجوف كلمه في الهتاهات بن ثور فقال له: يا بن البضراء قال له سويد: كذبت على نساء بني سدوس، قال: اجلس على إست الأرض، قال سويد: ما كنت أحسب أن للأرض إستاً...».

الشك أولاً

وثمة شيء آخر ملفت للنظر أيضاً هو حذر عبيد الله وشكه وعدم ثقته حتى بالمقرّبين منه، ومن يحسبون أنه قد آمن منهم ولجأ إليهم، فهو يدرك أن المبادئ ليست هي التي دعتهم لخدمته والسير وراءه، وانهم ربّما يتخلون قريباً عنه لسبب أو لآخر وينحازون إلى جانب عدوه إذا ما وجدوا أن الغلبة له في النهاية.

فعندما اختلى مسلم بن عمرو الباهلي بهانئ بن عروة يريد أن يقنعه بتسليم مسلم إليه وجلسا «ناحية من ابن زياد، وهما منه على ذلك قريب حيث يراهما إذا رفعاً أصواتهما سمع ما يقولان وإذا خفضا خفي عليه ما يقولان»^(١).. فهو لا يريد أن يفلت أي منهما من مراقبته ومن نظراته، كما لم يرد أن يفلت مسلم وعمر بن سعد من نظراته أيضاً، عندما أراد مسلم قبيل مقتله أن يختار أحداً يبلغه سرّه، فاختار عمر باعتباره القرشي الوحيد الذي ينتمي بقرابة بعيدة إليه «.. فقام معه فجلس حيث ينظر إليه ابن زياد»^(٢).

وعندما أرسل شريح القاضي يشهد لمذبح، قوم هانئ، بأنه حي وان عبيد الله لم يفعل شيئاً سوى أن ضربه وأدبه! أرسل معه حميد بن بكر الأحمري، وكان من شرطه، ممن يقوم على رأسه، ليرى هانئ أولاً، ثم يدلي بشهادته الكاذبة أمامهم.

وقد ادعى أبو موسى (شريح) - فيما بعد - أنه لو لم يرسله ومعه «لولا مكانه معي لكنت أبلغت أصحابه ما أمرني به»^(٣) هانئ وكان هانئ قد أوصاه أن يعلم أصحابه حقيقة حاله ويستنهضهم لنصرته.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٥٨.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٩١.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٦.

وعندما أرسل الحر بن يزيد يأمره أن يجعجع بالحسين عليه السلام فلا ينزله الا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء، قال في رسالته له: «وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفاركك حتى يأتيني بإنفاذك أمري»^(١).

كما بعث جويبرة بن بدر التيمي إلى ابن سعد وأمره ان لم يقاتل أن يضرب عنقه وبعث شمر بن ذي الجوشن إلى ابن سعد يأمره أن يعرض على الحسين وأصحابه عليهم السلام النزول على حكمه فان فعلوا فليبعث بهم إليه وان هم أبوا فليقاتلهم. وأوصى شمرًا أن يرى مدى التزام ابن سعد باوامره، فإذا نفذها «.. فاسمع له وأطع، وان هو أبى فقاتلهم، فأنت أمير الناس، وثب عليه فاضرب عنقه، وابعث اليّ برأسه»^(٢).

ولعل ابن زياد هنا كان متأثراً بأبيه الذي يعد من (الدهاة) وبمعاوية الذي لم يطمئن إلى أحد من أعوانه ومستشاريه.

قانون الطوارئ، سيف مسلط على الرقاب

وقد أدى ابن زياد المهمة الأولى التي عهد بها إليه يزيد، وهي التصدي لمسلم وقتله، وكان عليه -استجابة لرغبة سيده- أن يستمر إلى النهاية فيتصدى للحسين عليه السلام ويقتله أيضاً، وقد كتب إلى يزيد مفتخراً بكيده ودهائه ومكره وتمكنه من انجاز المهمة بتلك الطريقة.. «فالحمد لله الذي أخذ لأمر المؤمنين بحقه، وكفاه مؤونة عدوه.

أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله ان مسلم بن عقيل لجأ إلى دار هانئ بن عروة المرادي، واني جعلت عليها العيون ودست اليهما الرجال وكدتها حتى استخرجهما وأمكن الله منهما، فقدمتهما فضربت أعناقهما، وقد بعثت إليك برؤوسهما»^(٣).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٩.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٣.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٣.

وقد أبدى يزيد رضاه التام عما قام به ابن زياد، بعد أن سأل رسوليه عن التفاصيل وكتب إليه: «.. عملت عمل الحازم، وصلت صولة الشجاع الرابط الجأش، فقد أغنيت وكفيت وصدقت ظني بك ورأيي فيك»^(١).

وفي هذه الرسالة أوصاه أن يستمر في مهمته والتربص بالحسين عليه السلام وقال له: «وأنه قد بلغني ان الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح، واحترس على الظن وخذ على التهمة»^(٢).

وهو قانون طوارئ دائمى ينتصب سيفاً على رؤوس الناس ما دام معلناً من قبل السلطة الحاكمة نفسها التي يبدو أنها استساغت الأخذ على التهمة والاحتراس على الظن. ووجدت ان ذلك هو الأسلوب الأمثل الذي يتيح لها إذا ما أخذت به أن تستمر وتطول حياتها، وهذا شأن كل نظام فرعوني متجبر، يرى أن اتباع أمثال هذه الأساليب أمر لازم لوجوده وبقائه؛ لأنه يدرك أنه لم يقم على أساس شرعي، وان جماهير واسعة لا ترضى عنه ولا تقبل به؛ لأنها تعلم أنه قانون جائر أعد من قبل سلطة وضعت نفسها موقف المعادي الدائم للجماهير التي تحسب أن الدولة تباد لها العداوة؛ لأنها كانت البادئة بتلك العداوة حينما استغلتها وتلاعبت بمقدراتها وثرواتها وأرواح أبنائها.

وقد عمل ابن زياد بدأب وحماس على تنفيذ أوامر سيده الجديدة، فأمر بدوره جنوده وشرطته «بأخذ ما بين واقعه إلى طريق الشام إلى طريق البصرة فلا يدعون أحداً يلج ولا أحداً يخرج»^(٣).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٩٣، وروى ابن الأثير في تاريخه: ج ٣ ص ٣٩٨ «واحترس واحبس على التهمة وخذ على الظنة».

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٩٣.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٩.

ثم قام بأكبر حملة للتعبئة تقام في الكوفة لاستنفار الناس لقتال الحسين (ع) كما أخبر بذلك الطرماح الامام الحسين (ع) قبل وصوله إلى ((عذيب المهجانات)) قائلاً: «رأيت قبل خروجي من الكوفة اليك بيوم، ظهر في الكوفة جيش وفيه من الناس ما لم تر عيناى في صعيد واحد جمعاً أكثر منه، فسألت عنهم فقليل: اجتمعوا ليعرضوا، ثم يسرحون إلى الحسين»^(١).

لماذا اختار عمر بن سعد؟

وكان ابن زياد من الفطنة والدهاء، بحيث كلف عمر بن سعد للتصدي للإمام (ع) وقتله إن أصر على موقفه المناوئ لدولة يزيد، وذلك لعدة أسباب منها:

١- أنه لمس لدى ابن سعد رغبة كبيرة في خدمة الدولة ونييل رضا أسياده وكان من جملة البارزين لاعلام يزيد عن تحرك مسلم في الكوفة.

٢- لمس فيه ضعفاً أمامه عندما لم يستطع كتم السر الذي باح له به مسلم رغم ان ابن زياد لم يجبره على كشفه، ولم يستطع ابن سعد الصمود أمام رغبته العارمة لكشف السر، وقد قال له فيما بعد: مادمت أنت الذي كشفت السر وأخبرتنا عن مقدم الحسين فكن أنت من يتولى مهمة محاربته.

٣- كان ابن سعد مستعداً على رأس أربعة آلاف مقاتل لغزو الري وليكون أميراً عليها، وهي قوة جاهزة تشكل نواة الجيش الضخم الذي جرده ابن زياد بعد ذلك، وقد أدرك ابن زياد تلهف ابن سعد على اماراة الري فاستغل نقطة الضعف هذه.

٤- استغل ابن زياد خوف ابن سعد من سلطان الدولة، فقد سبق لمعاوية أن قتل اباه بالسم، ولم يستبعد أن يقدم يزيد أو ابن زياد وكيله في العراق على قتله بالسيف إن

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٥٨.

امتنع، وكان أي تهديد له كافياً لدفعه نحو حرب الحسين (ع). وسوف نكشف موقف ابن سعد بالتفصيل عند الحديث عن شخصيته في هذا الفصل بعون الله.

وكانت هذه الشخصية الذليلة الخائعة الطامعة في نفس الوقت هي التي استغلها ابن زياد لتنفيذ مآربه وقتل الحسين (ع)، ولعله كان يريد -بتكليف (القرشي) الوحيد معه بهذه المهمة- أن يضفي لمسة خاصة ويصور النزاع على أنه بين أبناء قریش أنفسهم ولا شأن للآخرين به الا بقدر ما يتعلق الأمر بإطاعة (ال خليفة) الذي أمرهم بقتال عدوه، وهو قرشي أيضاً، وهو أمر أريد به تأكيد مفتريات معاوية بأن الأمر أصبح الآن نزاعاً بين أولاد (المتنافسين) القدامى، وأنه لم يبق إلا ابنه وأبناؤهم، هكذا.. وإن ابنه خير من أبنائهم، كما أوضحنا ذلك من قبل.

ان لمسة ابن زياد هذه ربما كانت قد سرّت يزيد إلى أبعد حد ورأى فيها مبادرة طيبة منه عززت مكانته لديه فيما بعد رغم كل ما اشيع عن استنكاره وغضبه عليه كما رأينا ونرى في الفصل القادم بعون الله.

افتراءات حول تراجع مزعوم.. مصدرها عمر بن سعد

لقد رفض الامام الحسين (ع) عدة عروض دعتة إلى وضع يده بيد ابن زياد أو مبايعة يزيد، وقد انتشرت إشاعة عمر بن سعد بأن الحسين (ع) طلب أن يسير إلى يزيد فيضع يده في يده أو يذهب مرابطاً في أحد الثغور أو يعود من حيث أتى، غير وأن هذه الإشاعات ظهر زيفها.

إذ كيف يمتنع الحسين (ع) عن مبايعة يزيد ويرفض ذلك في كل وقت عرض عليه قبل هلاك معاوية وبعده، وبعد أن جرت محاولات محمومة مستمرة في سبيل ذلك، وحتى آخر لحظة ثم يقال يمتنع عن وضع وعلى لسان قاتله نفسه أنه ما كان ليمتنع عن

وضع يده بيد يزيد غير أنه يمتنع عن وضع يده بيد ابن زياد.

وهل ابن زياد الا يزيد في صورة أخرى وشكل آخر؟

هل كان ابن زياد وحده ممثل دولة الظلم، ولم يكن يزيد- رأس هذه الدولة- كذلك؟ لقد رفض الحسين عليه السلام هذه الدولة كلها برموزها وأشخاصها وممارساتها، وكان الشيء الوحيد الذي يطمح إليه هو انتشار أكبر عدد ممكن من الناس من بين أنبيائها وبراءتها واعادتهم إلى الصواب.

وقد حاول في كل خطبه وبياناته توضيح المهمة الدقيقة التي انتدب لها وهي إزالة دولة الظلم والانحراف وتوضيح طبيعة توجهات هذه الدولة التي انتسبت للإسلام مع انها لم تكن تمت إليه بأية صلة.

وكانت تعليمات ابن زياد للحصين وللحر بعد ذلك أن يجمع بالحسين ولا يتركه إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء تدل على أن العداوة اتخذت لها في نفسه بعداً شخصياً، فقد كان يرى أن الحسين يستهدفه هو، وكان ينطلق من عقدة حقد مقيته يرى معها أن يقتل الحسين ويمثل بجثته، مع أن هذا لم يكن يضير به عليه السلام بعد الموت. إلا أنه كان قد صمم على ذلك وقرره أمام الناس، وقرر أن يمضي في قراره إلى النهاية، ان سمة الارهاب المتفردة التي تميز بها ابن زياد وأبوه من قبل جعلتهما يبرزان في هذا الشأن ويحصلان على رضا واستحسان سيديهما يزيد ومعاوية ومباركتها لهما هذا الأسلوب الذي أصبح شائعاً بعدهما تعتمده دول الظلم وتفتن فيه إلى يومنا هذا.

كانت حجة الإمام عليه السلام واضحة لابن سعد عندما استوضحه عن سبب مقدمه الكوفة، قال الإمام عليه السلام: لقد استدعيتوني ضد هذه الدولة الظالمة، وقد استجبت لذلك أما وقد تراجعتم فدعوني انصرف عنكم.

وهنا لم يرد ابن زياد أن يفرط بالفرصة الذهبية بعد أن حاصر الحسين عليه السلام بجيشه الكبير الذي استفره لقتاله، وعبر عن حقه الكبير عليه بيت من الشعر ألقاه شامتاً بعد أن ورد عليه كتاب عمر بن سعد، يقول فيه: «أما بعد، فإني حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولي، فسألته عما أقدمه، وماذا يطلب ويسأل، فقال: كتب إلي أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم، فسألوني القدوم ففعلت، فأما إذا كرهوني، فبدا لهم غير ما أتتني بهم رسلهم فأنا منصرف عنهم.

فلما قرئ الكتاب على ابن زياد قال:

الآن إذ علقت محالبنا به يرجو النجاة ولات حين مناصي^(١)
ورسالة ابن سعد هذه تناقض ما ادعاه بعد ذلك حول طلب الحسين عليه السلام للذهاب إلى يزيد أو إلى أحد الثغور أو الرجوع من حيث أتى، ويبدو مضمونها منسجم مع بيت الشعر الذي ألقاه ابن زياد هنا، إذ كيف يطلب إليه الحسين عليه السلام أن يبايع يزيد فيرفض وهي أمنية لكل أعضاء الدولة الأموية دون استثناء أن يبارك لهم الحسين عليه السلام دولتهم ويضع يده في أيديهم ليقولوا للناس بعدها: انظروا ها هو الحسين قد أقر بشرعية دولتنا، فلماذا لا يقر ذلك الجميع؟ وسيكون الظلم مبرراً عند ذلك والانحراف مشروعاً ما دام خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه الحقيقي قد بارك العدو الحقيقي للأمة واعترف به خليفة عليها، بل ملكاً مطلقاً، وهل يصح هذا من الحسين عليه السلام؟ بل هل يصح هذا من أي مسلم لديه شعور حقيقي بالمسؤولية الرسالية كأصحاب الحسين مثلاً؟

هل يصح أن يتنازل الحسين عليه السلام عن هذه المسؤولية ويتركها ليتبناها أحد أفراد الأمة؟ وهل سيقوم أحد بتبني قضايا الإسلام الرسالية المصرية إذا ما تحلى عنها رجال أمثال الحسين؟

كان الحسين عليه السلام يتبنى قضية الاسلام بكاملها، وكان يريد لوجوده أن يكون الوحيد الواضح البارز في الساحة، وكان من يتصدى له ويحاربه، يتصدى للاسلام نفسه ويحاربه أيضاً، لقد وضع الحسين عليه السلام قضية الاسلام بمواجهة قضية الشرك الجديد الذي يدعو لفراعة جدد، ألبسوا دعواهم هذه المرة رداء الاسلام وزيه الخارجي وعرضوا أنفسهم على المسلمين كحماة وحيدين لهذا الدين وكمطبقين حقيقيين لبنوده وأحكامه وتشريعاته، بعد أن وجدوا أعواناً من بين الفقهاء المأجورين ومدعي صحة رسول الله صلى الله عليه وآله والوعاظ المرتزقين ورؤساء القبائل والأشراف والشعراء والقصاصين وواضعي الحديث والمفسرين.

وبدا اعجاب ابن زياد بقوته واستهانته بالنفر القليل الذي ضمه ركب الحسين عليه السلام وبدت عنجهيته واستهتاره اللذان اعتاد عليهما بجوابه لعمر بن سعد على رسالته التي أرسلها إليه بخصوص رفض الحسين عليه السلام الاستسلام لحكومة يزيد، «أما بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت، فاعرض على الحسين أن يبيع ليزيد بن معاوية، هو وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأينا رأينا»^(١).

ثم كتب اليه يأمره:

«.. أما بعد فحل بين الحسين وأصحابه وبين الماء ولا يذوقوا منه قطرة كما صنع بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان»^(٢).

وقد استجاب ابن سعد استجابة ذليلة لاوامره وبعث عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة (النهر) وحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء ان يسقوا منه قطرة.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢١١ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤١٢.

(٢) المصدر السابق.

لا تذكر الجريمة الا ويذكر المجرم، ابن زياد في الذاكرة

لقد لفتت جريمة ابن زياد الكبيرة بحق المسلمين - عندما أقدم بتلك الطريقة المروعة على قتل الحسين (عليه السلام) وأصحابه في كربلاء - الانظار إليها على الدوام؟ لا في وقت وقوع الحدث وحسب وانما طوال الفترة الممتدة من حدوثه وإلى يومنا هذا، لعدة أسباب منها:

١ - ضخامة الجريمة التي استهدف بها آل الرسول (عليه السلام) خاصة وفي مقدمتهم وصيه وخليفته الشرعي على الأمة، الامام الحسين (عليه السلام)، الذي رفض التنازل عن دوره في لفت نظر الأمة إلى الانحراف الكبير والمتسارع الذي كانت تشهده في ظل الدولة الأموية، رغم العنف الذي كان يأخذ به الأمويون أعداءهم عادة، ورغم العروض والاغراءات والتحذيرات الموجهة له طوال ما يقارب عقداً من الزمن، تركزت وازدادت بعد هلاك معاوية واستخلاف يزيد.

ورغم أن الأمة قد تخلت ظاهرياً عن قيادة آل البيت (عليهم السلام)، إلا أنها كانت تدرك أنهم كانوا وحدهم الكفيلين بتصحيح الأوضاع واعادتها إلى مجراها الطبيعي وكانت تعتقد أنهم الأمل الأخير المتبقي لانجاز هذه المهمة، غير أنها في الوقت الذي كانت تتمنى ذلك، كانت تتمنى أن يتم الأمر بارادة عليا وبفعل آخر غير ارادتها وفعلها هي، وربما كانت تتطلع إلى معجزة تعيدها إلى أحضان الإسلام أو تعيد الإسلام كما كان في العهد الأول لحكومة رسول الله (عليه السلام).

كان القضاء على هذا الأمل، عبر قتل الإمام الحسين (عليه السلام) - وهو سليل الرسالة ووصي الرسول (عليه السلام) دون شك في ذلك - يعني القضاء على كل الآمال المتبقية، ويعني الاستسلام النهائي لدولة الانحراف والظلم التي بدت في أعقاب تنفيذ جريمتها قوية مزدهرة، وهذا ما أشاع اليأس بشكل نهائي، وجعلها تسقط في أحضان النظريات

والأفكار الاستسلامية كنظرية الجبر والقدر واطاعة ولي الأمر وإن كان فاسقاً هذه الأفكار وجدت رواجاً كبيراً في غياب التصور الإسلامي الصحيح، وفي وجود منظرين وفقهاء ومحدثين ومفسرين نسبوا ذلك إلى الإسلام وإلى رسول الله ﷺ، مما أوجد حالة من التخبط والضياح لا تزال تعاني منها حتى اليوم.

٢- الاداء المروع للجريمة، وطبيعة القائم بها والمنفذ لها ابن زياد- وزبانيته من رجال الكوفة وأشرافها.

ورغم أن السلطة الحاكمة حاولت التخفيف من الحدث برمته، وأبرزته على أنه كان من الأحداث العادية المتكررة التي تحصل عادة، فإن أداء الجريمة والطريقة الوحشية التي نفذت بها جعل الجميع يتصلّون من تبعاتها في النهاية بعد أن لمسوا الغضب الواسع والمستنكر بشأنها، وحاول كل فرد من منفذها ابتداء من رأس الدولة يزيد وابن زياد وابن سعد وحتى أصغر جندي اشترك فيها، إلقاء التبعات على غيره وإيجاد مبررات معقولة للقيام بها.

كانت لمسة زياد الوحشية تظهر فيها، وكان، ابنه عبيد الله الذي أشبهه من بين كل من وطىء الحصى - على حد تعبيره - قد ترك الأمة تعيش حالة فجعية دائمية، وجعل كل فرد من الأمة يشعر بأنه هو المستهدف المباشر بهذه الجريمة، وقد فتحت تبريرات الجريمة المبتكرة الباب على مصراعيه دائماً أمام دول الظلم المتشابهة لجرائم مماثلة، وقد أخذ الحكّام يرفعون نفس المبررات والمزاعم والنظريات التي رفعتها دولة الظلم الأموية الأولى، لكي تفرض سلطانها وهيمنتها وانحرافها بمبررات جاهزة جعلت الدفاع عنها وتبنيها غاية كبيرة لها.

ورغم ما كان يبدو من النجاح الظاهري الذي تحقّقه هذه الدول لبطش سلطانها

ونفوذها ورغم ما كانت تبدو عليه من قوة، فإن الهواجس والمخاوف الحقيقية تظل تساورها من ردود الفعل الغاضبة المتوقعة من جماهير الأمة المسلمة كل حين. وقد برزت ردود الفعل تلك في ثورات متكررة كانت تستلهم من معطيات تلك الثورة الأولى، وكان الثوار يرون أنهم مهما قدموا من توضيحات فان توضيحاتهم لن تصل إلى مستوى تلك التي قدمها الإمام عليه السلام وأصحابه.

وقد جرت محاولات محمومة لطمس ثورة الحسين عليه السلام والتعقيم على مشاهدتها وأحداثها بحجة أنها أحداث فوضى ولا داعي بتجديد ذكراها؛ لأن ذلك من شأنه أن يجلب المزيد من الحزن والكراهية والبغضاء بين المسلمين، بينما المسلمون بحاجة للتفاهم والسلام والوئام، وهي حجج واهية؛ لأن من شأن مناقشة أحداث التاريخ والنظر إلى مسبباتها ودوافعها والأشخاص المؤثرين فيها، أن يضعنا أمام تقييم جدي للأشخاص والأحداث على السواء، ويتيح لنا رسم منهج جديد في التعامل والحياة مبني على المصدر الصحيح الأول، حكومة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفسه لا حكومة معاوية ويزيد التي كانت ولادة طبيعية للانحراف ولم تكن ولادة شرعية لتلك الحكومة الأولى.

مضى كل شيء الآن وانقضى، ذهب الحسين عليه السلام وذهب يزيد وابن زياد وابن سعد وأشرف الكوفة وجنودها، وبقي الحدث الكبير، فكيف نقيم موقفنا منه، هل على ضوء أهمية الأشخاص؟ فمن المهم منهم هنا إن لم يكن الحسين عليه السلام نفسه؟ أم على عدالة القضية؟ فقضية من هي العادلة والصحيحة؟

هذا ما ينبغي أن نتعرف عليه، رغم أنه واضح للعديد منا.

لقد أريد منا أن نردد مقولات متهربة انهزامية تبعدنا عن واقعنا الإسلامي الذي ينبغي علينا أن نعيشه، حتى وان امتد بعيداً عنا في الماضي وان نقول كما قال البعض عن

(الصحابه): أولئك أصحاب رسول الله ﷺ اجتهدوا واختلفوا وتقاتلوا وكلهم على حق، أو أن من كان على حق منهم كان له أجران وأن من كان على باطل كان له أجر، وتغلق المسألة برمتها، وكأن كل من عاش عهد رسول الله ﷺ هو من صحابته، وكأن كل من صحبة كان مجرداً من النزوات والرغبات والامنيات والطموحات الشخصية وغير قابل للخطأ وكأن كل ما كانوا يقومون به نابع عن اجتهاداتهم ومسايعهم وجهودهم لفهم الرسالة والرسول ﷺ .

هكذا ونغلق السجل، ونبدأ صفحة جديدة وسجلاً جديداً.

أما كيف تكون البداية الجديدة وعلى أي أساس؟ فهذا لا يهم ما دامت نوايانا مخلصه هكذا، ولا تميل إلى أحد!!.

وكما أريد لتلك الصفحات الأولى أن تطوى دون تمحيص أو مناقشة أو بحث، أريد للصفحات الأخرى أن تطوى أيضاً، ما دام معاوية قد ألحق بالصحابه المقربين وما دام رسول الله ﷺ قد قال عنه بأنه أحد الأمناء الثلاثة (جبرائيل ومحمد ومعاوية) كما جاء في الحديث المزور الذي وضعه مرتزقة الدولة، وقد نسب كل ما قام به إلى الاجتهاد، ولم ينكر أحد أخطائه غير أنهم قالوا أنه تأول فأخطأ.

هل تأول فأخطأ مرة أو مرتين أو عشر مرات لنسكت عن ذلك ونغض النظر عن هذه الاخطاء المحدودة، أم أن حياته كانت سلسلة من الأخطاء الكبيرة المتعمدة التي لا يقع فيها الإنسان العادي البسيط لا (المجتهد الكبير والصحابي معاوية).

غير أن خبرة دولة معاوية في الظلم والفساد والتعسف في تناول يد الظالمين والمنحرفين على امتداد الأزمان، وتكاد تزودهم بمنهج كامل وتفصيلات مسهبة عن الاداء المنحرف المبرر بالإسلام نفسه، وتزودهم بالحجج والذرائع التي يسكتون بها

أعداءهم ومعارضهم، لذلك فإن الكلام عنها ممنوع إلا في الحدود التي ينحاز فيها أصحاب الكلام إلى هذه الدولة.

ويكاد فقهاء السلاطين ووعاظهم على امتداد التاريخ يكونون نسخة معادة من أولئك الفقهاء الأوائل الذين تلقوا عنهم كل شيء وصدقوهم في كل شيء باعتبارهم كانوا أقرب إلى وقوع الأحداث وأحدث صلة بالمصدر الرئيسي للتشريع، لذلك فهم أوثق وقولهم الفصل، حتى ذهب البعض إلى الأخذ عنهم وسد باب الاجتهاد وكأن الحياة لا يوجد فيها ما يستجد ويتطلب المزيد من مقومات النظر والدراسة.

لقد سكت هؤلاء عن فعل يزيد - وفعله لا يستهان به على أي حال - لأنه من نتاج معاوية وتربيته وإعداداته ولأنه جاء به وسلطه على الأمة بعدما اجتهد في ذلك ووجد أنه أصلح الناس لذلك، ولما كان معاوية ممن لا يمكن مناقشة آرائه واجتهاداته، فإنهم غضوا النظر عن يزيد وأعوان يزيد وأعمالهم.

وبما أن ابن زياد في مقدمة أعوان يزيد، بل أنه كان معداً من قبل معاوية نفسه كما رأينا للعب الدور الذي لعبه في قتل الحسين عليه السلام وأصحابه في الطف، كما كان مسلم بن عقبة معداً من قبله أيضاً للقيام بدور استباحة المدينة المنورة فيما بعد بواقعة الحرّة فإن التعرض لهما يثير الحساسية ضد معاوية نفسه، ناهيك عن يزيد.

ولم يستطع الإعلام الأموي وقف رد الفعل الكبير على الحدثين الهائلين في كربلاء والمدينة والتّعتيم عليهما، كما لم يستطع إلا أن يتراجع أمامه ويكتفي بإلقاء التبعة على المنفذين المباشرين للجريمة، الذين القوها بدورهم على آخرين ومنهم سيدهم الذي أمرهم بها.

القسوة مصدرها ونتائجها

على أننا نكرر ما سبق وأن قلناه هنا وهو: ان لمسة زياد القاسية الحاقدة برزت واضحة في سلوك ابنه عبيد الله الذي أضاف إليها لمسات شخصية أخرى جديرة به، وقد أوضحنا بعض جوانب شخصيته وانحداره الذي كان يسبب له مهانة كبيرة وشعوراً بالدناءة أراد أن يعوض عنه بعرض مظاهر قوته الزائفة التي لم يكن بحاجة لإظهارها كلها لو كان يتمتع بشخصية سوية.

كانت القسوة المفرطة ومظهر استعراض العضلات، يبدو وكأنه يعبر عن شخصية ابن زياد أولاً وعن خوف الدولة من خطر صحوة الأمة على يد الامام الحسين (ع).

وكانت الأساليب التي لجأ إليها ابن زياد تبدو محاولة لارضاء يزيد إلى أقصى حد ممكن وإظهار صورة محسنة للولاء الذي يكتنه أو الذي كان يدعيه له.

وكانت المظاهر الاحتفالية للجيش الضخم وبعض الممارسات البشعة التي رافقت الجريمة تؤكد حرص ابن زياد على تأكيد ولائه الشخصي ليزيد وتهديده المستمر للأمة، بأن أي فرد منها أو جماعة مهما كان مركزها وموقعها لن تنال أقل مما ناله الإمام إذا ما فكرت يوماً بتحدي الدولة والخروج على سلطانها.

هل كان ابن زياد يعلم أن أجل سيده قصير إلى هذا الحد فلا يندفع معه إلى ذلك المشوار الطويل الذي اندفع معه؟ وهل كان يعلم أنه سيكون ضحية من ضحايا العدالة عندما مثل دور الجلاد القاسي في معركة الطف خصوصاً؟ وهل كان يعلم أن رأسه سيقطع كما قطع رؤوس الآخرين؟

النفير العام لمواجهة الحسين (ع) - فتح خزنة المال والسلاح

قد أقيمت أكبر حملة استنفار أتيح للكوفة أن تشهدها في تاريخها منذ أن أصبحت

حامية للجند بعد معركة القادسية، ولعل حجم الحملة وعدد المشاركين فيها يوحي أن الدولة (الإسلامية) كانت تستعد لمواجهة إحدى الامبراطوريات الكبرى، غير أنه متى ما علم أن الغرض منها كان مواجهة الأفراد المعدودين الذين كانوا بصحبة الحسين عليه السلام، أدركنا مدى فرع الدولة من خروجه العلني لمواجهتها، ومدى الكراهية التي يكنها رموز وأقطاب هذه الدولة للرسول الكريم صلوات الله عليه وآله، تجلت بعد ذلك في فلتات ألسنهم صريحة واضحة تعلن عداؤها للإسلام وكفرها به.

جمع ابن زياد الناس في المسجد، وأشاد بالدولة الأموية ومنجزاتها ووعد الناس بمزيد من الاعطيات إذا ما لبوا نداءه، وكانت تبدو في الخطاب لهجة من يحاول اقناع الناس باتخاذ الموقف المناسب وإن الأمر موكول إليهم، ولم يد فيه ما يدل على عزمه أخذ الناس قسراً وتسييرهم لمحاربة الإمام عليه السلام، وهو أسلوب مكر يلجأ إليه الطغاة عادة ليقتنعوا أنفسهم بأن الناس ينحازون إليهم طواعية وبرغبة صادقة لأنهم أهل لذلك، متناسين أنهم قد استدرجوا الناس للخضوع لهم بمختلف الوسائل والأساليب التي لجؤوا إليها في السابق، وكان عدم الاستجابة لهم يعني لجوء الدولة إلى موجة جديدة من العنف وحمامات الدم ضدهم.

قال ابن زياد في خطابه: «أيها الناس، انكم قد بلوتم آل أبي سفيان، فوجدتموهم كما تحبون، وهذا أمير المؤمنين يزيد، قد عرفتموه حسن السيرة، محمود الطريقة، ميمون النقية، محسناً إلى الرعية، يعطي العطاء في حقه، وقد أمنت السبل على عهده، وأطفئت الفتن بجهد، وكذلك كان أبوه معاوية في عصره، وهذا ابنه يزيد من بعده يكرم العباد، ويغنيهم بالأموال ويزيدهم بالكرامة، وقد زادكم في أرزاقكم مائة مائة، وأمرني أن أوفدها عليكم، وأمركم أن تخرجوا إلى حرب عدوه الحسين بن علي، فاسمعوا له

وأطيعوا»^(١).

واتبع خطابه هذا بسلسلة من الاجراءات السريعة كان في مقدمتها توفير العطاء للناس وزيادة رواتب المقاتلين، واعلانه النفير العام للالتحاق بجيش ابن سعد الذي كان معداً في السابق للذهاب إلى الري، كما أنه قد خرج بنفسه إلى (النخيلة) - موقع بين الكوفة و كربلاء - وعسكر فيها، واستخلف على الكوفة أحد أعوانه عمرو بن حريث، وأصدر بياناً شديداً دعا فيه كل قادر على حمل السلاح للالتحاق بمعسكره في النخيلة لتسريحه إلى ابن سعد، وأمر أن يُقرأ بيانه في كل أرجاء الكوفة وأحيائها وسككها، وقد ورد في بيانه: الا يبقى رجل من العرفاء والمناكب والتجار والسكان الا خرج فعسكر معي. واياها رجل وجدناه بعد يومنا هذا متخلفاً عن المعسكر، الا برئت الذمة منه».

ثم أن ابن زياد أمر القعقاع بن سويد بن عبد الرحمن المنقري بالتطواف في الكوفة في خيل، فوجد رجلاً من همدان قد قدم يطلب ميراثاً له بالكوفة، فأتى به ابن زياد فقتله، فلم يبق بالكوفة محتلم الا خرج إلى المعسكر بالنخيلة»^(٢).

ولنا أن نتصور الجو الذي صدر فيه هذا البيان والحملة التي جرت لتطبيقه، فابن زياد كان يعيش حالة احتفالية سببها تغلبه على مسلم وهانئ وقتلها، ثم قيامه بسجن اعداد كبيرة من المعارضين أو ممن كان يحتمل قيامهم ضده، وفي جو الارهاب ذلك الذي كان الجميع يدركون فيه أنه ما كان ليتورع إلى اللجوء إلى أشد الاساليب دموية وعنفاً، وبعد ان سلط منفذيه وعرفاءه وشرطته وأشرافه وشيوخ القبائل الذين كانوا يدينون بالولاء له، وعيونه وشرطته السرية الذين بثهم بين الناس، وبعد أن لَوَّح بدراهمه، وخرج بنفسه لاستعراض الجيش الذاهب للمعركة».

(١) الأخبار الطوال: للدينوري: ص ٢٥٣، ومقتل الخوارج: ١ - ف ١١.

(٢) انساب الاشراف: البلاذري: ج ٣ ص ١٧٨.

لنا بعد كل هذا أن نتصور (النجاح) الذي حققه ابن زياد في استنفار كل قادر على حمل السلاح في الكوفة للذهاب إلى كربلاء، ولم يكتف بالأعداد التي كانت مع ابن سعد؛ لأنه ربما احتمل تغير مواقف بعض الناس وانحيازهم للحسين عليه السلام وذلك ما يرجح المعركة ضده في النهاية، وقد أراد الكوفة أن تنتقل كلها إلى كربلاء يقودها أعوانه ورجاله الذين لم يكن يشك في ولائهم ووقوفهم إلى جانبه.

«خرج شمر بن الجوشن السلوي في أربعة آلاف والحسين بن نمير السكوني في أربعة آلاف، ومضاير بن رهيبة في ثلاثة آلاف وكعب بن طلحة في ثلاثة آلاف ويزيد ابن الركاب في الفين ونصر بن حرشة في الفين وحجار بن أبحر العجلي في ألف وشبث ابن ربعي في ألف»^(١) فأصبح عددهم مع جيش ابن سعد والحر خمسة وعشرين ألفاً. واستمر بارسال من يلتحق به في النخيلة إلى ابن سعد في كربلاء. وقد وردت روايات عديدة عن العدد النهائي للجيش. وتراوح العدد المذكور فيها بين ثلاثين ألفاً ومائة ألف^(٢).

(١) مناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ٩٨ ومقتل الخوارزمي ١ - ف ١١ وأنساب الاشراف للبلاذري: ج ٣ ص ١٧٨ وقيل أن شبثاً تمارض وحاول التنصل من مهمة الخروج إلا أن زياداً هدده وأمره أن يخرج بألف فارس من أصحابه. ففعل.

(٢) فقد ورد في مناقب ابن شهر آشوب أنهم كانوا خمسة وثلاثين ألفاً. وفي شرح شافية أبي فراس خمسين ألفاً، وفي سفينة النجاة للعيناتي سبعين ألفاً وفي تحفة الأزهار لابن شدقم ثمانين ألفاً وفي هامش تذكرة الخواص مائة ألف أو أكثر... ومن المرجح أن عدد الفرسان الذين ذهبوا بقيادة شمر والحسين ومضاير وكعب ويزيد ونصر وحجار وشبث مضافاً إلى جيش ابن زياد ومن التحق به بعد ذلك بلغ ثلاثين ألفاً استنفروا بسرعة لمحاصرة الامام... وقد تكون اعداد الرجال وأصحاب الامدادات وأصحاب الحرف ومساعدتي الفرسان والخدم وبائعي السلاح والسياس وغيرهم قد صعدت بالعدد النهائي إلى أكثر من مائة ألف... وقد ورد عن الامام زين العابدين وهو أوثق شاهد على هذه الحرب المجزرة قوله: «لا يوم كيوم الحسين، ازدلف اليه ثلاثون ألف رجل يزعمون انهم من هذه الامة كل يتقرب إلى الله بدمه، وهو بالله يذكرهم فلا يتعظون حتى قتلوه بغياً وظلماً

وبعد أن وثق ابن زياد من اجراءاته واستحكاماته وانحياز قاداته وثبات الموقف إلى جانبه، أرسل إلى ابن سعد يحثه على منازلة الإمام ومنعه الماء.

وتنفيذاً لأمر ابن زياد «بعث عمرو بن سعد عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة، وحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث»^(١) وذلك رغم محاولات بعض أصحاب الحسين (عليه السلام) لثنيه عن ذلك.

وكانت تلك خطة لثيمة أريد بها إجبار الحسين (عليه السلام) على الاستسلام، إذ كيف يتسنى لمن كان في ركبته من النساء والأطفال الاستغناء عن الماء في ذلك الجو الحار.. ناهيك عن الآخرين من أصحابه.

وقد روي أن الحسين (عليه السلام) حفر بئراً فشرب منه هو وأهل بيته وأصحابه بأجمعهم، وملؤوا أسقيتهم، ثم غارت العين فلم يُر لها أثر.

وكان يبدو من سياق الحوادث أن هناك من كان يتابع الأخبار وما يجري في كربلاء ويتصل بابن زياد اتصالاً مباشراً لينقلها إليه، ويبدو أن خبر ذلك وصل إليه، وقد استنفره إلى حد بعيد فكتب إلى ابن سعد رسالة شديدة اللهجة أيضاً:

«بلغني أن الحسين يحفر الآبار ويصيب الماء، فيشرب هو وأصحابه، فانظر إذا ورد

وعدواناً» ووردت رواية أخرى عن الإمام الصادق أن الحسن خاطب أخاه الحسين قائلاً: «... لا يوم كيومك يا أبا عبد الله، يزلف إليك ثلاثون ألف رجل، يدعون أنهم من أمة جدك محمد ويتحلون دين الاسلام، فيجتمعون على قتلك وسفك دمك وانتهاك حرمتك وسبي ذراريك ونسائك وانتهاك ثقلك» أمالي الصدوق: ص ٧٠.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١١، عبر الامتناع عن نصرته ومناقب شهر آشوب: ج ٤ ص ٩٧، وارشاد المفيد- ص ٢١١، وانساب الاشراف: ج ٣ ص ١٨٥ ونهاية الارب: ج ٢٥ ص ٤٢٨.

عليك كتابي هذا فامنعهم من حفر الآبار ما استطعت وضيق عليهم ولا تدعهم أن يذوقوا من الماء قطرة، وافعل بهم كما فعلوا بالزكي عثمان»^(١).

وهذه ثاني إشارة إلى عثمان، وهي إشارة خبيثة موحية، لا علاقة لها بالمسألة كلها؟ غير أن الاعلام الأموي عرض قضية منذ البداية على أساس المطالبة بدم عثمان ورفع قميصه أمام أهل الشام، وصور الأمر وكأن أمير المؤمنين وأولاده هم المحرضون الرئيسيون على قتله متناسين ما أشاعوه وما روي عن قيام الحسين عليه السلام بحراسة باب عثمان خوفاً عليه من هجمات الثوار، ومتناسين القاتل الحقيقي لعثمان والذي كان هو معاوية نفسه.

وكانت لذلك سابقة أخرى عندما حاول معاوية منع أمير المؤمنين عليه السلام وجنده الماء في صفين بنفس الحجة^(٢)، إذ لا بد لهم من قضية بمواجهة القضية التي رفعها أمير المؤمنين عليه السلام ومن بعده الإمام الحسين عليه السلام.

ولم يسع ابن سعد أيضاً إلا الاستجابة الذليلة لسيده، ففعل ما أمره به.

خصومة الجبناء - بين ابن سعد وشمير

وتثير (الخصومة) التي جرت بين ابن سعد والشمير، سخرية المطلع على أحداث تلك الفترة.

(١) مقتل الخوارج ١ - ف ١١ ومقتل العوالم للبحراني ٧٨ والبحار ٤٤ - ٣٨٨ والايقاد للعظيمي ص ٥٨.

(٢) فقد روى الطبري ان الوليد بن عقبة قال لمعاوية يحثه على الاستمرار بمنع أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام الماء: «امنعهم الماء كما منعه عثمان بن عفان... حصروه أربعين صباحاً يمنعونه برد الماء، ولين الطعام، اقتلهم عطشاً. قتلهم الله عطشاً» الطبري: ج ٣ ص ٨٦ وقد رأينا في هذه الدراسة من كان القاتل الحقيقي لعثمان.

فابن سعد كان على رأس جيش مستعد للذهاب للري، وابن زياد يأمره ليكون هو المتولي قتال الحسين.

ورغم استجابته الدليّة فإنه كان يطمع باقناع الحسين عليه السلام بالتنازل عن قضيته وإقناع ابن زياد بالتساهل معه وفسح المجال للحوار والتفاهم، ناظراً للقضية كلها من وجهة نظره الخاصة.

وإذ اشتد ابن زياد عليه وطالبه بالتشديد على الحسين عليه السلام ومنعه الماء وأرسل اليه الشمر ليأمره بحسم الأمر والتصدي للامام، فإنه حسب ان ابن زياد كان يتصرف بوحى من الشمر وبنصائح منه، وهو ما أغاظه.. لأنه سيتحمل مسؤولية قتل الحسين عليه السلام امام الأمة بعد أن يتبرأ من ذلك القتلة الآخرون..

ورغم أنه يعلم أن الجريمة التي كان سيقدم عليها كبيرة، وانها ستكون وصمة في جبينه يتحمل وزرها شخصياً كمنفذ مباشر، إلا أن طمعه بولاية الري وخوفه من ابن زياد كانا أكبر من خشيته من تحمل عار تلك الجريمة.

وعندما قدم عليه امر ابن زياد عن طريق الشمر للاستمرار بتنفيذ مخطط الجريمة والاسراع بذلك، والا فإن عليه التخلي عن القيادة واسنادها للشمر قال له: الا ولاكرامة لك، وأنا أتولى ذلك..^(١).

كان جديراً به -وقد غضب- أن لا يمضي بمهمته إلى النهاية وأن يعصي ابن زياد، غير أنه لم يستطع أن ينفس عن غضبه الجبان الا بتلك الكلمات التي وجهها للشمر، وحسب، ولعله أراد بذلك أن يظهر نفسه كصاحب موقف أمام جيشه السّاخر منه ولا

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٤ والخوارزمي: ١ ف ١١ والبحار: ج ٤٤ ص ٣٩٠-٣٩١، والارشاد ص ٢١٣، والايقاد ص ٥٧.

شك، أو إلقاء تبعة الجريمة على الشمر، كما حاول ابن زياد إلقاءها عليه فيما بعد وحاول يزيد إلقاءها على ابن زياد.

كانوا كلهم يدركون بشاعة ما سيقدمون عليه، وأنه سيشكل اداة دائمة لهم، غير أن مطامعهم الشخصية كانت أقوى من شعورهم بالخزي أو العار الذي سيلحقهم فيما بعد، فما بدا لهم محققاً هو أنهم سيتمتعون بملك طويل عريض اذا ما أنجزوا جريمتهم، أما الحساب فأمر محتمل ربما كانوا يعتقدون أنهم لن يتعرضوا له فيما بعد.

(اتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟)

وحسب ابن زياد - عندما عرض عليه شمر وعبد الله بن أبي المحل - وكانت عمته ام البنين والدة العباس وأخوته عليه السلام - ان يكتب لهم أماناً، أنه سيستطيع شق معسكر الحسين عليه السلام إذا ما استجاب اخوته لأمانه وتركوه، وقد سارع لكتابة هذا الامان، الا أن العباس عليه السلام فوت عليه الفرصة وأجاب شمرأ عندما أخبره أنهم آمنون، وشاركه في ذلك أخوته قائلين للشمر، «لعنك الله ولعن أمانك، لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟»^(١).

وبذلك سجلوا في هذا الموقف الدقيق، موقفاً كبيراً لا يمكن أن ينسى حتى من قبل ابن زياد نفسه..

(لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد) - إعلان المنتصرين

وحسب ابن زياد أنه كان يرى المشهد الختامي من معركته مع الحسين عليه السلام، عندما نفذت أوامره وقطعت رؤوس الحسين وأصحابه عليهم السلام وطيف بها في شوارع الكوفة وأزقتها، ووضع رأس الحسين عليه السلام بعد ذلك بين يديه، فكانت فرحته غامرة (بانتصاره)

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤، وراجع المصادر السابقة..

النام!! .

فهذه الرؤوس بين يديه، أما الاجساد فقد تركت في كربلاء بعد أن داستها الخيول وشوّهت معالمها، وهل نصر ابلغ من هذا النصر، وقد حقق ما أمره به سيده بكفاءة عالية وبفترة قياسية قصيرة.

ولم يبق عليه لكي يكمل مراسيمه الاحتفالية الا أن يتوج ذلك باستعراض عائلة عدوه أمام حشد من أشرف الكوفة، يتشدق أمامها بانتصاراته وعدالة قضية سيده يزيد، وقد حسب أنه متى ما تكلم وأشاد بنفسه وبدولة الظلم التي يتزعمها يزيد دون أن يجرؤ أحد- حسب ظنه- بمقاطعته، فإنه سيسجل نصراً آخر أمام أهل الكوفة، وسيخرس الألسنة إلى الأبد بعد أن هزم (المغلوين) في المعركة التي حشد لها كل قادر على حمل السلاح من أهل الكوفة.

كان ابن زياد مهزوماً في داخله وان حاول أن يقنع نفسه بأنه كان منتصراً، وكان أي إعلان من الحسين (عليه السلام) في ساحة المعركة وقبلها عن نفسه وقضيّة يشكل طعنة مباشرة له، فعندما كان يذكرهم بأصله ومن هو وبقضيته كان يضع أمامهم الطلقاء وأبناءهم، وأبناء البغي والزنا (وقضيتهم) التي تبناها عندما تبناوا حرب الإسلام.

وكان رفض الحسين (عليه السلام) القاطع الاستجابة لابن زياد ووضع يده في يده لكي يأخذه مغلوباً مقهوراً ليزيد يثير فيه كوامن الحقد والكراهية حتى ليحسب أنه كان المستهدف الأول في تلك الثورة، وقد صرح الحسين (عليه السلام) بذلك عدة مرات في مواقف ما كان ليصمد فيها غيره وغير أصحابه:

«لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبيد»^(١)

«أفتشكون أثراً ما أنى ابن بنت نبيكم فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم أنا ابن بنت نبيكم خاصة»^(١).

«اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين»^(٢).

كان النسب العالي والقضية العادلة يقفان بمواجهة النسب المشبوه والقضية الخاسرة كما كانت صيحات أصحاب الحسين أمثال زهير بن القين تشكل ادانة شخصية وتشخيصاً دقيقاً للحالة الشاذة التي أفرزت تولية ابن زياد وجعلت الدولة ترصده دون غيره لمواجهة الامام الحسين عليه السلام.

وكان مما قاله زهير لجيش الكوفة: «ان الله ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد عليه السلام لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إننا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية يزيد وعبيد الله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما الا سوء سلطانهما كله، ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أمثالكم وقراءكم، أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهانئ بن عروة وأشباهه»^(٣).

ولم يكن ابن زياد ممن يغفل عن متابعة تفصيلات ما يجري في الساحة عن طريق عيون وجواسيسه، ولم يكن ممن يتسامح لامثال هذا التعرض لشخصه وشخص والده، ولا بد ان حقه يزداد على أولئك الذين يرفضونه رغم وقوعهم بيديه، وهو ما لم يستطع فهمه وهضمه.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٩.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣١٩.

جزء القاتل: اقتلوه أيضاً

وقد جرى موقف طريف بخيمة ابن سعد، فقد قدم سنان بن أنس، أحد قتلة الحسين عليه السلام، وقيل أنه هو الذي طعنه بالرمح وأنه هو الذي نزل إليه واحتز رأسه بايعاز من شمر، قدم سنان هذا إلى خيمة ابن سعد بعد أن حرّضه جماعة على ذلك قائلين: «قتلت الحسين بن علي وابن فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله، قتلت أعظم الناس خطراً، جاء إلى هؤلاء يريد أن يزيلهم عن ملكهم، فأنت امرأك فاطلب ثوابك منهم، لو أعطوك بيوت أموالهم في قتل الحسين كان قليلاً.

فاقبل على فرسه وكان شجاعاً شاعراً، وكانت به لوثة، فأقبل حتى وقف على باب فسطاط عمر بن سعد، ثم نادى بأعلى صوته:

أوقر ركابي فضة وذهبا أنا قتلت الفارس المحجّباً
قتلت خير الناس أما وأبا وخيرهم اذ ينسبون نسباً
فقال عمر بن سعد: أشهد أنك لمجنون ما صححت قط، أدخلوه عليّ، فلما أدخل حذفه بالقضيب ثم قال: يا مجنون، أتتكلم بهذا الكلام أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك»^(١).

كان ابن سعد يدرك ذنابة أصل ابن زياد، وأنه إذا ما جوبه بمثل هذا الكلام فإنه سينزعج وقد يكون رد فعله عنيفاً أمام أتباعه وحاشيته الذين يحاول أن يتعالى عليهم. وربما سينزعج ابن زياد منه هو إذا سمع لامثال هذا المهووس أن يتلفظ بأمثال تلك الكلمات.

وقد روي أن ابن زياد قد حرم ابن سعد فعلاً الجائزة التي وعده بها وهي ولاية

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٥ على أن العديد من المصادر تشير إلى أن شمرا كان هو الذي احتز رأس الحسين عليه السلام كما ستتطرق إلى ذلك.

الري فكان يردد بعد ذلك: «ما رجع أحد إلى أهله بشر مما رجعت به، أطعت الظالم الفاجر ابن زياد، وعصيت الحَكَمَ العدل، وقطعت القرابة الشريفة»^(١).

كما أن توقعاته بخصوص سنان بن أنس - فقد قيل أنها تحققت أيضاً.

«فقد دخل على عبيد الله بن زياد بعد يوم عاشوراء بيومين، وهو يرتجز بقوله، فقال له ابن زياد: فان كان خير الناس أما وأباً فلم قتلته؟ وأمر، فضربت عنقه»^(٢).

ولم يشفع له ولاؤه وطاعته، فخير الناس أماً وأباً يذكر الناس على الدوام بشرهم أماً وأباً.

وكان جديراً بابن زياد الا يقتله لثلاث تذكر الناس ذنابة أصله كلما ذكروا هذه القصة.

الوعود كانت كاذبة، صغرت النفوس فهانت

ومن الطريف أيضاً أن نذكر هنا أن القبائل المشاركة بقتل الحسين وأصحابه عليهم السلام قد تسابقت للحصول على حصتها من الرؤوس لأخذها إلى ابن زياد لكي ينال أشرافها من حظوته وأمواله، إلا أنه وقد أدرك هوانهم وصغر نفوسهم أجاز البعض منهم جائزة يسيرة، وحرّم الباقيين، مدرّكاً أنهم قد قنعوا من الإيابة بالسلامة وبنظرة رضا يرمقهم بها، وحتى هذه لم يحصلوا عليها فيما بعد.

عندما يملك العبد: اقتلوا الشيخ المحتج

ولعل ابن زياد لو كان صاحب قضية حقيقية لاكتفى بما حققه في جريمة الطف ولما حاول المضي في جريمته إلى الحد الذي يمضي فيه إلى ضرب رأس الحسين عليه السلام بعصاه

(١) أنساب الاشراف: البلاذري: ج ٣ ص ٢١١.

(٢) نهاية الارب للنويري: ط القاهرة: ج ٢٥ ص ٤٦١ والعقد الفريد: ج ٥ ص ١٢٧.

أمام الناس كأنه يأسف على عدم قيامه شخصياً بقطعه.

فقد روى حميد بن مسلم - وهو أحد جنود ابن سعد - سرحهم إلى أهله (ليشرهم بفتح الله عليه وبعافيته)، وقد دخل ضمن الوفد الذي أرسله ابن سعد لابن زياد، قال حميد: «.. فإذا رأس الحسين موضوع بين يديه، وإذا هو ينكت بقضيب بين ثنيتيه ساعة^(١)، فلما رآه زيد بن أرقم لا ينجم عن نكته بالقضيب، قال له: أعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين، فو الذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما، ثم انفصخ الشيخ ييكي؛ فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك؟ قال: فنهض فخرج.

فلما خرج سمعت الناس يقولون: والله لقد قال زيد بن أرقم قولاً لو سمعه ابن زياد لقتله، قال: فقلت: ما قال؟

قالوا: مر بنا وهو يقول: ملّك عبدٌ عبداً، فاتخذهم تلداً؟ أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأمّرتهم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعداً لمن رضي بالذل»^(٢).

كان احتجاج الصحابي الشيخ على ابن زياد وأهل الكوفة بالغاً، وقد حدث ما توقعه وتوقعه الحسين ﷺ من قبله ومن قبلها رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين ﷺ فالاستكانة للظلم والانحراف والسكوت عنهما، سيجعلان الظالم يتماذى إلى أبعد حد، ولن تكون لأحد في نظره قيمة إذا ما أقدم على قتل من يتفوق عليهم جميعاً نسباً ومكانة وعلماً.

(١) (ويقول: ان أبا عبد الله قد كان شمط) الطبري: ج ٣ ص ٣٥٥.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٦ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٣٤ وراجع الصواعق المحرقة: ص ١١٨، البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٩٠، ومجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٩٠ وتاريخ ابن عساكر: ج ٤ ص ٣٤٠.

وكان احتجاج أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام لا يقل قوة عن احتجاج الصحابي الأول، لفظه بوجه ابن زياد عندما صعد هذا الأخير المنبر والقى كلمة مدح فيها يزيد وسب الحسين وأمير المؤمنين عليه السلام، فقد «وثب اليه عبد الله بن عفيف الأزدي - ثم الغامدي - ثم أحد بني والبة - وكان من شيعة علي عليه السلام وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل مع علي، فلما كان يوم صفين ضرب على رأسه ضربة وأخرى على حاجبه، فذهبت عينه الأخرى، فكان لا يكاد يفارق المسجد الأعظم يصلي فيه إلى الليل ثم ينصرف.

فلما سمع مقالة ابن زياد، قال: يابن مرجانة، ان الكذاب ابن الكذاب أنت، وأبوك، والذي ولاك وأبوه، يابن مرجانة أقتلون أبناء النبيين، وتكلمون بكلام الصديقين! فقال ابن زياد: عليّ به، فوثبت عليه الجلاوزة فأخذه، فنادى بشعار الازد: يا مبرور، وحاضر الكوفة يومئذٍ من الازد سبعمائة مقاتل. فوثب اليه فتية من الازد فانترعوه فأتوا به أهله، فأرسل إليه من أتاه به، فقتله وأمر بصلبه^(١) رغم قومه الذين كانوا يحيطون به، والذين قدموا خدمات كبيرة لابن زياد حينما شاركوا جيشه بقتل الامام وأهله عليهم السلام.

فلم يعد ابن زياد يرى أمامه أحداً، فالكل قد خضعوا له واستسلموا، ولم يعد أحد يجد أن له قبيلة يمكن أن تمنعه البطش والظلم. كانت قوة القبيلة تقاس بمدى ولائها للحاكم وقربها منه واستسلامها له.

أمام الحسين عليه السلام الذي بدا وحيداً الا من القلة من أصحابه، بدت القبائل قوية وذات شوكة، وأمام ابن زياد الذي بدا وكأن الجميع يحيطون به، تصاغرت أكبر القبائل وتضاءلت حتى لم تعد ترى نفسها شيئاً أمامه، وكان ابن زياد يدرك ذلك منذ أن رأى

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٨ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٣٦ «وأول رأس رفع على خشبة رأس الحسين رضي الله عنه وصلى الله على روحه» الطبري: ج ٣ ص ٣٥١، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٣٦.

انحياز أشرافها ورؤسائها إلى جانب دولة الظلم الاموية دون تحفظ أو حدود، ومنذ أن رأى الذلة والصغار في جباه أولئك الاشراف والرؤساء الذين لم يكن يهمهم سوى رضاه عنهم وابتسامته في وجوههم.

ولم يكن ابن زياد يجازف عندما عامل أكبر قبيلة من القبائل تلك المعاملة السيئة التي اشتهر بها.

التنصل من الجريمة

«ثم ان عبيد الله بن زياد نصب رأس الحسين بالكوفة، فجعل يدار به في الكوفة، ثم دعا زحر بن قيس فشرح معه برأس الحسين ورؤوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية»^(١).

وقد حاول يزيد -أمام تصاعد النقمة عليه حتى من داخل بيته- أن يتنصل من الجريمة ويلقي بتبعاتها على ابن زياد وحده، وقيل أنه قال لزحر: «قد كنت ارضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سميّة، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه»^(٢)، وهو قول -فيما يبدو- مفتعل موضوع على لسان يزيد اريد به تبرئته من الجريمة وهو يناقض ما فعله، مما روي لنا باسانيد موثوقة.

وكان فعل ابن زياد -برفع رأس الحسين ورؤوس أصحابه على الخشب والدوران بها في الكوفة- لا يقل عن فعله عندما أمر ابن سعد بقتله والتمثيل بجثته^(٣).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٨.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٨.

(٣) وكان ابن زياد قد بعث إلى ابن سعد يحثه على أخذ البيعة من الامام الحسين عليه السلام ليزيد قائلاً: «.. انظر، فإذا نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا، فابعث بهم اليّ سلماً، وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم، فانهم لذلك مستحقون. فإن قتل حسين فأوطئ الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق ظلوم وقد نفذ ابن سعد الأمر، وأمر أصحابه «فأتوا، فداسوا الحسين بخيولهم حتى رصوا ظهره وصدره» الطبري: ج ٣ ص ٣٣٥ - ٣١٣، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤١٤

التظاهر بالعظمة محاولة للتعويض عن دناءة الأصل

ويبدو من دراسة شخصية ابن زياد ومواقفه المختلفة أنه كان مصاباً بداء العظمة بشكل لم يكن يرجى له شفاء منه، ولعل متابعة سير طغاة التاريخ ترينا أن معظم من أصيب بهذا المرض الخطير الذي يترك آثاره على فئات كثيرة من الناس. خصوصاً إذا ما كان يحتل مركزاً مرموقاً، هم من أولئك الذين يتتابهم الشعور بالدونية والضّعة. متأثّ من نسب الأهل الذّميم أو مركزهم الاجتماعي المتدني، فيحاولون التعويض عن ذلك بالجوء إلى أساليب وانماط من السلوك والحياة غير مألوفة والتظاهر بما لا يرى الإنسان العادي حاجة إليه.

ولم يكن ابن زياد ممن يرتاح إلى الأصل الذي ادعاه معاوية لآل زياد، وكان يشعر بهوان من ذلك، خصوصاً وأنه يجابه دائماً بأصله الصحيح. وربما كان ابن زياد يرى أن ذلك الأصل (الصحيح) المتدني كان أجدر أن يحقق له بعض الراحة النفسية لو لم يشهر معاوية قضية زياد بين جماهير المسلمين في كل اقطارهم مخترقاً بذلك قانوناً إسلامياً واضحاً. وواضعا آل زياد كلهم موضع الهزاء والسخرية المعلنة والمكبوتة.

ولعل ابن زياد كان يرى - وهو ليس من الاغبياء - في كل نظرة موجهة إليه، سخرية كامنة وإدانة لعمل لم يتركبه هو. وان جنى من ورائه المكاسب والارباح، وربما كان يحسد حتى أولئك الذين لم يحصلوا على ما حصل عليه من جاه وسلطان وثروة، على نسبهم الذي لم يكن محل تهمة وشبهة بين الناس.

ولعل أغلب كرهه للحسين عليه السلام خاصة، يعود لمعرفته بعراقه نسب الامام وطهارة مولده ومنزلته الخاصة من رسول الله صلى الله عليه وآله وشهادة القرآن والرسول صلى الله عليه وآله بحقه وبحق آل البيت عموماً.

يظهر حقد ابن زياد- وهو من اقطاب النظام الاموي- في الكوفة فيحاول تشويه قضية الامام الحسين (عليه السلام) وقضية أمير المؤمنين (عليه السلام) وقضايا الاسلام عموماً، بما ينسجم ورغبات الدولة ونزعتها للتحرر من الاسلام، فإنه لم يكن من الغباء بحيث أنه يتجاهل الحسين ومنزلته من الرسول (صلى الله عليه وآله) ومن المسلمين، كما لم يكن معاوية وزیاد من قبل يجهلان ذلك.

إلا أنهم تبَنَّوا قضية مزورة مشوهة حَمَلُوا فيها أمير المؤمنين (عليه السلام) مسؤولية دم عثمان وأعلنوا أنفسهم ولاءً للدم، وأهلاً للشيخ المقتول، واستدرجوا فئات كبيرة من الناس كانت مصالحهم تتحد مع مصالحهم، وأعلنوا الحرب على الاسلام بحجة اعلان الحرب على أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد رأينا أن معاوية كان المسؤول الأول عن قتل عثمان، ويشاركه في المسؤولية نفس أولئك الذين كانوا من أشد المحرضين عليه والساعين إلى قتله.

وكذلك محاولة التقليل من شأن الآخرين

وبقدر ما كان ابن زياد يحاول الرفع من شأن نفسه أمام الناس بادعاء العظمة والتظاهر بها، فقد كان يحاول التقليل من شأن أعدائه، وكان ينتهز الفرص التي يحسب نفسه متفوقاً فيها أو متصراً ويحسب اعداءه مهزومين أو خائفين لمحاورتهم أملاً بتحقيق غلبة أخرى عليهم، غير أنه غالباً ما يهزم بتلك المعارك رغم عنجهيته وقسوته وأوامره بالقتل، وقد رأينا موقفه المتشنج من هانئ ومسلم وحواره معهما، وفشله وهزيمته، وربما أراد أن يعوض عن ذلك بحوار آخر مع آل الحسين (عليه السلام) عسى أن يحقق نصراً هذه المرة.

«فلما دخل برأس الحسين وصبياناه وإخوانه ونسائه على عبيد الله بن زياد، لبست زينب ابنة فاطمة اردل ثيابها وتنكرت، وحفت بها إماؤها، فلما دخلت جلست. فقال

عبيد الله بن زياد: من هذه الجارية؟ فلم تكلمه، فقال ذلك ثلاثاً كل ذلك لا تكلمه، فقال بعض إمائها: هذه زينب ابنة فاطمة.

فقال لها عبيد الله: الحمد لله الذي فضحككم، وقتلكم، وأكذب أحدوشتكم!.

فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ وطهرنا تطهيراً، لا كما تقول أنت، انها يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر.

قال: فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟

قالت: كتب عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاجون اليه، وتحاصمون عنده^(١) فغضب ابن زياد واستشاط.

فقال له عمرو بن حريث: أصلح الله الأمير! إنما هي امرأة، وهل تؤاخذ المرأة بشيء من منطقتها!

انها لا تؤاخذ بقول، ولا تلام على خطأ!

فقال لها ابن زياد: قد أشفى الله نفسي من طاغيتك، والعصاة المردة من أهل بيتك، فبكت، ثم قالت: لعمرى، لقد قتلت كهلي، وأبرت أهلي، وقطعت فرعى، واجتشت أصلي، فإن يشفك هذا، فقد اشتفيت.

فقال لها عبيد الله: هذه شجاعة، قد لعمرى كان أبوك شاعراً شجاعاً^(٢).

(١) وروي في اللهوف: ص ٩٥ أنها قالت له أيضاً: ... فانظر لمن الفلج يومئذ ثكلتك أمك يا بن مرجانة.. وروى المبرّد في الكامل: ج ٣ ص ١٤٥ أنه قال لها: ان تكوني بلغت من الحجة حاجتك، فقد كان أبوك خطيباً شاعراً! فقالت: ما للنساء وللشعر.

(٢) وروي أنه قال لها: هذه سجاعة. ولعمرى لقد كان أبوها شاعراً سجاعاً فقالت زينب: يا بن زياد وما للمرأة وللشجاعة. وان لي عن السجاعة لشغلاً، ولكنّ صدري نفث بما قلت: البحار: ج ٤٥ ص ١١٦ والارشاد ٢٥٩ واللهوف: ص ٦٧.

قالت: ما للمرأة والشجاعة! ان لي عن الشجاعة لشغلا، ولكن نفثي ما أقول»^(١).
وكما هُزم أمام هانئ ومسلم هُزم أمام زينب هنا، وهُزم أمام زين العابدين أيضاً،
لجأ معهما إلى ما لجأ اليه من قبل باللجوء إلى الشدة والتهديد بالقتل، وربما لم يكن ير مانعاً
من قتل زينب كما فعل ببعض النساء الخارجيات وفعل أبوه من قبل أيضاً.

وربما أراد تدارك فشله أمام زينب حينما راح يصفها بأنها (شجاعة) أو (سجاعة)
- كما ورد في بعض الروايات - وانها (شاعرة)، كأبيها أمير المؤمنين عليه السلام، وكأن أمير
المؤمنين كان مشهوراً بالشعر أو السجع أو الشجاعة ومقاتلة الاقران فقط وكأن مواهبه
كانت محدودة بما وصفه به ابن زياد!!.

كان يحسب أنه سيجد امامه امرأة خائفة مرعوبة تستعطفه وترجو الابقاء على
حياتها بعد أن شهدت بطشه وحمام الدم الذي أقامه لآلها ورجالها، لكنه وجد أمامه
امراً صاحبة قضية كبيرة، هي قضية أخيها الحسين عليه السلام نفسها.

فهي لم تترك بيتها وتدفع ولديها بين يدي الحسين عليه السلام دون هدف معيّن، ولعلها
كانت ترى الجوانب التي كان يراها أخوها من القضية، وكانت بمسيرتها الملحمية
معه طوال الاشهر الماضية تعد نفسها لأخذ دور كبير لإعلان الثورة واستمرارها
وديمومتها - كما سنرى بعون الله - عند التعرض لشخصيتها ودورها في المعركة.

(انتصار) المهزومين

وقد حسب ابن زياد بعد فشله مع زينب وهزيمته أنه سيحقق نصراً مع زين
العابدين عليه السلام الذي كان مريضاً خلال المعركة مرضاً منعه من المشاركة فيها.

وكان زين العابدين - باتفاق معظم المؤرخين - شاباً في الثالثة والعشرين من العمر،

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٧ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٣٥.

وقد كاد يتعرض للقتل عدة مرات على يد شمر وغيره، غير أنه نجا وأخذ مع النساء والأطفال ليعرض على ابن زياد ريثما يسرح بهم إلى يزيد.

كان ظن ابن زياد ان زين العابدين سيتهوى أو ينحني امامه أو أنه سيعتذر نيابة عن والده، وإذا ما استطاع استخراج كلمات منه بهذا المعنى، فلا بد أنه يكون قد حقق نصراً كبيراً ونال شهادة تبرر فعله بحق الاسلام والمسلمين.

روى حميد بن مسلم قال: «اني لقائم عند ابن زياد، حين عرض عليه علي بن الحسين، فقال له: ما اسمك؟

قال: أنا علي بن الحسين.

قال: أو لم يقتل الله علي بن الحسين؟ فسكت.

فقال ابن زياد: مالك لا تتكلم.

قال: قد كان لي أخ يقال له أيضاً علي، فقتله الناس.

قال: ان الله قد قتله...! فسكت علي.

فقال له: مالك لا تتكلم.

قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^(١).

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢).

قال: انت والله منهم ويحك، انظروا هل أدرك؟ والله إني لأحسبه رجلاً؟

فكشف عنه مري بن معاذ الاحمري، فقال: نعم قد ادرك.

(١) سورة الزمر: ٤٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٥.

فقال: اقتله.

فقال علي بن الحسين: من توكل بهؤلاء النسوة؟

وتعلقت به زينب عمته فقالت: يا بن زياد حسبك منا، أما رويت من دمائنا^(١)!. وهل أبقيت منا أحداً؟ فاعتنقته فقالت: أسألك بالله ان كنت مؤمناً إن قتلته لما قتلتني معه.

وناداه علي فقال: يا بن زياد، ان كانت بينك وبينهن قرابة فابعث معهن رجلاً تقياً يصحبهن بصحبة الاسلام.

فنظر إليها ساعة، ثم نظر إلى القوم فقال: عجباً للرحم، والله إني لأظنّها ودت لو أني قتلته أني قتلتها معه، دعوا الغلام، انطلق مع نسائك^(٢).

ويبدو من سياق هذه الرواية التي وردت على لسان أحد اتباع الدولة، حميد بن مسلم، مبعوث ابن سعد لأهله ليبشرهم (بفتح الله عليه وبعافيته)، ان هناك خللاً واضحاً فيها، فزين العابدين عليه السلام كان في الثالثة والعشرين من العمر، وهي سن ما كانت تخفى بحيث تجعل ابن زياد يشك في بلوغه مبلغ الرجال ويأمر بالكشف عليه.

وربما أضيفت بعض العبارات في الرواية بشكل مقصود مثل قول زين العابدين لابن زياد: «ان كانت بينك وبينهن قرابة فابعث معهن رجلاً تقياً يصحبهن بصحبة الاسلام..» فهل كان الإمام عليه السلام يشك بمثل هذه القرابة ويتوهمها؟ أم أنه على يقين من

(١) ومن العجيب ما وقع بعد عدة سنوات من هذا الحادث الذي جيء فيه برأس الحسين عليه السلام والاسرى من آل بيته بينما ابن زياد كان يتغذى، فقد أرسل المختار الثقفي رأسه إلى الامام زين العابدين ووصل إليه بينما كان عليه السلام يتغذى كذلك.. وهذه من المفارقات الجديرة بالاعتبار والفهم...
(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٧، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٣٤ - ٤٣٥.

أصل ابن زياد المفضوح والمعروف؟

إنه يعلم أنه أبعد ما يكون عن آل البيت عليهم السلام، غير أنه يعلم أنه متلف على ادعاء مثل هذه القرابة، ولو عن طريق أبي سفيان وبعملية سفاح غير مقرّة من قبل أي قانون إسلامي، وإذا صحت قرابته بأبي سفيان الذي يتصل بقرابة عن طريق عبد مناف بآل البيت، فإن ابن زياد في ذلك الحين يستطيع أن يتشبث بذلك الخيط الواهي، ويرفع رأسه مفتخراً بهذه القرابة، التي لن يثير الادعاء بها الا الهزء والسخرية من قبل الناس.

هل كان ابن زياد يرتاح لقول الامام زين العابدين عليه السلام، ولا يتصور انه يرميه به من باب السخرية أيضاً؟

ام ان الإمام كان يتحدى ابن زياد فيما إذا كان هو نفسه مقتنعاً بهذه القرابة التي تجعله يعطف على أقاربه في النهاية فيرسل معهم رجلاً تقيّاً يصحبهم إلى الشام. وحتى هذه السفرة إلى الشام كانت غير مقررة بعد، وابن زياد لا يعلم بالأوامر النهائية ليزيد، فربما أمر بقتل الاطفال والنساء في الكوفة، وربما أمر بتسييرهم اليه، وهذا ما روي لنا مع هذه القصة بعد ذلك فعلاً.

روى عوانة بن الحكم الكلبي قال: «لما قتل الحسين وجيء بالاثقال والاسارى حتى وردوا بهم الكوفة إلى عبيد الله، فبينما القوم محتبسون إذ وقع حجر في السجن، معه كتاب مربوط، وفي الكتاب: خرج البريد بأمركم في يوم كذا وكذا إلى يزيد بن معاوية، وهو سائر كذا وكذا يوماً، وراجع في كذا وكذا، فان سمعتم التكبير، فأيقنوا بالقتل، وان لم تسمعوا تكبيراً فهو الامان ان شاء الله.

فلما كان قبل قدوم البريد بيومين أو ثلاثة اذا حجر قد ألقى في السجن، ومعه كتاب مربوط موسى، وفي الكتاب: أوصوا واعهدوا فانها ينتظر البريد يوم كذا، وكذا، فجاء

البريد ولم يسمع التكبير، وجاء كتاب بأن سرح الاسارى اليّ»^(١) وهذه الرسالة لا تدع شكاً في الاعتقاد بأن قرار البتّ بشأن الاسرى من النساء والاطفال كان بيد يزيد، وان ابن زياد كان ينتظر أوامر منه، وانه لم يكن بصدد ارسالهم إلى يزيد حتى يوصيه زين العابدين عليه السلام بأن يرسل معهم رجلاً تقياً.

شركاء الجريمة، أول من يتلقون (النبأ السار)

ولعل فرحة ابن زياد بقتل الامام الحسين وأصحابه عليهم السلام لا تقل عن فرحة يزيد، بل لعلها تزيد عليها، فهو قد حقق أمر سيده، وهو ما يراه أمراً ملموساً يمكن أن يشبه عليه ويجازيه، وهو ما فعله يزيد الذي حسنت حال ابن زياد لديه وقربه بعد ذلك.

«دعا عبيد الله بن زياد محفز بن ثعلبة وشمر بن ذي الجوشن، فقال: انطلقوا بالثقل والرأس إلى أمير المؤمنين يزيد بن معاوية»^(٢) وأوصاهما بما سيقولانه له، وبالطريقة التي يعاملون بها الأسرى، وهي طريقة نمّت عن القسوة المفرطة التي اشتهر بها واشتهر بها مبعوثاه، وخصوصاً شمر.

ولم يكتف ابن زياد بانجاز المهمة التي عهد إليه بها سيده، وانما أضاف إليها لمسات شخصية بدت في طريقة انجازه لها، وهو ما تحدثنا عنه.

وقد أراد أيضاً- بدافع من معرفته لاعداء أهل البيت الحقيقيين ومنهم عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة- ان يشير هؤلاء بما نال الحسين عليه السلام وأصحابه على يديه، وكان يرى ذلك أمراً ضرورياً وملحاً لتحقيق شعوره بالنصر المزيف الذي حققه ابن زياد واشباع رغبته في التشفي من آل الرسول المتبقين في المدينة.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٤٥، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٣٦.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٤٥.

حدث عَوانة بن الحكم قال: «لما قتل عبيد الله بن زياد الحسين بن علي، وجيء برأسه اليه، دعا عبد الملك بن أبي الحارث السلمي، فقال: انطلق حتى تقدم المدينة على عمرو بن سعيد بن العاص فبشره بقتل الحسين، فذهب ليعتل له، فزجره - وكان عبيد الله لا يصطلي بناره - فقال: انطلق حتى تأتي المدينة، ولا يسبقك الخبر واعطاه دنائير، وقال: لا تعتلّ، وان قامت بك راحلتك فاشتر راحله، قال عبد الملك: فدخلت على عمرو بن سعيد، فقال: ما وراءك؟ فقلت: ما سرّ الأمير، قتل الحسين بن علي؟ فقال: نادِ بقتله، فناديت بقتله، فلم اسمع والله واعيةً مثل واعية نساء بني هاشم في دورهن على الحسين:

فقال عمرو بن سعيد وضحك:

عجت نساء بني زياد عجةً كعجيج نسوتنا غداة الارنب^(١)

وعمر بن سعيد بن العاص الأموي هذا، هو الذي حاول احتجاز الحسين عليه السلام في مكة ومنعه من الذهاب إلى الفرات، ولعله كان يترقب (النبأ السار) على أحر من الجمر.

جريمة السبي، تؤكد الحقد الأموي على الرسول وآله عليهم السلام

وكان منظر العائلة (المسبية) التي قتل رجالها وتعرضت للسلب والنهب دليلاً على حقد الطغمة الحاكمة واعوانها فقد «مال الناس على الورس والحلل والإبل وانتهبوها، ومال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه فإن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٤١ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٤١ والارنب وقعة لبني زياد على بني زياد من بني الحارث بن كعب، من رهط بني عبد الدار وهذا البيت لعمر بن معد يكرب. ثم قال عمرو بن سعد: هذه واعية بواعية عثمان، ثم صعد المنبر فأعلم الناس بقتله، ولعله لم يشأ أن يقول صراحةً أن ذلك كان ثأراً لقتلي بدر من الأمويين وأحلافهم، ولعل ابن زياد أدرك الرغبة عند عمرو بن سعيد هذا للتشفي من الحسين وآل الرسول فبادر إلى اعلامه بتلك السرعة الفائقة.

حتى تغلب عليه فيذهب به منها»^(١) بعدما أُحرقت الحيايم، وبعد ما أُخرجت تلك العائلة تستعرض أمام الجيش الغازي المبتهج (بنصره وغلبته) على الحسين ورجاله، (كان) منظرًا لا يحتمل، فكيف يكون ذلك العدوان على نساء ينتمين إلى آل البيت عليهم السلام وهم من هم في منزلتهم ومكانتهم من الله ومن الرسول صلى الله عليه وآله ومن المسلمين، ومن نزلت شهادات أكيدة بحقهم وقداستهم وطهارتهم من الله عز وجل.

نساء مسلمات غير متبرجات يمثلن طهارة الرسول صلى الله عليه وآله نفسه، وكل تلك القداسة التي كانت له في نفوس المسلمين، كيف يستطعن تحمل تلك الصدمة الاليمة، صدمة قتل ممثل الرسالة الامام الحسين عليه السلام، عميدهن وقتل اخوته وأبناءؤه وأبناء عمومته وأصحابه، تلك القتلّة القاسية المنفرة التي لم يُر لها مثيل من قبل، تضاف لها صدمة استعراضهن، وأخذهن إلى الكوفة حيث مقر المجرم الذي ارتكب كل تلك الجريمة المروعة.

كان امام عائلة الحسين عليه السلام مسير صعب قاس، تؤسر فيه لابن زياد الذي لم يُعرف منه ما يدل على احترامه لكل قداسة جاء بها الاسلام والذي اشتهر كما اشتهر أبوه من قبل قسوته المتناهية تجاه أعدائه ومنافسيه، ويكون مصيرها رهن كلمة تخرج من فمه. وهل عسى أن تكون تلك الكلمة لصالح تلك العائلة التي جعل من شؤونها مناصبتها العداء على الدوام؟

وإذا ما أضيف لذلك خشيتهنّ من إقدام الجيش المعتدي على قتل امام الامة المرتقب زين العابدين عليه السلام وكل الصبية الصغار، كما أراد ذلك شمرّ فعلاً، لولا أن تصدى له بعض الرجال واستعطفوه لكي يتركهم، وإذا ما علمنا أن ذلك تم في ساعات معدودة تلت ساعات طويلة من الخوف والترقب والهواجس والآلام الجسمية والنفسية، أدركنا

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٤.

إلى أي مدى بلغت تلك الآلام من العائلة الزكية المقدسة التي اعتادت ان تكون محل احترام وتقديس المسلمين كافة.

ان منظر اخراج النساء من الخيام واضرام النار فيها، وتسابق القوم على نهب بيوت آل الرسول ﷺ وفرار النساء (حواسر مسلّبات حافيات باكيات)، اثار حفيظة نساء غريبات^(١)، بل حزن نساء الكوفة كلهن فيما بعد، وشكل ادانة للنظام الاموي اضيف لجريمته البشعة في قتل الحسين وأصحابه بتلك الصورة المروعة، ولعلهم لو ارتكبوا الجريمة دون اللجوء إلى ترويع النساء وسلبهن ومعاملتهم تلك المعاملة القاسية لجعلوها أخف في نظر الكثيرين من الناس إلى يومنا هذا ولكن الفعل الاجرامي قد خف وقعه عليهم، إذ ما حاجتهم لذلك بعد اتمام جريمتهم بقتل الحسين وأصحابه الذين كانوا يقضون مضاجع رجال الدولة الاموية، سوى أن يدللوا على الرغبة في الجريمة لا حماية الدولة التي ادعت قيامها على الحق والشرعية وهي بعيدة عن ذلك كل البعد؟

كان مسير عائلة الإمام ﷺ إلى الكوفة ومروهن بالاجساد الصريعة التي قطعت منها الرؤوس، لا تقل معاناته عن ذلك الذي توقعنه وهن يذهبن مع زين العابدين ﷺ. إلى مقر الجريمة حيث ابن زياد الذي استقبل الجميع ذلك الاستقبال الذي كشف نفسيته الدموية وحققه على نبي الاسلام ﷺ وآله ﷺ، وقد رأينا كيف كان يبدو فخوراً منتفخاً مختالاً بفعلته أمام جمع النساء والاطفال الخائفين المرعوبين، لو لم يفوت عليه ذلك الامام زين العابدين وزينب.

(١) وقد روي أن امرأة من آل بكر بن وائل كانت مع زوجها في أصحاب عمر بن سعد، فلما رأت القوم قد اقتحموا على سلب بنات رسول الله ﷺ أخذت سيفاً، وأقبلت نحو القوم وهي تصيح: «يا آل بكر بن وائل، اتسلب بنات رسول الله؟ لا حكم الا الله، يا لثارات رسول الله» فأخذها زوجها ووردها إلى رحله. (التهوف: ص ٥٥، ومثير الاحزان: ص ٤٠، ونهاية الارب: ج ٢٠ ص ٤٦).

(سمية أمسى نسلها عدد الحصى)

وبنفس الطريقة المريعة التي نقلوا بها من كربلاء إلى الكوفة، ثم نقلهم منها - فيما بعد - إلى دمشق، وقد أمر ابن زياد «بعلي بن الحسين فَعَلَّ بَغْلًا إلى عنقه»^(١) وقد أثار كل ذلك - بما فيه سلوك يزيد ورد فعله الاول - عندما وردت اليه السبايا والامام زين العابدين برفقة رأس الإمام عليه السلام - غيظًا شاعر ينتمي إلى العائلة الاموية نفسها، لم يستطع السكوت امام انتهاكات ابن زياد، فقال في حضور يزيد مستنكرًا لعملية الابداء التي قام ابن زياد بايعاز منه، بيتين من الشعر سخر فيهما من الاوضاع التي يحاول فيها استئصال نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتكثير نسل الزواني وابنائهن ممثلات بسمية أم زياد.

«لهام بجنب الطف أدنى قرابةً من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل
سمية أمسى نسلها عدد الحصى وبنت رسول الله ليس لها نسل»^(٢).

فهل كان جزاء رسول الله صلى الله عليه وآله من امته ان يلقي بنوه منها ذلك؟
ذلك ما حيرَ الشاعر وهيجَ مشاعره.

القتلة يتبادلون الاتهامات: ما لي ولا بن مرجانة لعنه الله وغضب عليه

وإذ يدرك الجميع جسامة الجريمة وبشاعتها بعد أن رأوا ردود الفعل الغاضبة من الأمة والتي امتدت حتى إلى داخل بيوت منفذي الجريمة انفسهم، بدأ فصل جديد تبادلوا فيه الاتهامات وحاول كل منهم القاء تبعة الجريمة على صاحبه، وهذا ما سوف نتحدث عنه في الفصل القادم.

غير أننا نشير هنا إلى أن ابن زياد حاول تحميل ابن سعد مسؤولية ما قام به في

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٨-٣٣٩، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٤١.

(٢) المصدر السابق، والشاعر هو يحيى بن الحكم، أخو مروان بن الحكم. وقد أنكر فعل الأمويين بالحسين وقال: (حُجِبْتُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. الطبري: ج ٣ ص ٣٣٩).

كربلاء، وربما أراد أن يقول: صحيح أنني أمرته بقتل الحسين وأصحابه، ولكن ليس بتلك الطريقة التي قام بها.

وكأن ابن سعد أحسن منذ البداية ما كان يدبر له هو أيضاً، وقد أراد أن يعرض نفسه على أنه مجرد منفذ لا غير، وأنه لم يقيم بها قام به من عند نفسه وإنما بايعاز من سلطان قاهر، هو ابن زياد وكيل الخليفة على مصر، وهل يملك أحد الا أن يطيع (الخليفة)، حتى وان كان ذلك بسخط الخالق!.

وكمحاولة منه لتبرئة ذمته قام بالاحتفاظ بالكتاب الذي أرسله اليه والذي يأمره فيه بقتل الحسين والتمثيل بجثته، ولم يعده إلى ابن زياد لكي يقوم باتلافه أو الاحتفاظ به. «قال عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد بعد قتله الحسين: يا عمر اين الكتاب الذي كتبت به اليك في قتل الحسين؟

قال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب.

قال: لتجيئن به.

قال: ضاع.

قال: والله لتجيئنني به.

قال: تُركَ والله يُقرأ على عجائز قريش اعتذاراً اليهن بالمدينة. أما والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن أبي وقاص كنت قد أديت حقه. قال عثمان بن زياد أخو عبيد الله: صدق والله، لوددت أنه ليس من بني زياد رجل الا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة وان حسيناً لم يقتل.

فوالله ما أنكر ذلك عليه عبيد الله»^(١).

وقد استمر مسلسل تبادل الاتهامات حتى اخريات أيام يزيد كما سنرى بعون الله، غير أننا نورد هذا الخبر لنستدل به على أن يزيد لم يكن نادماً على قتل الحسين عليه السلام إلا لأن ذلك بغضه إلى الناس وزرع له في قلوبهم العداوة كما اعترف هو.

«لما قتل عبيد الله بن زياد الحسين بن علي عليه السلام وبني أبيه، بعث برؤوسهم إلى يزيد ابن معاوية، فسُرَّ بقتلهم أولاً، وحسنت بذلك منزلة عبيد الله عنده، ثم لم يلبث الا قليلاً حتى ندم على قتل الحسين، فكان يقول: وما كان عليّ لو احتملت الاذى وأنزلته في داري، وحكّمته فيما يريد؟ وان كان علي في ذلك وكفّ ووهن في سلطاني، حفظاً لرسول الله صلى الله عليه وآله ورعايةً لحقه وقرابته!

لعن الله ابن مرجانة، فإنه أخرجه واضطره وقد كان سأل ان يخلي سبيله ويرجع فلم يفعل، أو يضع يده في يدي! أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله عز وجل فلم يفعل، فأبى ذلك ورد عليه وقتله، فبغضني بقتله إلى المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة فبغضني البر والفاجر، بما استعظم الناس من قتلي حسينا! مالي ولا بن مرجانة لعنه الله وغضب عليه»^(٢).

فلنلاحظ الرواية هنا بدقة:

١- سرّ يزيد بقتل الحسين عليه السلام أولاً وحسنت حال ابن زياد عنده.

٢- ندم يزيد مدعيّاً حزنه على ذلك وتمنى لو عادت الايام فابقى على الحسين عليه السلام وأنزله داره وحكّمه فيما يريد حفظاً لرسول الله صلى الله عليه وآله، مع أن السبب الحقيقي لذلك الندم

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٤٢.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٦٥، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٣٩ - ٤٤٠.

- كما صرح هو - ان الناس استعظموا قتل الحسين عليه السلام فبغضوا يزيد لأجل ذلك (البر والفاجر منهم) أي أن النعمة الشعبية العامة قد تصاعدت ضده.

٣- لجأ يزيد إلى شرح مطول ما كان ليلجأ اليه لو لم يرد ابراز أمر معين، وهو ترديد أكذوبة ابن سعد التي ادعى فيها أن الحسين سألَه ان يسيّره إلى يزيد فيضع يده في يده أو يدعه يرجع أو يلتحق بثغر من ثغور المسلمين، كما أن ابن سعد كان قد أصبح من أعداء ابن زياد لأنه لم يوله ولاية الري كما وعده.

ولما كان يزيد يريد تبرئة ساحته من الجريمة فإنه استغل كذبة ابن سعد - التي أوضحنا بطلانها - لتحسين صورته والقاء تبة الجريمة على ابن زياد.

٤- ربما أراد الاعلام الأموي الماكر ايهام الأمة أن الحكم الأموي يتمتع بشرعية مستمدة من قوانين الاسلام ما دام الحسين عليه السلام نفسه قد طلب أخذه إلى يزيد ليضع يده في يده، لولا ان ابن زياد فوت عليه الفرصة وقتله، ألا لعنة الله على ابن زياد، وهنا يراد توجيه اللعنات والاتهامات إلى ابن زياد بدلاً من يزيد وابرازه على أنه المتهم الوحيد، بل القاتل الوحيد للحسين وأصحابه عليهم السلام.

بين حال وحال، قبل وبعد (يزيد)

وبدا فصل جديد من حياة ابن زياد بعد وفاة يزيد الذي كان قد جفاه وأظهر الكراهية له. وقد توفي يزيد في منتصف شهر ربيع الأول سنة أربع وستين أي بعد حوالي ثلاث سنوات ونصف سنة من اقامه على جريمة قتل الامام الحسين وأصحابه عليهم السلام.

وفي أول خطاب له في البصرة بعد ورود خبر وفاة يزيد اليه عرض ابن زياد مثالبه ونال منه، وقد تنكر له وكأنه لم يكن طوع يديه في أي يوم من الايام ولم يكن أداة لتنفيذ مخططاته ومآربه، مما جعل الاحنف يستنكر ذلك الموقف اللا أخلاقي منه، وقد قال له،

«انه قد كانت ليزيد في أعناقنا بيعة، وكان يقال: أعرض عن ذي فنن، فاعرض عنه»^(١).

ويبدو أن مولاه مهرا - ذلك الذي كان له دور كبير بتشجيعه في الكوفة لمواجهة مسلم وهاني، وكان قد أرسله لاستطلاع أوضاع الشام، وهو الذي وافاه نبأ وفاة يزيد، قد شرح له اضطراب الاحوال في دمشق بعد حادث الوفاة المفاجيء وتذبذب الولاء فيها بين ابن يزيد وبعض شخصيات الشام وابن الزبير، وكان من المحتمل أن ترجح كفة ابن الزبير وهو ما يعني نكسة كبيرة لابن زياد.

وبما أن منصب الخلافة شاغر، قد شغله من قبل وترشح لاشغاله من كان يرى أنه أقل منه كفاءة ومنزلة، فإنه أراد أن يدلي بدلوه ورأى أنه قد يمكن أن ينال هذا المنصب أيضاً.

وقد حاول استمالة أهل البصرة بخطبة مطولة - لعلها أطول خطبة ذكرت له - عدد فيها الانجازات التي تحققت لهم على يدي والده ويديه وقد جاء فيها: «يا أهل البصرة انسبوني، فوالله لتجدنَّ مهاجر والدي ومولدي فيكم، وداري، ولقد وليتكم، وما أحصى ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألف مقاتل ولقد أحصى اليوم ديوان مقاتلتكم ثمانين ألفاً، وما أحصى ديوان عمالكم إلا تسعين ألفاً، ولقد أحصى اليوم مائة وأربعين ألفاً، وما تركت لكم ذا ظنة أخافه عليكم الا وهو في سجنكم هذا»^(٢).

وحاول اللجوء معهم إلى أسلوب الرشوة «وكان في بيت مال عبيد الله يوم خطب الناس ثمانية الاف الف (وقال علي بن محمد) تسعة عشر الف ألف - فقال للناس: ان هذا فيئكم، فخذوا أعطياتكم وارزاق ذرايكم فيه. وأمر الكتبة بتحصيل الناس وتخريج الاسماء، واستعجل الكتاب في ذلك، حتى وكل بهم من يجسهم بالليل في

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٦٦، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٦٨.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٦٤.

الديوان، واسرجوا بالشمع»^(١).

وقد أرسل مبعوثين إلى الكوفة لاستمالة أهلها ودعوتهم لمبايعته، وقد رفضوا ذلك وقال أحدهم: يزيد بن الحارث بن رويم الشيباني: «الحمد لله الذي أراحنا من ابن سمية، لا ولا كرامة»^(٢) وطرّدوا وكيله عليهم.

وقد أثر موقف أهل الكوفة على البصرة، فرفضت مبايعته وقال الناس: «أهل الكوفة يخلعونهم وأنتم تولونه وتبايعونه، فوثب به الناس»^(٣).

وقد هرب بالأموال التي ظلت طعمة لآل زياد فهي -على حد قول الطبري- «إلى اليوم تردد في آل زياد، فيكون فيهم العرس أو المأتم، فلا يرى في قریش مثلهم، ولا في قریش أحسن منهم في الغضارة والكسوة»^(٤).

واستجار بمسعود بن عمرو، بعد أن قدم رشوة لزوجته.

وبعد قتل مسعود لم ير ابن زياد بدءاً من التوجه إلى الشام والنجاة بجلده، «ولما هرب عبيد الله بن زياد اتّبعوه، فأعجز الطلبة، فانتهبوا ما وجدوا له، فقال في ذلك وافد بن اسماء:

يا ربّ جبار شديد كلبه	قد صار فينا تاجه وسلبه
منهم عبيد الله حين نسلبه	جياذ وبذّه ونهبه
يوم التقى مقبنا ومقنبه	لوم ينجّ ابن زياد هربه» ^(٥)

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٦٧.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٧٥، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٦٩ - ٤٧٧.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٦٧.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٣٧٣.

(٥) الطبري: ج ٣ ص ٣٧٤.

عبد فرعون بمستوى رغبات فرعون: (مروان) سيداً جديداً

وبقي فصل كان عليه أن يلعب فيه دوراً كبيراً إذا ما وصل الشام، وهو العمل على ابقاء (الخلافة) في آل أمية، وقد كان يخشى من انتقالها إلى غيرهم وخصوصاً ابن الزبير، كان ارتباك الامويين واضحاً، وكانوا يتخبطون في مسألة من يولونه عليهم وكان من رأي «مروان أن يرحل فينطلق إلى ابن الزبير فيبايعه. فقدم عبيد الله بن زياد واجتمعت عنده بنو أمية، وكان قد بلغ عبيد الله ما يريد مروان فقال له: استحييت لك مما تريد، أنت كبير قريش وسيدها، تصنع ما تصنعه فقال: ما فات شيء بعد»^(١).

كان الأمويون قلقين وكانوا بين نارين، نار مبايعة ابن الزبير والتخلي عن العديد من المكاسب التي حققوها في ظل معاوية ويزيد، ونار قيام أحدهم بالدعوة لنفسه، وهو ما لم يروا أنفسهم جديرين به حتى مروان عميدهم نفسه، الذي بدا أنه لم يجرؤ حتى تلك اللحظة بالدعوة إلى نفسه، وكان عبيد الله يبدو وكأنه كان أبعدهم نظراً وأصوبهم منطقاً حتى أنهم تحلقوا حوله وحفوا به ليخرجهم من ورطتهم «فكأنهم كانوا معه صبياناً، قدم الشام وقد أبرموا، فنقض ما أبرموا إلى رأيه»^(٢).

وقد حارب ابن زياد تحت راية مروان الضحاك بن قيس الذي كان يدعو لابن الزبير وقد بقي مع مروان بعد مقتل الضحاك.

وعندما أرسل ابن الزبير عاملاً من قبله على الكوفة. جهز مروان ابن زياد بجيش وأمره بالتوجه إليها، وقد حاول عامل ابن الزبير ضرب عصفورين بحجر واحد، عندما أشار على التوايين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي أن يسيروا لحربه، وبذلك يضعف الطرفين أو يتخلص من أحدهما أو كليهما، غير أنه دعاهم بالتالي أن يترثوا

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٧٨.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٧٥-٤٥١، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٨٦ وما بعدها.

ويسيروا تحت قيادته لحرب ابن زياد وقد رفض التوابون ذلك، ورأوا ان القتال مع ابن الزبير في النهاية شأنه شأن القتال مع مروان نفسه، وقد رأوا أنهم أصحاب قضية واحدة هي الثأر من قتل الحسين وأصحابه عليه السلام.

وقد ساروا إلى عين الوردية وفاجئوا جيش ابن زياد فقتلوا منه أعداداً كبيرة فاقت عددهم الا أن قادتهم استشهدوا في المعركة كما ان معظمهم استشهدوا ورجعت فلول قليلة منهم إلى الكوفة وكان ذلك سنة خمس وستين للهجرة، في شهر ربيع الآخر، والتحق من رجع منهم بالمختار الثقفي.

إلى الكوفة، ثانية

ولأن ابن زياد أصبح أسطورة في قمع أهل العراق خاصة وحقق (نجاحاً) كبيراً بنظر الأمويين فان مروان جعل له «اذ وجهه إلى العراق ما غلب عليه، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظفر بأهلها ثلاثاً»^(١).

ويكمن الفرق هذه المرة بأن ابن زياد جاء على رأس جيش جرار من الشام، بينما ورد الكوفة في المرة الأولى وحيداً إلا من جماعة قليلة من أصحابه وتغلب على أهل الكوفة بأهل الكوفة، فهو ما كان ليتسامح مع من حاربوه ثانية- وفي مقدمتهم المختار وأصحابه- وكان المختار قد سيطر على الكوفة، وحتى مع أولئك الذين سكتوا عنهم ولم يحاربوهم إذ أن موقفهم المتذبذب جعلهم موضع شكه وقد يستهدفهم بقمعه كما يستهدف أعداءه أيضاً.

وقد انشغل ابن زياد عن العراق نحواً من سنة بأرض الجزيرة لمكافحة قيس عيلان الذين كانوا على طاعة ابن الزبير، ثم دخل الموصل التي كانت تابعة للمختار، فانهز

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٥١.

عامله إلى تكريت وكتب اليه بذلك.

فوجه المختار جيشاً صغيراً إلى الموصل قوامه ثلاثة آلاف فارس، فارسل اليهم ابن زياد ستة آلاف، غير أن جيش المختار هزمهم هزيمة منكرة رغم مرض قائده الشديد واشرافه على الموت، وقد مات فعلاً بعد تلك المعركة.

وقد رأى القائد الجديد الأثر السلبي الذي يمكن أن يتركه ذلك على جيشه الصغير المرهق وهو يواجه جيش ابن زياد الجرار الذي قيل ان قوامه ثمانون الف جندي، فأثر الانسحاب بعد ذلك النصر الذي حققوه على طليعة جيش ابن زياد.

الاسطورة الزائلة : لا تقبل الارض موتاهم إذا قبروا

وقد دعا المختار ابراهيم بن الاشر بنجل مالك الاشر فعقد له على سبعة الاف رجل وأمره أن يذهب لمناجزة ابن زياد واعادة الجيش المنسحب معه.

وقد حاول اشراف الكوفة بزعامه شيب بن ربيعي - الشريف المتقلب استغلال غياب حوالي عشرة آلاف مقاتل من أصحاب المختار عن الكوفة - للوثوب عليه والقضاء على ثورته وأجمعوا على قتاله، وانتظروا حتى إذا بلغ ابراهيم ساباط، وثبوا بالمختار^(١).

وقد شاغلهم المختار وارسل يستدعي ابراهيم بن الاشر الذي عاد مسرعاً، فكانت الدائرة على اشراف الكوفة، وقد اتاحت للمختار فرصة قتل العديد ممن اشتركوا بقتل الحسين وأصحابه عليهم السلام.

(١) ذكر الطبري أن هؤلاء كانوا شيب بن ربيعي وعمرو بن الحجاج وشمر بن ذي الجوشن ومحمد ابن الاشعث وعبد الرحمن بن سعيد بن قيس وحجار بن ابجر وغيرهم ومعظمهم من المشاركين بقتل الحسين عليه السلام ولعلمهم خافوا أن تدور الدائرة عليهم وأن يستهدفهم المختار بعد ظهور الشعائر التي تدعو للثأر للحسين عليه السلام وأصحابه.. وكذلك ذكر ابن الاثير: ج ٣ ص ٤٩٥.

وقد عاد ابن الاشر للهمة التي انتدبه اليها المختار لمواجهة ابن زياد. وقد ودعه المختار وأوصاه وصايا مهمة بشأن مواجهة عدوه.

كان هاجس جيش الكوفة هو الانتقام من ابن زياد شخصياً، لقد بدا لكل فرد من أفراد ذلك الجيش انه عدو شخصي له، ففضية الحسين عليه السلام كانت ساخنة متجددة في نفوسهم وضئائرهم ولعلها كانت القضية الأولى التي كان يحملها أفراد ذلك الجيش بمواجهة جيش آل مروان الذي تزعمه ابن زياد، ولو كان غيره، زعيم ذلك الجيش الذي تجاوز ثمانين ألفاً لما استطاع جيش ابن الاشر الذي يبلغ عشرة آلاف أن يتغلب عليه ويهزمه تلك الهزيمة المنكرة.

كان أهل الكوفة يرون أمامهم ابن زياد، عدوهم اللدود، وكان ابن الاشر يلفت نظرهم إلى عدوهم هذا الذي تمنوا، ومن ورائهم جماهير الكوفة الخلاص منه، وها هي الفرصة امامهم لتحقيق حلمهم الكبير، بل الوحيد، «هذا عبيد الله ابن مرجانة قاتل الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته وبين ماء الفرات أن يشربوا منه وهم ينظرون اليه، ومنعه الذهاب في الأرض العريضة حتى قتله وقتل أهل بيته؟ فوالله ما عمل فرعون ببني إسرائيل ما عمله ابن مرجانة بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

قد جاءكم الله به، وجاءه بكم، فوالله اني لأرجو ألا يكون الله جمع بينكم في هذا الموطن وبينه الا ليشفي صدوركم بسفك دمه على أيديكم، فقد علم الله أنكم خرجتم غضباً لأهل بيت نبيكم»^(١).

وهُزِمَ جيش ابن زياد الجرّار، وقتل ابن الاشر ابن زياد «ضربه فقده بنصفين...

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٨٠-٤٨١، والكامل في التاريخ: ج ٤ ص ٦٢.

ولما هزم أصحاب عبيد الله تبعهم أصحاب إبراهيم بن الأشتر فكان من غرق أكثر ممن قتل وأصابوا عسكرهم فيه من كل شيء^(١).

كان ذلك عام سبع وستين بعد ست سنوات من إقدامه على جريمة قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام وعمره قارب الأربعين، قتل بعد أن تيقن أن كل شيء لا يمكن أن يسير دونه وبعد أن منحته الدولة الاموية - بقيادة عبد الملك - ثقتها المطلقة وأتاحت له التصرف في الارض التي يمتد سلطانه عليها، وبعد أن جاء مغيراً على الكوفة ثانية ليستأصل من أهلها كل من يمت إلى أهل البيت عليهم السلام بود أو ولاء.

وصل رأسه إلى الكوفة مع رؤوس قواده فألقيت في القصر الذي كان مقرراً لجريمته التي استنكرها الجميع حتى أمه التي قالت له: «يا خبيث، قتلت ابن رسول الله صلى الله عليه وآله لا ترى الجنة أبداً»^(٢).

كان عبيد الله نتاجاً للدنس والخطيئة، ونتاجاً لولادة غير طبيعية لنظام التعسف والظلم والجور الخارج عن حدود الاسلام وقيمه وأحكامه، وكان وجوده رفضاً لأي تعامل طبيعي أرساه الاسلام، وكان مثلاً مشوهاً للشر والجريمة والشك وسوء الظن والغدر أفرزته فلسفة معاوية في الحياة والحكم، ونسجته عقلية زياد الملتوية المتقلبة الحقودة، وكان نسخة منه، أشبهه من بين من وطىء الحصى ولم ينتزعه شبه خال ولا ابن عم كما قال هو عن نفسه وشهد بذلك عليها^(٣).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٨١-٤٨٢ وقد قال عمير بن الحباب السلمي في جيش ابن زياد: وما كان جيش يجمع الخمر والزنا محلاً إذا لاقى العدو لينصرا (الكامل في التاريخ: ج ٤ ص ٦٣).

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٤ ص ٦٣.

(٣) ورحم الله ابن مفرغ حينما يقول فيه:

إن المنايا اذا ما زرن طاغية هتكن استار حجّاب وأبواب

فيا بن زياد بؤ بأعظم هالك وذق حدماضي الشفرتين صقيل^(١)
وقد حاول ابن زياد بث العزيمة في جيشه عندما حاول الاستهانة بقائد الجيش
المقابل، تساءل ابن زياد قائلاً: «من هذا الذي يقاتلني؟
قيل له: ابراهيم بن الاشر.

قال: لقد تركته أمس صبيّاً يلعب بالحمام^(٢)
ولم يحسب أن مثل هذا الصبي يمكن أن يكبر ويذيقه الحُمام.
وبعث المختار برأس ابن زياد إلى الإمام علي بن الحسين عليه السلام بالمدينة، فقدم به عليه
الرسول عند انتصاف النهار وهو يتغدى، فلما رآه قال:
«سبحان الله، ما اغتر بالدنيا الا من ليس لله في عنقه نعمة؛ لقد ادخل رأس أبي عبد
الله على ابن زياد وهو يتغدى»^(٣).

أقول بعداً وسحقاً عند مصرعه
لأنت زوحت عن ملكٍ فتمنعه
لا من نزارٍ ولا من جذم ذي يمنٍ
لا تقبل الارض موتاهم اذا قبروا
لابن الخبيثة وابن الكودن الكابي
ولا متت إلى قوم بأسباب
جلمود ذا ألقيت من بين الهاب
وكيف تقبل رجساً بين أثواب
الكامل في التاريخ: ج ٤ ص ٦٣.

«واورد الاندلسي بيتاً منسجماً مع هذه الأبيات على لسان نفس الشاعر:
ان الذي عاش ختاراً بدمته
ومات عبداً قتيل الله بالزاب»
العقد الفريد: ج ٥ ص ١٥٣.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٨٢، والكامل في التاريخ: ج ٤ ص ٦٣.

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ١٥٢.

(٣) العقد الفريد: ج ٥ ص ١٥٢ - ١٥٣.

(قضية) .. أم مصالح شخصية

انتهى ابن زياد وهلك، غير أننا نتساءل: هل انتهت (قضيته) المرفوعة دائماً بوجه قضايا الاسلام الكبرى؟ وهل انتهت النماذج المعادة المكررة له؟ أم أن نسخا اخرى لا تزال تظهر أمامنا؟ نسخاً حديثة ملونة متحركة عصرية، تلبس ملابس أهل هذا العصر وتتحدث لغتهم وتستعمل أدواتهم؟ وهل لا يقول هؤلاء ان لنا (قضية) أيضاً ينبغي علينا الدفاع عنها حتى الموت؟ أي موت أعدائهم بالطبع.

فماذا كانت (القضية) التي حملها ابن زياد ودافع عنها طيلة حياته؟ هل كانت قضية منفصلة عن تلك التي حملها معاوية وزياد؟

ألم تكن سوى ترسيخ الحكم الاموي الذي قام على المغالطات والاكاذيب والتزوير والرشوة والارهاب؟

واذ يقوم هذا الحكم بديلاً لحكومة رسول الله ﷺ وخليفته من بعده ماذا كان عليه أن يفعل؟ كان عليه أن يحطم الاسس التي قامت عليها الحكومة الإسلامية ويزور أقوال الرسول ﷺ ويفسر القرآن على هواه، لكي يضع أسساً بديلة عن تلك التي حطمها، وكان عليه أن يقنع الامة كلها بصحة توجهاته وخطأ توجهات الآخرين. إن المنافس الحقيقي الذي شكّل الخطر الأول على الحكومة الاموية هم آل البيت ﷺ بما فيهم رسول الله ﷺ نفسه، وإذ لم يستطيعوا النيل من الرسول الذي تنفّت حوله الامة كلها فانهم اشتهروا حاربهم المعلنه والخفية على آله وفي مقدمتهم أمير المؤمنين (ع).

لقد فتشوا عن نقيصة واحدة فيه فلم يجدوها، فراحوا يرفعون من شأن أعدائهم ومنافسيه، وحاولوا طمس كل ما جاء بحق آل البيت ﷺ، وكان الاعلام الاموي المدعوم بالمال والسيف قد عمل طوال وجود الدولة الاموية على اخفاء الحقائق وتشويهها، حتى إذا ولد الجيل الثاني من الامويين، الجيل المتلقي المقتنع بالآباء

والاجداد، والذي وجد أمامه حصيلة سعيهم ملكاً واسعاً عريضاً، راح يعتقد أنه يرفع قضية حقيقية بمواجهة طامعين حاسدين وحسب، وهكذا كانت نظرة الجيل الثالث والاجيال اللاحقة.

لم ير من يحدثه الحديث الصحيح ولم يشهد موقعة أو حادثة ولم يكن طرفاً فيما مر من أحداث.

وإذا كان معاوية وعمرو بن العاص وزياد قد عرفوا لأمير المؤمنين ﷺ فضله، فلأنهم قد عاصروه وسمعوا من يحدثهم عنه، غير أنهم لم يستطيعوا الصمود أمام اغراء الملك والجاه والثراء فضعفوا وسقطوا مبررين سقوطهم أمام الناس وأمام ابنائهم، أما أولئك الأبناء وخصوصاً الاحداث منهم، فلم يروا الا (فضائل) آبائهم والا عروشهم وثوراتهم وتهافت الناس على أبواب قصورهم، وهل من دلائل (أفضل) من هذه الدلائل الملموسة التي جعلت الناس يقبلون اقدامهم؟ ويقسمون بعروشهم وان ذلك لا يعود لفضلهم ومكانتهم من الاسلام ومن الرسول ﷺ.

حديث (الحوض) ادانة لأعداء محمد ﷺ وآله

لقد تطرقنا إلى الحديث عن الحملة الاموية الواسعة لطمس فضائل آل البيت ﷺ ونشر (فضائل) مقابلة لأعدائهم ومنافسيهم... ولم يكن ذلك من الأمور الاعتبارية التي أقدم عليها الاعلام الاموي، ولم يكن من الامور التي يمكن أن يستغنى عنها... اذ كيف يبعد من يعترف بفضله قائد الدولة الاموية وأعوانه؟

وكيف تبرر ازاحته وأخذ مكانه؟

لقد وضع الاعلام الاموي ذلك نصب عينيه وجعله من أولويات عمله وفي مقدمته ولم يغفل أو يتهاون في ذلك ولو للحظة قصيرة.

وكان من جملة مفردات العمل الاعلامي الاموي التركيز على طمس أحاديث بعينها والتعتيم عليها ومنع روايتها وتداولها بين المسلمين حتى ولو كانوا من جيل الصحابة الذين سمعوا تلك الاحاديث بأنفسهم، وبما أنه لا يمكن تداول هذه الاحاديث الا بسرية بعيداً عن رقابة الدولة وعيونها وأتباعها، فإنها بدت ضرباً من العمل السري الممنوع، وبدا ضياعها أمراً محتملاً مقابل أحاديث أخرى روجتها الدولة وشجعت عليها وأعطت لمن يرويها منحة^(١).

وكان في مقدمة تلك الاحاديث حديث الغدير والولاية الذي ورد بخطاب للرسول ﷺ أمام حشد ضم عشرات الآلاف من المسلمين في غدير خم وحديث الثقلين والحوض وغيرهما.

وقد أسهنا في الحديث عن خطبة الرسول ﷺ في غدير خم عندما أعلن بأمر من الله ولاية أمير المؤمنين عليه السلام على كل مؤمن ومؤمنة وألزمهم بها وجعله أولى بالمؤمنين من

(١) وقد جرت حملة كبيرة منذ عهد عمر بن الخطاب لمنع تداول الاحاديث النبوية بحجة عدم اختلاطها مع النصوص القرآنية وتأثيرها عليها، علماً أن النص القرآني معجز ولا يمكن أن يؤثر فيه أو يشابهه قول حتى ولو كان قول رسول الله نفسه.. وقد استغل توجه عمر لمنع رواية الأحاديث في الفترة اللاحقة لطمس تلك التي أكدت على لعن ونبد من أصبحوا في مركز الصدارة بعد ذلك كآل أبي سفيان وآل مروان وغيرهم... اذ لو ظلت تلك الاحاديث متداولة لعرف الناس حقيقتهم ولما وصلوا إلى المراكز التي وصلوا اليها في ظل عثمان ومعاوية، كما منحت امتيازات للقصاصين والوضاعين ومحترفي الرواية والحديث على وضع احاديث مناقضة لتلك التي رويت على لسان رسول الله اشادوا فيها بمن لعنوا وكان الد أعداء الاسلام.. وذلك بعد أن بعدت الفترة وبدأت الناس تنسى الاحاديث الأولى (الممنوعة).. وكانوا من شأن ذلك الوضع ان تحتلق فيه أحاديث أخرى على لسان الرسول الكريم عملت على وضع أسس ومبادئ جديدة غير تلك التي كان ينادي بها ويدعو لها فيما مضى.. وقد حاول الامويون فيها نسخ الاسلام برمته والابقاء على بعض المظاهر القشرية والشكلية التي رأوا انها ضرورية لهم أيضاً ما داموا قد أقاموا (شرعية) جديدة مبنية على الاسلام نفسه وعلى الاقوال والاحاديث التي افتروها ونسبوا للرسول ﷺ نفسه.

أنفسهم كما كان هو ﷺ فهو أخوه ونفسه.

ولأن أمير المؤمنين ﷺ كان يدرك الابعاد التي تضمنتها خطبة الغدير، وضرورة ان يعرف المسلمون كلهم محتوى تلك الخطبة؛ لأنه كان بمواجهة التيارات التي أرادت الناس أن ينسوها، تلك التيارات التي أعلنت كراهيتها له بعد أن لم تجرؤ على مواجهة رسول الله ﷺ، ورأى أن الإتجاه العام وقوى التأثير التي تقف في مواقع الحكم كانت تريد صرف الانظار عن مكانته من الاسلام ومن رسول الله ﷺ ولأنه علم أنه كان يواجه حملة تعقيم إعلامية على شخصه، وان الحملة كادت أن تتحول إلى عداء اراد أعداؤه القدامى أن يصبوه في نفوس المسلمين كافة فقد أراد تذكير المسلمين بما قاله رسول الله ﷺ في حقه «وقد جمع على الناس في الرحبة. ثم قال لهم: انشد الله كل امرئ مسلم سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم ما قال لما قام، فقام اليه ثلاثون من الناس. وفي رواية أخرى قام اثنا عشر بدرياً، فقالوا نشهد أنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم: الست أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فقلنا: بلى يا رسول الله ﷺ قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»^(١).

وكان يدرك بحسه وبما كان يخبره به رسول الله ﷺ أنه إذا ما غاب عن الساحة، فإن الحملة لن تكون مجرد تعقيم وسكوت عن فضائله ومنزلته الخاصة، وانما ستتحول إلى عمل هجومي يستهدفه وآل بيته بالدرجة الأولى؛ لأن تلك كانت الوسطة الوحيدة التي تتيح لاعدائه اعلان شرعية وجودهم بمواجهته، فمتى ما تم لهم التقليل من منزلته تمت لهم فرصة رفع منزلتهم هم.

(١) رواه أحمد وعبد الله بن أحمد والبراز (الفتح الرباني: ص ١٢٦ - ١٢٧ - ٢٣)، والبداية والنهاية: ج ٥ ص ٢١١، والبراز: كشف الاستار: ج ٣ ص ١٩٥، والمعجم الكبير: ج ٥ ص ١٧٥، والهيثمي، الزوائد: ج ٩ ص ١٥٤.

وإذ يصل الأمر إلى سببه علناً من على منابر المسلمين طيلة ثمانين عاماً، فإن ذلك يعني أن الحملة قد نجحت بتجريده من المنزلة المقدسة التي وضعه الله فيها وأعلن عنها رسول الله ﷺ والقرآن الكريم، وأن أولئك الذين أخذوا يسبونهم جعلوا ذلك من (الفرائض) التي ارادوا التقرب بها إلى الله^(١).

لماذا ينكر (ابن زياد) حديث الحوض؟

وبما أن ابن زياد كان يمثل النظام الأموي، وكان وجهاً من وجوه الحقيقة، فإنه رأى أن كل ما يرد بحق أمير المؤمنين وآل البيت ﷺ يمثل تحدياً شخصياً له، وقد بلغ به الكره لهم، أن يقدم على قتل الحسين ﷺ بتلك الطريقة المروعة، ولنا أن نتصور مواقفه مع من يميل إليهم ويتحدث بفضائلهم، حتى لو كان ذلك الشخص أحد أصحاب رسول الله ﷺ^(٢).

كان ابن زياد من جيل متأخر، وقد تأثر بشخصية والده وشخصية عميد الدولة الأموية نفسه، وبما أنه عاش في مجتمع جعل من كراهيته لآل البيت ﷺ ديناً، فإن تصديه لأتباعهم ومواليهم كان يمثل -بنظره- مهمة مقدسة.

وكان يروى عنه انكاره لما يرويه بعض صحابة رسول الله ﷺ بخصوص حديث الثقلين والحوض؛ لأن بروز تلك الأحاديث في تلك المرحلة التي تلت إقدامه على مجزرة الطّف كان يمثل ادانة واضحة له هو على الخصوص ولسيده يزيد.

وحديث الثقلين، ذلك الحديث الذي يجعل من أهل بيت الرسول ﷺ مساوين لكتاب الله في الدرجة والمكانة لأن الوصول إليه وفهمه والأخذ منه لا يتم بدونهم،

(١) وقد قيل أن أحدهم نسي سبّه ﷺ بعد الصلاة، ففُضِيَ ذلك فيما بعد..

(٢) ووصل به الأمر إلى هدم دار حجر بن عدي الكندي، مع أن حجراً قد أعدم بيد معاوية وقتل صبراً بدسيسة من زياد حسب ما يذكر الطبري.

ومتى ما ابتعدت الامة عنهم وتركت تعاليمهم وهجرتهم، فإن آخرين سيعمدون إلى تشويه مضامين الحديث وتفسيره على هواهم، وهو ما تم فعلاً بعد ذلك عندما أقدم معاوية وآخرون على الخوض فيه وفق هواهم ومصالحهم وجندوا لذلك جماعة كبيرة من المرتزقة وواضعي الحديث ومؤولي السور والقصاصين وغيرهم.

قال رسول الله ﷺ في حديث الثقلين: «اني تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض، وعترتي أهل بيتي، وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^(١).

وقال ﷺ: «انا فرطكم على الحوض، من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ. وليردنَّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم»^(٢).

ان مجتمع الكوفة الذي عرف عظم الجريمة التي أقدم عليها ابن زياد، وادانه ادانة تامة، وندم على مسيرته والخضوع له، جعل يستعيد ما تعلمه بالأمس وأجبر على تناسيه أو تركه بخصوص آل البيت ﷺ وفي مقدمتهم أمير المؤمنين وأولاده ﷺ الذين التفوا حولهم ثم تخلوا عنهم، فعلوا ذلك عدة مرات، وإذ يبلغ الندم حد الدعوة للأخذ بثأر الحسين ﷺ من الدولة الظالمة، فإن البحث عن الاحاديث الصحيحة التي لا يزال بعض شهودها ورواتها من الصحابة حاضرين، يعيشون بين أظهرهم، يبدو أمراً طبيعياً لمواجهة حالة التخاذل والانحدار التي عاشوها ولتجنب حالة مماثلة في المستقبل.

وكان تداول أمثال تلك الاحاديث بحق آل البيت ﷺ تعني العودة اليهم وإلى منهجهم في الحياة والنظر، وكان يعني رفضاً للمنهج الأموي برمته.

(١) رواه أحمد والترمذي وقال المناوي: رجاله موثقون: الفتح الرباني: ج ١ ص ١٨٦.

(٢) البخاري ك الدعوات. ف الصراط: جسر جهنم - الصحيح: ج ٤ ص ١٤١ - صحيح مسلم: ج ١٥ ص ٥٣.

وقد روي عن أبي سبرة الهذلي قوله «كان عبيد الله بن زياد يكذب بالحوض بعدما سأل عنه أبا برزة^(١) والبراء بن عازب وعائذ بن عمرو ورجلاً آخر»^(٢).

كما كذب أنس بن مالك وزيد بن أرقم عندما رويَا له حديث الحوض وأنكر عليهما روايتهما لهذا الحديث، وقد بلغ أنس انكاره فقال: «ما انكرتم من الحوض؟ قالوا: سمعت النبي ﷺ يذكره؟

قال نعم. ولقد أدركت عجائز بالمدينة لا يصلين صلاة، الا سألن الله تعالى أن يوردهن حوض محمد ﷺ»^(٣) ويبدو من المحاوراة أن جماعة شايعوا ابن زياد على رأيه الذي انكره عليه أنس بن مالك.

وقد ورد في رواية أخرى أن ابن زياد تساءل: «ولمحمد حوض؟ قالوا: هذا أنس بن مالك يحدث ان له حوضاً. فجاء أنس فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إِنَّ لِي حَوْضاً وَأَنَا فَرَطُكُمْ عَلَيْهِ»^(٤).

وقد روي عن زيد بن أرقم أنه قال: «بعث إليّ عبيد الله بن زياد فأتيته، فقال: ما أحاديث تبلغنا وتروونها عن رسول الله لا نسمعها في كتاب الله، وتحدث أن له حوضاً؟! قال زيد: لقد حدثنا عنه رسول الله ﷺ وأوعدنا. فقال ابن زياد: كذلك، ولكنك

(١) وأبو برزة هو نفسه الذي انكر على يزيد قيامه بنكت ثغر الحسين ﷺ عندما جلب الرأس اليه وقال له: «اتنكت بقضيبيك في ثغر الحسين ﷺ» أما لقد أخذ قضيبيك من ثغره مأخذاً، لربما رأيت رسول الله يشفه، اما انك يا يزيد تحيي يوم القيامة وابن زياد شفيحك، ويحيي هذا يوم القيامة ومحمد شفيعه، ثم قام فولى» الطبري: ج ٣ ص ٣٤١.

(٢) رواه ابن أبي عاصم وقال الالباني اسناده ثقات (كتاب السنة: ج ٢ ص ٣٢٣).

(٣) رواه ابن أبي عاصم وقال الالباني: اسناده صحيح على شرط مسلم. وأخرجه أحمد (كتاب السنة: ج ٢ ص ٣٢١).

(٤) كتاب السنة: ج ٢ ص ٣٢٢.

شيخ قد خرفت. قال زيد: إني قد سمعته اذناي ووعاه قلبي من رسول الله ﷺ وفي رواية «سمعته أول خطبة النبي في غدير خم، في الوصية بكتاب الله وأهل بيته»^(١).

وقد وردت ملاحظة قيمة في كتاب (معالم الفتن)^(٢) حول هذه النقطة، قال فيها الكاتب «وكان تكذيب ابن زياد بالحوض تكديماً له ثقافته الواسعة، على أرض اتخذت من قبل ثقافة سب أمير المؤمنين علي عواناً لها. وتحت خيام هذه الثقافات نشأت أجيال يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وهذه الأجيال ما خرجت الا من تحت خيام بني أمية. وثقافة انكار الحوض شقها ابن زياد بالسكين، وبالسيف، وجلد عليها الظهور، ومنع العطايا عن كل ما قال ان للنبي حوضاً؛ لأنه يعلم ان اثبات الحوض، سترَّب عليه أمور تدينه، وتدين ملك بني أمية الطويل العريض.

وإذا كان ابن زياد قد جمع من حوله اتباعاً يقولون بقوله، فإن طائفة الحق كان يدوي في اسماعهم قول النبي ﷺ: «اسمعوا»، قالوا: سمعنا فقال: «اسمعوا؟» قالوا: سمعنا، فقال: «إنه سيكون عليكم أمراء، فلا تعينوهم على ظلمهم فمن صدقهم بكذبهم فلن يرد علي الحوض»^(٣) وكان في ذاكرتهم أيضاً قوله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، ولأنازعن أقواماً، ثم لأغلبن عليهم فأقول: يا رب، أصحابي، فيقول: انك لا تدري ما أحدثوا بعدك»^(٤) وقوله: «اني تارك فيكم الثقلين احدهما أكبر من الآخر، كتاب الله، جبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وانها لن يتفرقا حتى

(١) كتاب السنة: ج ٢ ص ٣٢٢.

(٢) معالم الفتن - سعيد أيوب - دار الكرام ١٤١٤ هـ، ط ١ ج ٢.

(٣) رواه أحمد وأحمد وابن أبي عاصم وابن حبان في صحيحه (الفتح الرباني: ٣٠ / ٢٣) كتاب السنة:

ج ٢ ص ٣٥٢.

(٤) رواه البخاري الدعوات ب الصراط جسر جهنم (الصحيح ١٤١ / ٤) ومسلم (الصحيح

١٥ / ٥٩).

يردا عليّ الحوض»^{(١) (٢)}.

وبعد، فهل كان ابن زياد علماً من أعلام الثقافة الاموية، رغم أنه يبدو متمتعاً بكفاءات كبيرة لقيادة دولة فرعونية كبيرة أو خدمة فرعون كبير؟ أم أنه كان يفرض دوره ويناقش ويجاور من منطلق القوة والسلطان، ذلك الذي يرفض أن يتغلب عليه أحد أو يفرض عليه رأي أو قول، حتى ولو كان قول الله سبحانه وتعالى؟

ان كل شيء يبدو مقبولاً لابن زياد وأمثاله ما دام يمهّد لحكم الدولة الظالمة ويدعو لها ويقوي أركانها، حتى ولو كان حديثاً موضوعاً مزوراً سخيلاً لا يقبله العقل والمنطق السليم، وكل شيء ينبغي رفضه ما دام - في محصلته وفي نتائجه - يؤدي إلى كشف دولة الظلم وتعريتها واسقاطها، وإذا ما وصلت المواجهة إلى هذا الحد، فإن هذه الدولة ستكشف عن الباقي وتعلن نواياها بصراحة، وسيكون سقوط الاسلام اهون عليها من ذهاب سلطتها ومصالحها.

وهذا ما كشفه لنا سلوك يزيد وابن زياد ومن تلاهما من (خلفاء) الامويين وأعوانهم وأصبح سنة لكل سلالات (الخلفاء) الذين جاؤوا بعدهم على امتداد التاريخ.

ان سيرة ابن زياد جديرة ان يتمعن فيها وتدرس بعناية، لنرى فيها النماذج المعادة المكررة التي تنحاز للظلم وتبنى مواقفه، ثم تفقد بعد ذلك كل شيء وتنتهي الا من الصيت السيء ولعنة الاجيال. لعلها تكون عبرة لبعض من يريد أن يتفرعن ويعلو في هذه الأرض علواً كبيراً.

(١) رواه أحمد وأحمد والترمذي وحسنه والطبراني وقال المناوي: رجاله موثقون - (الفتح الرباني ج ١ ص

١٨٦).

(٢) معالم الفتن: ج ٢ ص ٣١١ - ٣١٢.

عمر بن سعد... الجاسوس القاتل

البدائيات

لم تبرز شخصية باهتة الملامح، عديمة اللون، تجدد الذل في جانب منها والطمع والخيانة في الجانب الآخر، طيلة عهود التاريخ الاسلامي، مثلما برزت شخصية عمر ابن سعد.

ولأنها شخصية باهتة، لا لون لها ولا حس ولا ارادة ولا موقف، وقد ظهرت في ظرف دقيق تزامن مع ابرز حدث في تاريخ الاسلام، ولعبت فيه دوراً لا يزال يذكر كلما مرت ذكرى هذا الحدث أو تعرض الباحثون والدارسون له، وهو ثورة الامام الحسين (ع) على الانحراف المعلن للدولة الاموية، فإنها برزت كظاهرة جديدة بالتأمل والدرس؛ لأنها ظاهرة مكررة معادة على امتداد التاريخ، وغالباً ما تسند لأمثال هذه الشخصية بعض مهام الطغاة- باشرافهم وتوجيههم طبعاً- لتقوم بتأديتها على وجه يحقق رضاهم، ثم تذوب وتمحى بعد ذلك ولا تجد لها أثراً في حركة المجتمع، بعد ان لم تكن أساساً ذات أثر في الماضي.

كانت هذه الشخصية إحدى نتائج مجتمع الظلم والانحراف، افرزتها مجموعة العوامل التي شكلت هذا المجتمع وجعلته بالشكل الذي بدا عليه، وأصبح مجتمعاً موزعاً مشتتاً حتى داخل بنية الشخصية الواحدة- القلب مع الحسين والسيف مع بني أمية.

ولن نتاح لأحد فرصة فهم هذه المعادلة المعقدة، إذ كيف يكون قلب امرئ معك وسيفه عليك، اللهم الا في وضع غير صحي وغير سليم، ولن نتاح فرصة فهم ذلك، ما لم تدرس التحركات الدؤوبة المدروسة لمعاوية وحزبه، الذي استطاع العبث بالمفاهيم الاسلامية الصحيحة وتشويهها وتزويرها وعرضها بشكل جديد ترى لمساته وأسلوبه عليه واضحاً، وهو اسلوب لا يستطيع أحد نسبته للاسلام، وقد اعتمد التطلعات الأرضية الدنيوية الدنيئة البعيدة عن تطلعات الاسلام، وشجع عليها ودعا إليها كمثّل علّياً وأسس وحيدة للتعامل والبناء، بديلة عن أسس الاسلام ومثله وقيمه وتشريعاته.

ولن نتكلم عن بدايات ابن سعد، ونشأته الأولى اذ لم نجد في سيرته أو شخصيته ما يلفت اليه الانظار، ويجعله مثار اهتمام أحد من الناس، ولم ترد بحقه الا شهادة واحدة، كانت مع ذلك كافية لكي تدينه، هي من والده، سعد بن أبي وقاص، الذي كان - فيما يبدو - حانقاً عليه، وقد ابعده بعد أن لم ير فيه خيراً حتى لنفسه هو، فقد كان صاحب لمسات خاصة ومواقف معينة، وصاحب كلمات مزوقة خادعة، جعلها سبيلاً لتجارة خاسرة وطموحات فاشلة محدودة لم تستطع أن تنيله حتى الدنيا التي كان يريدّها.

روى الجاحظ أن «سعد بن أبي وقاص قال لعمر ابنه، حين نطق مع القوم فبزههم، وقد كانوا مكلميه في الرضا عنه قال: هذا الذي أغضبني عليه اني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يأكلون الدنيا بألستهم، كما تلحس الارض البقرة بلسانها»»^(١). كان يرى ان ابنه من هؤلاء، ولعل ما تكلم به هذا الابن لم يكن من الدين في شيء، ولعله بدا أقرب إلى كلام المنافقين الذين يحسنون تزويق الكلام، وربما كان هذا ما أغضب والده الذي ربما كان يريد إعداداً لمكانة أرفع ولم يرد لطموحه أن يتوقف عند طموحات اقارانه العاديين اللاهين العابثين، ولعل الذي أغضب الوالد، ليس مجرد نطق ابنه وكلامه، بل

(١) الجاحظ: البيان والتبيين: ج ١ ص ١٧٢.

ما عرفه عنه قبل ذلك، مما كان نتيجته هذا الغضب الذي روي عنه.

ولم يكن عمر بن سعد بن أبي وقاص - واسم أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن مرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، وام سعد حمدونة بنت سفيان ابن أمية بن عبد شمس - يبدو ممن كانوا يهتمون بأمور الدين الا بالقدر الذي يقرهم من الدنيا، وقد نشأ في ظل أبيه - في فترة شبابه - عيشة مترفة في داره التي بناها بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات كما ذكر ابن عساكر في تاريخه.

لقد كان لسعد بن أبي وقاص نفسه، مواقف مع أمير المؤمنين عليه السلام، اتهمه سعد في احدها بأنه كان حريصاً على الخلافة^(١)، وذلك خلال أحداث الشورى بعد مقتل عمر، مع أنه كان أعرف الناس بمنزلته وأحد الرواة الرئيسيين لقول رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، وقد ذكر أمير المؤمنين حادث اتهامه من قبل سعد وجوابه له^(٢)، ويبدو من ثنايا قول الإمام عليه السلام أنه كان يتألم بشده، خصوصاً وان من واجهوه بهذه الأقوال هم من أعرف الناس بمكانته وحقه^(٣)، وحتى في حالة مجابتهم

(١) وقيل ان الذي قال له هذا هو ابو عبيدة بن الجراح يوم السقيفة والرواية الأولى أشهر، كما روى ابن أبي الحديد في شرح النهج ٩ - ٤٧٥.

(٢) «وقد قال قائل: انك على هذا الأمر يا بن أبي طالب لحريص، فقلت: أما انكم والله لأحرص وأبعد وأنا أخص وأقرب، وانما طلبت حقاً لي وانتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه. فلما قرعته بالحجة في الملاء الحاضرين هبّ كأنه بهت لا يدري ما يجيبني به. اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم، فإنهم قطعوا رحمي، وصغّروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هولي. ثم قالوا: الا ان في الحق أن تأخذه، وفي الحق أن تتركه»، شرح نهج البلاغة: ج ٩ ص ٤٧٥.

(٣) اخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص ان رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي» «تاريخ الخلفاء - السيوطي ١٥٧. وروى مسلم في كتاب (فضائل الصحابة) بسنده عن سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: «قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي» قال سعيد: فأحببت أن أشافه بها سعداً، فلقيت سعداً فحدثته بما حدثني عامر: فقال: انا

بالحجة الواضحة، فإن ردهم الاخير هو السكوت، ثم الاستمرار بسعيهم لسلبه حقه، وسلب المسلمين حقهم بولايته وخلافته.

بين (سعد) و(علي)

اختار عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص، كأحد أعضاء (مجلس الشورى) الستة، وقد أدلى بدلوه لصالح عثمان، وقد ناشده أمير المؤمنين عليه السلام ألا ينحاز الا إلى الحق، غير أنه لم ينحز الا إلى مصالحه، فما عسى ما سيناله من علي إذا ما أصبح خليفة، وقد حث عبد الرحمن بن عوف على اتمام مهمته التي كان يبدو انها تسير لصالح عثمان. كانت قريش مستنفرة كلها لإنجاز المهمة بذلك الاتجاه.

وقد ارتفعت صرخة عمار بوجه ابن عوف: «إن أردت الا يختلف المسلمون فبايع علياً». وارتفعت مقابلها صرخة ابن أبي سرح: «إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان».

وربما تردد ابن عوف امام مسؤوليته، الا أن سعد بن أبي وقاص حثه على المضي بمهمته قائلاً: «يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس»^(١).

واختار عثمان، وانتصرت قريش على سائر المسلمين.

سمعتة. فقلت: أنت سمعتة. فوضع اصبعيه على أذنيه، فقال: نعم، والا فاستكثنا. ورواه ابن الاثير في اسد الغابة: ج ٤ ص ٢٦ والنسائي في الخصائص: ص ١٥. وقد روي الحديث من طرق متعددة وعن رواية كلهم ثقة (فضائل الخمسة من الصحاح الستة: السيد مرتضى الفيروز آبادي، مؤسسة الاعلمي لبنان: ط ٤ - ١٩٨٢ ج ٢ ص ٣٤٨ وما بعدها).

(١) ويبدو أن كره ابن أبي وقاص لأمر المؤمنين عليه السلام كان قديماً فقد روي عنه أنه قال: «كنت جالساً في المسجد انا ورجلين معي، فلنا من علي بن أبي طالب، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبان، يعرف في وجهه الغضب، فتعوذت بالله من غضبه. فقال: ما لكم ومالي، من آذى علياً فقد آذاني» البداية والنهاية: ج ٧ ص ٣٤٧ والزوائد: ج ٩ ص ١٢٩ رواه أبو يعلى ورواه ثقات.

لقد ارادت فرض شروطها عن طريق ابن عوف على أمير المؤمنين عليه السلام: العمل بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام (وعمل الشيخين) الذي اعتبرته مكماً للسنة، وقد رفض ذلك، فعمل الشيخين ليس ملزماً، وقد قبل عثمان.

وحتى لو قبل أمير المؤمنين عليه السلام فإنه كان سينحى أيضاً قبل أن ينصب، وكان يقال عندئذٍ: إنه أقر أن عمل الشيخين جزء من السنة واعترف به، غير أن هذا لا ينافي حرصه على نيل منصب الخلافة وإن هناك من هو أجدر به منه.

هل يا ترى أنه إذا ما قال: نعم، سيقول عثمان: لا؟، ستتبادل كفتاهما في مسألة القبول بعمل الشيخين، وسترجح كفة عثمان لأن قريشاً ارادته ولأنها ستتداول الأمر بينها فيما بعد، وهكذا قال قولته المشهورة: «حبوته حبو دهر ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون؟ والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر اليك، والله كل يوم هو في شأن»^{(١) (٢)}.

وقد ولاه عثمان الكوفة، «وكان أول عامل بعث به عثمان، سعد بن أبي وقاص على الكوفة»^(٣)، وقد عمل له سنة وأشهرًا. ثم عزله بعد ذلك، وقيل إن السبب في ذلك هو أنه استقرض من عبد الله بن مسعود من بيت المال مالاً، فلما تقاضاه لم يرجعه، وكان ذلك سبباً لخصومة بينهما، حتى قيل أن ذلك كان أول ما نزغ به بين أهل الكوفة - وهو أول مصر نزغ الشيطان بينهم في الاسلام، على حد تعبير الشعبي.

(١) الطبري: ج ٢ ص ٥٨٢ وما بعدها حول تفاصيل قصة الشورى، والعقد الفريد: ج ٥ ص ٣١.

(٢) ورغم معرفة سعد الأكيدة بمكانة أمير المؤمنين عليه السلام وصحة موقفه من الخارجين عليه بعد خلافته، فإنه لم ينصره أو يلتحق به في حرب الجمل وحاول التشكيك بقعوده وقوله لأمر المؤمنين عليه السلام «إني أكره الخروج في هذه الحرب فاصيب مؤمناً. فإن أعطيتني سيفاً يعرف المؤمن من الكافر قاتلت معك». الجمل: الشيخ المفيد ط ٢ النجف: ص ٢٩.

(٣) الطبري: ج ٢ ص ٥٨٢ وما بعدها حول تفاصيل قصة الشورى والعقد الفريد: ج ٥ ص ٣١.

«فلما بلغ عثمان الذي كان بين عبد الله وسعد غضب عليهما وهمَّ بهما، ثم ترك ذلك، وعزل سعداً، وأخذ ما عليه، وأقر عبد الله وتقدم إليه»^(١).

وكانت لابن أبي وقاص سوابق جعلت عمر بن الخطاب أيضاً لا يطمئن إليه، فقد كان أحد العمال الذين قاسمهم عمر أموالهم^(٢).

ولما بنى سعد قصر الكوفة إبان انشائها وبلغ عمرانهم يسمونه قصر سعد دعا محمد ابن مسلمة فسرحه إلى الكوفة وقال: «اعمد إلى القصر حتى تحرق بابه، فخرج، فأحرق الباب»^(٣).

وفي عام عشرين للهجرة «عزل عمر سعداً عن الكوفة لشكايتهم إياه، وقالوا: لا يحسن يصلي»^(٤) إلى أن أعاده عثمان ثم عزله بعد ذلك.

الكهل الاخرق.. طمعه قتله

ولد ابن سعد في عهد النبي ﷺ، كما ذكر الجاحظ، ولعب دوره المعروف بقتل الحسين (ع) عام (٦١)، ولا بد أن عمره كان في ذلك الوقت قد قارب الستين، وربما كان في منتصف العقد السادس، وهي سن يدرك صاحبها مسؤولياته، ويزن أعماله بدقه؛ لأنه محاسب عليها حساباً دقيقاً.

وقد عاش حتى ذلك الحين عصور الخلفاء كلهم وعصر معاوية، ولعل مركزه كابن قرشي معروف ينتمي إلى جيل الصحابة، وابن (بطل القادسية) وأحد أعضاء مجلس الشورى وعامل خليفتين على الكوفة، أتاح له فرصة الا يكون مجرد مشاهد

(١) الطبري: ج ٢ ص ٥٩٦.

(٢) تاريخ الخلفاء: السيوطي: ص ١٣٢.

(٣) الطبري: ج ٢ ص ٤٨٥.

(٤) الطبري: ج ٢ ص ٥١٦.

عادي للاحداث الكبيرة التي مرت بها الامة في ذلك الحين، وانما مشاهد مقرب عاش بالقرب من صناعات تلك الاحداث ولم يفته منها الا ما اراد تناسيه هو.

أليس من العجيب أن ترد الاحاديث بفضل أمير المؤمنين عليه السلام ومناقبه مسندة عن ابراهيم بن سعد عن والده وكذلك عن مصعب بن سعد وعامر بن سعد وعبد الرحمن ابن سعد وعائشة بنت سعد وعبد الله بن سعد، أي بيت سعد كله ولا يسمع بها عمر وهو أكبرهم؟ لماذا انكرها مع انه كان يعيش في بيت كله يتذاكر ويروي مناقب أمير المؤمنين عليه السلام؟ اشترك بيت سعد بن أبي وقاص كله برواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم مخاطباً أمير المؤمنين عليه السلام «الا ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه ليس نبي بعدي»^(١).

وقوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي»^(٢).

وسمع منه حديث الغدير أيضاً وحضر حوادث ومناظرات جرت بينه وبين بعض رواة الحديث وبعض صناعات الاحداث، فلم لم ترّو عنه، ولم انفرد عن إخوته وأخته بسكوته المطبق ذاك؟، الا يكون حديثه عن والده ادانة شخصية له؟ خصوصاً وأنه لعب دوراً سيظل يذكر على الدوام عندما ترأس الجيش الذي قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام.

وقد أراد معاوية سعداً أن يشترك في حملة سب أمير المؤمنين عليه السلام واجتمع به لهذا الغرض، وقد امتنع سعد عن ذلك عندما قال له معاوية: ما منعك ان تسب ابا تراب؟

(١) دوّنت ذلك كافة كتب الصحاح - (صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق وابن ماجه في صحيحه ص ١٢ وأحمد بن حنبل في مسنده: ج ١ - ١٧٠ - ١٧٤ - ١٧٩ - ١٨٢ - ١٨٢ - ٣٣٨ والطيالسي في مسنده ١٥ - ٢٨ - ٢٩ وأبو نعيم في الحلية ٧ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦. والترمذي ٢ - ٣٠٠ والنسائي في الخصائص ص ٤ - ١٦ - ١٧ والخطيب البغدادي في تاريخه ١ / ٣٢٤ و ٤ / ٢٠٤ و ٣ / ٢٨٨ ومستدرک الصحيحين ٢ - ٣٣٧ وغيرها من كتب الحديث والتاريخ).

(٢) المصدر السابق.

فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن رسول الله ﷺ فلن أسبه لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم، وذكر له القصة التي قال ﷺ فيها لأمر المؤمنين: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي (الحديث) ^(١).

وقد «قدم معاوية في بعض حجاته، فدخل عليه سعد فذكروا علياً فقال منه، فغضب سعد وقال: نقول هذا لرجل سمعت رسول الله ﷺ يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه، وسمعتة يقول: انت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وسمعتة يقول: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ^(٢) وعندما عتب معاوية على سعد لأنه لم يشاركه قتال علي رضي الله عنه قال له سعد: لقد ندمت على تأخري عن قتال الفئة الباغية، يعني بها معاوية ومن تابعه ^(٣)».

ومن الغريب أن سعداً هذا رغم روايته لهذه الأحاديث واعترافه بأنه سمعها عن رسول الله ﷺ مباشرة، وقف موقفاً معادياً لأمر المؤمنين رضي الله عنه، رغم مناشدته إياه بأن

(١) لما قال له معاوية: ما منعك أن تسب أبا تراب قال: «أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن رسول الله ﷺ لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من أن يكون لي حمر النعم، فلن أسبه. سمعت رسول الله يقول وقد خلفه في بعض المغازي فقال له علي: يا رسول الله تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي. وسمعتة يقول يوم خير: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحب الله ورسوله فتناولنا لها: فقال: ادعوا لي علياً. فأتاه وبه رمد، فبصق في عينيه ودفع إليه الراية ففتح الله عليه؟ ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ فدعا رسول الله علياً وفاطمة والحسن والحسين وقال: اللهم ان هؤلاء أهلي». الاصابة لابن حجر: ج ١ ص ٥٠٩.

(٢) صحيح ابن ماجة: ص ١٢، وقد سأله معاوية: من سمع هذا معك؟ فقال سعد: سمعته فلان وفلان وام سلمة. قال معاوية: لو كنت سمعت هذا لما قاتلتك. شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ج ١ ص ٢٠١.

(٣) أحكام القرآن: ج ٢ ص ٢٢٤.

يلتزم طريق الحق والصواب، وانحاز إلى جانب عثمان في مسألة الشورى وضيع على المسلمين فرصة تاريخية والتحق بركب قريش التي أعلنت عداوته ومناوأته وحربه، وحرّموا بذلك من عدله وعلمه، ولعله ندم على موقفه بعد أن آل الأمر لمعاوية، إذ لم ير وجهاً للمقارنة بينه وبين أمير المؤمنين عليه السلام بأي شكل من الأشكال.

نشأ ابن سعد وهو يحمل عقدة الكره القرشية المتكبرة المتجنية على أمير المؤمنين عليه السلام، وإذ عجزت قريش عن اظهار هذا الكره وأحنت رأسها أمام عاصفة الإسلام فإن فرصة إظهار هذا الكره اتاحت لها عندما توفي الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، ووقفت تتحدى علياً، وجعلت من نفسها حائلاً بينه وبين ممارسة حقه في قيادة الأمة على المنهج الصحيح الذي أعده ورسمه أخوه وابن عمه عليه السلام، خالياً من شوائب الجاهلية وأقذارها.

افتراء تجسس وغدر.. عرفه فأوصاه

لقد كان ابن سعد خاملاً ولم يعرف عنه سوى طموحه لنيل ولاية الري في عهد يزيد بن معاوية، وكان طمعه بهذه الولاية يناقض وصية أبيه^(١)، ويبدو أنه قرر أن يسير مخالفاً لها تماماً، وقد فعل ذلك، رغم أنه كان في حال ميسورة إلى أبعد حد تجعله غنياً عما في أيدي الآخرين.

لقد لعب ابن سعد دور الجاسوس عندما كتب فيمن كتب إلى يزيد عند قدوم مسلم الكوفة، يحذره من قدوم الحسين^(٢)، ولم يلزمه أحد أن يكتب إلى يزيد، غير أنه ربما

(١) قال سعد بن أبي وقاص لابنه: يا بني اذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإنها مال لا ينفد، وإياك والطمع فانه فقر حاضر، وعليك باليأس، فانك لم تيأس من شيء قط الا أغناك الله عنه) العقد الفريد: ج ٣ ص ١٥٥-١٥٦.

(٢) ابن الاثير ٣/ ٣٨٧ والطبري: ج ٣ ص ٢٨٥ والبلاذري في الانساب ٢- ٧٨ والنويري في نهاية الارب ٢٥-٣٨٨. وقد لعب دوراً قدراً آخر عندما شهد امام زياد عام ٥١ بأن حجر بن عدي قد خلع الطاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة ودعا إلى الحرب والفتنة وجمع اليه الجموع يدعوهم

اراد أن ينظر إليه سيد الدولة الجديد بعطف ويوليه بعض شؤونها، وهذا ما تم فعلاً، إذ أن ابن زياد قد ولاه الري قبيل مقدم الحسين عليه السلام ووصله كربلاء.

ولو شئنا أن نستعرض المشاهد التي برز فيها ابن سعد، لرأينا أنها ليست مما تشرف صاحبها بأي حال من الأحوال.

ففي أحدها، يظهر ابن سعد في حاشية ابن زياد عندما أحضر مسلماً بعد اعطائه الامان والغدر به، وقد أراد أن يوصي قبل أن يقتل، فاختاره باعتبار أن بينهما قرابة وانه القرشي الوحيد الذي كان يحضر ذلك المجلس، وفي ذلك تجاهل من مسلم لادعاء آل زياد بأنهم من قريش أيضاً عندما الصقوا نسبهم بأبي سفيان، وهي لطمة قاسية لابن زياد لم تخفف منها عنجهيته وحدته وسلوكه الجاف.

ولعل ابن سعد قد خشي أن يختلي بمسلم لئلا يظن به ابن زياد الظنون ويتعرض لغضبه الجامح، الا أن ابن زياد أمره بذلك، وقد جلسا حيث ينظر اليهما ويراقبهما. وبالتأكيد فإن ابن زياد كان يدرك ان نظرة واحدة منه كانت كفيلة بجعل ابن سعد يفشي السر الذي سيدلي به مسلم اليه، وقد حصل ما توقعه ابن زياد.

إنه لا يخونك الامين

لقد أوصى مسلم ابن سعد أن يبعث إلى الحسين عليه السلام من يخبره بحال الكوفة وانقلابها عليه، ويوصيه بالعودة اذا ما كان قد أقبل اليها، كما أوصاه بأمر أخرى تتعلق بدين عليه ودفن جثته.

وهنا بادر ابن سعد - حتى دون أن يسأله ابن زياد عما أوصاه به مسلم - على البوح

بسر مسلم ووصيته وقال لابن زياد: «أتدري ما قال لي؟ إنه ذكر كذا وكذا»^(١).

وقد اندهش ابن زياد من السهولة التي باح بها ابن سعد بالسِر، فرغم معرفته بضعفه، إلا أنه لم يكن يتصور أنه على تلك الدرجة من الضعف والخور، فأية قوة أرغمته على البوح بالسِر؟ هل هو لاستجلاب عطفه عليه؟ أم لخوفه منه وتجنب شره؟ أم أنَّ نفسه كانت مطبوعة على الخيانة؟ أم أنه كان يكن كرهاً خاصاً لأهل هذا البيت فرأى أن الفرصة كانت سانحة للافصاح عنه؟

غير أنه لم يلح لابن زياد إلا شيء واحد محقق؟ وهو خيانة ابن سعد لأمانة مسلم ووصيته، فالأمين لا يمكن أن يخون وهو أمر بديهي، وابن سعد لم يكن أميناً وقد خان عندما ائتمن، وردد ابن زياد مقولة مشهورة: «.. أنه لا يخونك الأمين، ولكن قد يؤتمن الخائن»^(٢).

لقد وصفه ابن زياد علانية بأنه خائن، وكانت صفة قوية على وجهه امام مسلم الذي لم يكذب تأتمنه على سره ويوصيه بعد، وأمام الحاشية كلها، ولم يتحرج منها ابن سعد ولم يحتج على ابن زياد رغم وصمه إياه بصفة الخيانة، ولعل وشايته بمسلم وهضمه الالهانة التي ألحقها ابن زياد به كانا مؤشراً جيداً لهذا الأخير، أدرك منه أنه أمام ذليل خانع لا يأنف من الالهانة، بل أنه يرمي إليها بنفسه طوعاً إن لم تأته كرهاً برغم كل ما قد يتشدد به من النسب القرشي!!.

لقد بلغ ذله حدّاً لم يأنف معه من خدمة الدولة التي قتلت أباه، عندما سقي السم بأمر من معاوية لأنه كان منافساً محتملاً له في خضم الأحداث الكبيرة التي مرت بها الأمة، ومهد بذلك الأمر ليزيد، وأصبح هو خادماً له مع أن أحداً لم يدعه إلى ذلك..

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٩١.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٩١.

ومع أن والده كان أحد الضحايا.

ولقد صدق حدس ابن زياد فيه، ورأى فيه ذلة واستجابة كفيلتين لأن تجعلاه يطيع أي أمر صادر إليه، حتى وإن كان الاقدام على جريمة قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام والتمثيل بجثثهم بعد ذلك، وسيكون اخراج الجريمة بعد ذلك متقناً، فإن قريشاً قد اختلفت فيما بينها، و(تنافس) أبناؤها وتقاتلوا، وهو أمر (داخلي) لا شأن (للغرباء) فيه، وهو بالضبط نفس توجه معاوية وما أراد الايحاء به قبل ذلك.

الجريمة.. لا يبررها الخوف من القتل أو الطمع بملك الري

كان ابن سعد يمثل أحد عناصر مجتمع الظلم، كابن زياد نفسه، وربما كان تسلط ابن زياد وقسوته وعنجهيته هو حجته الوحيدة امام من استنكر عليه قتل الحسين عليه السلام وأصحابه، وربما برر اقدامه على الجريمة بالخوف منه. وهو ما فعله أيضاً.

فعندما طلب منه ابن زياد الكتاب الذي أرسله اليه وفيه يأمره بقتل الإمام عليه السلام، ادعى أنه قد ضاع منه، ثم قال فيما بعد أنه أرسله إلى المدينة ليقراً على عجائزها ويثبت براءته من الجريمة وأنه كان (مجبوراً) عليها بالأوامر التي صدرت اليه.

«عن عوانة، قال: قال عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد بعد قتله الحسين: يا عمر، أين

الكتاب الذي كتبت به اليك في قتل الحسين؟

قال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب.

قال: لتجيئن به.

قال: ضاع.

قال: والله لتجيئنني به.

قال: ترك والله يقرأ على عجائز قريش اعتذاراً إليهن بالمدينة، اما والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها ابي سعد بن أبي وقاص كنت قد أديت حقه»^(١).

وكان ابن سعد يحسب انه قد برأ ذمته بذلك، إذ أرسل الكتاب ليقراً على عجائز قريش اعتذاراً إليهن، وانه بذلك قد نفّض يديه من المسألة كلها والقي بتبعيتها على ابن زياد وحده، وكأنه كان مجرد آلة أو عصا مسلوكة الارادة بيد الطاغية وحسب وقد أشرنا إلى هذه القصة في معرض الحديث عن حملة تبادل الاتهامات التي جرت بعد الجريمة.

ولعل ابن سعد حسب ان قارىء هذه الرسالة سيتصور أنه كان غير راغب في قتل الإمام عليه السلام وأصحابه عليهم السلام.

غير أننا نتساءل: ما دام ابن سعد قد نصح ابن زياد بعدم الاقدام على الجريمة، فلماذا أقدم عليها بنفسه ونفذها، وكان أول رام ومعتدٍ؟ أكان ذلك من قبيل (الانضباط العسكري) واطاعة الاوامر، وهل كان أمر مخالفة ابن زياد جريمة تفوق جريمة الاقدام على قتل الحسين عليه السلام التي اقدم عليها، وهل رأى في هذه الجريمة ما لا يضره ما دام قد أمره بها سيده، وما دام قد جعل له ملك الري ثمناً لذلك؟

كان ابن سعد أحد الظلمة المستضعفين الذين تحاذلوا امام أسيادهم، كحال سيده ابن زياد نفسه، الذي تحاذل امام سيده رأس الدولة يزيد، عندما هدده بأن يعيده عبداً، ما لم يتصد للإمام الحسين ويمنعه أو يقتله، وقد اقدم على جريمته، ولم يضع أمامه مثله الأعلى (المنخفض)، ولم ير أنه محاسب الا من قبله هو وحده.

الكذب.. لتبرير الجريمة

كان ابن سعد أحد الاعوان الثانويين للظالم، وكان ضمن حاشية ابن زياد، ولم يرو

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٤٢.

لنا انه حاول ثنيه أو منعه من جريمة قتل الحسين (عليه السلام) ولم ينقل لنا الا انه أرسل رسالة ذليلة اليه يخبره فيها ان الحسين (عليه السلام) طلب الرجوع أو الذهاب إلى أحد ثغور المسلمين للجهاد أو أخذه إلى يزيد لوضع يده في يده.

وهي رسالة مفتعلة، راويتها الوحيد هو ابن سعد نفسه، ولم يقم عليها دليل؛ اذ لم يحصل ان طلب الحسين (عليه السلام) ذلك. وقد أوضحنا في بحث مستقل، بطلان رواية ابن سعد، وان الإمام (عليه السلام) ما كان ليطلب مثل هذا الطلب ويقبل ان يضع يده بيد يزيد.. اذ لو كان قد أراد ذلك وقبل به، فما المانع ان يضع يده بيد ابن زياد - وهو كيزيد - وينهي العملية برمتها إذا ما كان يريد أن يسلم من القتل وحسب؟

ربما أراد ابن سعد أن ينفي عن نفسه تهمة الرغبة بقتل الإمام (عليه السلام)؛ لأنه كان يعلم من هو، ويعرف منزلته ومكانته من رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومن المسلمين، ويعرف أنه قد أقدم على جريمة نكراء لن تغتفر له من قبل المسلمين على مر الايام، وربما سينال عليها جزاء عاجلاً، اضافة إلى جزاء آجل في الآخرة.

لذلك فإنه راح يرمي مسؤوليتها على ابن زياد، الذي رماها بدوره على يزيد، والذي ارجعها إلى ابن زياد في لعبة مكشوفة مفضوحة، وهكذا كانوا يتخطون - أمام استنكار المسلمين لذلك العمل الشنيع الذي ارتكبه وحاولوا التنصل منه، باختلاق روايات وقصص (تثبت) أنهم كانوا غير راغبين بقتل الإمام (عليه السلام) وأصحابه وقطع رؤوسهم والتمثيل بجثثهم، وانه كان تصرفاً فردياً لا شأن له برأس الدولة، يزيد. على الخصوص. وهذا ما كرست له الدعاية الاموية جهودها.

طموح قديم عالجه سم معاوية : ان لله جنوداً من عسل

ولم يشر أحد من المؤرخين إلى وجود طموح لدى ابن سعد قبل هذا التاريخ سوى

تلك القصة التي اشار اليها ابن ابي الحديد وفيها يدعو ابن سعد اياه لحضور دومة الجندل والمشاركة بمهزلة التحكيم لكي يصير الأمر اليه فيما بعد، وربما لكي يؤول اليه فيصبح هو بدوره خليفة على المسلمين.

«.. كان سعد بن أبي وقاص قد اعتزل علياً ومعاوية، ونزل على ماء لبني سليم بأرض البادية يتشوّف الاخبار، وكان رجلاً له بأس ورأي ومكان في قريش، ولم يكن له هوى في علي ولا في معاوية، فأقبل راكب يوضح من بعيد، فإذا هو ابنه عمر. فقال له أبوه: مهيم.

فقال: التقى الناس بصفين، فكان بينهم ما قد بلغك، حتى تفانوا، ثم حكموا عبد الله بن قيس وعمر بن العاص، وقد حضر ناس من قريش عندهما، وأنت من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن أهل الشورى، ومن قال له النبي ﷺ، اتقوا دعوته، ولم تدخل في شيء مما تكره الامة، فاحضر دومة الجندل، فانك صاحبها غدا.

فقال: مهلاً يا عمر، اني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يكون بعدي فتنة، خير الناس فيها التقى الخفي، وهذا أمر لم أشهد أوله، فلا أشهد آخره، ولو كنت غامساً في هذا الأمر لغمستها مع علي بن أبي طالب، وقد رأيت كيف وهب حقه من الشورى، وكره الدخول في الامر، فرحل عمر، وقد استبان له أمر أبيه..»^(١).

كان موقف سعد قد شجع ابنه لكي (يدعوه) لحضور التحكيم لكي يصيب بعض الأمر، بل ليكون الأمر كله اليه فيما بعد.

هل كان من يعرف عليا ومعاوية حق المعرفة يقف منهما موقف الحياد؟

وهل من روى تلك الاحاديث عن الرسول ﷺ مباشرة ويعرف فضل أمير

(١) ابن أبي الحديد- شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٩٧ والطبري: ج ٣ ص ١١١.

المؤمنين ﷺ، يرى في تصديه لمعاوية فتنة؟ وهل هذه هي حقاً الفتنة التي أشار إليها رسول الله ﷺ؟

وهل هناك شك في طبيعة توجهات أمير المؤمنين ﷺ ومعاوية؟

لقد تنازل سعد عن (حقه) في الشورى؛ لأن هناك من كان يمكن أن ينافسه، أما اذا وصل الأمر إلى حد ادعاء معاوية ذلك (الحق)، فان سعداً أولى - في تلك الحالة - منه، وأقرب وصولاً إلى الهدف.

أما مع علي ﷺ، وهو من أعرف الناس بفضله، فماذا يمكن أن يفعل؟

وكان معاوية قد حاول استمالة إلى جانبه قبيل حرب الجمل، محاولاً دغدغة مشاعره، إلا أنه - فيما يبدو - لم يخدع مدركاً موقعه ومكانته في وجود أمير المؤمنين ﷺ، وقد أجابه اجابة حاذقة تدل على فهم صحيح لموقعه ﷺ ومكانته وقدراته الفائقة التي لم تجتمع في احد غيره، سوى رسول الله ﷺ الذي سبقه بها بلا شك كتب اليه معاوية:

«أما بعد فان أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش الذين أثبتوا حقه، واختاروه على غيره، وقد نصره طلحة والزبير، وهما شريكان في الأمر، ونظيرك في الاسلام، وخفّت لذلك أم المؤمنين، فلا تكرهنّ ما رضوا، ولا تردنّ ما قبلوا، فإننا نردها شورى بين المسلمين.

فأجابه سعد:

أما بعد فان عمر لم يدخل في الشورى الا من تحل له الخلافة من قريش، فلم يكن أحد أحق بها من صاحبه الا بإجماعنا عليه، الا أن علياً كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه، وهذا أمر قد كرهت أوله وكرهت آخره، فأما طلحة والزبير فلو لزمنا بيوتها لكان

خيراً لهما، والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت»^(١)

ورسالة معاوية حاذقة ذات لمسات شيطانية جديرة به، فهو يؤكد على أهل الشورى- وسعد منهم- الذين اثبتوا (حق) عثمان وجدير بهم أن يأخذوا بثأره، وقد أشار إلى طلحة والزبير باعتبارهما شريكين في الأمر وأتاح لسعد بذلك أن يدلي بدلوه فيكون ثالثهما لأنهما نظيراه، علماً أنه أرسل إلى كل واحد منهما موصياً بأنه هو الجدير بالأمر، وما داما قد رضيا الأخذ بثأر عثمان وردّها شوري.. وتابعتها على ذلك عائشة فينبغي عليه أن يقر ذلك ولا يرده خصوصاً وأنهم (ومنها معاوية طبعاً) قرروا أن يردّوها شوري بين المسلمين.. أما كيف ألحق نفسه بالركب وأصبح من أصحاب القرار والناطق باسمهم فذلك أمر لا يحقُّ لأحد أن يتساءل عنه.

ويبدو ان رسالة معاوية هذه وأسلوبه الماكر لم تنطل على سعد الذي أنكر تصدي معاوية لهذه المسألة وزجه نفسه بينهم.

ورغم شهادته بحق أمير المؤمنين ﷺ وقوله عنه، أنه كان فيه ما لم يكن فيهم وأنه كان يملك امكانيات وصفات نادرة، فهو لم يتحرك إلى صالحه كما أنكر على طلحة والزبير وعائشة تحركهم ضده.. بل أنه بدا في بعض المواقف مناوئاً لأمير المؤمنين بصورة علنية^(٢).

(١) ابن أبي الحديد- شرح نهج البلاغة: ص ٢٦٥.

(٢) يدل على ذلك موقفه منه عندما قال أمير المؤمنين ﷺ : «سلوني قبل أن تفقدوني فوالله ما تسألوني عن شيء مضى ولا عن شيء يكون الا أنبأتكم به»، فقام اليه سعد وقال: يا أمير المؤمنين أخبرني كم في رأسي ولحيتي من شعرة، فقال ﷺ: لقد سألتني عن مسألة حدثني عنها خليلي رسول الله انك ستسألني عنها، وما في رأسك ولحيتك من شعرة الا وفي اصلها شيطان جالس وان في بيتك لسخلاً يقتل ولدي الحسين وعمر يدرج بين يدي أبيه» كامل الزيارات: ابن قولويه: ص ٧٤، وبحار الانوار: المجلسي: مؤسسة الوفاء- لبنان: ج ٤٤ ص ٢٥٦ والامالي للصدوق: م ٢٨

وهنا لا بد أن يبدو سكوته وعدم تحركه إلى جانب الإمام (عليه السلام) أمراً محيراً خصوصاً وانه أعرف الناس بفضائله وأحد رواة الأحاديث الصحيحة بشأنه، ولا يمكن ان يبرر سكوته عن ظلم من سعوا لمناواته الا بالتربص وانتهاز الفرصة للوصول إلى الأمر والخلافة، وهو ما أدركه معاوية بالتالي، فسعى إلى تصفيته وقتله بالسلم.

ذهبت اللقمة الكبيرة، فليقتنع بالفتات

لقد أدرك ابن سعد منذ البداية ان اللقمة الكبيرة لن تكون من حصته، واكتفى من الغنيمة بالبقاء حياً وأكل الفتات الذي يتساقط من موائد (الكبار)، ولم يكن له دور في الاحداث التي مرت بعد ذلك، حتى (برز) قبيل واقعة كربلاء حيث انيطت به مهمة قتل الامام الحسين وأصحابه (عليهم السلام) والتمثيل بجثثهم، وكانت مهمة قدرة جديرة بإنسان باهت الشخصية يتطلع إلى أمر تافه يحقق طموحه، وهو ولاية الري. التي يبدو أنها كانت حلماً كبيراً يفوق كل ما كان يفكر به.. إلا أنه قد وعد به بالتالي، ويبدو أن ذلك مكافأة بعد أن أثبت ولاءه ليزيد وحرصه على بقاء ملكه، وبعد ارساله رسالة الانذار من (مخاطر) وجود مسلم في الكوفة، وبعد أن أفشى سره بعد أن أوصاه في مجلس ابن زياد الوصية التي أشرنا إليها في مقدمة هذا البحث.

«وكان ابن زياد قد بعث عمر بن سعد- قبيل شهر محرم- قائداً على أربعة آلاف لى (ثغر دستبي) لأن الديلم قد غلبوا عليها، وكتب له عهداً بولاية الري وثغر دستبي

ص ٨١ م ٢٨. ويبدو أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان كثيراً ما يقول «سلوني قبل أن تفقدوني» كما ورد في حديث عباية الاسدي (أمالي الشيخ الطوسي: ص ٣٧) سواء في خلافته أو قبلها.. ومن الاكيد ان خطابه هذا لم يكن في الكوفة اذ كان عمر في ذلك الحين قد تجاوز الثلاثين عاماً ولم يكن طفلاً يدرج بين يديه، ويؤكد تكرار قول أمير المؤمنين هذا تصدي رجلين آخرين له هما تميم بن أسامة بن زهير التميمي والد الحصين بن تميم الذي صار على شرطة عبيد الله بن زياد وشارك بمذبحة الطف بعد ذلك (نهج البلاغة: ج ٢ ص ٥٥٨) وأنس النخعي الذي قال له (عليه السلام) نفس ما قاله لصاحبيه، وهو أبو سنان وكان يومئذ طفلاً يحبو (شرح النهج: ج ٢ ص ٢٥٨).

والديلم فعسكر ابن زياد في حمام أعين»^(١).

وبما أن هذا الجيش كان جاهزاً ومعداً، وإن قائده كانت لديه استعدادات لخدمة الدولة دون حدود، وربما كان تلهفه على استلام المنصب مؤشراً على تلك الاستعدادات فإن ارساله لاستقبال الحسين عليه السلام والحاق الأعداد الأخرى التي التحقت به حتى وصلت ثلاثين ألفاً، كان يبدو هو الاجراء المناسب في ذلك الظرف الدقيق الذي كان يبدو فيه العرش الأموي معرضاً للخطر الشديد.

كانت ولاية الري مشروطة بمسيره لقتال الحسين عليه السلام، وبما أنها كانت مهمة بنظره إلى درجة بدت معها أن حياته مرهونة باستلامه مفتاح تلك الولاية، فإن أمر مقاتلة الحسين عليه السلام وقتله بدا في نظره أهون من ترك الولاية، التي لم يتقلدها في النهاية على أية حال، دعاه ابن زياد، وأمره قائلاً: «سر إلى الحسين، فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرت إلى عملك، فقال له عمر بن سعد: ان رأيت رحمك الله أن تعفيني فافعل، فقال له عبيد الله: نعم، على أن ترد لنا عهدنا.

فلما قال له ذلك، قال عمر بن سعد: أمهلني اليوم حتى أنظر، فانصرف عمر يستشير نصحاءه، فلم يكن يستشير أحداً الا نهاه.

وجاء حمزة بن المغيرة بن شعبة - وهو ابن أخته - فقال: انشدك الله يا خال أن لا تسير إلى الحسين فتأثم بربك، وتقطع رحمك، فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الارض كلها لو كان لك، خير لك من أن تلقى الله بدم الحسين.

فقال له عمر بن سعد: فاني أفعل ان شاء الله، وبات ليلته تلك قلقاً مفكراً في

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٠، الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٣، والخوارزمي: ج ١ - ف ١١ ونهاية الارب: ج ٢٠ ص ٤٢٥ والاحبار الطوال: ٢٥١، ومراة الجنان لليافعي: ج ١ ص ١٣٢ والري مدنية في فارس جميلة عامرة.

أتترك ملك الري؟ تردد لأن الجريمة هائلة

كان ابن سعد يعلم أنه ينتدب لمهمة قدرة.. وأن ما من أحد سيوافقه على رأيه اذا ما قبل القيام بها، وبما أنه كان يحتمل وجود من يوافقه على رأيه، فإنه استشار بعض الناس، فإن ظنه قد خاب عندما لم يوافقه أحد على رأيه، وهذا ما أثار قلقه إلى أبعد حد، وظلت الالبيات التي ردها، تعبر عن حالة القلق والتردد التي تتاب الطامعين بولاية أو منصب أو جاه.. إذا ما كان ثمن ذلك الاقدام على جريمة أو فعل من شأنه أن يعرض صاحبه لسخط الله.

ولم يجد ابن سعد في نفسه القدرة على رفض الاوامر الصادرة اليه من ابن زياد، كما لم يجد فيها القدرة على التخلي عن ولاية الري الغنية التي بدت انها أصبحت في يده فعلاً.

(١) وحول هذا الموقف المتردد قيل أن أمير المؤمنين عليه السلام لقي عمر بن سعد فقال له: «كيف بك يا بن سعد إذا قمت مقاماً تخير فيه بين الجنة والنار فتختار النار؟» منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد: ج ٥ ص ١١٣ وتذكرة الخواص: ص ١٤١ والكامل في التاريخ: ج ٤ ص ٩٤ ومثير الاحزان لابن نما، ص ٢٥ وقد ورد في الكامل لابن الاثير ان عبد الله بن شريك كان يقول: أدركت أصحاب الارية المعلمة وأصحاب البرانس السود إذ مرَّ بهم عمر بن سعد قالوا: هذا قاتل الحسين وذلك قبل أن يقتله، وكان عمر يقول للحسين: يزعم السفهاء اني اقتلك، فقال: ليسوا بسفهاء، تهذيب التهذيب: ج ٧ ص ٤٥١ وراجع البحار: ج ٤٤ ص ٢٦٣.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٠ والخوارزمي ١- ف ١١ والنويري: ج ٢٠ ص ٤٢٥ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٣ والنويري: ص ٢٥١ ومرآة الجنان للياضي: ١- ١٣٢. وورد في بعض هذه المصادر أنه سمع في أخريات الليل وهو يقول:

أتترك ملك الري، والري منيتي
وفي قتله النار التي ليس دونها
حجاب وملك الريّ قرة عيني
فوالله ما أدري واني لواقف
أم ارجع مأثوما بقتل حسين
أفكر في أمري على خطرين

ورد البيت الأخير في المناقب لابن شهر آشوب: ج ٤ ص ٩٨.

وقد أتى ابن زياد في نهاية المطاف معلناً قبول المهمة التي كلفه بها مع أنه حاول محاولة ذليلة التنصل منها والقاءها على غيره، غير أن الجيش الجاهز المستعد للذهاب معه إلى الري كان يبدو وكأنه ضربة الحظ السعيدة التي اتاحت لابن زياد، وما عليه إلا أن يرسل هذا الجيش ويدعمه بالامدادات بعد ذلك ليصل إلى عدة عشرات من ألوف الجنود يقفون بمواجهة الحسين وأصحابه عليه السلام للقضاء عليهم..

قال ابن سعد لابن زياد: «.. أيها الأمير، إنك قد وليتني هذا العمل، وسمع به الناس، فإن رأيت أن تنفذه لي فافعل، وتبعث إلى قتال الحسين من أشرف الكوفة من لست أغنى في الحرب منه، وسمي له أناساً.

فقال له ابن زياد: لست أستأمرك في من أريد أن أبعث، فإن سرت بجندنا، والا فابعث إلينا بعهدنا.

قال ابن سعد: فإني سائر إليه غداً، فأقبل^(١) حتى نزل بالحسين من الغد، أي في اليوم الثالث من المحرم^(٢).

كان ابن سعد يعلم أن ابن زياد لن يتخلى عن المهمة التي انتدبه إليها يزيد وهي قتل الحسين عليه السلام، وكان يعلم أنه - وقد أصبح على رأس قوة جاهزة ومسلحة - لن يستطيع عصيان أوامر ابن زياد، ولعل طمعه بولاية الري اقترن بخوفه منه... ولم يجد في نفسه القدرة على التخلص من الطمع والخوف كليهما.

(١) في أربعة آلاف.

(٢) وقد انضم إليه الحر الرياحي الذي أُرْسِلَ لمحاصرة الامام الحسين عليه السلام وارساله لابن زياد، فأصبحت قوة جيش ابن سعد خمسة الاف، انضمت اليهم الكتائب التي جمعها ابن زياد وسرحها للحرب.. مستغفراً كل قادر على حمل السلاح في الكوفة لهذا الغرض، حتى أصبح الجيش الجرار يبدو وكأنه على استعداد لمواجهة امبراطورية الفرس أو الروم. راجع المصادر السابقة.

تتكرر حالة ابن سعد على مر التاريخ، ويكاد يكون نموذجاً واضحاً للظلمة المستضعفين، الذين يضعون في أذهانهم القاء مسؤولية أعمالهم على عاتق زعمائهم ورؤسائهم اذا ما اعتقدوا بوجود حساب في اليوم الآخر، وهي حالة أشار إليها القرآن الكريم بوضوح، ووضعها امام أنظار من قد ينزلقون امام ارادة سادتهم ورؤسائهم وكبرائهم.

﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَا﴾^(١).

انهم يبررون فعلهم بتلك الطاعة التي منحوها لسادتهم ورؤسائهم وكبرائهم، متناسين خالقهم الا في ساحة الحساب حيث يمثلون أمامه.

ان القرآن الكريم يعرضها لكي يمنع تكرارها، ولكي يتدارك من لا يزال يعيش أمره قبل الانتقال من هذه الحياة حيث لا ينفع ندم أو عذر مثل هذا.

استجاب ابن سعد للأمر الذي أصدره اليه سيده، الذي استجاب بدوره إلى سيده الآخر (الكبير)، واحنى رأسه بخنوع وأخذ جيشه الذي كان عازماً على أن يسير به للري، إلى كربلاء حيث واجه به الحسين وأصحابه عليه السلام ودعاهم إلى مبايعة يزيد أو التعرض للابادة والقتل على يديه.

وبما أنه شعر بالذلة امام اسياده، فإن هذا الشعور الحقيقي لا بد أن يواجه بشعور معلن يبدو فيه وكأن انحيازه إلى جانب دولة الظلم نابع عن ارادة شخصية وقناعة بالدور الذي يقوم به. ولا بد ان يسعى للظهور بمظهر القوة والبطولة والبسالة أمام عدو الدولة.

ولعله لا يفهم السبب الذي يدعو الإمام عليه السلام للثورة ضد دولة يزيد، مع أن بإمكانه

(١) الاحزاب: ٦٧.

الحصول على مكاسب كبيرة لو هادنه وبايعه، وقد يصل الأمر إلى حد قبول يزيد بمقاسمته السلطة أو منحه ولاية كبيرة تفوق ولاية الري مرات عديدة، وهذا ما قد يُزيدُ حنق ابن سعد إلى أبعد الحدود، كيف يرفض إنسان هذه الدنيا التي تقدم إليه على طبق من ذهب ويختار الموت، مع أن الجميع قد اختاروا الحياة في ظل دولة الظلم رغم أنهم لم ينالوا ما يحتمل أن يناله الحسين (عليه السلام) لو قبل المهادنة والصلح مع يزيد؟

ان من شأن موقف الحسين (عليه السلام) كشف كل المواقف الأخرى، ومنها موقف ابن سعد نفسه، بل ان ابن سعد سيكون أول من يوضع أمام الانظار بعد الاقدام على فعلته المشينة، حتى ولو نال ولاية الري، أو حتى منصب يزيد نفسه.

المهزوم يتوقع اعتذار القوي المنتصر / المفاوضات

على أن حماقة ابن سعد تبرز بمحاولته تجاهل سبب قدوم الحسين (عليه السلام) إلى العراق، وكأنه لم يكن يعيش في الكوفة ويعاصر أحداثها ويدرك السبب الحقيقي وراء ذلك، ولأنه كان ضعيفاً محاصراً، فقد كان يتوقع اعتذاراً من الإمام (المحاصر) بتصوره. كان يتوقع أن يتنازل الإمام (عليه السلام) أمام ابن زياد وأمامه هو ويطلب العفو والمسامحة بعد أن وجد نفسه مواجهاً للآلاف من أعدائه، وبذلك يوفر له فرصة حسم المسألة سلمياً عندما يتيح له أخذه إلى ابن زياد ليرى فيه رأيه ولتحمل هو تبعات تصرفاته معه.

وقد روي أنه حاول أن يبعث إلى الامام من يسأله عن سبب قدومه «فعرض ذلك على الرؤساء الذين كاتبوه، فكلهم أبى وكرهه»^(١)، فهل كانت حركة هؤلاء الرؤساء الذين أبوا الذهاب إلى الامام لسؤاله، بعد أن كانوا قد شاركوا بالكتابة إليه ودعوته للقدوم تخفى على ابن سعد؟ وهل كان من الذلة والهوان - رغم أنه قائد الجيش - بحيث

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٠. والمصادر السابقة.

لا يستجيب له هؤلاء الرؤساء المرؤوسون وينفذون أوامره بالذهاب إلى الإمام (عليه السلام) وسؤاله، وهل لم يدرك هو هوانه وضعفه حتى أمام مرؤوسيه؟

وأخيراً وجد من يتطوع لاداء هذه المهمة، مهمة سؤال الامام عن سبب مقدمه، إلا أن أسلوبه الفج وسلوكه الفظ جعلاه يفشل في الاقتراب من الإمام (عليه السلام)، غير أنه وجد شخصاً آخر كلفه بذلك، هو قرّة بن قيس الحنظلي، الذي ابلى الامام رسالة ابن سعد.

وقد أجابه الإمام (عليه السلام) إجابة مختصرة تنطوي على حجة قوية «كتب اليّ أهل مصركم هذا أن أقدم، فاما إذا كرهوني فأنا انصرف عنهم»^(١).

وبما أن معظم رؤساء أهل مصر الذين كاتبوه كانوا ضمن الجيش الذي أرسل لقتاله يتزعمون بقية الجند وعامة الناس، فإن عليهم أن يلتحقوا به، وإلا تحملوا المسؤولية التاريخية امام الله وأمام أجيال المسلمين اللاحقة.

ألم يكن هو سيتحمل مسؤولية خذلانهم وانكسارهم لو لم يلبّ دعوتهم؟

أما كانوا سيقولون وتردد الاجيال بعدهم: ان الامام قد خذل الامة بعد أن استعدت لمقاومة الانحراف، ودعته إلى القدوم لتزعم الحركة المناوئة للدولة الاموية؟ أما وقد تراجع أولئك الذين دعوه وانكشفوا امام الامة كلها، فان اقل ما سيطلبه الامام منهم هو أن يتركوه لينصرف عائداً.

ورغم علم الإمام (عليه السلام) أنهم لن يلبوا طلبه هذا، الذي ربما كان من باب القاء الحجة عليهم، فإنه فعل ذلك ليحملهم مسؤولية التخاذل والتراجع، ويحمل كل المهزومين والمتخاذلين على مر التاريخ مسؤولية الهزائم التي تتعرض لها الامة بسببهم.

كانت الأمور كلها تشير إلى إدراك الامام ومعرفته ان الجيش الذي جردته الدولة لمحاربته لن يرجع حتى يؤدي المهمة التي كُلفَ بها، وانه لا بد مقتول في النهاية، وقد أشرنا في عدة مواضع من الكتاب إلى ذلك.

وليس أدل على يقين الامام وأصحابه عليهم السلام أنهم بمواجهة معركة حاسمة مع جيش ابن زياد، دعوة أصحاب الحسين مبعوث ابن سعد للانضمام اليهم في هذه المعركة.

قال له حبيب بن مظاهر: «ويحك يا قرّة بن قيس! انى ترجع إلى القوم الظالمين انصر هذا الرجل الذي بآبائه أيدك الله بالكرامة وإيانا معك، فقال له قرّة: أرجع إلى صاحبي بجواب رسالته وأرى رأيي»^(١).

كان حبيب متيقناً من المعركة المقبلة، وان القوم لن يتركوهم حتى يقاتلوهم، وكان نصر الحسين عليه السلام بنظره يعني نصر قضيته، نصر الاسلام بمواجهة الانحراف حتى وإن أدى ذلك إلى قتل جميع المنتصرين للاسلام، وغلبة أعدائهم في ساحة القتال، وهذا أمر لا يستطيع فهمه الا أولئك الذين فهموا الاسلام فهماً واعياً وانحازوا اليه انحيازاً تاماً.

ما كان قرّة سيغني لو انتصر للامام الحسين وقضيته؟ انه لن يمنع عنه القتل، غير أن انحيازه سيغني ان القضية وجدت لها نصيراً آخر لم يتردد عن التضحية بحياته في سبيلها، وسيكون موقفه - لو فعل ذلك - حافزاً لغيره ولا جبال المسلمين فيما بعد للوقوف نفس الموقف دفاعاً عن الاسلام وقضاياه العادلة واستقامته ووضوحه.

ومن هنا كانت أهمية موقف الحر فيما بعد لم يقل له الحسين عليه السلام أنك سبب المصائب التي حلت بنا مدركاً أنها لم تحك لهم لأسباب شخصية وغايات خاصة، بل رحّب به؛ لأن ذلك الرقم الصغير المضاف إلى العدد الصغير من أصحاب الحسين قد جعل

بانحيازته في ذلك الظرف الدقيق، أهمية لقضية الاسلام، فهل كان الحر يتوقع في ذلك الظرف سوى القتل؟ ومع ذلك لم يتردد في الانضمام إلى الحسين (ع) لأنه بذلك استطاع أن يقول ما عجزت عنه الملايين من أبناء الأمة الخاضعين المستكينين للانحراف والظلم، وأن يكون موقفه الفريد نجاحاً محققاً بادراك الركب الرسالي الذي اخفقت الأمة اداركه والالتحاق به، وان يكون ذلك الموقف رسالة واضحة لأجيال الأمة بأن الحق رغم أن دربه موحش وأصحابه قليلون الا أنه مبين وواضح وان دربه سالك وان كان مليئاً بالمصاعب والعوائق، وان الباطل باطل رغم كثرة اعوانه ورواده وأصحابه.

وربما لم يفكر ابن سعد - حتى ذلك الوقت - بتزوير أقوال الحسين (ع) معتقداً أن المسألة كلها يمكن أن تسوى سلماً، وقد أرسل لابن زياد رسالة يعلمه فيها بموقف الحسين (ع) وجوابه، «أما بعد، فإني حيث نزلت بالحسين، بعثت اليه رسولي، فسألته عما أقدمه، وماذا يطلب ويسأل، فقال: كتب إليّ أهل هذه البلاد، وأتتني رسلهم، فسألوني القدوم ففعلت، فأما اذا كرهوني فبدا لهم غير ما اتتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم»^(١). ولا يختلف مضمون هذه الرسالة عن الجواب الذي ذكره الإمام (ع) لابن قرة، كما روى لنا ذلك معظم المؤرخين.

وقد أكد توقعات الامام الحسين (ع) وأصحابه أنهم مقبلون على مواجهة ساخنة مع الدولة الاموية المنحرفة.. وان هذه الدولة ستستغل فرصة وجود الإمام (ع) مع قلة من أصحابه بمواجهة جندها وجيوشها لتقدم على قتلهم قتلة شنيعة يقصد منها ارباب بقية الناس لكيلا يقدموا على عمل مماثل في المستقبل.

فقد أجاب ابن زياد عندما قرىء عليه كتاب ابن سعد قائلاً:

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١١.

«الآن إذ علقت مخالبنا به يرجو النجاة ولات حين مناص!»

وكتب إلى عمر بن سعد:

«أما بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت، فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأينا رأينا»^(١).

وحتى ابن سعد نفسه كان يتوقع اقدام ابن زياد على عمل ارهابي فظيع يتسم بها اتسمت به أعمال ابيه من قبل، وانه كان يضمّر فيه الاقدام على جريمة جديدة من شأنها أن تعرض الدولة للخطر وتلطخ سمعة القائمين بها إلى الأبد، وقد عبر عن ذلك بقوله: «قد حسبت الا يقبل ابن زياد العافية»^(٢).

كان ابن سعد يدرك ان الاقدام على التصدي للحسين ﷺ وقتاله يشكل أكبر جريمة، وكان يحسب أن المسألة يمكن تسويقها بسهولة وان الحسين ﷺ يمكن أن يتراجع أو يساوم إذا ما تأكد من الخطر المحدق به، وكأنه لم يكن متأكداً من ذلك قبلاً، وان الدولة يمكن أن تقبل عرضه بالرجوع من حيث أتى بعد أن كشف زيف الدعوات الموجهة له وعدم جدية أصحابها وجبنهم وتحاذلهم، ومع ذلك لم يجد في نفسه القوة على الامتناع من الوقوف على رأس الجيش المكلف بقتال الامام وقتله، وكان الجبن والطمع قد عملا على سلب ارادته وجعله يبدو بمظهر العاجز الضعيف المتردد الخانع المستسلم الممثل لارادة عليا قوية هي ارادة سيده ابن زياد التي جعل لها مكانة كبيرة في نفسه مستبدلاً اياها بالارادة الالهية التي كان ينبغي ان تسود وتتغلب وتنتصر، لو كان لديه اي شعور بالانتفاء للاسلام.

أما وأن ذلك الشعور كان ضعيفاً، فان تغلب النزعات الارضية المتدنية كان قوياً،

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١١. وتراجع المصادر السابقة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١١. وتراجع بقية المصادر.

وهو ما أتاح لسيده ابن زياد التمهدي معه إلى أبعد حد، وفرض ارادته عليه.

.. فحل بين الحسين وأصحابه، وبين الماء

أرسل اليه بعد كتابه الاول يأمره: «أما بعد، فحل بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا يذوقوا منه قطرة، كما صنع بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان»^(١).

وقد بادر ابن سعد إلى الإمثال لأمر سيده دون نقاش «فبعث عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة، وحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث»^(٢).

وبذلك اعاد صفحة قديمة اقدم فيها معاوية على منع أصحاب أمير المؤمنين (ع) الماء في صفين حاسباً انه بذلك سيكسب الحرب، وعندما استطاعوا هزيمة أصحابه كانت أكبر مفاجأة له هو أنهم لم يقابلوه بالمثل، وسمحوا له بورود الماء كما أمرهم أمير المؤمنين (ع).

وعندما يعمد ابن زياد إلى مثل ما عمده اليه معاوية من قبل، فإنه يحسب أن الحسين (ع) سيتراجع لمجرد حرمانه من الماء، ولم يدر في خلدته ان هذه الخطوة الجبابة ستتهز وجدان الامة وتجعلها تفكر بخطوة الامام الشجاعة، بل المتناهية في الشجاعة إلى أبعد حد، وان الإمام (ع) أراد لفت نظر الامة بالأداء الرائع لثورته والاقدام على مواجهة الانحراف بالدم والشهادة لتظل صورة ذلك الأداء ماثلة أمامها على الدوام، وكأن أعداءه ساعدوا- بمنعه الماء واقدامهم على جرائمهم حتى قتل الاطفال الرضع- على أن تظل تلك الصورة شاهداً على انحرافهم وابتعادهم عن الاسلام، وعلى عدالة

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١١.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١١. وراجع المصادر السابقة.

قضية الحسين عليه السلام ووضوحها وقوتها.

قميص عثمان يرفع ثانية، تلفيق وتزوير

ولا ندري هنا ما علاقة الإمام عليه السلام بقضية عثمان (التقي الزكي المظلوم)؟ فهل كان هو الذي منع الماء عنه؟ أم أنه كان حسب ما تذكره بعض كتب التاريخ أحد الذين حاولوا منع الفتنة بقتل عثمان الشيخ الفاني والذي اراد معاوية ومروان وعمرو بن العاص وطلحة والزبير وعائشة قتله، لكي يتسلحوا بذريعة القاء تبعثها على أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يبدو أمامهم المؤهل الوحيد لتسلم قيادة المسلمين.

ان ذرائع معاوية بالامس، تعيد نفسها اليوم على لسان ابن زياد فكأن الحسين عليه السلام هو الذي قتل عثمان ومنع الماء عنه، وكأن أباه أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن من أكثر الساعين لوقف الفتنة التي أججها معاوية ومروان وأصحابها لتتاح لهم فرصة الحفاظ على مصالحهم ومكاسبهم غير المشروعة.

لقاء وحديث ملفق.. روايته ابن سعد وحده

وقد رويت قصة لقاء بين الحسين عليه السلام وابن سعد، قيل انه تم أكثر من مرة، ولم يحضره أحد غيرهما، ومع ذلك لفقت على أثره اشاعة مفادها أن الحسين عليه السلام طلب من ابن سعد ان يتركا العسكرين ويخرجا سوية إلى يزيد، وان ابن سعد رفض ذلك^(١)، كما

(١) فقد روى الطبري: ج ٣ ص ٣١٢ ان الحسين عليه السلام بعث إلى ابن سعد «أن القني الليل بين عسكري وعسكري.. فخرج عمر بن سعد في نحو من عشرين فارساً، واقبل الحسين في مثل ذلك، فلما التقوا أمر الحسين أصحابه أن يتنحوا عنه، وأمر عمر بن سعد أصحابه بمثل ذلك (قال الراوية وهو هانئ بن ثابت الحضرمي): فانكشفنا عنهما بحيث لا نسمع أصواتها ولا كلامها، فتكلما فأطالا، حتى ذهب من الليل هزيع، ثم انصرف كل واحد منهما إلى عسكره بأصحابه، وتحدث الناس فيما بينهما، ظناً يظنون أنه حسيناً قال لعمر بن سعد: أخرج إلى يزيد بن معاوية وندع العسكريين؟ قال عمر: اذن تهدم داري، قال: أنا أبنيها لك، قال: اذن تؤخذ ضياعي، قال: اذن اعطيك خيراً منها من

لفقت اشاعة أخرى مفادها أن الحسين عليه السلام قدم ثلاثة مطالب: الرجوع من حيث أتى أو وضع يده بيد يزيد أو الذهاب إلى أحد ثغور المسلمين^(١).

ويبدو أن هذه الاكذوبة التي لفقها ابن سعد؛ لأنه كان مصدرها وراويها الوحيد وربما لفقها بعد انتهاء المعركة وتبادل الاتهامات ومحاولات التنصل من الجريمة من قبل كل أطرافها، بما فيهم يزيد قد راقق ليزيد نفسه، فإن الحسين عليه السلام عندما يعرض الذهاب اليه ووضع يده في يده، فإنه بذلك يؤكد شرعية قيام الدولة الأموية اليزيدية وخطأ موقفه الذي حاول تداركه عندما تعرض للخطر الاكيد.

وهذا ما نفتته وقائع الاحداث وطبيعة الإمام عليه السلام الذي رفض المساومة في كل موقف وفي كل مراحل الثورة، وقد تحدثنا في الفصل السابق عن كذب هذه المزاعم التي لم تستند الا على ادعاءات ابن سعد منفذ الجريمة.

ان محاولة التملص من الجريمة بدا أمراً ملحاً بعيداً ارتكابها بوقت قصير كما ألمحنا

مالي بالحجاز.. فتكره ذلك عمر... فتحدث الناس بذلك وشاع فيهم من غير أن يكونوا سمعوا من ذلك شيئاً ولا علموه» الطبري: ج ٣ ص ٣١٢ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٣ والبداية والنهاية: ج ٨ ص ١٧٥ وقد ورد في بعض كتب التاريخ أن الحسين عليه السلام قال لابن سعد: «اتقائني وأنا ابن من علمت، ذر هؤلاء القوم وكن معي فإنه أقرب لك من الله... وقال له عندما أيس من اقناعه: مالك، ذبحك الله على فراشك سريعاً عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك ونشرك، فوالله اني لأرجو ان لا تأكل من بر العراق الا يسيراً.. فقال ابن سعد مستهزئاً: وفي الشعر كفاية..» مقتل الخوارزمي: ج ١ - ف ١١ والبحار: ج ٤٤ ص ٣٨٩ والنويري: ج ٢٠ ص ٤٢٩ مع اختلافات بسيطة في النصوص.

(١) روى بعض المحدثين ان الحسين عليه السلام قال: «اختاروا مني خصلاً ثلاثاً: إما ان ارجع إلى المكان الذي اقبلت منه، وأما أن اضع يدي بيد يزيد بن معاوية فيرى فيما بيني وبينه رأيه، وأما أن تسيروني إلى أي ثغر من ثغور المسلمين شتتم، فأكون رجلاً من المسلمين لي ما لهم وعلي ما عليهم» الطبري: ج ٣ ص ٣١٢.. وقد أوضحنا بطلان هذا الافتراء في الفصل السابق...

إلى ذلك وكما سنوضحه بعون الله عند الحديث عن نتائج الثورة، وقد سارع يزيد بالقاء تبعثها على ابن زياد الذي حاول أن يلقيها على ابن سعد الذي سارع - وربما عرف هوى يزيد - بتحميل مسؤوليتها ابن زياد الذي حاول أيضاً أن يلقيها على يزيد وابن سعد كليهما، وهكذا تسارع مسلسل الاتهامات المتبادلة لينتهي بهذه الاشاعة التي تبنتها الدولة وروجت لها ليتناقلها بعض المؤرخين فيما بعد وكأنهم حضروا مع الحسين (ع) وابن سعد اجتماعهما التي تمت كما رووا هم دون أن يحضرها أحد سواهما.

ويبدو تلهف ابن سعد لنشر هذه الاشاعة منسجماً مع شعوره بالاحباط عندما لم يؤله ابن زياد ولاية الري كما وعده فأراد ان يحمله وزر الجريمة التي قام هو بتنفيذها وادعى انه أرسل رسالة اليه تتضمن الخيارات الثلاثة التي عرضها الحسين (ع) - بزعمه - والتي كانت تمثل الحلول المناسبة للمسألة بأسرها، لكي يتساءل الناس بعد ذلك قائلين: ما دام الحسين (ع) قد قبل مبايعته يزيد ووضع يده في يده، فماذا يريد ابن زياد أكثر من ذلك؟

ولكي يعتقدوا أيضاً: ان الحسين (ع) ما دام قد قبل بمبايعة يزيد، فلا بد وأن وجود يزيد خليفة على المسلمين كان شرعياً، وان ابن زياد قد فوّت عليه فرصة مبايعة وبقائه حياً، وأنه وحده يتحمل وزر ذلك، وهذا ما سعى اليه يزيد الذي أراد التنصل من الجريمة بكل طريقه والقاء تبعثها على شخصية ما، حتى ولو كان ذلك الشخص هو خادمه المخلص ابن زياد.

أمل بالتراجع.. واستسلام ذليل

وربما كان ابن سعد يأمل أن يتراجع ابن زياد عن مواقفه المعادية لآل البيت وللحسين (ع) على الخصوص، رغم معرفته بعمق ذلك العداء المتأصل الذي كاد أن

يكون حالة مرضية واضحة الاعراض... لأن ابن زياد لم يكن يتعامل بمبدئية الاسلام وانما بحكم المصالح والمنافع وهذه تخضع للمتغيرات والمساومات.

أما مع الحسين (ع) فلم يكن ابن سعد يأمل أية مساومة أو تراجع، رغم كل ما أشاعه هو وادعى فيه كذباً طلب الحسين (ع) أخذه إلى يزيد لمبايعته أو إلى أحد الثغور أو العودة من حيث أتى، ولم يستطع أن يحبك كذبتة الا بالقدر الذي أتاحه له موقفه القلق طيلة فترة إمرته على الجيش التي لم تدم أكثر من أسبوع، ولم يذكر لنا أحد المؤرخين أن ابن سعد حاول ثني الإمام (ع) عن المضي في موقفه المعادي للدولة الاموية، وإنما ذكر لنا بعضهم ان الحسين (ع) هو الذي حاول اقناع ابن سعد بالتخلي عن موقفه المساند لدولة الظلم..

شهادة بحق الحسين (ع) : لا يستسلم والله حسين. إن نفساً أبيية لبين جنييه

وقد وردت شهادة له بحق الإمام (ع) في تعقيب له على موقف ابن زياد المعادي والذي اراد منه الإمام (ع) أن يستسلم له.

قال ابن سعد لشمر الذي كان يقوم بدور الموالي الحريص على بقاء الدولة والمحرض الشديد العداوة للحسين (ع)، والذي جاء برسالة ابن زياد التي تدعوه إلى دعوة الحسين (ع) للاستسلام أو قتله والتمثيل بجثته:

«ما لك، ويلك، لا قرب الله دارك، وقبح الله ما قدمت به عليّ! والله اني لأظنك أنت ثنيته أن يقبل ما كتبت به اليه، أفسدت علينا أمراً كنا رجونا أن يصلح، لا يستسلم والله حسين، إن نفساً أبيية لبين جنييه»^(١).

لم يستطع ابن سعد أن يقول أن الحسين (ع) لن يستسلم لأنه يحمل قضية الإسلام

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٣-٣١٤ وتراجع المصادر السابقة.

الكبيرة بمواجهة الانحراف المعلن من قبل الدولة التي ادعت وصايتها وقيمومتها على المسلمين، وكل ما استطاعه - تحت وطأة غضبه البارد على شمر - أن يقول ان للحسين عليه السلام نفساً أبية بين جنبيه، أما لماذا كان ذلك الالباء ولأية غاية فهذا ما لم يرد أن يفصح عنه.

كان ابن سعد واعياً تمام الوعي موقف الدولة الظالم والمنحرف عن الاسلام، ولم يستطع الا ان يكون اداة طيعة بيدها عندما دعتة إلى ذلك، ولم يملك قدراً من الارادة الحرة يتيح له رفض ان يكون على رأس الجيش الذي سيتولى قتل الامام وأصحابه والتمثيل بجثثهم.

كان جديراً به وقد غضب على شمر أن يرفض ما عرضه عليه، الا أنه لم يجد في نفسه الجرأة للقيام بذلك.

«قال له شمر: أخبرني ما أنت صانع؟ اتمضي لأمر أميرك وتقتل عدوه؟»

والا فخلّ بيني وبين الجند والعسكر.

قال ابن سعد: لا ولا كرامة لك، وأنا أتولى ذلك.

دونك، وكن أنت على الرجال.

فنهض اليه عشية الخميس لتسع مضين من المحرم^(١).

خدیعة أم تخادع.. لسان يلحس ويكذب: يا خيل الله اركبي وابشري

كان جديراً بمن يدعي الغضب لصنيع ابن زياد وشمر، أن يكون فعله بمستوى الغضب الذي عبر عنه بتلك الكلمات الحادة التي واجه بها شمر، وأن لا يجعل من

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤، وتراجع المصادر السابقة الأخرى.

المواجهة الكلامية مجرد خصومة كلامية وحسب بينهما، يقول فيه كلمة غاضبة ثم ينتهي كل شيء ليستسلم بعد ذلك وينهض لتنفيذ أوامر سيده أو أميره على حد تعبير شمر، وكأنها أوامر عليا منزلة، لا حق له بمناقشتها أو التردد بتنفيذها.

وهكذا لم يجد في نفسه الجرأة على التصرف والبقاء حتى اليوم التالي لمناجزة الامام وأصحابه عليهم السلام فقد نادى بعد حوارهِ (الغاضب) مع شمر مباشرة: «يا خيل الله اركبي وابشري، فركب في الناس، ثم زحف نحوهم بعد صلاة العصر»^(١).

ولعل كلماته الخادعة هذه وهو يتوجه ويحث الناس على قتال الحسين عليه السلام حامل الرسالة ومثلها الصحيح، تعيد إلى اذهاننا رأي ابيه فيه وغضبه منه، اذ كيف اتفق ان دعا جنده بخيل الله، وكيف وبم بشرهم؟ هل كانوا ذاهبين لمناجزة اعداء الله حتى يدعوهم كذلك؟ وهل البشرى الا بالجنة أو النصر، عندما يذهبون لمناجزة أولئك الاعداء؟

ألم يكن ابن سعد يعلم حقاً من هو الحسين عليه السلام وما هي المهمة التي انتدب لها نفسه؟ وهل كان جاهلاً بطبيعة الدولة الظالمة التي كان يخدمها؟

ألم أنه - يا ترى - كان يريد اقناع نفسه بصحة موقفه، تحت تأثير خوفه وطمعه؟ أو اقناع جنده بصحة موقفهم.

وقديماً غضب منه أبوه حين نطق مع القوم فبزههم، وقد كانوا كلموه في الرضا عنه. قال: هذا الذي أغضبني عليه: أي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنتهم، كما تلحس الارض البقرة بلسانها»^(٢).

كان يريد أكل الدنيا بلسانه، وبلسانه وحده، الا أنه جرد سيفه مع لسانه حينما وجد

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤، وتراجع المصادر السابقة الأخرى.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين: ج ١ ص ١٧٢.

أن لسانه لم يكن يكفي وحده.. وقد وجد أنه بمواجهة السنِّ أخرى أكثر منه حدةً وأمهر في ميدان الشر والجريمة والتزوير والتلاعب بالألفاظ والكلمات، ومنها لسان سيده ابن زياد وخادمه شمر.

فلم يكن الأمر أمر منطق وتلاعب بالألفاظ والكلمات وحسب.. وإنما أمر مصالح كبيرة ضخمة لم يرد أحد من اقطاب الحكم وأعوانه ومرزقته التنازل عنها، وجعلوا السيف بينهم وبين من يدعوهم للعودة إلى الاسلام وعدالته وقيمه الصحيحة.

قائد أم تابع

ويدل حوار آخر بين ابن سعد وبعض تابعيه وقواده على مدى ضعفه وتردده وخوفه، فعندما أرسل الإمام عليه السلام أخاه العباس وبعض أصحابه ليؤخر ابن سعد وأصحابه إلى اليوم التالي قائلاً له: «ان استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة وتدفعهم عند العشية، لعلنا نصلي لربنا الليلة ندعوه ونستغفره، فهو يعلم اني قد كنت أحب الصلاة له، وتلاوة كتابه، وكثرة الدعاء والاستغفار»^(١)، وذهب العباس لاداء الرسالة. «قال عمر بن سعد: ماترى يا شمر؟

قال: ما ترى أنت؟ أنت الأمير والرأي رأيك.

قال: قد أردت الا أكون، ثم أقبل على الناس فقال: ماذا ترون؟ فقال عمرو بن الحجاج بن سلمة الزبيدي: سبحان الله! والله لو كانوا من الديلم ثم سألك هذه المنزلة لكان ينبغي لك أن تجهيهم إليها.

وقال قيس بن الاشعث: أجههم إلى ما سألك، فلعمري ليصبحنك بالقتال غدوة؟

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥ وراجع المصادر السابقة.

فقال: والله لو أعلم أنهم يفعلون، ما أخرجتهم العشية»^(١).

كان يحسب أنه إذا ما تأخر عن قتال الامام وأصحابه عليهم السلام، فإن ذلك سيثير غضب سيده، وكان يعلم منزلة شمر منه، تلك المنزلة التي استطاع أن يحظى بها في وقت قصير جداً لاندفاعه اللامحدود بخدمة الدولة واستعداده للدفاع عنها بكل جهده وقوته.. وهكذا وجه الكلام له أولاً مع أنه لم يكن أكبر قاداته طالباً رأيه حول مسألة تأجيل القتال.

وكان جواب الشمر صفقة قوية له لو كانت قد بقيت له كرامة، اذ كيف يقدم أمير مثله على طاعة أحد مأموريه، لو لم يكن يخاف منه، اليس هو الأمير، وقد منح تفويضاً بالعمل والتصرف.

ولعله أراد مداراة خجله بجوابه للشمر ثم سؤاله الناس ليبدو كمن عرض رأيه على الناس جميعاً لا على شخص واحد.

وعندما استقر الرأي على تأجيل القتال، أجاب اجابة اراد منها مداراة خجله وتردده ثانية، وأثبت بذلك هوانه وضعفه واستسلامه.

إرادة مسلوقة: لو كان الأمر إليّ لفعلت، اشهدوا اني أول من رمى

لقد عوتب ابن سعد عدة مرات على موقفه من الحسين عليه السلام، وركوبه ذلك المركب الصعب، ولقد كان يجيب في كل مرة:

«أما والله، لو كان الامر إليّ لفعلت، ولكن أميرك قد أبى ذلك»^(٢).

كانت أجوبته كلها تدل على أنه كان ضعيفاً مسلوب الإرادة مستسلماً لأوامر لا

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥ وراجع المصادر السابقة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠ وراجع المصادر الاخرى.

يرى مجالاً في الخروج عليها أو حتى التصرف فيها.

وحتى أسلوبه وطريقته في بدء القتال دلاً على ذلك... على أنه إنما كان ينفذ أمراً صادراً إليه من جهات عليا مفروضة الطاعة، وقد أراد اثبات ولائه لها بطريقة تثير السخرية، اذ كيف يريد أمير الجيش شهادة أعوانه وهو قائدهم ورئيسهم الكبير؟

«وزحف عمر بن سعد ثم نادى: يا دريد، أدن رايتك.. فأدناها، ثم وضع سهمه في كبد قوسه ثم رمى، فقال: اشهدوا أني أول من رمى»^(١).

ولعله أول قائد يطلب شهادة جنده على حسن طاعته وانقياده لأمره، فلم تعرف سابقة لهذا العمل من قبل، وهو أمر يستدعي المزيد من تأمل ودراسة شخصية هذا القائد العجيب.

وعندما حاول عمرو بن الحجاج تحريض الناس على عدم الخروج فرادى لمبارزة الحسين عليه السلام وأصحابه قائلاً: «يا حمقى، أتدرون من تقاتلون؟ فرسان المصير، قوماً مستميتين، لا يبرزنّ لهم منكم أحد، فانهم قليل، وقلما يبقون، والله لو لم ترموهم الا بالحجارة لقتلتموهم...»

فقال عمر بن سعد: صدقت، الرأي ما رأيته، وأرسل إلى الناس يعزم عليهم الا يبارز رجل منكم رجلاً منهم..^(٢)

لقد رأى ابن الحجاج فتك الحسين عليه السلام وأصحابه بأعوان ابن سعد، ورأى أن المعركة قد تخرج عليهم بمفاجآت عديدة، وقد ينحاز للحسين عليه السلام بعض أفراد الجيش، ومن شأن المبارزات الفردية أن تثير بعض الناس وتجعلهم يقفون موقف الحر بن

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢١ وراجع المصادر الاخرى.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤ وراجع المصادر الاخرى.

يزيد الرياحي، ولهذا عواقبه فيما بعد، فأشار على ابن سعد بما أشار به عليه، فرأى منه استحساناً وربما كان ابن سعد يراقب الموقف ويأمل أن تنتهي المعركة بلحظات معدودة، ولعله أصيب باحباط قوي عندما رأى شدة الحسين عليه السلام وأصحابه واستبسالهم، فكان اقتراح عمرو بن الحجاج مخرجاً له من ورطته.

ويبدو من موقف عمرو بن الحجاج واقتراحه وموقف ابن سعد وقبوله ذلك الاقتراح، ثم قول ابن الحجاج:

«يا أهل الكوفة الزموا طاعتكم وجماعتكم ولا ترتابوا في قتل من مرق من الدين وخالف الإمام»^(١) انهما كانا يريان احتمال تغير موقف الجيش برمته، وان هناك بوادر ثورة محتملة توشك ان تهب بين صفوفه، والا فما الذي دعاه إلى استصراخ الناس والاستنجاد بهم بهذه الطريقة المستجدية؟

وحتى في المعركة لم يثبت ابن سعد أنه قائد كفوء، فرغم كثرة افراد جيشه بمواجهة جيش الإمام عليه السلام، القليل العدد، فإن هزيمة منكرة ألحقها جيش الامام بحوالي اثنين وثلاثين فارساً من فرسانه «وأخذت لا تحمل على جانب من خيل أهل الكوفة الا كشفته»^(٢) ولم يستطع تدارك الموقف. الا بعد أن استنجد به قائد الفرسان، عزرة بن قيس قائلاً: «أما ترى ما تلقي خيلي منذ اليوم من هذه العدة اليسيرة ابعث إليهم الرجال والرماة»^(٣)، وعندها فقط استطاع تدارك موقفه حيث «دعا عمر بن سعد الحصين بن تميم بعد أن لم يستجب له شيب بن ربيعي فبعث معه المجففة وخمسمائة من المرامية فأقبلوا حتى إذا دنوا من الحسين وأصحابه رشقوهم بالنبل، فلم يلبثوا أن عقروا

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤، وبقية المصادر.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٥، وبقية المصادر.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٥، وبقية المصادر.

خيولهم وصاروا رجاله كلهم»^(١).

خوف أم يقظة ضمير

كان تردد ابن سعد يبدو واضحاً في العديد من المواقف لأنه لم يكن واثقاً من عدالة قضيته وهو يواجه قضية خصمه العادلة الواضحة.

ففي المعركة، أخذ شمر هلال الجملي - بعد أن ضرب حتى كسرت عضداه - أسيراً إلى عمر بن سعد، وقد طلب شمر من ابن سعد أن يقتله، إلا أنه قال له: «أنت جئت به فإن شئت فاقتله قال فانتضى شمر سيفه... فقتله»^(٢).. فكأن ابن سعد كان يرى نفسه محملاً بكثير من الذنوب لم يشأ إضافة ذنوب جديدة إليها.

إلا أنه كان يعود إلى طبيعة الشر التي ألفها والتي جبل عليها، ربما لكي يسجل مواقف (مشهودة) لدى أميره، فعندما خرج عابس بن أبي شبيب الشاكري، البطل المعروف وكان من أشجع الناس وطلب المبارزة قائلاً: ألا رجل لرجل؟

فقال عمر بن سعد: إرضخوه بالحجارة، قال: فرمي بالحجارة من كل جانب فلما رأى ذلك ألقى درعه ومغفره ثم شد على الناس فوالله لرأيته يكرد أكثر من مائتين من الناس ثم إنهم تعطفوا عليه من كل جانب فقتل، قال: فرأيت رأسه في أيدي رجال ذوي عدة هذا يقول أنا قتلته وهذا يقول أنا قتلته فأتوا عمر بن سعد فقال لا تختصموا هذا لم يقتله سنان واحد ففرق بينهم بهذا القول»^(٣).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٥، وبقية المصادر.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٩، وبقية المصادر.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٩، وبقية المصادر.

القائد المتخاذل... بكاء أم دموع التماسيح

كان قائد جيش ابن زياد متخاذلاً حتى أمام جنده، ولم يستطع ردعهم عن ممارساتهم الاجرامية بحق الإمام (عليه السلام)، وربما كانت صورة سيده المخيفة تتراءى له على الدوام.

ففي الجولة الاخيرة للإمام (عليه السلام) مع أعدائه، عندما كانوا يحيطون به، وكان يشد عليهم وحيداً ويفرقهم، قيل أن السيدة زينب خرجت من خيمتها وواجهت ابن سعد بكلمات مؤنبة قائلة: «يا عمر بن سعد أقتل أبو عبدالله وأنت تنظر إليه»^(١) ولا شك أن هذه الكلمات لو وجهت إلى قائد آخر يعتز بدينه أو عروبه أو نسبه لكان قد اتخذ موقفاً آخر من ذلك الذي ادعى القرابة منه، غير أن ابن سعد لم يملك الا أن يبكي بكاء صامتاً «فكأنني أنظر - قال الراوي- إلى دموع عمر وهي تسيل على خديه ولحيته، وصرف بوجهه عنها»^(٢). كيف يفسر بكاء ابن سعد هذا ودموع التماسيح التي ذرفها امام المجموعة التي اقدمت على قتل الحسين (عليه السلام) بقيادة شمر، هل كانت دموعه إيذاناً لهم بقتل الإمام (عليه السلام) والتشديد على حصاره والاهواز عليه.

انه بذلك يقول: أنا لست قادراً على دفع الشر عن الإمام (عليه السلام) ومنع عصابة الشر من قتله، ولا أملك الا أن أبكي مثل النساء، ولعله حسب انه -بتلك الدموع وبمحاولاته الواهنة لمنع الحرب أو تسليم قيادة الجيش المحارب لشخص آخر- قد برأ ذمته وأصبح في حل من فعل أي شيء، حتى وان تجاوز قتل الامام، إلى التمثيل بجثته وجثث أصحابه. كان يستطيع أمام طلب ابن زياد التمثيل بالجثث، ان يمتنع عن تلبية ذلك الطلب، وأن يقول: لقد نفذت ارادة الدولة وقتلت الحسين، وهو هدف كبير حققته لها، أما التمثيل بالجثث فهو رغبة شخصية غير ملحة ولا ضرورية أو ملزمة، ولن يكون عليه

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٤، وبقية المصادر.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٤، وبقية المصادر.

-على الأغلب- ضير، إن هو امتنع عن تلبيتها، غير أنه رغم ذلك لم يجد في نفسه القدرة على الامتناع عن تلبية أدنى رغبات ابن زياد وأشدّها وحشية وعنفاً.

انه لم يستطع حتى ردع جنده عن نهب متاع الإمام (عليه السلام)، قال لهم: «الا لا يدخلن بيت هؤلاء النسوة أحد، ولا يعرضن لهذا الغلام المريض، ومن أخذ من متاعهم شيئاً، فليرده عليهم.

فوالله ما رد أحد شيئاً»^(١).

كانوا يطيعونه إذا ما كانت أوامره، منسجمة مع روح الشر التي عرف بها أميره، أما إذا ما خطر له تحت أي دافع أن يصدر أمراً يتسم بقدر من الرحمة أو الإنسانية، فإنهم يعصونه ولا يحسبون له حساباً.

ابن زياد من ينفع ويضر: لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك

ويتجلى خوف ابن سعد من ابن زياد، وخوفه منه في جوابه لسنان ابن أنس الذي كان على رأس قتلة الحسين (عليه السلام) بقيادة شمر.

حَسِبَ (الحاسدون) و(الغابطون) سنناً أنه سينال، أموالاً طائلة لما قام به. قالوا له: «قتلت حسين بن علي وابن فاطمة ابنة رسول الله ﷺ، قتلت أعظم العرب خطراً جاء إلى هؤلاء يريد أن يزيلهم عن ملكهم فأنت أمراءك فاطلب ثوابك منهم لو أعطوك بيوت أموالهم في قتل الحسين كان قليلاً»^(٢).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٥ وراجع المصادر الأخرى السابقة، ويبدو من مجمل كتب التاريخ أن الذين شاركوا بقتل الحسين (عليه السلام) وجرحه وذبحه جماعة كان في مقدمتهم شمر، الذي تولى بنفسه المساهمة بهذه المهمة رغم أنه كان يمكن أن يكتفي بإصدار الأوامر ونشير إلى ذلك في حينه بعون الله.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٥، وبقيّة المصادر..

كان منطقهم منطق الربح بالأموال وحسب، فلم تكن (معركتهم) تلك مما يمكن التفاخر به، أرادوا اقناع أنفسهم بأن القضية كلها قضية منافسة على ملك وسلطان، وأقروا أن بيوت الأموال التي استولى عليها الحكام إنما هي (بيوت أموالهم) لا بيوت أموال المسلمين، وإن من حقهم أن يتصرفوا بها كيف شاؤوا، ذهب سنان على فرسه «وكان شجاعاً شاعراً، وكانت به لوثة، فأقبل حتى وقف على باب فسطاط عمر بن سعد، ثم نادى بأعلى صوته:

أوقر ركابي فضةً وذهباً أنا قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أمأً وأبا وخيرهم اذ ينسبون نسباً
فقال عمر بن سعد: أشهد انك لمجنون ما صححت قط. أدخلوه عليّ.

فلما أدخل حذفه بالقضيب ثم قال: يا مجنون، أتتكلم بهذا الكلام، أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك»^(١).

كان هاجسه، وحلمه واله الوحيد في ذلك الحين ابن زياد وحده، فهو الذي كان يستطيع الارتفاع به وجعله أميراً أو خفضه وجعله كسائر الناس المغمورين، وكان الأمر كله رهيناً بكلمة تخرج من فمه بل أنه حسب أن حياته نفسها كانت رهينة بتلك الكلمة.

استسلام مهين، أم حقد دفين: اوطئ الخيل صدره وظهره!

ومرة أخرى أثبت ابن سعد ضعفه واستسلامه المهين لابن زياد اذ انتدب عشرة من فرسان جيشه «فأتوا فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره»^(٢) حسب أوامر ابن زياد اليه قبيل بدء المعركة.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٥، وراجع المصادر السابقة، وذكرت بعض كتب التاريخ أن ابن زياد أمر بقتله لدى سماعه الأبيات المذكورة - كما أشرنا لذلك في حينه.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٥.

وكان ابن زياد قد كتب له: «فإن قتل حسين فأوطئ الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم وليت دهري في هذا أن يضر بعد الموت شيئاً ولكن علي قول لو قد قتلتها فعلت هذا به إن أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع»^(١).

كانت رسالة ابن زياد تدل على حقه وعداوته للحسين ﷺ فقد كان بنظره الشخص الذي يسعى لسلب سلطانهم ومكاسبهم ودولتهم، وكأن المعركة معه - بنظره - معركة وجود، ولعله - لو استطاع - سيعمد إلى قتله شخصياً والتمثيل بجثته بل والولوغ بدمه. غير أنه فضل البقاء قريباً من الكوفة، في معسكره بالنخيلة، خوفاً من ثورة محتملة ولغرض تحشيد المزيد من المقاتلين يدفع في ظهورهم لانجاز المهمة الخطيرة للدولة، مهمة القضاء على الحسين ﷺ وأصحابه.

وهكذا عهد لقائده الخائف الطامع القيام بتنفيذ أمنيته مع أنه كان يعلم أنها أمنية سخيصة: «ليت دهري في هذا أن يضر بعد الموت شيئاً»^(٢). غير أنه ربما أراد بذلك أن يساهم بلمسة شخصية خاصة يثبت فيها انحيازه لسيده يزيد واستبساله من أجله، فهو كمن يريد أن يقول له في النهاية: لقد قتلت الحسين كما أمرتني، غير أن حقدي عليه جعلني أصدر أوامري لقاتله بأن يمثل بجثته، وما حقدي عليه إلا بسبب ولائي لك وشغفي بك.

وقد تفوح رائحة حقارة تلك الامنية امام الامة فيما بعد، وقد تنزعج لذلك كثيراً، حتى يصل صوتها إلى يزيد، وقد وصل ذلك الصوت فعلاً، وربما أبدى يزيد انزعاجه الظاهري من أمنية ابن زياد، ورأى أنها أمر زائد لا ضرورة له ما دام قد قتل الحسين ﷺ، وقد يستطيع ابن سعد أن لا يستجيب لنزوة ابن زياد أيضاً ويقول له: لقد نفذت أوامرك

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٣.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٣.

وقتل الحسين، وهذا هو الامر المهم، أما الرغبات الخاصة، غير المهمة -وكما تقول أنت- فلست ملزماً بتنفيذها.

لو أن ابن سعد كان قد خرج ثاراً للإسلام وحرصاً على وحدة المسلمين لقال ما كان ينبغي ان يقوله هنا ولما استجاب لرغبة ابن زياد في التمثيل بجثث الحسين وأصحابه عليهم السلام، غير أنه وقد تنازعه عاملاً الخوف والطمع وأخذاً بزمامه، فإنه لم يملك الا أن يستجيب استجابة ذليلة لتلك الرغبة الحقودة من ابن زياد.

ومع ذلك فإنه كان من الصفاقة وعدم الحياء وانعدام الحس ان اعتبر معركته مع الحسين وأصحابه عليهم السلام فتحاً، كان هو المنتصر فيه في النهاية، وقد أرسل حميد بن مسلم إلى أهله (ليبشرهم بفتح الله عليه وبعافيته) لعله كان -رغم عدد جيشه الهائل - خائفاً حقاً من أن تدور الدائرة عليه ويقتل في تلك المعركة وعندها ستكون تلك خسارة ما بعدها خسارة، وسيفقد كل شيء، وخصوصاً ملك الري الذي (ناضل من أجله كل ذلك النضال) وتنازل كل ذلك التنازل وبلغ به الأمر تنفيذ أتفه امنيات سيده الشرير. أما وقد (نجح) في مهمته وقتل الحسين عليه السلام فإن امنياته باتت وشيكة التحقيق وبدا كأنه قاب قوسين أو أدنى من اماره الري، وهل هناك (نصر) كهذا النصر الذي يجعله قريباً من اماره الري؟

آلة الظلم الخرساء: لا حاجة لنا به بعد الآن

لم يحدثنا التاريخ بعد ذلك أن ابن زياد قرب ابن سعد منه بعد أن أنجز مهمته وقام بتلك المجزرة المروعة في كربلاء، كما أنه لم يف بما وعده به، بجعله والياً على الري، ولعله لم يلمس منه خطر الشأن وعلو المكانة مما يُخاف منه إذا لم يف له بوعده. وقد أهمله، وأهمله التاريخ بعد ذلك لولا قيام المختار بن عبيد الثقفي بقتله في النهاية، مع مَنْ قتل

من قَتَلَةِ الحسين بعد ثورة التوابين - كما سنشير إلى ذلك في حينه بعون الله.

ولم تُرَو لنا الا تلك القصة التي تشير إلى ارساله الكتاب الذي أرسله اليه ابن زياد وفيه يأمره بقتل الحسين، وامتناعه عن ارجاعه اليه، ولعله امتنع بعد أن أبعدَه ابن زياد عن مجلسه ويُسَّ من (ملك الري).

«قال عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد بعد قتله الحسين: يا عمر، اين الكتاب الذي كتبت به اليك في قتل الحسين؟ قال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب، قال: لتجيئن به قال: قد ضاع قال: والله لتجيئنني به، قال: ترك والله يقرأ على عجائز قريش اعتذاراً اليهن بالمدينة. أما والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن أبي وقاص كنت قد أديت حقه»^(١).

هل حسب ابن سعد حقاً أنه قد نصح ابن زياد بعدم قتل الحسين، ثم أقدم هو على تنفيذ الجريمة؛ لأنه كان ينفذ أمراً على صادرأ اليه لا يمكن مخالفته أو تجاهله، وبرأ نفسه من الجريمة لينام بعد ذلك قرير العين، وتنتهي المسألة برمتها.

هل كان يحسب نفسه آلة للقتال كعصا أو رمح أو سيف، لا ارادة له ولا عقل؟ ليعتذر بعد ذلك بقوله: انه قد نصح، وعندما لم يؤخذ بنصيحته فإنه لم يملك الا الاستجابة لرغبة القاتل، حتى ولو كانت رغبة ظالمة حمقاء.

أكان منطق ابن سعد، الظالم المستضعف، وآلة الظلم الخرساء، وحليف الظلمة، يجوز على أولئك الذين يرون أن الخضوع لا يكون الا لله، وأن الأمر لا يكون الا لمن يدين بأمره ويطيعه طاعة حققة، أم أنه منطق يجد له مكاناً لدى الظلمة الذين يقنعون أنفسهم بأنه المنطق الصحيح.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٤٢ وتراجع بقية المصادر.

هل تملك أدوات الظلم، وأعوان الظالم الا أن يقولوا ما قاله ابن سعد إذا ما كانوا ينفذون أوامر الظلمة.. ثم يحاولون الاعتذار بعد ذلك؟

وما عذره بالمعاملة السيئة لنساء الحسين وبناته ونساء أصحابه وأطفالهم عندما سيرهم بحالة مزرية من كربلاء إلى الكوفة؟ لعل ابن زياد نفسه لم يأمره بمعاملتهم تلك المعاملة السيئة حيث سيرهم على أقتاب الجمال بغير رحل ولا وطاء وساقهم كما يساق السبي.

هل كانت تلك لمسة شخصية أخرى يثبت فيها ولاءه للعرش الأموي الذي لم يحسب له حساباً في يوم من الأيام، ولم يفكر باستخدامه إلا بتلك الجريمة القذرة، وبعد ان ابدى استعداده للتعاون منذ أن نصب نفسه جاسوساً يبلغ يزيد عن مقدم مسلم بن عقيل وتحركاته؟

كان خاملاً.. وعاد خاملاً

عاد ابن سعد خاملاً - كما كان - ولعله كان يقضي أيامه متنعماً في قصر أبيه في الكوفة بما (أغدقته) عليه الدولة من أعطيات لعلها لم تكن أكثر من الاعطيات التي أغدقت على أي شريف آخر لم يشارك بنفس حماسه وفاعليته في جريمة الطف، لم تستمر أيامه الهادئة لأكثر من الايام التي عاشها يزيد الذي توفي عام ٦٤ للهجرة «يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول. وكانت خلافته ثلاث سنين وثمانية أشهر الاثني ليل، وكان بين قتل الحسين وهلاك يزيد بن معاوية ثلاث سنين وشهران وأربعة أيام»^(١).

وبعد تلك السنين الثلاث بدا أن العرش الأموي كان معرضاً للإنهيار بعد وفاة يزيد، وبدت الرياح أحياناً كأنها تهب إلى جانب ابن الزبير، وطُرد ابن زياد من البصرة

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٩٤.

ووكيله عمرو بن حريث من الكوفة «واجتمع الناس في المسجد فقالوا نؤمر رجلاً إلى أن يجتمع الناس على خليفة، فأجمعوا على عمر بن سعد فجاءت نساء همدان يبيكين حسينا ورجالهم متقلدو السيوف فأطافوا بالمنبر، فقال محمد بن الأشعث: جاء أمر غير ما كنا فيه وكانت كندة تقوم بأمر عمر بن سعد لأنهم أخواله فاجتمعوا على عامر بن مسعود وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير فأقره»^{(١) (٢)}.

وبعد أن حسب ابن سعد أن فرصة ذهبية قد اتاحت له، عندما طرد وكيل ابن زياد من الكوفة، وفكر أخواله الكنديون بتنصيبه أميراً على الكوفة. طارت تلك الفرصة على الفور بموقف نساء همدان ورجالها الذين لم ينسوا موقفه في كربلاء، وكانت واقعة الطف تترأى لهم في اللحظة التي فكر بها بعض أبطال تلك الواقعة بتولي المسؤولية في الكوفة، وبدارء الفعل على من ساهموا بالجريمة سريعاً وحاسماً، بكت فيه النساء علانية على الحسين، وتقلدت فيه الرجال سيوفها لمنع قتله من التسلط على رقابها.

وبدت الأمور بنظر ابن سعد وكأنها تنذر بعاصفة مرتقبة بعد ظهور أمر التوايين والمختار، «وكان عمر بن سعد تلك الأيام التي كان سليمان [زعيم التوايين] معسكراً فيها بالنخيلة لا يبيت إلا في قصر الإمارة مع عبدالله بن يزيد [والي الكوفة] مخافة أن يأتيه القوم في داره ويدمروا عليه في بيته وهو غافل لا يعلم فيقتل»^(٣)، فأيام الهدوء

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٧٥.

(٢) وقد أورد المسعودي في (مروج الذهب) ج ٣ ص ١٠٢: انه بعد وفاة يزيد «خلع أهل الكوفة ولاية بني أمية وامارة ابن زياد، وأرادوا أن ينصبوا لهم أميراً إلى أن ينظروا في أمرهم، فقال جماعة: عمر بن سعد بن أبي وقاص يصلح لها. فلما هموا بتأميمه، أقبلت نساء من همدان وغيرهن من نساء كهلان والانصار وربيعة والنخع، حتى دخلن المسجد الجامع صارخات باكيات معولات يندبن الحسين ويقلن: أما رضي عمر بن سعد بقتل الحسين حتى أراد أن يكون أميراً على الكوفة؟ فبكى الناس وأعرضوا عن عمر».

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٤١٠.

والطمأنينة بدت وكأنها ولت إلى الأبد بعد الغليان الشعبي في الكوفة، وجاءت أيام الرعب وتسديد الحساب، خصوصاً وأن المختار بدا جاداً بمتابعة قتلة الحسين (ع) واستئصالهم بعد سيطرته على الكوفة.

المختار.. اختار النار: لأقتلن غداً رجلاً عظيم القدمين غائر العينين

ويبدو أن وقعة المختار بقتلة الحسين (ع) بذلك الأسلوب المثير وجوئه إلى أساليب جديدة في التعامل مع أعدائه، وفهمه لواقع مجتمعه، جعل أعداءه، أعوان دول الظلم كلها يعمدون إلى تشويه صورته وإبرازه كشخص ذي طموحات ومطامع ونزوات وشطحات وأنه لم ينطلق بدافع من شعور ديني حقيقي.

ان قتله قتلة الحسين (ع) وأصحابه، قد يكون من شأنه أن يشكل رادعاً لأشخاص محتملين يساندون دول الظلم، ولذلك فإنه بالقدر الذي سعت فيه الدولة الاموية لتشويه صورته، كما عمدت في ذلك مع جميع أعدائها ومنهم أمير المؤمنين (ع) نفسه، فإن الدول اللاحقة ومن يتبنى مواقفها من الكتاب المؤرخين اتخذت نفس الموقف منه باعتباره عدو الدولة الاموية (النموذج) لهذه الدول، وقد حذا الزيريون وأعوانهم أعداء آل البيت (ع) حذو الامويين في هذا المجال.

وسنحاول بعون الله التطرق إلى شخصية المختار وأسلوبه في التعامل مع أعدائه عند الحديث عن نتائج الثورة.

لقد أعلن المختار عزمه على قتل عمر بن سعد، وقد حدث جلساءه ذات يوم: «لأقتلن غدا رجلاً عظيم القدمين غائر العينين مشرف الحاجبين يسر مقتله المؤمنين والملائكة المقربين»^(١). وكان يصف ابن سعد بقوله هذا، وهو وصف ما كان يخفى

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٦٤.

عن جلساء المختار، الذين سارع أحدهم بإخبار ابن سعد بنواياه نحوه، وقد حاول ابن سعد التوسط لدى المختار عند ظهور أمره وغلبته لأخذ أمان منه، ويبدو أن المختار كان يتوقع سعيه هذا فكتب صيغة أمان تحتل تأويلاً آخر لمعناه الظاهري وقد نوى حقاً على الإيقاع به في الوقت المناسب^(١).

سعى لحثفه بظلفه

حاول ابن سعد الهرب، وخرج من داره، ثم عاد إليها، وبخروجه عن (رحله

(١) وكانت صيغة الأمان الذي كتبه المختار لابن سعد.. «.. هذا أمان المختار بن أبي عبيد لعمر بن سعد، انك آمن بأمان الله على نفسك ومالك وأهل بيتك ولذلك، لا تؤخذ بحدث كان منك قدر ما سمعت واطعت ولزمت رحلك وأهلك ومصرك. فمن لقي عمر بن سعد من شرطة الله وشيعة آل محمد ومن غيرهم من الناس فلا يعرض له إلا بخير. شهد السائب بن مالك واحمر بن شميظ وعبد الله بن شداد وعبد الله بن كامل.

وجعل المختار على نفسه عهد الله وميثاقه ليفين لعمر بن سعد بما أعطاه من الأمان. إلا أن يُحدث حدثاً وقد ورد قول مهم يشير إلى قصد المختار بقوله «.. إلا أن يُحدث حدثاً فإنه كان يريد به اذا ذهب إلى الخلاء فحدث» الطبري: ج ٣ ص ٤٦٤.. ولا نعتقد - من اطلعنا على سيرة المختار - انه كان يقصد الحدث الخروج عليه، بل نرجح الامر الثاني لأنه كان منذ بداية أمره يكن كرهاً شديداً لقتلة الحسين (عليه السلام) ويرى قتالهم والقضاء عليهم كما يرد بوضوح عند استعراض حركته... ولعل توريته بـ (الحدث)، الدخول إلى بيت الخلاء يؤكد استهانت به بشخصية ابن سعد المهزوزة وعدم اهتمامه به وقد تركه إلى النهاية لاعتقاده أنه لن يجرؤ على الهرب وسيقتنع نفسه بصيغة الأمان التي تحتل التأويل.. وقد ورد خبر آخر مفاده أن الذي جعل المختار يقدم على قتل ابن سعد، أن أحد أهل الكوفة التقى بمحمد بن الحنفية، «فجرى الحديث إلى أن تذكروا المختار وخروجه وما يدعو إليه من الطلب بدماء أهل البيت: فقال محمد بن الحنفية: على أهون رسله يزعم أنه لنا شيعة، وقتلة الحسين جلساؤه على أريكته يحدثونه» الطبري: ج ٣ ص ٤٦٢.. وقد أخبر المختار بذلك.. فقتل عمر بن سعد وابنه وبعث برأسيهما إلى ابن الحنفية وكتب اليه رسالة ورد فيها: «.. فان الله بعثني نقمة على أعدائكم، فهم بين قتيل وأسير وشريد، فالحمد لله الذي قتل قاتلكم، ونصر مؤازريك، وقد بعثت إليكم برأسي عمر بن سعد وابنه، وقد قتلت كل من اشترك في دم الحسين وأهل بيته -رحمة الله عليهم- كل من قتلهم... ولا يبلغني أن على أديم الارض منهم آدمياً».

واهلكه) كما ورد بوثيقة الامان، خَرَقَ ظاهرياً بنود الاتفاق التي وردت في الامان.

أرسل أحد جلساء المختار ابنه لابن سعد محذراً اياه من عزم المختار قتله، وعندما أخبره بذلك «خرج من تحت ليلته حتى أتى حمامه، ثم قال في نفسه: أنزل داري، فرجع، فعبّر الروحاء ثم أتى داره غدوة، وقد أتى حمامه.

فأخبر مولى له بما كان من أمانه وبما أريد به، فقال له مولاه: وأي حَدَثٍ أعظم مما صنعت؟ انك تركت رحلك وأهلك واقبلت إلى ها هنا، ارجع إلى رحلك، لا تجعلن للرجل عليك سبيلاً، فرجع إلى منزله.

وأتى المختار بانطلاقه، فقال: كلا، أن في عنقه سلسلة سترده، لو جهد ان ينطلق ما استطاع، وأصبح المختار فبعث اليه أبا عمرة، وأمره أن يأتيه به، فجاءه حتى دخل عليه فقال: أجب الأمير، فقام عمر، فعثر في جبة له، وضربه بسيفه ابو عمرة، فقتله، وجاء برأسه في أسفل قبائه حتى وضعه بين يدي المختار، فقال المختار لابنه حفص بن سعد وهو جالس عنده: أتعرف هذا الرأس؟ فاسترجع وقال: نعم، ولا خير في العيش بعده، قال له المختار: صدقت، فانك لا تعيش بعده، فأمر به فقتل، وإذا رأسه مع رأس ابيه.

ثم ان المختار قال: هذا بحسين، وهذا بعلي بن حسين ولا سواء، والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله»^(١).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٦٤-٤٦٥. وقد ورد في بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٣٧٨، ان عمر بن سعد لما علم بما قاله المختار عنه «.. عزم على الخروج من الكوفة، فأحضر رجلاً من بني تيم اللات اسمه مالك، وكان شجاعاً، وأعطاه اربعمائة دينار، وقال: هذه معك لحوائجنا، وخرجا، فلما كانا عند حمام عمر أو نهر عبد الرحمن، وقف وقال: أتدري لم خرجت؟ قال: لا. قال: خفت المختار، فقال: ابن دومة؟! يعني المختار، فقال: ابن دومة أضيق استأمن أن يقتلك، وان هربت هدم دارك، وانتهب عيالك ومالك، وخرب ضياعك وأنت أعز العرب، فاغتر بكلامه فرجعا على الروحاء فدخلوا الكوفة مع الغداة.. هذا قول المربزباني، وقال غيره: ان المختار علم بخروجه من الكوفة

وبذلك انتهت حياة عبد ذليل من عبيد دولة الظلم الأموية، وما كان التاريخ سيلتفت اليها ولا أن تذكر، لولا أن صاحبها اشترك بجريمة قتل الحسين وأصحابه عليه السلام، وكان قائد الجيش الذي ارتكب هذه الجريمة، وقد ضاعت امنياته هباء بعد أن لم يف له أميره بما وعده به، ولم تدم حياته أكثر من المدة التي دامت بها حياة سيده يزيد، إلا أياماً معدودات، ولم تكن أمرته إلا كلعقة الكلب أنفه.

فقال: وفينا له وغدر، وفي عنقه سلسلة لو جهد أن ينطلق ما استطاع، فنام عمر على الناقة فرجعت، وهو لا يدري حتى رده إلى الكوفة، فأرسل عمر ابنه إلى المختار، قال له: أين أبوك؟ قال في المنزل، ولم يكونا يجتمعان عند المختار، وإذا حضر أحدهما غاب الآخر خوفاً أن يجتمعا فيقتلها» ولم يغنهما ذلك شيئاً إذ قتلها المختار جميعاً.

شمر بن ذي الجوشن الضبابي

الكلب الأبقع الذي بلغ في دماء أهل البيت

شخصية شمر من الشخصيات التي تتكرر وتلوح أمامنا دائماً كصورة بشعة تجسد الجريمة والشر، وإذا ما ارتبط شمر بابن زياد في وقت احتاج فيه هذا الأخير إلى تحشيد كل طاقات الشرور لتنفيذ جريمته، فإن شعوره بحاجة سيده إليه ورغبته فيه، جعله يتفوق في ادائه وفي شكل الانحياز المطلق وفي تصعيد وتأثر الشر في نفسه لتكون طاقة مرعبة تخيف حتى قائده- بالاسم- عمر بن سعد، وتسعر نار الجريمة في نفس من كان مستعداً لها من جند ابن زياد.

ويبدو أن شعور الامتنان والاندفاع التام لتنفيذ مخطط الجريمة، هو ما كان يراه واجباً عليه كرد على الاختيار السامي لسيده وملاحظته إياه وترشيحه قائداً بديلاً عن ابن سعد- اذا ما خطر لهذا أن يتخلى عن مهمته أو يتهاون فيها-.

ولعل ولاية الري الغنية بدت له هو الآخر قريبة المنال، أو لعل ولايات أخرى بدت أمام أنظاره، ومفتاحها الاقدام دون تردد على تنفيذ الجريمة.

وقد قال رسول الله ﷺ، ولعله ما قال ذلك الا عنه: «كأنني انظر إلى كلب أبقع يبلغ في دماء أهل بيتي»^(١)، فقد كان شمر مصاباً بالبرص، وكانت جرأته المروعة على الحسين عليه السلام، بداية لجرأة مستديمة على آل الرسول ﷺ وأتباعهم من المسلمين الحقيقيين.

(١) كنز العمال: رواه ابن عساكر ص ١٢٨.

لقد ناصبهم شمر العداء، أما لماذا؟ هل لسبب شخصي؟ أم لأمر اعتقده أو رأى انحاز فيه إلى جانب واتخذ موقفاً يدافع عنه حتى النفس الأخير؟ أم أنه كان أمر تجزّب وتحيز للاسياد- الذين رأى فيهم شمر اندفاعاً مستميتاً للحفاظ على مصالحهم فاندفع مثلهم واستمات؟

ولو أننا تمعنّا بحوادث تلك الفترة من التاريخ، لما رأينا أنه كان محسوباً من العلماء أو القادة أو الزعماء المرموقين، ولعله لم يكن الا أحد الذين بدلوا ولاءهم وآثروا خط معاوية المنحرف على خط الاسلام، وقد رويت لنا حادثة وقعت في صفين، حاول فيها الانتقام لنفسه من عدو ضربه على وجهه بالسيف^(١)، ومنها نعلم أنه ممن يحملون روحاً انتقامية عنيفة ولعل تطرفه بهذا المجال يشكل حالة مرضية قد يكون فيها مفتاح التعرف على شخصيته واكتشاف سبب اندفاعها في طريق الشر المدمر، وقد يكون السر الآخر وراء تلك الشخصية اصابته بمرض منفر يجعل المجتمع لا يخالط من يحمله ويتجنبه، كما يتجنب الطاعون، وهو البرص الذي أصيب به، ولعل سبب اندفاعه يعود إلى تغيير موقفه ومحاولة إثبات أنه تغير عن قناعة اراد البرهنة عليها بالاندفاع الالامحدود بخدمة من حسب أن له الغلبة والظفر، وهو أمر يحدث لمن يغيرون مواقفهم وخصوصاً إلى صف الظلم ليشبتوا لأسيادهم الظالمين أنهم تغيروا بعد قناعات وتدبر، وأنهم اذ ينحازون اليهم انما ينحازون إلى جانب الحق، ويحاولون ان يشبتوا ولاءهم الجديد

(١) «خرج ادهم بن محرز الباهلي من أصحاب معاوية إلى شمر بن ذي الجوشن... فاختلفا ضربتين، فضربه ادهم على جبينه فأسرع فيه السيف حتى خالط العظم، وضربه شمر فلم يصنع شيئاً، فرجع إلى عسكره فشرّب ماء وأخذ رمحاً، ثم أقبل وهو يقول:

إني زعيم لأخي باهلة بطعنة ان لم أصب عاجله
او ضربة تحت القنا والوغى شبيهة بالقتل او قاتله

ثم حمل على أدهم وهو يعرف وجهه، وأدهم ثابت له لم ينصرف فطعنه فوق عن فرسه، وحال أصحابه دونه فانصرف شمر وقال: هذه بتلك».

بممارسات وخدمات استثنائية يحاولون بها لفت الانظار إليهم^(١).

ولم يبرز شمر الا عند قدوم ابن زياد الكوفة إثر قدوم مسلم بن عقيل، وقد حاول التقرب اليه باعلان موالاته المطلقة للصف الأموي وكرهه للحسين وآل البيت عليهم السلام. وربما حسب ان فرصته قد حانت أخيراً لكي ينال حصّة مما يغدقه أسياده الامويون دون حساب على خدمتهم وأعوانهم ومواليهم، ويبدو أنه لم يكن من خطورة الشأن بحيث يتطلع إلى القرب من العرش ضمن حاشية ليزيد أو وجهاً مقرباً منه، ولعل لمرضه المنفر- اصابته بالبرص - أثره في شعوره أنه لن يساغ في المجالس الخاصة لاقطاب الحكم التي غالباً ما يسودها جو الترف والابتهاج والطرب والاقبال على الشراب واللذات، ولم يكن يطمع بأكثر مما يطمع به الكلب الذي يرمي اليه سيده باللقمة من بعيد فيرمي نفسه عليها فرحاً مسروراً، وحسبه أن سيده لم ينسه لأن له ساعة قد يحتاجه فيها لحراسته والدفاع عنه واقتناص فرائسه وطرائده.

وربما لم يستطع أن يحقق طموحه برؤية يزيد والقرب منه والحصول على ابتسامة رضا، الا عندما طار اليه فرحاً مع محفز بن ثعلبة وجماعة من أتباعه حاملين رأس الحسين ورؤوس أصحابه عليهم السلام «... ثم دخلوا على يزيد فوضعوا الرأس بين يديه وحدثوه...»^(٢)، بعدما كان قد طار فرحاً إلى ابن زياد بعيد واقعة الطف مع جماعة من رفاقه الاذلاء

(١) وقد حاول شمر التقرب من زياد عندما طلب هذا شهوداً ضد حجر بن عدي، وقد تطوع مع مجموعة كبيرة لهذه الشهادة الكاذبة... وكان ضمن الشهود مجموعة ممن شاركوا بالمجزرة الوحشية في كربلاء مثل عمر بن سعد وكثير بن شهاب وشبث بن ربعي والققعاق بن شور وحجار بن أبجر وعمرو بن الحجاج ومحفز بن ثعلبة وزحر بن قيس وغيرهم... وقد شهدوا «ان حجر بن عدي خلع الطاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة ودعا إلى الحرب والفتنة، وجمع اليه الجموع يدعوهم إلى نكت البيعة وخلع أمير المؤمنين معاوية، وكفر بالله عز وجل كفره صلعاء» الطبري: ج ٣ ص ٢٢٦.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٣٧ والطبري: ج ٣ ص ٣٤٠.

حاملين اليه الرؤوس الشريفة.

خادم جديد وطاقة كبيرة للشر.. اخلاص مفتعل وحقد أصيل

ولو تتبعنا سير الاحداث منذ دخول مسلم الكوفة.. لوجدنا أن شمراً قد ظهر مع حاشية ابن زياد عند محاصرة مسلم القصر، وقد طلب ابن زياد منه أن يخرج مع بقية اشراف الكوفة مثل كثير بن شهاب والقعقاع الذهلي وشبث بن ربعي وحجار بن أبجر فيسيرون في الكوفة ويخذّلون الناس عن مسلم ويخوفونهم الحرب ويحذرونهم عقوبة السلطان، ويرفعون راية أمان لمن يتخلى عن مسلم ويلتحق بهم^(١).

ويبدو أنه بذل جهوداً استثنائية بهذا المجال، جعلت ابن زياد يثق به ويقربه ويجعله مستشاره في تلك الفترة الدقيقة الواقعة بين استشهاد مسلم واستشهاد الحسين (عليه السلام) وبعيد ذلك عند مرافقته الرؤوس الشريفة وقافلة الاسرى إلى دمشق، كان شمراً خادماً نموذجياً تطوع في جيش دولة الظلم، وكان كرهه الواضح للحسين (عليه السلام) بشكل متميز، جعل الانظار تتجه اليه كمجند لهذه الغاية فقط وكمستमित من أجل تحقيق الغلبة لسيده، وبهذا وحده كان معروفاً من الجميع، حتى من قبل عمر بن سعد، قائد الجيش المتردد الذي كان يكره الحسين (عليه السلام) دون شك، وكان يريد يقتله التقرب من رئاسة السلطة وأعلن استعداده لذلك وذهب في النهاية لينفذ الأوامر، ومع ذلك فقد كان يأمل أن تنتهي المسألة وأن يستسلم الحسين (عليه السلام) عندما يجد نفسه في ذلك الموقف الدقيق بمواجهة جيشه الضخم، ومع ذلك فان كرهه المعلن للحسين (عليه السلام) ما كان يفوق ما ابداه شمراً، وقد قال له في احدى المناسبات عند وفوده عليه من قبل ابن زياد، وبعد تحريضه

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي - مؤسسة الوفاء - بيروت لبنان ج ٤٤ ص ٣٤٩ ط ٣ - ٩٨٣ والطبري: ج ٣ ص ٢٨٧ ، والكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٢٧٢ والارشاد للمفيد ط ١ ايران ص ١٩٣ ونهاية الأرب: ج ٢ ص ٣٩٨ - القاهرة.

اياه بعدم الاستجابة لطلب الحسين عليه السلام بالرجوع، والطلب منه أن يستسلم وينزل على حكمه «مالك ويليك، قبح الله ما جئت به. والله اني لأظنك أنت ثنيته ان يقبل ما كنت كتبت اليه به. أفسدت علينا أمراً كنا رجونا أن يصلح، والله لا يستسلم الحسين أبداً، والله أن نفساً آبية لبين جنيبه»^(١).

ومهما يكن من أمر صحة هذه الرواية، التي ربما اريد بها تحميل شمر وحده مسؤولية الجريمة في النهاية وتبرئة الآخرين الذين أريد لهم أن يظهروا بصورة المخدوعين أو المترددين أو المجبرين على اتخاذ الموقف الذي وقفوه، فلا شك ان محصلة اعمال شمر في تلك الفترة الدقيقة، كانت تنبئ عن وجود طاقة هائلة للشر بين جنيبه، وقد جعل مهمته الأساسية وغايته العليا قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام و(النجاح) بهذه المهمة و(الفوز) بمشاركة شخصية رجا أن ينال بها حظوة الدولة ورضاها حتى ولو كان الثمن الحصول على مجرد ابتسامة لا غير من ابن زياد أو يزيد، وكان هذا ما يرضيه ويسعده إلى أبعد حد.

كان يشع بالكراهية والشر - ان صح التعبير - وكان موقف الكراهية الثابت هذا حافظاً لثبات ابن زياد نفسه وعزمه على المضي في مهمته إلى النهاية، ان تطوعه في خدمة سيده، شجع ذاك (السيد) المستفيد من (قضيته) أصلاً للمضي في استثمار الموقف والافادة منه إلى أبعد حد، فلئن يجد (صاحب القضية) من يندفع معه في (قضيته) إلى أبعد حد فانه يجد في ذلك أيضاً عاملاً مشجعاً ومساعداً لكي لا يتهازل أو يتقاعس أو يتصرف بأقل من مستوى الحماس الذي يبيده المتطوع الذي لعله لا يجني ثمار مساعيه في النهاية الا أذى وتعباً وسوء مصير.

وقد أدى شمر دوراً آخر لعله كان مألوفاً وغير مستهجن في أوساط الاشراف، وهو دور العين أو الجاسوس. الذي قام به غيره - كما رأينا - وكان منهم عمر بن سعد

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤١٥ والطبري: ج ٣ ص ٣١٣.

الذي حسب أنه الوسيلة المثلى للتقرب من أقطاب السلطة.

التحريض على الجريمة

وربما حسب ابن سعد أن المسألة كانت قابلة للمساومة وإن الحسين عليه السلام قد يتنازل عن موقفه أو أن ابن زياد ربما يقبل بعودته إذا ما طلب ذلك، وذلك ما أشرنا إليه في غضون هذه الدراسة، وأشرنا فيه إلى التلفيق الواضح الذي ذكره ابن سعد حول طلب الإمام عليه السلام العودة من حيث أتى أو الذهاب إلى أحد الثغور أو الذهاب إلى يزيد لكي يضع يده في يده، وهو ما أثبتت الوقائع بطلانه وزيفه.

وقد زعم أن ابن سعد كتب حول هذه المطالب المزعومة إلى ابن زياد ظاناً أن الأمر قد حسم بها و«إن الله قد أطفأ النائرة، وجمع الكلمة وأصلح أمر الأمة»^(١) على حد تعبيره، وقد قيل أن ابن زياد قد قبل بهذه العروض المدعاة وقال:

«هذا كتاب رجل ناصح لأمره مشفق على قومه، وأراد أن يجيب ابن سعد بالقبول، فقام إليه شمر بن ذي الجوشن وقال: أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك؟ والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة، ولتكونن أولى بالضعف والعجز، فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه، فإن عاقبت وانت ولي العقوبة، وإن غفرت كان ذلك لك، والله لقد بلغني أن حسيناً وعمر بن سعد يجلسان بين العسكرين فيحدثان عامة الليل.

(١) وأغلب الظن أن ابن سعد أراد أن يعرض هذه الخيارات على الإمام الحسين عليه السلام ظاناً أنه لا بد أن يقبل بأي خيار يوافق هوى ابن زياد منها.. وقد سارع استناداً لما ظنه ذلك إلى كتابة الرسالة المزعومة إلى ابن زياد.. هذا إذا لم يكن أمر الرسالة قد لفق بعد ذلك لإلقاء تبعة الجريمة على ابن زياد وحده وهو الأمر الذي تحدثنا عنه بأسهاب وتفصيل في غضون هذه الدراسة.

فقال له ابن زياد: نعم ما رأيت! الرأي رأيك»^(١).

لقد عرف شمر هوى سيده، فأشار عليه بما يهوى، وعلم ابن زياد بحرص خادمه على متابعة كل ما يجري على الساحة، والا فهل كان يغيب عن عين ابن زياد ما كان يبدو لشمر ويراه؟ وهل لم يبلغه ما بلغ هذا الخادم المطيع من أمر الحسين عليه السلام وابن سعد واجتماعهما؟ ولعل ذلك عزز من مكانته لديه، وجعله يفكر باسناد مهام أكثر خطورة له.

حاول شمر دغدغة غرور ابن زياد، واضفى على كل ما يمكن أن يقوم به ثوباً من الشرعية المزيفة، سواء أقدم على القتل أو لم يقدم، وبذلك جعله يطمئن إلى صحة تصرفاته ويقدم على ارتكاب جريمته دون تردد، ومن المؤكد أن آخرين وقفوا نفس موقف شمر، الا أنهم ربما لم يكونوا بمستوى حماسه واندفاعه.

ومن الواضح ان شمرأً نجح في التقرب من ابن زياد بما أبداه من حماس ومتابعة دقيقة ومراقبة شاملة للموقف، وبما عرفه من ميول واستعدادات للشر والجريمة عند سيده، تقاربت مع ميوله واستعداداته، حتى لكأن الحسين عليه السلام استهدف دولته وسلطانته هو، لا دولة آل أمية التي لم يكن فيها في العير ولا في النفير.

مقرب جديد ومستشار موثوق

ويبدو ان شمرأً قد اشتهر في تلك الفترة بأنه من المقربين من ابن زياد ومن حاشيته وجواسيسه وربما كان أحد مستشاريه الموثوقين، ولعل ذلك جعل الناس تحشاه خشية شديدة وتحسب له حساباً كبيراً، وقد اتسع نطاق الخوف منه ليشمل حتى قائد الجيش

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٣، والكمال في التاريخ: ج ٣ ص ٤١٤، والارشاد: ص ٢١٢، والايضاد: ص ٥٦، وانساب الاشراف: ج ٣ ص ١٨٣، وبحار الأنوار: ج ٤٤ ص ٣٨٩-٣٩٠، ونهاية الأرب: ج ٢ ص ٤٣١، ومناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ٩٧.

نفسه، عمر بن سعد كما سنرى في غضون هذا البحث.

وقد اختاره ابن زياد مبعوثاً خاصاً له مضيفاً بذلك رصيذاً كبيراً له كصاحب شهرة معروفة بخدمة الدولة والانحياز إليها، وقد أثر أن يكون ممثله في ساحة المعركة وزوده بكتاب خاص إلى ابن سعد، وتعليقات خاصة أيضاً أتاحت له التصرف المطلق واستعمال كافة الوسائل لتحقيق الغلبة ومنع الجيش من التراجع حتى ولو اقتضى الأمر قتل ابن سعد قائد الجيش نفسه، وقد روى حميد بن مسلم أحد أصحاب ابن سعد المقربين، «إن عبيد الله بن زياد دعا شمر بن ذي الجوشن فقال له: اخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي فإن فعلوا فليبعث بهم إلي سلماء وإن هم أبوا فليقاتلهم فإن فعل فاسمع له وأطع وإن هو أبى فقاتلهم فأنتم أمير الناس وثب عليه فاضرب عنقه وابعث إلي برأسه.

كتب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد: أما بعد فإنني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ولا لتطاوله ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتقعد له عندي شافعاً، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلي سلماء وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون فإن قتل حسين فأوطئ الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم وليس دهري في هذا أن يضر بعد الموت شيئاً ولكن علي قول لو قد قتلتها فعلت هذا به إن أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا وخل بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر فإننا قد أمرناه بأمرنا»^(١).

ولا شك أن تعليقات ابن زياد للشمر قد سبقته إلى ابن سعد الذي كان يحشاه خشية شديدة كما كان - بنفس الوقت - يطمع أن يوليه ولاية الري، ولعله كان من أعلم الناس

بجرائته على القتل وسفك الدماء، والذهاب إلى حد التمثيل بالجثث.

الجريمة لا بد أن تتم... لِيُحْرَمَ شمر من الفوز؛ لا ولاكرامة، أنا أتولى ذلك

إن تعليماته بخصوص التمثيل بالجثث بعد قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام تدل على عزمه بالمضي في الجريمة إلى النهاية، مهما كان من أمر المنفذ المباشر، سواء أكان هو أو شمر، وقد علم ابن سعد بتصميم ابن زياد على اتمام جريمته، وكان يعلم عاقبة عصيانه، خصوصاً إذا ما كان القائد الجديد هو شمرأً، صاحب طاقات الشر الهائلة ومعتد ابن زياد الجديد.

ان رسالة ابن زياد تدل على أن ابن سعد كان يتمنى تنازل الحسين عليه السلام عن موقفه، ولم تدل على أن الحسين عليه السلام قد تنازل فعلاً وطلب وضع يده بيد يزيد، إذ لو كان قد فعل ذلك لحسنت المسألة وانتهت، ولما طلب ابن زياد من ابن سعد أن يدعو الحسين عليه السلام للنزول على الحكم أو الاستسلام، وهذا ما يؤيد بطلان مزاعم ابن سعد حول رغبة الحسين عليه السلام بالصلح أو الاستسلام، إضافة لما ذكرناه من وقائع وشهادات أخرى تثبت بطلان تلك المزاعم.

لقد أدرك ابن سعد أن شمرأً كان ينتظر جواباً سريعاً منه، وإن أية بادرة للتردد أو التباطؤ قد تعرضه للقتل خصوصاً وأنه في موضع دقيق ربما كانت فيه حركاته وسكناته موضع رصد ومراقبة من قبل عيني شمرأً الفاحصتين المدققتين.

ولم يحتمل الأمر - بنظره - مراجعة واستشارة أخرى، وكان عليه أن يبت في المسألة بشكل قاطع ونهائي والا سبق السيف إلى عنقه، وبدا ان آماله بتسوية المسألة قد انتهت إلى الأبد، وبدا كما لو انه كان محصوراً في زاوية ضيقة، وهذا ما أثاره وجعله يتهم شمرأً - بشكل خاص - بتحريض ابن زياد، وربما حسب أنه يفوت الفرصة عليه

إذا ما مضى بمهمته إلى النهاية، وحاول أن يبين أمام مرؤوسيه وتابعيه - ربما من باب رد الاعتبار - ان ما كان يجري هو نوع من النزاع الشخصي بينه وبين شمر، أو نوع من السباق والمنافسة الشخصية يثبتان فيه ولاءهما وإخلاصهما لدولة الظلم الاموية، ومن هنا كان غضبه البارد على شمر، وقوله له، عندما أقبل اليه بأوامر ابن زياد: «مالك، ويلك، لا قرب الله دارك، وقبح الله ما قدمت به علي، والله اني لأظنك أنت ثيتته أن يقبل ما كتبت به اليه، أفسدت علينا أمراً كنا رجونا ان يصلح، لا يستسلم والله حسين، إن نفساً أبيّة لبين جنييه.

فقال له شمر: أخبرني ما أنت صانع؟ أتمضي لأمر أميرك وتقتل عدوّه، والا فخلّ بيني وبين الجند والعسكر، قال: لا ولا كرامة لك، وانا أتولى ذلك دونك وكن أنت على الرجال.

فنهض اليه عشية الخميس لتسع مضين من المحرم»^(١).

ويبدو - من سياق الحوار - ان شمرًا لم يُعر غضبة ابن سعد أية أهمية، وربما لأنه لم يعره هو شخصياً أية أهمية، وبدا مصمماً على سماع رأيه الواضح وجوابه الصريح على رسالة أميره حالاً، وهو ما فعله ابن سعد، وكان رد فعله هو الاستجابة لرغبة أميره، وقد حرم شمرًا (كرامة) قيادة الجيش القاتل واسند إليه قيادة المشاة، وهو صنف قليل واطيء من أصناف الجند، وقد حسب بذلك أنه ينكل به أو يهينه، ولم يحسب أن الشمر قد ظن نفسه منتصراً عليه عندما أجبره على الاستجابة الفورية لأمر سيده والبدء بالقتال حالاً، وأية أهمية كان شمر سيعيرها لأية اهانة، إذا ما أبدى استعداد المعلن للخضوع وتنفيذ أي أمر يفرح له أسياده.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٣، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤١٤ وتراجع المصادر السابقة.

محاولة لشق صف أصحاب الحسين عليه السلام

على أن دوراً خبيثاً حاول شمر لعبه مع ابن زياد، وهو محاولة شق صف أصحاب الحسين عليه السلام وتفريقهم عنه، وقد كانت بداية المحاولة مع العباس وإخوته عليهم السلام الذين فوتوا عليه الفرصة باصرارهم على البقاء إلى جانب قائدهم وإمامهم، وكان نجاح تلك المحاولة كفيلاً بجعل ابن زياد بل وحتى يزيد نفسه وكل أقطاب الحكم ومسانديه يطيطون فرحاً، إذ يتمكنون من استغلال تلك الفرصة وتعزيز موقفهم (وشرعية) اقدامهم على قتل الحسين وبقية أصحابه وسيقولون: انظروا إلى العباس وإخوته، أليسوا هم أولاد علي بن أبي طالب أيضاً؟ انظروا اليهم كيف تخلفوا عن الحسين وكيف تركوه بعد أن بان لهم شرعية خلافة يزيد وخطأ الحسين بالخروج عليه.

انهم سيجعلون من ذلك وسيلة اعلامية يشوشون بها الأذهان حول مشروعية الثورة، كما حاولوا بالفعل، مستغلين قعود العديدين من أقارب الحسين عليه السلام وبعض وجهاء المسلمين والصحابة وعدم مشاركتهم بالثورة لتمرير كل أكاذيبهم ومخططاتهم وردع كل من يحاول الخروج على سلطانهم وحكمهم.

«لما قبض شمر بن ذي الجوشن الكتاب قام هو وعبد الله بن أبي المحل وكانت عمته أم البنين ابنة حزام عند علي بن أبي طالب عليه السلام فولدت له العباس وعبد الله وجعفر وعثمان، فقال عبد الله بن أبي المحل بن حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب: أصلح الله الأمير إن بني أختنا مع الحسين فإن رأيت أن تكتب لهم أماناً فعلت، قال: نعم ونعمة عين فأمر كاتبه فكتب لهم أماناً فبعث به عبد الله بن أبي المحل مع مولى له يقال له كزمان، فلما قدم عليهم دعاهم فقال هذا أمان بعث به خالك فقال له الفتية: أقرئ خالنا السلام وقل له أن لا حاجة لنا في أمانكم أمان الله خير من أمان

ابن سمية»^(١).

ويبدو أن عبيد الله بن زياد وجد أنها كانت فرصة طيبة تتاح له عندما يتقدم عبد الله بن أبي المحل بطلبه الامان للعباس وأخوته. لتفريق صف الحسين (عليه السلام)، كما أسلفنا. وقد حاول شمر الاستفادة من هذا الأمر الذي رفضه العباس وأخوته بحسم معلنين وقوفهم النهائي مع الحسين (عليه السلام) قائلين: لا حاجة لنا في أمانكم، أمان الله خير من أمان ابن سمية.

وهو جواب من شأنه أن يثير ابن زياد إلى أبعد حد، كما أن من شأنه أن يثير شمرًا ويجعله أكثر شراسة وتصميماً على تنفيذ المذبحة، غير أنه وجد أن الامر يستحق بذل محاولة أخرى لعزل العباس وأخوته، وأراد استغلال قرابته البعيدة منهما- إذ أنه كان كلاهما ينتمي لقبيلة أمهم- للتأثير عليهم.. لذلك فإنه جاء «وقف على أصحاب الحسين فقال أين بنو أختنا فخرج إليه العباس وجعفر وعثمان بنو علي فقالوا له: مالك وما تريد؟ قال: أنتم يا بني أختي آمنون، قال له الفتية: لعنك الله ولعن أمانك لأن كنت خالنا أتؤمنا وابن رسول الله لا أمان له؟»^(٢).

وبوقفتهم الرسالية الحاسمة وجوابهم الواضح فوتوا عليه الفرصة ثانية لكي يشق صفهم ويفرقهم ويعزلهم عن أخيه وقائدهم.

ولا نحسب أن شمرًا كان يستطيع هضم تلك الالهانة دون أن يرد عليها ردًا مصبوغاً بالدم، وكان انزعاجه وتوتره عاملاً لتوتر الجيش كله.. فمبعوث ابن زياد جاء ليدق ناقوس الحرب ويعد حمام الدم، ولا يهمله ان كان في عداد الضحايا (أبناء أخته)

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤، والمصادر السابقة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤، والمصادر السابقة.

أنفسهم الذين ادعى الحرص على حياتهم خصوصاً وأنهم واجهوه بذلك الأسلوب الشديد الذي كان حرياً أن يخجل منه وان يطأطأ له رأسه، وحرموه من رؤيتهم مستسلمين خاضعين اذلاء بين يدي ابن زياد، ومن رؤية الحسين عليه السلام وحيداً دون أهل بيته وصفوة أصحابه.

شمر.. القائد الحقيقي لجيش ابن زياد

كان ابن سعد يرى طاقة الشر الهائلة في شمر ولعله كان يخافه أشد الخوف ويحذره أشد الحذر، خصوصاً بعد أن زوده ابن زياد بصلاحيات خاصة تتيح له قتله نفسه إذا ما تردد أو تخاذل أو جبن، وبدا مبعوث ابن زياد هو القائد الحقيقي للجيش بنظر القائد الذي لم يكن يملك حرية التصرف الا بمشاورته واستحصل موافقته.

فعندما نادى ابن سعد الجند للركوب والحرب وزحف نحو الإمام عليه السلام بعد صلاة العصر من يوم التاسع، استجابة للأوامر المفاجئة من ابن زياد والتي حملها شمر إليه، بعث الامام أخاه العباس ليردهم عنه تلك العشيّة حتى يأمر بأمره ويوصي أهله، «فلما أتاهم العباس بن علي بذلك، قال عمر بن سعد: ما ترى يا شمر؟

قال: ما ترى أنت فقال: أنت الأمير والرأي رأيك، قال: قد أردت الا أكون»^(١).

ولعل شمرأ لو أمر ابن سعد بالهجوم في تلك اللحظة لفعل، الا أن جوابه ربما كان قد جعله يشعر بالحياء من بقية قادة جيشه الذين وجه اليهم السؤال نفسه، وقد اشاروا عليه بتأجيل القتال، وقد فعل وأرسل مبعوثه يبلغ الإمام عليه السلام بذلك.

كان شمر على ميسرة ابن سعد الذي تناسى أمره السابق بجعله على الرجالة، ولم يشأ شمر ان يكون (كالمقاتلين) الآخرين، بل أراد أن يظهر (لمساته ومبادراته) الشخصية في

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤، والمصادر السابقة.

التصدي لآل البيت، لعل حماسه الاستئصال الذي يحاول به تصعيد حماس الجيش ضد الحسين وأصحابه يصل صده إلى اسماع سادته في الكوفة والشام، فتحسن حاله عندهم ويكون من مقريهم وحاشيتهم.

فعندما أمر الحسين عليه السلام باضرام النار في الحطب والقصب وراء معسكره لثلايباغت من الخلف، أقبل شمر يركض على فرس كامل الاداة، فلم يكلم أصحاب الحسين حتى مر على الايبات، فنظر إلى الأبيات «إذا هو لا يرى الا حطباً تلهب النار فيه، فكرّ راجعاً، فنادى بأعلى صوته: يا حسين، استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة، فقال الحسين: من هذا؟ كأنه شمر بن ذي الجوشن، فقالوا: نعم، فقال: يابن راعية المعزى، أنت أولى بها صلياً.

فقال له مسلم بن عوسجة: يا بن رسول الله، جعلت فداك، الا أرميه بسهم، فإنه أمكنني، وليس يسقط مني سهم، فالفاسق من أعظم الجبارين.

فقال له الحسين: لا ترمه، فإني أكره أن أبدأهم»^(١).

أتري أن أوامر صريحة صدرت إلى شمر من ابن زياد أو ابن سعد، ليكون أول من يأتي صوب معسكر الحسين عليه السلام ويخاطبه بذلك الأسلوب اللفظ الذي عرف به..؟ أم أنها مبادرة شخصية منه يحاول فيها اشعار الناس بانحيازه التام لدولة الظلم ورموزها الفاسده؟

ولعل شمرأ كان يحسب نفسه - بهذا القول الذي وجهه للإمام عليه السلام بوقاحة- قد تحد بلغ منتهى الطرف وغاية البلاغة، وهو يحتمل أنه كان يوجه كلامه إلى أناس مكسورين مغلوبين، ولعله كان يريد اقناع نفسه وأصحابه أنهم كانوا على حق ما داموا

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٨.

في طاعة أميرهم، وإن الحسين وأصحابه على باطل ما داموا قد رفضوا هذه الدولة الظالمة والاستجابة لسلطانها.

وقد ظل شمر سادراً بمحاولاته الشيطانية في التصدي للحسين وأصحابه في كل المواقف محاولاً محو الآثار التي تتركها خطبهم وتحديثها في نفوس أفراد الجيش المعادي. فبعد خطبة بليغة للإمام (عليه السلام) فيهم «حمد الله وأثنى عليه، وذكر الله بما هو أهله وصلى على محمد صلى الله عليه وعلى آله وعلى ملائكته وأنبيائه، فذكر من ذلك ما الله أعلم وما لا يحصى ذكره»^(١)، ثم عرفهم بنفسه ومركزه من رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقوله (صلى الله عليه وآله) فيه وفي أخيه «هذان سيدا شباب أهل الجنة» وطلب منهم سؤال بعض الصحابة المعروفين عنه إن كانوا في شك من أمره بفعل الاعلام الأموي المضلل، وتساءل بعد ذلك: «أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟»^(٢).

وكان من المحتمل أن تغير هذه الخطبة مجرى الأمور، وقد ينضم اليه العديدون من أفراد الجيش - كما فعل بعضهم فعلاً أمثال الحر وجماعة معه - لولا مقاطعة شمر له إذ قال كالمستهزئ: «هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما يقول»^(٣) يريد بذلك تكذيب الإمام (عليه السلام) ومنع الآخرين من الاستجابة لخطابه.

ظاهرة (شمر) .. تلفت الانظار دائماً

وقد لفت ظاهرة شمر هذه وتصرفاته المتحيزة إلى جانب ابن زياد نظر أصحاب الحسين (عليه السلام)، كما أنها لا بد أن تكون قد لفت أنظار أصحاب ابن سعد، «فقال له حبيب بن مظاهر: والله إنى لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنك صادق ما

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٩، والمصادر السابقة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٩، والمصادر السابقة.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣١٩، والمصادر السابقة.

تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك»^(١).

وقد أكمل الإمام عليه السلام خطبته وأمر عقبة بن سميان ففعل ناقتة، مصمماً على القتال إلى النهاية.

ولعل شمراً كان مسروراً بتقريع هانيء له وإهانته إياه، وربما كان يحسب أنه ينبغي أن يتحمل ذلك في سبيل أسياده ومصالحهم وعرشهم، ولم تنه هذه الإهانة من التعرض ثانية لزهير بن القين عندما خرج على فرس له ذنوب، شاكٍ في السلاح منذراً إياهم من عذاب الله ونصرة الحسين وخذلان عبيد الله بن زياد «فرماه شمر بن ذي الجوشن بسهم وقال: أسكت، أسكت الله نأمتك، ابرمتنا بكثرة كلامك، فقال له زهير: يا ابن البوال على عقبه، ما اياك أخاطب، إنما أنت بهيمة، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فابشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

فقال له شمر: ان الله قاتلك وصاحبك عن ساعة.

قال: أفبالموت تخوفني؟ فوالله للموت معه أحب إليّ من الخلد معكم، ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال: عباد الله، لا يغرنكم من دينكم هذا الجلد الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمد عليه السلام قوماً هرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبّ عن حريمهم»^(٢).

كان زهير يدرك الدور التحريضي الذي لعبه شمر، وقد عرّفه لهم بأنه بهيمة لا يحكم من كتاب الله آيتين وأنه جلد جافٍ لا ينبغي أن يكون قدوة لهم.

ولم يجد شمر ما يرد به على زهير سوى تهديده بالموت، مستخدماً نفس أسلوب

(١) تراجع نفس المصادر السابقة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠.

سأدته، بأن ما سيجري على الحسين وأصحابه عليهم السلام إنما هو بمشيئة الله، وكأن المشيئة الإلهية مرهونة بتصرفاتهم وعيبتهم.

وقد اندفع بعد ذلك في المسيرة على أهل الميسرة من أصحاب الحسين «فثبتوا له فطاعنوه وأصحابه، وحمل على الحسين وأصحابه من كل جانب»^(١) وقد قتل جماعة من أصحاب الحسين في تلك الحملة.

كان شمر يعزز رصيده في التصدي المحموم للحسين وأصحابه في كل مرة يتاح له فيها ذلك، وكان يعمل بشتى السبل وكأنه (يستثمر) الوقت، بل كل دقيقة وكل ساعة منه ليحقق (انجازاً) يرضي أسياده إذا ما وصل إلى مسامعهم، فلم يكتف بما فعله من تحريض على الحسن وأصحابه عليهم السلام، بل ذهب إلى حد اصدار أوامره لقتل امرأة أحد الشهداء الذين كانوا يقاتلون بين يدي الحسين عليه السلام وهي امرأة الكلبي. «خرجت امرأة الكلبي تمشي إلى زوجها حتى جلست عند رأسه تمسح عنه التراب وتقول: هنيئاً لك الجنة.

فقال شمر بن ذي الجوشن لغلام يسمى (رستم): اضرب رأسها بالعمود، فضرب رأسها فشدخه، فماتت مكانها»^(٢).

لقد استفزه منظر تلك المرأة الباسلة التي جاءت تودع زوجها في ساحة المعركة الوداع الأخير وتصب في أذنيه كلمة المواساة الصادقة وتبشره بالجنة، وقد علمت أن ما فعله هو الصواب، وربما رأى شمر في فعلها ذاك وخروجها إلى ساحة المعركة تحدياً شخصياً له، ففعلها نقيض فعله تماماً، انها تنحاز بشكل تام، طوعي واختياري إلى جانب الحسين عليه السلام وهو ينحاز بشكل تام إلى جانب ابن زياد، وربما أثر موقفها على أفراد

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٥.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٦ وتراجع بقية المصادر السابقة.

الجيش، وربما انقلبوا أو انقلب بعضهم وانحازوا إلى جانب الحسين عليه السلام هم أيضاً، وكان التفكير بذلك يقلقه ويخيفه إلى أبعد حد.

وقد أتبع شمر فعلته المشينة تلك بفعله مشينة أخرى، اذ حمل «حتى طعن فسطاط الحسين برمح، ونادى: عليّ بالنار حتى احرق هذا البيت على أهله. فصاح النساء وخرجن من الفسطاط.

وصاح به الحسين: يابن ذي الجوشن، أنت تدعو بالنار لتحرق بيتي على أهلي، حرّق الله بالنار»^(١).

فهل كانت المعركة بين الحسين عليه السلام وبين شمر وحدهما؟ وهل كانت العداوة شخصية حتى يقدم شمر على سابقته الخطيرة تلك ويأمر بحرق الخيام؟ حتى أنه يطلب النار ليحرق الخيام بنفسه.

لا شك أن موقف شمر يستحق الدراسة والاهتمام؛ لأننا نجد على أعتاب الظلّمة والطغاة ظواهر معادة مكررة من شمر، ونسخاً منه نهجت نفس منهجه في الشر والجريمة دون أن تؤمر بذلك ودون أن تصدر إليها تعليمات بالتفاصيل التي (تبدعها). وقد روي عن حميد بن مسلم، أحد أعوان ابن سعد ومرافقيه، قوله لشمر: «سبحان الله، ان هذا لا يصلح لك أتريد ان تجمع على نفسك خصلتين؟ تعذّب بعذاب الله، وتقتل الولدان والنساء؟ والله إن في قتلك الرجال لما ترضي به أميرك»^(٢).

لقد أوجز حميد بن مسلم أمراً كان ينبغي على شمر وأشباهه أن يفهموه وأن لا يتعادوا في جرائمهم إلى أبعد حد: «ان في قتلك الرجال لما ترضي به أميرك»، فهو قد

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٦.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٦.

أُرْسِلَ لمهمة محددة: قتل الحسين وأصحابه، أما أن يتهاذى إلى الحد الذي يريد به حرق البيوت وقتل النساء والأطفال، فهو أمر أراد أن تبدو عليه لمساته وبصماته الشخصية لتحسّن صورته عند أميره ليقربه أو يغدق عليه الأموال، وهو ما لم يؤمر به من قبل هذا الأمير، أليس هذا ما يفعله أشباه شمر إلى يومنا هذا؟

ويبدو أن حميد بن مسلم قد لمس وتراً حساساً في قلب شمر، وأوجز بعبارة تلك ظاهرة اجتماعية متدنية وحالة سفلى لم يرد شمر أن يعترف بها، كما لا يريد من هم على شاكلته الاعتراف بها أيضاً^(١)، وقد تساءل شمر - في غمرة غيظه منه - من ترى يكون هذا المشير «فقال: من أنت، قلت أو القول لحميد بن مسلم، لا أخبرك من أنا: قال: وخشيت والله لو عرفني أن يضربي عند السلطان»^(٢) والا فهل يستطيع أحد تقديم النصح لامثال هؤلاء دون أن يشوا به عند السلطان؟

وقد حاول شيب بن ربعي - الذي كان من أعوان أمير المؤمنين عليه السلام وانحاز بعد ذلك إلى معاوية وكان ممن راسلوا الحسين عليه السلام وطلبوا منه القدوم ثم انضم لجيش ابن سعد - أن يشني شمرأً عن محاولة حرق البيوت، وقد استغل موقعه كقائد في الجيش المعادي للحسين عليه السلام وأحد أعدائه البارزين وكاد أن ينجح في مهمته مع شمر قال له: «ما رأيت مثلاً أسوأ من قولك، ولا موقفاً أقبح من موقفك، أمرعبا للنساء صرت؟

(١) كان شمر يدرك الحد الأدنى المطلوب منه، لكنه لم يكتف بهذا الأدنى وإنما أراد أن يستعرض انحيازه أمام الآخرين وخصوصاً أمام سادته، بعمل لم يؤمر بعمله أصلاً.. وبالتأكيد لم يكونوا معنيين بحرق البيوت وقتل الأطفال والنساء ولم يكن همهم سوى قتل الحسين عليه السلام، لذلك فإن أعمال شمر هذه قد أراد يدلل بها أنه يتبنى مواقف أسياده لا لأنهم أمروه بذلك، ولكن لقناعته الشخصية التامة بها، وكان بهذه التصرفات المضافة إلى تصرفات أمثاله من الجبناء والمهزومين يتيح هؤلاء الأسياد فرصة التهاذي في انحرافهم وظلمهم إلى أقصى حد...

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٦ وتراجع المصادر السابقة.

قال: والقول لا يزال حميد بن مسلم، فأشهد أنه استحي، فذهب لينصرف»^(١).. ويبدو أنه لم يفعل ذلك طواعية، وإنما رده أصحاب الحسين عليه السلام بقوة وأجبروه على التراجع... إذ «حمل عليه زهير بن القين في رجال من أصحابه عشرة فشد على شمر بن ذي الجوشن وأصحابه فكشفهم عن البيوت حتى ارتفعوا عنها فصرعوا أبا عزة الضبابي فقتلوه فكان من أصحاب شمر، وتعطف الناس عليهم فكثروهم فلا يزال الرجل من أصحاب الحسين قد قتل فإذا قتل منهم الرجل والرجلان تبين فيهم وأولئك كثير لا يتبين فيهم»^(٢).

انحياز تام للشر

فقد كان هجوم شمر على مخيم الحسين عليه السلام بداية القتال الفعلية، إذ لم تجر قبل ذلك سوى مناوشات طفيفة قتل فيها بعض أصحاب الحسين - رضوان الله عليهم - أما بعد هجوم شمر فقد بدأ الهجوم الواسع الذي قتل فيه كل أصحاب الحسين الآخرين.

وعندما بقي الحسين عليه السلام وحيداً بعد أن قتل أصحابه وأصيب بجراحات عديدة أقبل شمر بن ذي الجوشن «في نفر نحو من عشرة من رجاله أهل الكوفة قبل منزل الحسين الذي فيه ثقله وعياله، فمشى نحوه، فحالوا بينه وبين رحله، فقال الحسين: ويلكم ان لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون يوم المعاد، فكونوا في أمر دنياكم أحراراً ذوي أحساب، أمنعوا رحلي وأهلي من طغامكم وجهالكم.

فقال ابن ذي الجوشن: ذلك لك يا بن فاطمة.

وأقدم عليه بالرجالة منهم أبو الجنوب، والقشعم الجعفي وصالح اليزني وسانان

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٦ وتراجع المصادر السابقة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٣ وتراجع المصادر الأخرى.

ابن أنس النخعي، وخَوَلِي بن يزيد الأصبحي، فجعل شمر بن ذي الجوشن يحرضهم، ثم أن شمر بن ذي الجوشن أقبل في الرجالة نحو الحسين؟ فأخذ الحسين يشد عليهم فينكشفون عنه، ثم إنهم أحاطوا به إحاطة^(١).

لم يرد الامام أن يطلب منهم باسم الاسلام أن يمنعوا رحله وأهله من طغامهم وجهالهم، اذ لم يكن لهم دين ولم يكونوا ممن يخاف يوم المعاد، بل أراد استنهاض البقية الباقية مما قد يميلون إلى التفاخر بالحب والشهامة التي عرف بها العرب ليمنعهم بذلك عما تأنف العرب منه قبل أن يعرفوا الاسلام ويدينوا به.

ولعل ابن ذي الجوشن حسب أنه باستجابته لطلب الحسين ﷺ ومخاطبته أياه بابن فاطمة أنه كان يتنازل فيسلك سلوك الاحرار، وأنه كان يقلل من قيمة الإمام ﷺ وكأنه لم يكن يعلم من هي فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، كان يدين نفسه اذ يذكرها في هذا المقام، وهي من هي في شرفها وعلو مكانتها ونسبها، لقد تولى شمر مهمة التحريض على قتل الحسين، وتولى قيادة قتلته، ولعل أحداً غيره ما كان ليجرأ على قتله لو لم يقم شمر بهذه المهمة.

جبن وغدر

ويكشف لنا حوار بين شمر وأحد رجاله، أبي الجنوب، عن جبنه وغدره واستعداده لللدس عند سيده، حتى على من آزره بمهمته القذرة تلك؟ «مرّ بابي الجنوب وهو شاكٍ في السلاح فقال له: أقدم عليه.

قال: وما يمنعك أن تقدم عليه أنت؟

فقال له شمر: ألي تقول ذا؟

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٣ وتراجع المصادر الأخرى.

قال: وأنت لي تقول ذا؟ فاستبأ.

فقال له أبو الجنوب وكان شجاعاً: والله لهمت أن أخضخص السنان في عينك، فانصرف عنه شمر وقال: والله لئن قدرت على أن أضرك لأضرنك»^(١).

وكيف يستطيع أن يضره، ان لم يكن بالنميمة والوشاية، وهو ما بدا على استعداد لفعله دائماً.

وعندما أصيب الإمام عليه السلام أصابات بالغة وسقط على الأرض لم يقترب منه أحد «ولقد مكث طويلاً من النهار، ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا، ولكن كان يتقي بعضهم ببعض، ويجب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء»^(٢) فقد أدركوا أنهم كانوا يقدمون على أكبر جريمة بحق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحق الاسلام، وان من سيضع اللمسات الأخيرة لها سيجل بالخزي والعار إلى الأبد.

وكان لا بد من رجال أمثال شمر يقومون بارتكاب جريمة قتل الحسين عليه السلام، «فنادى شمر في الناس: ويحكم ما تنظرون بالرجل، اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم، فحمل عليه من كل جانب»^(٣) فجرأ الناس عليه بذلك وكان هو في مقدمتهم اذ نزل اليه «فضربه برجله، والقاءه على قفاه ثم أخذ بكريمته المقدسة، فضربه بالسيف ثم حز رأسه ودفعه إلى خولي بن يزيد»^(٤).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٣.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٣.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٤ وتراجع بقية المصادر السابقة، وقيل ان الذي نادى في الناس هو عمر ابن سعد، ولا تناقض في الحالين فربما ناديا كلاهما بهذا النداء وحرصا الناس على الحسين عليه السلام.

(٤) مقتل الحسين: للخوارزمي: ج ٢ ص ٣٦ وبحار الأنوار: ج ٤٥ ص ٥٦ وقد ذكر الطبري والبلاذري: ان الحسين عليه السلام حين قتل وُجِدَ به ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة وقد أورد الطبري: ج ٣ ص ٣٣٤ والنويري: ٢٠ - ٤٥٢ وبعض المؤرخين أن الذي حمل على الحسين عليه السلام

وقد روي أن شمرًا كان في لحظات قيامه بجريمته - وهو يرى الحسين (عليه السلام) يلوك بلسانه من شدة العطش - يستهزئ بحوض النبي (صلى الله عليه وآله) الذي حدث عنه^(١)؛ كما روي أنه كان يقوم بجريمته وهو يردد كلمات يؤكد فيها معرفته بالحسين (عليه السلام) ومنزلته عند الله ورسوله (صلى الله عليه وآله)، وكان مصرًا على انتهاك حرمة الرسول (صلى الله عليه وآله) وحرمة الاسلام، بقتله بتلك الطريقة البشعة.

القتل.. ثم القتل

ولم يكتف شمر بجريمته هذه، وأراد الاقدام على جريمة كبيرة أخرى وهي قتل الامام علي بن الحسين بن علي (عليه السلام) (الامام زين العابدين)، وكان مريضاً «وهو منبسط على فراش له، وإذا شمر بن ذي الجوشن في رجالة معه يقولون: الا نقتل هذا؟ فقلت -أو القول حميد بن مسلم أيضاً-: سبحان الله، اتقتل الصبيان، وإنما هذا صبي.

فما زال ذلك دأبي ادفع عنه كل من جاء»^(٢).

ذهب شمر مع هوازن بعشرين رأس من رؤوس اصحاب الحسين (عليه السلام) بما فيها رأسه الشريف وقد حسب ان الدنيا ستقبل عليه وان أبواب أسياه ستظل مفتوحة أمامه إلى الأبد.

وربما اراد ابن زياد أن يكافئه بدوره فأرسله مبعوثاً عنه إلى يزيد مع محفز بن ثعلبة

وهو في تلك الحال سنان بن انس النخعي «قطعنه بالرمح فوق... فنزل اليه فذبحه واحتز رأسه، ثم دفع إلى خولي بن يزيد، وقد ضرب قبل ذلك بالسيوف» غير أن الاشهر هو قيام شمر بذبحه رغم أنه كان يستطيع تكليف من يقوم بالمهمة نيابة عنه وهو ما أراد إظهاره لأسياه من انحياز كامل اليهم وتفانٍ في خدمتهم للأسباب التي ذكرناها في هذه الدراسة.

(١) وردت أحاديث بشأن الحوض وأشرنا إليها في هذه الدراسة.

(٢) الطبري ج ٣ ص ٣٣٥، وتراجع بقية المصادر، وقد ورد في تاريخ القرمان: ص ١٠٨ (انها هو مريض).

العائذي مع النساء والصبيان وقد «أمر بعلي بن الحسين فَعُلَّ بَعْلٌ إلى عنقه؟ فانطلقا بهم حتى قدموا على يزيد، فلم يكن علي بن الحسين يكلم أحداً منهما في الطريق كلمة حتى بلغوا»^(١).

عودة إلى الخمول.. بعد ظهور مؤقت

ولم يذكر لنا أحد من المؤرخين أن شمراً التقى بيزيد أو كلمه، ولم يُذكر إلا خبر عن تقريب يزيد لمحفر بن ثعلبة صاحب شمر، فلعل شمراً كان بحالة منفرة بسبب البرص الذي أصيب به ولم يسمح له يزيد بالمثول بين يديه.

ومهما يكن من أمره فقد خمل ولم يعد يذكر طيلة السنوات التي حكمها يزيد وابن زياد فلقد أدّى دوراً قذراً ربما خجل منه حتى مسببو الجريمة الحقيقيون، فحاولوا تبادل الاتهامات فيما بينهم - كما أوضحنا - وكان تقريب شمر ادانة فاضحة لهم، وربما لم ينل ما أراده من مال أيضاً، ولقد راحت جهوده عبثاً، اذ حسب في لحظة قصيرة، استخدم فيها استخداماً شريراً أن حاله سيتغير وزينت له أوهامه أنه سيغدو ثرياً مطاعاً عزيزاً بعد أن تفتح له أبواب سادته، غير أن أي شيء من ذلك لم يتحقق، وظلت لعنة شمر تلاحق كل أولئك الذين شاركوا بالجريمة إلى يومنا هذا.

الظهور من جديد بوجه الثوار

وقد ظهر شمر ثانية بعد هلاك يزيد وهروب ابن زياد من البصرة إلى الشام، وبعد أن افقت الكوفة على صيحات التوايين وثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي، وكان الثأر للحسين عليه السلام وأصحابه هو هاجس الثوار ومطلبهم الأول.

(١) اللهوف ص ٦٠ والانساب للبلاذري: ج ٣ ص ٢٠٧ ونهاية الارب: ج ٢٠ ص ٤٦١ والطبري:

وقد أدرك شمر أن يد الثوار لا بد أن تطاله قبل أن تطال غيره، فحاول مع بقية الاشراف وشيوخ القبائل الذين انحازوا للنظام الأموي أن يوحّدوا صفوفهم ويتصدوا للثوار فعندما حدد المختار موعداً لثورته، وكان على الكوفة عبد الله بن مطيع، من قبل ابن الزبير وذلك عام ٦٦هـ رأى أشراف الكوفة ممن اشترك بقتل الحسين عليه السلام وأصحابه أن يعلنوا ولاءهم للنظام الزبيري لكي يحموا أنفسهم من الثوار المطالبين بدمهم، وكان شمر بن ذي الجوشن أحد هؤلاء، فقد بعثه ابن مطيع (في جماعة من أهل الطاعة) إلى جبّانة سالم لكي يتصدوا للمختار، «وأقبل شمر بن ذي الجوشن في الفين، فصرح المختار إليه سعيد بن منقذ الهمداني فواقعه»^(١)، وقد هزمه ابراهيم بن الأشتر مع من هزم من القادة الآخرين أمثال عجار بن أبجر وشبث بن ربعي ومحمد بن الاشعث وعمرو بن الحجاج وغيرهم، وقد سيطر المختار بعدها على الكوفة.

وقد استغل هؤلاء خروج ابراهيم من الكوفة لملاقاة جيش ابن زياد «وأجمع رأي أشراف أهل الكوفة على قتال المختار»^(٢)، وحاولوا استمالة الاشراف الآخرين إلى جانبهم وحاولوا تحريضهم على المختار... وكان شمر في مقدمة المحرضين مع شبث ابن ربعي ومحمد بن الاشعث وعبد الرحمن بن سعيد بن قيس، «وخرج شمر بن ذي الجوشن حتى نزل بجبّانة بني سلول في قيس»^(٣) ثم أنه «أتى أهل اليمن فقال لهم: إن اجتمعتم في مكان نجعل فيه مجنبتين ونقاتل من وجه واحد فأنا صاحبكم، والا فلا، والله لا أقاتل في مثل هذا المكان في سكك ضيقة ونقاتل من غير وجه، فانصرف إلى قومه في جبّانة بني سلول»^(٤)، غير أن المختار فوت عليهم الفرصة ثانية واستدعى ابراهيم إلى

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٤٥.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٤٥٤.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٤٥٥.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٤٥٦.

الكوفة ثانية ووحيد قواته في وجوههم وهزمهم شر هزيمة.

وقد حاول شمر الهرب إلى مصعب ابن الزبير في البصرة، ويبدو أنه اراد أن يحمي نفسه بكل طريقة وقد وجد في عدو المختار ملاذاً حاول أن يلجأ اليه بحجة خدمته والحرب تحت لوائه.

لولا جريمته.. ما أشار اليه التاريخ

وليس في حياة شمر ما يستحق الذكر، ولو أنه لم يشترك بهذه الجريمة المروعة لمضى مع آلاف غيره، لا يُعنى أحد بتسجيل أي شيء عنهم ولكن سوء طالع جعله بيدي تلك الحماسة الشاذة في مناوأة آل محمد ﷺ والحث على قتالهم واستتصالحهم في وقت كان يخوض فيه الحسين ﷺ أكبر معركة لانقاذ المسلمين من ربة الحكم الأموي المنحرف.

وقد شارك كثيرون غيره بتلك الجريمة، غير أنهم لم يبلغوا مبلغه من حرص على لفت الانظار إليه وهو يتطوع لخدمة أسياده الذين حسب أن كل شيء كان رهن اشارتهم وطوع يمينهم، لم تكن له قضية محددة يدعو لها ويدافع عنها الا قضية اثبات انتمائهم لأولئك الأسياد، ودفاعه عن (المكاسب) التي كان يرى أنها تلوح له في الأفق. وقد رأى من ابن زياد ميلاً كبيراً اليه ما دام يخدم (قضيته) بذلك الحماس الذي أبداه، ورأى أنه أصبح (مهاباً) مسموع الكلمة في ذلك الجو المتقلب المشحون بالكراهية والخلاف والاطماع.

مسمار صغير في عجلة الدولة الكبيرة

وعاد شمر بعد الواقعة التي كانت له فيها يد طولى، لا يشكل الا مسماراً صغيراً في عجلة الدولة الأموية الكبيرة.

ومع هذا فقد تخلى عنها عندما وجد أن الريح لا تسير معها، وحاول الانضمام إلى

مصعب بن الزبير، غير أن الفرصة فوّت عليه من قبل المختار وأصحابه، فقد أرسل المختار غلامه (ذرياً) في طلب شمر، غير أن شمرّاً استطاع قتله عندما انقطع عن أصحابه، وربما حسب أن لا أحد سيلاحقه بعد الآن وأنه سيكون آمناً حتى يلتحق بمصعب، وربما علقت به بقايا عنجهية قديمة عندما كان يمثل ابن زياد في جيش ابن سعد، يأمر وينهى، كأنه ابن زياد نفسه، وقد جنت عليه عنجهيته واستهتاره بالآخرين وكلفته حياته، مع أنه كان حريصاً على النجاة بها بكل وسيلة^(١).

وقد روي عن مسلم بن عبد الله الضبابي، رفيقه عند الهروب إلى البصرة، قال: لما خرج شمر بن ذي الجوشن، وأنا معه حين هَزَمْنَا المختار، مضى شمر حتى نزل سائِداً، ثم مضى حتى ينزل إلى جانب قرية يقال لها الكلتانية على شاطئ نهر، إلى جانب تل، ثم أرسل إلى تلك القرية فأخذ منها علجاً فضره، ثم قال: النجاء بكتابي هذا إلى مصعب ابن الزبير وكتب عنوانه.. للأمر المصعب بن الزبير من شمر بن ذي الجوشن.. فمضى العليج حتى يدخل قرية فيها بيوت، وفيها أبو عمرة، وقد كان المختار بعثه في تلك الأيام إلى تلك القرية لتكون مسلحة فيما بينه وبين أهل البصرة. فلقي ذلك العليج علجاً من

(١) ذكر الطبري في تاريخه: ج ٣ ص ٤٥٩ قال: «بعث المختار غلاماً له يدعى ذرياً في طلب شمر ابن ذي الجوشن قال أبو منحنف: فحدثني يونس بن أبي اسحاق، عن مسلم بن عبد الله الضبابي قال: تبعنا ذري غلام المختار، فلحقنا وقد خرجنا من الكوفة على خيول لنا ضمّر، فأقبل يتمطر به فرسه، فلما دنا منا قال لنا شمر أركضوا وتباعدوا عني لعل العبد يطمع فيّ، قال: فركضنا، فأمعنا، وطمع العبد في شمر، وأخذ شمر يستطرد له، حتى إذا انقطع من أصحابه حمل عليه شمر فدفق ظهره، وأتى المختار فأخبر بذلك فقال: بؤساً لذري، أما لو يستشيرني ما أمرته أن يخرج لأبي السابغة».

وربما حسب شمر - استهانة منه بأصحاب المختار - مع أنه خرج هرباً منهم، وبعد قتله غلام المختار أن لا أحد منهم يستطيع قتله، وهو ما جعله لا يحترس بها فيه الكفاية حتى تمكنوا منه بعد ذلك وقتلوه..

تلك القرية، فأقبل يشكو اليه ما لقي من شمر، فإنه لقائم معه يكلمه، اذ مرَّ به رجل من أصحاب أبي عمرة، فرأى الكتاب مع العليج، وعنوانه: لمصعب من شمر، فسألوا العليج عن مكانه الذي هو به، فأخبرهم، فإذا ليس بينهم وبينه الا ثلاثة فراسخ، فأقبلوا يسرون اليه»^(١).

وقد أشار عليه أصحابه بالارتحال من المكان الذي كانوا فيه، إلا أنه أبى وأصر على البقاء فيه ثلاثة أيام، وقد وصل اليهم أصحاب المختار وأشرفوا عليهم.. «فكبروا أو الحديث لا يزال لمسلم بن عبد الله رفيق شمر، ثم أحاطوا بابياتنا، وخرجنا نشد على أرجلنا، وتركنا خيلنا، فأمر على شمر وإنه لمتّزّر ببرد محقق - وكان أبرص - فكأنني أنظر إلى بياض كشحيه من فوق البرد، فإنه ليطاعنهم بالرمح، قد اعجلوه أن يلبس سلاحه وثيابه، فمضينا وتركناه، قال فما هو إلا أن أمعنت ساعة إذ سمعت (الله أكبر) قتل الله الخبيث»^(٢).

وبذلك فوتت عليه فرصة نقل الولاء من طاغية إلى طاغية آخر، بعد ان لم يجد طاغيته الأول في الميدان، ولم تتح له فرصة الخوض بمزيد من الدماء كما فعل في كربلاء.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٦٥، والكمال في التاريخ: ج ٤ ص ٤٤.

(٢) نفس المصدرين السابقين، وقد روي عن عبد الرحمن بن عبيد ابي الكنود قوله: «أنا والله صاحب الكتاب الذي رأيته مع العليج وأتيت به أبا عمرة وأنا قتلت شمرا ... خرج علينا فطاعنا برمحه ساعة ثم ألقى رمحه ثم دخل بيته فأخذ سيفه ثم خرج علينا وهو يقول:

نبهتم ليث عرين باسلا جهماً محياه يدق الكاهلا
لم ير يوماً عن عدو ناكلا الا كذا مقاتلا أو قاتلا

يبرحهم ضرباً ويزوي العماللا

الطبري: ج ٣ ص ٤٦٠.

شمر نتاج مجتمع الظلم

ولم نكن لنشير إلى شمر لو لم يكن سوء طالعاه قد جعله يلعب ذلك الدور الذي لعبه في الكوفة وكرבלاء، وأبدى فيه ذلك الحماس الاستثنائي الذي ما كان يديه إلا صاحب قضية حريص على قضيته أو مصلحة حريص عليها، مع أن شمرًا لا قضية له ولا مصلحة تذكر، وكل ما في الأمر أنه أراد أن يحسن صورته بنظر أسياده لكي يكرموا ويقربوه، ولم يكن العطاء الذي ناله أو المكانة التي حصل عليها بمستوى الحماس والاندفاع الذي أبداه في خدمتهم.

ولم نكن لنشير إلى شمر أيضاً لو لم يظهر لنا شمر في كل الأوقات والأزمان يسير في ركاب الطغاة وييدي حماساً من شأنه أن يثير جيشاً بأكمله ويوجهه نحو الجريمة، ولا يزال شمر يلوح أمامنا إلى اليوم، خادماً ذليلاً أمام أسياده، وجباراً أمام المستضعفين من الناس وأمام أعداء الظلم ومناوئيه.

ان (ظاهرة شمر) ينبغي أن تُدرَس بعناية لنجد الأسباب الحقيقية وراء اندفاعه في طريق الشر والعدوان والجريمة، فقد يشخص علاج لأعراض خطيرة من النوع الذي أصيب به شمر فاندفع بتلك الطريقة الشرسة في طريق الإبادة والقتل، إذا ما درسنا تلك الأسباب، لكي نمنع بالتالي من استفحال تلك الظاهرة التي غالباً ما ترى في مجتمعات الظلم والانحراف.

ألم يكن شمر نتاج مجتمع الظلم الذي أوجده معاوية؟

أليس أشباهه نتاج مجتمعات الظلم المشابهة؟

في دولة الاسلام والعدالة لا يمكن أن ترى شمرًا وظاهرة شمر، إذ لا حاجة لأحد به، فقانون الاسلام وشريعة الله هي التي تحكم وتسيطر على الجميع.

أشراف الكوفة - الظلمة المستضعفون

تمهيد

ترد لفظة (الاشراف) في معرض الحديث عن عناصر المجتمع، لتعني الملاء أو الاشراف او الحاشية، أو الفئة الوجيهة أو المتنفة أو المقربة من السلطة، سواء على نطاق زعامة الدول او القبائل أو حكام الولايات أو الأقاليم أو المدن.

ومع أن الاسلام لا يكرس لأي لون من ألوان التباين الطبقي أو الاجتماعي، ولا يشجع عليه أو يدعو له إطلاقاً، ولو أتيح لمسيرته أن تأخذ نفس النمط أو الأسلوب الذي اتخذته أيام حكومة الرسول ﷺ، ولم يتسع الانحراف ذلك الاتساع الذي بلغ مداه في أواخر عهد معاوية وعهد يزيد، لما أتيح لنا أن نسمع هذه اللفظة تذكر عند الحديث عن المجتمع الاسلامي، إلا أن الانحراف الذي شجع على ظهور طبقة، أو فئة - بشكل أصح - ثرية، وحاشية قوية، وقادة يسعون لخدمة السلطان، ويتخذونه مثلاً أعلى، ورؤساء قبائل أعيدت لهم السلطات المطلقة التي قيدها الاسلام وسلبها منهم وأرادها أن تتركز في الدولة الاسلامية وحدها، وزعماء للفتن والأحزاب والتيارات التي اتجهت لخدمة مصالحها ونفوذها وسار معظمها في ركاب السلطان الأموي الغاشم، جعل من وجود طبقة الاشراف أمراً واقعاً لا مجال لانكاره أو اهماله.

وقد أعيد لهذه الطبقة أو الفئة مجدها الذاهب مع الشرك والجاهلية، مع أن الاسلام أراد لكل مسلم أن يكون شريفاً وعزيراً وقوياً وممتنعاً به وأن تمحى كل الزوائد الطفيلية ولا يعد لها وجود في الواقع الحياتي، وأضيف إلى امتيازاتها امتيازات جديدة، أتاحها

توسع العالم الاسلامي والفتوحات الاسلامية وزيادة ثروة الدولة واحتكاره هذه الثروة لتحقيق طموحات قادتها في المجال الشخصي وتثبيت الملك، لا طموح الذي يسعى لنشر الاسلام في ارجاء المعمورة ونشر العدالة والاخوة معه.

وهكذا أتيج لأمتنا أن تشهد وتعيش هذه حالة اجتماعية كان للأشراف حضور متميز ومؤثر فيها، باعتبارهم عنصر ثبات وهدوء واستقرار وكبح، يتيح للدولة السيطرة على الفئات الشعبية الأخرى وأبناء القبائل وتسخيرها لتنفيذ مهماتها ومنع حدوث المشاكل والاضطرابات، التي قد تؤثر على هيبتها وسلطانها.

لقد أصبح حضور هذه الطبقة ووجودها أمراً واقعاً ومكماً لوجود الدولة وكيانها، وأصبح لا غنى عنه لبقائها وديمومتها.

وكان لا بد- لكي تضمن دولة الظلم والانحراف هذا البقاء وهذه الديمومة- أن تعنى بطبقة الاشراف وتقويها وتستميلها إلى جانبها بكافة الطرق المتاحة، وما أكثرها لدى الدولة الاموية الثرية المتمكنة.

الشريف: وجهان

كان لابد، في ظل الظروف التي تتحكم فيها الدولة وحدها بمقدرات الأمة وثرواتها وحياتها أن يكون مثل الشريف الأعلى هو رأس الدولة، فيسعى بكافة الطرق والأساليب لاسترضائه وكسب وده وود حاشيته وعماله والعمل على كل ما من شأنه أن يجعله ماثلاً أمام انظارهم غير منسي أو مهمل، وبذلك يضمن استمرار العطاء وزيادته، ونيل المزيد من الخطوة والمكانة المرموقة، وكان لا بد أن يتنافس الشريف في ذلك مع بقية الاشراف، فيعلن عن مبادرات خاصة متميزة ويضفي على الأوامر الرسمية لمسة شخصية ليثبت عمق صلته وولاءه للدولة وقادتها.

وكان لا بد للشریف أن يحقق مطامح الدولة ومسايعها وصدق ظنها فيه، ولا بد أن يدفع ثمن مكافآتها وامتیازاتها، فهي لا تدفع له دون مقابل.

وبعبارة: لا بد أن يكون انتهازياً متملقاً ضعيفاً أمام جبارتها وأعوانها، وجباراً عنيفاً ومتكبراً أمام بقية الناس يظهر بوجهين، ويلبس لباسين، ويستخدم لغتين ويتكلم بنبرتين.

أشراف الكوفة: خضراء الدمن في دولة النفايات

كان أشراف الكوفة من أولئك الأشراف المستحدثين، وكانوا نتاجاً غير طبيعي لدولة غير طبيعية، وكانوا كخضراء الدمن في دولة النفايات والدمن، يلوحون وجهاً مشرقاً زاهياً، غير أنه عرضة للذبول والاضمحلال لأدنى هبة ريح لكي تحل نبتة خضراء جميلة محل نبتة خضراء جميلة أخرى، سرعان ما تذوي دون أن تترك رائحة أو أثراً إلا رائحة الدمن والنفايات.

وكان أولئك الأشراف ينغلون في جسم الدولة الاموية المترهلة ويتشرون ويتكاثرون ويموتون ويعودون للتكاثر والانتشار، بالسرعة التي انتشر فيها أمثالهم وتكاثروا في الدول المنقرضة، الذين أصبح شرفهم مضرب المثل للانتهازية والاباحية والابتذال والفجور، والذين ملكوا كل شيء إلا الشرف الحقيقي، وبالسرعة التي تنتشر فيها الارانب والفئران في بيئة مناسبة لنموها وتكاثرها.

أصبح وجود الأشراف أمراً واقعاً، فرض حضوره على المجتمع الاسلامي، فأصبحت تسمية (الشریف) لا تعني ما كان ينبغي أن تعنيه في المفهوم - الاسلامي، إذ قد يكون الإنسان الشریف - وفق هذا المفهوم، هو الذي يتمتع بمستوى خلقي رفيع ووضع اجتماعي يتيح له تحقيق خدمات كبيرة للآخرين، والذي يتمتع بمميزات

استثنائية تجعله جديراً بهذا اللقب، لا أن يكون مرادفاً للبطالة واللهو والعبث والتسلط والانتهاك لدولة الظلم وأعوانها.

وإذا ما اخترنا هذا النص الذي يرد فيه وصف عفوي عرضي لرجل (شريف) من جند ابن سعد كان يقوم بمراقبة معسكر الحسين عليه السلام ليلة المعركة وكان يحاول أن يسخر من الحسين وأصحابه عندما كانوا يقرؤون القرآن ويحيون الليل بالصلاة والعبادة، وهو وصف وصفه به لأحد أصحاب الحسين (برير بن خضير) من عرفه قال: «عرفته.. قلت هذا أبو حرب السبيعي عبد الله بن شهر، وكان مضحاكاً بطالاً، وكان شريفاً شجاعاً فاتكاً- وكان سعيد بن قيس ربما حبسه في جناية- فقال له برير بن خضير: يا فاسق، أنت يجعلك الله في الطيبين؟

فقال له: من أنت؟ قال: أَنَا بُرَيْرُ بْنُ خُضَيْرٍ. قَالَ: إِنَّا لَنَافِلٍ لِّكَ وَاللَّهُ، هَلَكْتَ وَاللَّهُ، عَزَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ يَا بُرَيْرُ قَتْلُكَ.

قال: يا أبا حرب، هل لك أن تتوب إلى الله من ذنوبك العظام.. فوالله أنا لنحن الطيبون ولكنكم لأنتم الخبيثون. قال: وأنا على ذلك من الشاهدين، قلت: ويحك، أفلا ينفعك معرفتك، قال: جعلت فداك، فمن ينادم يزيد بن عذرة العنزي، ها هو ذا معي، قال: قبح الله رأيك على كل حال، أنت سفيه، ثم انصرف عنا»^(١).

لم تكن لفظة (شريف) هنا مترادف ما يمكن أن يفتخر به حقاً، ولم تكن تعني إلا أحد عناصر طبقة استجدت وتوسعت ونمت بشكل طفيلي على حساب المجتمع.. ولم يكن مما يخل بالشريف كونه مضحاكاً بطالاً فاسقاً شارباً للخمر أو فاتكاً أو سائراً بركاب الظالمين... فالمجتمع قد أخذ يتساهل إلى الحد الذي كان يعتبر أمثال هذا الشخص

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٧.

شريعاً لمجرد أنه كان مقرباً من أحد المقربين من السلطة، ولم يكن يجهد نفسه بالعمل والكدح.

وربما كان الشريف مدفوعاً إلى انتهاج المسلك الانتهازي بدافع المنافسة مع الأشراف الآخرين الذين يتفننون في وسائل ارضاء الدولة وكسب عطفها والتقرب إليها، ان تساهل الدولة بالمثل والقيم والأخلاق الإسلامية واعتبارها أمراً ثانوياً لا أهمية له الا من الناحية الشكلية، سهلت مهمة الاشراف ووضعت عنهم الشروط التي كان ينبغي توفرها فيهم - بنظر الاسلام - ليكونوا مؤهلين للتصدي لقيادة الشرائع الاجتماعية المختلفة وتوجيهها وتزعمها وأخذ الأدوار البارزة فيها.

لقد كان معاوية نفسه - رغم تستره بالدين - يتبجح صراحة بأنه كان يشتري من الاشراف دينهم^(١)، وكانت أغليبيتهم لا تأنف من الدخول في مساومات لقاء تقديم تنازلات وخدمات لدولة الظلم الأموية.

أشراف الكوفة : مصالحنا أولاً

وقد لعب (أشراف الكوفة) دوراً بارزاً لإحباط مهمة مسلم بن عقيل وافشلها، واسناد عبيد الله بن زياد، فقد كانوا يرون أن الدولة الأموية كانت كلها تقف وراءه في

(١) وفد الاحنف بن قيس وجارية بن قدامة... والجون بن قتادة... والحتات بن يزيد... إلى معاوية ابن أبي سفيان، فأعطى كل رجل منهم مائة ألف، وأعطى الحتات سبعين ألفاً، فلما كانوا في الطريق سأل بعضهم بعضاً فأخبروه بجوائزهم، فكان الحتات أخذ سبعين ألفاً، فرجع إلى معاوية، فقال: ما ردك يا أبا منازل؟ قال: فضحتني في بني تميم، أما حسبي بصحيح؟ أو لست ذا سن؟ أو لست مطاعاً في عشيرتي؟ قال معاوية: بلى. قال: فما بالك خسست بي دون القوم؟ فقال: اني اشتريت من القوم دينهم ووكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان بن عفان - وكان عثمانياً - فقال: وأنا فاشتر مني ديني، فأمر له بهتام جائزة القوم» الطبري: ج ٣ ص ٢١١ ولا يخفى أن معاوية كان يرى الأمر أمر مساومة على الدنيا.. ولم يأنف الحتات من الدخول في هذه المساومة..

هذه المهمة الطارئة، مهمة التصدي للامام الحسين عليه السلام وافشال ثورته الهادفة لتصحيح مسيرة الأمة الاسلامية وتقويم انحرافها.

لقد كان هؤلاء (الاشراف) يظهرون رؤوسهم في كل وقت يرون فيه أن من مصلحتهم أن يفعلوا ذلك، ويخفونها عند ظهور أية بادرة خطر أو ثورة ضدهم، وهذا ما رأيناه خلال فترة زمنية قصيرة (على سبيل المثال) امتدت منذ وفاة معاوية عام ٦٠ هـ وحتى وفاة يزيد ثم إلى حكم عبد الملك وقتل مصعب، وهي فترة لا تتجاوز سنواتها عدد أصابع اليدين.

وإذا ما عدنا إلى بداية الاحداث، منذ أن عزم الحسين عليه السلام المسير إلى الكوفة، نجد أن بعضاً من أشرافها، قد كتبوا اليه يعرضون عليه ولاءهم ويطلبون منه أن يقودهم ضد الدولة الأموية الفاسدة، ولعل بعضهم قد فعل ذلك بإيعاز من الدولة نفسها في محاولة لاستدراج الإمام عليه السلام وقتله أو محاصرته هناك.. أو لعلهم قد حسبوا أن يزيد ما كان ليصمد طويلاً في الموقع الذي أعده له أبوه، وهو خلافة المسلمين كلهم، وأنهم لو كانوا قد بادروه إلى اعلان الثورة والحرب والانضمام إلى قائد لن تختلف عليه الأمة فيما بعد كالحسين عليه السلام - ونجحوا فيما بعد نجاحاً سهلاً عاجلاً - لكانوا هم أول من سيجني مكاسب هذا النجاح السهل العاجل.

وربما لم يدر بخلد بعضهم ان التصدي للحسين عليه السلام وبمبعوثه مسلم، سيكون بذلك العنف، وأنه سيواجه بتلك الشراسة والوحشية، وأن معظمهم -هم أنفسهم- سيكونون اداة لذلك التصدي الشرس، اذ سينحازون بسهولة إلى جانب السلطة؛ لأنهم لا يملكون الحصانة اللازمة لجعلهم يستمرون على ما عقدوا العزم عليه منذ البداية والتزام الخط الرسالي الصحيح الذي سار عليه الحسين وأصحابه عليهم السلام.

ولعل تطرف بعضهم بإعلان العداوة للحسين وأصحابه عليه السلام فيما بعد، أي أثناء المعركة وقبلها، وبعد أن أحاط بهم الجيش الضخم الذي جرد لمحاصرتهم وقتلهم أو طلب الاستسلام منهم دون قيد أو شرط، أريد منه تبيان أنهم كانوا يفعلون ذلك بوحى من مبادئهم وقناعاتهم، وبوحى من حبههم وولائهم للنظام الأموي المتمثل بيزيد، وأرادوا به البرهنة على أنهم لم يكونوا في يوم من الأيام أعداء للدولة الأموية، وكأنهم كانوا بموقفهم هذا يوقعون صكوك براءة عن مواقفهم السابقة إلى جانب أمير المؤمنين والحسن عليه السلام، وأرادوا به إعلان ان الرائل - وقد انكروها فيما بعد كما رأينا- كانت مكذوبة على السنتهم وموضوعة من قبل خصومهم.

وقد أرادوا بذلك كله التقرب إلى ابن زياد، ممثل السلطة وحاكمهم المطلق، معتقدين بأنهم ما لم يكونوا مندفعين بذلك الحماس الزائد الذي أعلنوه، فربما لفت ذلك نظر ابن زياد اليهم، وهو ما تجنبوه اذ حسبوا ان فيه تعرضهم المحقق للعقوبة والموت، مع أن ابن زياد الذكي الماكر، ما كانت لتفوته حركتهم منذ البداية، إلا أنه أثر التغاضي عنها لئلا يفتح عليه أبواباً وجبهات جديدة تضاف للجبهة التي فتحها عليه مسلم عليه السلام، فقد قال حين وروده الكوفة في أول خطاب له مزكياً كل أعوانه ومن يحتمل أن يسير في ركابه، وموحياً لهم أنه يعتقد أنهم جميعاً إلى صفه يناوؤن الحسين عليه السلام، وأنه لا يعلم أحداً يناوئ الدولة الأموية التي يمثلها هو في العراق، محاولاً بذلك استدراجهم إلى صفه فعلاً وقيامهم ببذل أقصى جهد في خدمته بعد أن أمنوا العقوبة والوشاية من قبل بعضهم البعض، «اني لأعلم أنه قد سار معي وأظهر الطاعة لي من هو عدو للحسين، حين ظن أن الحسين دخل البلد وغلب عليه، ووالله ما عرفت منكم أحداً»^(١).

وقد كانت هذه خطة مأكرة منه، إذ جعل أعداءه بالأمس، يطمئنون اليه ويأمنون

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٢.

عقابه، وأتاح لهم الفرصة لتغيير ولائهم بسرعة والتعبير عنه بالتسابق بتسجيل المواقف الجديدة للدلالة على انحيازهم إلى جانبه، بعد أن لم يكونوا كذلك بالفعل، وقد أعفى بالفعل فيما بعد عن مرسلي الرسائل إلى الحسين عليه السلام وفيها يدعونه للقدوم إلى الكوفة وتزعمهم.

وعندما واجه الإمام عليه السلام بعض أولئك في ساحة المعركة وكشف أسماء بعض الذين كانوا يقودون قبائلهم ومرزقة الدولة الآخرين وأوضح لهم أمام جندهم طبيعة الموقف الذي كان عليهم أن يتخذوه، وهو الوقوف إلى جانبه ونصرته والاستمرار في ذلك إلى النهاية لم يملكوا أمام بيانه ذاك سوى الإنكار والكذب، اذ كيف يعترفون بأنهم كانوا من دعاة وسيف ابن زياد الذي سلوه هم كان مسلطاً على رقابهم؟

«فنادى: يا شيث بن ربيعي ويا حجار بن أبجر ويا قيس بن الأشعث ويا يزيد بن الحارث ألم تكتبوا إليّ أن قد ايعنت الثمار واخضر الجنباب وطففت الجمام، وإنما تقدم على جند لك مجندة فأقبل.

قالوا له: لم نفعل، فقال: سبحان الله، بلى والله لقد فعلتم»^(١).

وما كان ذلك الموقف ليفوت عيون وجواسيس ابن زياد، ولا بد أن خبرهم قد وصله، غير أنه، وقد رآهم في خدمته وتحت تصرفه فعلاً، أثر أن يسكت عنهم ولا يحاسبهم، أو يحاسبهم فيما بعد اذا ما اظهروا فتوراً أو تهاوناً، أو يهملهم عند انقضاء المهمة، وهذا ما فعله مع معظمهم بالفعل، إذ لم يكن لهم شأن أو دور يذكر فيما بعد.

ولا يفوتنا أن نذكر أن بعض من كتبوا اليه، ظلوا على مواقفهم نفسها تجاهه مثل حبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة وغيرهما، وقد استمروا إلى النهاية في نصرته، الا

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٩.

أن هؤلاء كانوا قلة، لا يقاس عددهم بعدد أولئك الذين تخلوا عنه فيما بعد ووقفوا إلى صف عدوه.

كما أن بعض من لم يكتبوا إليه أصلاً - وكانوا غير منحازين إليه منذ البداية - اتخذوا مواقف مغايرة لمواقفهم الأولى منه مثل زهير بن القين والحر بن يزيد الرياحي وأبي الشعثاء الكندي وغيرهم.

أشراف الكوفة : نلبس لكل حالة لبوسها

ان موقف الملاء أو الأشراف من أهل الكوفة، كان يتميز بالرخاوة والذلة وعدم الثبات والاستقرار، فقد شهدوا أحوالاً متغيرة في جو مضطرب عاصف بدأ قبيل حكومة أمير المؤمنين (عليه السلام) وخلالها ثم حكومة معاوية وما أخذهم به من الشدة والعسف، وربما رأوا أن حالة (الثبات) والاستقرار لن تدوم في ظل حكومة بعينها، وان الثبات خلف أمير المؤمنين (عليه السلام) أو الثبات خلف أعدائه ربما ستعرضهم لسخط وغضب هذا الحاكم أو ذاك عند تغير الحال، التي حسبوا انها ستتغير حتماً ولن تدوم على نمط أو شكل واحد، وأنهم - تبعاً لذلك - لا بد أن يلبسوا لكل حالة لبوسها وأن يغيروا أزياءهم وأشكالهم ولغاتهم حسب ما يقتضيه حال الزمان المتغير المتلون، ولعل سبب تغيرهم المستمر في ظل انماط متنوعة من الحكم - وأغلبها انماط حكم ظالمة طاغوتية - يعود إلى عدم اطمئنانهم إلى دوام الاوضاع واستقرارها وإلى توقعهم المستمر للمفاجآت في ظل تلك الانماط المختلفة، ولعلمهم كانوا يعدون لذلك من دواعي الحذر والحيلة ومتطلباتها ليحفظوا به أرواحهم وأموالهم، وهو ما بدا لهم - بمرور الزمن - غاية كبيرة بحد ذاتها. وقد يتطلب الأمر الحذر والتدقيق الزائد في أمر الحكام والناس والبحث عن

أحوالهم والشك في أمرهم ليأمنوا شروراً متوقعة ومخاطر محتملة^(١).

لا بأس من العذر ما دام يرضي الأمير

حاول الشريفان محمد بن الاشعث وأسماء بن خارجة - بالتعاون مع الشريف عمرو بن الحجاج الزبيدي - اقناع هانئ بن عروة للمثول بين يدي ابن زياد، رغم ما في ذلك من مخاطر محتملة، وأقسماً عليه أن يذهب معهم مؤكدين له أن الخير كل الخير في ذلك وان ابن زياد لم يرد به الا خيراً، وكانت نتيجة استدراجهم، الايقاع به في فخ ابن زياد.

وحاول الشريف مسلم بن عمرو الباهلي اقناعه بتسليم مسلم بن عقيل بحجة أن هذا الرجل، ويقصد به مسلماً ابن عم القوم، وليسوا بقاتليه ولا ضائريه. وهو يعلم أن الأمر على العكس من ذلك تماماً: «يا هانئ، انشدك الله أن تقتل نفسك وتدخل البلاء على قومك وعشيرتك، فوالله اني لأنفس بك عن القتل - وهو يرى أن عشيرته ستتحرك في شأنه - أن هذا الرجل ابن عم القوم، وليسوا بقاتليه أو ضائريه، فادفعه اليه، فإنه ليس عليك بذلك مخزاة ولا منقصة انما تدفعه إلى السلطان»^(٢).

ان الباهلي لا يرى أمامه الا قوة السلطان ولا يرى وراءها قوة، وهو يعتقد ان استجابته العمياء - حتى ولو كانت مناقضة لقوانين الاسلام - ليس فيها مخزاة ولا

(١) ولأبي عثمان الجاحظ رأي وجيه في علة عصيانهم وتقبلهم.. يقول: «العلة في عصيان أهل العراق على الامراء، وطاعة أهل الشام أن أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبة، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال والتمييز بين الرؤساء واطهار عيوب الامراء. وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجود على رأي واحد لا يرون النظر ولا يساءلون عن مغيب الاحوال، وما زال العراق موصوفاً أهله بقلّة الطاعة وبالشقاق على أولي الرئاسة» شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد: ج ١ ص ١١٤.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٥، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٩٢.

منقصة، فالسلطان هو القوة الوحيدة التي يجب أن تطاع.

وقد عمل هذا السلطان (ابن زياد) على اهانة أحد الأشراف أسماء بن خارجة، «فأمر به فلهز وتعتع به، ثم ترك فحبس»^(١) لمجرد أنه اعترض على حبس هانئ وضربه بعد أن استخدم هو وسيلة لجلبه للقصر، وقد عمل ذلك على تأديب بقية الأشراف ومنهم محمد بن الأشعث الذي قال بعد أن رأى فعل ابن زياد بصاحبه: «قد رضينا بما رأى الأمير، لنا كان أم علينا، انما الأمير مؤدّب»^(٢)، وبذلك يعلن استسلامه الكامل للسلطان أو الأمير، مهما فعل، فالأمير مؤدب، وهو وأمثاله قد يحتاجون لمن يؤدبهم.

أما عمرو بن الحجاج ثالثهما، فرغم ما كان يتمتع به من نفوذ بين قومه الذين ربما دفعوه إلى الذهاب للقصر لتخليص هانئ من ابن زياد، وكان يستطيع تغيير الموقف كله لو وجد في نفسه الارادة الصادقة لفعل ذلك، فقد اسمع ابن زياد كلمات بدت كأنها كلمات اعتذار عن موقفه وقد أتى بقومه، وبدا كأنه مكلف بالحديث نيابة عنهم وحسب، وكان حرياً به وقد أتى بتلك الجموع أن يطالب باخراج هانئ اليه لا أن يكتفي بسماع كلمات مطمئنة عن وجوده حياً، أقبل ابن حجاج في مذبح «حتى أحاط بالقصر ومعه جمع عظيم، ثم نادى: أنا عمرو بن الحجاج، هذه فرسان مذبح ووجوهها، لم تخلع طاعة ولم تفارق جماعة، وقد بلغهم أن صاحبهم يقتل، فاعظمووا ذلك»^(٣).

ولو أنه نادى أنا عمرو بن الحجاج، وهؤلاء قومي، وقد بلغنا أن صاحبنا يقتل فاخرجوه الينا، لكان بذلك قد بلغ رسالة واضحة صارمة، غير أنه بكلماته هذه عزل نفسه عن قومه، وأوحى اليهم أنه انما كان يبلغ كلماتهم وحسب، وأنه قد يكون غير

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٦، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٩٣.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٦.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٦.

مقتنع بموقفهم.. إنّه مهزوم بداخله أمام ابن زياد، حتى وإن امتلك قوة قد تفوق قوته عشرات المرات في تلك اللحظة التي لم يكن فيها مع ابن زياد سوى عدد ضئيل من الاشراف والشرطة والاعوان والخدم.

ولم يأنف (الشريف) شريح القاضي - رغم أنه قاض - من شهادة الزور طالما أنه يرضي بها سيده الذي لقنه تلك الشهادة المزورة التي سيرمي بها في وجوه المحتجين من مذبح بقيادة عمرو بن الحجاج الذي كان مستعداً لسماع أي عذر للانسحاب بقومه والتراجع عن القصر.. خرج اليهم شريح قائلاً: «ان الأمير لما بلغه مكانكم ومقاتلكم في صاحبكم أمرني بالدخول عليه، فاتيته فنظرت اليه، فأمرني أن القاكم، وان أعلمكم انه حي، وان الذي بلغكم من قتله كان باطلاً.

فقال عمرو وأصحابه: فأما إذ لم يقتل فالحمد لله، ثم انصرفوا»^(١).

صحيح أن هانئاً لم يقتل حتى تلك اللحظة ولكن، ألم يكن معرضاً للقتل بعد أن ضرب ذلك الضرب المؤلم من قبل ابن زياد نفسه. وقد هدده أن يقتله فعلاً؟ وتم هذا الامر تحت سمع القاضي وبصره؟

ككيف تمت شهادة القاضي الشريف؟ وكيف يستطيع تبريرها أمام الناس وهو يعلم حكمهم عليها مسبقاً؟

إنه لم يستطع سوى ترديد أقوال بدا أنه لم يجد سواها، «فخرجت اليهم ومعهم حميد ابن بكير الاحمري، أرسله معي ابن زياد، وكان من شرطه ممن يقوم على رأسه، وأيم الله

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٦ وقد ورد في: ج ٣ ص ٢٧٦ قوله: «لا بأس عليه، انما حبسه الامير ليسأله» وورد في طبعة اخرى قوله «.. ما هذه الرعة السيئة، الرجل حي، وقد عاتبه سلطانه بضرب لم يبلغ نفسه فانصرفوا ولا تحلوا بأنفسكم ولا بصاحبكم، فانصرفوا». ج ٦ ص ٢٠٣، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٩٣.

لولا مكانه معي، لكنني أبلغت أصحابه ما أمرني به»^(١).

وبعذر هذا يعترف بشهادته المزورة ويدين نفسه.

مع (ابن زياد) ضد (مسلم) القوة والمال معه أيضاً

وعندما أحاط مسلم بعدة آلاف من أهل الكوفة جاؤوا معه، بقصر ابن زياد، أثر حادث القبض المفاجيء على هانئ تحرز ابن زياد في القصر وغلق الابواب، وقد ضاق به ذرعه، «وكان كبر أمره ان يتمسك بباب القصر، وليس معه إلا ثلاثون رجلاً من الشرط وعشرون رجلاً من أشراف الناس وأهل بيته ومواليه، وأقبل أشراف الناس يأتون ابن زياد من قبل الباب الذي يلي دار الروميين، وجعل من بالقصر مع ابن زياد يشرفون عليهم، فينظرون اليهم، فيتقون إن يرموهم بالحجارة، وأن يشتموهم وهم لا يفترون على عبيد الله وعلى أبيه.

ودعا عبيد الله كثير بن شهاب بن الحصين الحارثي فأمره أن يخرج فيمن اطاعه من مذحج، فيسير بالكوفة، ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم الحرب، ويحذرهم فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس، وقال مثل ذلك لمحمد بن الاشعث وللقعقاع ابن شور الذهلي وشبث بن ربعي التميمي وحجار بن ابجر العجلي، وشمر بن ذي الجوشن العامري، وحبس سائر وجوه الناس عنده استيحاشاً اليهم لقلة عدد من معه من الناس.. وخرج كثير بن شهاب يخذل الناس عن ابن عقيل.

فبعث عبيد الله إلى الأشراف فجمعهم اليه ثم قال: أشرفوا على الناس، فمنا أهل الطاعة الزيادة والكرامة، وخوفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة، واعلموهم وصول

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٦.

الجنود من الشام اليهم»^(١).

وقد تحدث أحد أهل الكوفة، عبد الله بن خازم الكثيري من الازد، من بني كثير، قال: «أشرف علينا الاشراف، فتكلم كثير بن شهاب أول الناس حتى كادت الشمس ان تحجب، فقال: أيها الناس، الحقوا بأهاليكم، ولا تعجلوا الشر، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل، فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطى الله الامير عهدا لئن اتممت على حربه ولم تنصرفوا من عشيتكم ان يحرم ذريتكم العطاء، ويفرق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتى لا يبقى له فيكم بقية من أهل المعصية الا أذاقها وبال ما جرّت أيديها، وتكلم الاشراف بنحو من كلام هذا، فلما سمع مقاتلتهم الناس أخذوا يتفرون»^(٢).

وقد روى المجالد بن سعيد قائلًا: «ان المرأة كانت تأتي ابنها أو أخاها فتقول:

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ والكمال في التاريخ: ج ٣ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ وهناك موقف لأشراف الكوفة مشابه لهذا الموقف عندما حرضوا الناس على حجر بن عدي وشهدوا ضده بايحاء من زياد عندما هددهم قائلًا: «.. انتم معي واخوانكم وابناؤكم وعشائركم مع حجر.. هذا والله من دحسكم وغشكم! والله لتظهرن لي براءتكم او لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم، فوثبوا إلى زياد فقالوا: معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما هاهنا رأي الا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين، وكل ما ظننا ان فيه رضاك وما يستبين به طاعتنا وخلافنا لحجر فمرنا به، قال: فليقم كل امرئ منكم إلى هذه الجماعة حول حجر، فليدع لكل رجل منكم أخاه وابنه وذا قرابته ومن يطيعه من عشيرته، حتى تقيموا عنه كل من استطعتم أن تقيموه، ففعلوا ذلك، فأقاموا جل من كانوا مع حجر بن عدي» الطبري: ج ٣ ص ٢٢٥ - ٢٢١ وقد شهد الاشراف من رؤوس الارباع وغيرهم شهادة مزورة ضد حجر ادعوا فيها انه خلع الطاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة ودعا إلى الحرب والفتنة، ومن المعلوم ان نفس أولئك الاشراف السائرين بركاب زياد كانوا في ركاب ابنه وأعادوا نفس أدوارهم القديمة ومنهم عمر بن سعد وكثير بن شهاب وشبث بن ربعي والقعقاع بن ابجر وعمرو ابن الحجاج وأسماء بن خارجة وشمر بن ذي الجوشن.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٨.

انصرف، الناس يكفونك، ويحيي الرجل إلى ابنه أو أخيه فيقول: غداً يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر، انصرف، فيذهب به، فما زالوا يتفرقون ويتصدعون حتى أمسى ابن عقيل وما معه الا ثلاثون نفساً في المسجد»^(١).

وهكذا وقف اشراف الكوفة ووجوههم في أدق ظرف وأصعبه مرّ به ابن زياد على الاطلاق منذ مجيئه الكوفة، موقفاً مناصراً له معرضين أنفسهم لما تعرض له هو من مخاطر وإهانات مستغلين مراكزهم كزعماء للقبائل وذوي نفوذ واسع وكلمة مسموعة بين أوساط الناس، وحاولوا أن يضعوا كل فرد في زاوية بدا فيها وكأنه كان لوحده يواجه سطوة الدولة كلها، اعلموهم أن مسألة التغيير ومسائل الحكم ليست من اختصاصهم وما هم الا أدوات صغيرة في عجلة الدولة الكبيرة، وان عليهم أن يهتموا بشؤونهم الحياتية اليومية ولا يعرضوا أنفسهم للسلطان القوي المدمر الذي خبروه وعرفوه من قبل وكانت جولات صراعهم معه من قبل لصالحه.

وذهبوا إلى حد استغلال النساء وخوفهن وخوفهن وأثاروهن ضد اخوانهن وأبنائهن يحرضنهم على التخلي عن مسلم، ورجحوا الكفة إلى جانب ابن زياد بالتالي بشكل تام بعدما تفرق انصار مسلم عنه، وغداً وحيداً في الكوفة لا ناصر له ولا معين، كما ذهبوا إلى حد التصدي لمسلم بأنفسهم «وان ابن الاشعث والقعقاع بن شور وشبث ابن ربعي قاتلوا مسلماً وأصحابه عشية سار مسلم إلى قصر ابن زياد قتلاً شديداً»^(٢).

يرفضون التغيير.. ثبات الاوضاع يحقق لهم المنافع والامتيازات

لقد حرص أولئك الاشراف على ديمومة وثبات الاوضاع في ظل حكومة الامويين التي أتاحت لهم المزيد من المكاسب والامتيازات الشخصية والمنح الدسمة

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٨.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٤.

التي ما كانت تتاح لهم في ظل أوضاع صحيحة، وقد كانوا مستعدين للمساومة مع أية جهة تتقدم بعروض مناسبة لهم تحقق لهم مكاسب محققة ومكانة مرموقة في المجتمع وان كانت على حساب الآخرين وعلى حساب البناء الصحيح الذي أراده الاسلام.

كانوا وجهاً جديداً متكرراً لوجوه الاشراف القدامى، برزوا في كل المجتمعات القديمة وتحلقوا حول الطواغيت وانتشروا في دول الظلم يمحونها ويشيدون بناءها و يقيمون عروشها، فهم (زينة) مناسبة لهذه العروش التي أصبحت قبلتهم ومحط أنصارهم على امتداد التاريخ.

ان استقرارها يعني استقرارهم هم في مراكزهم وعروشهم الصغيرة التي أقاموها من مخلفات وفضلات العرش الكبير، انهم كتلة واحدة متساندة تشعر أن في التصدي لمصلحة خلية واحدة منها متمثلة بشريف واحد، استعداداً للتصدي لجميع الاشراف المتحلقين حول العرش، بل للعرش نفسه، وهم ليسوا على استعداد للتنازل بسهولة والتراجع أمام (اعتداء) كهذا يرون أنه يستهدفهم جميعاً.

وهذا هو سبب رفضهم التغيير في كل العصور، سواء في زمن الانبياء السابقين وفي ظل سيادة الاباطرة والقيصرة والفراعنة، أو في زمن الرسالة المحمدية أو فيما بعد، مع (الخلفاء) والملوك والسلاطين وغيرهم، ويبدون رفضهم التغيير بأنه استجابة لسنن الآباء الاشراف الذين أرسلوا لهم دعائم (شرفيتهم) ووجاهتهم ونفوذهم وثرواتهم، ومهدوا لهم الطريق لكي يكونوا على رأس المجتمع وفي قمته، ولا يعني التغيير -بنظرهم- الا منافستهم على الثروة والنفوذ وإزاحتهم عن تلك المراتب التي رتبوها لأنفسهم أو رتبها آباؤهم لهم، وظهور طبقات جديدة من (الاشراف) تحل محلهم، وهذا أمر قد يتكرر في كل زمان ومكان.

وفي القرآن أمثلة عديدة على تصدي أولئك الملاء أو الأشراف للرسالات السماوية ووقوفهم إلى جانب الفراعنة والطواغيت لمنع انتشارها، معتبرين ان مساواتها بينهم وبين عبيدهم وفقرائهم وسوقتهم على المستوى الإنساني العام لا يؤهلها لكي تكون رسالات عظيمة والا لكانت قد كرسست لمصالحهم ومكانتهم ونفوذهم، وذهبوا إلى حد اعتبار تلك الرسالات غير صحيحة وغير مؤهلة ما دامت قد أنزلت على أناس فقراء لا يبلغون مستواهم في الثراء والنفوذ^(١).

فلما لم يكن الانبياء منحازين اليهم فإنهم أعداء لهم وحرب عليهم. وأحرى بهم أن يتصدوا لهم بنفس الشراسة التي يتصدون بها لمن يقصد الاضرار بهم شخصياً.

الوشاية والغدر لا تؤثران على شرف (الشريف)

ولم يتحرج الشريفان محمد بن الأشعث وابنه عبد الرحمن من الوشاية بمسلم عندما بلغهما أمر وجوده في دار طوعة، ولم يحتج ابن الأشعث على إهانة ابن زياد إياه ونخسه بالقضيب كما ينخس عبيده وخدمه وقد أمره أن يأتي به حالاً.

لقد حسب - وقد ازجى له ابن زياد ثناءً كاذباً عندما رأى موقفه في الوقوف ضد مسلم إلى صفه وقال له عندما وفد عليه صبيحة اليوم التالي: «مرحبا بمن لا يستغش ولا يتهم، ثم أقعده إلى جنبه»^(٢) - أنه كان مرموقاً حقاً وأثيراً عند سيده، لشخصه ومكانته في قومه، ولم يحسب أنه كان يقرب طالما كان يتطوع بتلك الخدمات لصالح أسياده، وقد اعتقد أن مكانته كانت تؤهله لتقديم الامان لمسلم بعد أن «أثنى بالحجارة وعجز عن

(١) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ الزخرف: آية ٣١ وقد تعرضنا في

هذه الدراسة بشكل موجز لموقف الملاء من الرسالات والانبياء.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٩.

القتال وانبهر»^(١)، فقال له: «ان القوم بنو عمك، وليسوا بقاتليك ولا ضاريك، لك الامان»^(٢).

وقد أدرك مسلم أن الدولة كانت تسعى سعيًا محمومًا لحربه والقضاء عليه وان ابن الاشعث لم يكن بالمكانة التي تؤهله لدفع الاذى عنه طالما أنه كان عدو الدولة الرئيسي الذي جردت كل قوتها لحربه، وقد أوصى ابن الاشعث أن يبعث إلى الحسين عليه السلام من يمنعه من القدوم إلى الكوفة، وقد وعده ابن الاشعث أن يفعل ذلك وأصر على موقفه بتقديم الأمان لمسلم قائلاً: «والله لأفعلن، ولأعلمن ابن زياد أني قد آمنتك»^(٣).

ولم يذكر لنا أحد أنه بعث أحداً إلى الحسين عليه السلام لمنعه من القدوم، كما أنه تحمل اهانات ابن زياد، ولم يبد الحماس المطلوب للدفاع عن مسلم بعد أن أمنه.

أخبره «محمد بن الاشعث بما كان منه وما كان من أمانه أياه، فقال عبيد الله: ما أنت والامان، كأننا ارسلناك تؤمنه، إنما أرسلناك لتأتينا به، فسكت»^(٤).

لقد أهانه مرة أخرى واشعره أن دوره لا يتعدى دور خادم أو شرطي مستخدم لدى الدولة لقاء ثمن، وأنه ليس بالاهمية التي يستطيع بها تقديم امان لأحد نيابة عن سيده، ولم يكلف نفسه عناء رده بعبارات لطيفة وأسلوب مؤدب لأنه علم أنه سيستسيغ تلك الاهانة وغيرها، وسيظل فرحاً مغتبطاً بوجوده في حاشيته وضمن أتباعه، ولم يتحرك حتى عندما استنهضه مسلم قائلاً: «يا ابن الاشعث أما والله، لولا أنك آمنتني ما

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٩.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٩.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٠، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٩٦.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٠، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٩٦.

استسلمت، قم بسيفك دوني، فقد اخفرت ذمتك»^(١) ولم ينهض فقد اخفرت ذمته منذ زمن بعيد.

ان ذلة ابن الاشعث امام ابن زياد كانت تلوح بوجوه كل أشراف الكوفة، فما كان لأحد منهم، وهو يهان أمامهم أن يقول له أنه أكثر كرامة منه وأنه عزيز قومه، بل ان الذلة قد ضربت عليهم جميعاً.

ولم يجد الشريف مسلم بن عمرو الباهلي، الذي قدم في ركاب ابن زياد إلى الكوفة، حرجاً من النظر فأمام مسلم بن عقيل الجريح العطشان وقد طلب ماء، فقال له وهو يشير إلى قلة باردة موضوعة على باب قصر ابن زياد: «أتراها، ما ابردها، لا والله لا تذوق منها قطرة أبدا حتى تذوق الحميم في نار جهنم.

قال له ابن عقيل: ويحك، من أنت؟

قال: إنا ابن من عرف الحق إذ أنكرته، ونصح لإمامه إذ غششته، وسمع وأطاع إذ عصيته وخالفت، أنا مسلم بن عمرو الباهلي.

فقال ابن عقيل: لأملك الشكل ما أجفاك، وما أفظك؟ وأقسى قلبك واغلظك! أنت يابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم مني»^(٢).

وبالتأكيد فإن ابن زياد لم يكلف الباهلي بالتصدي لمسلم وملاقاته بذلك الاسلوب اللفظي، وإن كان سيرتاح فيما لو بلغه ذلك عنه.. غير أن الباهلي حسب أن (مبادرته) هذه ستفرح سيده وسترجح كفته لديه، وأنه أمام إنسان مغلوب منهزم ذليل، ولم يحسب ان الأسير المجروح سيواجهه بكلمات قوية وثبات واضح، وإن موقفه سيكون عاراً عليه،

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٩١، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٩٧.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٠.

إذ بماذا كان سيحتج بعد ذلك اذا ما قيل له: انك لست بحاجة لمواجهة مسلم بمثل ذلك الكلام وانت تراه أسيراً جريحاً؟ هل سيقول انني أجبرت على ذلك، كما سيقول أمثاله إذا ما سيقوا إلى الحرب مثلاً؟ بالتأكيد أنه لن يلجأ إلى هذا العذر، وسيضطر إلى تكرار تبجحاته وادعاءاته بأنه في خدمة الدولة وأنه ينصح لأميره وامامه يزيد وأنه قد سمع وأطاع وحسبه بذلك فخراً وشرفاً.

هوى فرعون أولاً

لقد كان يضع أمامه فرعونه وهواه، ويفخر بذلك، ويرى أن مهمته الأساسية في هذه الحياة السمع والطاعة، ولا غير.

ولم يأنف من تقريع مسلم له بعد ذلك وسكت عنه، ولعله عدّه مما يمكن أن يضاف لرصيده أمام سادته، فهو قد تحمل في سبيلهم، وهكذا سيكسب رضاهم وعطفهم، وهكذا ابتلع كلمات مسلم المقرعة المنددة.

لقد أحجل موقفه الاشراف الآخرين الذين كانوا على باب القصر ينتظرون الإذن وحاولوا تدارك موقف الباهلي وأمروا غلمانهم ليسقوا مسلماً الماء، الذي لم يتح له أن يشربه، وقتل عطشان كما قتل إمامه وقائده الحسين عليه السلام بعد ذلك عطشان.

ولا حاجة لنا بذكر مواقف (الشريفين) عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن، فقد تطرقنا إلى الحديث عن بعض ملامح شخصيتهما وسلوكهما عند الحديث المختصر عنهما.

لم تستمل السلطة الأموية الناس عن طريق المبادئ التي جاء بها الاسلام، ولم تكن قضية ابن زياد عند أهل الكوفة قضية خلاف عقائدي مع الحسين عليه السلام، فقد كانوا يعرفون أبعاد الصراع معرفة تامة، ويعرفون أن دوافعه هي اسناد العرش الأموي

المتسلط على رقاب الناس بشتى الاساليب والسبل غير المشروعة.

وكانت بيوت الأموال الموضوعة تحت تصرف ابن زياد في الكوفة أحد الأسباب التي ساعدته في مهمته لاستقطاب الاشراف ورشوتهم.. كانت الكوفة كغيرها من الولايات التابعة للعرش الاموي «بلداً فيه عماله وامراؤه، ومعهم بيوت الأموال، وانما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار»^(١)، وكان لا بد أن يكون للاشراف حصة الاسد من هذه الأموال، ما داموا في مركز القيادة والتأثير، وكان لا بد أن ينحازوا لمن يمنحهم تلك الأموال ويفرقها عليهم.

وهكذا قال مجمع بن عبد الله العائذي للحسين عليه السلام، عندما سأله عن خبر الناس في الكوفة: «أما أشراف الناس فقد اعظمت رشوتهم وملئت غرائزهم، يستمال ودهم وتستخلص به نصيحتهم، فهم إلب واحد عليك»^(٢).

إنهم يسعون لتثبيت الاوضاع ما دامت لصالحهم، وما داموا باقين في مركز الصدارة والوجاهة والشرف، وقد جعل أولئك الأشراف من قضية السلطان -مهما كان تصرفه- قضيتهم الخاصة، يدافعون عنها بكافة السبل المتاحة.

كل ما يفعل الامير مقبول حتى وان شتمهم أو أهانهم

قد يسيغ أولئك الاشراف ضربة أو دفعة أو شتيمة أو لهزاً أو همزاً أو تعتعة من السلطان، وقد يرونه مؤدباً لهم -على حد تعبير بعضهم- فمن حقه أن يفعل ذلك وهو أمر عائد إليه، غير أنهم يتأذون بالتأكيد عند أقل كلمة أو إشارة أو تصريح يصدر عن أناس قد يكونون أقل منهم أهمية ضمن مواصفاتهم الاجتماعية المتعارفة، إنهم عند ذلك

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٤، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٩٩ من قول لأحد الذين نصحو

الحسين عليه السلام بعدم المسير إلى الكوفة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٥٨.

يظهرون تعالياً وشموخاً وأنفة، ويبدون كما لو أن الحمية الجاهلية قد لفتهم من شعور رؤوسهم وحتى أطافر أقدامهم، والويل لمن يتصدى لهم من عامة الناس أو فقرائهم.

أمر ابن زياد بأسماء بن خارجة فلهز وتعتع ثم ترك فحبس، كما ذكرنا عند التطرق لسيرة ابن زياد لمجرد احتجاج بسيط صدر منه حول معاملة ابن زياد لهانئ، وكان ذلك دافعاً لكي يتأدب محمد بن الاشعث ويسكت ويصرح بعد ذلك بأن الامير مؤدب، وقد أقدم ابن زياد على نخس الشريف المؤدب هذا بالقضيب في جنبه دون أي اعتبار لشرفيته عندما علم أن مسلماً في احد بيوته وأهانته بعد ذلك عندما قال له بأنه قد آمن مسلماً وقال له: ما أنت والأمان، وكأنه مجرد تابع صغير عليه أن ينفذ أوامر سيده وحسب، كما رأينا كيف أهان ابن سعد وغيره، اننا نلمس منه هذه المعاملة الجافية الغليظة المتعالية مع كل الأشراف عندما يسيطر ويقوى ويشتد، أما حين يضعف ويحاصر، فإنه يكون هيناً ليناً متساهلاً شأنه شأن أشرافه الآخرين.

ولقد أهانه يزيد وأهمله كما أهمله وأهانته معاوية من قبل وأوعده بأنه سيرجعه عبداً وينكر النسب الذي افتعله وادعاه له وأنه سيقتل كما ادعى ان لم يقتل الحسين عليه السلام، فرأى أن يستعمل نفس لغة يزيد ونفس وعيده وتهديداته مع الأشراف الآخرين الذين هم دونه شرفاً ومنزلة، وكانت رسالته لابن سعد نموذجاً آخر من رسالة يزيد له.

كان ابن زياد عارفاً بنفسيات (أشرافه)؛ لأنه (شريف) منهم، فلم تكن تلك النفسيات ترى مجالاً للابداع والمنافسة الا في عالم المصالح والمكاسب الشخصية، وقد لا يرون أي اعتبار لأي قيمة أو شيء يقف في طريق تحقيق تلك المكاسب حتى ولو كان ذلك هو الاسلام نفسه، وكان سباق الأشراف في كسب ود شريفهم الكبير يبدو من خلال اللمسات والتصرفات والمبادرات الشخصية التي يقوم بها كل منهم، فهم لا يكتفون -أغلب الأحيان- بتنفيذ المهام التي يكلفون بها وحسب، وإنما يضيفون إليها

أفعالاً يبتكرونها هم، لكي يرى أميرهم ذلك، ويرى أنهم منحازون فعلاً إلى صفه وأنهم يرون متعة بتنفيذ أوامره وتوجيهاته، وأنهم لا يفعلون ذلك لأنها أوامر واجبة الاداء، بل لأنها تعبر عما يرونه هم، ولعله لو لم يصدرها لقاموا هم بفعلها لأن ذلك ما ينبغي القيام به فعلاً لتكون لهم يد عنده وتحسن صورهم بنظره لتكون المكاسب - بعد ذلك - أდسم وأكثر وأضمن.

(مبادرات) شخصية .. لكي يرضى الأمير

لقد رأينا كيف نادى شمرٌ الامامَ قائلاً: «تعجلت النار في الدنيا قبل القيامة»^(١) فابن زياد لم يكلفه - بالتأكيد - بمثل هذه المهمة والتصدي للإمام ﷺ بمثل تلك الأقوال، التي شجعت آخرين مثل ابن حوزة ويزيد بن معقل وغيرهما ليقولوا مثلما قال، محاولين التقرب من شمر مثلما يحاول التقرب من ابن زياد مثلما يحاول هذا التقرب من يزيد!

كما أن شمرًا لم يكن مكلفاً بالتصدي للإمام ﷺ عند محاولته إقناع الجيش بالتراجع عن مهمته، وإلقاء الحجة على أفرادهِ للتخلي عن القيادة الظالمة التي استخدمتهم لتنفيذ مآربها وأغراضها، وان يجابه بتلك الأقوال التي ما كانت لتعمل الا على تجسيم جريمته وتضخيم عمله الذي اقدم عليه بتلك الروح المنحازة التي لم تتطلع على الاسلام أبداً.

ولعل ابن زياد لم يكلفه بإحراق البيوت وترويع النساء وقتل الاطفال كما أراد أن يفعل هو ورجاله.

وقد أدرك ذلك حميد بن مسلم بعد أن رأى اندفاعه شمرًا وخاطبه قائلاً: «والله ان في قتلك الرجال لما ترضي به أميرك»^(٢) غير أن شمرًا كان يرى ان ذلك كان الحد الأدنى

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤١٨ وورد في الطبري: ج ٣ ص ٣١٨، «استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة».

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٦.

المطلوب الذي أمر به أميره، أما الحد الذي يرضيه فعلاً، فقد حسب أنه ما كان يقوم به فعلاً من أفعال ومبادرات شخصية.

وبالتأكيد، فإن عمرو بن الحجاج كان يستطيع السكوت وعدم تحريض الناس على الحسين (عليه السلام) وأصحابه والمناداة بأعلى صوته: الا يبرز اليهم منكم أحد، فإنهم قليل، وقلما يبقون، والله لو لم ترموهم الا بالحجارة لقتلتموهم، يا أهل الكوفة. الزموا طاعتكم وجماعتكم، لا ترتابوا في قتل من مرق من الدين وخالف الامام^(١)، كان يمكن أن يكتفي بحمل سيفه كما فعل الكثيرون ولا يؤدي ذلك الدور الاستثنائي المحرض مع أنه ربما اعتذر بعد ذلك عن فعله وقال أنه أجبر على فعل ما فعله بعد ذلك.

وما كان الحصين بن نمير مكلفاً بالرد على الحسين (عليه السلام) وأصحابه حين سألوا أصحاب ابن سعد أن يكفوا الحرب حتى يصلوا، فقال لهم الحصين: «انها لا تقبل، فقال له حبيب بن مظاهر: زعمت ان الصلاة من آل رسول الله ﷺ لا تُقبل، وتقبل منك يا حمار؟»^(٢)، وقد أوشك حبيب على قتل الحصين، الا أن أصحابه استنقذوه منه وقتلوا هائناً، وأراد الحصين بعد أن ضرب هائناً على رأسه بالسيف واحتزه أحد شركائه في الجريمة، أن يأخذ رأس هاني قائلاً لشريكه: «إني لشريكك في قتله فقال الآخر: والله ما قتله غيري، فقال الحصين: أعطني أعلقه في عنق فرسي كيما يرى الناس ويعلموا أنني شركت في قتله ثم خذه أنت من بعد فامض به»^(٣) وقد استجاب له شريكه ودفع اليه الرأس، فجال به في العسكر قد علقه في عنق فرسه، ثم دفعه بعد ذلك اليه.

ولا شك أن الحصين أراد تسجيل موقف متميز لدى أسباده، فلا بد أن يعلموا أنه

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٢٣.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٦، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٢٥.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٧، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٢٦.

شارك بقتل شخصية مهمة من أصحاب الحسين (عليه السلام) لتحسن صورته في نظرهم ويحتل مكانة مرموقة فيما بعد أو لعله لم يكن ينشد الا رضاهم وحسب.

وربما كان لبعض أشراف الكوفة دور ظهوروا فيه بمظهر الذي لم يكن يجب قتال الحسين (عليه السلام)، إلا أنهم شاركوا في المعركة وكان مجرد حضورهم كافياً لحد الكثيرين من غير الأشراف ومن الأشراف أيضاً لأداء ما كلفوا وما لم يكلفوا به، وقد رأينا كيف أن شيث بن ربيعي قد حاول التنصل من مقاتلة الحسين (عليه السلام)، بنفسه، رغم أنه كان ضمن الجيش المقاتل، حاول في البداية عدم الذهاب إلى كربلاء مدعياً المرض، إلا أنه خاف ابن زياد وذهب، وقد أراده ابن سعد أن يتقدم لقتال الحسين (عليه السلام) في جماعة من الرماة، إلا أنه تنصل من ذلك وقال له: «سبحان الله، أتعمد إلى شيخ مضر وأهل المصر عامة، بحثه في الرماة، لم تجد من تندب لهذا ويجزي عنك غيري، وما زالوا يرون من شيث الكراهة لقتاله»^(١).

فقد كان من اتباع أمير المؤمنين (عليه السلام) وأصحابه وقاتل تحت لوائه معاوية وأصحابه، ثم وجد نفسه بعد أن انفرد معاوية بالسلطة وواجه أهل الكوفة بالعسف والغشم والإرهاب والرشوة مدفوعاً إلى خدمة صاحب العرش الذي تسلط على رقاب المسلمين، وخدمة ابنه بعد ذلك ومسلطاً سيفه وسهامه هذه المرة على رقاب من والاهم قبلاً ورأى أنهم أحق الناس بالأمر، ولعله لا يزال يعتقد بذلك، إلا أنه لم يجد في نفسه القوة على التصريح بذلك وإعلان شجبه للحرب أو التخلي عنها.

وقد عبر عن ذلك بكلمات متألّمة - في إمارة مصعب - وفي غياب سلطة الأمويين عن الكوفة قائلاً: «لا يعطي الله أهل هذا المصر خيراً أبداً، ولا يسددهم لرشد، ألا تعجبون أنا قاتلنا مع علي بن أبي طالب ومع ابنه من بعده آل أبي سفيان خمس سنين، ثم

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٢٣.

عدونا على ابنه وهو خير أهل الأرض نقاتله مع آل معاوية وابن سمية الزانية! ضلال يا لك من ضلال»^(١).

الكذب لا يضر بشرف (الشريف)

وقد تهادى اشرف الكوفة بعد ذلك إلى أبعد حد، فراحوا يضيفون الكذب إلى مجادهم وفضائلهم! وقد رأينا كيف أنكروا دعوتهم الحسين عليه السلام إلى الكوفة ووعدهم إياه بالنصر وأنه يقبل على جند مجندة له، وكان ذلك أمام الجيش كله الذي ربما كان بعض أفراداه مطلعين على مراسلاتهم للحسين عليه السلام.

كانت مواقفهم كلها تفيض بأكاذيبهم المعلنة وغير المعلنة، لم يجدوا أي حرج منها ما داموا يحفظون بها حياتهم ويحققون المزيد من المكاسب والأرباح والفوائد، وقد أضافوا إلى أكاذيبهم الكثيرة كذبة أخيرة، حاولوا أن يشوهوا بها الصورة المشرقة التي ظهر بها الحسين عليه السلام وأصحابه خلال المعركة، فلم يسجل أحد - حتى أعداؤهم أنفسهم - أن الحسين عليه السلام أو أحد أصحابه قد خاف أو تردد أو أحجم عن القتال، ولم يذكر لنا أحد أن الحسين عليه السلام قد تنازل أمام ابن زياد أو ابن سعد، أما روايتهم ليزيد، فقد كانت تناقض ما صرحوا به ورووه هم في عشرات الروايات الأخرى التي تحدثوا فيها عن استبسال الحسين عليه السلام وأصحابه.

فكيف يهرب ويلوذ بالآكام والحفر من لم يكن أحد «اربط جأشاً ولا أمضى جناحاً ولا أجرأ مقدماً منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله، إن كانت الرجالة لتتكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب»^(٢).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٥ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٢٤.

(٢) عن عبد الله بن عمار بن عبد يغوث البارقى، وهو ممن شارك في الجيش الذي قتل الإمام عليه السلام الطبري: ج ٣ ص ٣٣٤.

وهل يهرب من يهازل صاحبه وهما يتزاحمان للإطلاء بالنورة قبيل نشوب المعركة، ويكاد يطير فرحاً وهو يخاطب صاحبه: «والله إني لمستبشر بما نحن لاقون، والله إن بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل هؤلاء علينا بأسيافهم، ولوددت أنهم قد مالوا علينا بأسيافهم»^(١).

وهل يهرب من كان مثل زهير بن القين، وهو يخاطب الجيش المعتدي قبل بدء القتال بهذه الكلمات القوية الواثقة؟: «إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد، فانكم لا تدركون منها إلا بسوء عمر سلطانها كله، ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وارجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أمثالكم وقراءكم»^(٢).

ومن يخاطب الشمر بقوله: «أفالموت تخوفني! فوالله للموت معه أم مع الحسين ﷺ، أحب إليّ من الخلد معكم»^(٣).

لا شك أنها فرية كبيرة أن يقول أحد بعد ذلك أن أي أحد من أصحاب الحسين ﷺ قد خاف ذلك المشهد الرهيب وقد أحاط بهم ذلك العدد الكبير من الأعداء وإنهم لم يقاتلوا وإنما لاذوا بالآكام والخفر - على حد تعبير مندوب ابن زياد الشريف زحر بن قيس -.

لقد رويت لنا عشرات الروايات عن مواقف أصحاب الحسين ﷺ وأرجوزاتهم وهم يقاتلون أعداءهم، فلم يذكر أي مؤرخ أن أحداً منهم قد خاف أو تخاذل أو تراجع

(١) وهو برير بن خضير، الطبري: ج ٣ ص ٣١٨.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٩.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣١٩.

أو طلب الامان، أو تخلى عن الحسين عليه السلام، بل إن سباقهم للموت بين يديه عليه السلام لم يساوه إلا سباق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بين يديه في بدر، بل إن حماس أصحاب الحسين عليه السلام واستبسالهم امتد ليشمل حتى النساء والأطفال، ولعلنا سنستعرض -عند الحديث عنهم- بعض تلك المواقف الفريدة التي لم نشهد لها مثيلاً طوال تاريخنا الاسلامي وتاريخ الشعوب والأمم كلها.

كانت شهادة (الشریف) زحر بن قيس الذي كان يرافقه (الشریف) شمر بن ذي الجوشن أمام يزيد تناقض نفسها، فبينما يقول في القسم الأول منها: «أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله وبنصره، ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته، فسرنا إليهم، فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال، فاختاروا القتال على الاستسلام»^(١)، وهي شهادة تدل على أن الحسين عليه السلام وأصحابه قد قرروا القتال ورفضوا الاستسلام رغم مواجهتهم جيش ابن زياد الضخم، وهو قرار بدا أن لا رجعة فيه... يقول في القسم الثاني: «فعدونا عليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية، حتى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم، جعلوا يهربون إلى غير وزر، ويلوذون منا بالأكام والحفر، لوإذاً كما لاذ الحماة من صقر، فوالله يا أمير المؤمنين ما كان الا جزر جزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسادهم مجردة، وثيابهم مرملة، وخدودهم معفرة، تصهرهم الشمس، وتسفى عليهم الريح، زوارهم العقبان والرخم بقي سبب»^(٢)، وهو أمر فندته الاحداث والوقائع، فالمعركة قد استمرت حتى بعد صلاة الظهر وربما دامت حتى العصر، حيث أدى الحسين وأصحابه عليهم السلام الصلاة في وقتها المحدد، وقد جرت

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٨، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٣٧.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٨.

مبارزات فردية أدى كل واحد منهم فيها دوراً بارزاً وقتل عدة أفراد من الجيش الذي أحاط بهم، وقد بلغت خسارة الجيش مبلغاً رأى فيه قاداته أن المباراة الفردية ستلحق بهم أفدح الخسائر وأنه لا بد من اتباع أسلوب الهجوم الشامل بعد أن «قاتلهم أصحاب الحسين قتلاً شديداً، وأخذت خيلهم تحمل، وانما هم اثنان وثلاثون فارساً، وأخذت لا تحمل على جانب من خيل أهل الكوفة الا كشفته»^(١).

حتى استنجد قائد فرسان ابن سعد به قائلاً: «أما ترى ما تلقى خيلي مذ اليوم من هذه العدة اليسيرة ابعث إليهم الرجال والرماة»^(٢).

لقد بلغ من أمر استبسالهم وإقدامهم أن أحد قادة ابن سعد، عمرو بن الحجاج، ناشد الناس ألا يبرزوا إليهم، وقد رأى ابن سعد رأي قائده هذا.

«صاح عمرو بن الحجاج بالناس: يا حمقى، أتدرون من تقاتلون، فرسان مصر، قوماً مستميتين، لا يبرزن لهم منكم أحد، فانهم قليل، وقلما يقون، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم، فقال عمر بن سعد: صدقت، الرأي ما رأيته، وأرسل إلى الناس يعزم عليهم الا يبارز رجل منكم رجلاً منهم»^(٣).

كان زحر يحسب أنه بذلك يسر سيده ويرضيه اذا ما بالغ ببطولة قاداته وجسارتهم المزعومة أمام الحسين عليه السلام وأصحابه، وهو الأمر الذي دعا الحسين وأصحابه -على حد زعمه- لكي يهربوا ويلوذوا بالحفر والآكام، وحسب أنه بذلك يقدم وصفاً شائقاً ليزيد وما علم أنه يضيف إلى جريمة القتل رذيلة الكذب، ليذكره الناس بعد ذلك وهم يلوون برؤوسهم اشمئزازاً من رائحة الكذب المنفرة المقيته، فللكذب رائحة كريهة تظل ولو

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٥ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٢٤.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٥ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٢٤.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٢٣.

بعد الوف السنين تزكم الانوف وتخدش المسامع.

ولعل هذه الرواية قد وضعت على لسان زحر بعد ذلك، وهو أمر كان يسره حتماً، فهذا هو اعلام الدولة يريد ان يقول ان اعداءها غير جادين حقاً بمواقفهم، وأنهم بمجرد أن يتعرضوا لسطوة الدولة وسلطانها، فانهم سرعان ما ينهزمون وينكسرون، حتى أن القضاء عليهم لا يستغرق الفترة التي تستغرقها ذبح ناقة أو شاة.

وهو تحذير لمن يحتمل أن يثور على سلطانها في المستقبل، خصوصاً وان الرواية قد حفلت بوصف ما حصل للحسين وأصحابه عليه السلام بعد قتلهم، وهو ما يرجح انها موضوعة عمداً.

الخوف على المصالح: المبرر الدائم للاستسلام

ان أشراف الكوفة قد يبررون وقوفهم إلى جانب السلطة، بخوفهم منها على أنفسهم ومصالحهم، خصوصاً وأن هذه السلطة الغاشمة قد اعتمدت شبكة واسعة من الشرطة والمخبرين والعرفاء والنقباء والجنود المرتزقة والأشراف الآخرين ممن انحازوا إليها قبلاً، وعمدت إلى إبعاد ممارسات الإسلام الصحيحة عن الحياة، اللهم إلا تلك الممارسات الظاهرية التي تتيح لها الإدعاء أنها سلطة إسلامية تحكم دولة إسلامية، وارادت ان تكون تطلعات الناس وهمومهم تطلعات وهموماً عادية لا تعنى إلا بالشؤون الخاصة وترى في التعرض لأي شأن من الشؤون العامة أمراً خطيراً ينبغي أن لا يُناقش من قبل عموم الناس، كما أنها عمدت -وبنية مبيتة- على إثارة العصبية القبلية والخلافات بين القبائل وقد استمالت بعضها إلى جانبها ولم تترك القبائل الأخرى لشأنها، وانما جعلت لها في كل قبيلة قاعدة ورصيماً وقد «بقي التنظيم القبائلي سائداً، وبقي زعيم كل قبيلة هو الشخص الذي يرتبط كهزمة الوصل بين قبيلته والسلطان،

وهذا التنظيم القبائلي بطبيعته يخلق جماعة من الزعماء ومن شيوخ هذه القبائل الذين لم يربهم الاسلام في المرتبة السابقة، ولم يعيشوا أيام النبوة عيشاً صحيحاً، مما جعل من هؤلاء طبقة معينة ذات مصالح وذات أهواء وذات مشاعر في مقابل قواعدها الشعبية مما يوفر لهم أسباب النفوذ والاعتبار.. ان كل قبيلة كانت تخضع إدارياً وسياسياً لزعامه تلك القبيلة التي تشكل همزة وصل بين القبيلة والحاكم الذي يسهل عليه أن يرشي رؤساء هذه القبائل بقدر الإمكان، وهذا ما كان يفعله غير علي (عليه السلام)، وكان عاملاً من عوامل القوة بالنسبة إلى معاوية^(١)، وقد ساعد اعتماد رؤساء القبائل منح الدولة وعطاياها السخية على وقوعهم واستسلامهم لها استسلاماً تاماً، وكانوا اداة لإخضاع قبائلهم والوقوف بوجه من يقف ضد الدولة.

إن من شأن هذا الأمر أن يعزل من يريد التصدي للأمر العامة التي غالباً ما تتبناها الدولة ولا تسمح لأحد بالتدخل فيها، بل وتعاقب على ذلك بعنف وبقسوة وبالغبن، ومن شأنه أن يزيد عدد المنسحبين من ساحة الإهتمامات العامة، التي تعني -بنظر السلطة- التدخل في شؤونها والتأمر عليها، إلى ساحة الهمج الرعاع الذين قد لا يحسون حتى بالظلم الواقع عليهم شخصياً والذين يمكن السيطرة عليهم وسوقهم لتنفيذ أغراض الدولة ومآربها طالما أنهم مفرغون من العلم والمبادئ.

لقد أوضحت مؤشرات عديدة أن أشراف الكوفة كانوا يتصرفون بحذر ووجل، فكأن سيفاً كان يبدو على الدوام مسلطاً على رؤوسهم، ان أيأ منهم يمكن أن يُستبدل بسهولة، كما أن قتل من يخرج على الدولة يبدو سهلاً كذلك دون أن ينهض من قومه أو من قبيلته من يمكن ان يخلصه رغم أن عدد المقاتلين من بعض القبائل يمكن أن يفوق حتى عدد الذين جندتهم الدولة لقتال الحسين (عليه السلام) أو يقترب منه غير أن الأواصر قد

(١) أهل البيت (عليهم السلام): ص ١٥٧.

فُطِعت كلها حتى الآصرة القبلية التي لم يحاربها الاسلام طالما كانت قائمة على مبادئه وقيمته والتزاماته، وأصبحت مراكز القوى المتنافرة تبدو حتى داخل القبيلة الواحدة وليس بين القبائل المختلفة وحسب، وأي رئيس أو شريف منها يوالي الدولة وينحاز اليها يبدو هو المرجع لنيل مركز الرئاسة فيها، فالثروة والقوة بيد الدولة تمنحها لمن تشاء من أعوانها ومرترقتها.

أشراف الكوفة : نماذج معادة مكررة

ان ملاً الكوفة وأشرافها شخصيات جديرة بالتأمل والدراسة، وهي نماذج مكررة لشخصيات أخرى، رافقت فرعون، ورافقت القياصرة والأكاسرة والطواغيت، ورافقت معاوية ويزيد، وكانت قيمتها تبدو من خلال الثمن الذي قدره هؤلاء لها، وبالقدر الذي أبدته من ولاء وحماس إلى جانب السلطان والعمل الذي قامت به لتثبيت حكمه وعرشه وكيانه، أما القيم والمثل العليا فقد كانت ترى أن من مصلحتها أن تنساها لأنها ستكون عقبة في طريق صعودها وتقربها إلى العرش، وأن لا تضع أمامها الا قيمها ومثلها العليا المتمثلة بالسلاطين والطواغيت الذين تحلقت حولهم وحققوا عن طريقهم أكبر المكاسب وأكثرها، وقد تكررت هذه الشخصيات فيما بعد، وبرزت على مسرح الأحداث طيلة الحكم الأموي وطيلة حكم السلاسل المتعاقبة في العالم الاسلامي وغيره.

وقد تطرقنا إلى الحديث عنها من خلال بعض نماذج أشراف الكوفة في فترة الاحداث التي تناولناها هنا؛ لأنها لعبت دورا كبيرا لجعل الأحداث تتخذ السمار الذي اتخذته، والذي لا زالت امتنا تعاني من آثاره ونتائجه.

أهل الكوفة.. وسائر الناس

لا يدركون أن في الحياة ظلما

لقد رأينا، عند الحديث عن أشرف الكوفة و(وجوه الناس)، الذين شكلوا طبقة الظلمة المستضعفين - على حد تعبير القرآن الكريم - أو أعوان الظلمة على حد تعبير أمير المؤمنين (عليه السلام)^(١)، الدور الذي لعبه هؤلاء في ظل التركيبة الاجتماعية المستحدثة التي ظهرت في عهد معاوية ومطلع الدولة الأموية، لترسيخ هذه الدولة وتثبيت قواعدها وأسسها، ورص صفوف الناس حولها وابعادهم عن قيم الاسلام الحقيقية وآل البيت (عليهم السلام)، واستعرضنا العملية الضخمة التي قام بها معاوية بمؤازرة هؤلاء لنقل ولاء الناس، من الاسلام وقادته الحقيقيين رسول الله (صلى الله عليه وآله) وآله (عليهم السلام)، الى شخصه والى أفراد عائلته وفي مقدمتهم ابنه زيد، وسعيه الدؤوب طيلة سبع سنوات لتثبيت مركز يزيد كولي للعهد وقائد مرشح للأمة الاسلامية من بعده.

ورأينا كيف استدرج الأمة بخطوات منسقة متصاعدة لتقبل انحرافها وتقبل وجود يزيد وأمثاله على رأس الدولة الاسلامية خليفة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) نفسه.

وكان من الطبيعي أن يجد معاوية، بعد أن استدرج فئات الأشراف، ذات النفوذ والثروة والرأي إلى جانبه ووظفهم في خدمته وجعلهم يتبنون نظرياته واطروحاته وأساليبه في الحكم والحياة، في سائر الناس الآخرين، المستضعفين، المفرغين من الثروة والنفوذ والجاه والعلم، مادة خصبة لتمرير مخططاته وزرع ما يريد زرعه في هذه الطبقة

(١) راجع عناصر المجتمع - الشهيد الصدر.

الواسعة، والتي جعلها أكثر اتساعاً من ذي قبل، والتي لا تعي طبيعة وسبب وجودها وحياتها، والتي لا تركز اهتماماتها إلا للأمور اليومية، المعاشة البسيطة ولا تتطلع إلى أبعد من مواطني أقدامها، فهي مشلولة، محدودة الإدراك مقيدة إلى اهتماماتها البسيطة، مسلوكة الإدراك والشعور في أغلب الأحيان، مسيرة من قبل غيرها، و(غيرها) هنا هم (الأشراف) ذوو الاتصال المباشر بالسلطة، فهم وحدهم أصحاب القوة والمؤهلات لقيادة المجتمع والتأثير فيه، كما أنهم يقفون على رأس التركيبات الهرمية البسيطة التي تشكلها عموم القبائل، لتكون فيما بعد التركيب الهرمي الكبير، المعقد نسبياً، للدولة التي هي كل شيء وفوق كل شيء.

وقد رأينا أن السياسة الأموية سعت منذ البداية لتقريب المتنفذين من رؤساء القبائل وبعض الوجهاء والشخصيات ورشوتهم بالأموال والمناصب، وخلق مراكز قوى حتى داخل هذه القبائل لزعزعتها وإضعافها وتغيير ولائها أفرادها للدولة ورموزها بشكل مباشر.

إن من شأن التركيبات الإدارية المستحدثة في المدن مثل نظام الأرباع وأجهزة الشرطة، والشرطة السرية (العيون) والعرفاء والنقباء وقادة الجند وغيرهم، أن تعمل على تفتيت مجتمع المدينة المتألف من قبائل عديدة وتجعل منه مجتمعاً خاضعاً للإدارة والرقابة المباشرة للدولة وتجعل من الفرد غير مدين بالولاء حتى لقبيلته التي أخذ يبعث عنها بعض الشيء وينشغل عنها باهتماماته المعيشية اليومية المحدودة، وإذا ما أضفنا إلى ذلك التنافس والتناحر القبليين اللذين غالباً ما يؤجج أوارهما رئيس النظام نفسه بخطط منظمة مدروسة، أدركنا إلى أي حد أصبحت القبائل وأشرافها وزعمائها أداة رخيصة بيد السلطة تتلاعب بها كيف تشاء.

إن الفرد العادي في غمرة انشغاله بأمور حياته البسيطة وهمومها المتكررة وحاجاته

اليومية يفقد الشعور بأية اهتمامات أخرى تصل إلى حد مناقشة الأمور العامة ومشاكل الأمة، كما يفقد حتى احساسه وشعوره بالظلم، ويتصرف بشكل آلي معاد مكرور مشابه لتصرفات الآخرين من أشباهه، كما يفقد الشعور والاهتمام بكل مثل أعلى ما عدا المثل الأعلى الواطئ القائم أمامه، وهو القوة التي يرى أنها تسيره وتتحكم به وفي مصيره ومعيشته، وهو هنا رأس الدولة (فرعون) الذي يراه شاخصاً أمامه كائناً هائلاً يتمتع بامكانات غير محدودة وقادراً على محوه واستئصاله أو رفعه وجعله ذا شأن اذا ما كان (مخلصاً) في خدمته وتحقيق أهدافه ومآربه.

ان هؤلاء يشكلون الطائفة الثالثة في عملية التجزئة الفرعونية لمجتمع الظلم، فهذه الطائفة تتشكل من «أولئك الذين عبر عنهم الامام علي عليه السلام «بالهجم الرعاع»، لا تدرك أنها مظلومة، ولا تدرك أن في المجتمع ظلماً؛ هي الآن تتحرك تحركاً آلياً، تحرك التبعية والطاعة دون تدبر، دون وعي، سلب فرعون منها تدبرها، عقلها، وعيها، ربط يدها به، لا عقلها، ولهذا فهي تحرك يدها تحريكاً آلياً، وتستسلم للأوامر، للأوامر الفرعونية، دون أن تناقشها، حتى دون أن تتدبرها، حتى بينها وبين نفسها، لا بينها وبين الآخرين.

هذه الفئة طبعاً تفقد كل قدرة على الابداع البشري في مجال التعامل مع الطبيعة، تفقد كل قابليات النمو لأنها تحولت إلى آلات، اذا وجد أن هناك ابداعاً في هذه الفئة، انما هو ابداع من يحرك هذه الآلات، ابداع تلك الفرعونية التي تحرك هذه الآلات، وأما هذه الفئة، فلم تعد أناساً وبشراً يفكرون ويتدبرون، لكي يستطيعوا أن يحققوا لونا من الابداع على هذه الساحة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾^(١) لا يوجد في كلام هؤلاء ما يشعر بأنهم كانوا يحسون

بالظلم أو كانوا يحسون بأنهم مظلومون، وانما هو مجرد طاعة، مجرد تبعية»^(١).

هدف أمير المؤمنين عليه السلام تقليص فئة الهمج الرعاع

لقد أراد أمير المؤمنين عليه السلام في مطلع حكمه أن يستأصل هذه الطبقة، لا بالقضاء عليها جسدياً، وانما بتقليصها وتحويلها إلى طبقة مدركة واعية متعلمة (على سبيل نجاة)، تدرك مهماتها وواجباتها، وتعرف موقعها من المسيرة الإسلامية الشاملة، تتصرف على ضوء وعي ومعرفة وعلم وتتطلع إلى المزيد منها، في ظل مشاركة فاعلة حقيقية بالأحداث، لا كفئة متلقية مستسلمة، وانما كفئة مفكرة متدبرة لها مواقفها الواضحة في مجمل المسيرة الإسلامية، وقد نجح فعلاً بجعل الكوفة تنحاز إلى صفه وتمتاز بطابعه، وهذا ما أدركه عدوه اللدود معاوية المحاط بالحاشية القرشية الحاكمة التي رأت أنها مقبلة على حالة انهيار في ظل أوضاع حكومة أمير المؤمنين عليه السلام، فعمل على إيجاد ثغرات واسعة في سور الكوفة وبذل جهوداً كبيرة لاستمالة أشرافها وزرع الفتن بين قبائلها وتصوير المعركة كلها على أنها خلاف بين أناس (كبار) ينتمون لعبد مناف، وان على الآخرين أن يتدخلوا بقدر ما يروا مصلحة شخصية كبيرة لهم في هذا التدخل، وقد لوح للجميع بالأموال والمناصب في إشارة واضحة إلى أنهم لن يحققوا هذه المصلحة الا في ظل حكمه هو، لا حكم أمير المؤمنين عليه السلام أو أي حكم آخر.

هدف معاوية، زعيم دولة الظلم: توسيع طبقة الهمج الرعاع

ولم تكن الظروف الصعبة التي عاشها أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة ملائمة بشكل تام لتشكيل هذه الفئة الواسعة التي أرادها أن تكون طليعة إسلامية تقتدي به وتفتح عيونها وبصائرهما على الرؤى والأطروحات الإسلامية الصحيحة بعد تنقيتها من الشوائب

(١) عناصر المجتمع - المدرسة القرآنية: ص ٢٣١ - ٢٣٢.

التي علقت بها بفعل الفترة المزدحمة بالأحداث والصراعات السياسية والشخصية على الحكم والمناصب والمكاسب المختلفة، وتكون نموذجا للأجيال الإسلامية اللاحقة. فئة يربّيها ويعدّها هو بنفسه لتكون لها أصالة تلك التي ربّاها وأعدّها رسول الله ﷺ من قبل.

لقد رأينا كيف تصدى له مدة حكمه الفعلي أولئك الذين رأوا أن من مصلحتهم أن يقفوا في طريقه واستماتوا في سبيل منعه من تطبيق مشروعاته الرسالية الشاملة القائمة على نفس الأسس الأولى التي أقامها رسول الله ﷺ، والتي كان تطبيقها سيّيح له منع الانحراف والخذل والشلل الذي لحق بجسم الأمة، ويمكنه من تلافي الأوضاع المأساوية التي جرّت إليها ويراد جرّها إلى المزيد منها، فشنوا عليه حروبهم المدمرة التي لا زالت تعاني منها إلى اليوم.

و من الطبيعي أن عمل أمير المؤمنين (عليه السلام) كما كان عمل الرسول ﷺ من قبل، ما كان يستهدف الأمة الإسلامية القائمة في زمانه وحسب، وإنما كان يستهدف الأمة على امتداد الأزمان، ما دام أبناؤها يعيشون على هذه الأرض ويتعاملون مع الاسلام كدين وحيد وأمل وحيد وهدف وحيد يجنبهم كل المزالق والتناقضات التي تنشأ نتيجة التعاملات البشرية البحتة المنفصلة عن قيم السماء، وهي قيم الاسلام بكل تأكيد.

ان تحقيق هذا الهدف، وهو تحويل الأغلبية من أبناء الأمة إلى عناصر واعية مفكرة متدبرة تتصرف بوعي من علم وادراك ومسؤولية، كان سيقطع الطريق أمام أي فرعون محتمل قد يسعى للتسلط على هذه الأمة والقفز على أكتاف أبنائها ونهب كل المكاسب التي حققتها في ظل الاسلام، وكان سيمنعه من بسط سلطانه المطلق عليها والذي سيكرسه للتمهيد لجلوس خلفائه وأبنائه على العرش والاستئثار به إلى الأبد.

و اذا أنه قد أتيج لهذا الفرعون - بفعل الحدث المأساوي الكبير الذي فقدت فيه الأمة قائدها الحقيقي وأملها القائم لتحقيق الرسالة الاسلامية وتطبيق الحكم الاسلامي الصحيح - أن يسيطر على الأمة فعلا ويقودها لتحقيق كل ما لم يتمكن من تحقيقه من قبل، ورأى أن هذه الأمة قد استسلمت بعد فترة المتاعب والاضطرابات والفتن السابقة التي كان هو أحد مسببها الرئيسيين، فانه رأى الفرصة قد أصبحت سانحة أمامه لجرها إلى المزيد من التنازلات والانحرافات، وقد قبلت في النهاية، بفعل الحملة المنظمة الدؤوبة التي قادها ورصد لها كل امكانات الدولة وأموالها، أن تقع في الشرك الذي أعده لها وتدخل فيه طواعية، وأن تقبل يزيد خليفة واماماً، وأن تعد نفسها لتقبل كل ممارساته الخارجة عن الاسلام جملة وتفصيلاً.

وعى مجتمع العراق: ذنب ينبغي أن يحاسب عليه : منهج متكامل لتحطيمه

و لم يكن معاوية بالذي يهمل الحلقات التي يرى أنها لا تزال تتمتع بقدر من القوة والارادة الحرة الواعية المستقلة كمجتمع العراق، والكوفة على وجه الخصوص الذي رأى أنه سيكون عقبة في طريق طموحاته ومشاريعه، ولهذا فانه تعامل مع العراقيين وأهل الكوفة بشكل مغاير لتعامله مع الآخرين، وضع منهجاً لهذا التعامل، رأينا بعض أسسه من خلال وصاياه لخليفته من بعده وولاته وعماله، ثم رأينا كيف رماهم بأقسى أنصاره، وأشدهم وحشية مثل زياد ابن ابيه، وكيف عمل هذا على قتل كل أولئك الذين عرفوا بالولاء لأمر المؤمنين ﷺ، ولم يبق الا على من قبل به وسكت عن ممارسات الدولة وأعمالها المشينة، وقد أصدر معاوية تعليماته: ان برئت الذمة ممن روى حديثاً في مناقب علي وفضل أهل بيته، وكان أشد الناس بلية أهل الكوفة، لكثرة من بها من الشيعة، فاستعمل زياد ابن أبيه وضم اليه العراقيين، البصرة والكوفة، فجعل يتبع الشيعة وهو بهم عارف، يقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وصلبهم

في جذوع النخل، وسمل أعينهم وطردهم وشرّدهم، حتى نفوا عن العراق فلم يبق بها أحد معروف مشهور، فهم بين مقتول أو مصلوب أو محبوس أو طريد أو شريد.

القتل على التهمة والظنة والشبهة، قانون دولة الظلم

وكتب معاوية إلى جميع عماله في الأمصار: أن لا تجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة، وانظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيّه ومحبي أهل بيته وأهل ولايته، والذين يرون فضله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم، وقدموهم، وأكرمهم، واكتبوا بمن يروي من مناقبه باسمه واسم أبيه وقبيلته، ففعلوا، حتى أكثرت الرواية في عثمان، وافتعلوها لما كان يبعث اليهم من الصلات والخلع والقطائع من العرب والموالي، فكثر ذلك في كل مصر وتنافسوا في الأموال والدنيا، فليس يجيء من مصر من الأمصار، فيروي في عثمان منقبة أو فضيلة الا كُتِبَ اسمه وقُرِبَ أُجِرَ، فلبثوا بذلك ما شاء الله.

ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر، فادعوا الناس إلى الرواية في معاوية وفضله وسوابقه، فان ذلك أحب إلينا وأقرّ لأعيننا وأدحض لحجة أهل هذا البيت، وأشد عليهم.

فقرأ كل أمير وقاض كتابه على الناس، فأخذ الناس في الروايات في فضائل معاوية على المنبر، في كل كورة وكل مسجد زوراً، وألقوا ذلك إلى معلمي الكتاتيب، فعلموا ذلك صبيانهم، كما يعلمونهم القرآن، حتى علّموه بناتهم ونساءهم وحشمتهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله...

وكتب زياد ابن أبيه إليه في حق الحضرميين أنهم علي دين علي، وعلى رأيه، فكتب إليه معاوية: اقتل كان من كان على دين علي ورأيه، فقتلهم ومثل بهم.

وكتب معاوية إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البينة أنه يجب عليا وأهل

بيته فاحموه من الديوان، وكتب كتاباً آخر: انظروا من قبلكم من شيعة علي واتهموه بحبه فاقتلوه، وان لم تقم عليه البينة، فقتلوهم على التهمة والظنة والشبهة، تحت كل حجر، حتى لو كان الرجل تسقط منه كلمة ضربت عنقه.

وحتى كان الرجل يرمى بالزندقة والكفر كان يكرم ويعظم، ولا يتعرض له بمكره، والرجل من الشيعة لا يأمن على نفيه في بلد من البلدان، لا سيما الكوفة والبصرة، حتى لو أن أحداً منهم أراد أن يلقي سرا إلى من يثق به لأتاه في بيته، فيخاف خادمه ومملوكه فلا يحدث الا بعد أن يأخذ عليه الايوان المغلظة ليكتمن عليه.

ثم لا يزداد الأمر الا شدة حتى كثرت وظهرت أحاديثهم الكاذبة، ونشأ عليه الصبيان يتعلمون ذلك، وكان أشد الناس في ذلك القراء المراءون المتصنعون الذين يظهرون الخشوع والورع، فكذبوا وانتحلوا الأحاديث وولّدوها، فيحظون بذلك عند الولاة والقضاة، ويدنون مجالسهم، ويصيبون بذلك الأموال والقطائع والمنازل، حتى صارت أحاديثهم ورواياتهم عندهم حقاً وصدقا، فرووها وقبلوها وتعلموها وعلموها، وأحبوا عليها وأبغضوا من ردها أو شك فيها.

فاجتمعت على ذلك جماعتهم وصارت في يد المنتسكين والمتدينين منهم الذين لا يستحلون الافعال لمثلها، فقبلوها، وهم يرون انها حق، ولو علموا بطلانها وتيقنوا أنها مفتعلة لأعرضوا عن روايتها ولم يدينوا بها، ولم يبغضوا من خالفها، فصار الحق عندهم في ذلك الزمان باطلاً والباطل حقاً، والكذب صدقا والصدق كذبا^(١).

و قد كانت أساليب السلطة الغاشمة المتمتعة بالمال والنفوذ مع موالئها ومن أعلن

(١) المجلسي - بحار الأنوار ج - ٤٤ ص ١٢٧ - ١٢٥ عن الاحتجاج، وقد اسهت كتب التاريخ عن ممارسات معاوية وزياد ضد العراق، وهو أمر يحتاج إلى أن يفرد له كتاب مستقل لما للموضوع من أهمية تاريخية كبيرة.

استعداده لخدمتها والسير في ركابها بتقريبهم ومنحهم المناصب والأموال، وافقار من تميزوا بمواقفهم السلبية منها ومحاربتهم وقتلهم وسجنهم ونفيهم، وتشكيل مواضع وأسس اجتماعية جديدة قائمة على مدى الولاء للسلطة، من شأنها العمل على تفتيت المجتمع وجعله يفقد المرتكزات السابقة التي كان يقوم عليها منذ عهد الرسول ﷺ. كما أن أسلوب محاصرة الناس ومراقبتهم واستحداث أساليب جديدة في تقسيم المدن مثل نظام الأرباع وأجهزة الشرطة والشرطة السرية والعرفاء والنقباء. كل تلك الأساليب، مع ما رافقها من حملة منظمة لتشويه الحقائق وتزوير الوقائع والأحداث والأقوال والأحاديث النبوية الشريفة وتأويل الآيات القرآنية، والتأكيد على إبراز معاوية كرمز كبير من رموز المسلمين ومن أقرب المقربين من الرسول الكريم ﷺ! كما أوضحنا عند الحديث عن شخصية معاوية ساعدته على إضعاف الحلقات المناوئة التي رأى أنها لا تزال قوية بما فيه الكفاية للصمود بوجهه أو بوجه من سيأتي بعده.

الكوفة ينبغي أن تظل مستهدفة بظلم فرعون، حتى بعد غياب فرعون

ان توقعه بقاء حلقة الكوفة صامدة بوجه خليفته يزيد، جعله يكتب عهداً قبيل وفاته لابن زياد على الكوفة اضافة لولايته على البصرة؛ لأنه توسم فيه قسوة وغلظة كتلك التي تميز بها أبوه زياد من قبل، ولأنه قد رُبِّي ونشأ على كره آل البيت ﷺ وكل من يواليهم، أو يسير على خطهم، وقد أودع عهده ذاك سرجون الرومي خادمه ومستشاره، وطلب منه إبرازه ليزيد كوصية واجبة التنفيذ عندما يرى أول بادرة من بوادر (الخروج والتمرد) عليه من قبل العراقيين، الذين رأى انهم لا يزالون على نفس ذلك الولاء القديم لأمر المؤمنين وآله ﷺ^(١)، مع أنه قام بحملات دؤوبة لتطويعهم وكسر

(١) «دعا يزيد بن معاوية سرجون مولى معاوية فقال: ما رأيك؟ فإن حسيناً قد توجه نحو الكوفة، ومسلم بن عقيل بالكوفة يبائع للحسين.. فما ترى من استعمل على الكوفة؟ وكان يزيد عاتباً على

شوكتهم وتشيت شملهم واضعافهم وابعادهم عن الخط الرسالي لآل البيت عليهم السلام.

لقد رأى أنهم قد ينتفضون تحت وطأة الشعور بالندم من مواقفهم السابقة أو الشعور بعمق الانحراف الذي جروا اليه مع أبناء الامة الآخرين.. وبدافع الوعي والادراك للذين امتازوا بهما عن أهل الشام خاصة، وقد يعمدون إلى الطلب من الامام الحسين عليه السلام القدوم اليهم وقيادتهم ضد الدولة الأموية بقيادة يزيد بعد موته، كما فعلوا خلال حياته عندما طلبوا منه ذلك، وكما تحدثنا عنه في حينه.

و ربما رأى أن امتناع الامام الحسين عليه السلام من الاستجابة لهم ما دام هو حيا قد تزول مبرراته بعد موته، فيستجيب لهم، ويذهب إلى العراق لاعلان الثورة على الدولة الأموية عندما ستكون تحت ظل يزيد، وربما سيكون لتلك الثورة مبرراتها المقبولة لدى جماهير المسلمين، عندما تجد يزيد المكشوف المجاهر بالفسق والفجور والانحراف قائدا لها وخليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله يحتل منبره وموقعه... وعند ذاك قد يستطيع الحسين عليه السلام استقطاب جماهير الأمة حوله والحصول على دعمها ومشاركتها للاطاحة بالنظام الأموي رغم كل بطشه ووسائله غير المشروعة للسيطرة عليها.

و قد استمرت السياسة الاموية مع أهل العراق - طيلة فترة الحكم الأموي - على

عبيد الله بن زياد. فقال سرجون: أرايت معاوية لو نشر لك؟ أكنت آخذاً برأيه؟ قال: نعم، فأخرج عهد عبيد الله على الكوفة. فقال: هذا رأي معاوية، ومات وقد أمر بهذا الكتاب، فأخذ برأيه وضم المصريين إلى عبيد الله، وبعث إليه بعهدته على الكوفة»، الطبري: ج ٣ ص ٢٨٠ - ٢٧٥، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٨٧.

وكان معاوية قد أوصى يزيد أن يرمي أهل المدينة بمسلم بن عقبة المري اذا ما خرجوا عليه، وكان يحتمل ذلك أيضاً لعلمه أن أبناءها لن يسكتوا عن ممارسات يزيد وأفعاله المفضوحة «.. ان معاوية لما حضرته الوفاة دعا يزيد فقال له: إن لك من أهل المدينة يوماً، فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة، فإنه رجل قد عرفت نصيحته» الطبري: ج ٣ ص ٣٥٩ وقد فعل يزيد ذلك وولى مسلماً وكان ما كان من أمر فعلته مع أهل المدينة في واقعة الحرة.

نفس النمط الذي كانت عليه في عهد معاوية، فالكوفة كانت ترمى دائما بأشد الولاة والعمال وأقساهم مثل زياد وابنه والحجاج وغيرهم.

شريف يشخص انحدار (الأشراف)

لقد رأى شيبث بن ربعي الشريف الوجيه الذي قاتل مع أمير المؤمنين والحسن عليه السلام طيلة خمس سنوات، الهوة التي انزلقوا اليها، حينما انحازوا بعد ذلك إلى جبهة معاوية، فقاتلوا الإمام الحسين عليه السلام ليكملوا مشوارهم الذي بدؤوه مع أمير المؤمنين عليه السلام من قبل. «ألا تعجبون أنا قاتلنا مع علي بن أبي طالب ومع ابنه الحسن آل أبي سفيان خمس سنين، ثم عدونا على ابنه، وهو خير الأرض نقاتله مع آل معاوية وابن سمية الزانية، ضلال يا لك من ضلال»^(١).

ومن الطبيعي أن سلسلة الأحداث التي أدت إلى جرهم إلى ذلك ما كانت لتغيب عن بال شيبث وأمثاله، وما كانت تفوته أفعال معاوية الدؤوبة المستمرة لإيصالهم إلى تلك الحال التي وصلوا اليها، وجعل الناس كلهم ملكا للدولة التي أرادها أن تبدو صرحا قويا ضخما مقابلهم، وأن يبدو هو مثلاً أعلى ورمزا كبيرا، امام رعية ضعيفة متخاذلة مستسلمة.

واذا استجابت رؤوس المجتمع وأشرافه وخضعت للأمر الواقع الذي فرضه عليها معاوية... فهل ستردد سائر الناس وعوامهم وبسطاؤهم في رمي أنفسهم ببساطة في أحضان هذه الدولة رغم بقية شعور الحب والولاء وهي كبيرة التي ظلت تحفل به نفوسهم تجاه آل البيت عليهم السلام، إنهم لم يستطيعوا سوى كبت هذا الشعور تحت وطأة الدولة وسلطانها، والاستجابة لما تأمرهم به وان كان مغايرا لشعورهم الذي قد يضعف

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٥، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٢٤.

بمرور الزمن، وعلى هذا قد نستطيع فهم مقالة مجمع بن عبد الله العائذي للحسين عليه السلام.

«و أما سائر الناس بعد، فإن أفئدتهم تهوى اليك، وسيوفهم غدا مشهورة عليك»^(١)
وقول الفرزدق: «القلوب معك والسيوف مع بني أمية»^(٢).

سيوفهم عليك لأنهم فقدوا الارادة والحس والشعور بالمسؤولية

كان مجمع والفرزدق يدركان بعد انحياز الأشراف والوجهاء إلى صف السلطة، وبعد أن عظمت رشوتهم وملئت غرائرهم، أن أمر الناس الآخرين من السذج والبسطاء وغير المتعلمين والمتقادين الذين تشكل أغلييتهم من (الهمج الرعاع) الذين لا يتمتعون بأي قدر من الوعي والشعور بالمسؤولية أو الاحساس بأوضاع الأمة المساوية في ظل نظام بعيد عن الاسلام، لن يكون مشكلة كبيرة أو عقبة مهمة أمام السلطة الجائرة، وأن تحويلهم وكسبهم إلى صفها أمر هين ما دام قادتهم وزعمائهم من الأشراف والوجهاء يقفون في صفها ويملكون قوة التأثير على تلك الجماهير الواسعة، وما دام سائر الناس لا ينطلقون في مواقفهم في أغلب الأحيان الا استجابة لأوامر هؤلاء القادة والزعماء بعد أن انعدم شعورهم بالمسؤولية وفقدوا الارادة الحرة والحس الصحيح اللذين يجتزمان عليهم التصرف بموجبهما.

انهما يَحْتَمِلان سهولة التأثير على عامة الناس وتغييرهم إلى صف السلطة المنظمة المجهزة ذات الجاه والنفوذ والقوة، ما داموا يسيرون خلف الأشراف ما دامت مواقفهم غير ثابتة وغير مبدئية وغير حازمة، وما دام الأشراف أو أغلييتهم، في صف الحاكم الشرعي القوي.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٦، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٠١.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٦.

ان هذا الحاكم - في غمرة سعيه المحموم لتثبيت سلطانه ومصالحه - قد أحكم خططه واستكمل استحكاماته وأجهزته ووسائل القمع والارهاب التي عززها بوسائل وأساليب جديدة لم تكن تعرف من قبل ولم يلجأ اليها حاكم اسلامي يرى اعتماد الاسلامي في التعامل والحياة.

وهكذا عندما جاء ابن زياد إلى الكوفة، رأينا سهولة المهمة التي نهض بها لتغيير الناس ثانية إلى صف الدولة؛ وبدا تحولهم إلى جانبها وكأنه تمّ بطريقة سحرية وكأنّ تغييرهم على مسلم كان أمرا خارقا غير مفهوم أو قابل للتفسير، وربما قيل فيه: ان السبب هو استعداد أهل للكوفة غير العادي لتغيير المواقف، وهو أمر صحيح إلى حد بعيد، غير أن لذلك سببه أيضا كما أوضحنا في غضون هذه الدراسة، وأنه ما كان يتم لولا سعي حثيث من قبل أجهزة الدولة كلها.

الحسين (ع) أكثر الناس فهماً لمجتمع الكوفة

لم يقف مع مسلم الا عدد محدود من الأشراف تخلّوا عنه في النهاية وجعلوا عامة الناس التابعين لهم يتخلّون عنه أيضا وبقي بعضهم معه، انطلاقا من فهمهم الواضح لمهمته، وقد قتلوا فيما بعد أو سجنوا أو أبعدوا.

وهو أمر ما كان لنا أن نغتم كثيرا بشأنه؛ وربما كان الامام الحسين (ع) لم يعول كثيرا على استمرار أهل الكوفة في موقفهم الناصر له، حتى وهو يدعوهم للاستمرار في ذلك الموقف، وعدم التخلي عنه، وربما كان من باب القاء الحجة عليهم وعلى الأمة كلها فيما بعد، فاحتمال عدم استجابتهم له أمر وارد؛ وعودتهم إلى النهج الذي ساروا عليه سابقا عندما تخلّوا عن أمير المؤمنين (ع) والحسن (ع) بفعل الظروف والأحداث التي مروا بها أمر كبير الاحتمال، بل ويبدو أنه الأمر الذي سيقع فعلا.

فعندما خطب الحسين عليه السلام في أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة، قبل وصوله كربلاء أشار إلى ذلك في خطبته قائلا: «قد أتني كتبكم، وقدمت علي رسلكم ببيعتكم؛ أنكم لا تسلموني ولا تحذلوني، فان تمتم علي بيعتكم، تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلکم في أسوة.

وان لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والغرور من اغتر بكم، فحظكم اخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فانما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم»^(١).

فهل يلمس أحد في هذه الخطبة السابقة على وقوع الأحداث الأخيرة في كربلاء أن الحسين عليه السلام كان يأمل بقوله: «فان تمتم علي بيعتكم تصيبوا رشدكم» انه كان يأمل ذلك فعلا أم أنه كان يقرر حقيقة واقعة ينبغي أن تفهمها الأمة على الدوام وهي أنها ينبغي أن تعلن بيعتها لآل البيت عليهم السلام ونهجهم، ففيه الضمانة الوحيدة لسلامتهم؟

لا شك أنه كان يتوقع تخليهم عنه رغم أنه أراهم الموقف الصائب الذي كان عليهم أن يقفوه وواجههم بحقيقة تاريخية قريية لا يستطيعون انكارها وهي تخليهم عن أمير المؤمنين والحسن عليهما السلام ثم عن مثله ومبعوثه مسلم بعد ذلك، أنهم لا يمكن أن يكونوا - بوضعهم ذاك - قاعدة مأمونة الجانب لمن ينشد قيادة الأمة وتغييرها ولا يمكن لمن ينشد ذلك أن يعول عليهم «والمغرور من اغتر بكم».

وإذا ما قيل هنا لماذا (اغتر بهم هو نفسه عليه السلام)؟^(٢) نجيب بنفي ذلك. فهو أعلم

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٧، والكمال في التاريخ: ج ٣ ص ٤٠٩ - ٤٠٨.

(٢) كما ورد في هامش ابن الأثير كتب في طبعة متأخرة «ان حسينا ذهب إلى العراق مختارا مغترا بما جاء من أهل العراق وبما يعتده لنجاحه من قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله» الكامل في التاريخ - ط ١٩٨٧ - دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان.

الناس بطبيعة المؤامرة الكبيرة التي كان يتعرض لها مجتمع العراق والكوفة على وجه الخصوص لحرفته عن طريق آل البيت عليهم السلام واستمالته إلى جانب الصف الأموي، وكان يعلم مدى الدمار الذي لحق بذلك المجتمع حتى أصبح بالشكل الذي أصبح لا يعتمد فيه عليه، غير أن عدم قدومه عندما أبدى أفراد ذلك المجتمع استعدادهم لمقاومة انحراف الدولة الأموية، وأعلنوا ذلك أمام الأمة كلها، كان سيحمله مسؤولية تاريخية كبيرة أمام أجيال الأمة، وسيدعي أهل الكوفة أنهم كانوا مستعدين للمقاومة غير أن الحسين عليه السلام خذلهم ولم يلتحق بهم لقيادتهم، وكانت الأمة كلها ستصدق ذلك، وكنا سنصدق ذلك نحن أيضا.. ولن يقوم أحد بوجه أي ظلم أو انحراف مادام إمام الأمة قد قعد عن ذلك، وعند ذلك لن نقول أن الحسين عليه السلام لم يغتر بأقوال أهل الكوفة ولم يصدقهم فيذهب اليهم، وإنما سنقول أنه قعد بينما قاموا هم، وسيكون ذلك أقوى حجة بيد الدولة الأموية تحاول بها اثبات شرعيتها وصلاحياتها ما دام الحسين عليه السلام نفسه قد قعد عن حربها ولن يكون لفعل أهل الكوفة حتى ولو ثاروا كلهم وقتلوا أية قيمة بعد ذلك.

كان من المفروض برأي من لم يدرس الأحداث جيدا وطبيعة المجتمع الذي كان يتعامل مع الامام الحسين عليه السلام، أن لا يواجه الحسين عليه السلام جيش الحر بتلك الشدة وذلك الأسلوب الذي يعلن فيه يأسه منهم ومن صلاحهم؛ لأن من شأن ذلك أن يثيرهم ضده أكثر مما فعلوا، وكان عليه أن يخاطبهم بعبارات يحاول استمالتهم بها إلى صفه غير أن المسألة بنظر الامام الحسين عليه السلام ليست (صفه) هو شخصيا بقدر ما كانت (صف الاسلام)، فهو كان يريد استمالتهم للاسلام لا اليه شخصيا، ولأنه كان الممثل الحقيقي لرسول الله صلى الله عليه وآله وللإسلام فإن مسيرهم وراءه كان يعني مسيرهم مع الاسلام وخلف رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه.

وكان المكسب الوحيد الذي يمكن أن يجنيه ﷺ هو مكسب هداية الأمة وإعادتها إلى الصواب بعد انحرافها وضعفها، وهو مكسب يرى أن ثمنه يستحق بذل دمه ودماء الصفوة من أصحابه، وهو ما فعله عندما استشهد بتلك المعركة الفاصلة التي قدر لها أن تشخص دائما أمام الأنظار.

لقد رأى أن أصحاب الحر - وهم شريحة عامة من شرائح الكوفة - قد انقلبوا وانحازوا نهائيا إلى صف الدولة الظالمة ونكثوا عهودهم وتناسوا وعودهم فاستنكر موقفهم وارادهم هم أنفسهم أن يستنكروا هذا الموقف وتستنكره الأمة كلها بعد ذلك وتبتعد عنه وتظل على ثباتها اذا ما واجهت امرا خطيرا كذلك الذي كانت تواجهه في ذلك الحين وهو تسلط الدولة الأموية المنحرفة، المجاهرة بالانحراف عليها.

ومع أنه لم يجد فائدة في تذكيرهم بالموقف الصائب الذي كان عليهم أن يقفوه، الا أنه استمر في ذلك، وفي تذكيرهم بحقيقة الموقف المؤسف الذي وصلوا اليه والذي لا بد أن يتغير، وأعلمهم أنه هو شخصا كان ينبغي أن يكون في مقدمة المتصددين لذلك التغير فهي مسؤوليته كما هي مسؤوليتهم (فأنا أحق من غير).

لا يوقف الانحراف الكبير الا دم الشهداء

لقد وجد الامام الحسين ﷺ نفسه في موقف دقيق؛ مع أمة متخاذلة مستسلمة خائرة أمام نظام جائر منحرف لا يتورع عن اتباع كل الأساليب التي من شأنها أن تبقى قائما. ولم تكن النصيحة وحدها أو الارشاد أو الوعظ كافية لإعادتها إلى صوابها وارجاعها عن انحرافها واستسلامها، كما لم يكن الموقف السلبي الذي قد يتمثل باعتزال كل شيء، والانصراف إلى أداء بعض الشعائر التعبدية كالصلاة وغيرها والذي

سيشكل لونا من ألوان الرهينة المرفوضة في الاسلام، كافيا لجعل الأمة تلتفت إلى

خطئها وانحرفها في ظل قيادة تبنت الانحراف والخطأ وعرضته على أنه هو الصواب (بأدلة) وأقوال افتعلتها ونسبتها إلى رسول الله ﷺ نفسه.

كان لابد من التصدي للانحراف بالدم، فقد كان ذلك هو الحل الوحيد لاشعار الأمة بمدى خطر هذا الانحراف، واذا ما شعرت، فانها حينذاك ستعمل على ايقافه والقضاء عليه ولو بعد مدة طويلة من الزمن قد تبلغ عشرات أو مئات من السنين.

وسيطل حال الامام (ع) وشخصه من المدينة إلى مكة ثم إلى الكوفة بعد ذلك لايقاف الانحراف ماثلا أمامها على مر الأزمان ليكون دافعا لتكرار قيامها بمهمة مماثلة ما دام الاسلام لم يحظ بالاهتمام اللازم من قبلها وما دام يستبعد ويهمل ويصبح عرضة وغرضا لسهام أعدائه ومؤامراتهم وكيدهم.

بل لعل الحسين (ع) كان يرى ان الموت أبسط ثمن يمكن أن يدفع لقاء هذه المهمة الكبيرة، ويرى أنه أمر يسير هين ما دام سيكون كفيلا بنجاحها، وهكذا رأينا إصراره على المضي حتى النهاية رغم الفرص العديدة التي أتحت له للتراجع واستمعنا إلى أقواله في كل مرحلة من مراحل مسيرته الملحمة من المدينة إلى الكوفة عبر مكة، وهكذا خاطب الحر بن يزيد الرياحي بنفس اللغة القوية التي استعملها دائما عندما طلب منه الاستسلام ومبايعة يزيد «أبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلونني؟»^(١).

ان مهمة ايقاظ الأمة من سباتها وإيقافها عن الانحراف المتسارع لابد أن يكون له ثمن باهظ، وهو حياة امام الأمة نفسه، فبغير ذلك ما كان سيظل لهذه الأمة كأمة اسلامية سوى لون باهت سيسقط من ذاكرتها على مر الأعوام، أما اذا ما استشهد أمامها وسار في الشوط المعد له حتى النهاية محتملا صابرا، وظل لون دمه القاني يصبغ آخر

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٧، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٠٩.

مشهد، فإن لون الدم هذا لا يمكن أن يمحي بسهولة، وبه أثبت للأمة أنه على مستوى الرسالة التي حملها بعد أبيه وأخيه عن جده، وإن أقل ما تستحقه منه ومن غيره التضحية إلى حد الاستشهاد.

(تقلب) طارئ أم أصيل

لم يكن (تقلب) أهل الكوفة أمراً نابعا عن صفة اختصوا بها دون غيرهم، بل أنه كان وليد الأحداث التي عاشوها والحملات المركزة والمنظمة التي بدأها معاوية لتفتيتهم وتفريق شملهم واضعافهم لكي لا يظلوا على موقفهم السابق في عهد أمير المؤمنين (ع)، حيث كانوا القوة الرئيسية التي واجهته وحاربته وأدركت زيفه وأباطيله، وقد أوضحنا بعض الأساليب التي لجأ إليها في هذا المجال، وهي أساليب لا يمكن نسبتها إلى الاسلام بأي حال من الأحوال.

ان من شأن استهدافهم الواضح لخطط حكم الأمويين الجائرة وظلمهم المركز طوال أكثر من عقدين شمالا (خلافة) معاوية كلها وتعرضهم للمخاطر والأساليب الرهيبة التي تفتق عنها ذهنه الشيطاني مثل الأخذ على الشك والظن والأخذ (بجريرة) الغير واعتماد نظام الأرباع والأخماس والشرطة والشرطة السرية والنقباء والعرفاء واستخدام الأشراف والوجهاء ورؤساء القبائل لدى الدولة شبه موظفين يتقاضون رواتب على خدماتهم وعلى قدر تلك الخدمات التي يؤدونها، ولد حالة من الحذر والشك القائمين على ذلك الخوف الرهيب المزروع في نفوسهم من سطوة السلطة الحاكمة وجبروتها وعنفها، وجعل معظمهم يتعاملون بوجهين وقد يلجؤون إلى الكذب والنميمة والدس لحماية أنفسهم وللتقرب من السلطة التي بدت في نظرهم كائنا أسطوريا ضخما لا يمكن مواجهته الا من بعيد، وينبغي على من يريد الحياة أن يتجنب شره وسطوته؛ وإذا ما أضفنا إلى ذلك حملة التفريغ من الاسلام التي قام بها معاوية والتي

حاول فيها تزوير العديد من المبادئ والتشريعات الاسلامية وجند لها مجموعة ضخمة من (رواة الحديث) ومدعي الصحابة وفقهاء الدولة ووعاظها والقصاصين وناشري الاشاعات والاسرائيليين الذين حاولوا دس الأقاصيص والافتراءات الاسرائيلية في المرويات الاسلامية، وغيرهم من المأجورين والمجندين لهذه الحملة الضخمة الكبيرة؛ حتى أصبح الاسلام (مثلاً أعلى غير واقعي) مبعداً عن الحياة وغير ممكن التطبيق وفق الأسس التي أرادها رسول الله ﷺ؛ وحتى وفق الأسس التي أرادها عثمان، كما أشار إلى ذلك معاوية في مخاطبة ساخرة ليزيد حينما قال هذا في رواية موضوعة على الأغلب من قبل معاوية أنه يريد أن يسير بسيرة عمر بن الخطاب، وكما أشرنا إلى ذلك في هذه الدراسة، وأصبح معاوية ممثلاً للاسلام وناطقاً باسمه وقائداً للمسلمين برغمهم، أدركنا أن المسلمين أصيبوا بصدمة قوية جراء هذا التلاعب الخطير... وأصبح خوفهم من السلطة أقوى من المبادئ التي ضحوا من أجلها، وقد وجدوا أن طريقها في النهاية وعر ومحفوف بالمخاطر.

ومع ذلك فقد كانوا لا يريدون في قرارة أنفسهم التخلي عن هذه المبادئ التي علموا جيداً أنها الضمانة الوحيدة لسعادتهم وخلاصهم في الدارين.. وان هم تخلوا عنها فلا بد لهم من العودة إليها والركون إليها وحدها، ووحدها فقط.

لذلك فانهم ما يكادون يجبرون تحت وطأة حكامهم القاسين وأشرفهم المنحازين إلى صف أولئك الحكام، على تبني مواقف الدولة وقبول ممارساتها والسكوت عنها، حتى يعودوا مرة أخرى يفكرون بمواقفهم الخاطئة ويندمون عليها ويحاولون التراجع عنها واتخاذ مواقف مغايرة لها، غير أنهم ربما كانوا يطمحون إلى قوة عليا تخلصهم من مصائبهم دون أن يقوموا بالخطوات اللازمة لذلك.

(التقلب) أحد النتائج الطبيعية للسياسات المستبدة

وقد حير تصرفهم ذاك بال الكثيرين، ورأوا أن هؤلاء العراقيين من أهل الكوفة قد اختصوا به وحدهم، مع أنه نتيجة طبيعية للظلم والارهاب والكبت والتفرقة، وهو أمر يمكن أن يحدث في كل المجتمعات التي تتعرض لما تعرض له مجتمع العراق... وقد حدث فعلا في مجتمعات عديدة.

وبكلمة، يمكن القول ان تصرف أهل الكوفة وتقلبهم كان نتيجة طبيعية للسياسات المستبدة التي انتهجتها الحكومات الطاغوتية التي تعاقبت عليهم.

ان أمير المؤمنين (عليه السلام)، ومن بعده الامام الحسن والامام الحسين (عليهما السلام)، كانوا يدركون أن وضع أهل العراق وغيرهم من المسلمين لابد أن يستقر في النهاية لصالح الاسلام عندما يعلمون حقا من هو الذي كان يعبر حقا عن مصالحهم الحقيقية وتطلعاتهم المشروعة ومن الذي كان يسعى لتثبيت حكمه وسلطانه ومصلحه على حساب الناس ومصلحتهم وسلطان الاسلام وحكمه.

وقد لا يكون ذلك اليوم الذي تتوضح فيه الأمور قريبا ولكنه سيأتي على كل حال وستعقب النومة الطويلة صحوة طويلة دائمة يعود فيها الاسلام لقيادة الحياة قيادة فعلية حقيقية بعيدا عن الظلم والانحراف والجور.

الحسين (عليه السلام) لن يتخلى عن الأمة... وان تخلت عنه

كان الامام الحسين (عليه السلام) على علم بهذه الحقائق كلها بخصوص أهل العراق عندما قدم عليهم، فهو لم يرد أن يتخلى عنهم ولا عن غيرهم حتى وان تخلوا هم عنه وقلبوا له ظهر المجن وتراجعوا عنه بعد ذلك أن أكدوا ولاءهم واستعدادهم للسير خلفه لتغيير الأوضاع ومنعها من الاستمرار على النمط الذي كانت تسير عليه.

وقد أطلعنا على أجوبته لمن أراد منعه من الذهاب في هذه المهمة الصعبة الشائكة، واصراره على المضي فيها إلى النهاية وإن كانت هذه النهاية تعني موته وموت آلِه وأصحابه وتشريد عياله وأطفاله، لقد كان الحزم الذي يغلف تلك الأجوبة والخطب والكلمات التي ألقاها في أصحابه وفي جيش عدوه تفصح عن معرفة تامة بحقيقة الموقف وعزم على انجاز المهمة التي كان فيها موته المحقق كما بدا له هو.. غير أن ذلك كان الخيار الوحيد أمامه كما سبق أن بينا.

ظنوه الحسين عليه السلام فرحبوا به

إن أول موقف نراه من أهل الكوفة هو مقابلتهم لعبيد الله بن زياد بالترحيب، وقد حسبوا أنه الحسين عليه السلام، فكان (لا يمر على مجلس من مجالسهم فيسلم الا قالوا: عليك السلام يا بن بنت رسول الله، وهم يظنون أنه الحسين بن علي عليه السلام).^(١)

ويوحى هذا بأنهم كانوا يتوقعون قدوم الحسين عليه السلام إليهم وأنه كان أمرا طبيعيا لا بد أن يتم في ظروف كتلك حتى دون عقبات أو مشاكل من قبل السلطة الأموية القائمة، وأنهم ربما ساروا وراءه إلى تحقيق غايته دون أن يلاقوا أية صعوبات تذكر، وأنهم لم يفاجئوا بذلك القدوم ولم يستقبلوه بالاستغراب والدهشة، حتى أنهم ردوا السلام على ابن زياد حاسبين أنه الحسين عليه السلام بترحيب ومظاهر احتفالية عادية... فكأنه شخص عاد

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٧٥، وقد ورد في ج ٣ ص ٢٨١ أن ابن زياد «دخل الكوفة وعليه عمامة سوداء وهو متلثم والناس قد بلغهم إقبال حسين إليهم فهم ينتظرون قدومه فظنوا حين قدم عبيد الله أنه الحسين، فأخذ لا يمر على جماعة من الناس إلا سلموا عليه وقالوا مرحبا بك يا بن رسول الله قدمت خير مقدم فرأى من تبشيرهم بالحسين عليه السلام ما ساء» وقد روي أنه تنكر «فأخرج ثيابا مقطعة من مقطعات اليمن ثم اعتجر بمعجرة يمانية فركب بغلته ثم انحدر راجلا وحده فجعل يمر بالمحارس فكلما نظروا إليه لم يشكوا أنه الحسين فيقولون مرحبا بك يا بن رسول الله وجعل لا يكلمهم وخرج اليه الناس من دورهم وبيوتهم» الطبري ج ٣ ص ٢٨١.

إلى داره ووطنه بعد غياب قصير عنه.

حماس الرسائل وحماس الموقف العملي

وقد كتبوا اليه في البداية يعلمونه «أنه معك مائة ألف..»^(١).

ومع ذلك فقد كان سليمان بن صرد -زعيم ثورة التوابين فيما بعد- يتخوف من انقلابهم عليه أو تخليهم عنه على أقل تقدير، رغم الحماس الذي أبدوه لنصرته والوقوف إلى جانبه... وقد حذرهم من ذلك ودعاهم إلى التيقن من موقفهم قبل الكتابة إلى الحسين (عليه السلام)، وقال لهم: «ان معاوية قد هلك، وأن حسينا قد تقبّض على القوم ببيعته، وقد خرج إلى مكة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فان كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا اليه، وان خفتم الوهل والفشل، فلا تغروا الرجل من نفسه..

قالوا: لا بل نقاتل عدوه، نقتل أنفسنا دونه...»^(٢).

واذا أبدوا لسليمان ذاك الحماس الكبير وأبدوا عن استعدادهم للتضحية بأنفسهم دون الحسين (عليه السلام)، طلب منهم عند ذاك أن يكتبوا اليه، فكتبوا اليه كتبهم العديدة التي ذكرنا نماذج منها في دراستنا هذه، يرجون حضوره لتخليصهم من عدوه الجبار العنيد على حد تعبيرهم الذي بغى على هذه الأمة فابتزها أمرها وغصبها فيئها، وتأمر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبعدا له كما بعدت ثمود.

وقد أوضحوا في رسائلهم أنهم كانوا يقاطعون ممثل الدولة ولا يجتمعون معه في جمعة ولا يخرجون معه إلى عيد، وأبدوا استعدادهم لآخراجه والحاقه بالشام، مقر

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٩، وتراجع المصادر التي ذكرناها في غضون هذه الدراسة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٧٧.

السلطة الحاكمة.

وكانت رسائلهم تعكس تلهفهم وشوقهم الشديد لاستقبال الحسين عليه السلام وقد حفلت بعبارات تؤكد عزمهم على السير خلفه مهما كانت النتائج.

ومهما يكن من أمر فربما كانوا يتوقعون نصرا سهلا ونجاحا يسيرا، ولم يتوقعوا أن يواجهوا تلك المواجهة العنيفة وتستنفر لهم الدولة أشد أعوانها قسوة ووحشية.

وقد أنكروا فيما بعد حتى تلك الرسائل عندما كثر لهم الوحش الأموي وكشف عن أنيابه وبدأ يستعد للانقضاض عليهم ان هم أعلنوا الحرب عليه، ولم يلتزموا بالقوانين التي فرضها عليهم وألزمهم بموجبها أن يكونوا اتباعا وعبيدا.

ولا شك أن سليمان بن صرد يعلم أن الامام الحسين عليه السلام لم يكن لينخدع برسائل أهل العراق، غير أنه أدرك أنهم بتلك الرسائل سيحملونه مسؤولية القدوم اليهم وقيادتهم، وان احتمال تخليهم عنه وارد جدا، ومع أنهم سيكونون المسؤولين عن ذلك، الا أن ثمن موقفهم ذاك سيكون باهضا وسيكلف حياة الامام عليه السلام، وحياتهم هم فيما بعد.

لو لم ترد رسائل أهل الكوفة للامام عليه السلام، ولم يأت هو للكوفة لما استطاع أحد تحميله مسؤولية القيام بالثورة، لكنها عندما وردت اليه أصبح ملزما بالاستجابة لها، اذ لو لم يستجب لقلنا أن الناس قد عزموا على الثورة واستدعت قائدها لتزعم تلك الثورة الا أنه لم يستجب، ولن نكون عند ذاك معنيين بالسؤال والتدقيق عن طبيعة أهل الكوفة ومن كتبوا تلك الرسائل، وسنفتقر إلى النتائج مباشرة فنقول: ان الامام تحلى عن الأمة ورفض قيادتها، وانها قد استسلمت ليزيد لهذا السبب، مع أنها كانت مستسلمة منذ البداية ولم تعزم أمرها بصورة جدية على خوض معركة حقيقية مع أعدائها.

ما أدركه سليمان بن صرد لم يفث الحسين عليه السلام ادراكه

وما أدركه سليمان بن صرد وغيره من الناصحين والمشفقين من سير الحسين عليه السلام إلى الكوفة لا يمكن أن يفوته هو عليه السلام، وقد طلب منهم قبل قدومه عليهم الثبات على موقفهم وعدم الحيدة عنه، وجعل ذلك شرطا للقدوم لأنه كان من أعلم الناس بهم، وقد أمضى فترة مهمة من حياته معهم في ظل أبيه أمير المؤمنين عليه السلام وعاصر أشد الأحداث التي مروا بها وهي أحداث كبيرة عاصفة، ولم تكن معاناة أبيه عليه السلام وأخيه عليه السلام من بعده لتخفى عليه بأي حال من الأحوال، فكيف يخدع ويغر من يعرف طبيعة القوم الذين سيقودهم؟ وكيف لا يستجيب لهم وقد أعلنوا أمام الأمة كلها عزمهم على النهوض بوجه دولة الظلم بقيادته؟

ولنا أن نتصور معاناته الكبيرة وهو يعلم أنه يقدم على قوم لا يملكون قوة ولا ثباتا وهم يواجهون دولة قوية مستطيلة متجبرة وكان الموت المحقق هو النتيجة الطبيعية لذلك الموقف ومع أنه أخبر بذلك، إلا أنه لم يستطع إلا أن يمضي في طريق الكوفة فقتله هو الكفيل بانقاذ الأمة وجعلها تنتبه باستمرار إلى مخططات أعدائها وتتصدى لإفشال تلك المخططات وإن كان ثمن ذلك دم العديد من أبنائها، الذين سيرون أن ما يقدمونه ليس بأثمن مما قدمه إمام الأمة من قبلهم.

ومع ذلك فقد كان يطمح أن يكون خطابه لهم ووصاياه بالثبات وعدم التردد والاقدام على مواجهة الظلم خطابا للأجيال كلها فيما بعد، فأهل الكوفة ليسوا وحدهم معنيين بذلك، بل إن المسؤولية تقع على الجميع دون اعتبار لفواصل الزمان والمكان، ومن شأن خطاب كهذا أن يشعرهم بمسؤوليتهم حتى بعد استشهاده عليه السلام وحتى بعد مرور مئات السنين.

وقد كتب اليهم: «فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم ومقالة جلکم إنه ليس علينا

إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم فإن كتب إلي أنه قد أجمع رأي ملتكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت عليّ به رسلكم وقرأت في كتبكم أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله»^(١).

شروط الحسين

فقد كان شرطه واضحا اذاً للقدوم عليهم، وكان يحذرهم في هذه الرسالة من عدم الايفاء بوعودهم، ربما بتأثير من الملاء وذوي الفضل والحجى منهم الذين سيكونون أول الناكثين والمترددين، والذين قد يؤثرون بمواقفهم تلك على سائر الناس والعوام منهم بوجه الخصوص ويجعلونهم يتراجعون مثلهم ويتبنون مواقفهم المتخاذلة المستسلمة، وقد حدث ذلك فعلا، وكان أول من تراجع عن مسلم هم الملاء من ذوي الفضل والحجى والشرف في البداية وتجمعوا حول ابن زياد وشنوا حربهم على مسلم من هناك وحرصوا الناس عليه وشجعوهم على التخلي عنه.

وعندما دخل مسلم الكوفة، نزل دار المختار الثقفي واجتمعت اليه جماعة من أهلها، أخذوا يكون عندما قرأ عليهم كتاب الحسين، وهو موقف عاطفي يدل على انسجامهم مع القضية التي يرفعها، وانحيازهم اليها بشكل كلي، وهذا ما بدا في الظاهر، وهو الأمر الذي لم يطمئن اليه عابس بن أبي شبيب الشاكري الذي استشهد مع الحسين بعد ذلك وسجل موقفا بطوليا عظيما مع الحسين وأصحابه اذ خاطب مسلماً قائلاً: «فاني لا أخبرك عن الناس، ولا أعلم ما في أنفسهم، وما أغرك منهم، والله لأحدثك عما أنا موطن نفسي عليه، والله لأجيبنكم اذا دعوتهم، ولأقاتلن عدوكم،

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٧٨ وتراجع المصادر السابقة في هذه الدراسة.

ولأضربنَّ بسيفي دونكم حتى ألقى الله، لا أريد بذلك الا ما عند الله»^(١).

كان عابس يعرف نفسه حق المعرفة ويدرك إلى أي حد يمكن أن يذهب في نصرة الحسين (عليه السلام)، ولم يشأ أن يتعهد بالنيابة عن قومه بتقديم الضمانات لمسلم بأنهم سيسIRON خلفه إلى النهاية، فهذا أمر يبدو أنه لم يطمئن إليه تمام الاطمئنان، وقد امتلك قدرا كافيا من الشجاعة ليصارع مسلماً بذلك أمام أولئك الباكين المتعاطفين الذين ربما لم يوطنوا أنفسهم على ما وطن نفسه عليه.

ويبدو أن كلماته قد لقيت صدى حسنا لدى حبيب بن مظاهر الاسدي، الذي أيدته، وقد لمس وترا حساسا من نفسه قائلا: «رحمك الله، قد قضيت ما في نفسك، بواجز من قولك، ثم قال: وأنا والله الذي لا اله الا هو على مثل ما هذا عليه»^(٢) وقد استشهد هو الآخر مع الحسين (عليه السلام) بعد مواقف بطولية في المعركة، وقد قال غيرهما مقالتيهما.

غير أن كوفيا أبى في تلك اللحظة أن يعطي الضمانات اللازمة حتى على نفسه، وكان أخرى به ألا يكون مع الجماعة التي اجتمعت إلى مسلم، كان يدرك أنه سيضعف في النهاية اذا ما جوبه بالبطش الأموي الأحمر.

و مع أن محمد بن بشر وهو من نتكلم عنه هنا - يتمنى في قرارة نفسه أن يعز الله أصحابه بالظفر على حد قوله - الا أنه لم يعلن عن استعدادده للمساهمة بتحقيق هذا الظفر، كان يرى تحقيقه من قبل غيره، أما هو فقد كان يخاف الموت، وهذا ما صرح به أمام الجمع المحتفل لمسلم، «ان كنت لأحب أن يعز الله أصحابي بالظفر، وما كنت لأحب أن أقتل، وكرهت أن أكذب»^(٣).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٧٩، وراجع بقية المصادر السابقة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٧٩، وراجع بقية المصادر السابقة.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٢٧٩، وراجع بقية المصادر الأخرى.

لقد تراجع ابن بشر منذ البداية، وأعلن عن ضعفه وعدم قدرته على الاستمرار في تأييد مسلم وأصحابه؛ هذا اذا كان قد أيدهم بالمرة.

وعود دون ضمانات

ولو أن أهل الكوفة بأجمعهم قالوا ما قال محمد بن بشر، وأحجموا منذ البداية عن اعلان ولائهم وبيعتهم للحسين (عليه السلام) ورغبتهم في السير وراءه، لربما كان الموقف قد تغير، ولربما كانت مسؤولية الحسين (عليه السلام) الشرعية تجاه الأمة قد جعلته لا يقصد الكوفة بالذات ويتخذ موقفاً آخر، غير أنه أمام ذلك الزخم الجماهيري - وقد أرسل اليه مائة ألف من أهل الكوفة يستدعونه لقيادتهم على وجه السرعة - لم يستطع الا الذهاب، والا بماذا كان سيحتج لو قعد ولم يذهب لنصرة الأمة التي أبدى قطاع واسع من أبنائها وفي اقليم كبير ومهم استعدادده للقتال تحت لوائه؟.. لقد أبدى الناصر استعدادده للقتال والتضحية. مع أنه عُرف أنه ناصر غير ثابت وغير مستعد لاكمال الشوط.

ولو قعد عن مقاتلة يزيد وبقي في مكة أو المدينة هذا على فرض بقائه حيا دون أن يقتل، لكان قد تحمل المسؤولية التاريخية لاستسلام المسلمين كلهم ليزيد، ولأصبح بطل هذا الاستسلام إلى يومنا هذا، وسنحتج نحن عندما يريدنا الفراعنة والطواغيت أمثال يزيد أن نضع أيدينا بأيديهم بأن الحسين (عليه السلام) قد فعل ذلك من قبل مع أنه إمام الأمة وصاحب المسؤولية الأولى فيها وهل نملك الا أن نفعل ما فعله؟

اي قوم ابن مرجانة! ويحك انما هو الحسين (حب وكره.. في القلب فقط)

كانت قلوب أهل الكوفة مع الحسين (عليه السلام)، وكانوا يتوقعون حضوره بين لحظة وأخرى، وكانوا يسلمون على ابن زياد - كما أشرنا - ظانين أنه الحسين (عليه السلام)، وقد تجمعوا حوله محتفين به «فقال مسلم بن عمرو لما أكثروا: تأخروا هذا الأمير عبيد الله بن

زياد، فأخذ حين أقبل على الظهر، وإنما معه بضعة عشر رجلاً، فلما دخل القصر، وعلم الناس أنه عبيد الله بن زياد، دخلهم من ذلك كآبة وحزن شديد..^(١)، ولو أن أهل الكوفة كانوا جادين حقاً لما دخلهم ذلك الحزن وتلك الكآبة ومعه ذلك العدد القليل من الرجال ولكانوا قد امسكوا به منذ البداية وسجنوه أو سلموه لمسلم أو قتلوه.

ولما سمحوا له منذ أول ليلة بالقاء خطبة مهددة في جامع الكوفة، غير أنهم كانوا مهزومين وكانوا مترددين في اتخاذ الموقف الواضح منذ البداية، وكانوا متواكلين يطمع كل واحد منهم من الآخرين أن يقاتلوا ويقتلوا نيابة عنه.

ولنا أن نتصور المشهد الذي عرضه لنا الطبري حول وصول ابن زياد الكوفة ودخوله القصر، «انحدر راجلاً وحده فجعل يمر بالمحارس، فكلما نظروا إليه لم يشكوا أنه الحسين فيقولون: مرحبا بك يا ابن رسول الله قدمت خير مقدم، وخرج إليه الناس من دورهم وبيوتهم»^(٢) في مظاهرة ترحيبية حافلة وكان قد «اخرج ثياباً مقطعة من مقطعات اليمن، ثم اعتجر بمعجرة يمانية، فركب بغلته، وجعل لا يكلمهم»^(٣) في محاولة منه للتستر واخفاء حقيقته عن الناس لما كان يتوقعه من رد فعل غاضب منهم ربما يودي بحياته. و«رأى من تبشيرهم بالحسين ﷺ ما ساءه، وغاز عبيد الله ما سمع منهم وقال: ألا أرى هؤلاء كما أرى»^(٤).

وعندما اكتشف أحدهم أنه كان ابن زياد وصاح محذرا: «... أي قوم ابن مرجانة،

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١، وراجع بقية المصادر الأخرى.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١، وراجع بقية المصادر الأخرى.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١، وراجع بقية المصادر الأخرى.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١، وراجع بقية المصادر الأخرى.

والذي لا اله غيره»^(١) كذبوه وقالوا: «ويحك انما هو الحسين»^(٢) «فلما دخل القصر وعلم الناس أنه عبيد الله بن زياد دخلهم من ذلك كآبة وحزن شديد»^(٣).

وعندما دخل «ضربوا الباب في وجوه الناس، فانفضوا وأصبح فجلس على المنبر»^(٤) بعد أن دبر بالليل خطة يفرق فيما جموعهم، وقد تركوه يدبر لهم ما يدبر، ولم يملكو سوى ابداء الحزن ولعلهم لم يجدوا الجرأة للتصدي له وهو وحيد بين جموعهم الكثيرة.

البيان الأول، تهديد ووعيد

وكان بيانه الأول الذي القاه فيهم، قد دق على وترين حساسين في نفوسهم.

١ - وتر العطاء والرشوة؛ فقد قال لهم: «فان أمير المؤمنين [يزيد] أمرني بانصاف مظلومكم واعطاء محرومكم وبالا حسان إلى سامعكم ومطيعكم، فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البر»^(٥).

٢ - وتر التخويف والترهيب «[و أمرني] بالشدة على مريبكم وعاصيكم. وسوطي وسيفي على من ترك أمري وخالف عهدي، فليبق امرؤ على نفسه، الصدق ينبئ عنك لا الوعيد»^(٦).

وقد ساعد ابن زياد في مهمته وجود فئة (موظفة) لدى الدولة، تتلقى ارزاقها

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١، وراجع بقية المصادر الأخرى.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١، وراجع بقية المصادر الأخرى.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١، وراجع بقية المصادر الأخرى.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١، وراجع بقية المصادر الأخرى.

(٥) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١، وراجع المصادر الأخرى المذكورة في هذه الدراسة.

(٦) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١، وراجع بقية المصادر الأخرى.

ومعاشاتها منها مباشرة وتدين لها بالولاء المطلق، كما أنها على استعداد لتنفيذ كل أوامرها وتوجيهاتها مهما كانت متعسفة وظالمة.

ان طبيعة هذه (الفئة) المستحدثة هو الولاء والخوف الشديد من السلطان (ولي أمرها)، اذ أنها ترى فيه مصدر رزقها وحياتها ووجودها كله، وبقدر ذلك الخوف نجد تجبرا وشدة على سائر الناس طالما كان ذلك يرضي السلطان، ولعلها تعوض بشدتها عن مركب النقص الناتج من خوفها، فهي آلة طيعة لا تناقش الأوامر، كما أنها لا تتدخل بالسياسة العامة للدولة، ان حدودها معروفة وهي تعلم أنه لن يسمح لها بتخطيها أو تجاوزها، انها ليست أكثر من عصا لا روح فيها ولا حياة.

وكان من أفراد تلك الفئة المملوكة للدولة الشرطة والعرفاء، وقد أدرك ابن زياد انها أول من سيستجيب لأوامره وينفذها دون نقاش بل لعلها ستندفع لتنفيذ تلك الأوامر بحماس منقطع النظير.

ومن هنا كانت بداية عمله لاختضاع أهل الكوفة، «فأخذ العرفاء والناس أخذا شديدا، فقال: اكتبوا اليّ الغرباء، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين، ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين رأيهم الخلف والشقاق، فمن كتبهم لنا فبريء.

ومن لم يكتب لنا أحدا، فيضمن لنا ما في عرافته ألا يخالفنا منهم مخالف، ولا يبغي علينا منهم باغ، فمن لم يفعل برئت منه الذمة، وحلال لنا ماله وسفك دمه، وأيّما عريف وُجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صلب على باب داره، وألغيت تلك العرافة من العطاء، وسيّر إلى موضع بعمان الزارة»^(١).

كان لابد أن يعمل أولئك العرفاء على ارضاء سيدهم وولي نعمتهم مهمة عالية

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨١.

وبذلوا جهودا استثنائية لتطبيق تعليماته بأسرع وقت، وأن يستنفروا كل أعوانهم لاداء المهام العاجلة التي عهد بها اليهم.

تصعيد الخوف

كان ابن زياد -وهو أحد رجال الدولة المعتمدين وممن له مصلحة كبيرة ببقائها وديمومتها، وممن أتاحت له فرصة التصرف المطلق ووضعت بين يديه كل امكانات هذه الدولة لانجاز المهمة الدقيقة التي أرسل اليها في الكوفة -يعلم السر الكفيل بالتغلب على أهل الكوفة وتطويعهم وترويضهم بل وجعلهم ينقلبون خدما وعبدا وحراسا لها، فلم تكن خطة معاوية معها من قبل بالخطة العفوية الآنية التي استدعتها ظروف طارئة، وانما كانت خطة مدروسة تستهدف اخضاعها إلى الابد، وقد فكر حتى بمن يوليه عليها بعد وفاته وهو عبيد الله بن زياد الذي رآه مؤهلا لمهمة قمع جديدة تشابه تلك التي قام بها والده من قبل.

ان مجرد رمي الكوفة بحاكم مثل عبيد الله كفيل بتصعيد مخاوف الكوفيين وجعلهم يستحضرون تلك الأيام التي عانوا فيها الأمرين عندما رموا بزياد أبيه، وقد كان تعيينه كفيلًا منذ البداية بتفتيتهم وتفرقتهم وعدم ثباتهم على الأمر الذي ازمعوا عليه وهو نصره الحسين عليه السلام والسير خلفه للاطاحة بالدولة الأموية الظالمة.

وقد أدرك ابن زياد أنه يستطيع العمل بكل سهولة مع هؤلاء وأنهم سيكونون كالكرة بين يديه، وأنه سينجح بتحويلهم - أو بالأحرى - اعادتهم إلى صف الدولة التي خرجوا عليها، وأعلنوا رفضهم لها، وقد كان رفضهم غير حاسم، ولم يكن موقفهم غير مليء بالثغرات ونقاط الضعف التي استغلها وتسلسل منها اليهم وجعل منها ممرات يمكن الوصول إلى غاياته عن طريقها.

مظاهرة (عمرو بن الحجاج) مهزلة مضحكة

ولم يكن عبيد الله ليجرؤ على ضرب هانئ بن عروة واحتجازه لو كان يعلم أن لأهل الكوفة موقفاً موحداً، أو أن لقبيلة هانئ نفسها (مذحج) ذلك الموقف الموحد، فعندما فعل بهانئ ما فعل وعندما «ضرب وجهه، حتى كسر أنفه وجبينه، وأمر فألقي في بيت صيَّح المذحجيون، وبلغ عمرو بن الحجاج أن هائناً قد قتل، فأقبل في مذحج حتى أحاط بالقصر ومعه جمع عظيم، ثم نادى: أنا عمرو بن الحجاج، هذه فرسان مذحج ووجوهها، لم نخلع طاعة، ولم نفارق جماعة، وقد بلغهم أن صاحبهم يقتل، فاعظموا ذلك.. فقبل لعبيد الله: هذه مذحج الباب، فقال لشريح القاضي: أدخل على صاحبهم فانظر اليه، ثم أخرج فأعلمهم أنه حي لم يقتل، وأنك قد رأيته، فدخل اليه شريح فنظر اليه، [ثم خرج] فقال لهم: ما هذه الرعة السيئة، الرجل حي، وقد عاتبه سلطانه بضرب لم يبلغ نفسه، فانصرفوا، ولا تحلّوا بأنفسكم ولا بصاحبكم.

[وكان هانئ قد قال له عند دخوله عليه]: يا لله يا للمسلمين، اهلكت أهلي وعشيرتي فأين أهل الدين، وأين أهل المصر، تفاقدوا، يخلوني، وعدوهم وابن عدوهم، والدماء تسيل على لحيتي، اذ سمع الرجة على باب القصر، وقال: يا شريح، اني لأظنها أصوات مذحج وشيعتي من المسلمين، ان دخل عليّ عشرة نفر أنقذوني»^(١).

وعندما أخبر شريح جموع مذحج التي كانت تحاصر القصر أن هائناً كان حياً، وأن أميره لم يفعل شيئاً سوى أن ضربه ضرباً لم يصل به إلى حد الهلاك، «قال عمرو وأصحابه: فأما اذ لم يقتل فالحمد لله، ثم انصرفوا»^(٢).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٦، وراجع المصادر السابقة الأخرى. والكلمات الموضوعة بين العلامات

[فصل] زيادة مني اقتضاها سياق الكلام.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٦.

أكان لامرئ أن يصدق مهزلة مذحج هذه ويهضمها بسهولة؟ كان هانئ من الأشراف، وقومه وزعماءهم ومذحج يبلغ تعداد مقاتليها ألوف البشر المسلحين الأقوياء، وإذا ما علمنا أنهم ثاروا لهانئ وساروا لاستنقاذه من ابن زياد عجبنا من عودتهم واقتناعهم ببقاء هانئ حيا مع أنه لا يزال بيد عبيد الله، لقد ضربه عبيد الله ضرباً مبرحاً - مع أنه لم يصل به إلى حد الهلاك - وفي ذلك اهانة للقبيلة كلها ومس بكرامتها، ثم سجنه وابقاؤه لديه، ولم يكلف نفسه الا ارسال شاهد واحد هو شريح، الذي زجرهم بدوره فانصرفوا بالبساطة التي ينصرف بها ذليل عندما يأمره سيده بذلك.

وربما كان موقف زعيمهم والناطق باسمهم عمرو بن الحجاج المتخاذل، والذي تحدث كأنها يتحدث عن أناس غرباء لا علاقة لهم به على الاطلاق، قد جعلهم يتخاذلون أيضا وينهزمون من أمام القصر، لقد أعلن عمرو بن الحجاج أنه وقومه لم يخلعوا طاعة ولم يفارقوا جماعة وانما كانوا موالين للدولة وعلى استعداد لخدمتها، ثم أعلن وكأن الأمر لا يعنيه أن «صاحبهم» - ويقصد به هانئاً - لم يقتل؛ ولم يقل أنه صاحبه وقريبه وقال أنهم قد أعظموا ذلك ولم يقل: أني أعظمت ذلك واستنكرته أيضا، لقد عزل نفسه عنهم ولم يعرض قضية واضحة، لم يقل: أخرجوا الينا هانئاً نذهب به إلى أهله، ولم يستنكر ضربه أو سجنه وابقاءه لدى ابن زياد، وانما طلب كلمة تفيد أنه لا يزال حيا، وعندما قيل له أن هانئاً لا يزال به رمق من الحياة قنع بذلك ولعله فرح اذ لن يكون عندئذ محرراً أمام قومه وسارع بالقول: فأما اذ لم يقتل فالحمد لله، ولعلمهم عند ذلك سارعوا بترديد كلماته عندما لم يروه مهتماً بقضية هانئ الاهتمام الذي يستحق.

فهل يتصرف عوام الناس عكس تصرف أسيادهم؟ وهل سيطالبون بما عجز هؤلاء عن المطالبة به؟ وهل يصرون على مواقف تنازل عنها هؤلاء؟

لقد كان هانئ يتصور أن عشيرته ستنصره وتمنعه من ابن زياد اذا ما استهدفه

بالأذى والشر، وقد قال له عندما هدده بالقتل: «إذاً تكثر البارقة حول دارك، وهو يظن أن عشيرته سيمنعونه»^(١)، وذهب إلى أبعد من ذلك إلى حد تقديم الأمان لابن زياد وهو يحسب أن موقف أهل الكوفة وقومه على وجه الخصوص سيظل ثابتاً وأنهم سيستمررون في نصرته ونصرة مسلم، فعندما علم هاني أن ابن زياد كان يعلم بحركته المناوئة للسلطة مع مسلم قال له: «قد كان الذي بلغك، ولن أضيّع يدك عني، فأنت آمن وأهلك فسر حيث شئت»^(٢).

وقد ظن عبيد الله نفسه ما ظنه هاني، واعتقد أن مسلماً قد سيطر على جماهير الكوفة، وأنه سيفشل بمهمته لقمعه، وربما فرح عند ذاك بنجاته وخروجه سالماً وقنع من الغنيمة بالاياب، لو لا أن شجعه مهران مولاه وحثه على الجلد والمقاومة.

الخوف والتخاذل نتيجة طبيعية للظلم وغياب القانون

كان الخوف والاستسلام والتخاذل نتيجة حتمية للظلم والقسوة المفرطة وفقدان العدالة والقانون الشرعي الذي جاء به الاسلام، وأعلن أن الناس جميعهم، حاكمهم ومحكومهم في ظله سواسية.

ولو أن قوم هاني كانوا يعيشون في ظل أوضاع سليمة ويعلمون أن قانون العدالة الاسلامية هو السائد، لأصروا على انقاذ زعيمهم من براثن الحاكم الجائر واستصحابه معهم لا الاكتفاء بمجرد الهرج والصياح والوعود غير المؤكدة بأنه لا يزال حياً مع أنهم علموا أنه ضرب ضرباً مبرحاً.

لقد كانوا مهزومين منذ البداية، ولعلهم لاذوا خلف ظهر زعيمهم الآخر الذي

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٥، وراجع بقية المصادر الأخرى.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٥.

ربما جاء معهم بدافع ضغط آني أو انفجار عاطفي مؤقت ربما ساهمت به النساء فدفعن رجالهن للذهاب إلى مقر ابن زياد؛ وقد دلت كلمات هذا الزعيم الآخر - عمرو بن الحجاج - انه كان يعتبر نفسه محايدا وأنه انما جاء نزولا عند رغبة قومه، وأعلن منذ البداية أنهم لم يخلعوا طاعة ولم يفارقوا جماعة، وأنهم لا يزالون يوالون الدولة الظالمة وأنهم رهن اشارتها، وعندما يسحب نفسه بهذا الشكل الدليل وكأن المسألة برمتها لا تعنيه فان هزيمته هذه كانت سببا رئيسياً لهزيمة قومه الذين كان يقودهم في تلك التظاهرة الاحتجاجية المائعة.

الكوفة تجربة مريرة مع دولة الظلم

كانت تجربة الكوفة مع دولة الظلم الأموية تجربة مريرة، وقد شهدت في عهد زياد تخلي أبنائها عن حجر بن عدي عندما عمل زياد بخطة ذكية ماهرة حاول فيها التفريق بين الأشراف وعموم الناس الذين آزرُوا حجرا والتفوا حوله، ولعل التفاتة زياد هذه في التفريق اعتمدت فيما بعد من قبل كل دول الانحراف للسيطرة على الناس.

«وثب زياد بأشراف أهل الكوفة فقال: يا أهل الكوفة، أتشجون بيد وتأسون بأخرى، أبدانكم معي وأهواؤكم مع حجر؛ أنتم معي وأخوانكم وأبناؤكم وعشائركم مع حجر، هذا والله من دحسكم وغشكم، والله لتظهرن لي براءتكم أو لآتينكم بقوم اقيم بهم أودكم وصعركم.

فوثبوا إلى زياد فقالوا: معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما هاهنا رأي الا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين، وكل ما ظننا أن فيه رضاك، وما يستبين به طاعتنا وخلافنا لحجر فمرنا به.

قال: فليقم كل امرئ منكم إلى هذا الجماعة حول حجر، فليدع كل رجل منكم أخاه

وابنه وذا قرابته ومن يطيعه من عشيرته، حتى تقيموا عنه كل من استطعتم أن تقيموه.

ففعلوا ذلك فأقاموا جل من كان مع حجر بن عدي^(١).

لقد نجح زياد بمهمته الخبيثة، وفرق الناس عن حجر واستطاع القبض عليه مع جماعة من أصحابه وأرسلهم إلى معاوية ليقتلهم.

ولقد لفت نظر حجر منظر غريب من قومه، وأسف على ضياعهم وتأذلم أشد من أسفه على نفسه وهو يساق للموت «انصرف، فمر بقومه فجعل القوم يدعون الله له بالعافية».

فقال: «انه لما يعدل عندي اخطر ما أنا فيه هلاك قومي حيث لا ينصرونني، وكان رجاءه أن يخلصوه»^(٢).

وحاول عبيد الله بن الحر الجعفي استنقاذه من بين يدي أعوان زياد فقال: «ألا عشرة رهط استنقذ بهم هؤلاء، لا خمسة...؟»

فجعل يتلهف، قال: فلم يجيني أحد من الناس»^(٣).

كانت قلوبهم مع حجر، وقد دعوا الله له بالعافية، وهو موقف تكرر مع الحسين عليه السلام بعد ذلك، اذ وقفت جماعة تدعو له ولم تقم بأية خطوة للدفاع عنه، بل لعل أحدا من أفرادها لم تحدثه نفسه بذلك^(٤).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٢٠ - ٢٢١، وراجع المصادر السابقة الأخرى.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٢٩، وراجع المصادر السابقة الأخرى.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٢٢٧.

(٤) عن سعد بن عبيد قال: «ان شيوخا من أهل الكوفة وقفوا على التل ويكون ويقولون: اللهم أنزل نصرك. قال: قلت: يا أعداء الله ألا تنزلون فتنصرونه» الطبري: ج ٣ ص ٣٠٠.

أدرك حجر أن قومه ميتون وقد استسلموا ذلك الاستسلام المهين لزياد وكان بإمكانهم تخليصه منه، وكان خمسة منهم - بنظر ابن الحر - يكفون لاداء هذه المهمة، الا أنهم انهزموا وخافوا ولم يقدموا على انقاذه رغم محبتهم له وادراكهم لعدالة موقفه.

ابن زياد طوعت الكوفة له فاستخف بها

لقد بلغ استخفاف ابن زياد بأهل الكوفة أنه أمر بقتل هانئ أمامهم وفي سوق تباع فيه الأغنام نكاية بهم واحتقاراً لهم «فأخرج بهانئ حتى انتهى إلى مكان من السوق كان يباع فيه الغنم، وهو مكتوف، فجعل يقول: وا مدحجاه، ولا مدحج لي اليوم، وا مدحجاه واين مني مدحج، فلما رأى لا أحد ينصره جذب يده، فترعها من الكتاب ثم قال: أما من عصا أو سكين أو حجر أو عظم يحاحش به رجل عن نفسه.

فضربه مولى لعبيد الله بن زياد ضربة، ثم ضربة أخرى فقتله»^(١).

وقد فعل بعبد الأعلى الكلبي ما فعل بهانئ وأمر بضرب عنقه في جبانة السبيع، كما «اخرج عمارة بن صلخب الأزدي - وكان ممن يريد أن يأتي مسلم بن عقيل بالنصرة لينصره - فأتى به أيضا عبيد الله فقال له: ممن أنت؟ فقال: من الأزدي. قال: انطلقوا به إلى قومه؛ فضربت عنقه فيهم»^(٢).

وكان هذا الأسلوب التهديدي الذي اتبعه ابن زياد بقتل أعداء الدولة بين قومهم وأهليهم، أسلوباً قمعياً ناجحاً، وهو أسلوب هجومي أراد أن يدلل به على قوة الدولة واقتدارها، فهو لا يكتفي برد عدوه وانما يتبعه إلى عقر داره فيقتله هناك.

ولعل قصد ابن زياد لم يكن يخفى على الناس الذين أدركوا ضعفهم والذين

(١) الطبري، ج ٣ ص ٢٩٢، وراجع المصادر السابقة الأخرى.

(٢) الطبري، ج ٣ ص ٢٩٢، وراجع المصادر السابقة المذكورة في هذه الدراسة.

استدرجوا لهذا الاستسلام المهين، فكان فعل ابن زياد هذا ربما ردما لآخر حصونهم، وربما كان هذا ما فكر فيه هو، والا فعلام هذا الاجراء.

وبعيد مذبحه الطف وتبجح ابن زياد أمام أهل الكوفة في المسجد الأعظم وشتمه أمير المؤمنين والامام الحسين عليه السلام، احتج عبدالله بن عفيف الأزدي وكانت عيناه قد ذهبتا في (الجمال) و(صفين) وقال مخاطبا ابن زياد: «ان الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك، والذي ولاك وأبوه، يابن مرجانة أقتتلون أبناء النبيين، وتكلمون بكلام الصديقين؟ فقال ابن زياد: عليّ به، فوثب عليه الجلاوزة فأخذه.

فنادى بشعار الأزدي: يا مبرور، وعبدالرحمن بن محنف الأزدي جالس، فقال: ويح غيرك، أهلك نفسك، وأهلك قومك، وحاضر الكوفة يومئذ من الأزدي سبعمائة مقاتل؛ فوثب اليه فتية من الأزدي فانتزعوه فأتوا به أهله، فأرسل اليه من أتاه به فقتله وأمر بصلبه فصلب»^(١).

فهل نصر فتية الأزدي ابن عفيف لأنه نادى بشعارهم، وتركوه يؤخذ من بينهم بعد ذلك لأنهم أدركوا أنهم كانوا يواجهون قوة مدمرة لا تتورع عن استباحة أي شيء في سبيل تنفيذ أغراضها والقضاء على أعدائها؟

أم لأن نشوة الحمية الطارئة قد طارت من رؤوسهم وهم يواجهون واقع الارهاب والظلم والعنف الذي عاش عهده الزاهر في ظل زياد وابنه عبيد الله؟

مشاهد وتهديدات

وتطالعنا في غمار الحوادث التي مهدت لواقعة الطف مشاهد عديدة، نرى فيها فورات لأهل الكوفة وحماسا سرعان ما تحمد وتتلاشى بعيد تصاعدها واتساعها

(١) الطبري، ج ٣ ص ٣٣٨، وراجع المصادر السابقة الأخرى.

وتأجيجها؛ ولا نحسب أن ذلك كان أمراً محيراً لمن أطلع على تاريخ الكوفة واستهدفها بالظلم من قبل دولة الظلم كما أشرنا إلى ذلك في هذه الدراسة.

فلا غرابة إذا ما رأينا خطاباً من ابن زياد أو تهديداً سيكون كافياً لاسكات آلاف الأصوات الغاضبة وتراجع أصحابها، ولا غرابة إذا ما تلاشت الآلاف المحيطة بمسلم خلال ساعات قليلة بمجرد أن كشر الوحش الأموي عن أنيابه وأبدى استعداداً للقتل والبطش، فلم تكن تلك الساعات إلا نتاج سنوات عديدة من الظلم الدؤوب المستمر، كان إرهاب الدولة المنظم كله يعد عدته لمثل تلك السويعات القصار التي يخشى أن يختل ميزان القوى فيها، فلا يكون لصالحها، ليفقد السيطرة إلى الأبد.

وإذا ما عدنا إلى بعض تلك المشاهد، رأينا في أحدها ابن زياد وقد خشي ثورة الناس عليه بعد ضربه هائلاً وحبسه، وإذا استطاع عمرو بن الحجاج أن يرد عنه جموع مذبح، فمن له برد بقية الناس عنه إذا ما ثاروا وأحاطوا بقصره، «فخرج، فصعد المنبر ومعه أشراف الناس وشرطه وحشمه؛ وقال: أيها الناس، اعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم، ولا تختلفوا ولا تفرقوا فتهلكوا وتذلولوا وتقتلوا وتجفوا وتحرموا، إن أخاك من صدقك، وقد أعذر من أنذر»^(١).

ولنا أن نتصور مشهداً آخر مكملًا لذلك المشهد، حيث تعرض ابن زياد للحصار والقتل؛ فهنا نرى الناس قد أخذوا يتهاشكون ويتوحدون خلف مسلم، وقد بدت طلائعهم تغد على المسجد، فهو إذاً الهجوم المتوقع والذي بدأ الآن، وهي الثورة الشعبية التي بدأت قبل حينها وقبل أن يستكمل مسلم استعداداته النهائية.

فما كان ابن زياد ينهي كلمته القصيرة - ولعل إقبال الثوار لم يتيح له إطالتها، وينزل

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٦ وراجع بقية المصادر السابقة التي أشرنا إليها في هذه الدراسة.

عن المنبر - «حتى دخلت النظارة المسجد من قبل التمارين يشتدون ويقولون: قد جاء ابن عقيل، قد جاء ابن عقيل، فدخل عبيد الله القصر مسرعا، وأغلق أبوابه»^(١).

لم يكن مع ابن زياد إذا سوى عدد محدود من الأشراف والشرطة والحشم، لا يغنون عنه أمام عشرين ألف مقاتل اقتحموا المسجد وحاصروه في قصره.

ومع ذلك فقد واجه ابن زياد جموع الكوفة بجرأة ظاهرية يحسد عليها ولم يتراجع أمامهم وبذل جهودا كبيرة لتفتيتهم وتفريق شملهم، فقد حان أخيرا قطف ثمار السعي الجاد في طريق الظلم والارهاب؛ وهذه الجموع التي ذاقت لسعات ذلك الظلم وسياطه أصبحت تخيفها كلمة تهديد واحدة يلقيها الظالم وأعوانه من الأشراف والشرطة والمرزقة حتى تتراجع، بل وتقف عكس موقفها الأول تماما، فبينما كانت تؤلف جيش مسلم وغالبية أعوانه حتى أصبحت تؤلف جيش ابن زياد الذي جرده على الحسين عليه السلام فيما بعد.

فهي تعرف أن من يعد بالشر لابد وأن ينفذ وعيده^(٢)؛ وهي تعرف أن أهل الشام

(١) الطبري، ج ٣ ص ٢٨٦.

(٢) ومن أولئك الذين سمعت وعيدهم وتهديداتهم زياد، حاكمهم السابق وقد جاء في إحدى خطبه لأهل البصرة: «لأخذن الولي بالولي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدير، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم، ان كذبة المنبر تبقى مشهورة، فاذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي..» الطبري: ج ٣ ص ٢١٩. كما خطب في أهل الكوفة بعد أن جمعت له مع البصرة قائلا: «... واني والله لا أقوم فيكم بأمر الا أمضيته على اذلاله وليس من كذبة الشاهد عليها من الله والناس أكبر من كذبة امام على المنبر..» الطبري: ج ٣ ص ٢١٩.

كما خطب ابن زياد في أهل البصرة قائلا: «فو الذي لا اله غيره، لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لاقتلته وعريفه ووليه، ولأخذن الادنى بالاقصى حتى تستمعوا لي ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق، أنا ابن زياد، أشبهته من بين من وطئ الحصى لم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم» الطبري:

سيسيرون خلف يزيد لمقارعتهم وحربهم والقضاء عليهم كما ساروا من قبل خلف معاوية.

ومع ذلك فقد كانت هذه هزيمة لابن زياد، وربما ادرك ان الامر جدي هذه المرة، ولن تنفع معه خطبه ولا تهديداته أو وعيده.

تجمع النساء أثار الرجال اعلان الثورة قبل موعدها

هل استدرج ابن زياد الثوار بسجن (هاني)؟

لقد بدأ التجمع الكبير المناهض لابن زياد بتجمع نسوي ساخط حزين من مراد يشجب ما فعله ابن زياد بهاني «واذا نسوة لمراد مجتمعات ينادين: يا عثرتاه، يا ثكلاه»^(١).

وقد أثار هذا النداءات النسوية الغاضبة أهل الكوفة وأصحاب مسلم على وجه الخصوص الذين بايعوه، وربما أعلن مسلم ثورته قبل الموعد المحدد لهذا السبب، وربما كان ذلك هو الأمر الوحيد الذي يستطيع القيام به؛ اذ كيف يتقاعس عن نصره أكثر أصحابه نصره له ويتركه بيد الطاغية، بينما ثارت الجماهير غاضبة لهذا الأمر، ولعلها لم تتح له الفرصة للقيام بعمل من شأنه انجاح مساعيه لاتمام البيعة للإمام الحسين (عليه السلام) وفق الخطة والتوقيتات التي لا بد أن يكون قد وضعها لهذا الغرض.

لم يكن أمر اعتقال هاني وضربه مما يمكن السكوت عنه، رغم أن رد الفعل الغاضب يمكن أن يتلاشى بمجرد أن تلوح الدولة بعصاها الغليظة التي طالما لوّحت بها من قبل واستعملتها، وبمجرد أن يقوم أعوانها من الأشراف وغيرهم بتخذيل الناس وتخويفهم

ج ٣ ص ٢٨١، وخطب في أهل الكوفة بعيد وصوله إليها: «... فأنا لمحسنتكم ومطيعكم كالوالد البر، وسوطي وسيفي على من ترك أمري، وخالف عهدي، فليبق امرؤ على نفسه، الصدق ينبئ عنك لا الوعيد»، الطبري: ج ٣ ص ٢٨٦.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٦.

من المخاطر المحتملة من هذه الثورة، وهو ما فعلوه بالضبط بعد ذلك ونجحوا فيه.

كانت الكوفة تحتاج إلى حصانة ضد هذه المخاوف وربما كانت تحتاج إلى عدة أيام إضافية لاستكمال هذه الحصانة واستكمال الاستعدادات النفسية والعسكرية لكي تكون قادرة على مواجهة دولة الظلم بصلابة وقوة، إلا أن حادث القبض على هاني بعد استدراجه لم يتيح الفرصة لهذا العمل.

ولعل ابن زياد بإلقائه القبض على هاني، وهو أحد أقطاب الثوار الرئيسيين في الكوفة، أراد أن يفوت الفرصة على مسلم لاستكمال استعداداته، خصوصاً وأن أمره لم يكن مكشوفاً، ولم يستطع ابن زياد سوى دس أحد أعوانه لمراقبة تحرك الثوار، وحتى هذا الحين لم يستطع كشف حجم الثوار وتنظيماتهم ولم يبلغ إلا عن هاني وحسب.

لقد أراد ابن زياد استفزاز الثوار ليظهروا قوتهم قبل الأوان وقبل أن يكملوا استعداداتهم لمواجهة لتتاح له فرصة افشال الثورة والقضاء عليها قضاء تاماً.

وقد أراد مسلم بدوره معرفة الموقف في (القصر) وحقيقة وضع هاني وأعد خطة حربية سريعة لمواجهة ابن زياد ومحاصرته، بعد نداء نسوة مراد.

ويقول رسوله للقصر لاستطلاع ما صار إليه أمر هاني: «فأمرني أن أنادي في أصحابه وقد ملأ منهم الدور حوله، وقد بايعه ثمانية عشر ألفاً، وفي الدور أربعة آلاف رجل، فقال لي: ناد: يا منصور أمت؛ فناديت: يا منصور أمت؛ وتنادى أهل الكوفة فاجتمعوا إليه، فعقد مسلم لعبيد الله بن عمرو بن عزيز الكندي على ربع كندة وربيعة، وقال سر أمامي في الخيل، ثم عقد لمسلم بن عوسجة الأسدي على ربع مذحج وأسد، وقال: انزل في الرجال فأنت عليهم، وعقد لأبي ثمامة الصائدي على ربع تميم وهمدان، وعقد لعباس بن جعدة الجدلي على ربع المدينة، ثم أقبل نحو القصر، فلما بلغ ابن زياد

أقبله تحرز في القصر وغلق الأبواب»^(١).

ويروي عباس الجدلي، أحد القادة الأربعة، قال: «خرجنا مع ابن عقيل أربعة آلاف، فلما بلغنا القصر الا ونحن ثلثمائة؛ وأقبل مسلم يسير في الناس من مراد حتى أحاط بالقصر، ثم أن الناس تداعوا إلينا واجتمعوا، فو الله ما لبثنا الا قليلا حتى امتلأ المسجد من الناس والسوق، وما زالوا يثوبون حتى المساء، فضاق بعبيد الله ذرعه، وكان كبر أمره أن يتمسك بباب القصر، وليس معه ثلاثون رجلا من الشرط او عشرون رجلا من أشرف الناس وأهل بيته ومواليه، وأقبل أشرف ابن زياد يشرفون عليهم، فينظرون اليهم فيتقون أن يرموهم بالحجارة وان يشتموهم وهم لا يفترون على عبيد الله وعلى أبيه»^(٢).

كانت تلك اذ ثورة شعبية كبيرة، واذ تراجع معظم الثوار خلال مسيرهم للقصر، متوقعين عواقب سيئة من ذلك المسير السريع، فانهم سرعان ما تداعوا إلى أصحابهم واجتمعوا حتى ملؤوا المسجد والسوق، ولنا أن نتصور حجم الجماهير التي ملأت مساحة هذين المكانين الكبيرين. مقابل خمسين شخصا كانوا مع ابن زياد، هربوا منهم وتحصنوا بالقصر.

كان عمل ابن زياد وأشرافه أسرع من عمل الثوار، وقد تسلل اليه بعضهم رغم المخاطر التي كان يمكن أن يتعرضوا لها، وأشرف بعضهم على الثوار رغم المخاطر المحتملة أيضا.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٧ - ٢٨٦، وتراجع بقية المصادر.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٧ وتراجع بقية المصادر الأخرى المذكورة في هذه الدراسة.

سباق لحسم الموقف

كان الأمر يقتضي حسماً سريعاً من قبل الثوار وان لا يعيروا آذانهم بعد ذلك للأشراف الذين التقطوا أنفاسهم، فقاموا بحملة محمومة لتخليدهم عن مسلم.

ولعل الثوار لم يبدوا قدراً من الانضباط وروح الحزم التي تميّز بها عدوهم، وحسبوا أنهم بمجرد أن يصلوا إلى باب القصر فإن عدوهم سينهزم أو يفتح لهم باب القصر، ولعل غاية بعضهم لم تكن إلا انقاذ هانئ وحسب استجابة لحمية قبلية أو لصرخات النساء الباقيات، ولعلمهم قد تنازعوا حول السبب الذي قدموا من أجله لمحاصرة القصر. غير أنهم من المؤكد لم يُعطوا الفرصة الكاملة لمسلم لانجاز خطته والقضاء على عدوه، واكتفى معظمهم بالتكبير والصياح وحتى في ذلك الموقف ربما أعد الكثيرون منهم خططاً سريعة للتراجع وترك مسلم.

كان السباق محموماً بين الأشراف وعموم الناس.

ولم يكن الموقف في الأغلب الأعم وعلى الدوام في سباق كهذا إلى جانب عموم الناس، الذين ربما فقدوا الهدف المشترك الذي يوحدتهم، بينما يجد الأشراف مثل ذلك الهدف دائماً، ولعل مصلحتهم المشتركة في ظل دولة الظلم تبرز أمامهم على أنه هو الهدف الأول مع أنهم لا يعترفون بذلك أحياناً ويبررون وقوفهم ضد الناس بنفس المبررات التي ترفعها دولة الظلم وهي مبررات معروفة مكشوفة.

لم يكن الموقف إلى هذه اللحظة إلى جانب ابن زياد، وقد بات الخطر قريباً منه إلى درجة لم يجد معها بداً من الهرب أمام المد الجماهيري الذي وصل المسجد وأحاط به وبالقصر وقد هرب إلى داخله، وقد جاء مسلم، قائد الثورة بنفسه ليخلص هانئاً أولاً ولعله قد يفكر بالقضاء عليه وقتله إذا ما أبدى مقاومة مسلحة وهو ما عرضه عليه

بعض أتباعه ورفضه.

ولو أنه قام بتسليم هانئ في لحظة الضعف هذه، لربما عُدَّ ذلك استسلاماً سريعاً من قبله، ولربما طمعت الجماهير الغاضبة بأكثر من تسليم هانئ اليهم وحاولت قتله، وربما قام هانئ نفسه -وهو الذي عرفت صلابته وشجاعته رغم أنه كان أعزل وحيدا مقابله- بدور المحرض الرئيسي لهذه الجماهير خصوصا وأنه قد أهانه وضربه ضربا مبرحا لا زالت آثاره تبدو على وجهه.

وربما كان ابن زياد بين نارين، نار الاستسلام للجماهير الغاضبة التي أتت تطالب بهانئ وربما طالبت بأكثر من ذلك، ونار الصمود أمامها، فكلتاهما تشكلان خطرا محققا له، وربما لو كان قد أبدى أدنى بادرة للصلح أو تسليم هانئ، لعاد الأمر وبالا محققا عليه في النهاية ولكان قد وضع نفسه في مأزق خطير قد لا يستطيع تخليص نفسه منه.

ان الجماهير المظلومة، لا تستطيع أن ترى جلادها مستسلما خانعا دون أن يشجعها ذلك على الاقتصاص منه، حتى وان أبدى استعدادا للتوبة أو التراجع، ان صورته لا تكتمل في ذهنها الا ومعه سيفه وسوطه وعصاه.

مع الدولة، لا تراجع

كان (الأشراف) مع ابن زياد قلبا وقالبا، وكان هؤلاء الورقة الراححة التي طالما تلجأ الدولة إلى استخدامها منذ عهد معاوية بكل مهارة وفن جديرين بعقري الشر وخلفائه ورجاله، وقد استطاعت بواسطتهم تطويع سائر الناس واخضاعهم وربطهم إلى العجلة الأموية لتنفيذ كل مخططاتها ومشاريعها وتحقيق كل طموحاتها التي تقاطعت مع الاسلام منذ البداية.

وكما سبق وأشرنا في هذا الفصل، فقد كان الأشراف يرون في استمرار الحكم

الأموي، استمراراً لدوام حالة (الشرفية) التي يتمتعون بها، واستمراراً لبقائهم ثابتين على رأس البناء الهرمي للمجتمع مقربين من السلطة العليا، ومتمتعين بالامتيازات والأموال التي غالباً ما تجود بها عليهم؛ مما يتيح لهم تعزيز حالة الاستقرار والثبات لأوضاعهم والتمهيد لتحقيق مكاسب وأرباح مرتقبة في المستقبل.

وهذا هو الأمر الأول الأساس الذي يمنع الأشراف والملاّ المتحلقين والمحيطين بكل الفراغنة والطواغيت على مر العصور من قبول التغيير حتى وإن كان موحى وموصى به من السماء؛ وحمله إلى الناس الأنبياء والمرسلون، وهو أمر طالما تعرض له القرآن الكريم وأشار إليه اشارات عديدة في معرض استعراض الواقع التاريخي الذي أحاط بالرسول، ووضع أمام أعيننا لنعتبر به، ولكي لا تتكرر ممارسات الأشراف والملاّ الخاطئة إذا ما ظهر مجدداً وأحاطوا بطاغوت جديد، إن تعريف القرآن الكريم بهؤلاء يتيح لنا تجنب سيطرتهم ونموهم وانتشارهم على حساب المجتمع الاسلامي كما يتيح لنا رصد تصرفاتهم وسلوكهم ومنع كل ما شأنه تدمير حياتنا الاسلامية.

وكان (أشراف الكوفة) هو الرصيد الكبير والوحيد المتبقي لابن زياد، وكان عليه أن يستخدمهم الآن بكامل طاقتهم واستنفارهم جميعاً دون استثناء ما دام يخوض غمار ذلك السباق السريع مع مسلم ليتحدد على ضوئه مستقبله وحياته وربما مستقبل وحياته دولته كلها، فلربما كانت نتيجة مساعيهم الموحدة والمنظمة، وإذا ما القوا بثقلهم الاجتماعي مرة واحدة واستخدموه لصالحه قد تأتى لصالحه وصالح دولته التي تتعرض لمخاطر حقيقية جادة، ولربما أثروا على الناس، وهم غالباً من قبائلهم وأهلهم وذوهم، ولربما نجحوا في منعهم من الاستمرار بهذه الثورة التي أعلنت قبل الأوان، وقبل اكمال الاستعدادات اللازمة لها، وكل ذلك نتيجة القبض على هانيء وضربه وسجنه.

تخذييل الناس سلاح لنيم لجا اليه (الأشراف)

وقد كان أولئك الأشراف يعلمون أن أقصى ما قد يتعرضون له من قبل الجماهير الغاضبة، هو الضرب أو الشتم لوجودهم مع ابن زياد، ولم يكن من المرجح أن يقتلوا أو يعذبوا اذا ما حاولوا (نصيحة) الناس وحثهم على ترك مسلم والتراجع عن ثورتهم ضد ابن زياد ودولة الظلم الأموية، وهكذا، فلم يكن يبدو أنهم يغامرون بحياتهم ومستقبلهم إلى حد بعيد، ولم يكونوا يتعرضون لخطر الموت عندما قاموا بمهمة ثني الناس عن عزمهم بالاستيلاء على القصر وتخليص هاني.

ولو أنهم كانوا يحتملون تعرضهم لمثل ما كان محتملا أن يتعرض له ابن زياد، لما أظهروا رؤوسهم أمام الجماهير الغاضبة ولما طلبوا منها التفرق أو تخذييلها وتحذيرها (عقوبة السلطان) والجيش القادم من الشام، ولكنوا قد اختفوا من أمام أبصارهم.

ولعل هناك أعدادا كبيرة من هذه الجماهير ترى ما لا يراه هؤلاء الأشراف وربما لن تتأثر بهم وتتابعهم، ولعلها حسبت أنها لن تراهم مع ابن زياد حين بلغ الأمر ذلك الحد، ولولا وجودهم ربما مهمتهم سهلة لاقتحام القصر وإعلان الثورة وتخليص هاني، إلا أن وجود الأشراف الذين لا بد أن يكونوا من ذوي التأثير الكبير على أفراد قبائلهم ومعارفهم، مع ابن زياد وقيامهم بالمهمة التي كلفهم بها، قد ساعد على إحباط مهمة مسلم وهجوم الثوار الذي لو كان قد استمر بنفس الاندفاع والقوة والحماس وطالبوا بهاني حالا واستعملوا بعض الأساليب التي غالبا ما يلجأ إليها ابن زياد وأمثاله، لكنوا قد سيطروا على القصر وعلى الكوفة بأسرها ولا تقلب ميزان القوى لصالح مسلم ولا اتخذت الثورة بعد ذلك مجرى آخر يختلف عن ذلك الذي اتخذته.

«دعا عبيد الله كثير بن شهاب بن الحصين الحارثي، فأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذبح فيسير بالكوفة ويخذل الناس عن ابن عقيل، ويخوفهم الحرب، ويحذرهم عقوبة

السلطان، وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضر موت، فرفع راية أمان لمن جاءه من الناس، وقال مثل ذلك للقعقاع بن شور الذهلي وشبث بن ربعي التميمي وحجار بن أبجر العجلي وشمر بن ذي الجوشن العامري، وحبس سائر وجوه الناس عنده استيحاشا اليهم لقلة عدد من معه من الناس»^(١).

لقد استنفر ابن زياد أشرافه ومن أطاعهم من قبائلهم، لتخذيل الناس وتخويفهم وبث الاشاعات حول وصول الجنود من الشام اليهم، وقد كان أهل الكوفة يعرفون مدى حقد أهل الشام عليهم وكانت تجربتهم معهم أليمة شاقة، وقد علموا انحيازهم ضد أمير المؤمنين (ع) مع معاوية وبقاءهم معه إلى النهاية.

كان أهل الكوفة يعلمون أن ذكريات أهل الشام عنهم لم تكن مما يسر نفوسهم ولعلمهم يطمحون إلى الانتقام منهم، إذا ما أتحت لهم فرصة حرب جديدة يشنها معاوية أو يزيد، فهؤلاء هم قتلة آبائهم واخوانهم في صفين.

كان أهل العراق يعلمون كل ذلك، ويعلمون أن أهل الشام إذا ما وصلوا اليهم فإن أقل ما يمكن ان يفعلوه بهم هو أن يبيدوهم ويبيحوا أموالهم وأعراضهم وأنفسهم... لذلك فإن استعمال هذه الورقة الجديدة مع ورقتي التهديد وورقة الرشوة والوعود بالعطاء، قد ساعد ابن زياد إلى حد بعيد في مهمته، وساعد الأشراف على النجاح الكبير في مهمتهم.

ونستعرض هنا كلام الشريف كثير بن شهاب، الذي كان أول المتكلمين وربما كان آخرهم، حتى كادت الشمس أن تحجب، قال كثير: «أيها الناس، الحقوا بأهاليكم، ولا

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٧، وفي رواية أخرى.. «.. فبعث عبيد الله إلى الأشراف فجمعهم إليه ثم قال: أشرفوا على الناس فمنا أهل الطاعة الزيادة والكرامة، وخوفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة، وأعلموهم وصول الجنود من الشام اليهم» نفس الصفحة.

تعجلوا الشر، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل، فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطى الأمير عهداً: لئن أتممت على حربيه ولم تنصرفوا من عشيتكم، أن يحرم ذريتكم العطاء، ويفرق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع، وإن يأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتى لا يبقى له فيكم بقية من أهل المعصية إلا أذاقها وبال ما جرّت أيديها.

وتكلم الأشراف بنحو من كلام هذا.

فلما سمع مقاتلتهم الناس أخذوا يتفرقون وأخذوا ينصرفون^(١).

وكان أهل الكوفة يعلمون أيضاً أن ابن زياد إذا ما تمكن منهم، فانه سينفذ تهديداته حقاً، وأنه سيلجأ إلى سياسة الغشم التي تبنتها الدولة الأموية ولجأ إليها سلفه زياد، وهي سياسة قائمة على مبادئ غير إسلامية لبناء دولة إسلامية مزورة ومشوهة، إن ذلك يعني أن تجرد عليهم الدولة الأموية كل قواها وكل جيوشها وتذيقهم كل صنوف التنكيل والعذاب والحرمان التي سبق أن ذاقوها من قبل في ظل هذه الدولة والتي لا يزالون يشعرون بمرارتها وآثارها.

لقد رأى أهل الكوفة كما رأى المسلمون جميعاً، المبادئ والقيم الإسلامية تستباح من قبل (الخليفة) الذي نصب على هذه الأمة برغمها قائداً وإماماً، وأوها تستباح من قبل أقربائه وحاشيته وعماله وجنده، كما رأوها تستباح من قبل أشرافهم الذين انساقوا مع موجة الدولة وانجرفوا أمامها وكانوا أول المستسلمين المهزومين.

لم تكن قيم الإسلام العليا هي التي تتحكم، ولم يكن الإسلام هو الذي يسود.

كشرت الجاهلية عن أنيابها ثانية، وظهرت شريعة الغاب، شريعة القوة والغشم

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٨، وراجع بقية المصادر الأخرى.

والأخذ على الظن والشبهة، وأخذ البريء (بالسقيم)، والشاهد بالغائب، ووجد كل فرد نفسه وحيدا أمام سلطان الدولة وجبروتها بعد أن صوروها وجسموها كحيوان هائل مفترس لا يتورع عن التهام كل من يقف في طريقه.

فما عسى أن يفعل أولئك الأفراد البسطاء المغلوبون المتفرقون الضعفاء أمام الهجمة الشرسة التي تشنها عليهم دولة الظلم.

لقد اندفعوا في السابق في ظل حياة سليمة، وبدافع من حماسهم وحبهم لأولئك الذين رأوا أن الحياة لا تستقيم الا معهم وأن الدين لا يطبق الا في ظلهم، ورأوا سعادتهم ومستقبلهم مرهونين باتباع خطاهم وآثارهم.. وقد شهدوا وقعة أمير المؤمنين (ع) للدفاع عن الاسلام منذ أن جاءه الاسلام ضد الجاهلية والكفر ثم ضد الناكثين والمارقين والقاسطين وكيف رفع سيفه طيلة حياته ولم يغمداه الا عند استشهاد، عندما استهدفته اليد الخارجية الغادرة، ورأوا كيف تنازل الامام الحسن (ع) عن حقه ووقع وثيقة الصلح مع معاوية عندما تخلوا هم عنه وساوموا عدوه، لكي يحفظ الأمة ويضمن سلامة أبنائها وهو يرى أمامه الوحش الأموي المفترس الذي لا يهيمه الا التغلب على فريسته والتهامها.

لقد حاربوا معهم، وتخلت غالبيتهم عنهما، وكان الأشراف أول من تسلل إلى صفوف أعدائهما، ومع ذلك ظلوا متيقنين أن منهجهما رغم تحرصات أعدائهما والصعوبات التي أوجدوها لهما هو المنهج الاسلامي الأصيل الذي اختطه رسول الله ﷺ.

وظلت قلوبهم معهما وان استدرجوا للوقوع في الفخ الأموي الذي نصب لهم بمهارة وحذق جديرين بمعاوية بطل التحريف وعقري الشر.

قدوم الحسين عليه السلام، فرصة لن نتحقق ثانية

لقد رأى أهل الكوفة في ثورة الحسين عليه السلام ضد الانحراف الأموي المعلن، فرصتهم السانحة للالتحاق بالثوار، وطلبوا أن تكون الكوفة مركزا للثورة، ولعلمهم لم يضعوا في حساباتهم رد الفعل العنيف الذي ستلقاهم به الدولة، وحسبوا أن الأمر مع يزيد سيكون أهون منه مع معاوية.

غير أن البطش الأموي لاح لهم ثانية، وبدا لهم أنهم سيضطهدون بالصخرة الأموية الصلدة، وأنهم سيتحطمون اذا ما ساروا إلى نهاية الشوط، ورأوا أن أول من تراجع وتخاذل ثانية، أشرفهم ورؤسأؤهم، ولم يكن من المحتمل أن يصمدوا هم، ورؤسأؤهم في صف عدوهم وإلى جانبه، وقد تراجعوا بدورهم منهن سنوات الكفاح المرير في ظل أئمتهم الحقيقيين بعد أن تعبوا وسئموا وأصبح همهم إيجاد المبررات لهذا التراجع، حتى ولو اقتضى الأمر التشكيك بحقيقة ودوافع أطراف النزاع، واذ أنهم في مرحلة ما وطنوا أنفسهم فيها على الوقوف موقف الحياد، فانهم بالتالي انساقوا للوقوف مع الطرف الآخر الذي ظلوا يجاربونه في ظل أمير المؤمنين عليه السلام سنوات عديدة، وطالما أن اثارة الشكوك كان من مصلحتهم وكان سيتيح لهم القعود والتراخي والاستسلام لحياة الهدوء والدعة فانهم لم يروا مانعا من ذلك، وأصبح ذلك طابعا لهم طالما أنه يتيح لهم النجاة بجلودهم والهرب من الكفاح المرير الذي بدؤوه مع أمير المؤمنين عليه السلام.

«العراقيون قدموا من التضحيات شيئا كثيرا، بذلوا أموالهم ونفوسهم ودماءهم في حروب ثلاث، آلاف من العراقيين ماتوا وقتلوا، عشرات من الأطفال يتموا، آلاف من النساء، أصبحن أرمال، آلاف من البيوت والعوائل تهدمت، كثير من المدن والقرى غارت عليها جيوش معاوية، كثير من هذه المآسي والويلات حلت بهؤلاء المسلمين نتيجة ماذا ولأجل ماذا لأجل أن يزداد ما لهم؟ لا. لأجل أن يزداد جاههم؟ لا.

وانما لحساب الرسالة، لحساب الخط، لحساب المجتمع الاسلامي لأجل هذا الهدف الكبير، وهذا هدف أكبر، أعز من كل النفوس، وأعز من كل الدماء وأعز من الأموال. لكن نحن يجب أن نقدر موقف هؤلاء الذين ضحوا وبذلوا وقدموا، ثم أصبحوا يشككون لأن من مصلحتهم أن يشككوا، وأصبح الامام يدفعهم فلا يندفعون، يحركهم فلا يتحركون، لماذا؟ لأن من مصلحتهم أن يعطوا للمعركة مفهوما جديدا، وهو أن القصة قصة زعامة علي أو معاوية، ما بالناس؟ علي ومعاوية، اما أن يكون هذا زعيما واما أن يكون ذاك زعيما، نحن نقف على الحياد ونتفرج، فاما أن يتم الأمر لهذا أو لذلك، هذا التعبير بداياته، وهذا التفسير الذي أوحته مصلحة هؤلاء وهؤلاء، هو الذي كان يشكل عقبة دون أن يتحركوا، دون أن يتحرك هؤلاء من جديد إلى خط الجهاد^(١). بل انهم تحركوا ليكونوا في خط أعداء الاسلام بعد أن سيطر هؤلاء على الموقف، مبررين موقفهم الجديد بالمبررات والشكوك القديمة.

وما حصل في ظل معاوية وعهده، حصل في عهد يزيد، وجدوا أنفسهم أمام مواجهة حقيقية وأمام حاكم حازم لا يتورع عن اللجوء إلى الأساليب التي لجأ إليها أبوه من قبل، وكان عبيد الله يمثل خلاصة القوة الأموية وقد رمتهم به في هذا الموقف الدقيق، وربما عاد إلى أذهانهم ما لقوه هم وعوائلهم من الحكم الأموي ومن زياد خاصة كانت خلاصة سعيهم وجهادهم تغلب أعدائهم عليهم حتى أصبحوا سادتهم، فهل سيرد الجهاد الجديد مع الحسين عليه السلام هؤلاء الأعداء؟ وهل يستطيعون الآن تحقيق ما عجزوا عنه من قبل؟

(١) أهل البيت - تنوع أدوار ووحدة هدف - الشهيد الصدر: ص ١١١ - ١١٢.

تخلوا عنه فأضاعوا فرصتهم الأخيرة

لماذا ستكون شريحة معينة من أهل الكوفة معينة بأمر ثورة الحسين عليه السلام لتلتف حول مسلم وتثور معه على حاكم الكوفة، بينما تقف شرائح عديدة موقف المتفرج؟

ألا يكون من صالحهم في هذه الحال أن يتفرقوا عن مسلم؟ وكيف يتفرقون اذا لم يجدوا المبرر لهذا واذا لم يجده لهم من يريد تفريقهم؟ وما عسى أن يكون المبرر هذه المرة سوى اعادتهم للشكوك والذكريات القديمة؟ خصوصا وأن أشrafهم وكبراءهم قد أعلنوا تمسكهم بخط الدولة ودعواهم إلى التخلي عن مسلم.

لقد وجد الثوار أنفسهم في مواجهة حقيقية مع الناس الآخرين ممن لم يشتركوا معهم ومع الأشراف والزعماء المنحازين إلى الدولة أصلا ومع الدولة الغالبة القاهرة، وكان من مصلحتهم -وهكذا رأوا- أن يتراجعوا أمام أقل التهديدات والتحذيرات، فكيف اذا ما كثفت هذه التهديدات والتحذيرات واشتركت بها مئات الأبواق المتمثلة بالأشراف والناس البسطاء، الآخرين، حتى من قبل عوائلهم ونسائهم.

«ان المرأة كانت تأتي ابنها أو أخاها فتقول: انصرف؛ الناس يكفونك ويحيي الرجل إلى ابنه أو أخيه فيقول: غدا يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر، انصرف فيذهب به، فما زالوا يتفرقون ويتصدعون حتى أمسى ابن عقيل وما معه الا ثلاثون نفرا في المسجد، حتى صليت المغرب، فما صلى مع ابن عقيل الا ثلاثون نفسا، فلما رأى أنه قد أمسى وليس معه الا أولئك نفر خرج متوجها نحو أبواب كندة، وبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة، ثم خرج من الباب واذا ليس معه إنسان، والتفت فاذا هو لا يحس أحدا يدلّه على الطريق، ولا يدلّه على منزل ولا يواسيه بنفسه ان عرض له عدو»^(١).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٨، وراجع بقية المصادر المذكورة في هذه الدراسة وقد وردت رواية أخرى عن أصحاب مسلم وتفرقهم عنه وبقاء مجموعة قليلة قاتلت دونه.. «فلم يكونوا يمرون في طريق

وقد عرفنا بقية القصة، وكيف سُلمَ مسلم لابن زياد بعد أن وعد بالأمان، وكيف أُخلفَ الوعد، وكيف وقف شامخاً أمامه لم يهن ولم يتنازل أو يضعف حتى ساعة استشهاده.

الانسحاب، الأمر الغريب الذي أثار دهشة ابن زياد

لقد كان تحاذل أهل الكوفة بعد أن أحاطوا بالقصر وملؤوا المسجد والسوق، وتراجعهم وانسحابهم بتلك السرعة الكبيرة، أمراً غريباً أذهل ابن زياد وأثار تعجبه واستغرابه، كما أنه لا يزال يثير استغراب العديدين منا حتى الآن، مع أن له مبرراته التي أوضحنا قسماً منها في هذه الدراسة، صحيح أن ابن زياد بذل جهوداً كبيرة لتخذيل الثوار واستنفر كل أعوانه وأصحابه لهذا الغرض، إلا أنه لم يحسب أن جهوده ستكلل بذلك النجاح المنقطع النظير.

وقد قال لأصحابه عندما طال عليه الأمر وأصبح لا يسمع لأصحاب مسلم صوتاً كما كان يسمعه قبل ذلك: «اشرفوا فانظروا هل ترون منهم أحداً، فأشرفوا فلم يروا أحداً، قال: فانظروا لعلهم تحت الظلال قد كمنوا لكم، ففرعوا بحاجب المسجد، وجعلوا يخفضون شعل النار في أيديهم، ثم ينظرون: هل في الضلال أحد؟ وكانت

يميناً ولا شمالاً إلا وذهبت منهم طائفة، الثلاثون والأربعون ونحو ذلك.. فلما بلغ السوق، وهي ليلة مظلمة ودخلوا المسجد، قيل لابن زياد: والله ما نرى كثير أحد، فأمر بسقف المسجد فقلع، ثم أمر بحرادي فيها النيران، فجعلوا ينظرون فإذا قريب خمسين رجلاً، فنزل فصعد المنبر وقال للناس تميزوا أرباعاً أرباعاً، فانطلق كل قوم إلى رأس ربهم، فنهض اليهم قوم يقاتلونهم، فجرح مسلم جراحة ثقيلة، وقتل ناس من أصحابه، وانهزموا..» الطبري: ج ٣ ص ٢٢٩، ومن مضمون الروايتين نجد أن معظم أصحابه مسلم قد تحلوا عنه بفعل تخذيل الأشراف وتأثيرهم على عوام الناس وعلى النساء خاصة، وقد كن قد كنن من قبل بأزواجهن وإخوانهن.. وهكذا أتيح لهم إيجاد العذر المناسب لتخليهم عنه.. وهو عذر يتيح لهم التنصل من المسؤولية باعتبار أن غيرهم يكفيهم وأنهم مهما فعلوا لن يستطيعوا تغيير الواقع الفاسد والقضاء على الحكم الظلمة.

أحيانا تضيء لهم وأحيانا لا تضيء لهم كما يريدون، فدلوا القناديل وانصاف الطنان تشد بالحبال، ثم تجعل فيها النيران، ثم تدلى، حتى لا تنتهي إلى الأرض، ففعلوا ذلك في أقصى الظلال وأدناها وأوسطها حتى فعلوا ذلك بالظلة التي فيها المنبر، فلما لم يروا شيئا علموا ابن زياد ففتح باب السدة التي في المسجد، ثم خرج فصعد المنبر، وخرج أصحابه معه فأمرهم فجلسوا حوله قبيل العتمة»^(١).

خلا المسجد من الثوار، فامتلاً بأعوان السلطة

ومن العجيب أيضاً، أن المسجد الذي قد خلا قبيل لحظات من أصحاب مسلم الثائرين الغاضبين، عاد فامتلاً ثانية بأمر من ابن زياد، وربما كان من بين ملئه بعض أولئك الأصحاب أنفسهم؛ فقد أصبح همهم الآن حماية أنفسهم والمحافظة على بيوتهم وعوائلهم.

أمر ابن زياد مناديه فنادى: «ألا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء أو المناكب أو المقاتلة صلى العتمة الا في المسجد؛ فلم يكن له الا ساعة حتى امتلاً المسجد من الناس»^(٢).

وكعادته، عندما استطاع التقاط أنفاسه بعد الموقف العسير الذي وجد فيه نفسه وخرج منه بأعجوبة اتاحها تردد أهل الكوفة وخوفهم الكبير من الوحش الأموي الكاسر، أخذ ابن زياد يحث الناس على الاخبار عن مسلم أو تسليمه للسلطة، وهدد مسؤول الشرطة بالموت ان هو غفل عن مسلم ولم يعثر عليه، وطبيعي أن يكون تهديده لهذا الشرطي الكبير أثره البالغ على من حضر اجتماع الحراس ونقاط التفتيش على أفواه السكك، وهو أمر كان سيثير أكبر المخاوف في نفوسهم، اذ سيري كل واحد منهم أنه

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٨.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٨.

مستهدف شخصيا بهذا التفتيش، وقد يكون وراءه أمر آخر لم يشأ ابن زياد التصريح به أمامهم وربما أصدر تعليماته إلى شرطته سرا.

«فبرئت ذمة الله من رجل وجدناه في داره، ومن جاء به فله ديته.

الزموا طاعتكم وبيعتمكم، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا.

يا حصين بن تميم، ثكلتك أمك ان صاح باب سكة من سكك الكوفة، أو خرج هذا الرجل ولم تأتني به، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة فابعث مرابضة على أفواه السكك، وأصبح غدا واستبر الدور وجس خلالها حتى تأتيني بهذا الرجل»^(١).

لم يتأخر ابن زياد عن استغلال الموقف الذي كان يبدو أنه يسير لصالحه بما يشبه أن يكون ضربة حظ سعيدة، فاذا أتيح له خلال ساعات فقط أن يجرد عدوه من أنصاره وأعوانه، فإن الخطوة التالية كانت باتجاه فصل يتيح له التربص بالحسين عليه السلام وقتله أو إجباره على الاستسلام، وهو الأمر الذي أعد له عدته منذ ذلك الحين.

مجتمع الكوفة، انحنى أمام العاصفة فظل محني الظهر

لقد انحنى مجتمع الكوفة مرة أخرى أمام العاصفة وانهار أمام ضربات ابن زياد وتهديداته، وقد كان على استعداد لذلك الانهيار الذي بدا أمام الدارس العادي وكأنه نتيجة سعي شخصي من ابن زياد ولم يكن نتاج سعي دؤوب من قبل أجهزة الحكم الأموي كلها طيلة عقدين من الزمن، ولم يكن ابن زياد سوى مستثمر واع لجهود الدولة السابقة لتدمير مجتمع العراق، ولم تكن ضربته ضربة حظ سعيدة موفقة بقدر ما كانت استمراراً للضربات السابقة التي كان مجتمع الكوفة لا يزال يعاني منها عند قدومه إليها. كانت نسبة الدمار عالية في بعض النفوس التي حسبت أن فرعون الأموي سيظل

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٩.

ربا من دون الله إلى الأبد، وقد انسحقت وتضاءلت إلى درجة حسبت معها أنه موجود في كل مكان يراقب تصرفات وأعمال خدمه ورعيته وعبيده، فلم تكتف بتنفيذ أوامره وتوجيهاته بل اندفعت بمبادرات شخصية إلى القيام بأعمال مستهجنة حتى ربما من قبل أفراد الجيش المستنفر لقتال الحسين عليه السلام وبعض قادته، وقد حسبت أنها تقترب بتلك الأعمال إلى فرعون مع أنها تعلم أنها في مقام ذليل لا يتيح لها الوصول إلى اعتابه.

ان بعض تلك الشخصيات -وإن بدت هزيلة أو تافهة- فقد لفتت تصرفاتها أنظارنا، ولعل نماذج مشابهة تتكرر في كل عصر وتبرز أمامنا الآن في ظل أنظمة الظلم تجعلنا نتساءل عن مصدر الدوافع التي تجعلها تتصرف بهذه الطريقة.

ان هذه الشخصيات الهامشية التي ليس لها دور يذكر في التأثير على مسار الأحداث تلفت أنظارنا بل وتثيرنا بتفاهتها وسخافة مواقفها وخططها، وحرصها على تقديم الخدمات التطوعية المجانية بمناسبة أو دون مناسبة واستعدادها للقيام بأحط الأدوار التافهة الذليلة، دور الجاسوس، ودور المهرج، ودور الداعية لسيادة الدولة وفعونها، ودور الشخص الظريف أو المتظرف الذي يسعى للتنكيل بأعداء الدولة لمجرد أنهم أعداؤها، ودور الحريص عليها والمتفاني لها والموالي في خدمتها.

نماذج أفرزتها دولة الظلم

لقد برزت أمامنا شخصيات الأشراف ورؤساء القبائل الهزيلة التي لم تكن سوى أدوات طيعة بيد الدولة لا إرادة لها ولا رأي، وقد سبق أن تعرضنا لبعض تلك الشخصيات في هذه الدراسة.

وتبرز أمامنا مقابل تلك الشخصيات شخصيات هزيلة أخرى لأفراد عاديين، لم يكونوا ليذكروا لولا مواقفهم الملفتة للنظر والتميزة عن مواقف الآخرين العادية.

وتطالعنا الشخصية الهزيلة لابن تلك المرأة العظيمة التي آوت مسلماً، فذهب يشي به ويخبر عنه أسياده، وقد قيل أنه كان شريراً وكان يشرب مع أصحاب له. لقد جعل جل همه الوشاية بمسلم، وأمضى ليلة مسهداً قلقاً يريد القيام بهذه المهمة رغم علمه أن أمه هي التي آوته وأنه يمكن بذلك أن يعرضها هي نفسها للخطر.

كما تطالعنا شخصية بكير بن حمدان الأحمري الذي ضربه مسلم وكاد يقتله، وقيامه بتنفيذ دور الجلاد عندما قام بقتل مسلم بأمر من ابن زياد.

وشخصية ابن حوزة الذي «جاء حتى وقف أمام الحسين، فقال: يا حسين يا حسين فقال الحسين: ما تشاء؟ قال: أبشر بالنار، قال: كلا، اني أقدم على رب رحيم وشفيع مطاع، من هذا؟ قال له أصحابه: هذا ابن حوزة، قال: رب حزه إلى النار، فاضطرب به فرسه في جدول فوق فيه، وتعلقت رجله بالركاب، ووقع رأسه في الأرض، ونفر الفرس، فأخذ يمر به فيضرب برأسه كل حجر وكل شجرة حتى مات»^(١).

ويطالعنا عمر الطهوي التميمي الذي رمى الحسين ﷺ بسهم أصابه بين كتفيه، ومرة بن منقذ بن النعمان العبدي الذي طعن علي بن الحسين ﷺ.

وعمر بن صبيح الصدائي الذي رمى عبد الله بن مسلم بن عقيـل بسهم «فوضع كفه على جبهته، فأخذ لا يستطيع أن يحرك كفيه»^(٢) والآخر الذي «انتحى له بسهم ففلق قلبه»^(٣).

وعبد الله بن قطبة الطائي الذي قتل عون بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعامر ابن نهشل التميمي الذي قتل محمد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣١، وراجع بقية المصادر الأخرى.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣١.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٢.

وعثمان بن خالد الجهني وبشر بن سوط الهمداني اللذان قتلا عبدالرحمن بن عكيل ابن أبي طالب.

وعبدالله بن عزرة الخثعمي الذي رمى جعفر بن عكيل فقتله.

وعمرو بن سعد بن نفيل الأزدي الذي قتل القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب. رغم أنه غلام صغير ورغم أن أحد أصحابه حاول منعه من ذلك، وكثير بن عبدالله الشعبي الذي أبدى استعداداه لقتل الإمام (عليه السلام) قبل نشوب المعركة اذا ما رغب ابن سعد في ذلك.

ومالك بن النسير البدي الذي ضرب الامام (عليه السلام) على رأسه بالسيف وكان على رأسه برنس، فقطع البرنس وأصاب السيف رأسه فادمى رأسه فامتلاً البرنس دمًا ورجل من بني سهم الذي ضرب طفلاً صغيراً للإمام (عليه السلام) بسهم فذبحه.

وعبدالله بن عقبة الغنوي الذي رمى أبا بكر بن الحسين (عليه السلام) بسهم فقتله.

وهانئ بن ثبث الحضرمي الذي قتل عبدالله بن علي (عليه السلام) وجعفر بن علي (عليه السلام) ثم قتل طفلاً صغيراً فقطعه بالسيف.

وخولي بن يزيد الأصبحي الذي قتل عثمان بن علي (عليه السلام) بسهم وحمل رأس الحسين (عليه السلام) ثم جبن ولم يستطع قطعه، وقام بذلك سنان بن أنس.

ورجل من بني أبان بن دارم الذي حرض الناس لمنع الحسين (عليه السلام) من الوصول إلى الفرات قائلاً: «ويلكم حولوا بينه وبين الماء لا تنتم إليه شيعته، قال: وضرب فرسه وأتبعه الناس حتى حالوا بينه وبين الفرات فقال الحسين: اللهم أظمه قال ويتزع الأباقي بسهم فأثبته في حنك الحسين قال فانتزع الحسين السهم ثم بسط كفيه فامتلاً دمًا ثم قال الحسين: اللهم إني أشكو إليك ما يفعل بابن بنت نبيك قال فوالله إن مكث الرجل

إلا يسيرا حتى صب الله عليه الظمأ فجعل لا يروى»^(١).

وبحر بن كعب بن عبيد الله الذي أهوى إلى الإمام بالسيف وقتل طفلاً للإمام الحسن عليه السلام والذي استنكرت فعلته.

وبحر بن كعب هذا هو الذي سلب الحسين سراويله فتركه مجرداً، وكانت يدا بحر بعد ذلك تنضحان الماء في الشتاء وفي الصيف يبسان كأنهما عود^(٢).

وذرة بن شريك التميمي الذي ضرب كف الإمام اليسرى.

وقيس بن الأشعث الذي سلب الامام قطيفته.

والأسود الذي سلب نعليه.

والدارمي الذي سلب سيفه، وعبدالله بن أبي حصين الأزدي الذي قال للحسين عليه السلام: «ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء، والله لا تذوق منه قطرة، حتى تموت عطشاً».

والناس الذين مالوا على الورس والحلل والابل فانتهبوها.

والناس الذين سلبوا ثقل الحسين عليه السلام ومتاعه.

والعشرة الذين تطوعوا فأتوا فدا سوا الحسين عليه السلام بخيولهم فرضوا ظهره وصدره، ومحفز بن ثعلبة الذي جلب الرؤوس والسبايا إلى الشام وشتم الحسين وأهله وأصحابه أمام يزيد.

ربما لم يكن لما سلبه هؤلاء قيمة مادية، الا أنهم أرادوا أن يدللوا على اشتراكهم بقتل

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٣.

الحسين عليه السلام، مما كان سيرضي قائدهم الذليل ابن سعد وسيده ابن زياد، ولعل طموحهم لم يتعد رغبتهم برضا ابن سعد عنهم رغم أن طموحه قد لا يتعدى طموحهم، ولعله لا يطمح الا بنظرة رضا ابن زياد وسيده يزيد.

تبرز عشرات الأمثلة والصور لمثل هذه الشخصيات التي أرادت لفت النظر إلى سلوكها وممارساتها في ظل الطغيان، وما كان أحد ليلتفت إليها لولا تلك الممارسات المنفرة الشاذة.

مبادرات، أم محاولات للفت الأنظار

ان هذه الشخصيات التي تطوعت للقيام بأدوار استثنائية بمبادرات شخصية دون أن تتلقى أوامر من أحد، تمثل ذلك التملق الممجوج المرفوض دائما، وتمثل أولئك المتمسحين باعتبار الدولة دائما مهما كان اتجاهها وتمثل كل طبقات وأشكال الانتهازيين والمنافقين الذين قد ينقلبون في أية لحظة على أسيادهم وأولياء أمورهم اذا رأوا أن الريح لا تهب لصالحهم.

ان أمثال هؤلاء يبررون أعمالهم بالحرص على الدولة وطاعة (الامام) والوفاء بالبيعة والالتزام بالأوامر وتنفيذها مع أن أوامر محددة تفصيلية لم تصدر اليهم هم على وجه الخصوص ولم يطلب أحد منهم القيام بما قاموا به.

لقد عبر أحدهم عن موقفه وهو مالك بن النسير البدي عندما جاء بكتاب ابن زياد وأوامره إلى الحرب أن يجتمع بالحسين وأصحابه عليهم السلام وأمره أن لا يفارقه حتى ينفذ رأيه وأمره عندما عاتبه أبو الشعثاء الكندي وقرعه على فعلته بالوقوف إلى جانب الظلمة - قائلا له: «ثكلتك أمك، ماذا جئت فيه!؟»

قال: وما جئت فيه، أطعت إمامي ووفيت بيعتي.

فقال له أبو الشعثاء: عصيت ربك، وأطعت إمامك في هلاك نفسك، كسبت العار والنار، قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾^(١) فهو إمامك^(٢).

والجدير بالذكر أن أغلب هؤلاء ماتوا أو قتلوا بعد أن ابتلوا بأمراض وحوادث أثر تصرفاتهم تلك أو بعد سنوات قليلة على يد المختار الثقفي وجماعته.

راسلوه ثم التحقوا بالجيش الذي جند لقتاله

على أن أكثر ما يثير انتباهنا هو أن الجيش الذي استنفر لمقاتلة الحسين عليه السلام ضم العديد من أولئك الذين راسلوه وأبدوا استعدادهم للوقوف خلفه بوجه الحكم الأموي المنحرف، لقد انحازوا في النهاية إلى جانب فرعون، ودفعوا سيوفهم بوجه من جاء ليخلصهم منه ومن جورهم، وشاركوا بقتله ونهب متاعه وسلب نسائه وأطفاله، ولم يتخرجوا أو يخرجوا من موقفهم الشائن وانقلابهم المخزي، وذهبوا إلى حد سب من دعاهم إلى التراجع عن موقفهم والعودة إلى نصر الحسين والتخلي عن ابن زياد وهو زهير بن القين، «اثنوا على عبيد الله بن زياد، ودعوا له وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله»^(٣).

وقد حاول زهير تحذيرهم من أمثال شمر الذين يدفعونهم إلى الحرب دفعا «عباد الله لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعته محمد عليه السلام قوما هرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبح عن حريمهم»^(٤).

(١) سورة القصص، آية ٣٢.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٩، وراجع بقية المصادر الأخرى المذكورة في هذه الدراسة.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠.

وحيث لم ينفع نداؤه ولم تُجِدْ نصيحته أرسل الحسين عليه السلام اليه من يستدعيه فقال له: «ان أبا عبدالله يقول لك: أقبل، فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ في الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والابلاغ»^(١).

كان الامام عليه السلام يعلم أن النصح والابلاغ لن ينفع ما دام أهل الكوفة قد وصلوا حداً استعدوا فيه لقتله بعد أن أبدوا استعدادهم لنصرته من قبل، لقد وقعوا في الفخ ولن يكون تراجعهم سهلاً هذه المرة، وسيحتاجون إلى شجاعة كبيرة كتلك التي تمتع بها الحر ليرتكوا جيش ابن زياد وينضموا إلى أصحاب الحسين عليه السلام، وهو أمر لا يتاح في الأغلب إلا لمن هم على شاكلة الحر، وهؤلاء قليلون على أي حال.

وكما هو حال أهل الكوفة، فقد تخلى عن الحسين عليه السلام بعض من جاؤوا معه ورافقوه واغلبهم من الاعراب، وكان ذلك متوقعاً؛ لأنهم ظنوا أنه عليه السلام لن يلاقي أية متاعب أو صعوبات وأن الأمور ستكون هينة سهلة، وقد جعلهم الامام عليه السلام على بينة من الأمر قبل أن يكملوا مسيرتهم إلى الكوفة، إذ ربما لحقهم أذى لم يكونوا على استعداد لتحمله كاستعداد أصحابه الآخرين، فعندما وصله بزيارة خبر مقتل مسلم قال لهم: «أما بعد، فانه أتاننا خبر فظيع قتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة وعبدالله بن بقطر، وقد خذلنا شيعتنا، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف، ليس عليه منا ذمام. فتفرق الناس عنه تفرقا، فأخذوا يميناً وشمالاً حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه إلى المدينة، وانما فعل ذلك لأنه ظن انما اتبعه الاعراب لأنهم ظنوا أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله، فكره أن يسيروا معه الا وهم يعلمون علام يقدمون وقد علم أنهم اذا بين لهم لم يصبره الا من يريد مواساته والموت معه»^(٢).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥، وقد ورد أيضاً انه قال لهم: «هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، ثم

وقد عزم هؤلاء فعلا على المضي إلى النهاية رغم أن الامام عليه السلام قد سمح لهم بالذهاب ان شاؤوا وذلك ليلة المعركة وبعد تيقن الجميع بأنهم سيقتلون لا محالة وقد خاطبهم قائلاً: «أما بعد فإنني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي فجزاكم الله عني جميعاً خيراً ألا وإنني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ألا وإنني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم مني ذمام هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً»^(١).

ولم يتركه أحد منهم، فقد كانوا مصممين منذ البداية على المضي حتى النهاية التي كانوا يحملونها جميعاً وهي الاستشهاد، فالمهمة التي أخذوا على عاتقهم القيام بها مهمة كبيرة تستهدف انتشار الأمة كلها وانقاذها من شباك الانحراف وسلاسله، ولن يتيح لهم فراعنة الأمة وطواغيتها المضي في مهمتهم، بل لابد وأن يسعوا لوضع نهاية مأساوية لهم تكون (عبرة) لكل من يريد التعرض لعروشهم بعد ذلك.

وهو أمر لا يقدر عليه الا من تمتع بأعلى قدر من الشعور بالمسؤولية يشعر معه أن مستقبل الأمة كلها قد يكون رهيناً بتصرفه وصموده بوجه الارهاب والانحراف وهو ما لم يحتمل وجوده لدى الاعراب الساعين وراء الغنائم والفوائد، كما لم يحتمل وجوده لدى من أفرغوا من شعورهم بمسؤولياتهم الرسالية تجاه الأمة المظلومة، وقد حصروا هذه المسؤوليات بشؤونهم الشخصية وشؤون بيوتهم وعوائلهم.

ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فان القوم انما يطلبوني، ولو قد أصابوني هوا عن طلب غيري..» الطبري: ج ٣ ص ٣١٥، وقد رفض أهله وأصحابه ذلك وأصروا على البقاء معه حتى النهاية.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥.

جئنا لنسلم عليك... وندعو لك لا لتنصرك علينا ديون ولنا عيال

يروى عن الضحاک بن عبدالله المشرقي قوله: «قدمت ومالك بن النضر الأرحبي على الحسين، فسلمنا عليه، ثم جلسنا اليه، فرد علينا ورحب بنا، وسألنا عما جئنا له، فقلنا: جئنا لنسلم عليك، وندعو الله لك بالعافية، ونحدث بك عهدا، ونخبرك خبر الناس، وانا نحدثك أنهم قد جمعوا على حربك، فرأيتك، فقال الحسين ﷺ حسبي الله ونعم الوكيل، فتذمنا وسلمنا عليه، ودعونا الله له.

قال: فما يمنعكما من نصرتي؟

فقال مالك بن النضر: علي دين ولي عيال فقلت له إن علي دينا وإن لي لعیالا ولكنك إن جعلتني في حل من الانصراف إذا لم أجد مقاتلا قاتلت عنك ما كان لك نافعا وعنك دافعا»^(١).

فهذان شخصان كان ظاهرهما يشير إلى أنهما يجبان الامام الحسين ﷺ ويميلان اليه، ولم يستطيعا أن يرتفعا بحبهما له الى درجة الدفاع عنه وعن قضيته حتى الموت كما فعل بقية أصحابه، وقد حاولا تحذيره مما يعد له، ومما بدا أنه كان مستعدا له.

وقد تفاوتتا بدرجة الفعل الذي سيقدمانه، فبينما اكتفى أحدهما بالدعاء له، وهو أمر على مستوى القول وحسب، اشترط الثاني أن يقاتل اذا كان القتال (مفيدا) أو نافعا- على حد تعبيره- أما اذا وصل الأمر وكان دفاعه لا يستطيع رد أعداء الإمام عنه فانه طلب من الامام السماح له بالانصراف في هذه الحالة، وهو ما فعله بعد ذلك حسبا روي لنا.

فالاحتجاج بالدين والعيال ليس أمرا جديدا اكتشفه هذان الشخصان، بل هو أمر يلجأ اليه كل من يريد التهرب من مسؤولياته العامة، حيث يرى أن غيره يكفونه تلك

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥.

المسؤوليات أما أمر ديونه وعياله فهو أمر خاص به لا يستطيع أحد قضاءه عنه، والا فهل أُلقيت تلك المسؤوليات العامة لتقويم الانحراف على الحسين أصحابه عليه السلام وأُلغيت عن باقي أفراد الأمة؟ وهل لم يكن لهؤلاء أطفال وعوائل يتحملون مسؤولياتهم...؟ وهل جعل الله مسؤولية التغيير والتقويم على أولئك الذين ليس لهم عوائل وليست عليهم ديون؟

ان من يتقاعس أو يتردد أو يجبن غالباً ما يلجأ إلى مثل هذه الأعذار، والا فما عساه أن يقول غير ما قاله هذان الشخصان، وغير ما قاله أهل الكوفة لبعضهم: «انصرف الناس يكفونك»، وقد انصرف الجميع بالتالي اذ لم يملكو ارادة التغيير أو الثورة.

اعذار المتخاذلين وتبريرات المعتدين

لقد حاول أولئك الذين تخلوا عن نصره الحسين عليه السلام وأولئك الذين ذهبوا إلى أبعد من ذلك وشاركوا في قتاله، ايجاد الأعذار التي من شأنها أن تجعلهم قادرين على مواجهة الناس والرأي العام وتبرئة ذمهم، وما كانت تلك الأعذار لتنتلي على من عرف حقيقة وأوضاع وظروف ذلك المجتمع الذي عاش في ظل نظام الظلم والانحراف، وهي أعذار واهية لا يزال الكثيرون منا يعمدون إليها عندما ينساقون مع الظالم ويكونون اداة في يده ويزينون له أعماله وجرائمه، وقد يقولون بعد ذلك: اننا لم نرتكب جريمة قتل أحد بأنفسنا، وان دورنا كان ثانوياً، وربما لم نزد على أن حرضنا الظالم على ظلمه، فنحن نشكر الله على أننا لم نقتل أحداً بأيدينا، وكأن فرعون في السابق كان يقتل الناس بيديه، وان الملاء من حاشيته وأنصاره كانوا كلهم يمسكون السيوف ويقتلون الناس، وكأن الذي يرتكب جريمة يقوم هو بنفسه بامساك السكين ووضعها في عنق الضحية. كانت حاشية فرعون تزين له أعماله وجرائمه وتحرضه على ارتكابها، ومع ذلك فلم يذهب أحد إلى تبرئتهم من الجرائم التي كانوا هم سببها المباشر ومصدرها الرئيسي.

ويبيدي لنا حوار طريف جرى بين أيوب بن مشرح الخواني، الذي شارك في جيش ابن سعد، وقتل فرس الحر واضطره للوثوب عنه والقتال راجلا، وبين أبي الوداك أحد شيوخ أهل الكوفة، طرفا من الأعذار التي يلجأ إليها عبيد الطغاة على مر الأزمان. لقد ضمهما مجلس تذاكروا فيه واقعة الطف ودور بعض أهل الكوفة فيها، وقد (شكر الله) ابن مشرح على أنه لم يقتل الحر وإنما اكتفى بقتل فرسه، وعندما: «قال فما رأيت أحدا قط يفري فرية قال فقال له أشياخ من الحي أنت قتلت؟ قال لا والله ما أنا قتلتة ولكن قتله غيري وما أحب أني قتلتة، فقال له أبو الوداك: ولم، قال: إنه كان زعموا من الصالحين فوالله لئن كان ذلك إثمًا لأن ألقى الله بإثم الجراحة والموقف أحب إلي من أن القاه بإثم قتل أحد منهم»^(١).

لقد أراد اقناع نفسه بأنه لم يفعل شيئا سوى قيامه بقتل الفرس، وأنه ربما جرح شخصا ما، وأنه لم يفعل شيئا سوى الوقوف مع الجيش المعتدي وحسب، وهو أمر كما يصوره لنفسه، أهون من قيامه بقتل أحد من أصحاب الحسين عليه السلام كالحر. وربما كان يدري أنه بقيامه بجرح جماعة وعقر خيولهم، وتحريض آخرين على القتل وتكثير أعداد الجيش المعتدي، باعتباره فردا منه، وصموده أمام الحسين وأصحابه عليهم السلام، يلعب دورا له أهميته في المحصلة النهائية وهي قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام كلهم، وبذلك فانه بتجاهله أنه أحد القتلة لا يستطيع اقناع أحد بأنه لم يلعب أي دور.

والا، فإن يزيد أو ابن زياد، أو ابن سعد ربما لم يقتلوا أحدا من أصحاب الحسين عليه السلام بأيديهم، وكذلك سرجون ووردان والحاشية الملتفة حول يزيد، وإنما اكتفوا بإصدار الأوامر والتحريض على القتل، ومع ذلك، فهل أعلن أحد براءتهم من الجريمة، وهل فكروا انهم هم أنفسهم أبرياء؟ أم أنهم أطرقوا في النهاية خجلا بعد أن أدانتهم الأمة

بأجمعها وحملوا وزر جريمتهم وراحوا تحت شعورهم بالذنب يلقي كل منهم المسؤولية على الآخرين، كما المحنا إلى ذلك، وكما سنفصله بعون الله عند الحديث عن نتائج الثورة، ولم يقل أي منهم أن الجريمة لم تكن جريمة.

قال أبو الوداك لابن مشرح: «ما أراك الا ستلقى الله بإثم قتلهم أجمعين، أرأيت لو أنك رميت ذا فعقرت ذا، ورميت آخر، ووقفت موقفا، وكررت عليهم، وحرضت أصحابك، وكثرت أصحابك، وحمل عليك فكرهت أن تفر، وفعل آخر من أصحابك كفعلك، وآخر، كان هذا وأصحابه يقتلون... انتم شركاء كلكم في دمائهم»^(١).

لقد نفى أبو الوداك ذلك المبرر الدائمي الذي يتذرع به الخانعون والجانحون والسائرون في ركاب الظلم، وشخص الأعداء التي يتعللون بها دائما وهم ينحنون أمام سادتهم وكبرائهم وأئمتهم ومثلهم العليا (المنخفضة) ويكونون أداة بأيديهم.

ان لقطات عديدة يمكن أن يشار إليها، ويستفاد منها عند النظر في أحوال المجتمع العراقي بكل فئاته وطوائفه.. وهو موضوع جدير بدراسات أوسع وأعمق للوصول إلى معرفة الأسباب الحقيقية الكامنة خلف الأحداث التي وقعت في تلك الفترة الدقيقة وظلت تؤثر على مجرى تاريخنا الاسلامي إلى يومنا هذا.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٦.

ظواهر على هامش مجتمع الظلم

تصرف غير مسؤول

هناك احدى الظواهر المكررة التي تبرز في دول الظلم والتي تستلفت النظر، رافقت أحداث الثورة منذ البداية، وبالتحديد منذ قدوم مسلم بن عقيل إلى الكوفة، وحتى استشهاد الامام الحسين وأصحابه عليه السلام في واقعة كربلاء، وهي الأداء والتصرف العبيثي غير المسؤول من بعض أفراد المجتمع الكوفي، الذين كوّنوا جيش ابن سعد تجاه الحسين وأصحابه عليه السلام. والاندفاع اللامسؤول لبيان الولاء الشديد للسلطة الأموية والانحياز المطلق لها، رغم عدم وجود أموي واحد في ذلك الجيش ينقل صورة ذلك الاندفاع وشكل ذلك الولاء لرؤوس السلطة، ورغم أن جهودهم قد تضيع عبثا دون أن يتوصلوا إلى غاياتهم ويحققوا أمنياتهم.

فراغ نفسي وخواء عقائدي.. وجهل بالاسلام

وربما كان الدافع إلى ذلك، ما تميز به أولئك المندفعون العابثون من فراغ نفسي وخواء عقائدي وجهل بالاسلام، جعلهم يعتقدون أن مصلحتهم تكمن خلف وقوفهم إلى جانب الدولة الأموية القوية الغنية المتسلطة فعلا، وربما كان ذلك لدى بعضهم بفعل شعورهم بضرورة تغيير صورة الكوفة التي كانت متحيزة تماما إلى صف أمير المؤمنين وآله عليه السلام منذ البداية، وجعلها تبدو الآن وقد ثابت إلى رشداء وعادت إلى من ينبغي أن تكون في أحضانهم وإلى جانبهم وهم بلا شك - هنا - ممسكو السلطة (الأمويون)؛ وان ما حصل من الكوفة وأهلها في السابق عندما مالت إلى صف أمير المؤمنين عليه السلام، لم

يكن سوى خطأ عابر سيحاولون هم اصلاحه الآن واعادة المياه إلى مجاريها، لتخضع الكوفة بشكل نهائي للزعامة الأموية، وتعلن عن ولائها لها لاستدراار عطفها عليها.

وربما كان الدافع، ما أراده البعض من امتيازات خاصة، مثل مبلغ من المال أو وظيفة تجود بها الدولة أو ممثلها في الكوفة عليهم.

وربما كان الدافع هو الشعور المؤقت بالقوة وهم يجدون أنفسهم برفقة عشرات الآلاف من المقاتلين المدججين بالسلاح بمواجهة النفر القليل من انصار الحسين وأصحابه عليه السلام.

على أن الشيء المؤكد هو أن الدافع إلى ذلك لم يكن دافعا عقائديا، نابعا عن خلاف عميق في الرأي والعقيدة المتبناة عن دراية وفهم أوصل إلى أن يشهروا سيوفهم على الحسين عليه السلام... لتصل بهم الرغبة نتيجة ذلك إلى المحافظة على الدولة الأموية (التي تتبنى الاسلام في الظاهر) والدفاع عنها بوجه الخطر المحقق (عليها)، المتمثل بثورة الحسين عليه السلام التي قد تجردهم من مكتسباتهم التي حققوها في ظل هذه الدولة (المسلمة)، هذا اذا كانوا قد حصلوا على تلك المكتسبات فعلا، وكانت تلك الدولة دولة اسلامية.

لا خلاف عقائدي

ولعل دافع الخلاف العقائدي سيكون موجودا هنا، لو كان الجيش الذي تصدى لجريمة قتل الحسين وأصحابه عليه السلام جيشا شاميا بحتا، أو أن قاداته شاميون، تربوا وترعرعوا في ظل معاوية وأحضانه وتبنوا توجيهاته وأطروحاته وسياساته، غير أن الجيش هنا جيش عراقي كوفي، وقاداته عراقيون، وقد سبق لأفراد عديدين منه، ومنهم قواد في هذا الجيش مثل شيث بن ربعي، أن قاتلوا معاوية تحت لواء أمير المؤمنين عليه السلام، وكانوا هم أنفسهم قد أرسلوا يستدعون الحسين عليه السلام لانقاذهم من سلطة يزيد الأموية.

ان الدوافع المذكورة وغيرها قد تكون موضوعا لدراسات حول المجتمع العراقي في تلك الفترة، وكيف وصل الحال بأفراده ليكونوا على ذلك المستوى من الانحدار الذي انقلبوا فيه من نصرة أمير المؤمنين عليه السلام ودعم خطه العقائدي بوجه الانحرافات ومنها الانحراف الأموي، إلى الوقوع بأحضان هذه الدولة بشكل كلي، ثم التخلي عنها بعد ذلك، والرجوع إلى أحضانها عدة مرات ثم التخلي عنها ونبذها، وعلان العداوة عليها نهائيا بعد انتهاء حكمها ومحاولة نسيانها إلى الأبد.

خطط معاوية (عسكري الشر)

لقد نجح معاوية إلى حد كبير في تشتيت الأمة الاسلامية وجعلها أحزابا وفرقا، ليضمن السيادة الكلية عليها في ظل نزاعاتها وتشرذمها وخلافاتها العقائدية الموهومة والمفتعلة في أغلب الأحيان...

وقد أتاح له وجوده - كراس للدولة طيلة عشرين عاما، ثم مجيء من تبنا خطه في السياسة والتصور والحكم - ان يوحى للأمة وخصوصا أهل الشام ان علياً هو الذي كان قد خرج عليها وسبب فرقتها وكون له شيعة خاصين به، لا يدينون بالولاء الا لشخصه المجردة وحسب، ولا حتى لشخص الرسول صلوات الله عليه وآله نفسه.

ان الدعاية الأموية التي تمادت إلى حد سب أمير المؤمنين عليه السلام على منابرها قرابة الف شهر ونفت عصمة الرسول صلوات الله عليه وآله، عملت بشكل دؤوب ومركّز على تشويه قضية الاسلام من أساسها، والتأكيد على الجانب الشخصي البحت واللمسة الخاصة لكل خليفة وصلاحيته في اصدار التشريعات من مبدأ (الاجتهاد) غير المقيّد، وامكانية التماهي في الانحراف والابتعاد عن الاسلام، واللجوء إلى طرق (جديدة) مستحدثة في الحكم والحياة والتشريع، بعيدة عنه، بل ولا تمت اليه بصلة.

كما رأينا من إحياءات معاوية المتكررة، بأن من كانوا قبله أفضل منه، وأنه أفضل ممن سيأتي من بعده... وكأن الذي كان قبله لم يكن من المفروض أن يكون مقيدا بتشريعات اسلامية عامة تحفظ للأمة كيائها وتحدد تصرفات أفرادها على مستوى القيادة أو الأفراد، وكأن من سيأتي بعد أولئك الأوائل لن يكونوا ملزمين بالتقييد بما كان ينبغي أن يتقيد به أولئك ويلتزموا، للحفاظ على الأداء الصحيح المتكامل للدولة الاسلامية، ان أريد لها أن تظل اسلامية حقاً.

ولا شك أن شعورا بالتراجع والاحباط والذل قد راود العراقيين بعد استشهاد أمير المؤمنين (عليه السلام) وصلح الحسن (عليه السلام)، ولا شك أن مجموعات كبيرة منهم لم ترد أن تستسلم لهذا الشعور بشكل نهائي، فقامت بمراسلة الامام الحسين (عليه السلام) في عهد معاوية نفسه -كما ذكرنا- ثم عادوا فراسلوه ثانية بعد هلاك معاوية مباشرة، ودعوه إلى قيادتهم للوقوف بوجه الدولة الأموية الجائرة، ثم تخلوا عنه بفعل انحياز أشrafهم ووجهائهم إلى صف الدولة الأموية وتمكنهم من رد الجماهير الغاضبة إلى حظيرة هذه الدولة، وبفعل تهديدات ابن زياد وجواسيسه وشرطه وعرفائه ودراهمه، وبفعل بقاء رواسب الضعف والذل وعدم الشعور بالثقة في نفوس أهل الكوفة، مما مكنه من ترجيح الكفة إلى جانبه.

فابن زياد لم يقدم على مجتمع ثابت واثق من نفسه مصمم على عزمه، وانما ورد على مجتمع متردد متذبذب خائف متوزع، تعبت فيه التيارات والقوى المحلية المتصارعة، ويشعر بقوة السيف الأموي المشرع فوق رأسه، والذي قد يطيح به دون رحمة أو شفقة في أية لحظة.

مهمة الامام الحسين: اكمال مهمة أمير المؤمنين (عليه السلام)

كانت مهمة الامام الحسين (عليه السلام) هي اعادة هذا المجتمع إلى خط أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام)

وأن يجعله متأكدا من صحة هذا الخط وسلامته من كل بادرة انحراف أو خطأ... والايان بأنه نفس خط رسول الله ﷺ. ثم يقوده إلى عملية التغير الكبرى في بقية أنحاء العالم الاسلامي.

وكانت تلك مهمة دقيقة تتحكم بها عوامل عديدة ذكرناها فيما مضى، ولو أتيح لعدة قواد أن يقفوا مع الحسين (ع) أو مع مسلم منذ البداية مثل الحرب بن يزيد مثلاً ولم ينجح أشرف الكوفة في رد الناس تلك الليلة التي تخلى فيها الناس عنه، لكان ميزان المعركة قد انقلب نهائياً ولنجح الحسين (ع) في مهمته الميدانية على المدى القصير ولهزم يزيد، وما عدنا نسمع من يأخذ عليه وقوفه ضد الدولة القوية ذات الامكانات الكبيرة، فرغم ما كان يلوح من مظاهر قوة هذه الدولة، فإنها كانت تشعر بضعفها وتأرجحها وعدم قيامها على أسس قوية مدعمة بالشرعية، وتدرك أنها ستهاوى أمام أية قوة يقودها أعداؤها، ومن آل البيت (ع) على الخصوص، وكادت هذه الدولة أن تتهاوى بالفعل بمجرد وفاة يزيد، وكاد قادتها يستسلمون لابن الزبير، لولا ما أشار به ابن زياد، بضرورة تنصيب مروان خليفة بعد يزيد، كما روت لنا كتب التاريخ.

في الشر، تساوى الأشراف وسائر الناس

لقد رأينا من قبل كيف انتهت مطاردة مسلم العاصفة لابن زياد، واختفاء هذا الأخير في القصر مع مجموعة قليلة من أهله وخدمه وحاشيته، ثم كيف بدأ الأشراف عملهم، بتخذيل الناس وتخويفهم شر وسطوة الدولة الأموية وأهل الشام، وكيف بقي مسلم وحيداً بعد أن كان محاطاً بعدة آلاف من أعوانه ومناصره.

لقد عمل الأشراف ما عملوه بطلب من ابن زياد وإيحاء منه، وخرجوا بعد ذلك إلى قتال الحسين (ع) بطلب منه أيضاً، وهو أمر قد يستطيعون تبريره بأنهم انما قاموا

به استجابة لأوامر عليا لم يكن لهم مناص من الاستجابة لها؛ لأنهم كانوا يخشون على حياتهم ومستقبلهم ومصالحهم، غير أن الذي يدعونا للتأمل حقا هي تلك الظاهرة التي رأينا من خلالها بعض أولئك (الأشراف) وغيرهم من سائر الناس المغموين يندفعون لأعمال (تطوعية) و(مبادرات شخصية) لم يكلفوا بها، أرادوا أن يظهروا بها ولاءهم الاستثنائي المتميز لابن زياد أو سيده في الشام وحرصهم على بقاء وديمومة الحكم الأموي.

وكانت حفنة الهمج الرعاع التي لم تتقيد بمبدأ وعقيدة تقف مقابل الطليعة العقائدية المتقدمة مع الحسين (عليه السلام) والتي كانت تريد انتشار الأمة كلها من مصيبتها ومن الوحل الذي مرغتها به دولة الظلم الأموية.

وكان معظم أولئك الهمج يحسبون أنهم يشاركون في حفل عابث لم يروا ضيراً أن يرثفوا فيه من دماء أعدائهم المزعومين ويشاركوا برقصة الموت بأداء صاحب لا يقيم وزناً لأية قيمة عليا، ولا للحياة البشرية على الإطلاق.

كان بعضهم يقتنص أرواح أناس أبرياء، مثل أطفال صغار رُوِيَ لنا قصص مروعة عن مقتلهم، بمثل السهولة التي يقدم فيها وحش على اقتناص فريسة في غابة أو صحراء وكانوا يستمتعون بذلك بنفس القدر الذي يستمتع به ذلك الوحش المفترس.

لقد اختفت عند بعضهم الموازين العادية للقيم البشرية المجردة والمطلوبة كحد أدنى لكي يدرك الإنسان أنه إنسان فعلا يستطيع العيش مع الآخرين، حتى مع أقاربه وعياله ويستطيع أن يشعر بالقليل من مشاعر العطف والغيرة والشجاعة.

ان رصد تلك الحالات التي اندفع فيها أشخاص عديدون لمثل تلك الممارسات تحت مختلف التأثيرات ولمختلف الأسباب، يحتاج وحده إلى دراسة خاصة يتصدى

لها اختصاصيون في العلوم الاجتماعية والنفسية والتربوية والتاريخية لمعرفة أسبابها ودوافعها الحقيقية وأسباب تكرارها في ظل دول الظلم.

غير أننا سنستعرض في هذا الحيز المحدود الذي خصصناه لهذه الظاهرة الاجتماعية الشاذة، نماذج من أولئك الذين ساهموا بحملة الدم الهمجية بنصيب أوفر وحظ أعظم، وكان لهم (حضور واضح متميز) و(لمسات خاصة) و(مبادرات شخصية) جعلتهم يذكرون دون غيرهم وتسلط عليهم الأضواء كظواهر غريبة شاذة وعلامات على تدني ذلك المجتمع الذي أريد أن يبلغ أدنى غايات الانحطاط.

ونكتفي باستعراض بعض اللقطات أو المشاهد التي قد تفيد في مثل هذه الدراسات الواسعة التي ألمحنا إليها.

لقطات ومشاهد ملفتة للنظر نماذج غريبة

مسلم بن عمرو الباهلي وقلة الماء

ففي احدهما، نرى مسلم بن عقيل، وقد أُتيَ به إلى قصر ابن زياد جريحا منهكا، بعد قتال عنيف خاضه ضد أعوان ابن زياد، وقد كاد قبل ليلة لا غير أن يغلب على الكوفة وقد اختبأ منه ابن زياد وحاشيته وأشرافه في القصر، وكادوا يفرون أو يستسلمون لو لا موقف (الأشراف) المخذل.... وها هم بعض هؤلاء الاشراف جلوس على باب القصر ينتظرون الإذن بالدخول.. وها هو ذا الشريف مسلم بن عمرو الباهلي جالسا على الباب معهم، ينتظر الاذن بالدخول على ابن زياد ليحظى منه بنظرة أو كلمة أو ابتسامة. لم يكن خلاف مسلم بن عقيل معه شخصيا، ولم تكن بينهما خصومة أو منافسة أو حتى معرفة شخصية، وكان مسلم بسبيله إلى انجاز مهمة جليلة مع امامه (عليه السلام) وأصحابه، ينقذون بها الأمة كلها، وما كان أعداؤهم الا من تحيزوا للدولة الأموية الجائرة التي تسلطت على رقاب المسلمين ومقدراتهم.

غير أن مسلم بن عمرو الباهلي، جعل من قضية مسلم قضيته الشخصية وجعل نفسه عدواً شخصياً له، واعتبر قيامه بوجه الدولة الظالمة اهانة شخصية له واعتبره أمرا يستهدفه بالأذى شخصياً، وهو ذلك المغمور الصغير الذي لا يكاد أحد يحس به والذي لا يستطيع حتى بلوغ مجلس ابن زياد الا بعد أن يجلس على العتبة ويسمح له الحراس بالدخول ان شاء سيده ذلك، فهو لم يكن مرموقا إلى الحد الذي يدخل فيه على ابن زياد دون اذن.

وها هو ذا بكل ذلك الغيظ الذي تحفل به نفسه، وقد رأى مسلم بن عقيل بتلك الحال وقد رأى «قلة باردة موضوعة على الباب، فقال: اسقوني من هذا الماء، فقال له مسلم بن عمرو أتراها ما أبردها، لا والله لا تذوق منها قطرة أبدا حتى تذوق الحميم في نار جهنم»^(١).

انها باردة... ومع ذلك فلم يكن هو من وضعها على باب القصر أو جلبها بنفسه إلى هناك، غير أنه انبرى يقسم، وقد رأى حاجة مسلم للماء، ولعله كان يرتجف من الغيظ والسعال الحائق المحموم عندما فعل ذلك، وقذف بالكلمات التي كادت تبدو لمن كان يسمعها في تلك اللحظة ان قائلها هو صاحب قضية عادلة بوجه إنسان خارج عن الاسلام وعن الحق.

وربما فوجئ مسلم بن عقيل بهذا الأحمق الذي يتصدى له بهذه الصورة، فهل عساه أن استهدفه بأذى شخصي دون أن يشعر؟ ثم، من يكون هذا المندفع الحائق؟ ويسأله مسلم: «ويحك، من أنت»..^(٢).

وبكل ذلك الحق المسعور الذي لا بد أن يكون قد خنق صوته وبهر أنفاسه، أجابه الباهلي: «أنا من عرف الحق اذ أنكرته، ونصح لامامه اذ غششته، وسمع وأطاع اذ عصيته وخالفته، أنا مسلم بن عمرو الباهلي»^(٣).

لقد عرفه بنفسه، وعرفه بمؤهلاته التي لم تزد عن كونها اعلان استعداداته أنه خادم مطيع ناصح لامامه ومعبوده ومثله الأعلى يزيد.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٠، والخوارزمي: ج ١ / ١١ ف ١١ والمجلسي: ج ٤٤ ص ٣٥٥ والارشاد:

ص ١٩٧، وروضة الواعظين: ص ١٧٦ والمسعودي: ج ٣ ص ٦٨ والنويري: ج ٢٠ ص ٤٢٠.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٠.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٠.

هل هذا كل شيء؟ وهل تغلف قلبك بالقسوة والفظاظة وازدحمت نفسك بعوامل الانتقام، وجلست تشتمني وتمنع عني الماء وأنا بهذه الحال؛ لأنك واليت يزيد واستسلمت له وأبيت أنا أن أفعل ذلك، وقد أردت انقاذك وانقاذ أمثالك من هذا الضلال الكبير الذي تقادون اليه رغم أنوفكم؟

قال له مسلم بن عقيل: «لأَمِّك الشكل، ما أجفاك، وما أفضَّك، وأقسى قلبك وأغلظك، أنت يابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم مني»^(١).

كثير بن عبدالله الشعبي حماقة ووقاحة

وفي مشهد آخر نجد كثير بن عبدالله الشعبي، الذي ربما لم يكن على درجة كبيرة من الواجهة ولم يكن شريفا مقدما... غير أنه قد يكون كذلك وقد قربه ابن سعد، ولعل ابن زياد نفسه سيقربه، فهذا الرجل يظهر من فنون الولاء الشيء الكثير.

كان كثير في جملة جيش ابن سعد، وقد بعثه هذا إلى الحسين عليه السلام ليسأله عن سبب مقدمه، وقد كان ابن سعد قد... عرض ذلك على الرؤساء الذين كاتبوه فكلهم أبى وكرهه...^(٢) وما عساهم يقولون له، وهم الذين كاتبوه ودعوه للقدوم عليهم...؟ لقد بقيت قطرة حياء واحدة وأخيرة فوق تلك الجباه الكالحة، جفت بعد ذلك واختفت.. غير أن وجهاً واحداً قد اختفت منه تلك القطرة قبل ذلك وهو «كثير بن عبدالله الشعبي وكان فارساً شجاعاً ليس يرد وجهه شيء فقال: أنا أذهب إليه والله لئن شئت لأفتكن به، فقال له عمر بن سعد: ما أريد أن تفتك به ولكن أئته فسله ما الذي جاء به»^(٣).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٠.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٠، والنويري: ج ٢ ص ٤٢٧ والارشاد: ص ٢١١ وأنساب الاشراف: ج ٣ ص ١٧٧، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٣ ومناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ٩٧.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣١٠-٣١١.

أراد كثير أن يسجل موقفا شجاعا أمام سيده الذليل وأمام القادة الخانعين المستسلمين لابن زياد فلم يكتف بأن عرض ايصال الرسالة وحسب، بل عرض أن يقوم بقتل الحسين عليه السلام اذا ما رأى ابن سعد ذلك، ولعله تلقت حينها ونظر في وجوه الحاضرين محاولا مشاهدة نظرة اعجاب تطل من تلك الوجوه مبهورة بهذه الشجاعة الخارقة والشهامة والبطولة النادرة المتميزة!!.

وربما لم يشاهد سوى نظرات باهتة ووجوه صماء، ما عادت تصلح للتعبير عن أدنى خلجات النفس، اللهم الا ما يساورها من قلق أو خوف.

وانطلق إلى الحسين عليه السلام بكل ما حمله من وقاحة واستهتار، وقد منعه أبو ثمامة الصائدي أحد أنصار الحسين عليه السلام من الوصول اليه، وأمره أن يضع سيفه قبل الاقتراب من الامام؛ لأن أبا ثمامة كان يعرف انه «شر أهل الأرض وأجرؤه على دم وأفتكه..»^(١).

وقد أبى كثير أن يتخلى عن سيفه، وقذف بكلمات وقحة أمام أبي ثمامة وقال: «لا والله ولا كرامة إنما أنا رسول فإن سمعتم مني أبلغتكم ما أرسلت به إليكم وإن أبيتم انصرف عنكم»^(٢)، كما رفض أن يأخذ أبو ثمامة بقائم سيفه حتى يتكلم بحاجته، فرفض، وطلب منه بعد ذلك أن يخبره بما جاء به ليقوم هو بابلاغه إلى الحسين عليه السلام قائلا: «أخبرني ما جئت به، وأنا أبلغه عنك، ولا أدعك تدنو منه فانك فاجر، فاستبأ، ثم انصرف إلى عمر بن سعد فأخبره الخبر»^(٣) فارسل ابن سعد شخصا غيره.

ولعل كثيراً كان يحسب نفسه قد انتصر في جولة من جولاته البطولية وقام يفتخر بوقاحته أمام الآخرين، وربما قام بتحريضهم على قتل الامام وأصحابه عليهم السلام وكأنه كان

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١١.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١١.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣١١.

يشارك يزيد عرشه ويخاف الآخرين عليه.

لماذا قام كثير بذلك، وبأي دافع فعل ما فعله؟ ولماذا قام كثيرون من أمثاله بنفس ما قام به واندفعوا إلى الشر والجريمة دون أن يكلفهم أحد بذلك أو يطالبهم به؟

عبدالله بن أبي حصين، المهرج (ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء)

وفي مشهد آخر نرى أن ابن زياد قد أمر ابن سعد أن يحول بين الحسين وأصحابه عليهم السلام وبين الماء فلا يذوقوا منه قطرة، وقد استجاب ابن سعد لذلك فوراً، وأرسل عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا الشريعة وحالوا بين الحسين وأصحابه عليهم السلام وبين الماء أو يسقوا قطرة، وذلك قبل قتل الحسين عليه السلام بثلاث.

وإلى هنا يبدو الخبر عادياً، يماثل العديد من الأخبار العديدة التي روت لنا فصول المعركة ووقائعها، فعمرو بن سعد وعمرو بن الحجاج، بما عرف عنهما من خوف واستجابة ذليلة خانعة لابن زياد، بادرا على الفور بتنفيذ الأمر الصادر إليهما.

غير أن الذي يلفت النظر حقاً هو قيام (عبدالله بن أبي حصين الأزدي) دون أن يكلفه أحد بذلك، وبمبادرة شخصية، (لفتة خاصة) منه بالصياح امام الجميع، موجهها الخطاب للامام عليه السلام قائلاً: «يا حسين، ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء، والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشاً..»^(١).

ما الذي دعا ابن أبي حصين لمنازلة الحسين عليه السلام وتوجيه هذا الخطاب إليه، ان لم يكن لعرض صورة جديدة محسنة من صور الولاء المتقلب المتلون لابن زياد لكي يُسرَّ ويرضى عنه؟ ولمَ لم يقم ابن أبي حصين بمهمته بمنع الحسين وأصحابه عليهم السلام عن الماء

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١١، ومناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ٩٧، والارشاد للمفيد: ص ٢١١ وأنساب الاشراف: ج ٣ ص ١٨٠، ونهاية الأرب: ج ٢٠ ص ٤٢٨.

صامتا كما فعل الباقون؟ أترأه وحده الذي أوتي بدائع الكلم وفصل الخطاب فأراد أن يجود ببيانه في تلك اللحظات؟ وكم بلغ الذل من مدى هذه النفس التي لا تبصر طريقها ولا تعرف مصلحتها؟ أليس فعله هذا جديرا بأن يعذبه الله عليه في الدنيا والآخرة؟ فمن هو حتى يبلغ هذا المبلغ من الحماس في توجيه الكلم البذيء للإمام (ع)؟

ويدعو عليه الحسين (ع)، وهو يدعو هنا بشكل خاص على أولئك الأجلاف الذين وقفوا بوجهه وقصدوه بالأذى دون أن يكلفهم أحد بذلك.. «اللهم أقتله عطشا ولا تغفر له أبدا»^(١).

ويروي لنا حميد بن مسلم عن حاله بعد ذلك قائلا: «والله لعدته بعد ذلك في مرضه، فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيته يشرب حتى بغر ثم يقيء ثم يعود فيشرب حتى يبغر فما يروى فما زال ذلك دأبه حتى لفظ عصبه يعني نفسه»^(٢).

ابن حوزة النكرة، هدد بالنار فاحترق بها

ولابن حوزة مشهد آخر جدير بالتأمل والنظر، فهو رجل من تميم، من عرض الناس ومن سائرهم، أثاره منظر النار المضطربة في كومة من الحطب خلف معسكر الامام (ع) جاء حتى وقف أمامه وسأل عنه عدة مرات.. وعندما دُلَّ عليه، خاطبه بقوله: «أبشر بالنار، قال: كلا، كذبت، بل أقدم على رب غفور وشفيع مطاع، فمن أنت؟ قال: ابن حوزة، فرفع الحسين يديه، حتى رأينا بياض ابطينه من فوق الثياب، ثم قال: اللهم حزه إلى النار»^(٣).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١١.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١١-٣١٢.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٩ وأنساب البلاذري: ج ٣ ص ١٩١، ومناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ٥٦ وذخائر العقبى للطبري: ص ١٤٤، وكفاية الطالب

لقد تحيز ابن حوزة بكل قوة الشر الكامنة في نفسه إلى ابن زياد، وحسب أنه انما يسجل لذلك موقفا ظريفا متميزا أمام أفراد الجيش كله، ولعله بذلك سيرفع معنوياتهم ويخرضهم على الحسين (ع) أو يجعلهم -على الأقل- يتفكهون ويتندرون مرددين كلماته التي وجهها للحسين (ع) والتي أوعده فيها بالنار عندما رأى نارا مشتعلة في كومة من الحطب خلف معسكره، ولعله حسب أن ما كان يقوم به سيصل خبره إلى ابن زياد وأنه سيكبر ويزداد رفعة بنظره، ولعله هنا نفسه مستبقا على المكانة الوجيهة التي أعدت له منذ الآن، غير أن الأمر لم يطل به كثيرا، فما كاد الامام (ع) ينتهي من دعائه حتى قام ابن حوزة غضبا «فذهب ليقحم اليه الفرس، وبينه وبينه نهر، فعلقت قدمه بالركاب، وجالت به الفرس فسقط عنها، فانقطعت قدمه وساقه وفخذه، وبقي جانبه الآخر متعلقا بالركاب..»^(١).

وقد نال جزاءه العاجل أما الجزاء الآخر فعلمه عند الله.

لقد كان احرى بمن شاهدوا ابن حوزة أن يتراجعوا ولا يمشوا في حربهم ضد الامام (ع) كما فعل أحدهم، مسروق بن وائل الذي «رجع وترك الخيل من ورائه، فقال: لقد رأيت من أهل هذا البيت شيئا لا أقاتلهم أبدا»^(٢).

لكن تلك النفوس الذليلة قد ضاعت للأبد واستعبدت وما عادت تنفع معها حتى معجزات من السماء يرونها عيانا ويلمسونها لمسا.

للكنجي: ص ٢٨٧...

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢.

(٢) المصدر السابق.

مرة بن منقذ العبدى، القاتل المتباهى

وتتكرر مشاهد عديدة لقتلة أرادوا أن يتباهوا بجرائمهم أمام الآخرين وأمام أسيادهم على وجه الخصوص، وربما تشابهت حتى أقوالهم التي تفوهوا بها قبيل الاقدام على جرائمهم.

فهذا مرة بن منقذ العبدى - وهو يرى على الأكبر مجول في ميدان المعركة - يبدي استعداداً للتطوع لقتله أو اغتياله ويصرح متباهياً: «عليّ آثام العرب ان مر بي يفعل مثل ما كان يفعل ان لم أأكله أباه»^(١).

لقد أزعجه أن يشد علي بن الحسين على الناس وهو يقول:

«أناعلي بن الحسين بن علي نحن ورب البيت أولى بالنبي

تالله لا يحكم فينا ابن الدعي»^(٢).

وربما رأى أن في ذلك اهانة شخصية له.. ألم يرسله ابن زياد ليقاوم الحسين وأصحابه ويشارك في قتلهم؟ فكيف يتيح لهذا الفتى أن يشد عليهم وأن يقتل بعضاً منهم، دون أن يتصدى له أحد؟

وكأن أثمه كان قليلاً ليضيف إليه آثام العرب.. وهو يتبجح بقسمه ذاك.. مع أن أثمه وحده لو قسم على العرب كلهم لكانوا جميعهم آثمين.

إن مرةً وأشباهه في غمرة النشوة التي يشعرون بها وهم يقومون بهذه المجزرة المروعة، وأمام لون الدم القاني، وأمام هروبهم من واقعهم وفي غمرة استسلامهم

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٠ - ٣٣١، ومثير الاحزان: ص ٣٥، والأخبار الطوال: ص ٢٥٤،

واللهوف: ص ٤٨، وابن الأثير: ج ٣، ومقاتل الطالبين: ص ٨٤، والخوازمي: ج ٢ ص ٣٠،

ومناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٩.

(٢) المصدر نفسه.

وخضوعهم، أرادوا اقناع أنفسهم بأنهم كانوا يقومون بفعلهم؛ لأنهم يشعرون أنهم أصحاب حق طالما كانوا إلى جانب السلطان القوي المتسلح ذي الأعوان والمال.

ولعل ما تظاهروا به من قوة وما تفوهوا به من الفاظ نابية وكلمات فاحشة هي محاولات لاقناع أنفسهم بأنهم يتبنون قضية ما، وتشجيع أنفسهم للمضي في جريمتهم إلى النهاية وعدم التراجع لئلا يصيبهم السيف الذي يصوب لهؤلاء الماثلين أمامهم.

وقد كان بإمكانهم في البداية وفي تلك اللحظات أيضا أن يكونوا معهم لينقلب السحر على الساحر ويظهر الحق لذي عينين، غير أن تلك النفوس كافة قد ماتت وتحدرت وأصيبت بالشلل فلم تعد ترجى منها فائدة.

قتل مرة بن منقذ علي بن الحسين، مع أن أحدا لم يأمره بذلك.

ولعله فعل ذلك بنفس الدوافع التي قام بها الآخرون بأعمالهم المخزية.

عمر بن صبيح الصدائي وزملاؤه، وليمة الدم

وفعل فعله عمرو بن صبيح الصدائي عندما «رمى عبدالله بن مسلم بن عقيل بسهم فوضع كفه على جبهته، فأخذ لا يستطيع أن يحرك فيه، ثم انحنى له بسهم آخر ففلق قلبه، فاعتورهم الناس من كل جانب، فحمل عبدالله بن قطبة الطائي على عون بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب فقتله، وحمل عامر بن نهشل التيمي على محمد بن عبدالله ابن جعفر بن أبي طالب فقتله.

وشد عثمان بن خالد بن أسير الجهني، وبشر بن سوط الهمداني على عبدالرحمن بن عقيل بن أبي طالب فقتلاه.

ورمى عبد الله بن عزره الخثعمي جعفر بن عقيل بن أبي طالب فقتله»^(١).

عمرو بن سعد بن نفيل، اصرار على الجريمة.. وهلاك عاجل في ساحة المعركة

أما عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي، فقد تطوع لقتل القاسم بن الحسن بن أمير المؤمنين (عليه السلام)، ولنستمع إلى حميد بن مسلم الذي روى لنا قصة ذلك، قال: «خرج إلينا غلام كأن وجهه شقة قمر، في يده السيف، عليه قميص وازار، ونعلان قد انقطع شسع أحدهما، ما أنسى أنها اليسرى، فقال لي عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي: والله لأشدنّ عليه.

فقلت له: سبحان الله، وما تريد إلى ذلك؟ كيفيك قتل هؤلاء الذين قد احتولوهم.. فقال: والله لأشدنّ عليه.

فشد عليه، فما ولى حتى ضرب رأسه بالسيف، فوقع الغلام لوجهه، فقال: يا عماه. فجلى الحسين كما يحلي الصقر، ثم شد شدة ليث غضب، ف ضرب عمرًا بالسيف، فاتقاه بالساعد، فأطنها من لدن المرفق، فصاح، ثم تنحى عنه..

وحملت خيل لأهل الكوفة ليستنقذوا عمرا من حسين، فاستقبلت عمرا بصدورها فحركت حوافرها وجالت الخيل بفرسائها عليه، فوطئته حتى مات»^(٢).

لقي عمرو مصيرا عاجلا، ولا يدري أحد كيف يكون مصيره بعد ذلك؛ ولم يكن يحسب إلا أنه كان يقوم بعمل خارق من أعمال الفروسية يبهر به الآخرين، ويشد انتباههم إليه وأنه سيشكر عليه من قبل سادته لينال بذلك ثناءهم وقربهم.

ولم يحسب أنه سيلقى ذلك الجزاء العاجل ويموت تلك الميتة السريعة، ليكون

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣١، وراجع المصادر الأخرى المذكورة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣١، وراجع المصادر الأخرى المذكورة.

خصمه يوم القيامة، جد هذا الفتى، محمد ﷺ.

لقد أراد بابتعاده عن الله التقرب من عبيد الله، فلم يتح الله له ذلك وأماته موتاً عاجلاً مات وصوت الحسين ﷺ يتردد فوق رأس ابن أخيه.

«بعدا لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك، عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لا ينفعك. صوت والله كثر واتره، وقل ناصره»^(١).

حرملة بن كاهل الأسدي، بطولة قتل الأطفال الرضع

وربما حسب حرملة بن كاهل الأسدي - وهو الذي رمى عبد الله بن الحسين الطفل الرضيع بسهم فذبحه وهو في حجر أبيه ﷺ - أن ينال ما حسب أن أصحابه سينالونه من حظوة ومكانة لدى أسيادهم.

واذ أن حمام الدم كان يثير في نفوس القتلة أقصى غايات الاستمتاع والبهجة، فإن هانئ بن ثبيت الحضرمي كان في غاية النشوة من ذلك، وكان سعيداً أن تتاح له فرصة المشاركة فيه ولو على حساب طفل مذعور لا يزال يلبس الأقراط في أذنيه لأنه صغير جداً.

ويروي لنا هانئ نفسه القصة لنا، وإن أصبح يكتفي عن نفسه بعد أن عتب عليه، ولا يعترف صراحة أنه مرتكب الجريمة وإن أكد لنا غيره أنه هو مرتكبها، يقول هانئ:

«كنت ممن شهد قتل الحسين، فو الله إنى لواقف عاشر عشرة، ليس منا رجل إلا على فرس، وقد جالت الخيل وتصعصعت، إذ خرج غلام من آل الحسين، وهو ممسك بعود من تلك الأبنية، عليه أزار وقميص، وهو مذعور، يتلفت يمينا وشمالاً، فكأنني أنظر إلى درتين في أذنيه تذبذبان كلما التفت، إذ أقبل رجل يركض، حتى إذا دنا منه، مال عن

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣١، وراجع المصادر الأخرى المذكورة.

فرسه، ثم اقتصد الغلام فقطعه بالسيف»^(١).

وكان بحر بن كعب التيمي أشد سرورا من هانئ بن ثبيت الحضرمي بالمجزرة المروعة التي كانوا يقومون بها، فقد قتل بدوره طفلا صغيرا، عندما أقبل هذا الطفل يشدد إلى عمه الحسين عليه السلام عندما أحاطوا به بعد إصابته بالعديد من الجروح القاتلة.

ذليل يرضي ذليلا

كان يحسب أنه يرضي بذلك شمرا وتحسن منزلته عنده، مع أن شمرا نفسه كان يطمح (بمبادراته الخاصة) إلى إرضاء أسياده وإلى أن يكون ذا حظوة لديهم. كان شمرا يقود الحملة الأخيرة ضد الحسين عليه السلام ويحرض أعوانه على انزال المزيد من الضربات الغادرة به، «فأخذ الحسين يشد عليهم فينكشفون عنه، ثم انهم أحاطوا به احاطة.

وأقبل إلى الحسين غلام من أهله، فأخذته أخته زينب ابنة علي لتحبسه فقال لها الحسين: أحبسيه، فأبى الغلام، وجاء يشدد إلى الحسين، فقام إلى جنبه، وقد أهوى بحر ابن كعب بن عبيد الله إلى الحسين بالسيف، فقال الغلام: يا بن الحبيثة، أقتل عمي! فضربه بالسيف، فاتقاه الغلام بيده فأطنها الا الجلدة، فاذا يده معلقة، فنادى الغلام: يا أماء، فأخذه الحسين فضمه إلى صدره، وقال: يا بن أخي، اصبر على ما نزل بك، واحسب في ذلك الخير، فان الله يلحقك بآبائك الصالحين؛ برسول الله صلى الله عليه وآله وعلي وحمزة وجعفر والحسن بن علي، صلى الله عليهم أجمعين»^(٢).

وبحر بن كعب هذا هو نفسه الذي سلب سراويل الحسين عليه السلام وقد كان عليه السلام قد فرزها ونكثها لكيلا يسلبها، وقد تركه مجردا.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٢، وراجع المصادر السابقة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٣، وراجع المصادر السابقة الأخرى.

ولم تتحقق لبحر امنياته، ولم ينل الجاه والثروة، وقد أصيب بكارثة رهيبة قبل أن يهلك، فقد حدث محمد بن عبدالرحمن «أن يدي بحر بن كعب كانتا في الشتاء تنضحان بالماء، وفي الصيف تيسان كأنهما عود»^(١).

حصين بن تميم، غادر قاتل

وكان للحصين بن تميم مشاركة أخرى بحمام الدم هذا، ولم يشأ أن يخرج من المعركة) دون (نصيب) أو فعل يتميز به عن أشباهه، فعندما «عطش الحسين، حتى اشتد عليه العطش دنا ليشرب من الماء، فرماه حصين بن تميم بسهم، فوقع في فمه، فجعل يتلقى الدم من فمه، ويرمي به إلى الماء ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم جمع يديه فقال: اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تذر على الأرض منهم أحدا»^(٢).

رجل من بني ابان بن دارم مجهول يريد أن يصير معلوما

ولم يشأ رجل آخر من بني ابان بن دارم أن يخرج (صفر اليمين) دون أن يكون له دور مشهور يذكر له عند أسياده ليكون ذا جاه ومكانة لديهم، وقد حسب أن تلك الفرصة، إذا ما حرض الناس على الحسين وضربه بسهم، ستكون فرصة حياته الفريدة للحصول على الجاه والثروة.

فعندما ركب الحسين عليه السلام، «المسناة يريد الفرات، قال رجل من بني ابان بن دارم: ويلكم حولوا بينه وبين الماء لا تنام اليه شيعته، وضرب فرسه، وأتبعه الناس، حتى حالوا بينه وبين الفرات.

فقال الحسين عليه السلام: اللهم اظمه. ويتنزع الاباني بسهم، فأثبتته في حنك الحسين،

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٣، وراجع المصادر السابقة الأخرى.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٢، وراجع المصادر السابقة الأخرى.

فانتزع الحسين السهم، ثم بسط كفيه فامتلاأت دما، ثم قال الحسين: اللهم اني أشكو اليك ما يفعل بابن بنت نبيك.

فو الله ان مكث الرجل الا يسيرا حتى صب الله عليه الظمأ، فجعل لا يروى^(١).
وقد أحبط عمله في الدنيا، واستجاب الله لشكوى ابن بنت نبيه ﷺ، ولم يتمتع الاباني بما منى به نفسه، فقد روى لنا القاسم بن الأصبغ قال:

«لقد رأيتني فيمن يروح عنه، والماء يبرد له فيه السكر وعساس فيها اللبن، وقلال فيها الماء، وأنه ليقول: ويلكم اسقوني، قتلني الظمأ، فيعطى القلة أو العس من كان مرويا أهل البيت، فيشر به، فاذا نزع من فيه اضطجع الهنيهة، ثم يقول: ويلكم اسقوني، قتلني الظمأ.

فو الله، ما لبث الا يسيرا حتى انقذ بطنه انقداد بطن البعير^(٢).

يزيد بن معقل الشاهد على نفسه بالكذب، مات ببغيه وكذبه

ويبرز مشهد جدير بالملاحظة أيضا، روى أحداثه لنا زهير بن أبي الأخنس، وكان قد شهد مقتل الحسين ﷺ، فقد خرج أحد جنود ابن سعد، واسمه يزيد بن معقل، وتوجه بخطابه إلى برير بن خضير قائلا: «كيف ترى الله صنع بك؟

قال: صنع الله بي خيرا، وصنع الله بك شرا.

قال: كذبت، وقبل اليوم ما كنت كذابا، هل تذكر وأنا أماشيكي في بني لوزان، وأنت تقول: ان عثمان بن عفان كان على نفسه مسرفا، وان معاوية بن أبي سفيان ضال مضل، وان إمام الهدى والحق علي بن أبي طالب؟

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٣، وراجع المصادر السابقة الأخرى.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٣، وراجع المصادر السابقة الأخرى.

فقال له برير: أشهد أن هذا رأيي وقولي.

فقال له يزيد بن معقل: فاني أشهد أنك من الضالين»^(١).

كان يزيد بن معقل يتوقع أن يرى أمامه امرءاً متخاذلاً لا يستطيع الرد عليه، وكان يتوقع أن يُري أصحابه موقفاً طريفاً لهذا الرجل الخائف وأن يجعل الجيش كله يضحك منه، غير أنه فوجئ برجل قوي ثابت يعرف ما يقول جيداً ويحسن الرد على تحركاته، وإن هذا الرجل يذهب إلى حد طلب مبارزته هو.

وهنا وجد نفسه في موقف دقيق، فماذا سيكون أمره وكيف سيبدو أمام أولئك الذين أرادهم أن يضحكوا على برير، لو امتنع عن الاستجابة لطلبه في المباراة.

قال برير بن خضير: «هل لك فلاّباهلك ولندع الله أن يلعن الكاذب وأن يقتل المبطل ثم اخرج فلاّبارزك»^(٢)، وقد استجاب مرغماً لدعوة برير.

«فخرجا، فرعاً أيديهما إلى الله يدعوانه أن يلعن الكاذب، وأن يقتل المحق المبطل، كل واحد منهما لصاحبه، فاختلفا ضربتين، فضرب يزيد بن معقل برير بن خضير ضربة خفيفة لم تضره شيئاً، وضربه برير بن خضير ضربة قادت المغفر وبلغت الدماغ، فخر كأنها هوى من حالق»^(٣) ومات غير مأسوف عليه وماتت أمانيه وأحلامه المريضة.

وكان أخرى بميته التي جاءت أثر مباهلة برير إياه، أن تكون رادعاً للآخرين لكي يمتنعوا عن الاقدام على ما أقدم عليه من تجاوز واعتداء على سيد القراء برير بن خضير، غير أن الغشاوة كانت كثيفة على العين والقلب كليهما، وكانت الجموع المنقادة لارادة

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢.

ابن زياد تتصرف دون وعي أو تدبر وكأنها فقدت ارادتها ووعيتها وعقلها.

رضي بن منقذ العبدى.. وكعب بن جابر الأزدي هل هذا هو الوفاء؟

فاذا كان برير ينضنض سيفه من رأس ابن معقل، حمل عليه رضي بن منقذ العبدى فاعتنقه فاعتركا ساعة ثم أن بريرا قعد على صدره وكاد أن يقتله لو لم يستنجد رضي بالآخرين، الذين تقدم أحدهم كعب بن جابر الأزدي واغتال بريرا بعد أن طعنه بالرمح في ظهره، رغم تحذير أحد أصحابه الذي قال له: ان هذا برير بن خضير القارئ الذي كان يقرئنا القرآن في المسجد.

وقد حاول كعب تبرير جريمته فيما بعد بقوله: «يا رب أنا قد وفينا، فلا تجعلنا يا رَبِّ كمن غدر»^(١).

وقد رد عليه أحد معارفه قائلا: «صدق، ولقد وفى وكرم، وكسبت لنفسك شرا. قال: كلا، اني لم اكسب لنفسي شرا، ولكني كسبت لها خيرا»^(٢).

ولا ندري كيف سيكون حسابه بعد ذلك، وهل يجزؤ على ترديد ما رده هنا، وهل سيقول كما قال بعد جريمته:

و ابيض مخشوب الغراين قاطع	معي يزني لم تخنه كعوبه
بديني واني بابن حرب لقانع	فجردته في عصبة ليس دينهم
ولا قبلهم في الناس مذ أنا يافع	ولم تر عيني مثلهم في زمانهم
الا كل من يحمي الذمار مقارع	أشد قراعا بالسيف لدى الوغى
وقد نازلوا لو أن ذلك نافع	وقد صبروا للطنع والضرب حسرا

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٣.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٣.

فأبلغ عبيد الله إماما لقيته بأني مطيع للخليفة سامع^(١).

إنه يعلم حقيقة الذين يقاثلهم، ولم ير في حياته حماة لدمار أشد قراعا بالسيوف لدى الوغى منهم، كما أنه يعلم أنه ليس مثلهم، وليس دينه دينهم، غير أنه يعبر هنا عن حقيقة موقفه، فهو يتبنى خط الدولة التي يقودها يزيد، وهو قانع به ما دام هو المتسلط على رقاب الناس، وهو يرسل رسالة عبر عبيد الله بن زياد إليه بأنه مطيع سامع منفذ لكل ما تريده الدولة منه، هذه الدولة التي كان يراها قوية صامدة بوجه أعدائها حتى وإن كانوا أمثال هؤلاء الناس الرساليين الذين دافعوا عن الاسلام ببسالة، غير أنه يرى أيضا أن بسالتهم وصبرهم لا جدوى منهما وبذلك كان كعب يحاول تبرير جريمتة، فهو يتضاءل ويتصاغر أمام قوة الدولة وسلطانها وامكاناتها، ويرى أن ذلك من أهم المبررات التي تتيح له الانسياق وراءها مطيعا إياها طاعة عمياء.

وقد حاول هنا أن يتناسى موقعه التطوعي الذي لم يجبره عليه أحد من قادة الدولة أو أشرافها، عندما أقدم على قتل بربر بتلك الطريقة الغادرة، ولم يعقب عليه الا بقوله أنه لما كان أحد الأفراد المطيعين للدولة، فانه قتل عدوها بربراً، وقد أراد بذلك تحميل رضي ابن منقذ العبدى نعمة تخليصه من الموت المحقق على يد بربر، عندما طلب المساعدة ونادى: أين أهل المصاع والدفاع؟

قتلت بربراً ثم حملت نعمة أبا منقذ لما دعا: من يماضع؟^(٢)

ابن منقذ العبدى.. ندم حيث لا يندفع الندم

أما ابن منقذ العبدى، فانه لم يحاول تبرير فعلته واقدامه -من دون الناس- على مهاجمة بربر، ولم يقل ما قاله كعب وما أورده من حجج لا تصمد حتى أمام رأيه الحقيقي

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٣.

هو معرفته بحقيقة تلك الدولة وقيادتها المنحرفة، بل أنه أعلن ندمه صراحة على ذلك، ورد على كعب جواب قوله، فقال:

لو شاء ربي ما شهدت قتالهم ولا جعل النعماء عندي ابن جابر
لقد كان ذاك اليوم عارا وسبة يعيره الأبناء بعد المعاشر
فيا ليت أني كنت من قبل قتله ويوم حسين، كنت في رمس قابر^(١).
كان خطؤه كبيرا، في ذلك اليوم الذي جلبوا على أنفسهم فيه العار والسبة، وقد
تمنى لو أنه كان قد مات قبل ذلك ولم يشهد ذلك اليوم العار.

يزيد بن سفيان التميمي كانت نفسه بيده ففرط فيها : شجاعة الحمقى

وتتعدد المشاهد، ويبرز منها مشهد آخر جدير بالملاحظة أيضا، فعندما التحق
الحر بأصحاب الحسين (عليه السلام)، تشدق أحد أعوان ابن سعد، وهو من تميم يقال له يزيد
بن سفيان ببطولة مزعومة سوف يبدىها ليقتل الحر إذا ما رآه، وأبدى أسفه لأنه لم يستطع
ذلك في اللحظة التي التحق فيها الحر بالحسين (عليه السلام).
وفي غمرة القتال، والحر يحمل على أصحاب ابن سعد، قال الحصين بن تميم ليزيد
ابن سفيان: «هذا الحر بن يزيد الذي كنت تتمنى قتله.

قال: نعم فخرج اليه، فقال له: هل لك يا حر بن يزيد في المبارزة؟
قال: نعم، قد شئت، فبرز له»^(٢) مع أن أحدا لم يكلفه بذلك، ومع أنه قد يفقد حياته
في تلك المبارزة وربما كان الحر سيرديه قتيلاً، كما نرى من سياق القصة.
لقد كان أحق، لم يستطع أن يتلافى ما صرح به أمام زملائه ولم يستطع أن يتنازل
أمامهم ليتعرض لسخريتهم.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٣.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤. وراجع المصادر التي ذكرناها عند الحديث عن سيرة الحر.

غير أن الحصين بن تميم أراد بدوره أن يستعرض بطولته المزعومة بعد أن رأى هزيمة صاحبه، وأراد أن يريهم أنه هو من سيقتل الحر، فما كان أحد غيره يستطيع ذلك، وقد قال لأصحابه: «والله لأبرز له».

فكانما كانت نفسه في يده، فما لبثه الحر حين خرج إليه أن قتله^(١). وقد خرج من هذه الدنيا ولم يشيد لنفسه مجدا أو يقيم لها مآثرة، وقد جنى على نفسه وكسب لها شرا، وأضاف نفسه لأولئك الذين شاء سوء حظهم أن يقعوا بذلك المأزق الذي وضعوا أنفسهم فيه دون أن يطالبهم أحد بذلك.

شمر بن ذي الجوشن جعل قضية دولة الظلم قضيته الشخصية

كان منظر شمر ورجاله وهم يحيطون بالامام الحسين عليه السلام بعد أن اثنى بالجراح منظرا رهيبا، فهو لاء قتلة تطوعوا لتنفيذ الجريمة التي ما كان أحد يحسب أن امرا ما يدعي الاسلام يمكن أن يقدم عليها، وكان الحسين عليه السلام «يقاقل على رجله قتال الفارس الشجاع، يتقي الرمية ويفترص العورة، ويشد على الخيل»^(٢).

واذ أنهم كانوا مصممين على قتله وكانوا يتحاثون على ذلك، فانه كان يريهم أي مصير مرعب سيصيرون اليه اذا ما نفذوا جريمتهم، اذ أنهم سيقتلون أعز وأكرم إنسان عند الله، بقية النبوة وسلالة خاتمها، وعيبة علم الله.

فأي دم سيكون مصانا بعد ذلك اذا ما أهدروا دمه.

كان صوته يعلو على أصواتهم وضجتهم، «أعلى قتلي تحاثون؟! أما والله لا تقتلون بعدي عبدا من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني، وإيم الله اني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون، أما والله أن

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٤.

لو قد قتلتموني، لقد ألقى الله بأسكم بينك، وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم، حتى يضاعف لكم العذاب الأليم»^(١).

ولا نحسب أن كلاما كهذا سيكون عديم التأثير على أناس، اللهم الا أن يكونوا قد ألدوا وانكروا الله أو أنهم لم ينتموا إلى جنس البشر، وكانوا مجردين من كل احساس إنساني، أو أنهم قد باعوا أنفسهم لإرادة شريرة باغية تسعى لهدم الاسلام وغزو معاقله الكبرى.

وربما كان لكلام الحسين عليه السلام فعله المؤقت فيهم، وربما كفوا عنه ليفكروا بمغزى كلماته، وقد ادركوا أنها الصواب حتما «فلقد مكث طويلا من النهار، ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا، ولكنهم كان يتقي بعضهم ببعض، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء»^(٢) .. فالجريمة كانت عظيمة، حتى بنظر قتلة متمرسين أمثالهم، وربما نظر بعضهم إلى أبعد من تلك اللحظة.

ولم يكن ذلك الوضع الذي أحجم فيه الناس عن قتل الحسين عليه السلام مما يسر شمرا، وقد نصب من نفسه ممثلا لابن زياد، وجعل القضية تبدو وكأنها قضيته شخصا، وكأن الحسين عليه السلام كان يستهدفه بالأذى هو بالذات، مع أن ابن زياد قد لا يطمع منه أن يفعل أكثر مما فعل، وهكذا قام بتحريضهم عليه مرة أخرى وأمرهم بالاجهاز عليه. «فحمل عليه من كل جانب.

فضربت كفه اليسرى ضربة؛ ضربها زرعة بن شريك التميمي... وضرب على عاتقه..

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٤، وراجع المصادر السابقة التي ذكرناها عند التعرض لقتله عليه السلام والروايات العديدة التي أشارت لذلك مع بعض الاختلافات البسيطة حول أدوار القتلة وفي مقدمتهم شمر وسان....

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٤.

ثم انصرف وهو ينوء ويكبو، وحمل عليه في تلك الحال سنان بن أنس بن عمرو النخعي، فطعنه بالرمح فوق، ثم قال لخولي بن يزيد الأصبحي، احتز رأسه، فأراد أن يفعل، فضعف فأرعد، فقال له سنان بن أنس: فتَّ الله عضديك، وابان يديك، فنزل إليه واحتز رأسه ثم دفعه إلى خولي بن يزيد، وقد ضرب قبل ذلك بالسيوف^(١).

سنان بن أنس، وحش مجنون

لقد أراد سنان أن يتباهى أمام شمر وبقية أعوانه، ويثبت لهم أنه جدير بالأعمال الكبيرة والاقدام على ما لم يستطع غيره الاقدام عليه، وقد استغل حال الحسين عليه السلام، وقد ضُرب بالسيوف والرماح والنبال وأصابته بالعديد من الجراح.

ليقوم بجريمته الكبرى التي ما كان يقدم عليها إلا مجنون أو عابث، وحسب أنه بقتله الحسين عليه السلام قد فتح الباب على مصراعيه إلى دنيا عريضة يتمتع فيها بالجاه والثروة، وربما حسده العديدون على قيامه بذبح الحسين عليه السلام، حاسبين أن دنيا يزيد السحرية قد أصبحت متاحة له ليدخلها الآن وها هو يحصل على جاه الدنيا وعلى ثواب الدنيا وعلى مال الدنيا، أما الآخرة، فلم يكن أحد يحسب لها حسابا.

«وجعل سنان بن أنس لا يدنو أحد من الحسين الا شد عليه مخافة أن يغلب على رأسه، حتى أخذ رأس الحسين، فدفعه إلى خولي»^(٢).

وهو مشهد لا نراه الا في دنيا الحيوانات المفترسة في الغابة، عندما يريد أحدها الاستئثار بفريسته ويمنع غيره من الاقتراب منه مستعملا أنيابه ومخالبه، وهو مشهد مألوف أصبحنا نراه كثيرا بعد أن صورت لنا حياة الحيوان ونحن نقبع في بيوتنا، فالأمر أمر صراع على البقاء، والحياة للأقوى.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٤.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٤، والمصادر الأخرى.

ماذا كان يجري في تلك اللحظات اذاً؟ كان العديدون يريدون انجاز ما بدأه أنس ليقوموا هم بقطع الرأس وأخذه لابن زياد، وكان هو يدافع عن (حقه) بالحصول على كل ما كان يرجو من مكاسب، اذا كان أول من أقدم على ذبح الحسين (عليه السلام)، كانت وليمة الدم تحفز الجميع للتنافس على أخذ الرأس الشريف والاستعراض به أمام الآخرين.

واذ أن سنان بن أنس لم يتح لأحد منافسته لأخذ الرأس الشريف، فان اقتراحات عديدة قدمت اليه ليأتي امرأه يطلب ثوابه منهم، «فقال الناس لسنان بن أنس: قتلت حسين بن علي وابن فاطمة ابنة رسول الله ﷺ، قتلت أعظم العرب خطراً، جاء إلى هؤلاء يريد أن يزيلهم عن ملكهم، فأنت امرأك فاطمك فاطمك ثوابك منهم، لو أعطوك بيوت أموالهم في قتل الحسين كان قليلاً.

فأقبل على فرسه، وكان شجاعاً شاعراً، وكان به لوثه، فأقبل حتى وقف على باب فسطاط عمر بن سعد، ثم نادى بأعلى صوته:

أوقر ركا بي فضة وذهبا أنا قتلت الفارس المحجبا
 قتلت خير الناس أما وأبا و خيرهم اذ ينسبون نسباً
 فقال عمر بن سعد: أشهد أنك لمجنون ما صححت قط، أدخلوه علي، فلما أدخل عليه حذفه بالقضيب، ثم قال: يا مجنون، أتتكلم بهذا الكلام، أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك»^(١).

ومهما يكن من أمر سنان، فانه لم يفز بما منى نفسه به وما حسب الآخرون أنه سيفوز، وكان اعترافه بمكانة الحسين (عليه السلام) خير الناس، اعترافاً بفداحة الجريمة التي

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٥، وقد روي أن ابن زياد قاله له: «اذا كان خير الناس أما وأبا، وخير عباده، فلم قتلت؟ قدموه فاضربوا عنقه. فضربت عنقه»، مروج الذهب: ج ٣ ص ١٢٢، وهو أمر لا يستبعد أن يقدم عليه ابن زياد، خصوصاً وأنه كان شديد التحسس بأصله الوضع وقصة والده زياد وسمية جدته التي فشت وشاعت، وقد سبق لنا الحديث عنها في هذا الكتاب.

ارتكبتها هو بحقه وبحق رسول الله ﷺ وبحق المسلمين كافة، كما كان ادانة لمن كان يسعى لارضائهم أمثال ابن زياد وابن سعد وشمر وأشباههم، كما أنه تجريح غير مقصود بسبيل زناة مشهورين لدى المسلمين كافة، استعرضت فضيحتهم في عملية الاستلحاق التي دبرها معاوية متحديا تعليقات الاسلام الواضحة بذلك الخصوص.

اسحاق بن حيوة الحضرمي؛ سالب القميص المخرق

وقد ابتلي سنان بما ابتلي به غيره ممن شاركوا بقتل الحسين وأصحابه رضي الله عنهم، كما ابتلي شمر بقتله مماثلة على يد أصحاب المختار الطالبيين بدم الحسين رضي الله عنه بعد هلاك يزيد وكانت ظاهرة عجيبة حقا، ان أولئك الذين شاركوا بقتله أو سلبه، قد حلت بهم نكبات فادحة، كان ينبغي ان تكون عبرة للآخرين حتى لا يتهادوا في اجرامهم مع ظلمة آخرين. كان من سلب قميصه وهو اسحاق بن حيوة الحضرمي قد برص بعد ذلك.

اسيد بن مالك وجماعته نحن رفضنا الصدر بعد الظهر

وقد قُتِلَ معظم من داسوا صدره وظهره، قتلات منكرة، وهؤلاء قد تطوعوا أيضا للقيام بتلك المهمة دون أن يكلفوا بذلك شخصا، فقد نادى عمر بن سعد في أصحابه (من يتدب للحسين ويوطئه فرسه؟ فانتدب عشرة، فأتوا فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره)^(١).

وقد جاء هؤلاء إلى ابن زياد (يقدمهم أسيد بن مالك وهو يقول:

نحن رفضنا الصدر بعد الظهر بكل يعبوب شديد الأسر
فأمر لهم ابن زياد بجائزة يسيرة)^(٢).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٥، والخوازمي: ج ٢ ص ٣٩، واللهوف: ص ٥٦، ومناقب ابن شهر

آشوب: ج ٤ ص ١١١.

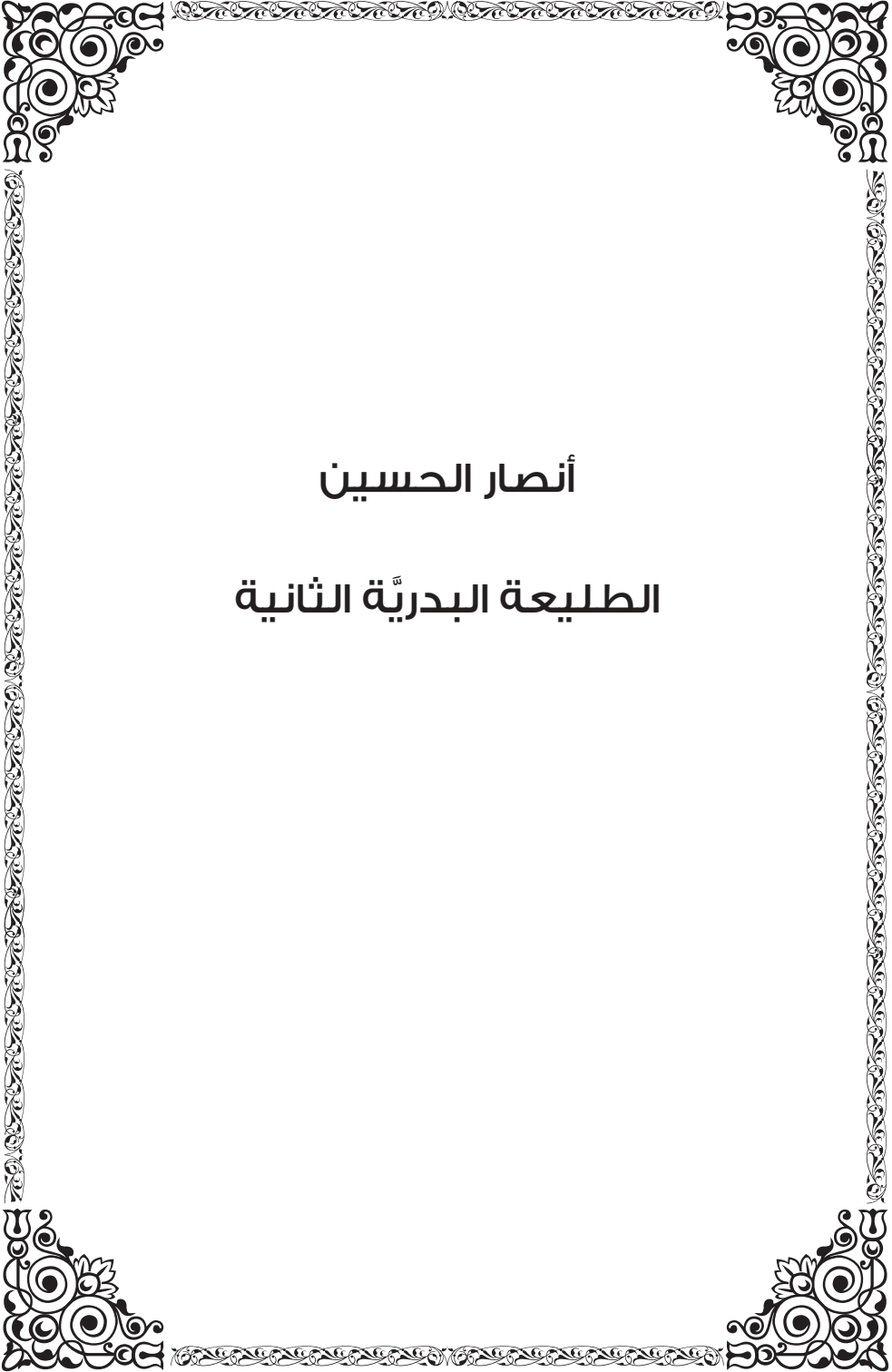
(٢) المصادر السابقة.

عشرات من النماذج المشوهة ظاهرة تبريز في ظل دولة الظلم

ولن نتحدث عن محمد بن قيس بن الأشعث وخولي بن يزيد وزيد بن رقاد وحكيم بن الطفيل السنبي وعبدالله بن عقبة الغنوي وعبدالله بن قطبة الطائي وبشر ابن حوط الهمداني، وعمرو بن صبيح الصدائي ولقيط بن ياسر الجهني وسليمان بن عوف الحضرمي واسحاق بن حوية الحضرمي والأحباش بن مرثد الحضرمي ورجاء بن منقذ العبيدي وسالم بن خثيمة الجعفي وواحد بن غانم وسالم بن وهب الجعفي وأسيد ابن مالك، وهم قتلة مباشرين انتهزوا فرصة شن الحرب على الحسين عليه السلام فأقدموا على اغتيال أصحابه وأهل بيته وفيهم أطفال صغار، وقد سبق لنا الحديث عن بعضهم في هذا الكتاب، غير أننا نريد لفت الانتباه إلى الأسباب التي تكمن خلف قيامهم بها قاموا به من أفعال حاولوا هم التبرؤ منها فيما بعد والتي لم يكلفهم بها أحد هم أنفسهم خاصة، وإلى طاقة الشر المخبوءة في نفوسهم والتي تفجرت في ظل أوضاع خاصة لم يعد فيها أثر لدين أو إنسانية أو قيم.

وقد أحببنا أن نلفت الأنظار إلى هذه الظاهرة الشاذة التي تبرز على هامش دول الطواغيت، وهي اندفاع بعض المغمورين والشاذين ومن لا يعول عليهم كثيرا وليس لهم حضور اجتماعي واضح، للقيام ببعض الممارسات الشائنة والتصرفات العبثية الفردية غير المسؤولة، ومهما تكن أسباب نشوء تلك الظاهرة، وقد تحدثنا عن بعضها فإنها ظاهرة تشجع عليها دول الظلم وتحاول توسيعها ما دامت محصلتها لصالحها، مع أنها قد لا تثيب عليها ولا تجيز أصحابها ولا تلتفت إليهم على الإطلاق.

وموضوع هذه الظاهرة، جدير بدراسات اجتماعية ونفسية متخصصة أشمل من تلك الملاحظات التي أشرنا إليها هنا إشارة بسيطة.



أنصار الحسين

الطليعة البدرية الثانية

أنصار الحسين

الطليعة البدرية الثانية

بدر أول معركة بوجه الشرك واستجابة تامة لله ورسوله

واجه أصحاب رسول الله ﷺ في بدر قريشا حينما أقبلت بخيلائها وفخرها تحاد الله وتكذب رسوله. وقد وقف أولئك الصحابة الكرام وقفة العزيمة والبسالة بوجه من فاقوهم عدة وعددا، وصوت رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابرا محتسبا مقبلا، غير مدبر الا أدخله الله الجنة»^(١).

يتردد في أسماعهم، وذكر الله يملأ قلوبهم. وقد قتل منهم «أربعة عشر رجلا، ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار»^(٢)، وقتلوا من قريش أضعاف عددهم.

لقد بدا واضحا للمسلمين كلهم فيما بعد، أن أصحاب الرسول ﷺ قد انتصروا في بدر، أحياءهم وقتلهم، اذ كانوا متيقنين واثقين بوعد الله ورسوله لهم بالجنة، فهم لم يقاتلوا ويقتلوا الا في سبيل الله ولوجهه الكريم فقط.

كانت أول معركة حقيقية خاضها المسلمون بوجه الشرك والاستغلال والظلم، وبوجوه طغاة قريش وعتاتها وفجارها وكان مقياس النصر لأولئك الذين اندفعوا لخوضها من المسلمين، أنهم حسبوا أنفسهم فائزين في حالتي التغلب على العدو

(١) الطبري: ج ٢ ص ٣٣، والكمال في التاريخ: ج ٢ ص ٢٣، وابن هشام السيرة النبوية: ج ٢ ص ٦٢٧.

(٢) المصادر السابقة

والانتصار عليه في ساحة المعركة أو الشهادة؛ فلم يكن الموت نهاية مأساوية، وخسارة أبدية لحياة انقضت وانقطعت، وإنما كان بداية لحياة دائمية في جنان الخلد.

بهذه العقلية وهذا التصور خاض المسلمون الأوائل معاركهم كلها بقيادة رسول الله ﷺ وتوجيه منه ورموا أنفسهم للموت دون خوف أو تردد للدفاع عن الإسلام ونشره في ربوع الجزيرة العربية ثم في العالم كله فيما بعد، وكان ذلك الطراز من المعارك مبعثا لفخر المسلمين جميعهم في كل العصور، حتى ود كثيرون منهم لو أنهم عاصروها وشاركوا فيها وقتلوا عدوهم أو قتلوا هم. ولعل ذلك بدا لهم حلما من أجل الأحلام أو أمنية من أجل الأمنيات.

فما الذي تغير في تلك المدة القصيرة الواقعة بين معركتي بدر والطف، حتى تجعل المسلمين يفقدون القدرة على الدفاع عن الإسلام والانتصار له، ولا يتقدمون بتلك الروح وتلك العقلية الرسالية التي حملوها زمن الرسول ﷺ وتقدموا بها لخوض معركة بدر، ولا يجدون في أنفسهم الجرأة على المشاركة بمعركة الحسين في الطف؟

هل تغير الإسلام؟

أم تغيرت الطبائع البشرية والنزعات والغرائز والدوافع الانسانية؟

وهل أن أولئك الرجال الأوائل كانوا نهاذج غير ممكنة التكرار أبدا؟

لماذا لا نستغرب أو نصاب بالدهشة ويصبح لدينا أمرا منطقيا ومقبولا تقدم أصحاب الرسول ﷺ بتلك العزيمة والشجاعة النادرة النابعة عن اليقين الثابت بالله والوعي الأكيد برسالته، ونستغرب أو نندهش عندما يتكرر الأمر، في موقف آخر بعد ذلك ومع رجال يمتلكون نفس اليقين والوعي. مع أنه لم يمض سوى حوالي نصف قرن يفصل بين الموقفين؟

لولا بدر لاندثار الإسلام ودعوة الرسول

لقد كان الإسلام معرضاً للاندثار والضياع إلى الأبد، لو انتصر المشركون في معركة بدر، ولهذا دعا رسول الله ﷺ ربه قائلاً: «اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»^(١)، وكان معرضاً للاندثار والضياع ثانية لو لم يقم الحسين رضي الله عنه بثورته على العصابة الأموية المنحرفة ولو لم يواجهها بتلك العزيمة وذلك الثبات.

وبقيت تلك العصابة الأولى من أهل الإسلام، ولم يستشهد منها الا أربعة عشر نفراً. ولم يحسب أي أحد منهم وقف صابراً محتسباً، نفسه الا منتصراً وقد بذل كل جهده وأدى مهمته بكل ما يملك من طاقة وقوة. سواء الذين استشهدوا أم الذين بقوا أحياء ليكملوا مهماتهم في فهم الإسلام ونشره واعلاء كلمة الله لتكون هي العليا.

استجاب البديريون لرسول الله ﷺ وقد كان يقودهم ويوجههم بشكل مباشر. وبعد ذلك استجاب له كل أولئك الذين خاضوا معارك الإسلام ضد أعدائه، وكأنهم تحت قيادته وتوجيهه المباشر.

آية مكانة كبيرة لرسول الإسلام العظيم ﷺ في نفوس أولئك المؤمنين الذين انطلقوا بوعي وارادة حرة متبصرة على الطريق الذي اختطه لهم ورفعوا رايته واستشهدوا في سبيل الإسلام، مع أنهم لم يروا ذلك الرسول الكريم ولم يعيشوا معه أو يستمعوا إلى أقواله بشكل مباشر؟

وأية قوة جعلتهم يحرسون على التمسك به وبدينه وآل بيته رغم المحن والشدائد والتعرض للقتل؟ لا بد لمن يعيش الإسلام ويتصدى لمشاكل الأمة ومحنها أن يضع الله ورسوله ﷺ نصب عينيه، وينطلق كما لو أن الرسول ﷺ أمامه يوجهه ويرشده ويقوده.

(١) نفس المصادر السابقة.

بقي الإسلام عندما بقيت تلك العصابة البدوية الأولى التي كان يقودها رسول الله ﷺ نفسه، واستمر بعد أن ترسخ، وحتى عندما مات أفرادها فيما بعد.

نكسات وحروب من الداخل

ولقد مر هذا الدين بنكسات عديدة، وقد أوشكت المكاسب التي حصل عليها المسلمون في ظله وبفضل تضحيات الرجال الأوائل منهم، أن تسلب ويسطى عليها بوضوح النهار بفعل بعض القوى الطارئة الدخيلة التي التحقت بالإسلام ظاهريا واعتنقته بشكل رسمي معلن، الا أنها أضمرت البقاء على مواقفها وتصوراتها وقيمها الأولى.

ولا شك أن آل أبي سفيان وأغلب الأمويين كانوا في مقدمة تلك القوى التي التحقت بركب الإسلام الذي أوشك أن يفوتها عندما لم تجد مناصا من ذلك وقد أحنت رؤوسها أمام عاصفته القوية. استثمرته ووظفته لصالحها وسطت عليه بشكل تام بعد أن استثمرت واستغلت الانحرافات والأخطاء الأولى وعمقتها وأضافت إليها انحرافات وأخطاء أخرى، حتى استدرجت المسلمين إلى حافة الانحراف دون أن يشعروا ودون أن يدركوا أنهم قد أصبحوا عبيدا للدولة الأموية لا لله وأنهم قد استسلموا استسلاما أبديا وخضعوا خضوعا تاما لمعاوية مهندس الانحراف الكبير وواضع برامج الدائمة.

ابو سفيان: حارب الإسلام.. فألت مكاسب المسلمين إلى أولاده

لقد وضع المسلمون مكاسبهم ومقدراتهم وحياتهم لقمة سائغة في فم معاوية، ولم يعد أحد منهم يجرؤ على مناقشة (أمور الدولة) المستأثرة بكل شيء والمسيطرة على شيء، وعندما كان يصرح أنه خليفة الله، وأنه مخوّل بكل ما يراه مناسبا للحفاظ على دولته، وأخذ كل ما يريد أخذه وترك ما يرى تركه بشكل كفي مطلق لا يتقيد بقانون أو

قيمة إسلامية عليا - كما ذكرنا ذلك من قبل - فانه كان بذلك يحس نبض الأمة، ويتأكد من سكوتها إلى الأبد ووقوعها جثة هامة بين يديه. وقد تأكد من ذلك فعلا، ومن ثم أقدم على فعلته المدمرة القاتلة باستخلاف يزيد، وهو آخر شخص تفكر فيه الأمة خليفة لرسول الله ﷺ.

انه ليس أمرا مبالغا فيه نقول أن الإسلام كان على وشك الانهيار، وان بعض الشكليات المتبقية منه التي رأى معاوية الحفاظ عليها، لم تكن تتيح للمسلمين انقاذ أنفسهم من الخطر الأموي المحدث. الخطر الذي كان يسير باتجاه تعزيز سلطة دولة ملحدة بالفعل، متظاهرة بالإسلام كغطاء شرعي تبرر به وجودها وحكمها. ولعل تظاهرها بالإسلام هو مصدر الخطر الرئيسي على الأمة.

قبول يزيد خليفة الوصول إلى قرار الهاوية

ولا أدل على انحدار الأمة ووصولها إلى قرار الهاوية، من قبولها يزيد إماما لها وقائدا وخليفة لرسول الله ﷺ نفسه، وقد علمت أن يزيد ليس له من المؤهلات ما يتيح له أن يكون حتى كاتباً للخراج في أصغر مدينة إسلامية. بل ان الأمر تعدى ذلك حتى ليتمكن القول إنه جمع من المساوي والعيوب ما لا يمكن معه الادعاء أنه ينتمي للإسلام أصلا. ومع ذلك، فقد استدرج معاوية الأمة وأوصلها إلى حال قبلت فيه يزيد. وذلك بفعل مبرمج مخطط له، مرصودة له امكانات هائلة ذكر لنا التاريخ تفاصيلها ومفرداتها بوضوح وسرد مفصل، وقد فعلت أحداث عديدة فعلها لمساعدة معاوية في مسعاه القاتل والفاضح الذي كانت أول نتائجه قيام حفنة بعيدة عن الإسلام وقيمه وتصوراته وأخلاقه باحتلال مراكز القيادة الإسلامية والتمهيد لفئات مشابهة وربما أكثر انحدارا وانحرافا لاحتلال مراكز مماثلة فيها بعد.

كان وجود يزيد خليفة نكسة خطيرة لم يحس بها المسلمون الا احساسا ضعيفا بتأثير معاوية الذكي الماكر المتمكن الغني، وما كان يكفي لتخليصهم من ذلك مجرد القيام بالتنبيه إلى خطورة الحال أو الدعوة المتخفية المستترة لانقاذ أنفسهم مما وقعوا فيه.

كان لا بد من فعل حاسم جريء غير مألوف، يلفت نظر الأمة إلى خطورة حالها وأوضاعها ولا بد لمن كانوا يريدون القيام بذلك الفعل، أن يكونوا أمثلة حية وناطقة على ايمانهم بالإسلام وتجسيده في سلوكهم وأخلاقهم، وبجدوى ما يقومون به، والتضحية في سبيله، ان كانوا حقا يريدون اعادة الأمور إلى نصابها، واعادة الإسلام إلى موقعه الأول في الحياة وفي نفوس المسلمين.

وينبغي أن لا يعير أولئك اهتماما لما سوف يقع لهم، عند محاولتهم التصدي لهذه الدولة الظالمة، حتى وان قتلوا واستؤصلوا، فالإسلام قد وجد وانتشر وحكم، غير أن مكاسبه قد سرقت والمسلمين قد غدر بهم.

فاذا ما قتلت حفنة صغيرة في سبيل الإسلام، فان ذلك سيدعو الآخرين في كل مكان وزمان للتأمل في أسباب ذلك ودوافعه، وسيدفعهم إلى اعادة النظر بمواقفهم وحياتهم في ظل دولة الظلم والجور والانحراف التي تقام على انقاض دولة الإسلام وسيدفع كثيرين إلى انتهاج نفس الموقف الذي وقفه الرجال المضحون بأنفسهم لاعادة الإسلام إلى موقعه الصحيح.

لم تكن مهمة أولئك الرجال الذين أرادوا تغيير حال الأمة وانتشالها من ورطتها وتخليصها من محتتها، وهم يتلقون التوجيهات والعون من الامام الحسين عليه السلام حفيد الرسول الكريم صلوات الله عليه وآله وابنه وصيه، لتقل عن مهمة أولئك الرجال الأوائل الذين تلقوا التوجيهات والعون والدعم من رسول الله صلوات الله عليه وآله مباشرة.

من أجدر بمهمة رسول الله ﷺ من الحسين عليه السلام؟

ومن أحق بفهم مهمة الرسول ﷺ من حفيده ووصيه بل نفسه ومن تربي في بيته وبتوجيهه؟ ومن أجدر أن تسير وراءه الأمة وتتبعه وتتلقى عنه، من هذا الحفيد الذي كان الأمل الوحيد المتبقي لها والذي كانت ترصده وترصد رد فعله ومواقفه تجاه دولة الظلم التي أصبح يزيد قائدا لها، وتنتظر كلمته للنهوض والخلاص؟

غير أن قوة وامكانات دولة الظلم الأموية كانت مكرسة ومهيأة للوقوف بوجه هذا النهوض المحتمل بل المؤكد وقمعه، فأعدت للأمر عدته مسبقا واتخذت الاجراءات اللازمة التي من شأنها أن تقضي على الثائرين والمتفضين بوجهها ووجوه أعوانها ومريديها.

ولئن اتخذت الأحداث المسار الذي اتخذته، وقتل الحسين وأصحابه، فإن هذه الثورة قد حققت الغاية منها بالتأكيد، وقد نبهت الأمة بشكل واضح إلى خطورة حالها، وأنها كانت على وشك الانهيار والموت إلى الأبد، كما سنوضح ذلك ان شاء الله، عند التحدث عن نتائج هذه الثورة الرائدة في تاريخ الأمة الإسلامية.

واذ أعاد أولئك البديرون الأمة إلى السلام، وجعلوها تفكر فيه بجد، وحفظوا هذه الأمة من الضياع والهزيمة والانحدار الأبدي، فانهم أدوا مهمة أولئك البدرين الأوائل. الذين خاضوا أول معركة فاصلة بقيادة رسول الله ﷺ لوضع الإسلام موضع التطبيق العملي حاكما وقائدا للناس جميعا، على امتداد العصور وفي مختلف الأمكنة.

بدر.. حالة ممكنة التكرار

كان أداء البدرين الأوائل حالة ممكنة التكرار، يمكن أن تحصل في أي زمان. ولم تكن حالتهم تعرض علينا كأمر غير ممكن التحقيق، وكاشارة مشرقة وحيدة في تاريخنا

لا يمكن أن تعود ثانية.

ان الأمر الوحيد الذي لا نستطيعه هو الاقتراب من عصمة الرسول ﷺ وآله ﷺ، المسددين بارادة الالهية عليا أو الوصول اليها، كما أوضحنا ذلك من قبل. غير أن أي سلوك انساني آخر مهما ارتفع وارتقى، فانه ممكن التحقيق، ما دامت القدرات البشرية العامة موجودة لدى الناس. غير أن الانسان يرتفع ويهبط وفقا لغلبة الدوافع والغرائز الموجودة لديه، فاذا ما استطاع السيطرة على هذه الغرائز والتحكم فيها وفقا لما يراه، ولما تتطلبه توجهاته وتصوراته ومثله، وجعل من الدوافع العليا (وهي الدوافع الإسلامية)، غاية ما يتطلبه ويسعى اليه، ولا يرى أمامه سوى الإسلام، وسوى القوة العظيمة التي أنزلته وطلبت من عموم البشر التصرف وفقه وفي ضوء أحكامه وقيمه، استطاع الاقتراب من المثل العليا التي يضعها أمامه، وهي شخصية رسول الله ﷺ، والشخصيات الأخرى التي أعدها لخلافته في قيادة الأمة. ومع أن ذلك يعني أنه لا يستطيع أن يكون مثلها أو بمستواها، الا أنه يستطيع أن يفهمها ويتفاعل معها، ويتأثر بسلوكها وأخلاقها ويسير ضمن توجهاتها وتصوراتها، ويعمل في أطر تلك التوجيهات والتصورات، ويتبنّاها، كأسلم وسيلة تحقق له طموحه في فهم الإسلام والأخذ به وتبنيه كقوة وحيدة أو دين وحيد يتحكم في حياته.

فليس عبثاً أن يجعل الله من الرسول ﷺ قدوة حسنة لكل الناس؛ ما دام يريد لهم أن يقتدوا به فعلاً ويسيروا على خطاه باذلين كل جهدهم في ذلك؛ وما دام بإمكان الناس أن يتخلقوا ببعض أخلاقه وسلوكه.

البديريون موجودون في كل ساحات الصراع «لقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء»

لم يكن أمرا غير ممكن أن تتحقق حالة البديريين وتكرر لدى أشخاص آخرين، مهما بعدت الشقة وطال العهد، ولم يكن من غير الممكن أن نجد أناسا متفانين متفاعلين مع الإسلام، يقدمون على التضحية بحياتهم وبأعز ما يملكون ان استدعى الأمر ذلك، وحقق ذلك في النهاية مصلحة الإسلام ونصره وارتفاعه.

لقد أقدم أصحاب الحسين بنفس تلك القوة والعزيمة التي أقدم بها البديريون لمنازلة أعدائهم. وربما تفوقوا عليهم لأنهم أدركوا أن نهايتهم جميعا ستكون الموت المؤكد، بينما وعد البديريون بالنصر ولم يوعدوا جميعا بالشهادة. ومن الملفت للنظر حقا أن نجد أن أحدا منهم لم يراجع أو يتخاذل طيلة الفترة التي أمضوها وهم يتجهون إلى موقع المعركة والمنازلة وفي أثنائها فيما بعد. وكانوا يبدو أنهم فهموا المهمة التي أرادوا الاضطلاع بها بدرجة من الوضوح بدت وكأنها تقترب من تلك التي فهمها به الامام (عليه السلام). غير أن الأئمة «عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية، فان رواة العلم كثير ورعاته قليل»^(١) على حد تعبير أمير المؤمنين (عليه السلام)، فكان فهم الأئمة استثنائيا لا يتعلق بالأهداف المنظورة التي يراها الآخرون وحسب، وانما قد تكون لأعمالهم أهداف غير معروفة، أدركوها وعلموها عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلمها (عليه السلام) عن جبرئيل (عليه السلام).

وكان أداء أصحاب الحسين (عليه السلام) في المعركة ممكنا لكل المسلمين الآخرين كذلك؛ فهم ليسوا قوة متميزة من البشر، كما لم يكن من سبقوهم قوة متميزة من البشر حضت بقدرات استثنائية لا يسع غيرهم الاختصاص بها. وانما هم بشر من عامة البشر امتلكوا نفس القدرات والنوازع والغرائز؛ غير أنهم أدركوا وفهموا ما لم يدركه ويفهمه

(١) نهج البلاغة: ص ٥٠٩.

الآخرون. وامتلكوا من القوة وسلامة الفهم ما جعلهم بمستوى الرسالة التي حملوها، فأصبحوا من الرموز الكبيرة للأمة كلها بمحاولتهم الارتفاع إلى مستوى تلك الرسالة والتضحية من أجلها.

انهم اعتقدوا أن الإسلام لم ينزل عبثاً هكذا وللاشيء، وتيقنوا أن لا أحد من البشر ينبغي له الاستهانة بقيمه أو العبث بها، وأدركوا أن أية محاولة من هذا النوع يجب أن تصد بحزم ويردع أصحابها بقوة لئلا تتكرر حالات الانتهاك والخرق والخروج المتعمد عن الإسلام فيما بعد.

وإذا كان أي شخص لا يستطيع بلوغ القوة التي بلغها الامام والفهم الذي تمتع به وصحة التصور والاعتقاد، والأداء الذي تميزت به كل جوانب سلوكه، فإن أي شخص بوسعه أن يبلغ ما بلغه أصحابه الأقوياء الذين أخذوا على عواتقهم النهوض بما عجزت عنه الأمة كلها، وأنجزوا مهمتهم بكل نجاح وأوصلوا أصواتهم واحتجاجاتهم العملية ضد الانحراف إلى كل الأسعاع، وجعلوا الأمة الضعيفة المضامة التي أريد لها أن تموت وتندثر تعيد النظر بمواقفها وأوضاعها وتحاول التخلص من حالة الاستسلام والضعف والجمود والشلل.

لقد ظل أولئك الثوار ماثلين في أذهان الأمة، يمثلون علامة فارقة وعلامة احتجاج دائمية على الظلم والانحراف أمام النائمين والمتخاذلين والمتكاسلين وأمام الذين تحلوا عن أي شعور بالمسؤولية ورفضوا القيام بأي دور ايجابي يفرضه عليهم فهمهم لدينهم القويم ورسالته الشاملة، وظلوا شجرة نامية مثمرة تطلع علينا بعطائنا المتجدد وتنشر علينا ظل أغصانها وأوراقها، وظلوا نموذجاً شاخصاً لعشرات الملايين من المسلمين، رعى وسيرعى بهم الزمان ويقوي بهم الايمان، كما عبر عن ذلك أمير المؤمنين (ع)، حينما أظفره الله بأصحاب الجمل، وقد قال له بعض أصحابه: «وددت أن أخي فلاناً معك

شاهداً ليرى ما نصرك الله به على أعدائك. فقال ﷺ: «أَهْوَى أَحْيِكَ مَعَنَا؟ فقال: نعم.

قال: فَقَدْ شَهِدْنَا، وَلَقَدْ شَهِدْنَا فِي عَسْكَرِنَا هَذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، سَيَرَعُفُ بِهِمُ الزَّمَانُ وَيَقْوَى بِهِمُ الْإِيمَانُ»^(١).

إن أمير المؤمنين ﷺ يجد أن موقفه هذا لمواجهة الخارجين عليه وعلى الإسلام والذين كانوا يمهدون لالباس الانحراف ثوباً شرعياً، لا بد أن يقيّم من قبل كل جماهير المسلمين بعد أن يفهموه ويفهموا عدوه جيداً، ولا بد أنهم سينحازون إلى جانبه ويتمنون لو أنهم كانوا معه وإلى جانبه وسيتيح لهم موقفه فرصة الوقوف بوجه الانحراف والخروج التعمد عن الإسلام وسيخوضون معارك عديدة ضد المنحرفين وأعداء الإسلام.

إن وحدة الموقف والانتفاء الحقيقي للإسلام سيكون طابعهم الموحد دائماً، وسيكون كل من وقف في بدر أو الجمل أو صفين أو الطف أو في كل معركة لاحقة من معارك الإسلام، ما داموا قد أرادوا نصرته والدفاع عنه واعلاء شأنه، في موقف واحد وفي ساحة واحدة. وسيكون من شهد واحدة من هذا المعارك، كمن شهدا جميعاً.

اصرار على المضي إلى نهاية الشوط

إن أموراً عديدة تلفت أنظارنا عند التعرض للحديث عن أنصار الحسين ﷺ، وفي مقدمة تلك الأمور صمود تلك الجماعة التي التحقت به منذ البداية وعدم تخليها عنه رغم سماحه ﷺ لها بذلك عدة مرات، وكذلك الجماعة التي التحقت به في مكة وفي الطريق، إلى أن استشهد كافة أفرادها في نهاية المطاف في كربلاء. وقد التحق به آخرون قبيل بدء المعركة وعند نهاية الاستعدادات لها. وكان من يلتحق به يدرك أنه مقبل على

الموت حتماً، وكانت دوافعهم واحدة عنوانها الانتصار للإسلام. واذ لم يكن لذلك إلا طريقة واحدة وهي الالتحاق بالحسين (عليه السلام) ومواجهة دولة الظلم والثورة عليها ولفت نظر الأمة الى ممارساتها الشاذة والمنحرفة عن الإسلام، فانهم أقدموا على ذلك دون تحفظ رغم علمهم بالثمن الكبير الذي كان عليهم أن يدفعوه وهو حياتهم. ووجدوا أن ذلك كان ثمناً معقولاً، ولو أنهم وجدوا أعز من تلك الحياة يمكن أن يقدموه في سبيل الإسلام لما ترددوا، وكما عبر بعضهم عن ذلك بوضوح أمام الحسين (عليه السلام) كما سنرى في غضون هذا الفصل.

عبد الله بن بقطر: «انصروا الحسين وأزروه»

فعندما وصل الحسين (عليه السلام) خبر مقتل عبد الله بن بقطر أخيه من الرضاعة^(١) على يد ابن زياد «وكان سرّحه إلى مسلم بن عقيل وهو لا يدري أنه قد أصيب، فتلقاه خيل الحصين بن تميم بالقادسية، فسرّح به إلى عبيد الله بن زياد، فقال: اصعد فوق القصر فالعن الكذاب بن الكذاب، ثم انزل حتى أرى فيك رأيي. فصعد، فلما أشرف على الناس قال: أيها الناس، اني رسول الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ لتنصروه وتؤازروه على ابن مرجانة بن سمية الدعي. فأمر به عبيد الله، فألقي من فوق القصر إلى الأرض، فكسرت عظامه، وبقي به رمق، فأتاه رجل يقال له عبد الملك بن عمير اللخمي فذبحه»^(٢).

رأى الحسين (عليه السلام) أن يوجه دعوة لمن التحقوا به أن يتفرقوا عنه. «وكان لا يمر بأهل ماء الا اتبعوه»^(٣) وقد قال لهم: «أما بعد، فانه قد أتانا خبر فطيع. قتل مسلم بن عقيل،

(١) كانت أمة حاضنة للحسين (عليه السلام).

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٣.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٣، وربما اعتقد بعض من التحق به أن السلاح لا يجوز فيه ولا في أصحابه

وهانئ بن عروة وعبد الله بن بقطر. وقد خذلتنا شيعتنا فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف، ليس عليه منا ذمام.

فتفرق الناس عنه تفرقا، فأخذوا يميننا وشمالا، حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة.

وانما فعل ذلك لأنه رأى انما اتبعه الأعراب لأنهم ظنوا أنه يأتي بلدا قد استقامت له طاعة أهله، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون على ما يقدمون. وقد علم أنهم اذا بين لهم لم يصحبه الا من يريد مواساته والموت معه^(١) ومشاركته في مهمته الصعبة الكبيرة. لقد أراد الامام عليه السلام لهم، وللأمة كلها فيما بعد، أن يكونوا على بينة من الأمر الذي أقدموا عليه، وأنه لم يأت بلدا قد استقامت له طاعة أهله وأن مهمته لن يفهمها ويقدر على المشاركة فيها الا الذين كانوا على قدر كبير من الوعي بضرورتها وأهميتها. والا أولئك الذين امتلكوا حسا إسلاميا صافيا، والذين لا يهمهم الا أن يسود الإسلام ويعلو وتسود أحكامه ومفاهيمه وتشريعاته.

انهم انطلقوا من بين كل أبناء الأمة لانجاز هذه المهمة ليلفتوا نظرها ويجركوها لفعل سريع حاسم بوجه السلطة المنحرفة. فمع أنهم منها، ومع أنهم قلة قليلة، الا أنهم أنجزوا أمرا عجزت عنه كلها، وقاموا بما لم تقم به الملايين من أبنائها.

كما أشيع حينئذ «وكان أهل ذلك الزمان يقولون ذلك الأمر، ويتظرونه في كل يوم وليلة» الطبري: ج ٣ ص ٢٩٧.. فعندما علموا بموت مسلم وهانئ وعبد الله أدركوا أن الأمر لم يكن كما تصوروا وأنهم لم يكونوا مقبلين على بلد قد استقامت طاعة أهله للحسين عليه السلام وأنهم سيضطرون للقتال معه وربما قتلوا اذا ما أرادوا الوصول معه إلى نهاية المطاف. ويبدو أن هؤلاء كانوا يريدون الحصول على بعض المغانم، ولم يريدوا أن يصدقوا أنهم سيتعرضون للمتاعب أو القتل الا بعد ورود خبر مقتل مسلم وهانئ وعبد الله.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٣.

لقد أرادوا أن يبينوا لها أن مهمتهم هي مهمة كل فرد منها بعينه. وعليه أن لا يتقاعس أو يتخاذل أو يستسلم عندما ينهض لها أو لأمثالها من المهات وحتى فيما يأتي في زمن لاحق.

الحسين (عليه السلام): «اني لا أعلم أصحابا خيرا من أصحابي»

وفي ليلة العاشر من المحرم جمع الحسين (عليه السلام) أصحابه وألقى فيهم كلمة جاء فيها: «أثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء. اللهم اني أحمذك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين؛ أما بعد، فاني لا أعلم أصحابا أولى ولا خيرا من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعا خيرا. ألا واني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا. ألا وإني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعا في حل، ليس عليكم مني ذمام. هذا ليل قد غشيكم فاتخذوه جملا.

ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فان القوم انما يطلبوني، ولو قد أصابوني هوا عن طلب غيري»^(١).

القلوب قبل السيوف: «أنحن نخلي عنك؟»

وقد رفض أصحابه وأهل بيته التخلي عنه، كما فعل البعض في مواقف سابقة أخرى، وأبدوا عزمهم وتصميمهم على البقاء معه مواسين له بأنفسهم، ينالهم ما يناله. فهم لم يأتوا معه الا بعد أن أدركوا أبعاد مهمته وأهدافها، تلك المهمة التي انتدبوا أنفسهم لتنفيذها بعد أن انتدب الحسين (عليه السلام) نفسه في المقدمة.

وكان ذلك اللقاء فريدا، عبروا فيه عن استعدادهم للوقوف إلى جانب الإسلام

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥، الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤١٦.

وانحيازهم التام له، بعد أن وقفوا إلى جانب الحسين عليه السلام ورفضوا التخلي عنه.

كان لقاء حافلا تحدث فيه القلوب قبل أن تصدر الكلمات. ولعل ما صدر فيه من كلمات جعل الجميع في غبطة غامرة رغم اقبال الموت عليهم ورغم ضجيج الأعداء وتهديداتهم وقعقة أسلحتهم. فكأنهم لم يروا أحدا من هؤلاء الأعداء أمامهم. وكأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يمثل أمامهم بشخصه الكريم ويتحدث اليهم، عندما كان يمثل ابنه الحسين عليه السلام أمامهم ويتحدث اليهم. لم يروا في تلك اللحظات الا الله والا دينه ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله. ولم يملكوا الا أن يبدوا استعدادهم لتقديم كل شيء في سبيله ولوجهه. ولم تلح على أحدهم اماره خوف أو تردد أو تحاذل. كانت عزيمتهم أقوى من ضجيج أعدائهم وصخبهم وتهديداتهم. ولعلمهم كانوا يترقبون الساعة التي يثبتون فيها ولأهم للحسين عليه السلام وللإسلام ويثبتون انتماؤهم الحقيقي له.

«قال له اخوته وأبناءؤه وبنو أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر: لم نفعل لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبدا. بدأهم بهذا القول العباس بن علي.

ثم انهم تكلموا بهذا ونحوه. فقال الحسين عليه السلام: يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم. اذهبوا قد أذنت لكم.

قالوا: فما يقول الناس، يقولون انا تركنا شيخنا وسيدنا وبنينا عمومنا خير الأعمام، ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا لا والله لا نفعل، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك.

فقام اليه مسلم بن عوسجة الأسدي فقال: أنحن نخلي عنك، ولما نعذر إلى الله في أداء حقك. أما والله حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في

يدي، ولا أفارقك، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقدفتمهم بالحجارة دونك حتى أموت معك.

وقال سعيد بن عبد الله الحنفي: والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا حفظنا غيبة رسول الله ﷺ فيك. والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حيا ثم أذر، يفعل بي ذلك سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك، وانما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبدا؟

وقال زهير بن القين: والله لوددت اني قتلت ثم نشرت ثم قتلت، حتى أقتل كذا ألف قتلة. وان الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك. وتكلم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضا في وجه واحد فقالوا: والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نفيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا. فاذا نحن قتلنا كنا وفيها، وقضينا ما علينا^(١).

انتصارهم للحسين انتصار للإسلام، الأعمال فاقت الأقوال

ان رفضهم التخلي عنه واصرارهم على البقاء معه لم يكونا نتيجة حماسة طارئة، جعلتهم يندفعون لنصرته بدافع حاجته الشخصية اليهم. ولم يكونا من قبيل النخوة الجاهلية التي تنتصر للقريب ضد أعدائه. وانما كان انتصارهم له انتصارا للإسلام الذي كان بحاجة إلى وقفة مثل وقتهم وموقف مثل موقفهم. اذ لو تخلوا عنه لكان ذلك ايذانا بموت الأمة كلها وعدم قدرتها على النهوض ثانية.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٦، واللهوف: ص ٣٨-٣٩، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٥ وروضة الواعظين: ص ١٨٣، والخوارزمي: ج ١ ف ١١، والمفيد: ص ٢١٠ والنوري: ج ٢٠ ص ٤٣٥، وجهرة خطب العرب: ج ٢ ص ٤١-٤٣، وأمالى الصدوق: م ٣٠، والمجلسي: ج ٤٤ ص ٤٩٢-٤٩٣.

ولم تكن أقوالهم من قبيل الأقوال الخطابية التي تلقى في محفل أدبي أو شعري في مناسبة معينة، يكشف فيها الخطباء عن بلاغتهم وقدراتهم في مجال الشعر والنثر لكي يؤثروا على نفر من المستمعين حضروا محفلهم، ليذهبوا بعد ذلك ويتغنوا ويشيدوا بما استمعوا اليه وشنف آذانهم. فالوقت كان وقت جد، والمواجهة أصبحت قريبة جدا، والكلمات لا بد أن يعقبها فعل سريع.

موقف أنصار الحسين ﷺ **سابق في ضمير الأمة إلى الأبد، كانوا بمستوى المهمة الكبيرة.**
كان أنصار الحسين ﷺ قريبين منه قربا كافيا يتيح لهم معرفة خططه ونواياه ومواقفه، ويعلمون أنه مقتول حتما في تلك المواجهة مع دولة الظلم الأموية بزعامة يزيد، وأنهم ربما قتلوا معه. وما كان يشير عليه الكثيرون من الناس بضرورة التراجع وتجنب المواجهة، لم يكن يجري بشكل سري بينه وبين (الناصحين) (والمشفقين) والمخذلين، ولا بد أن أنصاره سمعوا هم أيضا تلك التحذيرات الشديدة.. ومع ذلك استمروا معه، وثبتوا معه إلى آخر لحظة واستشهدوا بين يديه.

فهل كان أحد يحسب حقا أنهم يمكن أن يتراجعوا في اللحظات الأخيرة التي حسبوا فيها أنهم سوف يجنون ثمار إقدامهم وصمودهم وثباتهم؟ وانهم سيهربون أو يستسلمون أو يتخلون عن الحسين ﷺ؟

وهل كان الحسين ﷺ يتوقع منهم أن يتراجعوا كما تراجع الأعراب الطامعون بالغانم والمكاسب الذين التحقوا به في الطريق وانفرط عقدهم عنه في الطريق أيضا؟

بالتأكيد لم يكن الامام يتوقع منهم ذلك، بل كان يتوقع ذلك التصميم وذلك الثبات، غير أنه كان يريد إبلاغ أصواتهم للأمة المستسلمة المشلولة الضعيفة، وأن يسمعوها بأنفسهم، تلك الأصوات الواضحة القوية ويعلنوا لها أن وقفهم لم تكن

بدافع العصبية والحماس الطارئ، وانما كانت نتيجة لحاجة ماسة لا يقاوم الانحراف وايقاظ الأمة وتنبيهها إلى مهماتها العديدة التي عليها أن تقوم بها في ظل القيادة الشرعية الصحيحة، لا في ظل الطواغيت والفراعنة والمتجبرين.

ولقد أثبتوا خلال فصول المعركة وتصديهم الجريء لجيش ابن زياد أنهم كانوا بمستوى المهمة التي انتدبوا أنفسهم لها، وقد قاموا بها خير قيام. لم يهنوا أو ينكلوا أو يتراجعوا أو يتلعثوا سواء في معرض المواجهة العسكرية أم في معرض القاء الحجج والنصح والارشاد وتقريع وتأنيب الجيش الذي نصب نفسه عدوا للحسين (عليه السلام)، رغم قلة عددهم وموقفهم العسكري التعبوي الضعيف.

ينبغي أن يظل موقف أنصار الحسين موضع دراسة وتأمل عميقين من قبل أبناء الأمة كلها، فكيف حصل أن تصدوا هم دون غيرهم لمنع الانحراف وايقافه، واختاروا الوقوف إلى جانب الحسين (عليه السلام)؟ وما هي درجة الوعي والشعور بالمسؤولية التي امتلكوها فجعلتهم يقفون ذلك الموقف مع أن شرائح أخرى من أبناء الأمة كان من المفروض بحكم صحبة بعضها لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وفهمها وموقعها الاجتماعي وسوابقها وادراكها طبيعة الأحداث ومجريات الأمور قد تخلت عن مسؤولياتها وآثر قسم كبير منها الوقوف موقف المتفرج والقسم الآخر الانحياز إلى النظام الحاكم..؟

كان أنصار الحسين (عليه السلام) حالة نادرة في ظل أوضاع شاذة غير طبيعية لأنهم لو نشؤوا في ظل أوضاع صحيحة سليمة وفي ظل القيادة الشرعية للمسلمين، لما كانوا بتلك القلة، ولتشعبت مهماتهم الرسالية والتربوية ولا اتخذت سبلا فعالة أخرى لتوعية الناس وارشادهم للإسلام، ولوجدوا من القيادة المبدئية الواعية سندا لهم، ولكانوا امتدادا لها بحكم وعيهم وحبهم للإسلام. غير أن القيادة المنحرفة المضللة أظهرتهم وكأنهم استثناء شاذ لحالة طبيعية عامة قبلت هذه القيادة وارتضتها بديلا طبيعيا لقيادة رسول

الله ﷺ نفسه. بعد أن روضت الناس واستدرجتهم إلى شراكها وأخضعتهم لتقبل الأمر الواقع المتمثل بوجودها وحكمها الشاذ.

إشراف الكوفة: تنكر لقيم الشرف، اضمار الغدر والخديعة

وقد رأينا كيف تراجع عن الحسين ﷺ العديد ممن كتب اليه وأبدى استعدادهم للوقوف في صفه مثل شيب بن ربعي الذي قاتل مع أمير المؤمنين ﷺ من قبل في صفين، وحجار بن أبجر وقيس بن الأشعث ويزيد بن الحارث وعزرة بن قيس وعمرو بن الحجاج الزبيدي، ومحمد بن عمير التميمي^(١) وغيرهم كثيرون. ولم يكتفوا بالتراجع عنه، حتى كانوا بعد ذلك في مقدمة من حرضوا عليه وكانوا ضمن قادة الجيش الذي قاومه وقتله فيما بعد.

ولعلمهم منذ البداية لجؤوا إلى سياسة اللعب على الحبلين وأضمرؤا الغدر والخديعة إذ رأوا أن الأمور ليست في صالح الحسين ﷺ، وإذا كان هناك فوز محتمل للحسين ﷺ في تلك المعركة، فانهم لم يريدوا أن يجرموا من المشاركة فيه، وهكذا كتبوا اليه، عازمين على انكار ذلك إذا ما كانت الغلبة ليزيد، وقد فعلوا وأنكروا رسائلهم وكانوا أشد على الحسين ﷺ وأصحابه من بعض من لم يكتبوه ولم يعدوه النصر والوقوف إلى جانبه.

على أننا رأينا أن بعض من كاتب الحسين ﷺ من أهل الكوفة قد صمدوا على موقفهم وظلوا ثابتين عليه واستشهد بعضهم أما مع مسلم كهانئ بن عروة أو مع الحسين ﷺ في الطف كعابس بن أبي شبيب الشاكري، الذي أعرب منذ البداية عن شكه بأهل الكوفة إلا أنه أبدى استعداداً لنصرة الحسين ﷺ، وبقي ثابتاً على موقفه. كما سجن بعضهم وهرب آخرون إلى أماكن أخرى.

(١) وكانوا قد كتبوا إليه ﷺ: «أما بعد فقد اخضر الجنب، وأينعت الثمار، وطمت الجمام، فان شئت فاقدم على جند لك مجند». الطبري: ج ٣ ص ٢٧٨.

الا أن موقف هانئ وجماعة من أصحابه، ممن صمدوا لابن زياد، ثم قتلوا قبل مقدم الحسين (عليه السلام) إلى كربلاء، لم يستطع أن يستر الخلل الكبير الذي شعر به مسلم عندما تخلت عنه الجماعة التي بايعته للحسين (عليه السلام)، وهي أغلبية مقاتلة رفعت السلاح معه فعلا بوجه ابن زياد، الا أنها سرعان ما تخلت عنه تحت تأثيرات (الأشراف) والرؤساء والمتنفذين المقربين للسلطة وتأثير الوعيد والارهاب والتلويح بالرشوة والوعود، وهو ما تحدثنا عنه في غضون هذه الدراسة بأسهاب.

القتل المحقق خير من الاستسلام المهين ﴿بِقَضَلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾.

ومن الملفت للنظر حقا هو التحاق بعض الأشخاص بالحسين (عليه السلام)، ممن كانوا لا يرون رأيه ولا يتخذون موقفه، غير أنهم تمتعوا بحس صاف وادراك سليم، جعلهم يعون طبيعة المهمة التي كان يقوم بها، وقد رأوا أن عليهم المشاركة بها، مهما كانت النتائج التي قد تكون معروفة ومتوقعة، وهي القتل المحقق، الا أنهم استسهلوا ذلك، كما استسهله أنصاره الأوائل الذين جاؤوا معه من المدينة. فالمهمة كبيرة، وثمرتها لا بد أن يكون كبيرا وباهظا. ومن تراهم هم، في مقابل امام الأمة وقائدها الذي أقبل في مقدمتهم مضحيا بنفسه وبكل عزيز لديه من أجل تحقيقها وتحقيق الخلاص من الطغاة والانحراف والسبات الذي بدا أنه لن ينتهي في غمرة ذلك الخروج المتسارع عن مبادئ الإسلام.

ولن نتكلم عن أولئك الاعراب الذين التحقوا به ثم تركوه بعد أن علموا أن معركته لم تكن معركة مغنم ومكاسب شخصية، وأنهم لن يحصلوا على أية غنيمة جراء التحاقهم به. وأنهم ربما يقتلون معه اذا ما رافقوه إلى نهاية الشوط، وهو ما ترجح لديهم بعد أن أكدده هو (عليه السلام) لهم في أكثر من مناسبة. وانما نشير إلى تلك الحالات النادرة التي تغلب فيها أنصاره على مخاوفهم الخاصة وجزعهم من الموت، وعدوا نصرته هو الأمر

الذي ينبغي أن يعمل مثله العالمون ويفرحوا ويستبشروا. فهو فضل من الله، بل هي رحمة اختصهم بها دون غيرهم من أبناء الأمة العاجزة المستسلمة.

عندما بلغ ابن زياد مسير الحسين عليه السلام إلى الكوفة كتب إلى عامله بالبصرة أن يراقب الطرق ويضع فيها الحراسات المسلحة. إلا أن ذلك لم يمنع يزيد بن نبيط العبدي، أحد شيوخ البصرة^(١) من التوجه إلى الكوفة للالتحاق بالحسين عليه السلام رغم تحذير بعض الناس له من ذلك.

«إني والله لو قد استوت أخفافهما بالجدد لهان علي طلب من طلبني، قال ثم خرج فتقدى في الطريق حتى انتهى إلى الحسين عليه السلام فدخل في رحله بالأبطح وبلغ الحسين مجيئه فجعل يطلبه وجاء الرجل إلى رحل الحسين فقبل له قد خرج إلى منزلك فأقبل في أثره، ولما لم يجده الحسين جلس في رحله ينتظره وجاء البصري فوجده في رحله جالسا، فقال: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾^(٢).

فسلم عليه وجلس إليه فخبره بالذي جاء له فدعا له بخير ثم أقبل معه حتى أتى فقاتل معه فقتل معه هو وابناه^(٣).

إلى موكب الشهادة: «يا ناقتي لا تدعري من زجري»

هذا رجل جاء يطلب الحسين عليه السلام لينصره هو وابناه، وكان متلهفا على رؤيته حتى أنه لم يصبر على البقاء في رحل الحسين عليه السلام وقد سمع بمقدمه فذهب للقاءه. وعاد ثانية

(١) ذكر بأسماء متعددة (يزيد بن ثبيت القيسي) (يزيد بن ثبيت العبدي) (بدر بن رقيط) (بدر ابن رقيط)، يراجع أنصار الحسين: محمد مهدي شمس الدين، الدار الإسلامية ط ٢ / ١٩٨١: ص ١١٢.

(٢) يونس ٥٨.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٢٧٨.

إلى رحله ليجد الحسين عليه السلام هناك ينتظره. وكان ذلك مدعاة لفرحه الغامر ولم يملك أن هتف مرددا قوله تعالى ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾. ولعله كان يشكر الله تعالى في كل لحظة أن اختصه بتلك الرحمة وذلك الفضل وأعطاه من القوة ما جعله يتلهف على اللقاء بالحسين عليه السلام والقتال معه والموت بين يديه.

كان من الملتحقين به «أربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم، يجنبون فرسا لنافع بن هلال يقال له الكامل ومعهم دليلهم الطرماح بن عدي على فرسه وهو يقول:

يا ناقتي لا تذعري من زجري و شمري قبل طلوع الفجر
بخير ركبان وخير سفر حتى تحلي بكريم النجر
الماجد الحر رحيب الصدر أتى به الله لخير أمر
ثمت أبقاه بقاء الدهر

فلما انتهوا إلى الحسين، أنشدوه هذه الأبيات، فقال عليه السلام: أما والله اني لأرجو أن يكون خيرا ما أراد الله بنا، قتلنا أم ظفرنا»^(١)

وقد حاول الحر أن يحبسهم أو يردهم بحجة أنهم ليسوا ممن أقبل معه الا أن الحسين عليه السلام منعه من ذلك وأصر على بقائهم معه وقال للحر: «لأمنعهم مما أ منع منه نفسي، انما هؤلاء أنصاري وأعواني. هم أصحابي، وهم بمنزلة من جاء معي، فان تمت على ما كانت بيني وبينك والا ناجزتك. فكف عنهم الحر»^(٢)

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٨.

التحقوا به رغم علمهم أن الموقف لم يكن لصالحه: «أما أشرف الناس فهم إلب واحد عليك»

كان هؤلاء الرجال متلهفين على الالتحاق بالحسين ﷺ رغم أنهم كانوا يعلمون أن الموقف العسكري ليس لصالحه وأن الكوفة قد انقلبت عليه. بل انهم هم الذين حملوا اليه خبر مقتل رسوله اليهم. سألهم الحسين ﷺ: «أخبروني خبر الناس وراءكم. فقال له مجمع بن عبد الله العائدي: أما أشرف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم يستمال ودهم ويستخلص به نصيحتهم فهم إلب واحد عليك، وأما سائر الناس بعد فإن أفئدتهم تهوي إليك وسيوفهم غدا مشهورة عليك.

قال: أخبروني، فهل لكم برسولي اليكم؟ قالوا: من هو؟

قال: قيس بن مسهر الصيدائي، فقالوا: نعم أخذه الحصين بن تميم فبعث به إلى ابن زياد فأمره ابن زياد أن يلعنك ويلعن أباك فصلى عليك وعلى أبيك ولعن ابن زياد وأباه ودعا إلى نصرتك وأخبرهم بقدمك فأمر به ابن زياد فألقي من طمار القصر. ففرقت عينا حسين ﷺ ولم يملك دمه، ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾^(١) اللهم اجعل لنا ولهم الجنة نزلًا، وأجمع بيننا وبينهم في مستقر من رحمتك، ورغائب مذخور ثوابك»^(٢).

ان هؤلاء لم يلتحقوا به بعد أن علموا أن الموقف في الكوفة كان لصالحه. بل ان الأمر كان على العكس من ذلك تماما، وأنهم ربما سيقتلون معه. وان ذلك بدا هو الأمر الوحيد المحتمل في ظل تلك الظروف.

(١) الأحزاب ٢٣.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٨.

قضية الحسين رابحة في الحالين، النصر أو الشهادة

فقد جاؤوا إذاً لينصروا القضية التي رفعها الحسين عليه السلام، ولم تبد لهم قضية خاسرة في أي وقت من الأوقات. لم يأتوا لضمان حياته وبقائه والدفاع عنه شخصياً. ولم يكن مجيئهم بدافع من عاطفة مجردة أو عصبية أو قرابة. جاؤوا لينصروا ممثل الإسلام وممثل رسول الله عليه السلام وابنه، وينصروا الإسلام من خلاله، وكانوا على يقين أن القوة الأموية العاشمة لن تقف منهم موقف المتسامح المتساهل، وإنما ستعتمد إلى استئصالهم وبادتهم وقتلهم أشنع قتلة والتمثيل بجثثهم.

ولنا أن نتصور هذا المشهد، جماعة قليلة تتألف من أربعة أشخاص جاءت من مقر الجمع المعادي للحسين عليه السلام المهياً لقتاله، تلتحق بجماعة صغيرة أخرى - أكبر منها نسبياً، وهي تعلم نتيجة سيرها ومسعاها، بل وتغذ السير رغم كل المخاطر لتلحق بالحسين وركبه، وهي تعلم أن الجميع سيقتلون في النهاية.

لا شك أن هذا أمر يبعث على الكثير من النظر والتأمل والتفكير بتلك النفوس الكبيرة القوية المصممة العازمة المتيقنة التي سارت إلى الموت بجرأة وثبات. وقد قتلوا بين يدي الحسين عليه السلام بعد ذلك في معركة الطف في كربلاء.

انحازوا للحسين في صبيحة المعركة «يا رب اني للحسين ناصر»

وقبيل بدء المعركة، بل في صبيحتها، وكان جيش ابن زياد يستعد لتوجيه ضرباته القاتلة للحسين وأصحابه عليهم السلام أدرك جماعة من أفراد هذا الجيش نفسه بعد أن كانوا من قادته ومقاتليه. أن عليهم، رغم كل ما سيلقونه - وهو الموت المحتم - أن يلتحقوا بالحسين عليه السلام ليموتوا معه.

التحق به الحر بن يزيد الرياحي، وستحدث عن أمره بالتفصيل بعون الله، والتحق

به يزيد بن المهاصر، وهو أبو الشعثاء الكندي. وكان ممن خرج مع عمر بن سعد إلى الحسين ثم مال اليه فقاتل معه حتى قتل.

لقد «جثا على ركبتيه بين يدي الحسين عليه السلام فرمى بمائة سهم، ما سقط منها خمسة أسهم، وكان رامياً، فكان كلما رمى قال: أنا ابن همدلة، فرسان العرجلة، ويقول حسين: اللهم سد رميته، واجعل ثوابه الجنة. فلما رمى بها قام فقال: ما سقط منها الا خمسة أسهم، ولقد تبين لي أي قد قتلت خمسة نفر، وكان في أول من قتل. وكان رجزه يومئذ:

أنا يزيد وأبي مهاصر أشجع من ليث بغيل خادر
يا رب اني للحسين ناصر ولا بن سعد تارك وهاجر^(١).

«و كان مع عمر بن سعد ثلاثون رجلا من أهل الكوفة. فتحولوا مع الحسين فقاتلوا»^(٢). ومهما يكن من أمر هذا الخبر الذي ورد في بعض الكتب التاريخية، فانه يدل على ان المعركة قد تتحول لصالح الحسين وان الذين التحقوا به اكبر بكثير مما ذكر في الكتب وهذا يبرر قيام ابن زياد باستنفار الاعداد الكبيرة من الجند ورؤساء القبائل، ولعل هناك تعتياً اعلامياً حول عدد الملتحقين بالحسين اوريد منه تهوين امر ثورته وانه لم يلتحق بها الا اعداد محدودة لعدم قناعة الآخرين بها، وهذا يفسر فرح يزيد وسروره بسماع اخبار (انتصار) جيشه وتلفه على تلك الاخبار، وقد يكون مبعث ذلك قلقه من ان تميل الكفة في المعركة لغير صالحه، وهذا امر يستدعي المزيد من البحث والتدقيق.

وربما حاول الكثيرون الالتحاق بالحسين عليه السلام فعلا، الا أنهم منعوا، فجرى قتال بينهم وبين من حاولوا أن يمنعوهم، وربما قتلوا وربما أخذتهم قبائلهم المشاركة في قتال الحسين عليه السلام ودفنتهم دون أن تقطع رؤوسهم.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٠.

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ١٢١، البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٧٠.

على أن ذلك يدل على أن فئة كبيرة من الجيش ربما كانت ستتحاز إلى جانب الحسين عليه السلام، لو تركت له ولأصحابه حرية مخاطبتهم واقناعهم. كما حاولوا ذلك فعلاً.. ولو لم يلغم ابن زياد جيش ابن سعد بجماعة كبيرة من أعوانه وعيونه وجواسيسه ليردوهم عن ذلك، مثل شمر والحصين بن تميم وعمرو بن الحجاج وغيرهم من أشراف الكوفة كما نرى ذلك من خلال الاطلاع على تفاصيل الواقعة.

شخصيات ومواقف

غير أننا سنستعرض هنا مواقف ثلاث شخصيات التحقت بالحسين عليه السلام ولم تكن قدمت معه منذ البداية، وهي جديرة أن تلاحظ وتدرس بعناية كنماذج ملفتة للنظر لا بد من التفكير بشأنها عند دراسة هذه الثورة الكبيرة وشخصياتها.

وهذه الشخصيات الثلاث هي: زهير بن القين البجلي، والحر بن يزيد الرياحي، وعبد الله بن عمير الكلبي.

١. زهير بن القين البجلي

كان زهير بن القين حاجاً، وقد عاد من مكة إلى العراق مع جماعة من أصحابه وأهل بيته وكانوا يسايرون الحسين عليه السلام، إلا أنه لم يكن شيء أبغض إليهم من أن يسايروه في منزل «فاذا سار الحسين، تخلف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين تقدم زهير»^(١) قال السدي الفزارى، راوية هذا الخبر، وكان مع زهير: «حتى نزلنا يومئذ في منزل لم نجد بدا من أن ننازله فيه فنزل الحسين في جانب ونزلنا في جانب فبينما نحن جلوس نتغدى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين حتى سلم ثم دخل فقال يا زهير بن القين إن أبا عبد الله الحسين بن علي بعثني إليك لتأتيه قال فطرح كل إنسان ما في يده حتى كأننا

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٢، والكمال في التاريخ: ج ٣ ص ٢٧٨ وروضة الواعظين، ص ٢٧٨ والأنساب للبلاذري: ج ٣ ص ١٦٨ والخوارزمي: ج ١ ف ١١ والارشاد: ص ٢٠٥.

على رؤوسنا الطير»^(١).

انتبه في الأيام الأخيرة، فكان من أشد المناصرين

تذكر لوصايا سابقة

كان زهير يكره لقاء الحسين عليه السلام، وبالتأكيد فانه كان عالماً بالمهمة التي كان يسعى إليها منذ ان كان في مكة. ولم يكن مقتنعاً بها أو بصحة موقف الحسين عليه السلام، وربما اعتقد أنه عليه السلام كان بسبيل قضية خاسرة. وهكذا فان هواه لم يكن معه. وقد تباطأ وتردد في الاستجابة لدعوة الحسين عليه السلام، الا أن امرأته - دلم بنت عمرو - ويبدو أنها كانت امرأة صالحة حكيمة، حثته على الذهاب والاستماع لما يقوله الامام، قائلة: «أبيعت اليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه. سبحان الله، لو أتيتته فسمعت من كلامه.

فأتاه زهير - على كره - فما لبث أن جاء مستبشراً قد أشرق وجهه، فأمر بفسطاطه ورحله وثقله، فحول إلى جهة الحسين عليه السلام، ثم قال لامرأته: الحقي بأهلك، فاني لا أحب أن يصيبك من سببي الا خير.

ثم قال لأصحابه: من أحب منكم أن يتبعني، والا فهو آخر العهد مني. سأحدثكم بحديث: غزونا بطنجر، ففتح الله علينا، وأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان عليه السلام^(٢): أفرحتم بما فتح الله عليكم، وأصبتم من الغنائم؟ فقلنا: نعم.

فقال لنا: اذا أدركتم شباب آل محمد، فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم منكم بما

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٢.

(٢) وهو على الأغلب سلمان الفارسي عليه السلام إذ إنه جدير لمكانته من رسول الله صلى الله عليه وآله وموقعه من أن يروي مثل هذه الأخبار عن الرسول صلى الله عليه وآله مخبراً عما سيجري لشباب آل محمد الذين يقودهم الحسين. وقد ذكره الطبري بـ (سلمان الباهلي) وربما نسبته إلى الباهلي وهو سلمان بن ربيعة قائد الحملة التي غزت بلبخر وشارك فيها سلمان.

أصبتكم من الغنائم. فأما أنا فاني استودعكم الله.

ثم والله ما زال في أول القوم حتى قتل»^(١).

لا نعلم تفاصيل أكثر من هذه التي وردت في الرواية، غير أننا نعلم أنه شارك في مغاز للمسلمين سابقة. ولعل حديث سلمان في بلبخر - وهي مدينة في الخزر فتحت في زمن عثمان على يد سلمان بن ربيعة الباهلي وكان سلمان الفارسي ضمن الجيش - كان ماثلا في ذهن زهير منذ ذلك الحين. ولم يكن يحتاج أحدا لكي يذكره به. غير أنه ربما غابت عن ذهنه صورة شباب آل محمد. وربما شوهدت هذه الصورة أو زورت وحاولت الدعاية الأموية، المضللة إبعادها عن أذهان المسلمين وعيونهم ووضعت بدلا عنها صور آل أبي سفيان باعتبارهم هم آل الرسول ﷺ وأشد المقربين إليه.

ثم من هم الذين سيقا تلهم شباب آل محمد...؟ أليسوا هم (ولاة الأمور) المزيفين الذين وضع نظام الانحراف بشأنهم أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ أظهرت وطاعتهم كأنها طاعة الله ورسوله ﷺ وأن مخالفتهم وعصيانهم عصيان الله ورسوله ﷺ أيضا..؟

وأولت آيات من القرآن الكريم لتنسجم معانيها مع أهدافهم وأغراضهم، ولكي يجعلوا الأمة على امتداد الأزمان خاضعة مستسلمة للطغاة والفراعنة ودعاة الشرك والانحراف؟

ان المرجح أن زهيرا عندما قابل الامام الحسين عليه السلام واستمع اليه يتحدث عن طبيعة المهمة الكبيرة التي كان بسبيله لانجازها مع آل بيته وأصحابه، وما ينتظرهم عند الله اذا ما نجحوا فيها وصمدوا إلى النهاية، أدرك أن من كان معنيا برواية سلمان عن

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٢.

الرسول ﷺ، انما هم هؤلاء الشباب الذي يسرون خلف امامهم وقائدهم الحسين (ع) سيد شباب أهل الجنة.

وان مرافقة هؤلاء في مهمتهم هو الأمر الذي ينبغي أن يفرح به حقا. مادام طريقهم يبدو أقرب طريق للجنة مع سيد شباب أهل الجنة.

انحياز للحق... لا للانحراف

كان حوار وحديثه مع الامام (ع) قد جعله ينحاز اليه تماما بعد أن أصبح مقتنعا بشكل تام بأهداف الثورة. وقد صمم على المضي معه إلى النهاية دون تردد.

كان انحياز زهير بن القين إلى جانب الامام (ع)، بعد أن اقتنع بذلك، وبعد أن كان لا يميل اليه ولا لآل البيت عموما. حجة على أعداء آل البيت وعلى أولئك الذين امتشقوا السيوف لضرب بقيتهم. وكان حوارهم معهم، لو أنه تم في جو حر مفتوح قد أدى إلى نتيجة ايجابية كبيرة اذ ربما استطاع أن يجعل العديدين من أفراد هذا الجيش يغيرون مواقفهم وينحازون اليه أيضا.

وهذا هو السبب الذي جعل أعوان الدولة يحسبون حسابا لمثل هذه المواقف الطارئة ومنع التحاق المزيد بالامام الحسين (ع) ويحاولون منعه من الحديث ومقاطعته والتشويش عليه والرد عليه وعلى أصحاب الحسين الآخرين بالشتيمة والسباب والقتل والاستئصال حتى قبل ان تبدأ المعركة.

وقد رأينا أشخاصا بعينهم يتصدون لمهمة التشويش والشتم هذه، اضافة لمهمتي التحريض والتجسس أمثال شمر بن ذي الجوشن وكثير بن عبد الله الشعبي وابن حوزة وابن أبي الحصين الأزدي وغيرهم.

لقد اقتنع زهير بمهمة الحسين (ع). ولم يكن لقناعته حدود، ومضى في مهمته دون

تردد أو خوف، يقنّع الآخرين بالانضمام اليه، ويرفع السيف بوجه من كان يريد أن ينال الامام عليه السلام بالشر والأذى.

وفي كربلاء، حيث حط الحسين عليه السلام رحاله الأخير، جرى لقاء حافل بينه وبين أصحابه. وكان لزهير دور واضح في هذا اللقاء الذي حاول فيه الامام عليه السلام بيان السبب من ثورته وقدمه إلى العراق، بعد أن أصبح النزال قريباً، والمواجهة المسلحة أمراً لا بد منه.

حوار ومناجاة «ألا ترون إلى الحق لا يعمل به ولا الباطل لا يتناهى عنه»

كان حديث الحسين عليه السلام مع أصحابه يجري في جو من العلاقة الحميمة الصادقة. وكان يمتاز بذلك الوضوح الذي لا يرى الا عند ذوي البصيرة والاحساس القوي والشعور بالمسؤولية. وكانت كلماته همماً كبيراً يبثه أصحابه وأنصاره، وقد أصبحوا قريين من لحظة المواجهة النهائية، ولم يكن أحد أقدر منهم على فهم تلك الكلمات واستيعابها. قال لهم: بعد أن حمد الله وأثنى عليه.

«أما بعد، فانه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وان الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها، واستمرت جذاء، ولم يبق منها الا صباة كصباة الاناء، وخسيس عيش كالمرعى الويل. ألا ترون أن الحق لا يعمل به، والى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربه محققاً، فاني لا أرى الموت الا سعادة، والحياة مع الظالمين الا برماً»^(١).

وما دام الحال غير الحال والدنيا قد تغيرت. ولم تعد هي الدنيا التي أرادها رسول

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٧، وابن عساكر: الجزء الخاص بريحانة الرسول عليه السلام: ص ٢١٤، وذخائر العقبى: محب الدين الطبري: ص ١٤٩، والخوارزمي: ج ٢ ص ٥ واللهوف: ص ٣٣، وتاريخ الإسلام للذهبي: ج ٢ ص ٣٤٥، وحلية الأولياء: لأبي نعيم: ج ٢ ص ٣٩، ومجمع الزوائد للهيتمي: ج ٩ ص ١٩٢، والعقد الفريد: ج ٤ ص ٣٨٠، والاتحاف: ج ٤ ص ٣٨٠.

الله ﷺ للناس، وما دام الحق لا يعمل به، والباطل لا يتناهى عنه في ظل الظالمين والمنحرفين والطغاة فما مبرر بقاء المؤمن في ظل هؤلاء الظالمين، وكيف يسكت؟

أليحافظ على سنوات من العمر يراها جديرة بأن يسكت عن كل شيء حتى وان عاش ذليلاً في ظل فرعون متجبر؟ ألا يكون الموت حينئذ سعادة حقاً؟ الموت ونحن نواجه الظلم ونتحده، لا الموت ونحن نتحاشاه ونهرب منه.

كلمات الحسين ﷺ المباشرة الواضحة والقليلة كانت كافية جداً، فلم يكن أنصاره بحاجة للمزيد منها لكي يستمروا ثابتين على موقفهم. فهم قد فهموا كل شيء منذ البداية وعزموا أمرهم واتخذوا قرارهم.

لم يشأ زهير إلا أن يعقب على كلمة الامام القصيرة بكلمة كانت أقصر منها، إلا أنها كانت مشحونة أيضاً بعاطفة وشعور جيش اتجاه الإسلام والأمة والامام. عاطفة وشعور لم يتاحا إلا للرساليين الذين تهمهم مصالحها وتؤذيهم آلامها ومتاعبها.

زهير، لسان الأنصار

«والله لو كانت الدنيا لنا باقية.. لأثرنا الخروج معك على الإقامة فيها»

استأذن زهير أصحابه في الرد على الحسين ﷺ. وعندما طلبوا منه أن يكون هو المتكلم الأول، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«قد سمعنا يا بن رسول الله مقاتلك. والله لو كانت الدنيا لنا باقية، وكنا فيها مخلصين، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك، لأثرنا الخروج معك على الإقامة فيها.. فدعا له الحسين ثم قال له خيراً»^(١).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٠.

وقد فتح بكلمته أبواب الحديث للأنصار الآخرين كنافع بن هلال الجملي، وبرير ابن خضير وغيرهما حيث تكلموا بمثل هذا ونحوه.

وقد أكد زهير - بكلامه هذا ثبات أصحاب الحسين وصمودهم بوجه عدوهم وعدو الأمة المسلمة، وأراد أن يرى الجميع، أية فئة كانت تناصر الحسين وتسير معه وتتابع خطواته حتى النهاية.

ومع أنه لم يكن بحاجة لتشجيع أصحابه، فقد كانت دوافعهم لنصرة الحسين عليه السلام والدفاع عن الإسلام أقوى من أن تحتاج لكلمات تقوي عزائمهم وتشجذ همهم، إلا أنه كان يريد أن يبين للأمة كلها، وأعدائها على وجه الخصوص أن الامام الحسين عليه السلام وأنصاره لم يكونوا بسبيلهم لخوض معركة خاسرة، وأن النصر لا بد أن يكون حليفهم في كل الأحوال؛ لأنهم قاموا بما ينبغي القيام به حقاً وأدوا واجبهم ولم يتكاسلوا ويجبنوا عن نصرته الإسلام. ولا يهم بعد ذلك أن يقتلوا أو يبقوا أحياء، فمقياس النصر في الإسلام القدرة على الثبات والبقاء على خطه المستقيم وعدم الالتفات إلى العوائق والحواجز التي يضعها أعداء الإسلام في طريقهم.

تلهف على الشهادة

كان زهير يبدو حريصاً ومتلهفاً على قتال أعداء الحسين عليه السلام والشهادة بين يديه. وقد اقترح عليه أن يقتلوا الحر وأصحابه ما دام عددهم لم يصل إلى ذلك الذي أعده ابن زياد لمواجهتهم. وقد قال للحسين: «يا بن رسول الله، ان قتال هؤلاء أهون من قتال من يأتينا من بعدهم، فلعمري ليأتينا من بعد من ترى ما لا قبل لنا به»^(١) إلا أن الامام عليه السلام رد عليه قائلاً: «ما كنت لأبدأهم بالقتال»^(٢).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٠.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٠.

كان زهير يرى أنهم يستطيعون التغلب على ألف من المقاتلة الفرسان الذين يؤلفون جيش الحر، مع أن عددهم لم يكن يتجاوز السبعين الا بقليل. وكان حماسه بمستوى المهمة التي مضى اليها مع الحسين وأصحاب الحسين عليه السلام.

ولا بد أن أسباب رفض الحسين عليه السلام بدء القتال كانت وجيهة ومهمة اضافة لما فيها من أمر مبدئي دعا اليه الإسلام وقد أراد الحسين عليه السلام الحفاظ عليه والتمسك به.

فلو أن الحسين عليه السلام تغلب على الحر وأصحابه فان ذلك لن يكون دون ثمن. ولا بد أن معظم أنصاره وآل بيته سيقتلون في تلك المعركة، وستواجه القلة الباقية المنهكة جيشا كبيرا سيقال له: ان الحسين اعتدى على أصحابكم وبدأهم بالقتال وكان ينبغي عليه أن يتفاوض معهم ويفسح المجال للتفاهم والحوار. وستظهره أجهزة اعلام الدولة وأبواقها بمظهر المعتدي الذي جنى عاقبة عدوانه.

ولو أن الحسين عليه السلام وأصحابه قتلوا كلهم في تلك المعركة قبل أن يواجهوا أهل الكوفة الذين ألفوا جيش ابن زياد، وقبل أن تصل أخبار مسيرتهم المظفرة إلى كل الأسماع وتطلع عليها الأمة كلها، فان المهمة ستظل مبتورة ولن تسمع الأمة السبب الحقيقي الذي دعا الحسين عليه السلام وأصحابه لمواجهة الدولة الظالمة، ولضاعت أخبار المعركة كلها.

وربما حاولت دولة الظلم الأموية اليزيدية التعقيم على المهمة كلها، وربما ألقت اللوم على الحر بن يزيد وحده وحملته مسؤولية قتل الحسين عليه السلام ولقالت أنه لم يؤمر بذلك وأنه تصرف بشكل كفيافي وان عمله كان طائشا، ولتنصل الجميع من الجريمة بما فيهم يزيد وابن زياد وابن سعد.

لا شك أن الدوافع التي جعلت الحسين عليه السلام يرفض منازلته الحر عديدة. ولعل ما

ذكرناه هنا وفي الفصل السابق قد تكون من جملتها.

عشية المعركة «ذكرت به رسول الله ﷺ فرأيت أن أنصره وأن أكون في حزبه»

وعندما حاول ابن سعد مبادأة الحسين ﷺ بالقتال عصر التاسع من المحرم، بناء على الأوامر الصارمة التي تلقاها من ابن زياد، حاول الحسين ﷺ تأخيرهم إلى غدوه. ودفعهم عنه تلك العشية. وقد أرسل أخاه العباس ﷺ في نحو من عشرين فارساً فيهم زهير بن القين وحبیب بن مظاهر لمفاوضة ابن سعد وأعوانه قائلاً له: «ارجع اليهم، فإن استطعت أن تؤخرهم إلى غدوه، وتدفعهم عنا هذه العشية، لعلنا نصلي لربنا وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أي أحب الصلاة وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار»^(١).

وكان العباس ﷺ قد سألهم في بداية اللقاء عن الدوافع التي دعتهم لذلك الاستعداد المفاجئ للقتال، وماذا يريدون من ذلك، وعندما أخبروه أنهم تلقوا أوامر ابن زياد ليعرضوا على الامام وأصحابه النزول على حكمه أو يناجزوهم، رجع العباس ﷺ بالخبر إلى الحسين ﷺ، فأوصاه وصيته التي ذكرناها الآن.

وفي الفترة التي استغرقها ذهاب العباس وإيابه، حاول حبیب بن مظاهر وزهير استغلال الوقت لاقتناع ابن سعد وأعوانه بالتخلي عن فكرة مقاتلة الحسين ﷺ «فقال حبیب بن مظاهر لزهير بن القين: كلم القوم ان شئت، وان شئت كلمتهم، فقال له زهير: أنت بدأت بهذا، فكن أنت تكلمهم»^(٢) وكان ذلك أدبا جما من كليهما.. من حبیب وقد علم مكانة زهير وحرصه على نصره الحسين ﷺ فأراد أن يكون هو البادئ بالكلام،

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥، والبلاذري: ج ٣ ص ١٨٥، والنويري: ج ٣ ص ٤٣٣ واللهوف: ص ٣٨، وابن شهر آشوب: ج ٤ ص ٩٨ وأعيان الشيعة: ج ٤ ق ١ ص ٢٠٨، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٥.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤، والكامل في التاريخ حوادث سنة ٦١، والبلاذري: ج ٣ ص ١٨٤.

ومن زهير وقد علم منزلة حبيب أيضا. ولأنه صاحب الفكرة، فانه أراد أن يتيح له فرصة الحديث قبل الجميع. «فقال لهم حبيب بن مظاهر: أما والله، لبئس القوم عند الله غدا قوم يقدمون عليه قد قتلوا ذرية نبيه ﷺ، وعترته وأهل بيته ﷺ وعباد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار، والذاكرين الله كثيرا»^(١).

وقد حاول أحد اعوان ابن زياد المرافقين لعمر بن سعد مقاطعة حبيب بقول أراد فيه افحامه ولكي لا يتيح له فرصة الاسترسال بخطابه المؤثر والمنطقي، فقال له: «انك لتزكي نفسك ما استطعت»^(٢).

وهنا انبرى له زهير بخطاب مقنع آخر، ولكي يفوت عليه فرصة التفوه بكلمات مضللة أخرى قائلا له: «يا عزرة، إن الله قد زكاها وهداها. فاتق الله يا عزرة، فاني لك من الناصحين، أنشدك الله يا عزرة أن لا تكون ممن يعين الضلال على قتل النفوس الزكية»^(٣).

لم يخف زهير على نفسه الموت، وانما أراد تجنب أعدائه أمر التورط بسفك دماء آل البيت. وقد اندفع بكل ما يملأ نفسه من ايمان وشعور بالمسؤولية ليردهم عن السير وراء الضلال لتنفيذ مآربهم وجرائمهم وقتل النفوس الزكية، نفوس الحسين ﷺ وآله وأصحابه.

وكان حرياً بهذا الكلام أن يقنع عزرة ليتراجع عن موقفه، فلا يلعب دور المحرض على الحسين وأصحابه عن يقين ووعي بما يفعل الا أن عزرة بدا أنه يريد تسجيل موقف يزيد من رصيده لدى أسياده ويرفع من قيمته في نظرهم ويظهره بمظهر المنحاز القانع

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤، والكمال في التاريخ حوادث سنة ٦١، والبلاذري: ج ٣ ص ١٨٤.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤، والكمال في التاريخ حوادث سنة ٦١، والبلاذري: ج ٣ ص ١٨٤.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤، والكمال في التاريخ حوادث سنة ٦١، والبلاذري: ج ٣ ص ١٨٤.

بكل ما يفعله أولئك الأسياد.

وقد رد على زهير - يريد افحامه أيضا بقوله: «يا زهير، ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت، انما كنت عثمانيا»^(١) وكأنها رأى أن رده هذا كان كفيلا باسكات زهير، وأنه سيفوت عليه الفرصة لاقتناع الآخرين بما اقتنع به هو، ولم يحسب أنه قد أدان نفسه بجوابه ذاك، وأعطى زهيراً فرصة جديدة، لالقاء حجة جديدة دامغة لن يستطيع لها رداً أو دفعا.

قال له زهير: «أفلم تستدل بموقفي هذا أي منهم، أما والله ما كتبت اليه كتاباً قط، ولا أرسلت اليه رسولا قط، ولا وعدته نصرتي قط. ولكن الطريق جمع بيني وبينه. فلما رأيته ذكرت به رسول الله ﷺ ومكانه منه، وعرفت ما يقدم عليه من عدوه وحزبكم، فرأيت أن أنصره، وأن أكون في حزبه، وأن أجعل نفسي دون نفسه، حفظاً لما ضيعتم من حق الله وحق رسوله ﷺ»^(٢).

«كنت عثمانياً فأصبحت حسينياً»

كان كلام زهير ضربة موفقة، فاذا لم يكن - من قبل - من شيعة أهل هذا البيت، وكان عثمانياً، وأصبح الآن من شيعتهم وأول المدافعين عنهم والباذلين نفوسهم لحمايتهم ودفع الأذى عنهم، فلا بد أن أمراً ما دعاه لذلك. فهو لم يكن ساذجاً وجاهلاً للدرجة التي تجعله يتأثر بسرعة بما يقال له وما يعرض عليه من آراء وأفكار. وانما كان يتمتع بوعي استثنائي أتاح له مشاهدة الموقف على حقيقته وتقويمه، ثم الوقوف منه موقفاً مناسباً.

(١) المصادر السابقة.

(٢) المصادر السابقة.

فهو لم يختار جانب الحسين عليه السلام لأنه كان يتمتع بقوة تفوق قوة عدوه وتتيح له الغلبة عليه، وإنما اختاره رغم المخاطر المحتملة، بل المؤكدة؛ لأنه الجانب الذي كان ينبغي له أن يختاره، مع أنه لم يكاثبه من قبل أو يدعوه للحضور إلى الكوفة. وكانت اللحظات القصيرة التي جمعت بينهما في الطريق كافية لكي يدرك أنه الممثل الحقيقي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه كان يتصدى لأكبر مهمة من شأنها أن تنقذ الأمة من استسلامها وخدرها ونومها، وأن على كل من يدعي انتماؤه للإسلام وحبه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقف معه وينصره. ويكون من حزبه، حزب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحزب المسلمين جميعاً، لا حزب دولة الانحراف والظلم الفساد، وأن يدافع عنه ويجعل نفسه دون نفسه. ولئن لم يدركوا هم ذلك وتجاهلوه، فقد أدركه هو ووعاه وتصرف على أساسه. وحافظ على ما ضيعوه من فرصة كبيرة للوقوف إلى جانب الحسين عليه السلام لانجاز تلك المهمة الكبيرة. مهمة انقاذ الأمة من الانهيار والسقوط النهائي.

الليلة الأخيرة (.. لوددت أني قتلت ثم نشرت. حتى أقتل فيك هكذا ألف مرة. وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك))

وفي تلك الليلة نفسها، ليلة المنازلة الكبيرة، كان للحسين عليه السلام موقف آخر مع أصحابه، موقف مشحون بعاطفة الإسلام النبيلة وصدق المبادئ العظيمة. وكأنه كان يريد فيه تسجيل ثبات أصحابه على الحق وصمودهم بوجه الباطل، لتظل صورة ذلك اللقاء ماثلة في الأذهان إلى الأبد، وتظل شاهدة على عجز وتخاذل كل أولئك الذين أحنوا رؤوسهم للظلم والانحراف ولم يجدوا في أنفسهم الجرأة على مواجهته ومقاومته. جمعهم مرة أخرى قرب المساء وقال لهم: «أثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء. اللهم اني أحمك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين.

أما بعد، فاني لا أعلم أصحابا أولى ولا خيرا من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعا خيرا. ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا. الا وإني قد رأيت لكم، فانطلقوا جميعا في حل، ليس عليكم مني ذمام، هذا ليل قد غشيكم، فاتخذوه جملا. ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي. تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فان القوم انما يطلبوني، ولو قد أصابوني لخوا عن طلب غيري»^(١).

كانوا إلى تلك اللحظة قد أدوا دورهم وأثبتوا ولاءهم للحسين عليه السلام مثل الإسلام الحقيقي وقائد الأمة الشرعي. وقد شهد هو نفسه لهم بذلك ووصفهم بأنهم خيرة أبناء الأمة. ولم يكن من المتوقع أن يتخلوا عنه وينهوا مسيرتهم بذلك الشكل المفجع.

غير أن الامام عليه السلام أراد وضعهم امام الموقف النهائي الصعب، حيث سيواجهون الموت جميعا. فالاستعدادات الأخيرة لاستقباله لابد أن تبدأ منذ الآن ان لم تكن قد بدأت فعلا. والعزيمة الصادقة لابد أن تواجه أفراد الجيش المتعطش لقتالهم، وتتغلب على مخاوف وخور أفراد الذين استسلموا لابن زياد فاندفعوا لتنفيذ جرائمه والتصدي لقائد الأمة الحقيقي وقتله وقتل من يلتف حوله ويشاركه مسيرته. أما هم فكانوا مستعدين منذ البداية لاستقبال كل الاحتمالات ومواجهة كل المخاطر. ولم يلمس من أحدهم أي خوف أو تردد أو استعداد للتراجع. وهكذا جاءت أجوبتهم للامام عليه السلام حاسمة وواضحة.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥، وابن طاووس: ص ٣٨، الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٥ والخوازمي: ١١، والارشاد: ٢١٠، وأمالى الصدوق: م ٣٥ وجمهرة خطب العرب: ج ٢ ص ٤١، والمجلسي: ج ٤٤ ص ٤٩٢ وابن شهر آشوب: ج ٤ ص ٩٩ وأنساب الأشراف: ج ٣ ص ١٨٥ والنويري: ج ٢٠ ص ٤٣٥ مع بعض الاختلافات البسيطة.

«ولم نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبدا»^(١).

وفي هذا الموقف برز جواب زهير بن القين واضحا معبرا، قال:

«والله يا بن رسول الله لوددت أني قتلت، ثم نشرت، حتى أقتل فيك هكذا ألف مرة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من اخوانك وولدك وأهل بيتك»^(٢) وأضاف بذلك موقفا مشرفا آخر إلى سلسلة مواقفه المشرفة العديدة المتلاحقة.

وتتابعت اثر ذلك أجوبة أصحاب الحسين بكلام واحد ووجه واحد، فقالوا:
«والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بأيدينا، ونحورنا وجباهنا، فاذا نحن قتلنا بين يديك، نكون قد وفينا لربنا وقضينا ما علينا، فجزاهم الحسين خيرا»^(٣).

وقد قتلوا بعد ذلك بين يديه ووفوا لربهم وقضوا ما عليهم.

وفي تلك الليلة التي قتلوا في صبيحتها، بات الحسين وأصحابه وأهل بيته، ولهم دوي كدوي النحل، ما بين قائم وقاعد وراكع وساجد^(٤).

زهير، قائد الميمنة «نذار لكم من عذاب الله، نذار»

وعندما عبأ الحسين عليه السلام أصحابه للقتال كان زهير على ميمنة أصحابه.. وقبل بدء المعركة ألقى الحسين عليه السلام ثلاث خطب استعرض فيها أوضاع أهل الكوفة وعموم المسلمين في ظل نظام الانحراف، وعرفهم بنسبه وطبيعة موقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن

(١) المصادر السابقة.

(٢) المصادر السابقة.

(٣) المصادر السابقة.

(٤) اللهوف لابن طاووس: ص ٤٠.

الإسلام وطبيعة المهمة التي كان يتصدى لانجازها. وقد جرت محاولات عديدة من ابن سعد وشمر لمقاطعته والتحريض على عدم الاستماع اليه ومطالبته بالنزول على حكم ابن زياد ثم بدأ الجيش بالزحف عليه.

وقبيل الالتحام خرج زهير بن القين على فرس له ذنوب، شاك السلاح، وألقى خطبة في الجيش الزاحف فقال:

«يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذار. ان حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن اخوه، وعلى دين واحد وملة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منا أهل، فاذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا امة وأنتم أمة.

ان الله قد ابتلانا واياكم بذرية نبيه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون. انا ندعوكم إلى نصرهم، وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد، فانكم لا تدركون منهما الا بسوء عمر سلطانها كله، ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أمثالكم وقراءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهانئ بن عروة وأشباهه»^(١).

حاول تخليصهم من ورطة الوقوف إلى جانب الظالم

كان زهير يحاول لفت أنظارهم إلى الموقف الخطير الذي وضعوا أنفسهم فيه، وأنهم أمام اختبار حقيقي يشبتون فيه انتماؤهم للإسلام حقا اذا ما التفوا حول الحسين (ع) ممثلهم وقائدهم الشرعي وتخلوا عن دولة الظلم الأموية. وكانت تلك اللحظات

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٩ - ٣٢٠، الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٨ وجمهرة خطب العرب: ج ٢ ص ٤٧ - ٤٨، ونهاية الارب للنويري: ج ٢ ص ٤٤٤.

القصار ثمينة وعزيزة جدا بنظر زهير ففيها وحدها سيتحدد مصير الجميع، اما إلى الجنة وأما إلى الجحيم.

لقد استعرض زهير بخطبته جوانب الموقف كله. وأندر أهل الكوفة وحذرهم مغبة الاستمرار في الحرب الظالمة التي شنها ممثل دولة الظلم، ابن زياد، على الحسين عليه السلام ممثل وقائد دولة الإسلام الشرعية. وكان حريصا على أن يجعلهم يدركون أن هذه هي فرصتهم الأخيرة للتخلص من دولة الظلم والالتحاق بممثل الرسول عليه السلام وابنه وقائد الأمة الحقيقي. كان يرى نفسه قويا لذلك فانه لم يخش من مواجهتهم وتوبيخهم وحثهم على مراجعة أنفسهم مراجعة سريعة عاجلة. وأعلمهم أن نتيجة وقوفهم من الظلمة ستكون تمادي هؤلاء الظلمة في ظلمهم، وسيكونون هم أنفسهم الضحية المقبلة. وهي نتيجة حتمية وسنة من سنن التاريخ. فليس للظالم قانون أو مبدأ يردعه عن ظلم أي انسان، حتى ولو كان خادمه وتابعه بالأمس، وحتى لو كان قد أشهر السلاح وحارب معه أعداءه، فقانون الظالم مصالحه وامتيازاته.

وقد ذكرهم بما فعل الظالمون بأناس منهم، حاولوا انقاذهم وتفانوا في سبيل ذلك كحجر بن عدي وأصحابه وهانئ بن عروة وأشباهه. وحذرهم بأن كل واحد منهم سيكون مستهدفا في النهاية سواء كان من أتباع الدولة وأعوانها أو من أعدائها.

بين موقف المنتصر القوي وموقف المهزوم العاجز

ولم يكن بوسعهم أمام هذا المنطق السديد الا أن يواجهوه بمنطق العاجز الخائف الجبان «فسبوه، وأثنوا على عبيد الله بن زياد ودعوا له، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير فصل عبيد الله سلما»^(١).

(١) المصادر السابقة، وقد ذكر بعضها كالطبري في نهاية كلمة زهير الأخيرة قولاً نسبوه إليه وهو: «فخلوا بين الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية، فلعمري أن يزيد يرضى من طاعتكم بدون قتل

كان منظرا محزنا حقا.. وكانوا هم أحق الناس بهذا الحزن، كانوا مضللين ومحذرين ومستسلمين ومنساقين خلف ارادة شريرة تعبت بهم وتسوقهم إلى مصير مؤلم لا خلاص منه أبدا. وبدا أن ذلك كان يثير حزنه وقلقه إلى أبعد حد. وقد صاح فيهم عندما سمع سبابهم ومقاتلتهم وحرصهم على تنفيذ أوامر ابن زياد، قائلا:

«عباد الله، ان ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر من ابن سمية، فان لم تنصروهم، فأعيذكُم بالله أن تقتلوهم»^(١).

كانوا يستسلمون بسهولة أمام ابن زياد وأعوانه، وكان حالهم هذا يزعج زهيرا إلى أبعد حد وهو يراهم ينحدرون إلى ذلك المدى الذي يجروون فيه على اشهار سيوفهم بوجه ابن رسول الله ﷺ وآله وأصحابه ليقتلوهم، لا لشيء، الا لأنهم أرادوا انقاذهم من الانحراف ومن دولة الظلم والعسف والجور.

كان الموقف دقيقا بالغ الحرج، ومواجهة زهير لا يجرو عليها الا من فقد الحياء والضمير. وما كان الا شمر وأشباهه جديرين بذلك. فباب السباب والشهاتة والكذب والافتراء مفتوح على مصراعيه أمام أمثال هؤلاء الذين لا يتورعون حتى عن سفك الدماء.

الحسين..» الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠ ومتى ما علمنا أن مصدر الرواية كثير بن عبد الله الشعبي أحد أعوان ابن زياد والمقربين منه أدركنا أنه أضاف هذه الكلمات من عنده عندما وجد نفسه يروي هذه الرواية فيما بعد لأن معرفتنا بواقع حال زهير تؤكد لنا أنه لم يتفوه بها أصلا.. وقد شهدنا حالات مماثلة افتري فيها على الحسين ﷺ نفسه بمثل هذه الأقوال وكان مصدرها ابن سعد وأضرابه.. وقد فندناها في فصل سابق.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠.

التصدي للشمر «ما اياك أخاطب، انما أنت بهيمة.. ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين». انبرى شمر - وقد انزعج بدوره من كلمات زهير - للرد عليه ردا خشنا حتى أنه رماه بسهم وقال له: «اسكت اسكت الله نأمتك. أبرمتنا بكثرة كلامك»^(١).

وهذا هو منطق العاجز من أعوان الطغاة والظلمة.

وهل يتوقع أحد من شمر وأشباه شمر غير هذا المنطق...؟

كان أمرا مؤلما أن يكون لأمثال هذا الجافي الغليظ الجاهل هذه المكانة بين جند ابن زياد، وأن يتصدى نيابة عن الجميع للحديث والرد و(الحوار).. فمن هو حتى تكون له تلك المكانة..؟ وما هي مؤهلاته ليكون في مقدمة المسلمين؟

لا بد أن كل مؤهلاته هي ما يحاول اظهاره من انحياز لدولة الظلم واستعداد لخدمتها وتنفيذ أهدافها ومآربها، دون مناقشة أو حساب.

ألا يطلع علينا كل يوم شمر جديد يبدي نفس الاستعداد لخدمة دولة ظلم جديدة، ويظل الناس يتحملون جهله وهراءه واستهتاره وعبه.. ويظل يلهو ويعبث إلى أن تسأم منه الدولة وتحمله مسؤولية أوزارها وأخطائها للتخلص منه بعد ذلك، أو يتخلص منه مظلوم تمادى معه في ظلمه، أو يناله الله بعقاب في هذه الدنيا قبل أن يطاله عقاب الآخرة الدائم؟

لقد أراد زهير أن يعرفهم جيدا بذلك الذي سمحوا له بأن يتلاعب بهم ويتحدث نيابة عنهم، حتى أنه جعل قضية الحسين عليه السلام مع الدولة الأموية قضيته الخاصة، فكأنما جاء الحسين عليه السلام للقضاء عليه هو شخصا وجاء يستهدفه خاصة. مع أنه لم يكن سوى انسان مغمور. مسمار صغير في عجلة الدولة الضخمة، ولم تكن تعيره أي اهتمام، لولا

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠ وتراجع المصادر السابقة.

ما كان يلاحظه من عناية مؤقتة من قبل ابن زياد لحاجته اليه في ذلك الظرف.

كان شمر يضخم نفسه بنظر الآخرين ويعطيها أهمية استثنائية، وكان يتصرف وكأنه القائد الحقيقي للأمة والمعني الأول بشؤونها، وأنه انسان لازم وضروري لا يمكن الاستغناء عنه.

وكان من الضروري أن يواجهه بأجابة ساخرة تعلمه من هو وتواجهه بحقيقته وتطفئ كل بريق أو ادعاء للعظمة يمكن أن يتظاهر به أمام الجنود الخائفين المستسلمين لابن زياد وبطشه وعنفه. فقد أجابه قائلا: «يا بن البوال على عقبيه ما إياك أخاطب إنما أنت بهيمة والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم»^(١).

تعرية المجرمين، تعرية للسائرين في ركابهم: «لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجاني وأشباهه»

كان زهير يريد بذلك الجميع أن يتجاهلوه، ولا ينهروا بما يتظاهر به من قوة وسطوة ونفوذ، وكان يدرك أنه لن يستطيع الدفاع عن نفسه أمامهم، وما عساه أن يقول: هل سيقول أنه أحد حفاظ القرآن الكريم، وهل سيجيبه بآيات منه؟ وهل سيشهد له أحد أنه لم يكن بمثل ما وصفه به زهير؟ أم إنها الحقيقة الواقعة؟ إن غاية ما يستطيع شمر قوله، ان استطاع أن يتكلم بروية وهدوء هو أنه ينفذ أوامر أسياده (ولاة الأمر) المزيفين وانهم على حق؛ لأنهم ولاة أمر، هكذا زيفت أحكام الإسلام وآيات القرآن، يزعم ذلك ولا يستطرد بأكثر منه.

كان كشف حقيقة شمر، التي لم تكن خافية على الجميع، كفيلا بأشعار الجميع بالعار، اذ ارتضوا أن يكون القائد الفعلي لهم والناطق والمتحدث باسمهم، فكأنما لم

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠.

يكونوا، وكأنها لم تكن لهم السنة. وهو عار أراد شمر تخلصهم منه وتخفيف وطأته عليهم بجوابه الشامت لزهير، اذ لم يكن لديه ما يقوله غيره. «ان الله قاتلك وصاحبك عن ساعة»^(١).

وكانه ظن أن زهيراً عندما يستمع لقوله هذا سينكمش ويخاف ويتلعثم، وكأنه لم يكن موطناً نفسه على الموت حقاً. فأجابه ساخراً:

«أبالموت تخوفني، فوالله للموت معه أحب إليّ من الخلد معكم»^(٢).

وهو جواب من شأنه أن يلفت أنظار الجميع إلى المأزق الذي وضعوا أنفسهم فيه بانحيازهم لدولة الظلم وكونهم جنوداً لها. ومن شأنه أيضاً أن يجعلهم يغيرون مواقفهم لو كانت لهم ارادة الإسلام الحرة الواعية المتبصرة. ولكنهم فقدوا هذه الارادة واستسلموا وماتوا منذ زمن بعيد وأصبحوا جثثاً هامدة بين أيدي جلاديهم وظالمهم. وكان الأمر أشد اثاراً للحزن من أي شيء آخر. أحقاً أنه لا يوجد من يستمع اليه ويستجيب لكلماته..؟ أحقاً أن هؤلاء قد صمموا على الاسترسال بجريمتهم إلى النهاية والمضي إلى حد قتل الحسين عليه السلام نفسه، قائدهم وامامهم وابن قائدهم وامامهم وابن رسول الله عليه السلام نفسه..؟

ولو كان لزهير ألف حنجرة لصرخ بها محذراً، ألا أنه لم يملك سوى حنجرة واحدة. وقد «أقبل على الناس رافعا صوته، فقال: عباد الله، لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمد عليه السلام قوما اهرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبح عن حريمهم»^(٣).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠ وتراجع المصادر السابقة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠ وتراجع المصادر السابقة.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠ وتراجع المصادر السابقة.

كان الأمر مروعا حقاً. فهل كان بمستطاع أحد أن يتصور أن الناس يمكن أن يقبلوا بأمثال هذا الجلف الجاهل الغليظ قائدا لهم وناطقا باسمهم، ليواجهوا به الحسين (عليه السلام) ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله). ويتبادوا إلى حد الذهاب في الجريمة إلى أبعد حد لقتله وقتل أصحابه وكأنهم لم يفعلوا شيئا. وكأن الأمور بذلك كانت طبيعية واعتيادية؟ وكأنهم لا يزالون ينتمون للإسلام حقاً؟

لم يكن بمستطاع أحد أن يقول أكثر مما قاله زهير، لقد نصح وأبلغ لو كان ينفع النصح والابلاغ. ولو كان موجهها لقوم يعون ويدركون حقيقة ما يقومون به، لا لأموات لا يسمعون ولا يفقهون ولا يعون. كان بمواجهة زهير أناس مهزومون مستسلمون خائفون أذلاء فقدوا ارادتهم تحت وطأة العنف والاضطهاد والارهاب، لذلك فانه لا جدوى من الكلام معهم. وهكذا قال له من جاء يدعوه للعودة: «ان أبا عبد الله يقول لك: أقبل، فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه، وأبلغ في الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت، لو نفع النصح والابلاغ»^(١)

كان الحسين (عليه السلام) يراقب مؤمن آل محمد (صلى الله عليه وآله) وهو ينصح ويبلغ في الدعاء، كما كان مؤمن آل فرعون ينصح ويبلغ في الدعاء، ولقد نصح أبلغ وبذل كل جهد مستطاع غير أنه كان يخاطب أناسا فقدوا شعورهم وحياتهم وهويتهم.

وفاء وولاء

«أقدم هديت هاديا مهديا فاليوم تلقى جدك النبيا». لقد وفي قائد ميمنة الحسين (عليه السلام)، زهير بن القين بوعوده التي قطعها أمام الله، لنصرة الحسين، وكان يبدو مستعدا للقتل ألف مرة ليظل إمام الأمة سالما وتظل سالمة ببقائه.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠ وتراجع المصادر السابقة.

قاتل زهير مع الحر «قتالا شديدا، فكان اذا شد أحدهما، فان استلحم شد الآخر حتى يخلصه. ففعلا ذلك ساعة»^(١) إلى أن قتل الحر. وظل زهير يقاتل قتالا شديدا وأخذ يقول:

«أنا زهير وأنا ابن القين أذودهم بالسيف عن حسين»^(٢).
وأخذ يضرب على منكب الحسين ويقول:

أقدم هديت هاديا مهديا فاليوم تلقى جدك النيا
وحسنا والمرضى عليا و ذا الجناحين الفتى الكميا
وأسد الله الشهيد الحيا»^(٣).

إلى اللقاء في الجنة «لا يبعدك الله يا زهير»

وكان الحسين عليه السلام قد طلب منه ومن سعيد بن عبد الله الحنفي أن يتقدما أمامه حتى يصلي صلاة الظهر^(٤) فتقدما وقتل سعيد وبقي زهير يقاتل حتى قتل جماعة كبيرة من الأعداء. «ثم عطف عليه كثير بن عبد الله الشعبي والمهاجر بن أوس التميمي فقتلاه»^(٥).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠ وتراجع المصادر السابقة.

(٢) وفي مقتل الحسين للخوارزمي بيتان آخران.

أن حسينا أحد السبطين من عقرة البر التقي الزين
ذاك رسول الله غير المين أضربكم ولا أرى من شين
وراجع مقتل الحسين للسيد محمد تقي بحر العلوم: ص ٤٠٥.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٨.

(٤) الخوارزمي ١٧-٢ واللهموف ٤٣ والنويري: ج ٢٠ ص ٤٥١ وقد ذكر الطبري: ج ٣ ص ٣٢٨ أن الذي تقدم كان سعيد بن عبد الله الحنفي وحده، وشايعه على ذلك مجموعة من المؤرخين.

(٥) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٨، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٩٢، وابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٤، والنويري: ج ٢٠ ص ٤٥٢.

وقد رثاه الحسين عليه السلام قائلا: «لا يبعدنك الله يا زهير، ولعن قاتلك لعن الذين مسخوا قردة وخنازير»^(١).

وهكذا مضى زهير مع الحسين عليه السلام إلى النهاية، مع أنه لم يكن قد راسله ووعدته نصرته. الا أنه رأى أنه كان بسبيل انجاز أكبر مهمة في تاريخ الإسلام لانقاذ الأمة من الانحراف، فرأى أن يشارك بهذه المهمة. وقد كان له دور بارز ستظل الأمة تذكره على الدوام. كدور انساني ممكن التكرار ما دام هناك من يتمتع بوعي صحيح وارادة حرة كوعي زهير وارادته.

(١) الخوارزمي: ج ٢ ص ٢٠.

٢. الحر بن يزيد الرياحي^(١)

لم يظهر الحر على ساحة الأحداث قبل وصول الحسين عليه السلام (ذا حسم) وقد علمنا حينذاك أنه كان أحد رجال الحصين بن نمير التميمي، ومن قواد ابن زياد. وكان أول من تصدى للحسين عليه السلام بناء على الأوامر التي تلقاها من ابن نمير^(٢) الذي تلقاها بدوره من ابن زياد بناء على توجيهات يزيد وأوامره.

وكان يزيد قد كتب لابن زياد بعيد اقdamه على قتل مسلم وهانئ وخروج الحسين عليه السلام من مكة: «أنه قد بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق. فضع المناظر والمسالح، واحترس على الظن وخذ على التهمة»^(٣).

وقد بعث ابن زياد «الحصين بن تميم صاحب شرطه حتى نزل القادسية ونظم الخيل ما بين القادسية إلى خفان وما بين القادسية إلى القطقانة وإلى لعل»^(٤).
«وقدم الحر بن يزيد بين يديه، من القادسية فيستقبل حسينا»^(٥).

الا أن الحر لم يكن كغيره من القواد والوجهاء والرؤساء الآخرين الذين راسل معظمهم الحسين عليه السلام، ثم تراجعوا عن نصرته وأصبحوا ضمن الجيش الذي أعده ابن

(١) اليربوعي التميم الكوفي.

(٢) ذكر أنه تميمي التميمي (الطبري: ج ٣ ص ٣٠٦).

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٢٩٣.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٣٠١.

(٥) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٦. وذكر ابن حزم: «أنه الحر بن يزيد بن ناجية بن قعنب بن عتاب بن هرمي بن رياح بن يربوع من بني تميم» جمهرة أنساب العرب: ص ٢١٥.

زياد لحربه والقضاء عليه.

بين تضليل الدولة ورؤية الواقع

ربما كان أمر الحسين عليه السلام قد لفت نظر الحر منذ البداية ومنذ قدوم مسلم الكوفة. وربما أخذ يفكر بشكل جدي منذ اللحظة الأولى التي شاهد فيها الامام وقابله، بطبيعة المهمة العظيمة التي كان يتصدى لها عليه السلام.

ومع أنه لم يتساهل مع الحسين عليه السلام وكان صارما في تنفيذ أوامر قادته بشأن محاصرته ومنعه من الرجوع. إلا أنه لم يكن خشنا في معاملته بذلك الشكل الذي اتسم به القادة الآخرون الذين أساءوا السلوك معه بشكل متعمد متكلف تقربا من السلطة.

ولعل أول موقف للحسين عليه السلام وأصحابه عندما لقوهم وقدموا لهم الماء الذي كانوا بحاجة ماسة اليه، بل أن حياتهم نفسها ربما كانت تعتمد عليه، وذهابهم إلى حد ترشيف خيولهم، ظل ماثلا في ذهن هذا القائد الذي لم ير ظاهرة كتلك من قبل ولم يعهد في سلوك أي فرد من أفراد السلطة ورجال الدولة والمتنافسين على الرئاسة والزعامة، شيئا يشبه ما يراه أمامه.

ونستدل من لهجته وخطابه مع الحسين عليه السلام أنه كان يعرف من هو، ويعرف مركزه وقربته القريبة من رسول الله صلى الله عليه وآله وقد عامله باحترام، إلا أنه لم يجد جرأة على تحدي الأوامر الصادرة اليه والتي كان ابن زياد حريصا على تنفيذها مهما اقتضى الأمر؛ لأنه كان يعرف قسوته وجرأته على سفك الدماء.

ارادوا موت الحسين، وأراد الحسين حياتهم «اسقوا القوم واروهم من الماء»

قبل مغادرة الامام الحسين عليه السلام وركبه (شراف)، أمر فتيانَه فاستقوا من الماء، فأكثروا بشكل غير اعتيادي وبمقادير تفوق احتياجهم بكثير، ولم يسأل أحد الامام

عن سر ذلك، الا أن الأمر اتضح فيما بعد، عند (ذي حسم)، فقد أقبلت طليعة ابن زياد (وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي اليربوعي، حتى وقف هو وخيله مقابل الحسين في حر الظهير، والحسين وأصحابه معتمون متقلدو أسيافهم.

فقال الحسين لفتيانه: اسقوا القوم واروهم من الماء، ورشفوا الخيل ترشيفا، فقام فتياه فرشفوا الخيل ترشيفا. فقام فتية وسقوا القوم من الماء حتى أرووهم، وأقبلوا يملؤون القصاع والأتوار والطساس من الماء ثم يدنونها من الفرس، فاذا عب فيه ثلاثا أو أربعا أو خمسا عزلت عنه، وسقوا آخر حتى سقوا الخيل كلها^(١).

وقد شارك الحسين ﷺ نفسه بسقي القوم وخيولهم، في لفنة انسانية كريمة جديرة به حقا. فكيف يحصل أن يقدم قائد مستهدف من قبل عدو شرس شرير على تقديم شيء يضمن حياة ذلك العدو وبقائه على قيد الحياة، مع أنه قد لا يكون طلب ذلك منه. لم ير الحسين ﷺ أمامه الا رجلا عطاشا وخيولا بحاجة ماسة للماء، فقدم الماء لهم.

ثم كيف حصل أنه أمر فتياه فاستقوا من الماء تلك الكمية الهائلة التي كفت ألف فارس مع خيولهم..؟ لا بد أنها كرامة من كراماته، وعلم من العلم الذي وصل اليه عن أبيه ﷺ عن جده ﷺ. فمقابلته عدو بتلك الساحة واحسانه اليه وتقديم ما يضمن حياته، ليست أمرا عاديا يقدم عليه متنافسون عاديون على السلطة والمركز. بل انه أمر جدير بالأنبياء وحملة الرسالات الكبيرة الذين تهمهم حياة ومستقبل كل انسان على هذه الأرض. وهو أمر لا بد أن يلفت نظر الأمة كلها فيما بعد لتفكر بأمر تلك الثورة العظيمة التي أرادت انقاذها من الانحراف الأموي الكبير.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٥٥، والكمال في التاريخ: ج ٣ ص ٢٧٩، ومروج الذهب: ج ٣ ص ٦٥، والارشاد للمفيد: ص ٢٢٣، والبحار: ج ٤ ص ٣٧٥، وأعيان الشيعة: ج ٢٥ ص ٣٧٠، ومناقب آل أبي طالب: ج ٤ ص ٩٥، وأمالى الصدوق: ص ١٥٤.

لقد أُمر الحر بملازمة الحسين عليه السلام وتقديمه لابن زياد، أما كيف ولماذا، فهذا أمر لعله لم يجل بباله؛ ولعله لم يفكر بالقضية برمتها بشكل جدي من قبل ولم يتساءل عن الأسباب الحقيقية لقدم الحسين إلى الكوفة. لقد استمع إلى خطبة الحسين عليه السلام الأولى التي تحدث عن رسل وكتب الكوفة إليه ولم يرد عليه كما لم يردّ عليه أحد من أصحابه، بل انه صلى مع أصحابه خلف الامام الحسين صلاتي الظهر والعصر، ويبدو أنه لم يكن يعلم بمسألة الكتب التي أرسلها أهل الكوفة إليه، وقد أنكر أمام الحسين عليه السلام علمه بها.

الحر صلى خلف الحسين عليه السلام مع أنه أمر بمحاصرته

ولنستمع إلى أحد أصحاب الحر، علي بن الطعان المحاربي يحدثنا عن هذا الأمر «فلم يزل [الحر] موافقا حسينا حتى حضرت الصلاة، صلاة الظهر، فأمر الحسين الحجاج بن مسروق الجعفي أن يؤذن، فأذن، فلما حضرت الاقامة، خرج الحسين في ازار ورداء نعلين، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، انما معذرة إلى الله عزوجل واليكم، اني لم آتكم حتى أتني كتبكم، وقدمت على رسلكم، أن أقدم علينا، فانه ليس لنا امام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى، فان كنتم على ذلك فقد جئتمكم، فان تعطوني ما اطمئن اليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم، وان لم تفعلوا، وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه اليكم.

فسكتوا عنه. وقال للمؤذن: أقم. فأقام الصلاة.

فقال الحسين عليه السلام للحر: أتريد أن تصلي بأصحابك؟

قال: لا، بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك. فصلى بهم الحسين.

ثم انه دخل واجتمع اليه أصحابه. وانصرف الحر إلى مكانه الذي كان به. فدخل خيمة قد ضربت له، فاجتمع اليه جماعة من أصحابه، وعاد أصحابه إلى صفهم الذي

كانوا فيه فأعادوه. ثم أخذ كل رجل منهم بعنان دابته وجلس في ظلها، فلما كان وقت العصر أمر الحسين أن يتهيؤوا للرحيل. ثم أنه خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر، وأقام، فاستقدم الحسين فصلى بالقوم ثم سلم، وانصرف إلى القوم بوجهه ثم قال:

أما بعد، أيها الناس، فانكم ان تتقوا وتعرفوا الحق لأهله، يكن أرضى الله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم، من هؤلاء المدعين ما ليس لهم. والسائرين فيكم بالجور والعدوان، وان أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا، وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم، وقدمت به على رسلكم، انصرفت عنكم.

فقال له الحر بن يزيد: انا والله ما ندرى، ما هذه الكتب التي تذكر.

فقال الحسين: يا عقبة بن سمعان، اخرج الخرجين اللذين فيهما كتبهم الي، فأخرج مملوئين خرجين مملوئين صحفا، فنشرها بين أيديهم.

فقال الحر: فأنّا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا اليك^(١).

فلم يكن الحر اذاً ممن كاتبوا الحسين ﷺ ودعوه للقدوم. وربما كان مضللاً بشأن مهمة الحسين الكبيرة لإيقاف الانحراف وردع دولة الظلم عن ممارساتها الجائرة. وربما لم يكلف نفسه في السابق بالتعرف على أهدافه ومقاصده.

تنفيذ أوامر الدولة

لكنه يعرض نفسه هنا كأحد جنود الدولة المخلصين المأمورين بالسمع والطاعة وتنفيذ التعليمات، أما ما عدا ذلك فانه لم يكن من اختصاصه. ليس عليه أن يسأل أو

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٦، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٠ ومناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ٩٦. وروضة الواعظين للفتال: ص ١٨٠ والارشاد: ص ٢٠٨ والخوازمي: ج ١ ف ١١ وأنساب الأشراف للبلاذري: ج ٣ ص ١٧١.

يستفسر أو يناقش فتلك شؤون عليا، لا شأن له ولأمثاله فيها. هكذا أرادت دولة الظلم من كل فرد يريد أن يظل حيا. وهكذا قال للامام الحسين (عليه السلام) أنه قد أمر بملاقاته وعدم فراقه وتقديمه لابن زياد.

«و قد أمرنا اذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نقدمك على عبيد الله بن زياد»^(١) الا أن الحسين (عليه السلام) واجهه بصلاية قائلا له: «الموت أدنى اليك من ذلك»^(٢) وأمر أصحابه أن يقوموا فيركبوا، فركبوا وانتظروا حتى ركبت نساؤهم، الا أن الحر منعهم من الانصراف. ربما حسب الحر أنه ما دام لم يكن أحد الذين كتبوا للحسين (عليه السلام) يدعونه للقدوم والأخذ بأيديهم لمقاومة الحكام الجائرين. فإنه سيكون في حل من قتاله أو تقديمه لأعدائه، بل والانتصار لهم والوقوف في صفهم ما داموا قد وظفوه في دولتهم وكلفوه بحماية مصالحهم ومؤسستهم الحاكمة.

وربما كان تفكيره ذاك نتاج ما رسخه معاوية في الأذهان وجعل منه عرفا سائدا وتقليدا أراد الجميع أن يأخذوا به، وهو جعل ولاء الناس، وفي مقدمتهم رجال الدولة ومستخدموها مرهونا بارادة رموزها ورأسها الكبير باعتباره المثل الأعلى الوحيد الذي ينبغي أن يتطلعوا اليه، وينسوا ما سواه. وأن أي تطلع إلى الله عز وجل ينبغي أن يكون من خلال الاطاعة العمياء (لمثله وخليفته)، دون أن يتيح أحد لنفسه الحق في التساؤل عن شرعية وجود هذا (الخليفة) أو محاسبته، بعد أن نصب نفسه سلطانا ومفوضا الهيا مطلقا ينوب عن الله باصدار الأحكام والتشريعات والقوانين. لقد كان الأمر أمر هرقلية أو قيصرية جديدة أريد التمهيد لها لتكون هي الحالة الوحيدة المتقبلة بين أبناء الأمة.

(١) المصادر السابقة.

(٢) المصادر السابقة.

هل صحح خطأه بعد فوات الأوان؟ حاصر الحسين ﷺ أولاً ثم نصره بعد ذلك

ويكشف حوار الحسين ﷺ مع الحر جوانب عديدة يمكن أن تعرفنا على هذا القائد الذي أدرك خطأه في اللحظات الأخيرة، فصحح ذلك الخطأ، وكان ثمن ذلك بذل دمه مع دماء أوائل الذين استشهدوا من أصحاب الحسين ﷺ. فهو يكشف لنا أنه لم يكن يتميز بما تميز به القادة الآخرون من أخلاق فظة ونفوس جاسية غليظة. كما يكشف أنه كان يمر منذ اللحظة الأولى التي التقى فيها بالامام، وقد أمر لهم ولخيوهم بالماء الذي كانوا بحاجة ماسة اليه، وكان بإمكانه أن يتغلب عليهم وهم بذلك الموقف الصعب، بمرحلة محاسبة للنفس وإقبال على التغيير وتقويم الموقف وربما معرفة الجهة التي يقف إلى جانبها وينحاز إليها في النهاية. ومع أن تقويمه جاء متأخراً، وكان هو العامل الأول الذي أثر على وضع الحسين ﷺ وجعله يقف بمواجهة جيش أكثر قوة وعدداً. إلا أنه تم بشكل حاسم، وسجل التاريخ للحر في آخر لحظة من حياته موقفاً مبدئياً صلباً لا يمكن أن ينسى. وإن تمنى متتبع لتاريخ الحر في تلك الفترة القصيرة من حياته أمراً، فانه لا بد أن يتمنى لو أنه فعل ما فعله في آخر لحظة من حياته في بداية لقائه مع الحسين ﷺ. ولربما سبب في هذه الحال تغيير معادلة الحرب بأكملها وانتصار الحسين ﷺ عسكرياً على أعدائه وانحياز أعداد كبيرة من الناس اليه.

غير أن ما وقع قد وقع. وأراد الحر في البداية أن يُقدم الحسين ﷺ على ابن زياد، إلا أن الحسين ﷺ رفض ذلك، رفضاً قاطعاً، وكان جوابه للحر: «الموت أدنى إليك من ذلك» إشارة أكيدة لذلك الرفض.

«ثم قال لأصحابه: قوموا فاركبوا، فركبوا وانتظروا حتى ركب نساؤهم، فقال لأصحابه: انصرفوا بنا. فلما ذهبوا لينصرفوا حال القوم بينهم وبين الانصراف. فقال الحسين للحر: ثكلتك أمك ما تريد؟

قال: أما والله لو غيرك من العرب يقوله لي وهو على مثل الحال التي أنت عليها، ما تركت ذكر أمه بالثكل أن أقوله كائنا من كان. ولكن والله ما لي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما يقدر عليه.

فقال له الحسين: فما تريد؟

قال الحر: أريد والله أن انطلق بك إلى عبيد الله بن زياد.

قال له الحسين: إذاً والله لا أتبعك.

فقال له الحر: اذا والله لا أدعك.

فترادا القول ثلاث مرات. ولما كثر الكلام بينهما قال له الحر: اني لم أؤمر بقتالك، وانما أمرت ألا أفارقك حتى أقدمك الكوفة. فاذا أبيت فخذ طريقا لا تدخلك الكوفة، ولا تردك إلى المدينة، تكون بيني وبينك نصفاً حتى أكتب إلى ابن زياد وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية ان أردت أن تكتب إليه، وإلى عبيد الله بن زياد ان شئت، فلعل الله إلى ذلك أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن ابتلى بشيء من أمرك.

فخذ هاهنا فتياسر عن طريق العذيب والقادسية، وبينه وبين العذيب ثمانية وثلاثون ميلاً.

ثم ان الحسين سار في أصحابه والحر يسايره...»^(١).

لا.. لدولة الظلم

يستدل بعض من تصدى لأمر التاريخ من هذه المحاور، أن الحسين عليه السلام كان يميل - بفعل الضغط الواقع عليه بعيد ملاقة الحر ومحاصرة جيش ابن زياد له - إلى

(١) المصادر السابقة.

الاتصال بيزيد مباشرة أو الكتابة اليه ووضع يده في يده. وأنه قد طلب فعلا من ابن سعد بعد ذلك أن يدعه يرجع من حيث أتى أو يذهب إلى ثغر من ثغور المسلمين فيقاتل هناك ويجهاد أعداء الإسلام الآخرين أو يذهب إلى يزيد فيضع يده في يده.. بنوا هذا الظن على ادعاء من ابن سعد، قيل إنه كاتب به ابن زياد، كما بنوها على أقوال الحر هذه، وأقوال أخرى نسبت اليه فيما بعد، قبيل نشوب القتال.

وقد أوضحنا في فصل سابق بطلان هذه الادعاءات التي يقصد منها التنصل من تبعة الجريمة وإثبات شرعية وجود يزيد خليفة على المسلمين، ما دام الحسين (عليه السلام) نفسه قد أراد وضع يده في يده ومبايعته. وعلمنا أن مصدرها الوحيد ابن سعد القتال، ورأس الحرية في هذه الجريمة المروعة.

لقد طلب الحر من الحسين (عليه السلام) أن يجعل الطريق بينهما نصفًا حتى يكتب لابن زياد عن آخر تطورات الموقف، كما يتضح من سياق المحاور، أو يكتب الحسين (عليه السلام) إلى يزيد أو ابن زياد أن أراد ذلك. ولنتنبه جيدا إلى مضمون كلمات الحوار. فالحر لم يقل للحسين (عليه السلام): كما أردت ذلك، حتى يستدل أحد على أن الحسين (عليه السلام) طلب ذلك بنفسه وإن الحر استجاب له، ووضع حلا وسطا لذلك. بل انه يبدو وكأنه اقترح مطروح من الحر على الحسين (عليه السلام) ان شاء أخذ به وإن شاء رفضه.

ولو أن الحسين (عليه السلام) كان قد طلب ذلك فعلا أو نواه، لكتب إلى يزيد أو ابن زياد، فلماذا لم يفعل ذلك إذا ما أراد؟ هل كان ينقصه الورق أو المداد؟

كانت كلمة واحدة منه تشير إلى أنه سبيبه إلى أن يتنازل أو يساوم أو يستسلم، كفيلا بأن تشعر يزيد أو ابن زياد بسعادة غامرة ويوافقا على كل شروطه لو كانت له شروط.

لقد وجدنا، وفقا لما رأينا من وقائع هذه المسيرة العظيمة من المدينة إلى الكوفة، ونتائجها الملحمية الخالدة. وشهادات الشهود الذين اطلعوا على تلك الوقائع وشاركوا في بعضها، أن الحسين لم يطلب الكتابة إلى ابن زياد أو يزيد، ولم يعرض مبايعة ممثل دولة الجور والظلم والانحراف. فهل كان الحسين عليه السلام هو نفسه الذي سيقضي على آخر أمل لدى الأمة لتقويم الانحراف والرجوع إلى دولة رسول الله صلى الله عليه وآله كما أرادها الله ورسمها وخطط حدودها وشريعتها؟

هل يصح أن يكون قائد الأمة الشرعي والحقيقي عدوا لها للدرجة التي يقدم فيها على قتلها وانتهاك حرمتها وإباحتها وتسليمها لأعدائها؟

حديث الحسين في أصحاب الحر «ألا ان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان. وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود..»

وقد خطب الحسين عليه السلام أصحابه وأصحاب الحر في (البيضة) خطبة مؤثرة، استعرض فيها الأوضاع التي كان يمر بها المسلمون في ظل الدولة الأموية الجائرة وواجبهم تجاه ذلك، وفقا لما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وآله. وتكلم عن طبيعة المهمة التي قدم لأجلها. وقد ذكر لهم بأنه يحتمل أن لا يستجيبوا له أو يستمعوا لنصائحه. وأنه لن يعجب اذا ما فعلوا ذلك؛ لأنه يرى أنهم قد ماتوا إلى الأبد، وأن الخطب والنصائح وحدها لا تكفي لردعهم عن انحرافهم، وربما لو جاءهم رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه لانفضوا من حوله وتركوه وحيدا يجابه الطواغيت الجدد الذين ظهروا في ظل الأوضاع الشاذة، وربما أعلنوا الحرب عليه واستهدفوه بالقتل والأذى، كما فعلت قريش معه من قبل.

قال لهم: «أيها الناس، ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من رأى سلطانا جائرا مستحلا حُرِّم الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان، فلم يغير

عليه بفعل ولا قول، كان حقا على الله أن يدخله مدخله». ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غير. قد أتتني كتبكم، وقدمت على رسلكم، ببيعتكم، وأنكم لا تسلموني، ولا تحذلونني. فإن تتمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلکم في أسوة. وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيَّعتم، ومن نكث فانما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»^(١).

لم يكن الحسين ﷺ إذاً يعول عليهم. غير أنه لم يربدا من مخاطبتهم ومواجهتهم بواقعهم المتردي. الذي لم يكن وليد يومه، بل انه قد مهد له قبل ذلك وظهت بواده المعلنة عندما تخلوا عن أمير المؤمنين ﷺ وأخيه الحسن ﷺ وارتضوا معاوية بديلا.

ذلوا فاستعبدوا «ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه»

لقد أحزنه أن يصطدم - ولما يكديقدم الكوفة - بهذه النفوس التي سلبت ارادتها وحريتها ووعيتها ووقفت خرساء أمام حججه الواضحة، مكتوفة الأيدي بينما جلادها وجزارها يسوقها لتذبح نفسها اذ تقدم على تنفيذ جرائمه المروعة.. فهي الضحية اذ تستسلم للجلاد.

كيف له أن ينقل عزيمة وثبات أصحابه إلى رؤوسهم التي لم يعد يملؤها سوى الرعب من يزيد وابن زياد وأعوانها.. وسوى الوعود الباهتة بالجاء والمال، أما الإسلام

ورسول الله ﷺ فلا مكان لهما في تلك الرؤوس والأذهان التي تحدرت وشلت بتأثير الوضع الأموي الشاذ.

لم يكن أبلغ من مشاهدته وهو يقدم بنفسه وأهله لمقاومة الانحراف والشذوذ. وهو أكرم الخلق على الله وأقربهم من رسوله ﷺ، ونفسه أعز الأنفس، ودمه أشرف الدماء. ومع ذلك فقد أقبل اليهم مستعدا للتضحية بكل ذلك في سبيل نصرته الإسلامية ونصرتهم هم. وكان ينبغي عليهم أن يتأسوا به ويكونوا مثله ويقدموا كل ما لديهم لنصرة الإسلام ونصرتهم. ومع ذلك لم يتحركوا ولم تلح بادرة أمل واحدة تدل على أنهم سوف يغيّرون مواقفهم ويقفون الوقفة التي دعا إليها رسول الله ﷺ والتي أشار إليها ﷺ في مطلع خطبته.

وكان لا بد من استمرار جهوده معهم ومخاطبتهم، عسى أن يتراجعوا عن تحاذلهم وخوفهم واستسلامهم. فخطابه سيكون للأمة كلها وستستمع إليه أجيالها على مر التاريخ. واذ لم يستجب أولئك المعنيون المباشرون بالخطاب، لكلمات الامام ونصائحه وتحذيراته، فإن أجيالا عديدة ستستمع اليه وتلتحق به وان بعدت الشقة وطال الزمن. قام ثانية بـ (ذي حسم)، «فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها واستمرت جذاء فلم يبق منها إلا صباغة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل ألا ترون أن الحق لا يعمل به وأن الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله محققا فإنني لَأرى الموت إلا شهادة ولا الحياة مع الظالمين إلا برما»^(١).

(١) المصادر السابقة والنص عن الطبري: ج ٣ ص ٣٠٧ وقد ورد في رواية أخرى أن الحر عندما لقيه نصحه بالرجوع قائلا: «راجع فاني لم أدع لك خلفي خيرا أرجوه، فهم أن يرجع، وكان معه اخوة مسلم بن عقيل، فقالوا: والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نقتل، فقال: لا خير في الحياة

كان حكم بني أمية نازلة حقا، وكان كارثة حقيقية حلت بالمسلمين وأفقدتهم أمنهم واستقرارهم وسعادتهم في ظل الإسلام.

أليسوا قد غيروا كل ما أراد رسول الله ﷺ تنبئته وبناءه؟ ألم تذهب في عهدهم كل القيم الخيرة التي جاء بها الإسلام؟ ألا تبدو مرارة حكمهم بقلوب وأفواه الذين ذاقوا حلاوة الإسلام واستمتعوا بها؟ ألم يبعد هذا الدين عن الحياة فعلا ليسود الباطل والشرك والضلال؟ فلماذا يعيش الانسان في هذا الجو الذي تسلب فيه حريته وارادته ويمسخ فيه وجوده دون هدف واضح أو قيمة عليا حقيقية.. اللهم الا خدمة الظالمين والسير بركابهم ومساعدتهم على تثبيت عروشهم وبسط سلطانهم..؟

الموت ليس نهاية كل شيء «أفبالموت تخوفني.. وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلونني؟» ولم يجد الحر، حتى هذه اللحظة ما يرد به على الحسين (ع)، وقد رأى شدة تعلق أصحابه به ولائهم له واندفاعهم خلفه دون تحفظ أو تردد، ولعله رأى أن الشيء الوحيد الذي ينبغي المحافظة عليه هو الحياة، وان كانت دون هدف أو في ظل الظالمين. قال له وهو يسايره في الطريق: «اني أذكرك الله في نفسك. فاني أشهد لئن قاتلت لتقتلن، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى»^(١).

ربما كان يرى أن الحياة هي الغاية والمحطة الأخيرة.. ولم يكن يجد لها معنى الا بشكلها المجرد هذا بعيدا عن الهدف. وربما لم يجد سببا للتضحية بها وفقدانها وتعريضها للبوار من أجل غايات لم يكن يفقهها لحد الآن. فالقيم الأموية المتدنية ربما كانت تؤثر عليه ومنطق الكسب والمنفعة هو الذي يشغل تفكيره.

بعدكم، فسار..» الطبري: ج ٣ ص ٢٩٨ وقد أوضحنا الأسباب المرجحة لبطلان هذه الرواية في مقالة سابقة في هذا الكتاب، والغرض من دس أمثالها عند استعراض نهضة الحسين المباركة.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠١.

فلئن مات الحسين ﷺ وفقد حياته فان الحر كان يرى أنه بذلك قد خسر، ما دام لم يحقق ربها ما ديا على هذه الأرض، وقد حسب أنه كان يسعى كما كان يسعى معاوية أو يزيد وغيرهم للحصول على الملك وكرسي السلطة، والعرش لأبنائه من بعده. لم يكن - لغاية تلك اللحظة - يفهم لغة الحسين ومنطق الحسين ومهمة الحسين.. وكان يرى أمامه معاوية ويزيد وابن زياد. يتحدث بلغتهم ويفهم منطقهم الذي يعزف على أوتار المنفعة والمصالح المادية البحتة. أما ما سوى ذلك فلم يصل اليه الحر حتى تلك اللحظة.

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقا وجاهد مسلما

وقد آلمت الحسين ﷺ تلك اللهجة التحذيرية من الحر، كما آلمته التحذيرات السابقة. فهل أن الناس جميعا جعلوا هذه الحياة - مجردة من الهدف الأعلى الذي نادى به الإسلام - هي الهدف الحقيقي، وان كانت بعيدة عن الإسلام وفي ظل الظلم والانحراف..؟

وهل أن الموت يخيفهم للدرجة التي لا يجروون معها على التصدي للظلم الانحراف؟ وهل لم يعودوا يؤمنون بالحياة الآخرة وثوابها وعقابها؟

وقد رد على الحر قائلا: «أفبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلونني؟ ما أدري ما أقول لك، ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه، ولقيه وهو يريد نصره رسول الله ﷺ فقال له: أين تذهب، فانك مقتول؟ فقال:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقا وجاهد مسلما

وأسى الرجال الصالحين بنفسه و فارق مشورا يغش ويرغما

فلما سمع ذلك الحر، تنحى عنه»^(١).

(١) المصادر السابقة والنص من الطبري: ج ٣ ص ٣٠٧.

هل كان أي شخص من أصحاب الحسين عليه السلام يخشى الموت حتى يخشاه هو، ويتراجع عن مهمته تحت وطأة هذا الخوف وتأثيره؟

لا شك انه كان يرى أن الغاية التي يضحي من أجلها، أثمر من السنوات القليلة المتبقية من هذا العمر الذي لا بد أن ينتهي على هذه الأرض، لتبدأ حياة جديدة خالدة مستمرة. وهي جديرة بالسعي لتكون حياة سعيدة في جنة الخلد مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

تردد بين التشدد والتسامح

وفي (عذيب المهجانات) التحق بالحسين عليه السلام أربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة، على رواحلهم وقد أراد الحر احتجازهم أو ردهم عنه وقال للحسين عليه السلام: «ان هؤلاء النفر الذين من أهل الكوفة ليسوا بمن أقبل معك، وأنا حابسهم أو رادهم، فقال له الحسين: لأمنعهم مما أمنع منه نفسي، انما هؤلاء أنصاري وأعواني، وقد كنت أعطيتني ألا تعرض لي بشيء حتى يأتيك كتاب من ابن زياد.

فقال: أجل، لكن لم يأتوا معك.

قال: هم أصحابي، وهم بمنزلة من جاء معي، فان تمت على ما كان بيني وبينك والا ناجزتك، فكف عنهم الحر»^(١).

ولعل التزام الحسين عليه السلام جانب أصحابه الجدد وحرصه عليهم وقوله للحر إنهم

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٨، وراجع المصادر السابقة. وربما كانت الدولة تتخوف من التحاق امثال هؤلاء بالحسين لتتقلب المعركة ضدها فحاولت حصاره في كربلاء وقبلها وربما التحق به كثيرون رغم ذلك الحصار وهذا ما لم تشر اليه اغلب كتب التاريخ وهو ما يوضح سبب تجنيد آلاف المقاتلين لقتاله، فليس من المعقول ان تفعل ذلك الا اذا كان عدد انصاره قليلا وغير مرشح للزيادة.

بمنزلة من جاء معه، موضع تأمل آخر للحر، وأمرنا جعله يفكر بالموقف كله وربما الالتحاق به بعد ذلك. اذ ما الذي يتميز به هؤلاء عليه، حتى يلتحقوا بالامام ولا يلتحق هو به؟ وأي شيء فهموه ولم يفهمه لحد الآن؟!؟

وقد أخبر هؤلاء الأنصار الجدد، الامام الحسين عليه السلام بطبيعة الموقف في الكوفة، وأنه ليس لصالحه، ولخصه له أحدهم بقوله: «أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم، يستمال ودهم، ويستخلص به نصيحتهم، فهم إلْبٌ واحدٌ عليك، وأما سائر الناس بعد، فإن أفئدتهم تهوى اليك، وسيوفهم غدا مشهورة عليك»^(١) كما أخبروه بمقتل رسوله إلى الكوفة قيس بن مسهر الصيدايي وألقائه من طمار القصر بناء على أوامر ابن زياد، وقد تأثر الحسين عليه السلام عند سماعه ذلك، ولم يملك دمه على صاحبه قيس الذي نصره وأبى أن يسبه ودعا الناس إلى نصرته والتخلي عن ابن زياد.

التحقوا به رغم أنهم رأوا الجيش الذي أعد لقتاله

وقال له آخر منهم: «رأيت قبل خروجي من الكوفة اليك بيوم، ظهر الكوفة، وفيه من الناس ما لم تر عينا في صعيد واحد جمعا أكثر منه، فسألت عنهم فقليل: اجتمعوا ليعرضوا ثم يسرحون إلى الحسين»^(٢).

وقد رفض الحسين عليه السلام التراجع بناء على النصيحة التي قدمها له ناقل الخبر هذا.. ولعل القول الذي دار بينه وبين الحر هو الذي جعله يخطو هذه الخطوة، لا قوة الحر العسكرية.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٨.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٨.

مسألة للتأمل والنظر

ان مسألة الرجوع هذه ينبغي التأمل فيها جيدا. فالحسين عليه السلام كان يعلم حق العلم - وقد أخبر بذلك عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله - أنه سيصل كربلاء وسيقتل هناك، وقد تيقن من ذلك ولم يعد لديه شك فيه. وما ورد في بعض الروايات أنه عرض على الحر وابن سعد الرجوع - اذا ما صحت - يكون في باب القاء الحجة. فهؤلاء قوم قد استدعوه، وهذه كتبهم اليه. أما وقد تراجعوا عن نصرته، فليدعوه يرجع من حيث أتى، والا كان ذلك منهم خيانة كبرى له ولجده صلى الله عليه وآله وللإسلام. وكان ذلك غدرا فاضحا، وفرص الرجوع كانت متاحة للحسين عليه السلام لو أراد ذلك، قبل أن يحاصر من قبل جيش ابن زياد. ومع ذلك فانه سار في طريقه إلى ساحة كربلاء، حيث سيتاح للأمة، ولأكبر عدد من جماهيرها أن تشهد هناك قضيته وتطلع على جوانبها وعلى الطريقة التي سيقدم فيها نفسه وأصحابه أنفسهم من أجل انجاحها وعرضها عرضا واضحا على هذه الأمة التي أراد أن تنتفض وتنهض مثله.

الاوامر أولا... نفذ ولا تناقش

واستمرت المسيرة، واستمرت مضايقات الحر للحسين عليه السلام الذي «أخذ يتياسر بأصحابه، يريد أن يفرقهم، فيأتيه الحر بن يزيد فيردهم فيرده، فجعل اذا ردهم إلى الكوفة، ردا شديدا امتنعوا عليه فارتفعوا. فلم يزالوا يتسايرون، حتى انتهوا إلى نينوى، المكان الذي نزل به الحسين»^(١).

كانت مهمة الحر اذاً واضحة وهي مضايقة الحسين عليه السلام ودفعه نحو الكوفة.. وهو ما بدا أن الحسين عليه السلام قد رفضه، حتى وصلوا نينوى، وهي احدى قرى الطف الواقعة في حدود كربلاء.. وهناك ورد راكب من الكوفة على نجيب له وعليه السلاح متنكب

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٩ وراجع المصادر السابقة الأخرى.

قوساً.. «فلما انتهى اليهم سلم على الحر بن يزيد وأصحابه، ولم يسلم على الحسين عليه السلام وأصحابه، فدفع إلى الحر كتاباً من عبيد الله بن زياد فاذا فيه: أما بعد، فجمع بالحسين حين يبلغك كتابي، ويقدم عليك رسولي، فلا تنزله إلا بالعراء، في غير حصن وعلى غير ماء. وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفارقك، حتى يأتيني بانفاذك أمري»^(١).

وقد أعلم الحر الإمام الحسين عليه السلام بمضمون كتاب ابن زياد، وبمهمة الرسول الذي جاء به وهي مراقبته ليرى مدى التزامه بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه عنه.

كانت رسالة الحر للحسين عليه السلام واضحة هنا؛ فقد أعلمه أنه لم يكن يتصرف بدوافع شخصية -، وإنما بأوامر من ابن زياد. واذ استطاع من قبل أن يتصرف فيسمح للحسين عليه السلام بالتياسر والابتعاد عن الكوفة، فإنه لا يستطيع الآن وقد وضع تحت المراقبة إلا أن ينفذ الأوامر الصادرة إليه بدقة وصرامة، وكأنه بذلك كان يعتذر للحسين عليه السلام عن موقفه معه، ويريه أنه كان مسيراً ومضطراً لسلوك ما سلكه معه من قبل وفي المستقبل أيضاً.

مفاهيم مقلوبة «أطعت إمامي وعصيت ربي»

وقد جرى حوار قصير بين رسول ابن زياد، مالك بن نسير البدي الكندي -الذي كانت له مواقف غير مشرفة في واقعة كربلاء والذي قتل فيما بعد من قبل أصحاب المختار- ويزيد بن زياد بن المهاصر، أبي الشعثاء الكندي ثم البهدي، أحد أصحاب الحسين عليه السلام.

«فعن له فقال: أمالك بن النسير البدي؟»

قال: نعم.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٩ وراجع المصادر السابقة الأخرى.

فقال له يزيد بن زياد: ثكلتك أمك، ماذا جئت فيه؟

قال: وما جئت فيه، أطعت امامي ووفيت ببيعتي.

فقال له أبو الشعثاء: عصيت ربك، وأطعت امامك في هلاك نفسك، كسبت العار والنار، قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾^(١) فهو أمامك^(٢).

وتتكرر صورة مالك بن النسير البدي الكندي وتظهر دائما. وهي الصورة التي أريد لها أن تتكرر وتظهر. صورة الانسان المستسلم لارادة أعلى من ارادته، ارادة طاغوت حاول ادعاء الشرعية، وتلاعب بالإسلام ومقدرات المسلمين وأراد جعلهم قطيعاً من الأنعام، لا ارادة له ولا تفكير ولا رأى.. يسلم قياده (لراعيه) دون وعي ويمضغ ويجتر حياته دون أن يجد معنى لهذه الحياة.. وقد سلب منه (فرعون) ارادته ووعيه وجعلها مرهونتين بارادته هو.

لم يقل ابن النسير أنه كان مقتنعا بموقفه، وأنه كان يريد الحفاظ على وحدة المسلمين وجماعتهم وان قناعته مبنية على أسس من الإسلام، وانما قال: صدرت لي الأوامر فأطعت، وليس لي أن أناقش أو أفكر بطبيعة المهمة التي أمرت بها. وقد أجابه قريبه بآية كريمة من القرآن كانت تكفي لردعه وردع أمثاله عن الانحدار في هاوية الضلال الأموي لو كانوا يملكون ارادة الإسلام الواعية المتبصرة.

جواسيس على قادة الجند

«وأخذ الحر بن يزيد القوم بالنزول في ذلك المكان على غير ماء ولا في قرية. فقالوا:

(١) القصص ٣٢.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٩٣-٩٤ وتراجع المصادر السابقة الأخرى.

دعنا ننزل في هذه القرية - يعنون نينوى - أو هذه - يعنون الغاضرية - أو هذه الأخرى - يعنون شفيه.

فقال: لا والله ما أستطيع ذلك، هذا رجل قد بعث إلي عينا^(١).

كانت تلك طريقة مألوفة لدى الطغاة والمتسلطين على مقدرات الناس والشعوب، أن ييثوا عيونهم وجواسيسهم بين الناس، حتى المقربين من حاشيتهم وأتباعهم، فقد علموا أنهم تبعوهم وساروا بركابهم لأسباب لا تمت لعقيدة أو مبدأ، وإنما طمعا في نواهم وخوفا من شرهم. وإن من سكت لم يسكت الا مرغما. وقد لجأ ابن زياد إلى هذا الأمر عندما بعث عيونا ليراقبوا قواد جيشه؛ لأنهم قد يخالفون أوامره وقد يتمرد عليه بعضهم وقد يتساهلون بتنفيذ تلك الأوامر، هذا اذا لم ينحز بعضهم إلى جانب الامام عليه السلام ويسبب انحياز أغلبية الجيش اليه، وربما أدى ذلك إلى قلب الأوضاع وانهباء الجيش، وهو أمر رأى أن لا بد من الاحتراز والتحفظ بشأنه منذ البداية، وهذا ما فعله بالضبط. مع ابن سعد ومع الحر ومع كل القادة الآخرين من قواد جيشه.

مبادئ لا يمكن تخطئها «ما كنت لأبدأهم بالقتال»

في ذلك الموقف، اقترح زهير بن القين على الإمام عليه السلام أن يسيروا إلى إحدى القرى الحصينة القريبة منهم وتقع على شاطئ الفرات، وأن يكون ذلك بالقوة إذا ما حاول الحر وأصحابه منعهم من ذلك، ورأى أن قتالهم أهون عليهم من قتال من يجيء من

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٠ وتراجع نفس المصادر السابقة. (نينوى والغاضرية وشفيه) من قرى الطف التي تقع ضمن كربلاء، وكانت عامرة في ذلك الحين ولذلك منع الحسين عليه السلام من النزول بها، ويبدو أنه نزل بينها في مكان غير عامر ولا يوجد فيه ماء وهو المكان الذي يوجد فيه قبره الشريف وما حوله.

بعدهم وقال له: «فلعمري ليأتينا من بعد من ترى ما لا قبل لنا به»^(١) إلا أن الحسين عليه السلام أجابه: «ما كنت لأبدأهم بالقتال»^(٢). وهذا أمر تحدثنا عنه في الفصل السابق، وعلمنا بعض الدوافع التي منعتهم من مبادأتهم بالقتال.

احكام الحصار «أما بعد: فحل بين الحسين وأصحابه وبين الماء»

لم ينزل الحسين عليه السلام في أي من القرى الحصينة الواقعة على النهر. ونزل في المكان الذي حدده الحر على غير ماء ولا في قرية. وكان ذلك يوم الخميس، وهو اليوم الثاني من المحرم سنة احدى وستين. وبعد يوم قدم عمر بن سعد في أربعة آلاف من أهل الكوفة، كان من المقرر أن يسير بهم إلى دستى التي كان الديلم قد خرجوا إليها وغلبوا عليها، وكان ابن زياد قد كتب إليه عهده على الري وأمره بالخروج. إلا أنه وقد رأى أن هذا الجيش كان جاهزا ومهيأ للقتال، أمر ابن سعد أن يسير للحسين عليه السلام أولا لمقاتلته ثم يسير إلى عمله اذا فرغوا مما بينهم وبينه - على حد تعبيره.

وقد ضيق هذا القائد الخائف، الخناق على أصحاب الحسين عليه السلام بناء على الأوامر التي وصلته من ابن زياد، والتي كان حريصا على تنفيذها حرصه على ولاية الري التي كانت تمثل أقصى مطامحه. وكان يرجو أن يتولاها إن هو أنجز مهمته وقتل الحسين وأصحابه عليه السلام أو أجبرهم على الاستسلام لابن زياد ومبايعة يزيد. وقد ورد في أوامر ابن زياد إليه: «أما بعد، فحل بن الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا يذوقوا منه قطرة، كما صنع بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان»^(٣).

ويبدو أن ورقة عثمان لا تزال تلعب حتى تلك اللحظة، وأن هناك من يحاول

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٠.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٠..

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣١١ وراجع المصادر الأخرى.

استغلالها في قضية قدرة أخرى تضاف للقضايا السابقة التي استغلها معاوية ولعبها بمهارة شيطانية فائقة.

وكان قد كتب اليه «فاعرض على الحسين أن يبيع ليزيد بن معاوية، هو وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأينا رأينا»^(١).

وقد سارع ابن سعد فبعث عمرو بن الحجاج «على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة.. وذلك قبل قتل الحسين بثلاث»^(٢).

الا أن العباس وجماعة من أصحابه عليه السلام استطاعوا ملء عدة قرب واوصلها لمخيم الحسين عليه السلام.

وقد أرسل ابن زياد، مبعوثه شمرا برسالة لابن سعد يأمره فيها أن يبعث بالحسين عليه السلام وأصحابه سلماً ان هم استسلموا ونزلوا على حكمه، أو يقتلهم ويمثل بهم اذا أبوا الاستسلام ومبايعة يزيد، وقد أوصاه أن يوطئ الخيل صدر الحسين عليه السلام وظهره، وسبه في رسالته. كما طلب من ابن سعد أن يتخلى عن قيادة الجيش اذا وجد أنه لا يستطيع القيام بالمهمة وتسليمها لشمر الذي أبدى انحيازه للنظام بشكل ملفت للنظر.

الحر تراجع عن الخطأ بعد أن فهم الحجة

ولعل لاحتجاجات أصحاب الحسين عليه السلام وفي مقدمتهم زهير بن القين وحبیب ابن مظاهر، على أصحاب ابن سعد من أهل الكوفة وتقريرهم وتوبيخهم. وقول زهير خاصة لهم: «أما والله ما كتبت اليه كتاباً قط، ولا أرسلت اليه رسولا قط، ولا وعدته

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١١ وراجع المصادر الأخرى.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١١ وراجع المصادر الأخرى.

نصري قط، ولكن الطريق جمع بيني وبينه، فلما رأيته ذكرت به رسول الله ﷺ ومكانه منه، وعرفت ما يقدم عليه من عدوه وحزبكم، فرأيت أن أنصره، وأن أكون في حزبه وأن أجعل نفسي دون نفسه، حفظا لما ضيعتم من حق الله وحق رسوله ﷺ»^(١).

وقول حبيب: «أما والله لبئس القوم عند الله غدا قوم يقدمون عليه قد قتلوا ذرية نبيه ﷺ وعترته وأهل بيته ﷺ وعباد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسفار والذاكرين الله كثيرا»^(٢) لعل لهذه الاحتجاجات والأقوال أثرها البالغ على الحر، اذ ما الذي يميز هؤلاء عنه وجعلهم يدركون ما لم يدرك؟

امام الحقائق والحجج البالغة

ألم يستمع لعديد من خطب الامام ﷺ، وقد رافقه فترة كانت كافية لكي يدرك الأسباب الحقيقية وراء قدومه إلى الكوفة.

وقد استمع إلى خطبته الأخيرة قبيل بدء المعركة، وكلماته المؤثرة التي كان حريا بها أن تقنع الجميع بالعدول عن موقفهم المعادي له والانضمام اليه، لولا أنهم قد فقدوا ارادتهم وشعورهم وحریتهم وجعلوها رهينة بارادة حاكمهم الظالم الجهول.

فهذا ابن بنت النبي ﷺ، وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه. وقد قال له رسول الله ﷺ ولأخيه: «هذان سيدا شباب أهل الجنة». جاء يواجه يزيد وحكومة يزيد ويريد منعه من التهادي في الانحراف والظلم.

لقد ألمه صمتهم وعدم قدرتهم على الرد عليه عندما قال لهم: «أفتشكون أثرا ما أني

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١١ وراجع المصادر الأخرى.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤ والمصادر السابقة.

ابن بنت نبيكم. فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصة أخبروني، أتطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحه - ؟ فأخذوا لا يكلمونه»^(١).

لأنهم لم يجدوا ما يردون به عليه. كانت حججه واضحة قوية، وكان الأخرى بهم أن يستجيبوا لها. وان عجزوا عن الرد بالكلام، فما كان يجدر بهم أن يردوا بالسيوف، أو السباب أو التحريض، فلم يكن ذلك مما لا يزعج الحر ويؤلمه.

لقد أحزنه أن لا يستجيب هؤلاء لدعوته وينهضون معه لأداء مهمته العظيمة. وهي انقاذ الأمة كلها، بما فيها هؤلاء الذين يشهرون سيوفهم بوجهه، من الخطر الأموي المستشري وتنبئها إلى الحال التي صارت إليها في ظل ملوك الانحراف.

لقد صمتوا بعد أن واجههم بأقواله وبعد أن واجههم برسائلهم وكتبهم إليه، وكان من هؤلاء قادة في هذا الجيش نفسه.

موقف الحسين موقف القوي الصابر «لا والله لا أعطيهم بيدي اعطاء الذليل ولا أقر اقرار العبيد»

وإذ إنهم عجزوا عن الالتحاق به والوقوف موقفه، كان من الأخرى بهم أن لا يستدعوه ويذلوا الوعود لنصرتهم والوقوف معه، ويدعوه - على الأقل - ينصرف إلى مأمنه من الأرض كما قال لهم: «أيها الناس، اذ كرهتموني، فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض»^(٢).

لم يكن موقف الامام (عليه السلام) هنا موقف الضعيف العاجز الذي يطلب الرحمة والعفو

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤ والمصادر السابقة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٩ وراجع بقية المصادر السابقة الأخرى.

من جلاده، وانما موقف القوي الواصل من صواب نهجه وقراره. وربما بهر الحر باجابه قيس بن الأشعث، عندما دعاه للنزول على حكم ابن زياد وقوله له مشيرا إلى خيانتهم السابقة، وما يعتزم فعله أمام آلاف الأعداء المتحفزين لقتله:

«أريد أن يطلبك بنو هاشم، بأكثر من دم مسلم بن عقيل. لا والله لا أعطيهم بيدي اعطاء الذليل، ولا أقر أقرار العبيد. عباد الله اني عدت بري وربكم أن ترجمون. أعوذ بري وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب»^(١).

ثم موقفه بعد ذلك، وشجاعته الفائقة، عندما أناخ راحلته، وأمر عقبة بن سمعان فعقلها، غير مبال بالموت الذي أوشك أن يكون قريبا، وقد زحف نحوه الأعداء.

سكتوا ولم ينطق الا شمر

ثم عندما أصبح شمر الناطق الوحيد باسم الجيش وقد تصدى لزهير بن القين وشتمه عندما توجه بالنصيحة والارشاد. وقد لقيت نصائح زهير وارشادته، ومن قبلها نصائح امام الأمة ﷺ نفسه آذانا صماء.

غير أنها وجدت هنا تقبلا وفهما، في نفس الحر الذي وعها تمام الوعي. وان جاءت في وقت متأخر.

وضع الصبح لذي عينين، الأذلاء يشهرون سيوفهم

لقد رأى الحر القضية هنا واضحة، انجلى الغموض وحل الالتباس، لم ير وجه حق لهؤلاء القوم في مقاتلة الحسين ﷺ، وكان عليهم بمقتضى ما فعلوا قبل ذلك، ودعوتهم اياه للقدوم، أن يكونوا من أنصاره وأعوانه بدل أن يتخلوا عنه ويحاربوه، وما لم يستطيعوا فعله وما لم يفعلوه فعله هو بكل ثبات وحسم. وقبل أن ينتقل إلى معسكر

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٩ وراجع بقية المصادر السابقة الأخرى.

الحسين عليه السلام، سأل عمر بن سعد عندما زحف بجنده: «أصلحك الله، مقاتل أنت هذا الرجل؟ قال: اي والله، قتالا أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي. قال: أما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضا»^(١).

وهي كما ذكرنا في فصل سابق - وكما سيتوضح في خطبة الحر نفسه بعد ذلك - تركه عليه السلام يعود أو يتوجه إلى مأمنه من الأرض، أو الاستجابة له. وقد اعتذر ابن سعد مبررا ذلك برفض سيده ابن زياد، وقال للحر: «أما والله، لو كان الأمر إلي لفعلت، ولكن أميرك قد أبى ذلك»^(٢).

وما دام أميره قد أبى ذلك، فليذهب إلى الجحيم هو وأميره.

أما هو، فلم يعد ابن زياد أميره بعد اليوم، بل ان الحسين عليه السلام هو أميره منذ هذه اللحظة، وعليه أن ينحاز اليه ويقف في صفه، رغم كثرة عدوه وقلة أنصاره.

وهكذا عزم على الالتحاق بالحسين عليه السلام ليقتل بين يديه، فقد كان يجد أنه عليه السلام مقتول لا محالة، وأن كل من كانوا معه سيقتلون أيضا، ولم يقف القتل مانعا أمام التحاقه بالحسين عليه السلام ولم ير أي موجب للخوف منه، ما دام قد أمن مستقبله في الآخرة.

لحظة فاصلة «أخير نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئا»

وكانت لحظة الالتحاق بالحسين عليه السلام لحظة فاصلة رهيبة. ولم يكن قد وطن نفسه وأخذها على ذلك بعد. وكان عليه أن يبت بشأها بشكل عاجل وسريع وحاسم، وإلا فأتت إلى الأبد، وفاتت معها فرصة الفوز الأبدي الذي كان يراه ماثلاً أمامه.

لقد أثارته قضية الحسين عليه السلام واستفزت مشاعره، ولعله فكر فيها منذ اللحظة

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠، والمصادر الأخرى السابقة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠، والمصادر الأخرى السابقة.

الأولى التي قبله فيها، ورأى العزم والثبات اللذين أخذ بهما الامام عليه السلام وأصحابه أنفسهم لانجاز المهمة رغم وعورة الطريق وغلاء الثمن، ورأى أن اللحظة الحاسمة قد حانت أخيرا. وها هو يرى تصميمهم لا يزال كما هو قويا وأنهم لا يزالون يتمتعون بنفس تلك القوة التي وجدهم عليها أولا.

وقد آله أن يستنجد هؤلاء بالحسين عليه السلام لينقذهم من جور الدولة الظالمة، ويعدوه بالنصر والالتفاف حوله، ثم يتخلون عنه بهذا الشكل الغادر القبيح الخالي من أية لياقة أو شعور بالمسؤولية أو الخجل ويقفون إلى جانب عدوه وعدوهم.

لقد وجد أن أولئك المتبخرتين في ساحة الحرب والشائمين المعجيين بقوتهم، بل بقوة عدوهم الذي يترغمهم الان قد نقضوا عهدا قطعوه على أنفسهم من قبل. نقضوه مرتين: مرة عندما تخلوا عن الحسين عليه السلام، ومرة عندما وقفوا إلى جانب عدوه وأشهروا سيوفهم بوجهه. لم يستطع الحر أن يفهم كيف أن أولئك الناس قد انحدروا إلى هذا المستوى الهابط. وكيف تقبلت نفوسهم الذل إلى هذه الدرجة التي لا يطيقها انسان يشعر بانسانيته وكرامته.

كانت لحظة انتقال الحر من معسكر ابن سعد إلى معسكر الحسين عليه السلام لحظة فاصلة أريد لها أن تتمخض عن قرار سريع حاسم لا مجال معه لأي تردد أو نكول فيما بعد.

كان يقف ضمن محيط دائرة جيش ابن زياد الواسعة التي كانت تحيط بالامام عليه السلام وأصحابه ويريد - بعد اتخاذ القرار - أن ينتقل إلى مركز الدائرة، إلى حيث الامام وصحبه، بطريقة لا يتمكن أحد معها من منعه أو ايقافه. وقد أراد أن يكون ذا فائدة كبيرة للحسين عليه السلام.

أراد أن ينحاز اليه فيقاتل بين يديه، ويقوم بمهمة نصح المعتدين بمثل الحماس

والوضوح اللذين أبداهما زهير بن القين وحبيب بن مظاهر وغيرهما من أصحاب الحسين عليه السلام.

وقد ظن أحد زملائه، من جيش ابن سعد، أنه كان يريد أن يتنحى، فلا يشهد القتال، عندما سأله: هل سقيت فرسك اليوم؟ أما تريد أن تسقيه؟ وذلك أقصى ما يمكن أن يفكر فيه أولئك القوم المستسلمون المخدرون الذين كانوا يعيشون تحت وطأة الخوف والتهديد والارهاب. وقد قال هذا الرجل - وهو قرة بن قيس - فيما بعد، ربما بعد هلاك يزيد. «ظننت والله أنه يريد أن يتنحى، فلا يشهد القتال، وكره أن أراه حين يصنع ذلك، فيخاف أن أرفعه عليه. فقلت له: لم أسقه، وأنا منطلق فساقه. فاعتزلت ذلك المكان الذي كان فيه. فوالله لو أنه أطلعني على الذي يريد لخرجت معه إلى الحسين»^(١).

ربما كان بعضهم يمني نفسه بذلك، ولربما تمنى بعضهم فيما بعد لو أنهم فعلوه، وربما فعل ذلك عدد منهم، إلا أنهم بشكل عام لم يجدوا في أنفسهم الجرأة لوضع أمنياتهم موضع التطبيق؛ لأن تلك الجرأة التي لم تكن لتتصاعد إلا بفعل الأيوان والعزيمة والصدق قد اختفت نهائياً من تلك النفوس المنهزمة المشلولة، بل الميتة.

وقد ظن آخر رآه يدنو من الحسين عليه السلام قليلاً قليلاً أنه يريد أن يحمل عليه. وعندما سأله: ما تريد يا بن يزيد؟ أتريد أن تحمل؟ «سكت وأخذه مثل العرواء، فقال له: يا ابن يزيد، والله إن أمرك لمريب، والله ما رأيت منك في موقف قط مثل شيء أراه الآن، ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة رجلاً ما عدوتك. فما هذا الذي أرى منك؟ قال: اني والله أخير نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئاً، ولو قطعت وحرقت.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠.

ثم ضرب فرسه فلاحق بالحسين عليه السلام»^(١).

آب أخيراً بعد أن اطمأنت نفسه «إني قد جئت لك تائباً ومواسياً بنفسي»

لقد آب أخيراً، وقرَّ عيناً بالآياب المسافر، وطابت نفسه، ووجد سبيله مع الحسين وأصحاب الحسين.. وها هو الآن معه. يخاطبه ويعتذر إليه مما سلف منه بحقه. فقد رأى أن ما ارتكبه كان أمراً عظيماً. انه يعلن توبته واستعداده للموت بين يديه تكفيراً عن ذنبه، كان يريد أن يطمئن إلى أن رحمة الله سوف تتداركه، وسوف يتوب الله عليه ويغفر له، كان الأمر الأهم لديه ضمان سلامته في الحياة الأبدية التي يريد أن يقدم عليها بروح واعية واردة حرة ترفض الظلم والخضوع والاستسلام.

توجه الحر إلى الله بالدعاء، والحزن والأسف والندامة تملأ قلبه وعلاماتها تبدو في وجهه:

«اللهم اليك أنيب، فتب علي، فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد بنت نبيك»^(٢).

ثم تقدم نحو الحسين وقد قلب درقته، منكسا رحمه كهيئة المستأمن وهو يطأطيء رأسه خجلاً مما فعله قاتلاً له:

«جعلني الله فداك يا بن رسول الله. أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسأيرتك في الطريق، وجعجت بك في هذا المكان، والله الذي لا إله إلا هو، ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبداً، ولا يبلغون منك هذه المنزلة، فقلت في نفسي: لا أبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم، ولا يرون أنني خرجت من طاعتهم. واني قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربي، ومواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك. أترى

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠.

(٢) اللهوف لابن طاووس ص ٤٣ وأمالى الصدوق م ٣٠.

ذلك لي توبة؟

قال: نعم، يتوب الله عليك ويغفر لك. ما اسمك؟

قال: أنا الحر بن يزيد.

قال: أنت الحر كما سميتك أمك. أنت الحر ان شاء الله في الدنيا والاخرة، انزل.

قال: أنا لك فارسا خير مني راجلا. أقاتلهم على فرسي ساعة، وإلى النزول ما يصير آخر أمري.

قال الحسين: فاصنع يرحمك الله ما بدا لك»^(١).

لقد أكد له الامام (عليه السلام) ان الله سبحانه سيقبل توبته ويغفر له، ما دام قد أتى بكل هذه العزيمة وهذا اليقين لنصرة الحق، وقضية الإسلام العادلة التي رفعها الحسين (عليه السلام).

انت الحري في الدنيا والاخرة

قد نرى أن من العجب سؤال الامام الحسين (عليه السلام) الحر عن اسمه، هنا فقط. أتراه لم يسأل عنه قبل ذلك ولم يكلف نفسه هذا العناء وهو يراه مجرد رقم صغير في هذا الجيش المتخاذل المهزوم، وشخصا معادا مكررا تافها لا قيمة له أمام القوة التي تسيّره وفق ارادتها ورغباتها، رغم أنها قوة ضعيفة أيضا... أم أنه قد نسيه -وهذا ما لا نرجحه- اذ لو كان قد تعرف عليه لم ينسه. خصوصا وأنه قد رافقه مسافة طويلة استغرقت عدة أيام حتى أوصله إلى المكان الأخير الذي وصل اليه وحط به رحاله.

ربما لم ير الحسين (عليه السلام) الا قضيته، والا من تبناها عن وعي وفهم وادراك؛ لم ير

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٠، والارشاد ص ٢٢٩، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٨، والخوارزمي: ج ٢ ص ١٠ وقد ذكر أنه قال: «يا بن رسول الله كنت أول خارج عليك فائذن لي أن أكون أول قتيل بين يديك. فلعلي أكون ممن يصفح جدك محمد (عليه السلام) غدا في القيامة».

أمامه حتى الجيش الكبير ذا العدة والعدد، بل لم ير أحدا جديرا بالنظر والاعتبار سوى أصحابه الذين تبنا تلك القضية وعزموا على تقديم أرواحهم في سبيلها. أما أولئك الذين تصدوا له من قبل والذين يحيطون به الآن، وقد جردوا من ارادتهم وحریتهم وسخروا لخدمة الفراعنة والطواغيت الجدد، فانهم ليسوا سوى أدوات صماء، كتلك التي يحملونها ويحاربون بها. كما أن أمرهم يثير الحزن والرثاء عليهم ولهم أكثر مما يثير السخط والغضب، لأنهم انما يسعون بذلك لحثفهم ويسعون لذهم وخزيم الأبدى وعذابهم الدائم في هذه الدنيا وفيها بعد. ولقد كانت من كلماته الأخيرة لهم: «أعلى قتلي تحاثون؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبدا من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني. وإيم الله اني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. أما والله أن لو قد قتلتموني، لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم»^(١).

كانوا يسعون بقتله لهوانهم وسفك دمائهم وموتهم وعذابهم الأبدى المقيم. وان كانوا لا يشعرون بذلك. فانهم عندما استسلموا ذلك الاستسلام المهين ليزيد وابن زياد وأعوانهما، فانهم أصبحوا من الهوان عليهما بحيث اتاحوا لهما فرصة التصرف بمصائرهم وحياتهم وأعراضهم كيفما شاء وأرادا. ولقد أكد من قبل أنهم اذا ما قتلوه «سلط الله عليهم من يذلمهم حتى يكونوا أذل من فرم الأمة»^(٢).

الفئة الباغية نفوس خاوية الا من الذل والاستسلام

وقال: «لتقتلني الفئة الباغية، وليلبسهم الله تعالى ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً، وليسلطن

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٤، ومقتل العوالم للبحراني: ص ١٨، ونفس المهموم للقمي: ص ١٨٩

والخوارزمي: ج ٢ - ص ٣٤، مع اختلاف يسير في بعض النصوص.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٠.

الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قوم سبأ، اذ ملكتهم امرأة منهم، فحكمت في أموالهم ودمائهم»^(١) فهم لم يقاتلوه من أجل قضية عادلة من قضايا الإسلام، بل قاتلوه ليرضى عنهم ابن زياد وحسب. وهم بذلك يدلون غيرهم على أنفسهم الضعيفة المهانة ويخبرونهم عن طبيعتها. انها نفوس خاوية الا من الاستسلام للسلطان والقوة وحسب ومن الحرص البغيض على مكاسب لم يحصلوا عليها ولم ينالوها في يوم من الأيام. وقد جعلوها رهينة بمشيئة فرعون وارادته، وما عليه سوى أن يأمر، ليرى كيف ستكون سرعة استجابتها لأوامره. انه لو طلب منهم أن يقتل أحدهم الآخر، هكذا، دون سبب، ولمجرد رغبته في ذلك لفعلوا ذلك دون تردد ودون سؤال.

ان غبشا وضبابا كثيفا، بل غبار غليظ تصاعد أمام أنظارهم، فلا يرون أبعد من مواضع أقدامهم. وان ارادة متسلطة تفوق ارادتهم هي التي تقودهم وتأخذ بزمامهم أذلة صاغرين.

لم يجاربوا الحسين عليه السلام بارادتهم، ولأنهم شاؤوا ذلك ورغبوا فيه، وانما نزلوا على ارادة غيرهم ورغبته ومشيتته، ولو أتاحت لهم فرصة الاختيار الحر الواعي، لآثروا الانضمام اليه والوقوف إلى جانبه.

لقد رفض الحر رفضا تاما ارادة العدوان والبغي التي أرادت تجنيده لتنفيذ مآربها حتى النهاية والاشتراك بقتل الحسين وأصحابه عليهم السلام. وعزم على الانضمام اليه، مخلصا نفسه من أوهام التمني ومن هوان الاستسلام والذل والتبعية العمياء لدولة الانحراف وقادتها.

(١) اللهوف: ص ٢٩، والخوارزمي: ج ١ ف ١١، وأعيان الشيعة: ج ٤ ص ١٨٤ وأمالى الصدوق:

سباق مع الزمن لردع القتلة « لا سقاكم الله يوم الظمأ ان لم تتوبوا »

حسب الحر أنه ما دام قد كان أحد أفراد جيش ابن سعد المعادي للحسين عليه السلام، وقد نفذ كل أوامر ابن زياد. ثم أدرك خطأه وانحاز إلى جانب الحسين عليه السلام لأنه أدرك أن ذلك هو الموقف الصائب الذي كان ينبغي أن يتخذه هو، ويتخذه كل فرد في ذلك الجيش. فانه حسب أن تأثيره عليهم لا بد أن يكون أكثر من تأثير غيره من أصحاب الحسين الآخرين وأن حجته ستكون أبلغ اذا ما توجه اليهم بالخطاب ليقنعهم بخطأ تصرفهم حيال الحسين عليه السلام ويردهم عما عزموا عليه من قتله وأذاه.

استقدم أمام أصحابه وتوجه بخطابه لأهل الكوفة يوبخهم على موقفهم من الحسين عليه السلام ويحذرهم من مغبة عملهم. فقال:

« يا أهل الكوفة، لأمكم الهبل والعبر، اذ دعوتموه، حتى اذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، أمسكنم بنفسه، وأخذتم بكظمه، وأحطتم به من كل جانب، فمنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة، حتى يأمن ويأمن أهل بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعا، ولا يدفع ضرا، وحلأتموه ونساءه وأصبيته وأصحابه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني، وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، وها هم أولاء قد صرعهم العطش.

بئسما خلفتم محمدا في ذريته. لا سقاكم الله يوم الظمأ ان لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه»^(١).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢١ وردت هذه الخطبة باختلافات في بعض المصادر الا أنها عموما كانت تصب في هذا المضمون. وقد ورد أن الحر ألقى خطبا متعددة لا خطبة واحدة.. ومن المرجح أنه كان يتحرك في جوانب متعددة ويلقي كلمات مشابهة لخطبته الرئيسية هذه وأن الوقت لم يكن يتاح

جيش كوفي وولاء أموي

لقد استفزه استسلام أهل الكوفة لابن زياد، فها هو يرى أن الجيش الذي جرد لقتال الحسين (عليه السلام) بما فيه أميره عمر بن سعد وقادته الآخرون، هو جيش كوفي خالص، ليس فيه شامي أو بصري. وأن الخوف من ابن زياد هو الذي جمعهم ووحد موقفهم، وقد جعل كل واحد من نفسه عينا على الآخرين.

وقد آله أن يتظاهروا بذلك الشكل الذي يبدو فيه وكأنهم أقوياء، رغم ما حفلت به نفوسهم من ضعف وتخاذل واستسلام. ويعرضوا ذلك الجانب الشرس من أخلاقهم وسلوكهم على ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ومنقذهم الحقيقي لو استجابوا له. وقد استجاب دعوتهم حين دعوه لتخليصهم من شرور النظام الأموي الطارئ الغريب عن الإسلام، والذي تسلط عليهم وسطا على كل مكتسباتهم وحياتهم وكيانهم وألحق بهم أذى جسيما ما كانت القوى المعادية لهم والمسفرة عن وجهها بقادرة على إلحاقه بهم.

لقد وجد زملاء الحر، من قادة جيش ابن سعد الآخرون، أنه تمرد عليهم وخرج على جماعتهم وخرّب وحدتهم، اذ انحاز إلى جانب الحسين (عليه السلام) ووقف في صفه يدافع عنه. واذا أعياهم الرد على حججه وبيانه، ولم يجدوا ما يردون به عليه، فانهم أمروا رجاله منهم ترميه بالنبل. وكان هذا هو كل ما استطاعوا فعله.

إشراف الكوفة خرج الحر عليهم فكشفهم أمام الأمة

وقد رأى بعض أفراد الجيش أن خروج الحر عنهم، كان يمس كرامتهم الشخصية، وأنه قد ألحق بذلك اهانة بالغة بهم؛ لأنهم قد حرصوا على أن يظهرُوا أمام ابن زياد

له بحكم جو القتال المتوتر للاطالة والاستطراد. وراجع الارشاد للمفيد: ص ٢٥٠ وأنساب البلاذري: ج ٣ ص ١٨٨، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٩، والنويري: ج ٣ ص ٤٤٥ وجمهرة خطب العرب: ج ٢ ص ٤٨ وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي: ص ٢٥٢.

بمظهر الموالي المتحيز نهائيا إلى جانب السلطة الأموية. وقد شوه الحر بذلك الصورة (الجميلة) التي أرادوا أن يظهرها بها أمامه وأمام سيده يزيد. لذلك فإن الحر عندما التحق بالحسين عليه السلام وأظهر الحرص على نصرته ودعوة الآخرين لذلك «قال رجل من بني تميم. يقال له يزيد بن سفيان: أما والله لو أني رأيت الحر بن يزيد حين خرج لأتبعته السنان. فبينما الناس يتجاولون ويقتتلون والحر بن يزيد يحمل على القوم مقدما ويتمثل قول عنترة:

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم
وان فرسه لمضروب على أذنيه وحاجبه، وان دمائه لتسيل، فقال الحصين بن تميم
ليزيد بن سفيان هذا الحر بن يزيد الذي كنت تتمنى قال نعم فخرج إليه فقال له هل لك
يا حر بن يزيد في المبارزة؟ قال نعم، قد شئت. فبرز له. [يقول النضر بن صالح أبوزهير
العبيسي راوي الخبر] فأنا سمعت الحصين بن تميم يقول: والله لأبرز له. فكأنما كانت
نفسه في يده، فما لبثه الحر حين خرج إليه أن قتله»^(١).

يتباهون بالجرائم

حدث نمير بن وعلة «أن أيوب بن مشرح الخيواني كان يقول: أنا والله عقرت بالحر
ابن يزيد فرسه، حشأته سهما، فما لبث أن أרعد الفرس واضطرب وكبا، فوثب عنه الحر
كأنه ليث والسيف في يده وهو يقول:

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤ والبحار: ج ٤ ص ١٤ ورد فيه (.. فخرج إليه، فما لبث الحر أن قتله)
ولم يرد فيه أن الحر قتل الحصين بل أنه قتل أشخاصا آخرين لم يعين أسماءهم وربما كان الحصين
أحدهم. والحصين بن تميم كان على شرطة عبيد الله بن زياد فبعثه إلى الحسين. وكان مع عمر بن
سعد، فولاه عمر مع الشرطة المجففة.

ان تعقروا بي فأنا ابن الحر أشجع من ذي لبد هزبر^(١).
وقد حسب ابن مشرح الخيواني، أنه بقتله فرس الحر لم يفعل شيئاً. وقد جرى حوار طريف بينه وبين أبي الوداك، ربما كان بعد الواقعة بمدة طويلة.

شركاء في الجريمة

قال أشياخ من أهل الكوفة لابن مشرح، وقد اعترف بأنه عقر بالحر بن يزيد فرسه: «أنت قتلتها. قال: لا والله، ما أنا قتلتها، ولكن قتله غيري، وما أحب أني قتلتها. فقال له أبو الوداك: ولم؟ قال: أنه كان -زعموا- من الصالحين. فوالله لئن كان ذلك اثماً، لأن ألقى الله بائث الجراحة والموقف أحب إلي من أن ألقاه بائث قتل أحد منهم.

فقال له أبو الوداك: ما أراك الا ستلقى الله بائث قتلهم أجمعين. أرأيت لو أنك رميت ذا، فعقرت ذا، ورميت آخر، ووقفت موقفاً، وكررت عليهم، وحرضت أصحابك، وكثرت أصحابك، وحمل عليك فكرهت أن تفر، وفعل آخر من أصحابك كفعلك، وآخر وآخر، كان هذا وأصحابه يقتلون؟ أنتم شركاء كلكم في دمائهم. فقال له: يا أبا الوداك، انك لتقنطننا من رحمة الله، ان كنت ولي حسابنا يوم القيامة. فلا غفر الله لك ان غفرت لنا

قال: هو ما أقول لك^(٢).

ان كلمات أبي الوداك جدية بالتأمل والنظر حقاً. وهي جدية أن يستمع إليها ويتدبرها كل سائر في ركاب الطغاة والظلمة.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٥، وفي مقتل الخوارزمي اضافة للبيت المذكور:

ولست بالخوار عند الكر لكنني الشابت عند الفر

ج ٢ ص ١١ ورويت أبيات غير هذه في بعض المصادر.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٦.

كل جندي في جيش ابن زياد يتحمل وزر قتل الحسين وأصحابه أجمعين. فابن مشرح ليس مسؤولاً عن قتل الحر وحده؛ لأنه عقر بالحر فرسه وحسب، بل كان مسؤولاً عن قتل الجميع. موقفه المتحيز لابن زياد والمعرض ضد الحسين وأصحابه، وقيامه بقتل فرس الحر دون أن يسأله أحد ذلك لا بد أن يجعل الآخرين يحذون حذوه ليكون مثالا سيئا لهم. سيرى عديدون من أفراد هذا الجيش أمثال ابن مشرح وابن حوزة وشمر والحصين بن تميم وأشباههم، وسيرون اندفاعهم وحرصهم على قتل الحسين وأصحابه عليه السلام وسيكونون مضطرين لمسايرتهم واتخاذ مواقفهم وابداء حماسهم والا تعرضوا للأذى، وكان هؤلاء سببا في أذاهم، اذ ربما كانوا عيوننا عليهم يسجلون حركاتهم وسكناتهم.

التحريض على القتل قتل والسكوت عن الجريمة جريمة

أصحاب فرعون قد لا يقتلون الناس بأيديهم، وفرعون نفسه قد لا يفعل، الا أنهم يرضونه على القتل، يزينونه له أنه حل جيد لكي يحافظ على عرشه ومصالحه. أما القتل المباشر فيقوم به آخرون جندوا لخدمته وأسلموا زمامهم له، ولم يكن لهم الا أن ينفذوا ما يريد، مهما كان هذا الشيء الذي يريد.

ولم يبلغ الأمر بابن مشرح أن كان أحد الحاشية المقرين، بل كان جنديا بسيطا، قد يكون أرسل إلى كربلاء تحت الضغط والتهديد. الا أنه انساق وراء هواه وهوى أسياده. أراد أن يبادر دون أن يسأله أحد ذلك لأمر رأى أنه سيقرب بسببه وسيمنح مكافآت من السلطان وربما كلمات ثناء ترفع من قدره. أراد لفت الأنظار إلى موقفه ليجعل الجميع يتحدثون به. ولقد جعل الجميع يتحدثون به، الا أنه لم يكن من ذلك شيئا، الا لوما وتقريرا وعذابا للضمير فيما بعد. والا فهل كان الحر وحده من الصالحين حتى يندم ابن مشرح على موقفه معه.

ألا يعرف ابن مشرح الحسين عليه السلام وبعض أصحابه؟ ألم يعلم أنهم كانوا من الصالحين أيضاً، بل وفي مقدمتهم؟ ومع ذلك فإنه لم يندم على موقفه معهم.
أكان ندمه قد جاء في وقته؟ أم أنه جاء في وقت متأخر لم يعد يجدي فيه شيئاً. بعد أن نفذ جريمته وحصل ما حصل؟

مع زهير يواجهان جيشاً كاملاً: «آليت لا أقتل حتى أقتل»

كانت حسابات العدو في المعركة تشير إلى أنه سيخسر كثيراً إذا ما قبل أسلوب المبارزة الفردية، فأمامه على حد تعبير عمرو بن الحجاج، فرسان المصّر، قوم مستميتون، وقد رأى أن لا يبارز أحد من أفرادهم. وأن يتبع أسلوب الهجوم العام، حيث لا يتكافأ عدد أصحاب الحسين القليل مع عدد أفراد الكثير بل الهائل جداً مقارنة بهم. وقد قتل في المعركة حبيب بن مظاهر، فآلم ذلك الحسين عليه السلام وأحزنه كثيراً. وقال عند ذلك: أحتسب نفسي وحماة أصحابي. عندها «أخذ الحرير تجز ويقول:

آليت لا أقتل حتى أقتل و لن أصاب اليوم الا مقبلا
أضربهم بالسيف ضربا مقصلا لا ناكلا عنهم ولا مهلا
لا عاجزا عنهم ولا مبدا أحمي الحسين الماجد المؤملا^(١).
وأخذ يقول أيضاً:

أضرب في أعراضهم بالسيف عن خير من حلّ مني والخيف^(٢).
فقاتل هو وزهير بن القين قتالا شديداً، فكان إذا شد أحدهما؛ فإن استلحم شد

(١) ورد هذا البيت الأخير في (أعيان الشيعة: ج ٢٠ ص ٣٨١).

(٢) ورد في المناقب لابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٠ والأنساب للبلاذري: ج ٣ ص ١٩٥ البيتان التاليان مع تقديم وتأخير..

إني أنا الحر ومأوى الضيف أضرب في أعناقكم بالسيف
عن خير من حل بوادي الخيف أضربكم ولا أرى من حيف.

الآخر حتى يخلّصه، ففعلا ذلك ساعة، ثم ان رجالة شدت على الحر بن يزيد فقتل»^(١).

قبل صلاة الظهر؛ قبل أن يصلي الحسين عليه السلام بأصحابه صلاة الخوف.

«فاحتمله أصحاب الحسين عليه السلام من الميدان حتى وضعوه بين يديه أمام الفسطاط الذي يقاتلون دونه، وكان به رمق، فجعل الحسين عليه السلام يمسح الدم والتراب عن وجهه وهو يقول: «أنت الحر كما سمتك أمك. أنت الحر في الدنيا وأنت الحر في الآخرة»^(٢).

ولنعم الحر حر بني رياح

وقد رثاه بعض أصحاب الحسين عليه السلام قيل أنه علي بن الحسين، وقيل أن الأبيات للحسين عليه السلام.

لنعم الحر حر بني رياح صبور عند مشتبك الرماح

ونعم الحر اذ نادى حسين فجاد بنفسه عند الصباح^(٣)

وهكذا ألقى عصاه، واستقر به النوى وانتهت رحلة حياته بتلك الخاتمة الملحمية السعيدة. وقر عينا بالاياب إلى الحسين وأصحاب الحسين عليه السلام، ذلك المسافر الذي ابتعد عن أهله وقومه الحقيقيين فترة من الزمن، عاد بعدها وفي أخرج لحظة ليقتل في مباراة حاسمة كَوّن فيها مع زهير بن القين فريقا يشار اليه بالبنان في حلبة المجد والنصر والسمو أمام الخائفين والمتخاذلين والمتردددين، ليظل بعد ذلك مثلاً واضحاً وشاهداً ماثلاً للعيان على الدوام لمن يأتي بعده من أجيال المسلمين، وليظل مصدر تأمل عميق من قبلنا جميعاً، ومن قبل كل من يتردد في الانحياز إلى جانب دين الحق انحيازاً حقيقياً لا رجعة عنه.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٧ والمصادر السابقة مع اختلافات يسيرة في النصوص.

(٢) الخوارزمي: ج ٢ ص ١١ والمجلسي: ج ٤٥ ص ١٤.

(٣) المصادر السابقة، وأمالى الصدوق: م ١٠، روضة الواعظين للفتال ص ١٨٦.

٣ - عبد الله بن عمير الكلبي

جهاد الظالمين أيسر ثوابا عند الله

كان «عبد الله بن عمير، من بني عليم، [و]كان قد نزل الكوفة، واتخذ عند بئر الجعد من همدان دارا، وكانت معه امرأة له من النمر بن قاسط، يقال لها أم وهب بنت عبد.

فرأى القوم بالنخيلة يعرضون ليسرحوا إلى الحسين. فسأل عنهم، فقليل له: يسرحون إلى حسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فقال: والله لقد كنت على جهاد أهل الشرك حريصا، وأني لأرجو ألا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيهم أيسر ثوابا عند الله من ثوابه إياي في جهاد المشركين.

فدخل إلى امرأته فأخبرها بما سمع، وأعلمها بما يريد.

فقالت: أصبت، أصاب الله بك أرشد أمورك. افعل وأخرجني معك. فخرج بها ليلا حتى أتى حسينا فأقام معه»^(١).

بهذه البساطة وهذا الوضوح نظر عبد الله بن عمير الكلبي وزوجه أم وهب، للمسألة كلها، وقررا الالتحاق بالحسين ﷺ لينصراه ويجاهدا بين يديه.

فهذان مسلمان يعرفان رسول الله ﷺ حقا، ويريان حرمة وحقه على جميع المسلمين فرضا واجبا. ويريان أن من أحبه فقد أحب الله، ومن أحب آلَه فقد أحبه وأحب الله أيضا. ومن أبغضهم فقد أبغضه وأبغض الله. أما إذا وصل البغض حدا يصل إلى

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢١.

استهدفهم بالقتل والأذى، فذلك أمر لا يستطيع بن عمير وزوجه فهمه واستيعابه ولم يفكروا أنه قد يحصل في يوم من الأيام. اذ كيف يجوز لمن يدعون الإسلام أن يقدموا على قتل ابن نبيهم ﷺ؟

ومع ذلك فقد حصل هذا الأمر. وها هو ابن زياد يستعرض جيشاً من أهل الكوفة في النخيلة ليسرّحوا إلى الحسين ﷺ لقتله أو اجباره على الاستسلام. وها هو الجيش يستعد للقيام بالمهمة التي ندبه اليها ابن زياد استجابة لمثل الدولة الطاغوتية في العراق.

وإذ إن ابن عمير كان حريصاً على جهاد أعداء المسلمين من أهل الشرك، ولعله قد شارك بحملات عديدة ضد المشركين. وإذ إنه رأى شركاً جديداً يتمثل بعبادة طواغيت جدد من دون الله، وأن ارادتهم هي الغالبة والقاهرة، وأن هؤلاء يستهدفون ابن الرسول وخليفته بالقتل والأذى في سعيهم المحموم لتثبيت عرشهم ومصالحهم؛ فانه رأى أن خروجه لحرب هؤلاء والوقوف مع الحسين ﷺ بوجوههم، سيكون فرصة لن تعوض؛ لأنها لا تتاح له كل يوم. وقد لا تتاح مرة واحدة في العمر كله.

واذاً فليكن خروجهما مع الحسين ﷺ خروجاً مع رسول الله ﷺ نفسه، وجهادهما معه جهاداً مع الرسول ﷺ.

فرصة نادرة لن تتكرر أبداً

رأى أم وهب كراي أبي وهب، جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيهم

ولا شك أن عبد الله بن عمير رأى أن تلك كانت فرصة نادرة، وعليه استثمارها وعدم التفريط بها والاضاعت منه إلى الأبد. لم يكن لديه شك في صحة موقف الحسين ﷺ وسلوكه وثورته، كما لم يكن لديه شك بدوافع أولئك الذين استهدفوه وأرادوا قتله. وإذا كان ثمة أمل للأمة ووجودها كأمة إسلامية حية، فان وجود الحسين ﷺ هو ذلك

الأمل الذي يحقق كل ما ترجوه من عز وكرامة في ظل الإسلام.

كان الالتحاق بالحسين عليه السلام يعني الموت المحقق. الا أن ذلك سيسجل لصالح الإسلام، وسيكون نصره حقيقية له تثبت لأعدائه أن هناك من هو مستعد حقا للتضحية في سبيله.

لقد حبذت زوجته، أم وهب، فكرته، ورأت أنه كان مصيبا بخروجه مع الحسين عندما أخبرها عن عزمه، وطلبت منه أن يخرجها معه، إلى حيث يقتل، بل إلى حيث يقتلان معا. اذ يبدو أنها قررت القتال إلى جانبه، مع أنه لم يكن مفروضا عليها.

لم ير ابن عمير الكلبي، كما لم تر زوجته أم وهب، أن أمر الالتحاق بالحسين عليه السلام قابل للأخذ والرد والنقاش. فقد عرفا الحق وعرفا أهله رغم قتلهم ووعورة الطريق اليه.

وهكذا تسللا تحت جنح الظلام خوفا أن يعيقهما أحد من الالتحاق بالحسين عليه السلام، وقد حوَصر معسكره ومنع الماء والطعام والعون، وأقاما في المعسكر انتظارا للحظة المناسبة للانتصار للإسلام وممثله الحقيقي، ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخليفته.

عملاق «بطل اني لأحسبه للأقران قتالا»

وقد أتاحت لعبد الله الكلبي فرصة القتال دون الحسين عليه السلام وأهل بيته، عندما بدأ ابن سعد القتال، ورمى بسهم، وارتمى الناس. وقد خرج يسار مولى زياد ابن أبيه، وسالم مولى عبيد الله بن زياد، وطلبا من بيارزهما. وقد وثب اليهما حبيب بن مظاهر وبرير بن خضير الا أن الحسين أمرهما بالجلوس. وعندها قام عبد الله بن عمير الكلبي، وطلب الاذن من الامام عليه السلام لقتالهما قائلا له «أبا عبد الله، رحمك الله، ائذن لي فلا أخرج اليهما. فرأى الحسين رجلا آدم طويلا، شديد الساعدين، بعيد ما بين المنكبين، فقال الحسين:

اني لأحسبه للأقران قتّالا. اخرج ان شئت فخرج اليهما»^(١).

وكان هذا الرجل هو الذي طلب بنفسه أن يخرج لمبارزة العبدین. فهو لم يلتحق بالحسين عليه السلام الا لكي يقاتل بين يديه. ولكي يقتل بعد ذلك. فهذا مصير علم أنه سيلاقيه، وان لم يقتله هذان العبدان فسيقتله غيرهما. فالحرب سجال وجيش العدو الكبير قد جاء لمهمة قتل الحسين وأصحابه واستئصالهم.

في مواجهة الأذلاء «ما يخرج اليك أحد من الناس الا وهو خير منك»

أما هما، فربما حسبنا نفسيهما في مصاف عليّة القوم نسبا ومقاما، وتناسيا في غمرة شعورهما بالتفوق على مجموعة العبيد الذين يحيطون بهما، باعتبارهما ينتميان إلى زياد وابنه العبدین الذليلين لمعاوية ويزيد، من هما وتناسيا أصلهما الوضع. فها هما الآن يخوضان هذه الحرب ويقفان في مقدمة من يتقدم للمبارزة والقتال. ويتفخان ببطولة مزعومة مصطنعة، حتى لقد حسبنا نفسيهما أبطالاً حقا.

وقد قالوا لعبد الله الكلبي، عندما برز لهما: «من أنت؟ فانتسب لهما. فقالا: لا نعرفك، ليخرج الينا زهير بن القين، أو حبيب بن مظاهر، أو برير بن خضير. ويسار مستتلا أمام سالم. فقال له الكلبي: يا ابن الزانية، وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس، وما يخرج اليك أحد من الناس الا وهو خير منك»^(٢).

لقد أعلمهما بحقيقتهما، فهما لم يكونا سوى عبيد ذليلين من عبيد السوء، حسبنا نفسيهما أعلى مقاما من الآخرين لقربهما من الطاغيتين زياد وابنه عبيد الله. فمقاييس الواجهة لم تعد على أساس القرب من الإسلام والتمسك به، وانما على أساس القرب

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢١، والخوازمي: ج ٢ ص ٩، والارشاد للمفيد: ص ٢٥٠.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢١.

من الطغاة والتفاني في خدمتهم، إذ إن مجموعة العبيد (الأحرار) قد خضعت لها وطأطأت رؤوسها لها. اعتقدا أنها في مقام أعلى من مقام الجميع. وهكذا راحا يطالبان عبد الله الكلبي أن يدعو لهما زهيراً أو حبيباً أو بريراً. ظنا منهما أنهم في مقامهما. ولم يعلما أنها - كما قال عبد الله - لا يبلغان قدر أي أحد من الناس يبرز اليهما، وما يخرج اليهما أحد من الناس ألا وهو خير منهما.

وقد شد على يسار في البداية (فضربه بسيفه حتى برد، فانه لمشتغل به يضربه بسيفه اذ شد عليه سالم، فصاح به [أحد أصحابه]: قد رهقك العبد. فلم يأبه له، حتى غشيه فبدره الضربة، فاتقاه الكلبي بيده اليسرى، فأطار أصابع كفه اليسرى، ثم مال عليه الكلبي حتى قتله، وأقبل الكلبي مرتجزا وهو يقول: وقد قتلها جميعا:

ان تنكروني فأنا ابن كلب حسبي بيتي في عليم حسبي
اني امرؤ ذو مرة وعصب و لست بالخوار عند النكب
اني زعيم لك أم وهب بالطعن فيهم مقدما والضرب
ضرب غلام مؤمن بالرب»^(١).

وانتهت هذه الجولة الأولى وقد قتل عدويه وعدوي الله. وقطعت أصابع كفه اليسرى.

ام وهب «قاتل دون الطيبين ذرية محمد، لن أدعك دون أن أموت معك»

ولم تشأ امرأته أم وهب، تلك المرأة التي قدمت بنية جهاد من قدموا لقتل ابن بنت نبيهم ﷺ. مع أن القتال لم يكن مفروضا على أمثالها من النساء، أن تترك زوجها وحيدا

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢، وأنساب الأشراف للبلاذري: ج ٣ ص ١٩٠، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٩، ونهاية الارب، النويري: ج ٢٠ ص ٤٤٧.

أمام هذين العبدین و غیرهما من عبید السوء الآخرين. وقد اندفعت لتشارك زوجها شرف مقاومة أولئك الأشرار القادمین لحرب الحسین (ع) وقتله، «فأخذت عموداً، ثم أقبلت نحو زوجها تقول له: فداك أبي وأمي، قاتل دون الطيبين، ذرية محمد، فأقبل إليها يردّها نحو النساء، فأخذت تجاذب ثوبه، ثم قالت: اني لن أدعك دون أن أموت معك. فنادها الحسین فقال: جزيتم من أهل بيت خيرا. ارجعي رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهن، فانه ليس على النساء قتال فانصرفت اليهن»^(١).

ان حماس أم وهب، تلك المرأة الضعيفة الغزلاء الا من عمود لا يصمد في وجه سلاح العدو، مبعث تأمل كبير. فأی شيء جعلها تقاوم أعداء الحسین (ع) بتلك الصلابة التي لم تعهد في النساء؟ وأي شيء جعلها تقدم على ما نكل عنه الرجال وتراجعوا وتكون ضمن المقاتلين الذين نصرّوا الحسین (ع) ودافعوا عنه؟ فهي لم يدركها ما يدرك النساء من الضعف والخور، عندما يتعرضن للمصائب والشدائد. ولم تكتف بحث زوجها على الالتحاق بالحسین (ع)، والاستشهاد بين يديه، بل أرادت أن تساهم معه في مقاتلة أعدائه وأعداء الحسین (ع)، لو لم يردّها الامام بنفسه هذه المرة.

وعندما حمل شمر بن ذي الجوشن وعمرو بن الحجاج على الحسین وأصحابه من كل جانب، كان عبد الله بن عمير الكلبي في مقدمة الذين ثبتوا لهم وواقفوه. «فقتل الكلبي وقد قتل رجلين بعد الرجلين الأولين، وقاتل قتالا شديدا. فحمل عليه هاني بن ثبيت الحضرمي، وبكير بن حي التيمي، من تيم الله بن ثعلبة، فقتلاه. وكان القتل الثاني من أصحاب الحسین»^(٢) بعد مسلم بن عوسجة، وكان أول من قتل منهم.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٥ ونهاية الارب: ج ٢٠ ص ٤٥، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٩١،

والخوارزمي: ج ٢ ص ١٢.

وهكذا كان ابن عمير من أواخر من التحق بالحسين عليه السلام وأوائل من استشهدوا معه وقد مضى إلى نصرته دون تردد أو خوف متيقنا أن ما كان يفعله هو الصواب حقاً، دفاعاً عن الإسلام وعن امام الأمة وقائدها وابن قائدها وحييها.

أم وهب شهيدة الإسلام واست زوجها فاغتالها الشمر

لم تترك أم وهب الفرصة هذه المرة دون أن تنتهزها. وذهبت تجري إلى زوجها القتيل، تريد أن تدركه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة لتواسيه وتخفف عنه آلام النزاع. وقد «جلست عند رأسه تمسح الدم والتراب عنه وتقول: هنيئاً لك الجنة. فقال شمر ابن ذي الجوشن لغلام يسمى رستم: اضرب رأسها بالعمود، فضرب رأسها فشدخه، فماتت مكانها»^(١).

ومضت أم وهب مع زوجها، وتمرغت بالتراب الذي أرادت أن تمسحه عنه. وأقبلت على الجنة التي هنأته بها. مضت نائرة محتجة على أولئك الخانعين الأذلاء الذين استسلموا وشلّت ارادتهم وعقولهم وبصائرهم.

ان اقدام أم وهب المرأة العزلاء التي انتصرت للحسين عليه السلام، على قتال أعدائه وتحديهم والوقوف إلى جانب زوجها ورفضها التخلي عنه في ذلك الموقف الصعب، يشكل ملحمة بحد ذاته، جديرة بالتأمل والنظر. فما كان شيء سوى الإسلام وحب الله ورسوله صلّى الله عليه وآله وذريته، يستطيع دفع امرئ مثل أم وهب وزوجها لفعل ما فعلاه^(٢).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٥.

(٢) وقد وردت روايات عديدة بخصوص استشهاد (وهب الكلبي)، فقليل في بعضها ان (وهب ابن عبد الله الكلبي) الذي يحدثننا عنه الآن كما في المناقب: ج ٤ ص ١٠١، والخوازمي: ج ٢ ص ١٣، والمجلسي: ج ٤٥ ص ١٦، وفي غيرها (وهب بن حباب الكلبي) و(وهب بن عبد الله بن جناب الكلبي)، و(وهبة بن وهب) فيكون اسمه:

وهب الكلبي، وهب بن عبد الله الكلبي، وهب بن عبد الله بن جناب الكلبي.

ان حال أولئك الذين التحقوا بالحسين عليه السلام، وكانوا من جملة أصحابه وأنصاره والمستشهادين بين يديه، رغم علمهم أنهم يقدمون على موت مؤكد في ظل أوضاع استنفير فيها العدو كل قواه واستطاع محاصرة الحسين عليه السلام مستهدفا قتله وبادته، لتثير في النفوس العديد من التأملات والأفكار. فهؤلاء بشر عاديون مثل غيرهم لا يتميزون عنهم بشيء، غير أنهم استطاعوا فعل ما لم تفعله الأمة كلها وما لم يجرؤ عليه أحد من أبنائها، وصمدوا أمام الخيار الصعب الوحيد الذي كان لا بد أن يتخذه وهو الانحياز إلى جانب الحسين عليه السلام متحدّين ارادة الدولة المستبدة وقوتها وجيشها الكبير المحدث بالحسين وأصحابه، واغراء الحياة وحبها، والخوف من القتل الذي لوح به أعداؤهم وبدا لهم أنهم ملاقوه لا محالة، واخترقوا جدار الخوف والذل والعبودية، ووصلوا إلى ما كان ينبغي أن تصل اليه الأمة في ظل الأوضاع الصحيحة التي أرادها الإسلام قبل أن تسلب حريتها، وتشل ارادتها.

وهب بن وهب، ولا ينافي في الاسماء الثلاثة الاولى ان يكون شخصاً واحداً، ولعل أحد اسماء أبيه وهب أيضاً. وقد ورد انه جاء مع امه وزوجه. وقد حثته امه في البداية على القتال ولم ترض إلا استشهاده بين يدي الحسين عليه السلام، اما زوجه فلم ترض موته في البداية، إلا انها ذهبت تقاتل معه حتى ارجعها الحسين عليه السلام، وقد تضاربت الروايات بشأن مقتل أم وهب ورجوعها مع زوجها إلى نساء الحسين وأصحابه. وقد يكون وهب ابناً لام وهب من غير زوجها عبد الله وقد ذهب يقاتل معه دون الحسين، وربما اصطحب معه زوجه أيضاً. فيكون اربعتهم قد التحقوا بمعسكر الحسين عليه السلام، ولعل المؤرخين لم يعتنوا منذ البداية بذكر التفاصيل.

الأصحاب الأوائل

المقاتلون في بدر والطف نفس الأهداف والعزيمة، نصره الإسلام

وهم الذين قدموا معه من المدينة أو مكة حتى وردوا كربلاء. وأمر هؤلاء عجيب حقا فكيف لم يحصل أن تردد أحدهم خلال هذه المسيرة الطويلة المضنية ولم يتخلف عن الحسين (عليه السلام) أو يفارقه رغم كل ما تعرضوا له وسمعوه.

لابد أنهم أيقنوا - كما أيقن هو (عليه السلام) - أنهم مقتولون لا محالة، ولا بد أنهم - قبل غيرهم سمعوه يؤكد ذلك أو يشير إليه، وسمعوا من يحذرهم من مواصلة المسير معه ويحذره هو (عليه السلام) أيضا مغبة ذلك المسير. ولقد رأوا العشرات ممن التحق بهم من الأعراب طمعا في مكاسب محتملة، ورأوا كيف تخلوا عنهم بعد ذلك عندما رأوا أن الموقف العسكري والتعبوي لم يكن لصالح الحسين (عليه السلام) وأن لا مكاسب ترتجى من وراء المسير معه.

كما أن هؤلاء الأنصار لم يتراجعوا أو يترددوا في مواصلة المسيرة معه، رغم أنه سمح لهم بذلك بل وطلبه منهم صراحة لمواجهة أعدائه بمفرده؛ إذ إنهم كانوا يطلبونه شخصا، وسينشغلون به عن غيره إذا ما وقع في أيديهم، فلقد كان يمثل بنظر أولئك الأعداء الخطر الرئيسي على النظام الحاكم بأكمله.

ولم يتردد هؤلاء الأنصار باعلان تصميمهم وعزمهم الثابت للمضي معه حتى النهاية. فهم قد تلقوا رسالته وفهموها ووعوها وأدركوا طبيعة المهمة الكبيرة التي

كان يريد انجازها، فكيف لا يشاركونه بها، وكيف يتركون هذه الفرصة الكبيرة، بل الوحيدة، التي أتاحت لهم فلا يستثمرونها؟ كان ذلك أمرا بعيدا عن التصديق أو التصور من قبلهم، فهم نموذج خاص تعامل مع الإسلام وقيمه، كما تعامل معه صفوة أصحاب الرسول ﷺ من المسلمين الأوائل، تعامل الرساليين الواعين لكل أهداف الإسلام، لا تعامل الانتهازيين والنفعيين وطلاب المصالح والجاه والثروة. ومن هنا جاء عدم فهم الكثيرين لهم، من أولئك الذين لم يحملوا تصور الإسلام وفهمه ولم ينظروا اليه بالمقاييس التي أرساها القرآن الكريم والرسول الأعظم محمد ﷺ، وآله قبل أن تمتد اليها يد التحريف والتزوير فتعرضها عرضا مشوها مبهما يستهدف تكريس مصالح الطبقة الطفيلية العدو للإسلام والتي تزعمت المسلمين وتربعت على كرسي الحكم بكل الوسائل غير المشروعة التي لم يقرها الإسلام.

كيف يتسنى لمن لا يحمل فكر الإسلام ووعيه وتصوره ونظرته للأمر أن يفهم ما يقوم به المسلم الذي حمل الإسلام ووعاه ورأى أنه الضمانة الوحيدة لحياته ومستقبله؟ ان الثبات الذي اتصف به أصحاب الحسين منذ بداية انطلاقة مسيرتهم معه، هو نفس الثبات الذي ميز البدرين الأوائل الذين حاربوا تحت لواء رسول الله ﷺ في بدر وغيرها من معارك الإسلام الكبيرة. وقد حملوا نفس عقلية وتصور أولئك الصحابة الواعين المنحازين للإسلام، وكان يقينهم بصحة موقف الحسين ﷺ وضرورته، نفس يقين أولئك الرجال بصحة موقف رسول الله ﷺ، وما جعل هؤلاء يستشهدون بين يدي الحسين ﷺ هو نفسه الذي جعل أولئك يقدمون على الشهادة بين يدي رسول الله ﷺ ويخوضون الحرب معه غير مباليين بالموت، بل مستبشرون به، بحماس وصبر لا يتاح الا لأولئك الذين امتلكوا قدرا غير عادي من الايمان وسلامة البصيرة ونفاذ الرؤية.

ولن نستطيع بدراسة محدودة كهذه، الامام بكل الشخصيات التي قاتلت تحت لواء الحسين عليه السلام غير أننا سنستعرض بعضها تكلمة لموضوع هذا الفصل، لتوضيح بعض جوانب المهمة الكبيرة التي اضطلعوا بها مع الحسين عليه السلام وطبيعة الأدوار التي أدوها في معركة كربلاء.

١ - العباس بن علي بن أبي طالب

الاخ الدافع عن أخيه، المجيب إلى طاعة ربه

ليس الحديث عن العباس بن علي عليه السلام مما يسهل في دراسة محدودة كهذه؛ إذ إن لهذه الشخصية العظيمة جوانب عديدة لا بد من استيعابها والاحاطة بها وهو أمر لا يتاح بسهولة، خصوصا وأن سيرته السابقة على أيام الطف لم تكن معروفة بشكل دقيق ولم يشر إليها اشارات مسهبة وافية جدية بتلك الشخصية، ولعل بعض الاهمال كان مقصودا ومتعمدا بفعل الحملة الأموية المضللة الظالمة التي استهدفت آل البيت وأهلهم وذويهم.

غير أننا سنتعرض لجانب من هذه السيرة خلال مسيرته مع أخيه الحسين عليه السلام من المدينة إلى الكوفة مرورا بمكة.

وأبو الفضل العباس بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام هو أكبر اخوة أربعة لأم البنين فاطمة بنت حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن صعصعة بن كلاب، وأمها شامة بنت سهيل بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب.

وقد روي أنه ليس في العرب أشجع من آبائها واخوانها الذين كانوا من سادات العرب وزعمائهم.

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لأخيه عقيل، بعد وفاة الزهراء عليها السلام، وكان نسابة العرب، وعرافة بأحسابها وعاداتها: «ابغني امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب

لأتزوجها، فتلد لي غلاما فارسا». وقد اقترح عليه أخوه عقيل أن يتزوج فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية، أم البنين. التي ولدت له العباس وأخوته عبد الله وعثمان وجعفرًا، وقد استشهدوا كلهم بين يدي أخيهم الحسين عليه السلام في معركة كربلاء بعد أن أبلوا بلاء حسنا في المعركة وخصوصا العباس الذي كانت له مواقف مشهودة فيها.

كان عمر العباس يوم استشهد أربعة وثلاثين عاما؛ اذ ان من المعلوم أن أمير المؤمنين عليه السلام تزوج بعد وفاة الزهراء عليها السلام أمامة بنت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وأبوها أبو العاص، وقد أوصته الزهراء عليها السلام بتزوجها بعد وفاتها. وبعد ذلك تزوج أم البنين الكلابية والدة العباس عليه السلام.

عاش في ظل أبيه أربعة عشر عاما وفي ظل أخويه الحسن والحسين عليهما السلام عشر سنوات وقضى ما تبقى من عمره في ظل أخيه الحسين عليه السلام ورعايته.

ولاء للإسلام وبيت الرسالة، جوانب من شخصية أبي الفضل

ان المشاهد العديدة التي لاح لنا فيها العباس خلال تلك المسيرة الملحمية تشير بوضوح إلى أمور عديدة وفي مقدمتها:

معرفته التامة بموقع أخيه الحسين عليه السلام كامام مفترض الطاعة وخليفة شرعي لرسول الله صلى الله عليه وآله.

ومنها: ولاؤه الشخصي الذي يفرضه قربه منه كأخ كبير حميم تنبغي محبته وموالاته لا من قبله هو وحده بل من قبل جميع المسلمين كما تحدث رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك، ولما يفرضه الالتزام العائلي الصحيح في ظل القانون الإسلامي. وقد برزت أفضل صورة لهذا الالتزام في عائلة أمير المؤمنين عليه السلام حيث حمل اخوة الحسن والحسين عليهما السلام من غير أهمها آيات الولاء والمحبة الصادقة لهما طيلة حياتهما وبعد وفاتها.

ومنها فروسيته وشجاعته وقوته وبأسه عليه السلام، التي لم ييخل بها في أي وقت حتى استشهاده على يد الطغمة التي حاولت منع الحسين وأصحابه الماء.

ومنه حزمه وهدوؤه في المواقف الصعبة والأزمات وتصرفه بحكمة اقتضتها طبيعة تلك المواقف، كما رأينا أسلوبه في التفاوض مع ابن سعد وأصحابه عندما أرادوا بدء المعركة عصر اليوم التاسع من محرم ونجاحه في ردهم وتأخيرهم.

ومنها إثاره الحسين عليه السلام بنفسه وإخوته اذ قدمهم ليستشهدوا قبله، وقد أعلمهم أنه قادم على الأثر وأنه سيستشهد بعدهم دون أن يساوره أو يساور أي أحد من إخوته أي خوف أو تردد أو شك.

ومنها رفته على أخيه الحسين عليه السلام وعلى النساء والأطفال، حتى أنه ليخجل من أن تراه سكينه وقد طلبت منه ماء. عندما أراد الحسين عليه السلام حمله إلى مخيمه وطلب منه أن يدعه في مكانه حتى لا يثير في نفسها الحزن والألم وحتى لا يزيد في حزن وألم النساء المكروبات الحزينات.

ونرى مزيجاً من هذه المواقف العجيبة في لحظات ومشاهد قصار تتسارع فيها الأحداث حتى ليكاد أمرها يبهر المشاهد العادي. اذ كيف تتاح لفرد واحد القيام بكل تلك الأعمال والأفعال في وقت قصير يعلم فيه أنه مقبل على موت محتم على يد أعداء شرسين يضمرون له الشر والأذى.

اداء فريد واستجابة تامة للحق

ولا عجب أن العباس عليه السلام قد تصرف بذلك الأداء الرائع، فهو ابن أمير المؤمنين عليه السلام، وابن من لم يعرف الا الحق ولم يمل الا معه ومن لم تأخذه في الله لومة لائم. ولا بد أنه قضى معه فترة من حياته كانت كافية لكي يكون جديراً بمدرسته واعتماد أسلوبه في الحياة،

لقد عاش معه أدق فترة من حياته، وهي فترة قيامه بالدور القيادي الفعلي للأمة عقب الأحداث الخطيرة التي مرت بها الأمة خلال حكم عثمان وبنو أمية. ولا بد أنه وعى أحداثها جيدا، فلم تكن تلك الأحداث عادية، ولم تكن حياة أمير المؤمنين عليه السلام هادئة راکدة لا تستثير شابا في مركز العباس، وقد اكتسب بعض صفاته الوارثية المشهورة مثل الذكاء والشجاعة والقوة والثبات والبأس.

كما أن الذي يثير انتباهنا حقا هو تلك الاستجابة المطلقة من اخوته الثلاثة الآخرين لأخويهم كلاهما الحسين والعباس عليهما السلام، وتقدمهم للمعركة بنفس الثبات والحماس اللذين أبداهما أخوهم العباس في نصرته أخيه الحسين عليه السلام وقضيته. ولعلمهم، في غمرة الأضواء التي سلطت على أخيهما لما أبداه من بطولة استثنائية ومواقف نادرة في معركة الطف، لم يشر إليهم كما أشير إلى أخيهما، ولعلمهم لم يتمتعوا بما تتمتع به من قوة وبأس وحنكة بحكم نضجه وسنه وبحكم أعمارهم الغضة التي تصغر عمر أخيهما.

ان تلك الاستجابة لم تكن مقصورة على العباس واخوته، بل انها كانت استجابة عامة تميز بها كل من رافق الحسين عليه السلام سواء من آله وأقاربه أو من أصحابه، وهو أمر لا بد أن يثير الانتباه حقا، اذ كيف لم يحصل أن تردد أي أحد من ذلك العدد الذي رافقه، بل واصلوا السير معه جميعا إلى النهاية مستجيبين له استجابة تامة ومطلقة؟

وقد برزت هذه الظاهرة العامة بين الشباب والشيوخ من أصحاب الحسين عليه السلام على السواء. وقد كان هؤلاء أمة مصغرة ولا بد أنهم كانوا طليعة نموذجية للأمة التي أرادت أن تتخلص من عبث الدولة الأموية التي سطت على المكاسب التي حصلت عليها في ظل الإسلام، فاستخدمت اسمه وشعاراته لسلب كل شيء منها، حتى ارادتها ووعيتها وتصورها الصحيح للإسلام وأردتها جثة هامدة لا نرى فيها شبيها للأمة الإسلامية الحقيقية التي كان يفترض أنها قد نضجت ووصلت إلى مرحلة متقدمة من الازدهار

والوعي بعد ستين عاماً من التجربة الإسلامية والحكم الإسلامي لتكون دولة إسلامية محمدية حقاً لا دولة أموية يزيدية. وإن شئت فقل فرعونية أو هرقلية كلما مات هرقل جاء هرقل على حد تعبير أحد الأدباء المعاصرين للدولة نفسها.

العباس: الساعد الأيمن لامامه الحسين

لقد أشارت الروايات كلها إلى الثقل الذي كان يشكّله العباس بالنسبة لأخيه الحسين عليه السلام وإلى اعتماده عليه في العديد من الأمور والمواقف التي كانت تتطلب حزمًا ورأيًا وشجاعة. وقد رأينا أنه قد رافق أخاه الحسين عليه السلام في لقاءاته مع عمر بن سعد بين المعسكرين في محاولة منه لاقناعه بالعدول عن موقفه بالوقوف إلى جانب دولة الظلم وكان معها علي الأكبر الذي استشهد في معركة الطف أيضاً.

وقد ادعى ابن سعد - بعد ذلك عندما خلا له الجو وانتهت المعركة - أن الحسين عليه السلام طلب منه أن يدعه يذهب ليزيد ويباعه فيرى ما بينه وبينه رأيه أو يدعه يرجع أو يذهب إلى ثغر من الثغور فيكون رجلاً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم.

ومتى ما علمنا أن ذلك اللقاء لم يحضره مع الحسين عليه السلام وابن سعد إضافة للعباس وعلي بن الحسين الأكبر، إلا ابنه حفص و غلام له يدعى لاحق. أدر كنا أن مصدر هذا الخبر الكاذب كان هو ابن سعد نفسه. وقد نشره بعد ذلك وروجه؛ إذ إن من كان يقدر على تكذيبه كان قد اختفى من الساحة. وقد رأينا من يكذب الخبر صراحة إضافة للدلائل الأخرى التي علمنا منها أنه خبر كاذب لم يصمد أمام دليل سوى ادعاء ابن سعد نفسه وهو عدو لدود للحسين عليه السلام أراد بذلك أن ينفي اقدامه على قتله عليه السلام إلا أنه اضطر لذلك من قبل ابن زياد وأراد اللقاء تبعة ذلك عليه وحده. وقد تحدثنا عن هذا الموضوع بأسهاب في موضع سابق.

ساقى العطاشا «لا أشرب منه قطرة وحسين عطشان»

عندما أصدر ابن زياد أوامره لابن سعد ليحول بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا يذوقوا منه قطرة، بعث ابن سعد عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء ومنعواهم أن يستقوا منه، ولم يكتفوا بذلك، بل قام بعضهم مثل عبد الله بن أبي الحصين الأزدي بتوجيه كلمات التشفي والسباب الرخيص مؤكدين على أنهم سيبدلون كل جهدهم لمنع الحسين وأصحابه الماء في محاولة منهم لاستفزازهم وتوهينهم وكان ذلك الموقف حريا أن يستفز ويضعف أية جماعة أخرى لو لم تكن جماعة الحسين عليه السلام بالذات؛ التي كانت تحتمل أن يقوم الأعداء بكل الاجراءات التي من شأنها اضعافها واجبارها على الاستسلام خصوصا وأن معسكر الحسين عليه السلام كان يضم أعدادا كبيرة من النساء والأطفال الذين لا صبر لهم على العطش والجوع، وكانت تشكل عامل ضغط عليها.

ولما اشتد العطش على من كان يضمهم معسكر الحسين عليه السلام. «دعا العباس بن علي ابن أبي طالب أخاه، فبعثه في ثلاثين فارسا، وعشرين راجلا، وبعث معهم بعشرين قربة، فجاءوا حتى دنوا من الماء ليلا، واستقدم أمامهم باللواء نافع بن هلال الجملي، فقال عمرو بن الحجاج الزبيدي: من الرجل؟ فجيء، فقال: ما جاء بك؟

قال: جئنا نشرب من هذا الماء الذي حلائمونا عنه.

قال: فاشرب هنيئا.

قال: لا والله، لا أشرب منه قطرة، وحسين عطشان، ومن ترى من أصحابه، فطلعوا عليه، فقال: لا سبيل إلى سقي هؤلاء، انما وضعنا هذا المكان لنمنعهم الماء.

فلما دنا منه أصحابه، قال لرجاله: املؤوا قربكم، فشد الرجال فملؤوا قربهم،

وثار اليهم عمرو بن الحجاج وأصحابه، فحمل عليهم العباس بن علي، ونافع بن هلال فكفّوهم، ثم انصرفوا إلى رحالهم. فقالوا: امضوا، ووقفوا دونهم، فعطف عليهم عمرو ابن الحجاج وأصحابه واطّردوا قليلا.

وجاء أصحاب الحسين بالقرب فأدخلوها عليه.^(١)

كان تصدي العباس عليه السلام بالعدد القليل الذي كان معه لعمر بن الحجاج وأصحابه، الذين بلغ عددهم خمسمائة شخص، أمرا مفاجئا لهذا العدد الكبير الذي لم يحسب أن الجراءة ستبلغ بالعباس وصحبه إلى حد الهجوم عليهم وانتزاع الماء على رغمهم. ولعلمهم حسبوا أنهم سيواجهون أناسا خائفين مرهقين قد أضناهم العطش وزلزلتهم كثرة الجند، وأنهم سيلجؤون إلى استعطافهم للحصول على قليل من الماء لأنفسهم، غير أن دهشتهم ازدادت حينما عرضوا عليهم أن يشربوا فرفضوا ذلك - رغم عطشهم المؤكد - وقال العباس لابن الحجاج:

«لا أشرب منه قطره - وحسين عطشان ومن ترى من أصحابه».

كان موقف العباس وأصحابه عجيبا، مذهلا، فهو من المواقف الانسانية النادرة القليلة التي لا تطالعنا الا في النادر القليل من الأوقات، وأعجب من ذلك قدرتهم على ادامة المواجهة وقدرتهم على تخلص قريهم رغم العدد الكبير من أفراد الجيش المعادي وأخذها الى معسكر الحسين.. وان كانت لم تكفهم بعد ذلك في غمرة الحر الشديد والجو اللاهب.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١١-٣١٢، وابن شهر آشوب: ج ٤ ص ٩٧، والارشاد: ص ٢١١، وأنساب الأشراف: ج ٣ ص ١٨٠، ونهاية الارب: ج ٢ ص ٢٠٤ والخوارزمي: ج ١ ف ١١، ومقتل العوالم: ص ٧٨، والمجلسي: ج ٤ ص ٣٨٨، والنص الأصلي عن الطبري، ولم ترو الحادثة بالتفصيل في كافة المصادر، ورويت ببعض الاختلافات البسيطة في بعضها.

لا للظالمين «لا حاجة لنا في أمانكم أمان الله خير من أمان ابن سمية»

ويطالعنا منظر آخر للعباس واخوته عليه السلام جدير بالاهتمام والتأمل أيضا. فقد حصل لهم عبد الله بن أبي المحل، على أمان من ابن زياد، وعبد الله هذا هو ابن أبي المحل بن حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب، وعمته أم البنين ابنة حزام بن خالد.

قال لابن زياد قبيل انصرافه إلى كربلاء ليلتحق بابن سعد: «أصلح الله الأمير، ان بني أختنا مع الحسين، فان رأيت أن تكتب لهم أماناً فعلت.. قال: نعم، ونعمة عين. فأمر كاتبه، فكتب لهم أماناً»^(١).

وربما رأى ابن زياد أن تلك كانت فرصة سانحة للتفريق بين الحسين وبين اخوته وأصحابه، فاذا ما تخلى عنه العباس واخوته - بعد أن يرسل لهم الأمان، فان الآخرين سيتخلون عنه حتما. هكذا فكر ابن زياد. وسره أن يظل الحسين وحيدا وقد يضعف أمام ذلك ويستسلم، وربما، اذا ما تخلى العباس عن الحسين عليه السلام فانه سيجد نفسه مرغما على الانضمام لمعسكر يزيد، وسيكون ذلك مكسبا كبيرا لابن زياد، اذ انه سيضفي طابعا من الشرعية على الحكم الأموي القائم بقيادة يزيد ويعطي المبرر الكافي للتدرع به أمام الأمة معلنا أنه الامام الحقيقي والخليفة الشرعي وسيضعف ذلك قضية الحسين أمام الأمة ويبرزها على أنها اعتداء وخروج سافر على الشرعية المزعومة. وربما سيرفعون من شأن العباس اذا ما تخلى عن الحسين عليه السلام وانضم اليهم، لكي يرفعوا من شأنهم ويعززوا موقفهم.

لقد كانت تلك فرصة نادرة لابن زياد، وربما فرح أشد الفرح عندما طلب منه ابن أبي المحل الأمان للعباس واخوته، فلم يعط الأمان ويأمر بكتابته بدوافع انسانية بحثة

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٣.

كما قد يتصور أحد، ولا بدافع رد الجميل لجنديّه (الشريف).

غير أن العباس واخوته فوتوا هذه الفرصة الذهبية على ابن زياد، وقطعوا أحلامه بشأنها. فعندما أرسل اليهم ابن أبي المحل بهذا الأمان المكتوب، مع مولى له يقال له كزمان وقال لهم هذا: «هذا أمان بعث به خالكم. فقال له الفتية: أقرئ خالنا السلام، وقل له لا حاجة لنا في أمانكم. أمان الله، خير من أمان ابن سمية»^(١).

لم يكونوا خائفين ولا مستسلمين. لم يبد على أحد منهم شيء من الخوف أو التردد، وقد غلف الأدب الذي اتسم به ردهم على ابن أبي المحل، حزم وثبات وصلابة. اذربا كان يرغب حقا في الابقاء على حياتهم بدافع قرابته لهم. وقد شكروه على ذلك. غير أنهم أكدوا له بنفس الوقت أنهم ليسوا بحاجة لذلك الأمان من انسان قد يكون هو نفسه بحاجة ماسة اليه. وأنهم لا ينتظرون سوى أمان الله، فذلك هو الأمان الحقيقي.

وكان ردهم القوي صفة لابن زياد الذي لا بد أنه قد تمنى في قرارة نفسه لو استجاب هؤلاء الفتية لحالهم وانحازوا اليه، فقد كان ذلك بنظره مكسبا كبيرا ونصرا محققا.

شمر يحاول استمالة العباس، والعباس يردعه «لعنك الله ولعن أمانك أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له».

وعشية الخميس، لتسع مضين من المحرم، أراد شمر أن يدي بدلوه أيضا ويستميل الفتية إلى جانبه ويعزلهم عن الحسين (عليه السلام). كان ذلك أثناء الاستعداد الأول للهجوم الذي أجل بعد ذلك حتى صبيحة اليوم التالي. وطبول الحرب تفرع بعد ورود تهديدات ابن زياد لابن سعد الضعيف المتخاذل الطامع بامارة الري.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٣.

«جاء شمر حتى وقف على أصحاب الحسين، فقال: أين بنو أختنا؟ فخرج اليه العباس وجعفر وعثمان بنو علي، فقالوا له: ما لك وما تريد؟ قال: أنتم يا بني أختي آمنون. قال له الفتية: لعنك الله ولعن أمانك. لئن كنت خالنا، أتؤمننا، وابن رسول الله لا أمان له؟»^(١).

لقد كان الحسين عليه السلام أمام أعينهم وفي قلوبهم دائماً، وكانوا يريدون الأمة كلها أن تضعه نصب أعينها وفي ضمايرها إلا أنها كانت مشلولة، مسلوقة الإرادة، تتصرف دون وعي أو شعور بالمسؤولية تحت وطأة السلطة الظالمة المتجبرة.

العباس يفاوض القوم ليقضوا الهجوم

وفي عصر ذلك اليوم نفسه، عندما زحف ابن سعد نحو خيم الحسين عليه السلام، كان العباس هو من أخبر الحسين عليه السلام بذلك.. فقال له الامام: «يا عباس، اركب بنفسي أنت يا أخي، حتى تلقاهم فتقول لهم: ما لكم؟ وما بدا لكم؟ وتسألهم عما جاء بهم. فأتاهم العباس، فاستقبلهم في عشرين فارساً فيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر. فقال لهم العباس: ما بدا لكم؟ وما تريدون؟ قالوا: جاء أمر الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو ننازلكم. قال: فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله، فأعرض عليه ما ذكرتم. فوقفوا، ثم قالوا: القه، فأعلمه ذلك، ثم القنا بما يقول.

فانصرف العباس راجعاً يركض إلى الحسين، يخبره بالخبر، ووقف أصحابه يخاطبون القوم»^(٢).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥.

«فان استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة... لعلنا نصلي لربنا الليلة»

وقد استمعنا لنصائح وخطابات حبيب بن مظاهر وزهير بن القين التي ألقاها خلال فترة ذهاب العباس عليه السلام وعودته.. وكان من الأجدر بمن استمع إليها أن يعي معانيها حقاً، ويعي الدوافع التي جعلت أنصار الحسين عليه السلام وهم قلة، يقبلون على الموت بذلك الثبات والعزيمة، وينضم إليهم ويناصرهم في المهمة الكبيرة التي أخذوا على عواتقهم انجازها، لا الانضمام إلى جانب أعدائهم، وهم بالتأكيد أعداء الأمة كلها.

«وكان العباس بن علي حين أتى حسيناً بما عرض عليه عمر بن سعد، قال: ارجع إليهم، فان استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة وتدفعهم عند العشية لعلنا نصلي لربنا الليلة، وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أنني قد كنت أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار»^(١).

غير أن العباس عليه السلام لم يبلغهم بالسبب الحقيقي الذي دعاه لطلب تأجيل القتال تلك الليلة ولم يوصل إليهم نفس رسالة الحسين عليه السلام وأقواله، فاذا ما أحب عليه السلام لنفسه وأصحابه أن يقضوا تلك الليلة في الصلاة وتلاوة الكتاب والدعاء والاستغفار، فربما لن يكون هذا السبب في نظر أعدائه كافياً لتأجيل القتال أو مانعاً منه. اذ ما تعني الصلاة وقراءة القرآن والدعاء بنظر أناس يقدمون بتلك السهولة على قتل امامهم وابن نبيهم عليه السلام وابن وصيه عليه السلام، حتى أن هذا الطلب من الحسين عليه السلام قد يستفزهم عندما يرون منه ومن أصحابه اهتماماً خاصاً بفريضة الصلاة وتلاوة القرآن.. فما عساهم أن يفعلوا هم في تلك الليلة وقد جاؤوا للحرب والقتال؟ أتراهم لم يعرفوا الصلاة ولا القرآن ولم يهتموا بهما؟ وقد يلاقي بعضهم الموت كما سيلاقيه الحسين وأصحابه فماذا سيكون موقفهم أمام الحسين عليه السلام وأصحابه أو أمام أنفسهم على الأقل عندما لن يقضوا الليلة

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥.

كما سيقضيها هؤلاء؟! ستكون رغبة الحسين عليه السلام الحقيقية حافزا على قيامهم بمنعه منها والاصرار على عدم تأجيل القتال وحسم المسألة واكمال الجريمة في تلك الليلة نفسها، اذ ماذا ستقول الناس عنهم بعد ذلك؟ هل سيقولون ان الحسين وأصحابه قضوا ليلتهم في الصلاة والدعاء والذكر استعدادا للقاء الله، وقضاها أعداؤهم في اللهو والعبث والسمر والاستعداد والتحضير للجريمة؟

وهكذا أقبل العباس عليه السلام يركض اليهم، وهو يعرف من هم، وأنهم أبعد ما يكونون عن الصلاة وعن الإسلام وعن التفكير الحقيقي بالصلاة ومعانيها التي لا يعرفها الا أناس كالحسين وأصحابه عليهم السلام.

طلب ينسجم معه واقع حال الخصوم

«فقال: يا هؤلاء، ان أبا عبد الله يسألکم أن تنصرفوا هذه العشية حتى ينظر في هذا الأمر، فان هذا أمر لم يجر بينكم وبينه فيه منطلق، فاذا أصبحنا التقينا ان شاء الله، فاما رضىنا فأتينا بالأمر الذي تسألونه وتسومونه، أو كرهنا فرددناه، وانما أراد بذلك أن يردهم عنه تلك العشية حتى يأمر بأمره، ويوصي أهله»^(١).

كان هذا الجواب المناسب الوحيد فما عسى الحجة الحقيقية، وهي الاستعداد للقاء الله بالصلاة وتلاوة القرآن والدعاء والاستغفار، أن تصمد أمام هؤلاء الذين أضاعوا الصلاة وأهملوها واستهانوا بها. ولم يشأ العباس أن يجيبهم جوابا لا يجد صدی في نفوسهم ويفسح المجال للنقاش والرفض. فقال ان عليهم أن يصبروا حتى اليوم التالي ليرى الحسين عليه السلام رأيه، ورأي الحسين عليه السلام كان معروفا مسبقا حتى من قبل أعدائه الذين يعرفون حقا أنه لن يتراجع عن موقفه ويبيع يزيد مهما كانت خطورة الموقف، غير أن

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤.

حجة العباس كانت قوية لا يمكن ردها.

وقد قال قيس بن الأشعث لابن سعد: «أجبههم إلى ما سألوكم، فلعمري ليصبحنكم بالقتال غدوة»^(١) إذا انه كان واثقا من اصرارهم وعزيمتهم. وقد وافق ابن سعد مدعنا لحجة العباس القوية ورأي قواده، الا أنه قال مكابرا، ردا على ابن الأشعث: «والله لو أعلم أن يفعلوا ما أخرتهم العشية»^(٢).

وهل كان بمقدوره أن يقول غير ما قال. هل كان يستطيع أن يقول انه سيؤخرهم وهو يعلم أنهم سيقاتلونهم في الغد، ويتيح لهم هذه الفرصة من العمر، وان كانت ليلة واحدة، ليستميلوا بها بعض أفراد جيشه وربما استمالوا أغلبية الجيش فعكسوا الموقف بأكمله.

وربما عُدَّ هذا منه ضعفا لن يرضاه ابن زياد الذي بث عيونه وأرصاده، وجواسيسه عليه وعلى القادة الآخرين بل على الجيش برمته. مع أنه يعلم قبل غيره أن الحسين عليه السلام لن يستسلم أو يبايع يزيد مهما كان الأمر، وقد خاطب هو نفسه شمرا في معرض تبادل التهم معتقدا أنه هو الذي حرض ابن زياد على شن الحرب على الحسين عليه السلام قائلا: «لا يستسلم والله حسين، ان نفسا أبيه لبين جنبيه»^(٣).

ليلة المعركة «اني لا أعلم أصحابا أولى ولا خيرا من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي»

وفي تلك الليلة، عندما رجع عمر بن سعد، جمع الحسين عليه السلام أصحابه وخطب فيهم قائلا: «أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء. أَللّهُمَّ اِنِي

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٤.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣١٣.

أحمدك على أن أكرمنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين. أما بعد فاني لا أعلم أصحابا أولى ولا خيرا من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي. فجزاكم الله عني جميعا خيرا. ألا واني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا، ألا وأني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعا في حل، ليس عليكم مني ذمام، هذا ليل قد غشيكم فاتخذوه جملا. ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فان القوم انما يطلبوني، ولو قد أصابوني لخوا عن طلب غيري»^(١).

وكانت هذه المرة الثانية التي يطلب فيها الامام ﷺ منهم ذلك ويجعلهم في حل من مغادرته وتركه. وكان من المحتمل في الظروف العادية، ولو كان الأمر لا يمنع من التخلي عنه، وكان أصحابه غير أولئك الأصحاب الذين كانوا خير الأصحاب، أن نجد من بينهم من يتخاذل ويتراجع ويتخلى عنه. غير أننا وجدنا حالة واحدة وموقفا واحدا من كل أولئك الأصحاب، رفضوا فيه بأجمعهم دون استثناء التخلي عنه، فكيف حصل أن لم نجد أحدا منهم يفكر بتركه رغم جو الحرب ونذره وعواصفه..؟

العباس مع الحسين دائما.. لن نتخلى عنك «لَمْ نَفْعَلْ لِنَبْقَى بِعَدِكَ، لَا أَرَانَا اللَّهَ ذَلِكَ أَبَدًا»
لقد أعلنوا بوضوح: «لَمْ نَفْعَلْ لِنَبْقَى بِعَدِكَ، لَا أَرَانَا اللَّهَ ذَلِكَ أَبَدًا. ثم انهم تكلموا بهذا ونحوه. بدأهم بهذا القول العباس بن علي»^(٢).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥، وابن طاووس: ص ٣٨، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٥، والخوارزمي: ج ١ ف ١١، والارشاد: ص ٢١٠، وأمالى الصدوق: م ٣٠، وجهرة خطب العرب: ج ٢ ص ٤٢-٤١، والبحار: ج ٤٤ ص ٤٩٢-٤٩٤، وابن شهر آشوب: ج ٤ ص ٩٩ وأنساب الأشراف: ج ٣ ص ١٨٥ والنويري: ج ٢٠ ص ٤٣٥.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥ وابن طاووس ٣٨، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٥ والخوارزمي: ج ١ ف ١١، والارشاد: ص ٢١٠، وأمالى الصدوق: م ٣٠، وجهرة خطب العرب: ج ٢ ص ٤٢-

كان تركه أمرا مستحيلا بنظرهم، إذ كان وجودهم على هذه الأرض بعد موته يعني موتا دائما لهم، حتى وإن ظلوا أحياء لسنوات معدودة من العمر، فهل يستسلمون ويبيعون يزيد أو يبقون مشردين خائفين لمجرد أن يعيشوا بضع سنوات أخرى من العمر، ويتركون ما عرضه عليهم الحسين عليه السلام والإسلام، وهو البقاء الدائم في ظل الله ورعايته، في جنته آمنين سعداء، كانوا يرون حياتهم في القتل مع الحسين عليه السلام والموت معه والمبعث معه، لا العيش في ظل فراغة أمية الظالمين الذين أرسوا قواعد للظلم باسم الإسلام رافعين شعاراته مدعين حرصهم على المسلمين ووحدتهم، مع أنهم كانوا أبعد الناس عن الإسلام وأشد المناوئين له، وموقف العباس عليه السلام هنا موقف واضح يضاف إلى جملة مواقفه العديدة في تلك الساعات الحرجة التي توشك أن ترتكب فيها أكبر جريمة عرفتها البشرية.

حامل الراية

وبعد أن عبأ الحسين عليه السلام أصحابه وصلى بهم صلاة الغداة، جعل زهير بن القين في يمينه أصحابه وحبيب بن مظاهر في يسرهم، أعطى رايته العباس بن علي أخاه، وقد ظل محافظا عليها، وكان آخر من قتل من أصحاب الحسين عليه السلام بعد أن بقي وحيدا وهو يحاول اختراق سور الجند المحيط بالفرات في محاولة منه لجلب الماء للأطفال العطاشا.

كانت الراية التي حملها العباس وهي ترفّ فوق أصحاب الحسين القلائل. تعني الكثير مقابل تلك التي كان يحملها أصحاب ابن سعد، تعني أن قضية ترفع هنا، بل قضية الأمة كلها، مقابل ادعاءات مزعومة بحق السيادة والسلطان يرفعها يزيد وابن زياد وأعوانها.

٤١، والبحار: ج ٤٤ ص ٤٩٢-٤٩٤، وابن شهر آشوب: ج ٤ ص ٩٩، وأنساب الأشراف: ج ٣

ص ١٨٥ والنويري: ج ٢٠ ص ٤٣٥.

لا بد أن المشهد يهز كل النفوس، بل أنه غير قابل للتصور عند الكثيرين. هل كان الحسين عليه السلام وأصحابه جادين وهم يقفون وقفة التعبئة والاستعداد لمواجهة جيش يفوقهم عشرات المرات..؟ وهل كانوا يعتقدون أنهم سيتغلبون على عدوهم بتلك المواجهة العسكرية غير المتكافئة؟ وهل كانوا يحسبون أنفسهم جيشا حقيقيا يحمل راية بمواجهة ذلك الجيش الكبير الذي يحمل راية أيضا؟ وإذا ما كانوا يعتقدون أنهم يقتلون بتلك المواجهة فلم ذلك الاستعداد للقتال؟ وما جدواه أصلا إذا كان مصيرهم القتل؟

تساؤلات المتخاذلين

ونحسب أن الذي يطرح هذه الأسئلة قد يريد القول: ما جدوى الثورة كلها إذا ما كان الأمر سينتهي تلك النهاية المأساوية..؟ وما جدواها وقد سكنت الأمة كلها عن يزيد واستسلمت له؟

أما بواعث الثورة فقد عرفناها، وعرفنا أنها ما كانت تحقق هدفها - في ظل الأوضاع التي قامت فيها - لو لم تتم بتلك الصورة المأساوية.

كان الحسين عليه السلام يسلم العباس رايته لتخفف فوق رؤوس أصحابه متحديا كل عنجهية وكبرياء دولة الظلم وكل جيوشها وطغاتها، ليرسل بذلك إشارة واضحة للأمة كلها: أن مواجهة الظلم ينبغي أن تتم في كل ظرف ومهما كانت قوة الظالم.

والراية لا بد أن ترفع مهما كان عدد الذين يقفون تحتها ويستظلون بظلها. والسكوت عن الظالم يعني الاقرار (بشرعية) وجوده وظلمه.

كيف كنا سنلتفت نحن إلى ظلم يزيد لو لم يرفع الحسين عليه السلام رايته بوجهه؟

وإذا ما كان الحسين عليه السلام قد قرر الثورة والمواجهة، فهل يذهب ليسلم نفسه لأعدائه في كربلاء دون قتال أو دفاع عن النفس؟ أيصح منه هذا لو فعله؟ وهل كنا نحن نقبل

ذلك؟

الحسين عليه السلام لم يذهب الا مقاتلا، حتى ولو بقي وحده. ولقد قاتل عندما بقي وحده، وقتل وهو يحمل الاصرار على مواجهة دولة الظلم وتحديها ومقاتلتها، وبذلك حفظت لنا تلك الصورة الفريدة للمواجهة وظلت أمام أنظار المسلمين دائما. وقد ظلت شاخصة مثالا للتحدي اللازم والواجب لدولة الظلم أينما وجدت، تهز كل منتم حقيقي للإسلام وتقلق كل أعدائه وكل من لا يجد في نفسه قوة على حمل رايته أو الوقوف تحتها. ولعلها صورة تفرع كل ضعيف، أن تقوم تلك القلة من أصحاب الحسين عليه السلام بتعبئة نفسها ورفع رايته بمواجهة جيش كبير حاشد متعطش لدمها، مدفوع بارادة ظالمة لسحقها وبادتها واستئصالها.

ان الذي وجد، أن الأمر كان يستحق المواجهة والثورة، وجد أن عليه أن يموت مية جديرة بتلك الثورة. يموت مقاتلا بعد أن يقتل فردا أو فردين من أعوان دولة الظلم والا فهل يقدم على المواجهة، ويجلس مقابل أعدائه، ينتظر اللحظة التي يقضون فيها على حياته دون أن يرفع يدا للدفاع عن نفسه؟

ومع أن الصورة كانت محزنة، وقوف تلك القلة المستبسلة التي ترفع راية الإسلام الحقيقية بمواجهة البحر المتلاطم من الجند، الا أنها كانت صورة فريدة لن يتاح للبشرية أن تشهد مثلها، وكان لها معنى واحد ورسالة واحدة كتبها تلك القلة:

لا بد للإسلام أن يجد من ينتصر له. وان عجز الجميع عن ذلك وخافوا من مواجهة دولة الظلم، فها نحن نواجهها غير عاجزين ولا خائفين رافعين راية الإسلام، وان الأمر الذي كان غير قابل للتصديق قد حصل..

وها نحن نقدم حياتنا في سبيل الإسلام ونقاتل في سبيله، وها نحن نتنصر على

أعدائنا رغم كل قوتهم وكيدهم وعددهم. وقد وصلت رسالة الحسين ﷺ للأمة فعلا ووجدت من يستقبلها ويعيها، ووجدت من يلتحق بموكب أصحابه وان بعدت الشقة وطال الزمن.

تهدئة مخاوف النساء

وقبيل القتال رأى الحسين ﷺ أن يبين لجيش ابن زياد دوافعه من القدوم اليهم ويعرفهم بأهمية موقعه ومركزه من رسول الله ﷺ ومن الأمة كلها وقد أثارت مقدمة خطبته التي كان يحتمل فيها عدم استجابتهم لدعوته ونداءاته مخاوف النسوة في معسكره وقد رأى احتمال قتله ﷺ وأصحابه أمرا واردا، بل قريبا^(١) وقد بكين وصحن عندما سمعنه، وكان من العسير اسكاتهن لو لم يتصد العباس وعلي الأكبر لذلك، وقد أرسلهما الامام الحسين ﷺ لهذه المهمة التي لم تكن تبدو يسيرة في ذلك الحين، فالنسوة كن قد اعتدن حياة الأمان، واعتدن أن يحترمن في بيوتهن في ظل آبائهن وأزواجهن واخوتهن، وهما هن يواجهن الآن من يريد الفتك بهن والقضاء عليهن ويواجهن مصيرا مبهما سيلقين فيه المزيد من الاذى والتشريد والاهانة وربما القتل أيضا، فأى شيء يمنع أعداء الحسين من فعل ذلك ما داموا قد تجرؤوا عليه وواجهوه تلك المواجهة الظالمة..؟

كان أمر اسكاتهن يحتاج جلدا ورفقا وصبرا، وكن يحتجن إلى من يثقن به ويسكن اليه، رجل قوي حازم أريب، وهذا ما كان عليه العباس وعلي الأكبر أيضا، وقد نجحا باسكات النساء، فليس من المعقول أن يمضي الحسين ﷺ في خطبه وبياناته، وحججه

(١) وقد جاء في مقدمة تلك الخطبة: «اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعظكم بما لحق لكم علي وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم علي سبيل وإن لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ يونس ٧١ ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ الأعراف ١٩٦، الطبري: ج ٣ ص ٣١٨.

ليسمع صوته أعداءه، وأصوات النساء ترتفع بالصياح والبكاء، ستثيرهم وتجعلهم يشعرون بقوة وبأس أكبر من التي كانوا عليها ويتحمسون حماس الوحوش الضارية وهي ترى استسلام فرائسها وتسمع صراخها وعويلها.

الحسين يلقي الحجة على جيش ابن زياد ويوضح أسباب ثورته

وقد أكمل الحسين عليه السلام خطبته^(١) وأوضح للجيش المعتدي أسباب قدومه إلى الكوفة، وذكرهم بموقعه ومنزلته وما ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله بحقه وحق أخيه الحسن عليه السلام وعدم جواز قتله والاعتداء عليه وانتهاك حرمة وطلب منهم أن يتأكدوا من ذلك من مجموعة من الصحابة ذكرهم لهم، وقد أنكروا بالطبع كل رسائلهم وكتبهم ودعواتهم إليه وطلبوا منه الاستسلام لابن زياد ومبايعة يزيد، واذ لم ير جدوى في الاستطراد بالكلام لاقناعهم بعد أن حاول ذلك أكثر من مرة وحاوله بعض أصحابه، فانه صرخ فيهم قائلاً: «لا والله لا أعطيهم بيدي اعطاء الذليل، ولا أقر اقرار العبيد، عباد الله اني عذت بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب. ثم انه أناخ راحلته، وأمر عقبة بن سمعان فعقلها، وأقبلوا يزحفون نحوه»^(٢).

العباس عليه السلام المهمات الصعبة

كان العباس عليه السلام يظهر في كل المواقف الصعبة التي تستدعي ذلك ويظهر فيها خطر حقيقي يتعرض له أصحاب الحسين عليه السلام وقد استنقذ في احدى المرات جماعة من أصحاب الحسين عليه السلام قطعوا من أصحابهم، وهم الأربعة الذين وردوا من الكوفة والتحقوا بالامام عليه السلام. وكان هؤلاء وهم: عمر بن خالد الصيداوي وجابر بن

(١) وقد ذكرنا هذه الخطبة فيما مضى من هذه الدراسة.

(٢) تراجع المصادر السابقة، والنص عن الطبري: ج ٣ ص ٣١٩.

الحارث السلمي وسعد مولى عمر بن خالد، ومجمع بن عبد الله العائذي، قد «قاتلوا في أول القتال فشدوا مقدمين بأسيا فهم على الناس، فلما غلوا عطف عليهم الناس، فأخذوا يحوزونهم، وقطعوه من أصحابهم غير بعيد، فحمل عليهم العباس بن علي فاستنقذهم، فجأؤوا وقد جرحوا، فلما دنا منهم عدوهم شدوا بأسيا فهم، فقاتلوا في أول الأمر حتى قتلوا في مكان واحد»^(١).

كان العباس عليه السلام يشكل وحده قوة لا يستهان بها، وقد رأينا كيف انتزع الماء مع مجموعة قليلة من أصحابه، رغم عمرو ابن الحجاج وأصحابه الخمسمائة، وكيف يقوم الآن بانقاذ هؤلاء الأربعة من عدوهم الذي لا بد أنه كان يضم اعداداً كبيرة وكان الحسين عليه السلام يعتمد عليه بشكل استثنائي لبأسه وشجاعته واستجابته التامة غير المتحفظة وفهمه لامامه وأخيه فهما واعيا أمكنه من تنفيذ رغباته وأوامره بأسرع وقت وبأداء جيد لا يحسنه غيره.

كلنا فداء للحسين عليه السلام، العباس يقدم اخوته : «تقدموا يا بني أمي حتى أراكم قد نصحتهم لله ولرسوله»

وعندما بدأ أصحاب الحسين وآله يتساقطون في المعركة، وكان أولهم من آله، علي ابن الحسين (الأكبر)، كان العباس لا يزال يجول في المعركة ويصول على أعدائه، وقد أدرك أن دوره في الشهادة قد اقترب، فأراد أن يقدم اخوته ليموتوا قبله ليحتسبهم عند الله... وقد قال لهم: «تقدموا يا بني أمي حتى أراكم قد نصحتهم لله ولرسوله»^(٢) ومع

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٠.

(٢) الارشاد للمفيد: ص ٣٥٥، وذكر الطبري قائلا: «وزعموا أن العباس بن علي قال لاختوته من أمه -عبد الله وجعفر وعثمان-: يا بني أمي تقدموا، حتى أراكم فانه لا ولد لكم. ففعلوا، فقتلوا...» ج ٣ ص ٣٣٢.

أنهم ليسوا بحاجة لمن يحثهم على القتال، فقد كانوا شبابا يعون مهماتهم تمام الوعي^(١).

أخوة العباس «نحن فداء لأخينا الحسين نحمي حسيننا ذا الندى المفضل»

دعا أخوته قائلا لكل منهم: «تقدم يا أخي حتى أراك قتيلا وأحتسبك، فإنه لا ولد لك»^(٢).

وقد تقدم عبد الله بين يديه واستأذن أخاه الحسين عليه السلام في البروز إلى الميدان ومقاتلة الأعداء، وقد قاتلهم وهو يقول:

أنا ابن ذي النجدة والافضال ذاك علي الخير في الأفعال
سيف رسول الله ذو النكال في كل يوم ظاهر الأحوال^(٣)
وقد قتله في النهاية هانئ بن ثبيت الحضرمي عندما ضربه بالسيف على رأسه. أما عثمان - الذي سماه أبوه عليه السلام باسم الصحابي الجليل عثمان بن مظعون - فقد تقدم وهو يرتجز ويقول:

أنا عثمان ذو المفاخر شيعي عليّ ذو الفعال الطاهر
أخي حسين خيرة الأخابر و سيد الكبار والأصاغر
بعد الرسول والوصي الناصر^(٤).

(١) المشهور أن عبد الله عاش خمسا وعشرين سنة وعثمان احدى وعشرين سنة وجعفر أ تسع عشرة سنة وروي غير ذلك.

(٢) البحار: ج ٤٥ ص ٣٨، والخوارزمي: ج ٢ ص ٢٩، ومقاتل الطالبين: ص ٥٨، وابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٧.

(٣) البحار: ج ٤٥ ص ٣٨، والخوارزمي: ج ٢ ص ٢٩، ومقاتل الطالبين: ص ٥٨، وابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٧.

(٤) مقاتل الطالبين: ص ٥٩ والمصادر السابقة الأخرى.

وقد رماه خولي بن يزيد بسهم غادر وقع في جبينه فأضعفه حتى سقط على الأرض، فجاءه رجل من أبان بن دارم، فاحتز رأسه.

أما جعفر فتقدم يشد على الأعداء وهو يقول:

اني أنا جعفر ذو المعالي ابن علي الخير ذي النوال
حسبي بعمي شرفا وخالي أحمي حسينا ذا الندى المفضل
وقاتل حتى رماه خولي بن يزيد الأصبحي^(١)، وقيل هانئ بن ثبيت الحضرمي^(٢)
فأصاب عينه فقتله.

قتلوا فبقوا أحياء عند ربهم يرزقون

لقد استجاب اخوة العباس لنداء أخيهام استجابة تامة، عندما نصرُوا امامهم وأخاهم الحسين عليه السلام واستشهدوا بين يديه. فلماذا عساهم قدموا إلى هنا؟ وماذا كانوا يتوقعون من مواجهة دولة الظلم وتحديها سوى الأذى والقتل؟

وقد قتلوا وقطعت رؤوسهم وأخذت مع رأس الحسين عليه السلام ورؤوس أصحابه إلى ابن زياد، ثم إلى يزيد بعد ذلك. لتظل شاهدة على نوع جديد من الجرائم يبتكر في ظل الدولة الأموية اليزيدية. فقطع الرؤوس (فن) لم يستحدث إلا الآن ورفعها على الأعمدة كان قمة الابداع في هذا الفن الجديد، كان نوعا من الارهاب تمارسه السلطة لتسكت أعداءها ومناوئيهها. ولا يهم ان كان الإسلام قد أقر ذلك أم لم يقره، انما المهم في نظرها تثبيت دعائم العرش وان كان على أشلاء وجاهم المسلمين.

وكان الجيش الهام الذي قطع الرؤوس وداس الجثث بسنابك خيله قد أدى عملا

(١) مناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٧، والبحار: ج ٤٥ ص ٣٨.

(٢) مقاتل الطالبين: ص ٥٨.

جليلا للمسلمين فتح فيه أبواب الصين أو روما لهم.

ولم يدرك القائمون بالجريمة فظاعة عملهم الا بعد أن انتهوا منها، وربما أدرك بعضهم ذلك حال الانتهاء منها مباشرة. كما أن الأمة قد انتبهت إلى شناعتها ووعت مخاطرها وآثارها بعد مدة قصيرة جدا، ثم بدأ وعيها يتعمق بعد ذلك، حينما أدركت أنها بسكوته قد ساهمت بأكبر جريمة قيص للبشرية أن تشهدا في تاريخها. وأن المنفيين لها قد أعلنوا بذلك حقيقة موقفهم المعادي للإسلام ولرسول الله ﷺ نفسه أيضا.

ألم يحذرها الحسين ﷺ ويلفت نظرها لذلك بشكل واضح؟ فلماذا لم تحذر ولم تلتفت وتغاضت بشكل مهين مستسلمة لحكامها وجلادها الذين جردوها من أبسط مكاسبها وحقوقها وحرقاتها متذرعين بالإسلام نفسه بعد أن شوهوا وحرفوا الكثير من أحكامه وتشريعاته وتاريخه..؟

ان كان لابد من القتل فلتجلب الماء للعطاشى: «يانفس من بعد الحسين هوني..»

ويبدو أن عبد الله وعثمان وجعفرًا كانوا يشكلون من أخيهم العباس الدرع الأخير وقوة الحماية الرئيسية للحسين ﷺ، وبعد أن استشهدوا لم يبق منهم الا العباس.

وقد بدا، بعد أن تساقط أنصار أخيه جميعا، وقد ظل وحيدا معه، أن دوره في الشهادة قد حان الآن، ليعقبه دور أخيه وامامه بعد ذلك، وهو ما كان يؤله ويجزئه كثيرا، فقد كان أعلم الناس بمنزلته ومقامه، وها هو يرى كيف يتجرأ عليه أعداؤه رغم كل شيء.

كان صاحب لواء الحسين ﷺ وحامل رايته، فإذا قتل وسقطت الراية، فان ذلك سيكون ايزانا بانتهاء المعركة لصالح العدو.. وهكذا فانه عندما طلب منه الاذن في القتال لم يأذن له، ثم عندما ألح طلب منه أن يجلب قليلا من الماء للأطفال العطاشى الذين كانوا يصرخون ويطالبون بالماء وكان منهم سكينه بنت الحسين ﷺ.

وإذا إن أعداءه منعوه الماء، وأعدوا عدتهم للحيلولة بينه وبين الوصول للنهر، بعد أن أخذه بالقوة قبل ثلاثة أيام. فانه قرر أن يعيد الكرة هذه المرة مهما كانت النتائج ومهما كان عدد الأعداء المتربصين المتأهبين لمواجهته ومنعه.

وهكذا اقتحم النهر، غير مبال بجمع الأعداء واستطاع أن يقتل من تصدى له منهم ووقف بوجهه ووصل النهر سالما.

وهنا نشاهد منظرا فريدا للايثار والحب، فقد مد العباس يديه - بطريقة عفوية تلقائية لعطشه وحاجته للماء - ليغترف منه غرفة واذا أدناها من فمه، قفزت إلى ذهنه صورة أخيه الحسين والعطاشى من النساء والأطفال الذين كان يضمهم مخيمه، ولم يستطع رغم أنه كان بأشد الحاجة للماء أن يشرب منه شيئا. وقيل أنه أنشد في تلك اللحظة قائلا:

يا نفس من بعد الحسين هوني و بعده لا كنت أو تكوني
هذا الحسين وارد المنون و تشربين بارد المعين
تالله ما هذا فعال ديني^(١).

الايثار بالنفس ومواجهة الموت «نفسى لنفس المصطفى الطهر وقا»

كان مشهدا عجيبا بهر أعداءه وأذهلهم. فلم يدر بخلد أحدهم أن شخصا ما يمكن أن يؤثر الآخرين على نفسه لهذا الحد.

كان موقفا أخلاقيا رفيعا، ولعل قيمته الأخلاقية - التي كانت تفوق ما كان يمكن أن يتحقق عمليا اذا ما شرب العباس الماء وأصبح أكثر قوة على مواجهة عدوه - ستحقق كسبا مضافا لقضية الحسين عليه السلام، فمن يجود بنفسه ليوثر حياة أخيه، مع أنه كان يستطيع

(١) البحار: ج ٤٥ ص ٤١، والمناقب لابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٨.

ضمنان حياته والبقاء حيا اذا ما طلب ذلك، وقد أتاحت تلك الفرصة فعلا، لا يرى أنه حينما يتنازل عن الماء ولا يشرب منه، أنه قدم الشيء الكثير مقابل حياته التي سيقدمها، ومقابل ما سيقدمه أخوه إمام الأمة وسيدها كلها، وهي حياته، أعلى حياة. ونفسه وهي أعز نفس عند الله وأكرمها مقاما لديه.

ملاً قربته وحملها على كتفه الأيمن وركب جواده تجاه المخيم وهو على استعداد لمواجهة من يتصدى له ويمنعه من المسير وایصال الماء لمن يحتاجه. وجميع من في المخيم كانوا بحاجة ماسة اليه.

كان كوالده أمير المؤمنين عليه السلام لا يقدر أحد على مواجهته في ساحة الحرب، فقد كان أعداؤه يهربون ويتفرقون من بين يديه خشية من سيفه.

كان يتقدم وينشد:

«لا أرهب الموت اذا الموت زقا حتى أوارى في المصاليت لقي
نفسى لنفس المصطفى الطهر وقا انى أنا العباس أغدو بالسقا
ولا أخاف الشريوم الملتقى»^(١).

اغتاوه بعد أن لم يستطيعوا مواجهته

غير أن هؤلاء الأعداء، حينما لم يلجؤوا إلى المواجهة المباشرة معه وحينما لم يجرؤ أحد منهم على الوقوف بوجهه، لجؤوا إلى أسلوب الغدر، وهو الأسلوب الذي طالما لجأ اليه رأس الدولة ومؤسسها نفسه وأصبح أمرا مقبولا طالما أنه كان يوفر عليها كل خسارة محتملة.

كمن له في الطريق زيد بن الرقاد الجهني وحكيم بن الطفيل السنسي، وضربه

(١) البحار: ج ٤٥ ص ٤٠، والارشاد: ص ٢٥٥، ومناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٨.

أحدهما على يمينه فقطعها قبل أن ينتبه اليهما^(١).

غير أنه استطاع أن يتدارك القربة ويحملها على كتفه الأيسر، وكان ذلك يبدو أمرا خارقا من رجل قطعت ذراعه اليمنى. غير أن العباس كان يريد أن يحقق هدفا بدا له كبيرا جدا في تلك اللحظة، وهو إيصال الماء لأخيه الحسين عليه السلام.

كان يخوض سباقا ضاريا مع أعدائه، فلا بد من إيصال الماء وإن كان الثمن حياته، وقد أنشد في تلك اللحظة أيضا:

«والله ان قطعتموا يميني اني أحامي أبدا عن ديني
وعن امام صادق اليقين نجل النبي الطاهر الامين^(٢)
ويبدو أن أعداءه أرادوا استثمار فوزهم وضعفه عن القتال، فكمن أحد عدويه
الغادرين حكيم بن الطفيل وراء نخلة وضربه على شماله فقطعها من الزند أيضا
وفي تلك الحال أنشد

يا نفس لا تخشي من الكفار و أبشري برحمة الجبار
مع النبي المصطفى المختار قد قطعوا بغيهم يساري
فأصلهم يا رب حر النار^(٣).

«عليك مني السلام أبا عبد الله»

كان سباقه معهم يوشك أن ينتهي، وقد نجحوا بقطع شماله أيضا. وكان إيصال قربة الماء يمثل له الهدف الرئيسي في تلك الحظات المتبقية له من العمر.

(١) البحار: ج ٤٥ ص ٤٠ والارشاد: ص ٢٥٥ ومناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٨.

(٢) البحار: ج ٤٥ ص ٤٠ والارشاد: ص ٢٥٥ ومناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٨.

(٣) البحار: ج ٤٥ ص ٤٠ والارشاد: ص ٢٥٥ ومناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٨.

ولن يتاح لأحد على هذه الأرض أن يشهد مشهدا كالذي شهده أعداء العباس. فيها هنا فارس يحيط به أعداؤه ينتهزون منه ضعفا أو غفلة ليجهزوا عليه، وقد قطعوا يديه وأوشكت قربة الماء التي يحملها أن تسقط لو لم يتداركها بما بقي من زنديه وربما بفمه كذلك ليظل محافظا عليها حتى يوصلها سالمة إلى الحسين وإلى الأطفال والنساء والعطاشى. وإذا إنه أمر لم يحدث أبدا ولم يقيض لأحد أن يشهد مثله، فانه يظل ماثلا في الأذهان إلى الأبد.

فالفارس يقبل أن يتخلى عن كل شيء، حتى حياته، لكنه يرفض أن يتخلى عن هذه القربة التي أمره امامه وقائده بجلبها اليه، وإذا إنه لم يعد قادرا على القتال، فان أعداءه استهدفوا القربة هذه المرة، ولم يستهدفوها قبل ذلك عندما كان سالما؛ لأنهم كانوا سيدفعون الثمن غاليا، أما هذه المرة، وقد قطعت يده وسقط سيفه فان أعداءه، رشقوه ورشقوا قربته بعشرات السهام. وكان قتل حامل الراية والفارس الذي رفض أمانهم وانتزع منهم الماء بالقوة قبل ثلاثة أيام يمثل بنظرهم نصرا كبيرا وان كان قد تم بالغدر والخديعة. أريق ماء القربة وأصاب سهم صدره وآخر احدى عينيه، وضربه آخر على رأسه فانقلب عن فرسه إلى الأرض وربما سقط على رأسه لانه لم تكن له يدان يتلقى بهما الأرض عند السقوط. وكانت فرصة ثمينة لم يضعها أعداؤه. وهو على تلك الحال فبادروا اليه يقطعونه بأسياфهم. فقد كان هو الذي أفر المعركة إلى ذلك الحين وجعلهم يتكبدون خسائر فادحة، وكأنهم اذ يوجهون اليه أسياфهم ينتقمون بذلك من الحسين عليه السلام ومن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام ومن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسه.

وكانت كلماته الأخيرة نداء حميا وجهه لأخيه الحسين عليه السلام:

«عليك مني السلام أبا عبد الله»

«الآن انكسر ظهري»

وكان مشهده الأخير مما لم يطق الحسين عليه صبرا ولم يجد قوة لتحمله. لقد أدركه وهو يجود بنفسه، وضع رأسه في حجره وأخذ يمسح الدم والتراب عنه، ثم بكى بكاء عاليا وقال: «الآن انكسر ظهري، وقلت حيلتي، وشممت بي عدوي..»^(١).

لقد بقي وحيدا الآن بمواجهة أعدائه المتعطشين لدمه.. وها هو أخوه العباس يمضي مع من مضوا من أنصاره وأصحابه، وكان وقع المصيبة عليه شديدا حتى أنه لم يطق حمله ليضع جسده مع أجساد بقية أصحابه.. ولعل ما بالجسد من جروح كثيرة جعل عملية نقله شاقة بل مستحيلة. ولعل رؤية جسد العباس بذلك الشكل المروع سيثير أحزان وآلام كل من في المخيم من نساء وأطفال، ولعله سيجد بذلك شغلا له عن القتال، وقد حان دوره الآن بعد أن لم يبق له ناصر ولا معين.

واذا لا نستطيع عندما نصف العباس عليه أن نفيه حقه، فاننا نستمع لوصف الامام زين العابدين عليه وقد كان شاهدا على كل فصول المعركة وعلى كل ما قام به العباس فيها وكان أعرف الناس به.. «رحم الله عمي العباس، فلقد آثر وأبلى، وفدى أخاه بنفسه حتى قطعت يده، فأبدله الله عز وجل بهما جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة، كما جعل لجعفر بن أبي طالب، وان للعباس عند الله منزلة يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة»^(٢).

ولنستمع لقول أبي عبد الله الصادق عليه فيه: «كان عمنا العباس بن علي نافذ البصيرة، صلب الايمان، جاهد مع أبي عبد الله عليه وأبلى بلاء حسنا، ومضى شهيدا»^(٣).

(١) الخوارزمي: ج ٢ ص ٣٠.

(٢) الخصال: للصدوق باب الانين والأمل: م ٧١.

(٣) مقتل الحسين: محمد تقي بحر العلوم: ص ٣١٣.

كان بلاء العباس مع الحسين ﷺ ملحمة لوحدها جديرة أن يلتفت إليها، لندرس مواقفه دراسة واعية عميقة، فلوحة الطف لن تكتمل دون رسم تلك المشاهد رسماً دقيقاً.

وأعجب من موقف العباس موقف السيدة أم البنين

وأعجب من موقف العباس، موقف أمه، أم البنين^(١)، التي لم يبلغ حزنها على فقد أولادها الأربعة القدر الذي بلغه حزنها على الحسين ﷺ. لقد كانت تسأل عنه وتتابع أخباره قبل سؤلها عن أولادها الأعزاء.

كان حزنها على أولادها كبيراً - بلا شك - لا يحتمل وفوق طاقة امرأة ضعيفة، غير أن حبها وولاءها لأمامها الشهيد وابن زوجها الامام الشهيد كان أكبر من ذلك الحزن، وربما رأت في استشهادهم معه تسلية كبيرة تريح قلبها الكبير، وكانت هي التي تهدئ نساء بني هاشم المكروبات المحزونات وتسكتهن وتطيب خواطرنهن وكأنها لم تخسر تلك الخسارة الفادحة التي لا تضاهيها خسارة أخرى.. اللهم الا خسارة الامام ﷺ غير أن كل ذلك ما دام بعين الله وفي سبيله، فان ذلك كان ادعى لرضا واطمئنان وهدوء تلك المرأة المؤمنة العظيمة.

(١) اشارت بعض المصادر الى أن أم البنين لم تكن حية في زمن واقعة الطف، وما روي لا يثبت كونها حية في ذلك الحين، وربما قد توفيت قبل ذلك. وللسيد عبد الرزاق المقرم الموسوي - رحمه الله - تحقيق لطيف حول ترجيح وفاتها أورده في كتابه مقتل الحسين ﷺ - ط ٥ - ١٣٩٩ - ١٩٧٩ بيروت - لبنان: ص ٣٣٦ - ٣٤٠.

٢. علي (الأكبر) بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام

فهم وبصيرة ووعي

وأمه ليلي بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي، جدها عروة أحد العظميين اللذين ورد ذكرهما في القرآن الكريم على لسان قريش ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(١) وكان ممثل قريش في صلح الحديبية مع الرسول ﷺ، وقد أسلم بعد ذلك في السنة التاسعة من الهجرة، ورجع إلى قومه يدعوهم للإسلام فرموه بالنبل فوق قتيلا.. فقال رسول الله ﷺ فيه: «ليس مثله في قومه الا كصاحب ياسين في قومه»^(٢).

ولد أبوها (أبو مرة) في عهد الرسول ﷺ وله معه صحبة، وله مواقف معروفة لصالح المسلمين.

ورد في بعض الأخبار أنها كانت مع الحسين عليه السلام في مسيره إلى كربلاء، وورد في بعضها أنها توفيت قبل ذلك، والمرجح في أغلبها أنها لم تكن معه في كربلاء.

وإذا ما اطلعنا على بعض مواقف علي الأكبر عليه السلام وجوانب من سيرته، نجد أنه لم يشر إليها الا بعد مسيره مع أبيه عليه السلام، ولم تكن حياته السابقة مثار اهتمام كتاب السيرة والتاريخ. وربما كان ذلك يعود إلى اهتمام الدولة بطمس أخبار آل البيت عليهم السلام وأولادهم

(١) الزخرف ٣١ والقريتان هما مكة والطائف والعظيم الثاني هو الوليد بن المغيرة المخزومي الملقب بالوحيد لشرفه وشوخته وثروته.

(٢) ابن حجر: الإصابة: ج ٢ ص ٤٧٨.

وذرياتهم، ان لم تعتمد إلى تشويهمها. كان المرجح لدى المؤرخين أنه كان أكبر من أخيه علي زين العابدين عليه السلام. وكان عمره عام الطف (٦١) نحواً من سبع وعشرين سنة، اذ كانت ولادته سنة (٣٣) هجرية بينما كان عمر زين العابدين عليه السلام نحواً من ثلاث وعشرين سنة.

كان في ذروة شبابه ونضجه حين سار مع أبيه الحسين عليه السلام من المدينة إلى الكوفة مروراً بمكة، وكان على بصيرة من أمره، واعياً بطبيعة المهمة التي كان يتصدى لها مع أبيه الحسين عليه السلام وآل بيته وأصحابه.

واذا ما علمنا أنه ولد في فترة حافلة بالأحداث والمتغيرات، وعاش في ظل ورعاية جده أمير المؤمنين عليه السلام وعمه الحسن وأبيه الحسين عليه السلام، وو ربما كان بحكم نشأته وموقعه شاهداً على العديد من الأحداث المهمة التي وقعت في تلك الفترة، وإذا ما دققنا في مواقفه خلال واقعة الطف وقبيلها، نعلم أن علياً الأكبر لم يكن انساناً عادياً تجرّفه الحياة بهومها اليومية البسيطة، وإنما كان انساناً رسالياً على مستوى المهمة التي شارك فيها وكان له دور بارز فيها.

بار بأبيه مسارع إلى طاعة ربه

لم تهز التحذيرات العديدة التي وجهت للامام الحسين عليه السلام لمنعه من المسير إلى الكوفة، علياً الأكبر، كما لم تهز أيّاً من أصحابه الآخرين، وقد علموا طبيعة العمل الذي كانوا بصدد القيام به. ولم يهن أو ينكل أو يترجع، بل مضى بكل ما تفرضه عليه واجبات البنية البارّة المخلصة ومقتضيات الولاء لامام الأمة المفروض عليها طاعته واتباعه.

كان يعلم أنهم على الحق ما دام والده عليه السلام قد علم ذلك وتيقنه وإذ إن خط الدولة المنحرف كان يتعد باضطراد عن الخط المحمدي العلوي المستقيم الذي نشأ في ظله أبوه

ونشأ هو بعد ذلك عليه. وإذ إنه كان يعيش الأجواء التي تم فيها الانحراف وعاصر الأحداث والمتغيرات العديدة التي مهدت له ورسخته في ظل معاوية، وكان يتمتع بحصانة ووعي يتيحان له الصمود بوجه ذلك الانجراف وعدم الانحراف بتياره، بل ونقده ومحاوله منعه، فانه كان يدرك الحاجة الماسة لتجاوز الحالة النقدية البحتة لافعال وممارسات الطغمة الحاكمة التي قد تكون مفيدة وقد لا تصمد طويلا، إلى حالة فعل مؤثر كبير بل ثورة بوجه النظام، كتلك التي قام بها أبوه وكان هو أول مناصريها وجنودها.

كان يعلم أن تلك الثورة وتلك المسيرة نحو كربلاء سوف تحدثان أثرهما البالغ في الأمة. وأنها لا بد أن توقظانها من سباتها، وتجعلانها تدرك الخطر الذي يحيق بها ويكاد يقضي على وجودها كأمة إسلامية. كما انه كان يعلم أنهم مقبلون على موت أكيد؛ لأن رموز الدولة وأعوانها ما كانوا ليقبلون التنازل بسهولة عن امتيازاتهم وثرواتهم ومراكزهم التي حصلوا عليها بالقوة والخديعة والغدر، وأنهم سيلجؤون إلى نفس الأساليب التي لجأ اليها مؤسس الدولة لمقاومة أي نقد أو توجيه أو ثورة من شأنها تقويم الانحراف أو منعه أو استئصاله.

عرف أهداف أبيه فنصره على عدوه: «ألسنا على الحق؟ إذا لا نبالي، نموت محقين»

وكانت كل تصرفات الامام عليه السلام وتوجيهاته وأقواله تدل على أنه كان يعد أصحابه لتقبل مصير القتل، وقد ساروا اليه بشكل طوعي وارادي بعد أن أدركوا الحاجة اليه لانقاذ الأمة من مصير أشد إيلاماً وأذى روى عقبة بن سمعان، وهو مولى للحسين عليه السلام شهد معه الطف وقد نجا من القتل بأعجوبة قال:

«.. لما ارتحلنا من قصر بني مقاتل، وسرنا ساعة خفق الحسين برأسه خفقة، ثم انتبه

وهو يقول: انا لله وانا اليه راجعون، والحمد لله رب العالمين.

ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً. فأقبل اليه ابنه علي بن الحسين على فرس له، فقال: انا لله وانا اليه راجعون، والحمد لله رب العالمين. يا أبت، جعلت فداك، مم حمدت الله واسترجعت؟

قال: يا بني، اني خفقت برأسي خفقة فعن لي فارس على فرس، فقال: القوم يسرون والمنايا تسري اليهم، فعلمت أنها أنفسنا نعت الينا.

قال له: يا أبت، لا أراك الله سوءاً، السنا على الحق؟

قال: بلى، والذي إليه مرجع العباد.

قال: يا أبت اذاً لا نبالي، نموت محقين.

فقال له: جزاك الله من ولد خير ما جرى ولدا عن والده^(١).

لقد كشف هذا الحوار عن تعلق الابن الشديد بوالده، والحب الغامر الذي كان يشعر به تجاهه، كان الحسين عليه السلام محور اهتمامه على الدوام. وكان يترقب كل حركة وكل كلمة تخرج من شفتيه ليكون طوع اشارته وأول مستجيب له، وإذ إنه كان من أعلم الناس بوالده وأكثرهم معرفة به وبموقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن المسلمين فانه كان دائماً، لا خلال مسيرة الطف وحسب، يلازمه ويتتبع سلوكه وسيرته التي هي جزء مكمل لسيرة جده عليه السلام نفسه. وكان يعد نفسه ليكون عالماً من علماء الأمة وهو يرشف من علم والده الذي يفيض في مجالسه في المدينة وغيرها، كما سبق لنا أن ذكرنا عند التحدث عن سيرته عليه السلام.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٩.

لم تفت الابن البار حركة والده واسترجاعه وحمده، وإذ إنه كان رفيقا به حفيا، حريصا على أمنه وهدوئه وراحته. فانه لم يفاجئه بالسؤال وانما استرجع كما استرجع وحمد الله كما حمده والده. وكان ذلك بداية لاقدامه على سؤاله بكل العطف والادب الذي تفيض به نفسه عن سبب استرجاعه وحمده. وقد أعلمه الامام عليه السلام أنه يشعر أنهم سيموتون في سفرهم هذا.

وهنا، لم يهم عليا الأكبر سوى أمر واحد، وهو أنهم على صواب وأنهم على الحق. كان هذا هو الأمر الوحيد الذي يهمه، أما ما عداه -آلام الموت والجراحة وما سيلقيه من متاعب ومشاق- فلم يكن تبدو له أية أهمية في نظره.

ولم يكن بحاجة لمن يطمئنه على صواب ما كان يقوم به مع والده. فالشك لم يعرف طريقا اليه منذ البداية. ولعل تساؤله: ألسنا على الحق. اقرار لأمر واقع وحقيقة مؤكدة، لقد أراد أن يقول: ما دمنا على الحق، اذاً لا نبالي، نموت محقين، وإذ إن الامام عليه السلام يؤكد له ذلك فانما كان يؤكد تلك الحقيقة وكان يثير في ولده شحنة عاطفية كبيرة ليكون انحيازاه إلى جانب الإسلام ونصرته تاما لا نقص فيه.

كانت كلمات ذلك الشاب المكتمل رجولة وشجاعة، وأشبه الناس خلقا وخلقاً برسول الله صلى الله عليه وآله تثير اعجاب الوالد بشكل واضح. فها هو ابنه أول من يعلن عن استعداداه لمواجهة الموت وقد تيقن أنه على حق، وكان يرى أن الخسارة الحقيقية هي التخلي عن الإسلام لا بذل الحياة في سبيله.. ولعلها ستثير اعجاب الأمة كلها حتى أولئك المتخاذلين المستسلمين الذين التحقوا بركب ابن سعد وشاركوا بجريمة القتل النكراء، خصوصا وان كلماته قرنت بفعل حقيقي كبير، جرد فيه علي الأكبر سيفه ليواجه خصوم الإسلام وأعداءه في معركة غير متكافئة من حيث العدد والعدة، وقدم نفسه فيها كأول شهيد من آل الحسين وآل أبي طالب.

فارس مقدم.. حزم مع العدو وعطف ورقة على الأطفال والنساء

وقد كان علي بن الحسين الأكبر فارساً شجاعاً دون شك، ولعل هدوءه وصبره هو الذي جعل أباه يكلفه بمرافقته عمه العباس لمقابلة ابن سعد لاقتناعه بالعدول عن موقفه المتحيز لابن زياد والمعادي للإسلام، ويكلفه بمهمة الاشراف على شؤون المخيم وتهئية النساء والأطفال، فليس من المعقول أن يقوم من لا صبر له على القتال ومواجهة الموت بهذه المهمة الدقيقة في ذلك الظرف الشديد. ولا بد أن مشهد امرئ يخاف الموت ويخشى الأعداء، وهو يحاول تهئية أناس خائفين مروعين سيعمل على إثارة مخاوفهم أكثر مما سيعمل على تهديتهم.

وقد ذكر أن أباه الحسين عليه السلام كلفه يوم الثامن من المحرم بجلب الماء إلى المخيم، وأرسله على رأس ثلاثين من أصحابه إلى الفرات^(١).

ولا بد أن استعدادات العدو لمواجهة موقف مماثل ذلك الذي وقفه العباس عندما اقتحم النهر بأصحابه قبل يوم، كانت أشد وأتم، وكانت مهمة علي الأكبر في تلك الحال ستكون أصعب، لأن العدو سيكون متأهباً حتى لا يفاجأ فإذا ما جلب الماء، فانه يكون قد حقق نصراً كبيراً على أعدائه في معركة غير متكافئة، وأثبت جدارة غير عادية في معركة الطف العظيمة.

يطلب الشهادة قبل الجميع

وإذ إن علياً الأكبر كان يفيض حماساً وغيرة على الإسلام، وإذ إنه كان رسالياً واعياً يدرك أن الإسلام قد انتهك حقاً ويرى أن عودة الأمة لا بد أن تكون عودة واعية تستهدف تخليصه من كل ما ألحقه به حكام الانحراف، وأن تلك العودة لا بد أن تكون

(١) مقتل الحسين: السيد محمد تقي بحر العلوم: ٣٤٢.

سريعة والا ضاعت الفرصة للأبد، وإذ إنه كان يعي بشكل واضح هدف والده عليه السلام من المواجهة مع دولة الظلم. تلك المواجهة التي اتخذت طابعا دمويا لحرص أقطاب تلك الدولة على امتيازاتهم ومصالحهم، ولسنوح الفرصة لهم للنيل ممن كانوا يرونه مصدرا لازعاجهم وقلقهم، معتقدين أنهم اذا ما قتلوه قتلة شنيعة ومثلوا بجثته وجث أصحابه وآذوا أطفاله وعياله، فانهم بذلك يقطعون دابر كل معارضة في المستقبل ويتجنبون كل مواقف المواجهة المحتملة، فان علي بن الحسين، كان كوالده - يرى أن دماءهم هي وحدها الكفيلة بلفت نظر الأمة إلى مدى الخطر الذي كانت تتعرض له في ظل دولة الظلم والانحراف. وكان لون الدم الأحمر القاني هو وحده الذي سيظل يتراءى أمامها كلما غفت أو استسلمت للانحراف أو هادنته.

وكان حريصا على تقديم دمه قبل آل أبي طالب كلهم وعلى أن يموت دون والده ليحتسبه عند الله كما احتسب أصحابه الغيارى ولكي يرد قبله على جده عليه السلام، وكانت كل وقفة منه تدل على أنه كان متلهفا على القتال بل وفرح به وبمواجهة الموت طالما أن ذلك سيكون من شأنه نصرته للإسلام ورفع كلمته واعادته إلى مكانته - التي فقدها - من المسلمين، ولم يحسب أنه كان يقوم بأمر عادي بسيط ينال بمجرد التمني وانما كان يرى أنه يساهم بأكبر مهمة أتيح للمسلمين أن يشهدوها في تاريخهم وهي العودة الواعية للإسلام المحمدي والتراجع عن (الإسلام) الأموي المغشوش المزيف، وإذ إن ذلك كان يبدو شبه مستحيل في ذلك الوقت. الا أن الذي يرى الله حقا لا يراه كذلك، ويرى أن من واجبه في كل الأحوال تحمل مسؤوليته وأداء ما عليه من واجبات، أما النصر وما يتحقق من نتائج لصالح الإسلام فذلك مرهون بالمشيئة الالهية الحكيمة المدبرة.

لم يكن عليه أن يتساءل عن السر وراء تسلط طواغيت أمية على الأمة، فذلك أمر لم يجر بشكل مفاجئ وانما جرى التمهيد له عبر مدة طويلة جردت فيها الأمة من

مقومات الوعي والصمود. وانما كان يتساءل عن مسؤولياته في ظل أوضاع كتلك ساد فيه الانحراف وأبعد الإسلام عن حياة الأمة وواقعها، ومسؤولياته كانت تؤكد أن عليه أن يقاوم ويقاوم ويواجه السيف بالدم مهما كانت النتائج، حتى وإن أريق هذا الدم في ساحة المواجهة. وهكذا عزم علي الأكبر على القتال واستأذن أباه في الخروج إلى الساحة، أي مشهد ادعى للحزن من ذلك المشهد الذي يرى فيه أب ابنه وهو يوشك على مواجهة قتلة مريعة على يد أعداء غادرين متربصين متلهفين على سفك دمه؟

واذا ما كان هذا الأب هو الحسين عليه السلام، ومن ينبغي للأمة أن تقابل صنيع جده عليه السلام وأبيه عليه السلام وصنيعه هو معها إذ يرفض الانحراف ويحاول العودة بها إلى ظلال العهد المحمدي الصافي المبرأ من العيوب والأخطاء، برد يساوي ذلك الصنيع والجميل الذي أسدوه للأمة. وإذا لم تكتف بذلك ولم تكتف بمجرد التخلي عنهم، وانما تنحاز إلى صف أعدائهم ومناوئهم وتساندهم وتشهر سيوفها دفاعاً عن مصالحهم وامتيازاتهم. ويكون من تشهر سيوفها بوجوههم هذه المرة آل النبي عليه السلام أنفسهم، ومن ينبغي عليها برهم وانتهاج طريقهم واتباع منهجهم، فأية مرارة وأي حزن سيشعر بها وهو يرى هذه الأمة المتخاذلة المهزومة تتظاهر بالقوة أمامه هو وتستهدف قتله وقتل بنيه وآله وأصحابه، لأنهم أرادوا تخليصها هي من ذلها وعبوديتها وهزيمتها واعادتها أمة سليمة لا تشتكي المرض والانحراف ولا تعاني من الجور ومن الفراعنة الجدد الذين سطوا على مقدراتها ومكاسبها.

هل جزاء الاحسان الا الاحسان؟

هل هذا هو الجزاء الذي ينبغي أن يقابل به مثل ذلك الصنيع؟
تقتل الأمة قائدها وامامها الحقيقي وأملها في الخلاص من كل أشكال الانحراف

والظلم. لكي تقتل نفسها بعد ذلك، وتوقع - بعملها هذا - وثيقة استسلامها النهائي لفراعنة الشر؟

أين ذهبت هذه الأمة عن الإسلام، وهل نسيت رسول الله ﷺ حقا حتى تقدم على مثل هذه الفعلة النكراء..؟

كانت آلام الحسين الكبيرة مما لا يمكن تصوره وهو يرى موقفا لن يتاح للبشرية أن تشهد مثله، كما أنها لم تشهد مثله من قبل. فيها هي الأمة التي تهتف باسم جده ﷺ وتقر أنه رسول الله حقا، وتعترف أن عملها غير مقبول ما لم تواله وتدن بطاعته وحبه، ومع ذلك تقدم على قتل ذريته وعترته ولما يكذب يغيب عنها بنصف قرن فقط.

هل هي هذه الأمة الإسلامية التي رباها ورعاها رسول الله ﷺ. أو هي بقايا أمة ضعيفة جاهلة محطمة..؟

ماذا كان الحسين عليه السلام يرى أمامه؟ هل كان يرى أمة لا تدين بالإسلام ترفع السيف بوجهه؟ أو الأمة التي تدعي الانتساب للإسلام والولاء لجده رسول الله ﷺ تفعل ذلك وتقدم بتلك الجرأة الوقحة على انتهاك حرمة وسفك دمه؟

وما الذنب الذي ادعت أنه اقترفه؟ لم يكن سوى أنه لم يقر الانحراف ولم يعترف بشرعية يزيد قائدا للدولة الإسلامية وخليفة لرسول الله ﷺ.

وماذا أرادت منه؟ طراح كل ما جاء به جده ﷺ ونبذ الإسلام، والاستسلام ليزيد والاقرار له بالعبودية.

أليس هذا ما أرادته منه حقا، وجاءت ترفع السيف بوجهه لتجبره عليه؟

هل هناك مأساة أكبر من هذه يمكن أن يحزن لها المرء؟

وإذ إنه يجد مقابل موقف الأمة الضعيف هذا، موقفا قويا من أهل بيته وأصحابه موقف اليقين بصواب موقفه وسداده ويصل الأمر بهم إلى حد تقديم أنفسهم قرايين في سبيل الله ولوجهه ولإعزاز دينه ونشر رسالته، فإن آلامه تزداد عندما يرى تناقض الموقفين. موقف الأمة ذات الأعداد الغفيرة الواسعة وهي تستسلم ليزيد وتنفذ أوامره وخططه حتى وإن كانت ضد الإسلام، وموقف هذه الأمة المصغرة من أصحابه التي تمثل الإسلام حقا وتقدم حياتها ودماءها في سبيله.

كيف لم تدرك الملايين الواسعة ما أدركته هذه القلة القليلة؟ وكيف يجرد هذا الجيش لاستئصالها والفتك بها وهي تريد انقاذه من العبودية والذل؟
آلام الحسين ﷺ لم يكن جديرا بتحملها سوى الحسين.

وها هو ولده الشاب الذي أدرك وعرف ما لم يدركه ويعرفه الشيوخ يسعى لتقديم نفسه في ساحة المواجهة والقتال قربانا لله. إنه سيقتل حتما، وهو يعرف ذلك، حتى وإن استطاع أن يقتل أفرادا من هذا الجيش، ومع ذلك فإنه يحترق شوقا لهذه المواجهة، حتى أنه كان يبدو سعيدا بها. فأية غيرة على الإسلام كانت تجيش بقلبه؟ وأي ولاء لرسول الله ﷺ كان يعصف بجوانحه؟

«اللهم اشهد على هؤلاء فقد برز اليهم غلام أشبه الناس خلقا وخلقا ومنطقا برسولك محمد ﷺ»

وعندما استأذن علي الأكبر أباه في الخروج إلى الساحة، رفع الحسين ﷺ بصره إلى السماء وقال: «اللهم اشهد على هؤلاء، فقد برز اليهم غلام أشبه الناس خلقا وخلقا ومنطقا برسولك محمد ﷺ. وكنا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيك نظرنا إليه^(١).

(١) اللهوف لابن طاووس: ص ٤٧.

اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرقهم تفريقا، ومزقهم تمزيقا، واجعلهم طرائق قددا، ولا ترض الولاية عنهم أبدا، فانهم دعونا لينصرونا، فعدوا علينا يقاتلوننا»^(١).

هكذا دعا الله أن يشتت تلك الأمة المستسلمة المهزومة، وأن لا يقر لها قرار في ظل تلك العبودية وذلك الاستسلام، إلى أن تعود ثانية إلى الإسلام وتعيش في ظلاله حقا، أما اذا بقيت هكذا، فانها ستقوم هي بقتل نفسها، ولن تكون الا خيال أمة غابرة، وستكون بضعفها المشين هذا أداة صماء في أيدي الظالمين، يتلاعبون بها وفق مشيئتهم وهوامهم.. ومهما حاولت كسب رضاهم، فانها ستقصر عن ذلك.. لأنهم لا يرونها شيئا جديرا بالرعاية والاهتمام والرضا.

ثم رفع صوته وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).. وقدم ولده بعد أن ألبس به بيده لامة حربيه وأفرغ عليه درعه ومغفره.

إلى القتال: «... والله لا يحكم فينا ابن الدعي»

وهكذا تقدم علي الأكبر بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام للساحة وهو يرتجز ويقول:

أنا علي بن الحسين بن علي	نحن وبيت الله أولى بالنبى
والله لا يحكم فينا ابن الدعي	أطعنكم بالرمح حتى ينشئ
أضربكم بالسيف أحمي عن أبي	ضرب غلام هاشمي علوي ^(٣) .

(١) الخوارزمي: ج ٢ ص ٣٠، وأعيان الشيعة للأمين: ج ٤ ق ١ ص ٢٣٨.

(٢) آل عمران ٣٣-٣٤، راجع مقتل الحسين للخوارزمي: ج ٢، ص ٣٠.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٠، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٩٣، ومقاتل الطالبين: ص ٨٤ والخوارزمي: ج ٢ ص ٣٠، ومناقب ابن شهر آشوب: ٤ ص ١٠٩ مع بعض الاختلاف البسيط.

وقد حمل عدة مرات، ومرَّ يشد على الناس بسيفه وقتل كثيرا منهم^(١) رغم عطشه الشديد «حتى رُميَّ بسهم وقع في حلقه فخرقه، وأقبل يتقلب في دمه، وضربه مرة ابن منقذ العبدي بالسيف على مفرق رأسه، ثم طعنه بالرمح في ظهره، وضربه الناس بأسيافهم، فاعتنق فرسه، فاحتمله الفرس إلى معسكر الأعداء، فقطعوه بسيوفهم اربا اربا..»^(٢).

وقد روي أن مرة بن منقذ عندما أبصر عليا الأكبر يشد على الناس بسيفه قال: «.. عليّ آثام العرب ان مرَّ بي يفعل مثل ما كان يفعل ان لم أأكله أباه، فمر يشد على الناس بسيفه، فاعترضه مرة بن منقذ قطعنه فصرع، واحتوله الناس فقطعوه بأسيافهم»^(٣). قتل علي الأكبر وهو يشد على أعدائه ويقاتلهم ويدفعهم عن أبيه، وقد استغل أحد القتلة الأذلاء جرحه فغدر به وطعنه، متطوعا لتلك المهمة دون أن يكلفه بها أحد، أو يطلب منه ذلك.

ان موقف هذا القاتل الغادر يثير دهشتنا حقا، لقد أراد أن يشكله أباه ويؤذيه بفعلته هذه، وكأن الأمر أمر عداوة شخصية وكأنه أمر خلاف يجوز فيه اللجوء إلى كافة الأساليب المشروعة وغير المشروعة، وكأن قتل امرئ أمر جائز في أي وقت ولأي سبب وانه لم يكن عبثاً ليس له ما يبرره.

وقد أراد أن يبدو أمام ابن سعد وابن زياد وأمثالهما من الأذلاء الخائفين الخانعين، أنه لا يقل ولاء عنهم ليزيد وحبا لدولته الأموية الخارجة عن الإسلام، كان يريد أن يبدو يزيديا أكثر من يزيد نفسه وأكثر من أي فرد آخر من آل أمية الراعين بالملك والسلطان.

(١) روى الخوارزمي في مقتل علي الأكبر قتل على عطشه مائة وعشرين رجلاً: ج ٢، ص ٣٠.

(٢) اللهوف: ص ٤٨، ومثير الأحزان: ص ٣٥، والأخبار الطوال: ص ٢٥٤ والطبري:

ج ٣ ص ٣٣١، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٩٣.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٣١.

لم يطلب أحد منه أن يفعل ذلك، وكان بإمكانه أن لا يقوم بهذه المهمة، فلا يؤاخذ أحد. لكنه لم يكن يأخذ المسألة كلها مأخذ الجد، بل حسب أن تصديه لأمام الأمة الشرعي وأصحابه أمر بسيط ما دام ذلك يرضي سادته الأذلاء الخانعين.

ولعل القاتل، لم يحلم حتى برؤية يزيد أو مقابلته لنيل كلمة عطف وابتسامته منه. ولعله لم يكن يتمنى أكثر من نظرة رضا من ابن سعد، الذي لم يكن يتمنى أكثر منها من ابن زياد الذي جعل هدفه رضا يزيد عنه، إذ كان غاضبا عليه فيما مضى. كما علمنا.

عند الشهادة «هذا رسول الله قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا أظمأ بعدها أبدا»

وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وجه سلاما حميما لأبيه رافعا صوته بأقصى ما قدر عليه: «يا أبتاه، عليك مني السلام، هذا جدي رسول الله قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا أظمأ بعدها أبدا، وهو يقول لك: العجل، العجل، فان لك كأسا مذخورة حتى تشربها الساعة.

وشهق شهقة كانت فيها نفسه، وفارقت روحه الدنيا»^(١).

كانت روحه متعلقة بأبيه، وكان يعلم أنه في أثره إلى حيث يلقي جده رسول الله ﷺ ليسقيه كأسه المذخورة، هتف به: العجل العجل، فما كان ينبغي له البقاء مع تلك الأمة الضعيفة المستسلمة التي أصبحت أداة صماء بأيدي حكامها المنحرفين المعادين للإسلام. وكان على الأمة بعد ذلك أن تثبت جدارتها للانتساب للإسلام ولمحمد ﷺ وعلي والحسين عليه السلام وأن تكون بمستوى رسالتها ومسؤولياتها، والا فانها ستظل عاجزة، فاقدة الإرادة، غير قادرة على التخلص من نير الظالمين والعاثين وأعداء الإسلام إلى الأبد.

(١) الخوارزمي: ج ٢ ص ٣١، ومثير الأحزان: ص ٥٣، ومقتل العوالم ص ٩٥، واللهوف: ص ٤٨، ومقاتل الطالبيين: ص ٨٥.

كان جزاء الحسين عليه السلام من أمته أن تقدم على قتل ابنه وآله وأصحابه وتستهدفه بالأذى والموت بذلك الشكل الوحشي المريع.

حدث حميد بن مسلم الأزدي وكان مقرباً من ابن سعد، وأحد أفراد الجيش المستنفر لحرب الحسين عليه السلام وقتله، قال: «سماع أذني يومئذ من الحسين يقول: قتل الله قوما قتلوك يا بني. ما أجرأهم على الرحمن، وعلى انتهاك حرمة الرسول، عَلَى الدُّنْيَا بَعْدَكَ الْعَفَاءُ»^(١). لقد أثار مقتل علي الأكبر موجة من الحزن في معسكر الحسين عليه السلام وكان صدهاء بين الجميع مؤلماً مفعجاً وخصوصاً بين النساء والأطفال.. أما الشباب والرجال فكان يخفف من أحزانهم علمهم بأنهم لاحقون به على الأثر. وكانوا جميعاً شهداء على هذه الأمة التي جعل منها حكامها أمة سوء وجهل وأداة للشر والعدوان. أما الحسين عليه السلام فكان ألمه لا يطاق من هذه الجرأة التي استهدفته شخصياً، وكان أجدر أن يعامل بنفس الاحترام والتقدير اللذين عومل بهما جده رسول الله صلى الله عليه وآله من قبل.

وقد تغلب على آلامه والتفت إلى فتيانه من آل أبي طالب وقال لهم: «احملوا أخاكم، فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه»^(٢). وكانت جرأة على الله وعلى الرسول صلى الله عليه وآله أن يتصدى لآل الله ورسوله، من قاموا يقتلونهم ويذبحونهم ويحملون رؤوسهم لابن زياد ويزيد فيما بعد، وكأنهم لم يعرفوا الإسلام ولم يلهجوا بذكر الرسول صلى الله عليه وآله. وكأن الإسلام كان كلاً عليهم وكأنه حملهم ما لا يطيقون فأرادوا الانتقام ممن جاءهم به، وما كان أحد يستطيع بلوغ الحد الذي بلغوه في انتقامهم وقسوتهم.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣١، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٩٣، والخوارزمي: ج ٢، ص ٣١.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣١، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٩٣، والخوارزمي: ج ٢ ص ٣١.

والنويري: ج ٢٠ ص ٤٥٥.

٣- حبيب بن مظاهر الأسدي

انتظر الحسين ﷺ ليلتحق به الشيخ الذي تشوق للشهادة

مع أن حبيب بن مظاهر لم يقدم مع الحسين ﷺ من مكة.. وكان في الكوفة ابان الأحداث التي وقعت فيها. وكان يتوقع قدوم الحسين ﷺ اليها. فانه لا بد أن يكون قد أضمر الالتحاق به قبل أن يقدم. وإذ إنه علم بمقتل مسلم وهانئ وانقلاب الكوفة عليهما، فان اصراره على الالتحاق بالحسين ﷺ، رغم أن الموقف السياسي والعسكري لم يكونا لصالحه، يجعلنا نصنفه على أنه من أصحاب الحسين الأوائل خصوصاً وأنه كان قد كتب اليه يدعوه للقدوم إلى الكوفة. فالتحاق به لم يتم صدفة وقد جمعها طريق واحد كما كان الحال مع زهير بن القين، ولم يسمع بخبر وصوله وتجمع الجيش لاستقباله وعلان الحرب عليه وقتله فقرر الانضمام اليه ومساندته، كما كان حال عبد الله الكلابي. بل انه كان يدري أن الحسين ﷺ قد سار من مكة إلى الكوفة، فقرر الانضمام اليه حال علمه بانقلاب الموقف لغير صالحه. وأنه بحاجة لمن ينصره ويقف إلى جانبه.

وإذ إنه كان من أصحاب أمير المؤمنين ﷺ وتلامذته ومحبيه، فان وعيه بأهداف المسيرة الحسينية كان يجعله على يقين من ضرورة تلك المسيرة التي ستنتهي بمواجهة ساخنة بينه وبين النظام الحاكم. كما أن معرفته بطبيعة الموقف جعلته يدرك أن الموقف العسكري لن يكون لصالح الحسين ﷺ، وأن من يلتحق به سيواجه خطر الموت لا محالة، ورغم ذلك فانه لم يتردد عن اتخاذ قرار الالتحاق.

داعية للحسين وللإسلام

ومهما يكن، فاننا نلمس حضورا واضحا لحبيب قبل يوم عاشوراء بعدة أيام. ولم يشير المؤرخون اشارة واضحة إلى اليوم الذي التحق فيه حبيب بالحسين عليه السلام غير أنهم ذكروا أن ابن سعد حينما قدم كربلاء أرسل مبعوثه قرّة بن قيس الحنظلي ليستفسر من الحسين عليه السلام عن سبب قدومه، بعد فشل مبعوثه الأول كثير بن عبد الله الشعبي لسوء سلوكه وتهوره، وقد كان حبيب يعرفه وله به صلة قرى.

قال حبيب بن مظاهر للحسين عليه السلام عن قرّة: «هذا رجل من حنظلة، تميمي، وهو ابن أختنا، ولقد كنت أعرفه بحسن الرأي، وما كنت أراه يشهد هذا المشهد»^(١).

وقد أراد حبيب حثه على التخلي عن موقفه الموالي ليزيد وحكومته والانضمام للحسين عليه السلام؛ لأنه كان يرى في الانضمام له مكسبا حقيقيا وضمانا لمستقبل آمن يوم الحساب.

وهكذا بدأ يلومه على موقفه ويدعوه للتخلي عنه، وقال له: «ويحك يا قرّة بن قيس، أنّى ترجع إلى القوم الظالمين، أنصر هذا الرجل الذي بآبائه أيدك الله بالكرامة وإيانا معك.

فقال له قرّة: ارجع إلى صاحبي بجواب رسالته وأرى رأيي. فانصرف إلى عمر بن سعد»^(٢).

ولم يعد، اذ لم يجد في نفسه القدرة على تصحيح موقفه، وقد رأى أن الثمن لا بد أن

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١١ وكان قدوم ابن سعد إلى كربلاء بعد قدوم الحسين عليه السلام إليها بيوم واحد.. قدم الحسين يوم الخميس في الثاني من المحرم وقدم ابن سعد في اليوم الثالث. الطبري: ج ٣ ص ٣١٠.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١١.

يكون باهظا ونذر الحرب قد لاحت في الأفق.

أما حبيب فبقي مع الحسين عليه السلام وأصحابه، وربما أحزنه مصير قرة وعجزه عن الالتحاق بالحسين عليه السلام؛ لأن مخاوفه لا بد أن تكون قد تغلبت عليه، فلم تدعه قادرا على اتخاذ القرار الصحيح الذي كان لا بد أن يتخذه كل ذي ارادة حرة واعية، وربما أحزنه أيضا تخلف كل جند ابن زياد بل كل أهل الكوفة عن نصره الحسين والالتحاق بركبه الكريم، وقيامهم بدل ذلك بالالتحاق بعدوه وعدو الإسلام اللدود.

أحزنه أن يرى هذه الفئة من الأمة تتصدى بالسيف لمن جاء ينصرها ويقف إلى جانبها وينقذها من الهاوية الأموية المريعة. ومن المؤكد أنه عد نفسه موفقا حقا، إذ أتاحت له هذه الفرصة العظيمة ليكون في صف الحسين يفديه بنفسه ويموت بين يديه، لينال السعادة الدائمة التي كان موقنا منها طالما أنه بنصرة الحسين، كان ينصر الإسلام.

مواجهة الموت لا تمنع من توجيه النصيحة للعدو

وقد رافق حبيب العباس وزهير بن القين وجماعة آخرين من أصحاب الحسين عليه السلام في مساء اليوم التاسع لمقابلة ابن سعد الذي بدأ هجومه على نخيم الحسين بناء على أوامر مشددة تلقاها من ابن زياد لمحاولة منعه من ذلك الهجوم ومعرفة الدوافع التي دعت إليه دون سابق انذار.

وقد استغل فرصة عودة العباس بجواب ابن سعد للحسين عليه السلام وحث زهير بن القين على تقديم النصائح لابن سعد وأتباعه لكي يردهم عن عزمهم في قتال الحسين عليه السلام ويستميلهم إلى جانبه.

قال لزهير بن القين: «كلم القوم ان شئت، وان شئت كلمتهم»^(١).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥.

وهو عرض مؤدب أراد فيه أن يقدم زهيرا لما علمه من اخلاصه في الذود عن قضية الحسين (ع) بعد أن كان يقف موقفا آخر منه. ولا بد أن كلامه سيكون مؤثرا وناظرا غير أن زهيراً - وقد عزم على مخاطبة القوم فعلا - قابل عرضه المؤدب بعرض مؤدب آخر وقد أراده أن يكون هو البادئ طالما أنه كان صاحب الاقتراح بذلك، فقال له:

«أنت بدأت بهذا، فكن أنت تكلمهم. فقال لهم حبيب بن مظاهر: أما والله لبئس القوم عند الله غدا، قوم يقدمون عليه، قد قتلوا ذرية نبيه (ص) وعترته وأهل بيته (ع) وعباد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار، والذاكرين الله كثيرا»^(١).

كانت خطبة حبيب القصيرة التي قوطعت من قبل أحد أعوان ابن سعد، عزرة ابن قيس الذي قال له عند وصوله هذا الحد منها: «انك لتزكي نفسك ما استطعت»^(٢) واضحة وصارمة بما فيه الكفاية لتلفت أنظار أولئك المضللين السائرين بركاب الدولة الظالمة والقادمين لقتال الحسين (ع) وتجعلهم يتراجعون ويتخلون عن ارتكاب جريمتهم النكراء.

ولعلها كانت تمهيدا لخطبة أخرى مؤثرة، ألقاها بعده زهير بن القين، كما رأينا عند استعراض جانب من سيرة زهير.

ابحث عن المخبرين

وعندما ضيق ابن سعد الحصار على معسكر الحسين (ع) وتوالت امدادات ابن زياد له، اقترح حبيب على الامام أن يذهب لدعوة حيي من بني قومه (أسد) يسكنون قريبا من كربلاء، لنصرته. وقد أذن له الامام بذلك، فذهب في الليل متكررا حتى صار اليهم

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥.

وفاتحهم بالأمر الذي قدم له، واستجاب له منهم سبعون أو تسعون رجلا، إلا أن عينا منهم أوصل خبرهم لابن سعد الذي قام اثر ذلك بتجريد حملة لمنعهم من الالتحاق بالحسين عليه السلام، وقد جرت بين الفريقين مناوشات واقتتال انسحب على إثرها الفريق الذي أراد نصرة الحسين، ورحل عن المنطقة بأسرها خوفا من ابن سعد، ورجع حبيب إلى الحسين عليه السلام بخبر ذلك بعد أن أخفق مسعاه^(١).

ويبدو من مسعى حبيب وذهابه لاستنهاض الأسديين ورجوعه مع جماعة منهم لنصرة الحسين عليه السلام وربما قيامه بالمشاركة بالمناوشات التي جرت بينهم وبين أتباع ابن سعد، أنه كان متلهفا على قلب ميزان القوى لصالح الحسين، مع أنه كان يدرك أن عددا بسيطا استنهضه لا يمكن أن يغير معادلة القتال. إلا أنه ربما سينجح بلفت نظر الآخرين من أفراد جيش ابن سعد لموقف هؤلاء الملتحقين الجدد. ربما حذا بعضهم حذو هؤلاء والتحقوا بالحسين أيضا وسجلوا كسبا لقضيته وموقفه؛ وهو ما كان حريصا عليه إلى حد بعيد.

حبيب يواجه وقاحة شمر «اني أراك تعبد الله على سبعين حرفا.. قد طبع الله على قلبك»

لقد أحزن حبيبا عدم استجابة أتباع ابن زياد لدعوته واصرارهم على مقاتلة الحسين عليه السلام أو تسليمه لابن زياد دون قيد أو شرط، وتهيأ مع الحسين عليه السلام وأصحابه لخوض الحرب معهم. وقد جعله الحسين في ميسرة أصحابه عند التعبئة للقتال.

وعندما ألقى الحسين عليه السلام خطبته التي أشار فيها إلى السبب الذي دعاه للقدوم ويّن فيها مكانته من رسول الله صلى الله عليه وآله، وطلب منهم الاستفسار من بعض الصحابة المعروفين

(١) الخوارزمي: ج ١، ف ١١ وأنساب الأشراف للبلاذري: ج ٣، ص ١٨٠ والبحار: ج ٤٤،

الذين كانوا أحياء عن مقولة قالها رسول الله ﷺ فيه وفي أخيه الحسن ﷺ: «هذان سيدا شباب أهل الجنة» وتصدى له شمر مقاطعا.. كان حبيب أول من انتهره على وقاحته ومقاطعته للامام ﷺ قائلا: «والله، اني لأراك تعبد الله على سبعين حرفا، وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك»^(١).

وقد فتح الباب ثانية لزهير ليلقي فيهم خطبة أخرى - ذكرناها عند استعراض سيرته -.

وكان حبيب متلهفا على القتال ولقاء العدو. وقد أراد أن يخرج مع برير بن خضير عندما دعيا للمبارزة من قبل يسار مولى زياد بن أبيه وسالم مولى عبيد الله بن زياد، الا أن الحسين ﷺ منعهما وأمرهما بالجلوس وسمح لعبد الله بن عمير الكلبي بالخروج، فخرج وقتلها.

ومن الطريف ان عبد الله الكلبي عندما خرج للقائهما رفضا مبارزته في البداية، رغم أنها عبدان لعبيد الله وأبيه زياد، وقد حسباً أنهما من أشرف القوم - وطلبا أن يخرج اليهما زهير بن القين أو حبيب بن مظاهر أو برير بن خضير الا أن الكلبي رد على يسار أحد العبدین الذي كان هو المتصدي للكلام، بقوله: «يا بن الزانية، وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس، وما يخرج اليك أحد من الناس الا وهو خير منك»^(٢).

تسابق إلى الشهادة .. «أوصيك بالحسين أن تموت دونه»

وهنا نشهد موقفاً عجباً منه ومن مسلم بن عوسجة وقد كان يجود بأنفاسه، وما ندري أيهما أعجب، موقف حبيب وهو يواسي صاحبه ويطمئنه إلى المصير السعيد الذي

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٩.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢١.

سيصير اليه، أم موقف مسلم الذي أوصاه قبل استشهاده أن يموت دون الحسين عليه السلام.

فعندما صرع مسلم بن عوسجة ومشى اليه الحسين عليه السلام، وكان به رمق.. وقال له «رحمك ربك يا مسلم بن عوسجة عليه السلام فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا»^(١). دنا منه حبيب بن مظاهر فقال: عز علي مصرعك يا مسلم، أبشر بالجنة.

فقال له مسلم قولاً ضعيفاً: بشرك الله بخير.

فقال له حبيب: لولا أنني أعلم أنني في أثرك لاحق بك من ساعتی هذه لأحببت أن توصيني بكل ما أهمك حتى أحفظك في كل ذلك بما أنت أهل له في القرابة والدين.
قال: بل أنا أوصيك بهذا رحمك الله -وأهوى بيده إلى الحسين- أن تموت دونه، قال: أفعل ورب الكعبة»^(٢).

وفعل، ووفى بوعده، ومات دون الحسين عليه السلام.

ان في أقوال حبيب معاني عظيمة لا بد أن يلتفت إليها كل دارس لسيرة أنصار الحسين عليه السلام لمعرفة الدوافع الكبيرة وراء وقفهم الشجاعة خلفه وتقديم أنفسهم قرايين دون الإسلام. فحبيب لا يبدو هنا مشغولاً بنفسه والموت الذي ينتظره بعد لحظات، بل انه بدا به سعيداً وكان يعد نفسه لاستقباله بحفاوة واشتياق. وقد ذهب ليواسي صاحبه ويطمئنه إلى المصير السعيد الذي سيصير اليه ويعلمه أنه لاحق به على الأثر.

وأعجب من قوله، قول صاحبه وهو يجود بنفسه. فقد كان لا يشعر بالآلام الجراحة والموت. وكان أشد ما يؤلمه أن يرى امام الأمة سيتعرض للقتل على يد طغاتها وجهاها وعتاتها. لا لسبب الا لأنه أراد انقاذها من المصير المحزن الذي ستنتهي اليه على يد

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤-٣٢٥.

الطغمة الأموية الفاسدة.

الشيخ ينازل الفرسان

ان مشهدا آخر يطالعنا في غمار المعركة، وهو المشهد الذي طلب الحسين عليه السلام في بدايته من أصحابه أن يسألوا أصحاب ابن سعد ليكشفوا عنهم حتى يصلّوا صلاة الظهر، وقد حان وقتها. وقد سألوهم ذلك فعلا، الا أن الحصين بن تميم أحد أفراد الجيش المعادي، ومن عرف بمواقفه المتطرفة ضد الحسين وأصحابه أجابهم قائلا: «إنها لا تقبل. فقال له حبيب بن مظاهر: لا تقبل - زعمت - الصلاة من آل الرسول صلّى الله عليه وآله، وتقبل منك يا حمار؟

فحمل عليهم الحصين بن تميم، وخرج اليه حبيب بن مظاهر، فضرب وجه فرسه بالسيف، فشب ووقع عنه، وحمله أصحابه فاستقدوه. وأخذ حبيب يقول:

أقسم لو كنالكم أعدادا أو شطركم وليتم أكتادا
يا شر قوم حسبا وآدا

وجعل يقول يومئذ:

أنا حبيب وأبي مظاهر فارس هيجاء وحرب تسعر
أنتم أعد عدة وأكثر ونحن أوفى منكم وأصبر
ونحن أعلى حجة وأظهر حقا وأنقى منكم وأعذر^(١).

لقد آله أن يسمع من الحصين بن تميم قوله المتجني، أن الصلاة لا تقبل من آل الرسول صلّى الله عليه وآله، وتقبل من أعدائهم. فهل أن الأمر كما قال الحصين حقا؟ هل ستقبل من أولئك القتلة، ولا تقبل ممن ينتصر لله ودينه ورسوله؟

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٦-٣٢٧.

لم ير حبيب وجه عذر لأولئك الذين أرادوا منعهم الصلاة، وقد حان وقتها، فصال عليهم وتصدى لذلك (المتطوع) السمع الذي تبرع بفتواه متهجما على الحسين وأصحابه. وقد أوشك حبيب أن يقتله لو لم يستنقذه أصحابه.

وقد أوضحت مواقفه وأقواله عن قناعاته المطلقة بصحة مسيرة الحسين. وكان يبدو في كل وقت حريصا على تلبية نداءه والمضي معه إلى النهاية، وكان يعلم أن النهاية تعني القتل المؤكد، وهو ما لم يكن يهابه، بل رآه نهاية سعيدة.

«وقاتل قتالا شديدا، فحمل عليه رجل من بني تميم، فضربه بالسيف على رأسه، وكان يقال له بديل بن صريم من بني عقفان، وحمل عليه آخر من بني تميم فطعنه، فوقع، فذهب ليقوم، فضربه الحصين بن تميم على رأسه بالسيف، فوقع، ونزل اليه التميمي فاحتز رأسه»^(١) ليأخذه لابن زياد، وقد حسب أنه سينال أجرا كبيرا منه على جريمته. وحسب بذلك أنه سيضمن منزلة وجاها وثروة يسعد بها إلى الأبد.

رغم شيخوخته، كان طودا شامخا «احتسب نفسي وحماة أصحابي»

لقد كان لحبيب شأن كبير، فقد كان فارسا مقداما لم يتوان عن رمي نفسه بأشد المواقف خطرا، وكان من أشد أصحاب الحسين نصرة له وتفانيا في الذب عنه وعن أهل بيته وأصحابه. فعندما «قتل حبيب بن مظاهر، هد ذلك حسينا، وقال عند ذلك: احتسب نفسي وحماة أصحابي»^(٢).

أما قتلة حبيب، فقد حسبوا أن من حقهم أن يتباهوا بقتله وحز رأسه، وقد تنافسوا على (الفوز) به. أيهم يقدمه لابن زياد، فعندما احتز التميمي الرأس أراد الحصين أخذه

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٧.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٧.

منه بحجة أنه شريكه في قتله، وقال له: «أعطني أعلقه في عنق فرسي كيما يرى الناس ويعلموا أنني شرت في قتله، ثم خذه أنت بعد فامض به إلى عبيد الله بن زياد، فلا حاجة لي فيما تعطاه على قتلك إياه. فأبى عليه، فأصلح قومه فيما بينهما على هذا، فدفع إليه رأس حبيب بن مظاهر، فجال به في العسكر قد علقه في عنق فرسه، ثم دفعه بعد ذلك إليه.

فلما رجعوا إلى الكوفة، أخذ الآخر رأس حبيب فعلقه في لبان فرسه، ثم أتى إلى ابن زياد في القصر»^(١).

حسب الحصين أن رضا ابن زياد عنه أهم من المال الذي سيكسبه منه، فربما سيزداد حظوة لديه، إذا ما علم أنه تفرغ في خدمته وقتال عدوه، وربما سيعمد في تلك الحال إلى تعيينه في وظيفة كبيرة أو منحه مالا أكثر من ذلك الذي كان سيعطيه إياه فيما لو أخذ الرأس إليه مع التميمي، والا فما الدافع له على قتل حبيب والافتخار بقتله. اللهم الا إذا كان غرضه الانتقام منه لما ألحقه به من اهانة وقد كاد أن يقتله عندما تهجم على الحسين وأصحابه وقال ان الصلاة لا تقبل منهم.

ولم يسلم قاتل حبيب من القتل، ولو بعد حين؛ فقد قتله ابن حبيب، القاسم عندما أصبح شابا، وقد بصر به وهو يومئذ قد راهق، فأقبل معه لا يفارقه عند دخوله قصر ابن زياد وخروجه منه. وقد سأله عن سبب ذلك، فقال له: «ان هذا الرأس الذي معك، رأس أبي، أفتعطينيه حتى أدفنه؟

قال: يا بني لا يرضى الأمير أن يدفن، وأنا أريد أن يثيبي الأمير على قتله ثوابا حسنا، قال له الغلام: لكن الله لا يثيبك على ذلك الا أسوأ الثواب. أما والله لقد قتلت خيرا منك»^(٢).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٧.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٦-٣٢٧.

لم يكن هذا التميمي مثل الحصين، ولقد أفصح عن غرضه من قتل حبيب. أن يثيبه الأمير على قتله ثوابا حسنا، يمنحه قدرا من المال جزاء ارتكابه هذه الجريمة، كان لا يرى أمامه رازقا ومثيبا وقادرا سوى هذا الأمير الذي جعله مثالا أعلى له، أما الله فلم يكن يراه، حتى كما يراه هذا الغلام الصغير، القاسم بن حبيب، وقد أدرك أن أباه كان على حق، وأنه بالتأكيد خير من قاتله ومن أميره ومن كل أفراد الجيش الخانع الذليل.

وقد نال هذا القاتل جزاءه في هذه الدنيا، كما ناله معظم القتلة الآخرين، إذ إن القاسم بن حبيب عندما «أدرك لم يكن له همه الا اتباع أثر قاتل أبيه ليجد منه غرة فيقتله بأبيه، فلما كان زمن مصعب بن الزبير، وغزا مصعب باجميرا، دخل عسكر مصعب، فاذا قاتل أبيه في فسطاطه، فأقبل يختلف في طلبه والتماس غرته، فدخل عليه وهو قاتل نصف النهار فضربه بسيفه حتى برد»^(١) فخسر بذلك دنياه، أما في الآخرة، فلا أحد يستطيع وصف جزائه وعقابه، وسيكون بلا شك عقابا كبيرا تأخذه فيه زبانية جهنم أخذا شديدا، أليس ذلك ما وعد الله به من نصب العداوة لرسوله ﷺ والخلص من أصحابه والمؤمنين به؟

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٦-٣٢٧.

٤ - مسلم بن عوسجة الأسدي

الصحابي الجليل

شخصية مسلم بن عوسجة من الشخصيات التي لا تكرر الا في القليل النادر، لذلك فهي تثير الانتباه والاعجاب حتى من قبل الأعداء والحاquدين.

ومسلم بن عوسجة عند وقوع مأساة كربلاء كان شيخا كبير السن، فقد كان ممن شهدوا رسول الله ﷺ وقد روى عنه، ومع ذلك نراه في هذا العمر المتقدم ينشط في الكوفة عند قدوم مسلم بن عقيل اليها ويأخذ البيعة من الناس للحسين (ع).

وقد رأينا مشهدا كان مسلم بن عوسجة يصلي في جامع الكوفة، حينما أدخل عليه (معقل) مولى عبيد الله بن زياد، وقد أرسله عينا على الثوار يتجسس أخبارهم ويرصد تحركاتهم، وأعطاه مبلغ ثلاثة آلاف درهم يتبرع بها لكي يطمئنوا اليه ويكشفوا له أسرارهم وتحركاتهم.

كان مسلم بن عوسجة الواسطة التي نفذ منها معقل لمسلم بن عقيل وهانئ بن عروة، ولنستمع لرواية هشام التي وردت في تاريخ الطبري وبعض كتب التاريخ والسير الأخرى تحدثنا ببعض التفصيل عن هذا الأمر.

مع المخبرين ثانية، الجاسوس الذي خدع مسلم بن عوسجة

عندما أخذت الناس تختلف إلى مسلم بن عقيل في دار هانئ بن عروة، بعد خروجه من دار المختار وقد علم به «دعا ابن زياد مولى له يقال له معقل، فقال له: خذ ثلاثة

آلاف درهم، ثم اطلب مسلم بن عقيل، واطلب لنا أصحابه، ثم أعطهم هذه الثلاثة آلاف، فقل لهم: استعينوا بها على حرب عدوكم، وأعلمهم أنك منهم، فانك لو قد أعطيتها إياهم اطمأنوا اليك ووثقوا بك، ولم يكتموك شيئاً من أخبارهم، ثم أغد عليهم ورح، ففعل ذلك، فجاء حتى أتى مسلم بن عوسجة الأسدي من بني سعد بن ثعلبة في المسجد الأعظم وهو يصلي، وسمع الناس يقولون: ان هذا يبايع للحسين.

فجاء، فجلس، حتى فرغ من صلاته ثم قال: يا عبد الله، اني امرؤ من أهل الشام، مولى لذي الكلاع، أنعم الله علي بحب أهل هذا البيت، وحب من أحبهم، فهذه ثلاثة آلاف درهم، أردت بها لقاء رجل منهم بلغني أنه قدم الكوفة، يبايع لابن بنت رسول الله ﷺ وكنت أريد لقاءه، فلم أجد أحدا يدلني عليه ولا يعرف مكانه، فاني لجالس آنفا في المسجد، اذ سمعت نفرا من المسلمين يقولون: هذا رجل له علم بأهل هذا البيت، واني أتيتك لتقبض هذا المال وتدخلني على صاحبك فأبأيه، وان شئت أخذت بيعتي له قبل لقاءه.

فقال: احمد الله على لقاءك ايائي، فقد سرنى ذلك لتنال ما تحب، ولينصر الله بك أهل بيت نبيه ﷺ ولقد ساءني معرفتك ايائي بهذا الأمر من قبل أن ينمى مخافة هذا الطاغية وسطوته.

فأخذ بيعته قبل أن يبرح، وأخذ عليه المواثيق المغلظة ليناصحته وليكتمن، فأعطاه من ذلك ما رضى به، ثم قال له: اختلف إليّ أياما في منزلي، فأنا طالب لك الاذن على صاحبك، فأخذ يختلف مع الناس، فطلب له الاذن.

ثم أن معقلا مولى ابن زياد الذي دسه بالمال إلى ابن عقيل وأصحابه، اختلف إلى مسلم بن عوسجة أياما ليدخله على ابن عقيل، فأقبل به حتى أدخله عليه بعد موت

شريك بن الأعور، فأخبره خبره كله، فأخذ ابن عقيل بيعته، وأمر أبا ثامة الصائدي، فقبض ماله الذي جاء به، وهو الذي كان يقبض أموالهم، وما يعين به بعضهم بعضاً، يشتري لهم السلاح وكان به بصيراً، وكان من فرسان العرب ووجوه الشيعة، وأقبل ذلك الرجل يختلف إليهم، فهو أول داخل وآخر خارج، يسمع أخبارهم، ويعلم أسرارهم، ثم ينطلق بها حتى يقرأها في أذن ابن زياد^(١).

موقف بطولي قبل الطف

لقد نجح معقل مولى ابن زياد بكشف أسرار الثوار وأخبارهم، وواجه هانئ بها أمام مولاه في قصر الامارة، مما دعا ابن زياد لالقاء القبض على هانئ الأمر الذي اضطر مسلماً لإعلان ثورته قبل الأوان وقبل أن يستكمل استعداداته وتجهيزاته، وقد أدى ذلك بالتالي إلى فشلها ومقتل مسلم وهانئ قبل وصول الامام الحسين عليه السلام، وقد تحدثنا بالتفصيل عن أسباب ذلك.

عند احتجاز هانئ في القصر استنفر مسلم بن عقيل قواته التي كانت قد بايعته سرا، نتيجة الهياج الشعبي وصراخ نسوة مراد، وقد عقد لمسلم بن عوسجة على ريع مذبح وأسد وقال: انزل في الرجالة، فأنت عليهم^(٢)، وقبل أن تتاح الفرصة للمنازلة وأصحاب مسلم ملتفون حوله والثورة الشعبية لا تزال تغلي، استطاع أعوان ابن زياد من أشرف الكوفة تخذيل الناس عن القتال وتشجيعهم على التخلي عن مسلم مستخدمين كافة أساليب الترهيب والتخويف، وبقي مسلم وحيداً بعد أن تفرق أصحابه وسجن

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٣-٢٨٤ والخوارزمي ج ١، ص ٢٠١-٢٠٢، والكمال في التاريخ: ج ٣ ص ٢٦٩ والمجلسي: م ١٠ ج ٤٤، ص ٣٤٢ والمفيد: ص ١٩٠، ومقاتل الطالبين: ص ٧١ ومناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ٩١، وروضة الواعظين: ص ١٧٤ ونور العين للأسفراييني: ص ١٦ ونهاية الأرب للنويري: ج ٢٠ ص ٣٩٣ مع اختلافات بسيطة في النصوص.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٦.

بعضهم وقتل البعض الآخر منهم.

ولم نعلم بأمر مسلم بن عوسجة حتى التقيناه ثانية بين أصحاب الحسين عليه السلام وقد سار إلى معسكره بعياله مواسيا بنفسه وأهله، ولعله قد احتجز في تلك الفترة أو اختفى عن أعين السلطات ريثما تتاح له فرصة الالتحاق بالحسين عليه السلام ونصرته.

ولا بد أن نرى - من مواقفه - أنه كان ينوي الالتحاق بالحسين عليه السلام وقد علم حاجته للرجال والأنصار بعد فشل ثورة مسلم، ونستطيع أن نعتبره استنادا لذلك من أصحابه الأوائل الذين أضمرُوا نصرته، فتحدثنا عنه ضمن حديثنا عن الأصحاب الأوائل الذين رافقوا الحسين من مكة إلى كربلاء.

مع الحسين حتى الشهادة «أنحن نخلي عنك؟»

ونرى مسلم بن عوسجة قبل عاشوراء ليلة واحدة وهو يستمع للحسين عليه السلام وقد جمع أصحابه وأهل بيته في تلك الليلة التي تجمعت فيها نذر الحرب، يعلن أن الجميع في حل من مغادرته ويطلب منهم إذا ما اتخذوا القرار بذلك أن يستغلوا سواد الليل حفاظا على أرواحهم، وقال لهم: «هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فإن القوم انما يطلبوني، ولو قد أصابوني لهُوا عن طلب غيري»^(١).

وقد رفض أصحاب الحسين ذلك رفضا قاطعا وأبوا إلا البقاء معه والاستشهاد بين يديه، وكان مسلم بن عوسجة، الشيخ الكبير، أول من أجابه من أصحابه، فقال:

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥، واللّهوف: ٣٨، وروضة الواعظين: ١٨٣، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٥، والخوارزمي: ١ ف ١١، والمفيد: ٢١٠، وأمالى الصدوق: م ٣٠، وجمهرة خطب العرب: ج ٢ ص ٤٩، والبحار: ج ٤ ص ٤٩٢، والبلاذري: ج ٣ ص ١٨٥، والنويري: ج ٢ ص ٤٣٥.

«أنحن نخلي عنك ولما نعذر إلى الله في أداء حقك؟ أما والله حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ولا أفارقك، ولو لم يكن معي سلاح، أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك»^(١).

كان مسلم حذرا في جوابه هنا رغم معرفته بأصحاب الحسين، فلقد مر بتجربة سابقة رأى فيها كيف أن أصحاب مسلم بن عقيل قد تفرقوا عنه رغم الحماس الذي أبدوه قبيل ساعات من تفرقهم عنه، ولعله كان يتوقع موقفا مماثلا من بعض من كان معه من أصحاب الحسين عليه السلام. وكان جوابه - وفي القسم الأول منه - يحمل الجميع مسؤولية الدفاع عن الحسين والوقوف إلى جانبه، ويؤكد في القسم الأخير على موقفه هو شخصا وما سوف يقوم به دفاعا عنه، فهو واثق ومتأكد من موقفه هذا. وهكذا تحدث عن نفسه بذلك الوضوح العجيب الذي لمسناه في اجابته.

لم يكن مسلم بن عوسجة يجد سببا لترك الامام ليضطلع وحده بهذه المهمة الدقيقة الصعبة دون أن يشاركه فيها، لقد فهم هذه المهمة وأدرك أبعادها ومراميتها الحقيقية، ورأى أن على كل فرد من أبناء هذه الأمة دورا ينبغي أن يلعبه فيها، أما كيف يحجم أحد عن ذلك، فهذا ما لم يستطع مسلم أن يفهمه، كيف سيكون موقفها أمام الله إن هي تخلت عنه وتخلت عن امامها الشرعي الحقيقي؟

لقد وجد في يده سيفا فكيف لا يحارب به...؟ وهبه لم يجد ذلك السيف، الا تكفي الحجارة في تلك الحال ولو إلى حين إلى أن يموت مع امامه؟ ليكون سعيدا بعد ذلك وقد أدى واجبه بجدارة...؟ وهل الموت وحده، هو الذي يقف عائقا دون نصرته...؟ وهل الموت مخيف لتلك الدرجة التي يخشى فيها الانسان مواجهة ربه مع أنه إلى صفه وفي جانبه...؟ أيخشى المؤمن الموت حقا...؟

هذا ما لم يفكر به مسلم وهو يجيب تلك الاجابة الحازمة القاطعة، وهذا ما لم يفكر به أصحاب الحسين كلهم وقد وقفوا وقفة جديرة بهم، وأثبتوا أنهم أنصار الإسلام حقا.

كاد أن يقتل شمرا لولا أن منعه الحسين

كان مسلم بن عوسجة يتحرق شوقا - في كل مرحلة من مراحل مسيرته مع الحسين (ع) قبل بدء المعركة وبعدها - لمنازلة عدوه.

روي عن الضحاك المشرقي^(١)، قال: «لما أقبلوا نحونا فنظروا إلى النار تضطرم في الحطب والقصب الذي كنا ألهنا فيه النار من ورائنا لثلا يأتونا من خلفنا، اذ أقبل إلينا منهم رجل يركض على فرس كامل الأداة، فلم يكلمنا حتى مر على أبياتنا، فنظر إلى أبياتنا، فاذا هو لا يرى الا حطبا تلتهب النار فيه، فرجع راجعا، فنادى بأعلى صوته: يا حسين، استعجلت النار في الدنيا، قبل يوم القيامة، فقال الحسين: من هذا؟ كأنه شمرا ابن ذي الجوشن؟

فقالوا: نعم، أصلحك الله، هو هو.

فقال: يا بن راعية المعزى، أنت أولى بها صليا.

فقال له مسلم بن عوسجة: يا بن رسول الله، جعلت فداك، ألا أرميه بسهم، فإنه قد أمكنتني، وليس يسقط [مني] سهم، فالفاسق من أعظم الجبارين، فقال له الحسين: لا ترمه، فاني أكره أن أبدأهم^(٢).

كان مسلم بن عوسجة يعرف شمرا بن ذي الجوشن؛ لأنه كان من أهل الكوفة،

(١) وهو ممن التحق بالحسين (ع) وأعطاه عهدا أن يقاتل بين يديه ما كان قتاله معه نافعا، فاذا لم يجد

مقاتلا معه كان في حل من الانصراف... الطبري: ج ٣ ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٨.

وقد عاش الأحداث التي مرت بها عند قدوم مسلم بن عقيل وشارك فيها، بل كان له دور رئيسي فيها، ولا شك أنه في فترة اختفائه بعد فشل ثورة مسلم قد تابع تطورات الأحداث واطلع على دور شمر التحريضي على الحسين عليه السلام والمتحيز لابن زياد، وقد وجد أنها فرصة سانحة عندما أتحت له وكان يستطيع قتله أو إصابته، فطلب من الحسين عليه السلام أن يرميه، إلا أن الحسين عليه السلام رفض ذلك.

كان يعلم أن الباغي مصروع، وإن حسب أنه منتصر، وأنه مغلوب، وأن نتيجة بغيه ستكون وبالا عليه، وكان يريد أن يواجه الجيش المعتدي بسبب مجيئه إلى الكوفة، ويوضع لأفراده مسؤولياتهم في ظل تلك الأوضاع الحرجة التي كانت تمر بها الأمة، ويريدهم أن يتخلوا عن مواقفهم المساندة لنظام البغي الأموي وينحازوا للإسلام ويعودوا إليه ثانية.

وإذا ما ضرب شمر أو قتل فلعل الدعاية الأموية ستصور المسألة وكأنها اعتداء سافر من الحسين عليه السلام وستستغل مقتل شمر أو إصابته لكي تقول بعد ذلك أنها لم تقصد قتل الحسين عليه السلام وإصحابه وإنها كانت تريد توفير حياتهم لو لم يقوموا هم (بالعدوان) وليس أدل على ذلك من قتلهم شمرًا قبل بدء المعركة التي سيدعون أنهم لم يكونوا يريدونها أصلاً.

ثم من يكن شمر، سواء قتل أم بقي حياً، فهو ليس سوى مسمار صغير في عجلة الدولة الكبيرة، أنه لا يستحق أن يشكل قضية لوحدها فيما لو قتل، إن الدولة ستستغل قتله، وستتمادى في عدوانها وتجاوزاتها على الأمة بحجة القضاء على المعارضة المتمثلة بموالي ومحبي آل البيت والسائرين على خطهم.

أما مسلم بن عوسجة، فكان يرى الجانب القائم من المسألة، يرى حرباً أو شكت

أن تدور رحاها. ويرى أحد أعوان السلطة الظالمة وهو يعتدي ويتجاوز بلسانه السليط على امام الأمة، وإذا ما كان مصيرهم القتل، وقد علم ذلك وتأكد منه، فلماذا لا يزيح أمثال هذا الطاغية من أمامه، قبل أن تتاح له فرصة مشاهدتهم قتلى بعد ذلك.

كان الحماس الذي يعصف بقلب مسلم يزيح كل خوف محتمل من الموت والقتل، وإن كان قتلا مريعا.

مسلم بن عوسجة : مبارز لا يغلب

كانت المباراة مع أصحاب الحسين عليه السلام تعني خسارة مؤكدة للجيش المعتدي، قد تميل - نتيجتها - الكفة لصالحهم، ولذلك فإن عمرو بن الحجاج - وقد أدرك طبيعة الموقف - قام بتحريض أصحابه قائلا: «يا حمقي، أتدرون من تقاتلون؟ فرسان مصر، قوما مستميتين، لا يبرزن لهم منكم أحد، فانهم قليل، وقلما يبقون، والله لو ترموهم الا بالحجارة لقتلتموهم»^(١) وقد أيد وجهة نظره هذه عمر بن سعد وقال له: «صدقت، الرأي ما رأيته، وأرسل إلى الناس يعزم عليهم الا يبارز رجل منكم رجلا منهم»^(٢).

وإذ إن ابن سعد استجاب لرأي ابن الحجاج، فإن هذا لم يكتف باقتراحه، وقد رأى أنهم لم يستطيعوا تحقيق غلبة واضحة حتى تلك الساعة، فقام يحرض الناس على الحسين عليه السلام وأصحابه ويدعوهم للتماسك والثبات. وقد توجه بندائه اليهم قائلا: «يا أهل الكوفة، الزموا طاعتكم وجماعتكم، ولا ترتابوا في قتل من مرق من الدين وخالف الامام»^(٣).

وقد أجابه الحسين عليه السلام قائلا: «يا عمرو بن الحجاج، أعلي تحرض الناس؟ نحن

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤.

مرقنا وأنتم ثبتتم عليه؟ أما والله لتعلمن لو قد قبضت أرواحكم، ومتم على أعمالكم، أيننا مرق من الدين، ومن هو أولى بصلي النار»^(١).

غير أن هذا الخانع الذليل، صم أذنيه عن كلمات الحسين عليه السلام، وأثر تنفيذ أوامر أسياده، وبدلاً من أن يستجيب لها «حمل على الحسين في ميمنة عمر بن سعد من نحو الفرات فاضطربوا ساعة فصرع مسلم بن عوسجة الأسدي أول أصحاب الحسين، وكان الذي قتل مسلم بن عوسجة، مسلم بن عبد الله الضبابي وعبد الرحمن بن أبي خشكارة البجلي»^(٢).

ولا بد أن مسلم بن عوسجة اندفع في مقدمة المدافعين عن الحسين عليه السلام فكان أول شهيد من أصحابه.

صورة وضاعة عند الشهادة

ومن اللوحة الكثيبة التي يظللها الموت، تبرز صورة وضاعة لمسلم، وقد مشى إليه الحسين عليه السلام. «فاذا به رmq، فقال: رحمك ربك يا مسلم بن عوسجة، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾»^(٣)^(٤).

كان ترديد الإمام تلك الآية الكريمة في تلك اللحظة والعدو قد استنفرد كل قوته لمواجهتهم توحى بأن مسلم بن عوسجة سيكون في مقدمة موكب الشهداء وأن الباقين سيكونون في الأثر.

لم يقل له انك ستظل حيا تعيش بيننا ولا بأس عليك، فلم يكن الموت يخيفه، وانما

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤.

(٣) الأحزاب: ٢٣.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤.

الذي يخيفه أنه لن يكون قادرا على مواصلة المسير مع الحسين عليه السلام، وكان أشد ما يسره هو أن يواجه المستقبل السعيد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وآله في الجنة، وكانت كلمة الامام بلسا شافيا لجراحاته وآلامه.

وفد عليه أصحابه، يبشرونه بالجنة وبالفوز العظيم، وكان في مقدمتهم حبيب بن مظاهر الأسدي قريه في النسب وأخوه في الدين، وقد دار بينهما حوار جميل جدير بالتأمل، اذ كان يجري في ظرف دقيق جدا، وكان العدو يستعد لانزال ضرباته الموجهة بالجميع.

قال حبيب بن مظاهر: «عز علي مصرعك يا مسلم، أبشر بالجنة، فقال له مسلم قولا ضعيفا: بشرك الله بخير.

فقال له حبيب: لولا أنني أعلم أنني في أثرك، لا حق بك من ساعتى هذه لأحببت أن توصيني بكل ما أهمك، حتى أحفظك في كل ذلك بما أنت أهل له في القرابة والدين. قال: بل أنا أوصيك بهذا رحمك الله - وأهوى بيده إلى الحسين - أن تموت دونه. قال: أفعل ورب الكعبة.. فما كان بأسرع من أن مات في أيديهم^(١) وكانت وصيته الأخيرة أن يموتوا دون الحسين.

ولا ندري من أيها نعجب؟ أمن حبيب الذي يعلم أنه ملاق ربه بعد قليل بموت عاجل، تخترمه سيوف أعدائه ورماحهم ونبالهم، فلا يبالي بذلك، ويكون جل همه تطيب خاطر أخيه وقريه وتبشيره بالجنة التي وعد بها المؤمنون الصادقون، أم من مسلم الذي يموت ولا تهمه الآم الجراحة والاحتضار، بل وصية هذا القريب المواسي بأن يستشهد دون امامه وقائده، ولا يهتم بكل ما عدا ذلك؟

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٥. وقد تحدثنا عن ذلك عند الحديث عن حبيب في هذا الفصل.

إنه يتلطف إلى أن تتطلع الأمة إلى كربلاء، وترى الدم المسفوح في سبيل الإسلام، وكان يعلم أن المهمة الكبيرة لاعادة الأمة إلى الإسلام وتخليصها من الانحراف الأموي ومن كل انحراف مقبل لن يتم دون اراقة الدماء الزكية في كربلاء واستشهاد الكوكبة التي ضمها موكب الحسين (عليه السلام)، فلم ير مسلم بن عوسجة غير هذا الدين جديرا بأن يضحوا من أجله جميعا تلك التضحية الغالية العزيزة، فيه وحده رأوا حريتهم وسعادتهم وأمنهم ومستقبلهم.

ولأجله حرصوا على تقديم ما عجز عنه الكثيرون، الأرواح النقية، فداء لمن رأوا أنه الجدير وحده بتخليص الأمة من متاعبها وآلامها وانحرافها المقصود المدبر، سليل الرسول المصطفى (صلى الله عليه وآله) وابنه وخليفته فهو وحده الذي كان جديرا أن يتسلم الأمانة ويحافظ على التجربة من الضياع والانحراف.

عدوه يشهد له بالفضل.. شبت بن ربيعي يشيد بمسلم بن عوسجة

وقد شهد لمسلم عدوه الحالي ورفيق الأمس، شبت بن ربيعي، الذي قدم وعوده وكتب رسالته، بأن ينصر الحسين (عليه السلام) وكان يرجوه أن يقدم على جند له مجندة، ويعده أن يكون في مقدمة هؤلاء الجند، وقد تنازل وتراجع إلى صفوف أعدائه، اذ لم يجد في نفسه الجرأة على مواجهتهم رغم أنه كان يعرف الموقف جيدا ويعرف من هو المبطل ومن هو المصيب، وكان في قرارة نفسه يكره مواجهة الحسين (عليه السلام) وحربه والاقدام على قتله وقتل أصحابه، فعندما «تنادى أصحاب عمرو بن الحجاج: قتلنا مسلم بن عوسجة الأسدي، قال شبت لبعض من حوله من أصحابه: ثكلتكم أمهاتكم، انما تقتلون أنفسكم بأيديكم، وتذللون أنفسكم لغيركم، تفرحون أن يقتل مسلم بن عوسجة؟»

أما والذي أسلمت له لرب موقف له قد رأيته في المسلمين كريم. لقد رأيته يوم

سَلَقِ أذربيجان قتل ستة من المشركين قبل تتامّ خيول المسلمين. أفيقتل منكم مثله وتفرحون؟^(١).

لم يستطع شُبث، ذلك المحارب القديم تحت لواء أمير المؤمنين عليه السلام في صفين، والذي انحاز إلى جانب الأمويين بعد استتباب الأمور لهم، أن يتحمل فرحة القوم بمقتل مسلم، رغم أنه عدوه الآن، وكان يعترف أنهم بعملهم هذا انما يقتلون أنفسهم بأيديهم ويجعلونها مرهونة بتصرف واردة رموز التسلط والشرك الأموية، وكان يستحضر مشهدا فريدا رآه من مسلم قبل اليوم في معركة جرت بين المسلمين وأعدائهم، كان مسلم فيه ليتحرق شوقا للدفاع عن الإسلام، ويقدم على حرب عدوه ومهاجمته قبل أن تتم الاستعدادات للمعركة، وقد قتل ستة من أفراد ذلك العدو.

وها هو مسلم يضيف موقفا جديدا عظيما إلى مواقفه السابقة العظيمة، يليق به كجندي مدافع عن الإسلام ونصير مقرب من الامام عليه السلام يحمل قضيته وهمه ويكون أول من يستشهد بين يديه، فلطالما كان قد سعى للشهادة ورغب فيها، وها هي رغبته تتحقق بأقدس معركة يخوضها الإسلام ضد الشرك والانحراف.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٥.

٥- برير بن خضير^(١).. سيّد القراء

كان المشهد الأول الذي رأينا فيه بريراً، في تلك الأمسية التي سبقت القتال، وكان الحسين عليه السلام وأصحابه يتوجهون فيها بالصلاة والدعاء إلى الله أن ينقذ هذه الأمة من طغاتها وجهّالها والمتسلطين عليها ظلماً وقهراً... «قاموا الليل كله يصلون ويستغفرون، ويدعون ويتضرعون. وأن حسيناً ليقرأ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ»^(٢).

كان نخيم الحسين تحت حراسة العدو المشددة ومراقبته الشديدة، وقد سمع أحد أولئك المكلفين بالحراسة ما كان الحسين عليه السلام يقرأ من الذكر الحكيم، فعقّب عليها بكلمات ماجنة، عابثة، قال: «نحن، ورب الكعبة الطيبون» مُيزنا منكم^(٣).

وإذا إن أصحاب الحسين عليه السلام تساءلوا: من عسى أن يكون هذا العابث الذي بلغت به الجرأة أن يستهزئ بالامام الحسين عليه السلام نفسه؟ فان أحدهم قد عرفه، وعرف به برير قائلاً: «هذا أبو حرب السبيعي، عبد الله بن شهر»^(٤)، وكان ابن شهر هذا من الطبقة الطفيلية الجديدة «مضحكاكاً بطّالاً، وكان شريفاً شجاعاً فاتكاً، وكان سعيد بن قيس

(١) ورد اسمه في بعض المصادر (برير بن خفير) و(برير بن الحصين) والأشهر الاسم الذي أوردناه.

(٢) آل عمران: ١٧٨ - ١٧٩.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣١٧.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٣١٧.

ربما حبسه في جناية»^(١)، وكان أفراد هذه الطبقة من (الأشراف) ممن تجردوا من كل قيم حقيقية وأعلنوا انتماءهم لدولة الظلم، قد أخذوا يتكاثرون ويتشرون.

وكان برده على الحسين عليه السلام يمثل دور المهرج أمام أصحابه ويهمه أن يثير ضحكهم وسخريتهم حتى ولو تعرض هو للاهانة شخصيا، لقد فقد الاحساس بالكرامة شأن من يدمن العبث والبطالة وكان مستعدا لسماع أي كلام حتى ولو كان جارحا ولا يبدي أي تأثير له حتى لا يفقد صفة المهرج التي أراد أن يشتهر بها ويعرف بين الناس، والا فأى شأن لسكير بطل بالطيبين الذين أشار اليهم القرآن الكريم، يكفيه من حياته خمره ولهوه وعبثه.

لقد أثار تعليقه على آيات الله وهزؤه بها غضب برير، فالتفت اليه قائلاً: (يا فاسق، أنت يجعلك الله في الطيبين؟

فقال له: من أنت؟

قال: أنا برير بن خضير.

قال: إنا لله، عزَّ عليّ، هلكت والله، هلكت والله يا برير»^(٢).

لم ينزعج ابن شهر من تقرير برير له بعد أن عرفه، ولا بد أنه كان يعرف منزلته وموقعه في قومه، غير أنه أسف له، وقد رأى أنه سيقتل بعد ساعات، في صبيحة تلك الليلة التي كانا يتحاوران فيها، وقد أعرب عن أسفه ذاك صراحة أمامه، ولعله كان صادقا في أسفه في تلك اللحظة.

ورأى برير في ذلك فرصة سانحة ليعرض على هذا الرجل أن يتوب ويلتحق

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٧.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٧.

بموجب الحسين عليه السلام وأصحابه وأن يتخلى عن ابن زياد، فبصيرة الإسلام جعلته يرى ما لم يره هذا الرجل وما لم يره كل السائرين بركاب الظالم، فليعرض الأمر عليه، طالما أن شعورا نبيلًا قد دعاه للاعراب عن أسفه لمصرعه، ولعله أن يكون قد مل من دنيا الباطل والظلم وشيع من ملذاته وسئم منها، قال له برير: «هل لك أن تتوب إلى الله من ذنوبك العظام، فوالله أنا لنحن الطيبون، ولكنكم لأنتم الخبيثون.

قال: وأنا على ذلك من الشاهدين»^(١).

وما دام الأمر كذلك، وأبو سبيع يعلم أنه كان كذلك، وأنهم لهم الخبيثون، فقد أصبحت الحجة قوية، فيلقها برير بوجه هذا العاثر اللاهي، الذي قد تلوح من كلامه واعترافه بارقة أمل، وقد يهتدي في نهاية المطاف.

قال راوي هذه القصة، الضحاك بن عبد الله المشرقي، الذي كان مع الحسين عليه السلام، وأتيحت له فرصة النجاة من القتل في آخر لحظة وبعد استشهاد كل أصحاب الحسين عليه السلام، قلت لأبي حرب: «ويحك، أفلا ينفعك معرفتك؟ قال: جعلت فداك، فمن ينادم يزيد بن عذرة العنزي... ها هو ذا معي، قلت: قبح الله رأيك على كل حال، أنت سفيه.. ثم انصرف عنا»^(٢).

بتلك الروح العابثة اللاهية المجردة من الشعور بالمسؤولية، كان يقدم الكثيرون من أصحاب ابن زياد على ارتكاب جريمتهم النكراء، فهل كان ابن شهر وأشباهه يجاربون من أجل الدفاع عن الإسلام ووحدته المسلمين، ومنعا للفتن والفرقة، كان سلوكهم الشخصي يشير إلى أنهم كانوا أبعد ما يكونون عن ذلك، وكانوا معروفين بفسقهم وفسادهم، مجاهرين به.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٧.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٧.

وكان أولى بمن يريد الدفاع عن الإسلام ووحدة المسلمين أن يصلح هؤلاء، وأن يشن حرباً على ممارساتهم البعيدة عن الإسلام، غير أن من نصب نفسه خليفة على المسلمين، كان عابثاً مبتذلاً، وأنى له أن يصلح هؤلاء وهو لا يستطيع إصلاح نفسه، بل رأى أن الطريق الذي كان سائراً فيه هي الطريق الأمثل والأصح.

موقفان: في بدر.. والطف.. عمير.. وبرير هياً إلى الجنة

وقد برز برير بن خضير في موقف رائع لا يمكن أن ينسى، وهو يذكرنا بموقف مماثل رائع لمقاتل بدري شهد معركة بدر واستشهد بين يدي الرسول ﷺ.

فقبل وقوع المعركة بقليل، «أمر الحسين عليه السلام بفسطاط فضرب له، ثم أمر بمسك، فميث في جفنة عظيمة أو صحيفة، ثم دخل الحسين ذلك الفسطاط فتطلى بالنورة.. وعبد الرحمن بن عبد ربه وبرير بن خضير الهمداني على باب الفسطاط تحتك مناكبهما، فازدحما أيهما يطلي على أثره، فجعل برير يهازل عبد الرحمن، فقال له عبد الرحمن: دعنا، فوالله ما هذه بساعة باطل.

فقال له برير: والله لقد علم قومي أني ما أحببت الباطل شاباً ولا كهلاً، ولكن والله، اني لمستبشر بما نحن لاقون، والله ان بيننا وبين الحور العين الا أن يميل هؤلاء علينا بأسيافهم، ولوددت أنهم قد مالوا علينا بأسيافهم»^(١).

كل ذلك فرحاً بالموت، واستبشاراً بما هم ملاقوه بعده، أية قوة هذه التي جاشت بين جنبي برير حتى جعلته متيقناً من صدق موقفه وسلامته، ومتيقناً من مصيره السعيد في جنة الخلد؟ كانت فرحته بالموت شبيهة بفرحة الصحابي البدري الشهيد عمير بن الحمام، أخي بني سلمة، وكان في يده تمرات يأكلهن، وكان يقاتل بين يدي الرسول ﷺ.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٨.

وقد استمع إلى قوله ﷺ «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر، الا أدخله الله الجنة».

فقال عمير: بخ بخ، فما بيني وبين أن أدخل الجنة الا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم، حتى قتل، وهو يقول:

ركضا إلى الله بغير زاد الا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد و كل زاد عرضة النفاذ
غير التقى والبر والرشاد^(١).

لله در برير، ولله در عمير، فكأنما كانا يرددان كلاما واحدا ألقى في قلوبهما:

فما بيني وبين أن أدخل الجنة الا أن يقتلني هؤلاء.

ان بيننا وبين الحور العين الا أن يميل هؤلاء علينا بأسيا فهم.

كانا مسرورين بذلك اللقاء، وكانا واثقين من مستقبلهما السعيد في الجنة، اذ كان أولهما يقاتل تحت لواء رسول الله ﷺ والثاني تحت لواء ابنه وخليفته، ومن أصدق من رسول الله ﷺ وابنه الحسين ﷺ؟

محاورات ومواقف

وتكشف لنا محاورة جرت بين برير بن خضير، وبين أحد أصدقاء الأمس وخصوم اليوم، يزيد بن معقل، من بني عميرة بن ربيعة، عند بدء القتال، عن ثقة برير بموقفه ومسيره مع الحسين ﷺ وثباته عليه.

وكان الذي بدأ هذه المحاورة يزيد بن معقل نفسه، عندما أراد - بظنه - أن يرى

(١) الطبري: ج ٢ ص ٣٣.

بريرا كم كان مخطئاً عندما اختار طريق الحسين، الذي يوشك أن ينتهي به الآن إلى الموت قتلاً.

وحاول وقد اختلط بآلاف الجند المعادين للحسين ﷺ، والتي تحيط به وبأصحابه أن يري بريراً كيف أنه - وبالعكس منه تماماً - يشعر بالأمان، والثقة بموقفه وتصرفاته، أليست هذه الآلاف المؤلفة معه؟ أيمن أن ينال الحسين وأصحابه منهم وهم جمع وبتلك الكثرة؟ أيمن أن يكون هذا الجمع الحاشد كله على خطأ والحسين وأصحابه فقط على صواب؟

ربما كان مقياس الكثرة هو ما أراد يزيد بن معقل أن يقنع نفسه به، وهو مقياس طالما جعل كثيرين من معادي الديانات والرسل على ثقة من صواب مواقفهم عندما وجدوا أنهم كثيرون ووجدوا أصحاب الرسل وأعوانهم قليلين، ولعله أراد أن يتظرف أو يضفي لمسة خاصة على تصرفاته المنحازة للأمويين على اعتبار أن قناعته وحدها بصواب موقفهم هي التي جعلته ينحاز إليهم، ويشارك في هذه المجزرة أو أنه كان ينطلق من موقف مبدئي، لا يرى فيه حقاً للحسين وأصحابه للوقوف بوجه دولة الظلم. ومهما يكن فإن بريرا قد خيب أمله، عندما ناداه هذا قائلاً: «يا برير بن خضير، كيف ترى الله صنع بك؟»^(١)، وقد كان يحسب أنه سيجيبه بمذلة واستعطاف، إلا أنه أجابه بقوله: «صنع الله، والله، بي خيراً، وصنع بك شراً...»^(٢).

ولم يحسب يزيد أن جواب برير سيكون بتلك القوة، ولعله قد فوجئ به، وخاف سخرية زملائه الذين لا بد أنه قد تعهد أمامهم باحراجه واسكاته واذلاله، فلم يكن ما سمعوه كلام ذليل خائف، وها هو يوشك أن يذل هو نفسه.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢.

قال يزيد: «كذبت، وقبل اليوم ما كنت كذابا. هل تذكر وأنا أماشيكي في بني لوزان، وأنت تقول: إن عثمان بن عفان كان على نفسه مسرفاً، وإن معاوية بن أبي سفيان ضال مضلّ، وإن امام الهدى والحق علي بن أبي طالب؟»^(١).

كان يزيد يحسب أن بريراً وقد أحاط به أعداؤه المواليون للأُمويين، سيتنصل عن كلامه هذا وسينكره أمامهم بعد أن واجهه به لئلا يثير حفيظتهم وغضبهم، مع أن الأغلبية منهم كانت ترى رأيه، إلا أنها انقلبت عليه الآن بفعل الموجة الأموية التي علتهم وغمرتهم واكتسحتهم أمامها نفايات وزبدا، فقد فوجئ ثانية عندما قال له برير: «أشهد أن هذا رأيي وقولي...»^(٢).

لقد جعله موضع سخرية أمام زملائه فعلا، ولعل ضحكات بعضهم قد صكت أذنيه. وهنا لم يملك إلا اللجوء للشتيمة والباطل، فقال، وقد أفحم وأهين: «فاني أشهد أنك من الضالين»^(٣). فما تجدي شهادته أمام الحقيقة التي يعرفها الجميع؟

ربما أخذ يتلفت هنا للحصول على مزيد من التأييد لشهادته الباطلة هذه.

وهنا وجد برير فرصته للنيل من هذا الضال المضل الذي يرمي غيره بعاره، وهو في غمرة خجله وحرجه أمام زملائه، فليدعه للقتال، ولن يستطيع التنصل طالما أنه نصب نفسه محاميا ومدافعا عن النظام الظالم، فدعاه قائلا: «هل لك فأباهلك، ولندع الله أن يلعن الكاذب، وأن يقتل المبطل، ثم اخرج فلأبارزك»^(٤).

وهل يملك هذا المتحدي الضعيف سوى أن يستجيب لمطلب برير، والا فانه يحكم

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢.

على نفسه أمام الجميع بالكذب والجبن، بعد أن أراد الصاق هاتين النقيصتين ببرير، وقد رضي بما عرضه عليه «فخرجاً فرفعا أيديهما إلى الله يدعوانه أن يلعن الكاذب وأن يقتل المحق المبطل ثم برز كل واحد منهما لصاحبه فاختلفا ضربتين فضرب يزيد بن معقل برير بن حضير ضربة خفيفة لم تضره شيئاً وضربه برير بن حضير ضربة قدت المغفر وبلغت الدماغ فخر كأنما هوى من حائق وإن سيف بن حضير لثابت في رأسه فكأنني أنظر إليه ينفضضه من رأسه»^(١).. قتله برير اذا، قتل المحق المبطل، فقد استجاب الله دعوته، وأخزى عدوه، ولعذاب الآخرة وخزياً أشد.

الغدر..

وإذ إنه كان مشغولاً بعدوه الأول يزيد، «حمل عليه رضي بن منقذ العبدي، فاعتنق بريرا، فاعتركا ساعة، ثم أن بريرا قعد على صدره»^(٢) ولو فسح له المجال لقتله، غير أن هذا استنجد بأصحابه صائحاً: «أين أهل المصاع والدفاع»^(٣).

وهنا انبرى من غدر برير رغم علمه بفضله ومنزلته، فقد كان يقرأ القرآن مع جماعة من الناس في المسجد، وقد كان سيد القراء، «فذهب كعب بن جابر بن عمرو الأزدي ليحمل عليه، [ف قيل له] ان هذا برير بن خضير القارئ الذي كان يقرئنا القرآن في المسجد، فحمل عليه بالرمح حتى وضعه في ظهره»^(٤).

طعن برير اذاً غدرًا وأوشك أن يموت، ولم يشأ أن يضيع اللحظة القصيرة الباقية له من العمر دون أن يستفيد منها في جهاد عدو الله وعدوه، ويحاول قتل هذا العدو

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٣.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٣.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٣.

الذي تطوع للدفاع عن صاحبه المقتول «فلما وجد مس الرمح برك عليه فعصَّ بوجهه، وقطع طرف أنفه، فطعنه كعب بن جابر حتى ألقاه عنه، وقد غيب السنان في ظهره، ثم أقبل عليه يضربه بسيفه حتى قتله»^(١) غدرا وغيلة، فذلك هو شأن الجبناء الخائفين الذين شعروا بالخور والجزع حتى وهم كثيرون متسلحون، ولم ير ابن جابر، عندما غدر ببرير، أنه كان يغدر حقاً، ولم ير فيه مساساً بسمعته وكرامته، فما بقيت في ظل دولة الظلم سمعة أو كرامة يخشى المرء عليهما.

وإذ إن العبدى الصريع الذي أوشك أن يقتله برير قد شكر ابن جابر على صنيعه معه وقال له: «أنعمت علي يا أخا الأزدي نعمة لن أنساها أبداً»^(٢).

فان امرأته وأخته النوار بنت جابر غضبت منه اذ غدر ببرير، فمرغ بذلك سمعته وسمعة أهله وقومه إلى الأبد، وتمادى في الدفاع عن دولة الظلم وقتل الحسين ابن بنت رسول الله ﷺ، ولم يكن أحد قد ألزمه القيام بما قام به، وكانت مبادرة شخصية منه أراد بها اثبات ولائه وانحيازه لهذه الدولة الظالمة.

قالت له النوار، بعد رجوعه من المعركة: «أعنت على ابن فاطمة وقتلت سيد القراء لقد أتيت عظيماً من الأمر والله لا أكلمك من رأسي كلمة أبداً»^(٣).

لم يكن هذا القاتل الغدار امراً مغفلاً أو غيباً، بل كان واعياً مدركاً لما كان يدور من حوله، وكان يتمتع بملكة شعرية كبيرة أفصحت عنها أبياته التي قالها بهذه المناسبة رداً على النوار وقد غضبت منه، وقد شخص حاله وحال قومه تشخيصاً جيداً عندما أرانا في أبيات شعرية قليلة معبرة انه انما كان يريد بموقفه ذاك أن يرضي عبيد الله بن

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٣.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٣.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٣.

زياد ويرضي (الخليفة) يزيد، ولا يهمله بعد ذلك ان رضي الناس عنه أو غضبوا منه. أنه يعرف الذين قتلهم ويعرف شجاعتهم، بل أنه لم ير لهم مثيلاً في حياته، وقد شهد لهم بتلك الشجاعة التي أبدوها في ساحة الوغى والقوة التي ظهروا بها، مع أن غيرهم، لو كانوا في موقفهم لما استطاعوا أن يظهروا ولو بعضاً منها.

اعتراف بالخطأ واصرار على موالاة دولة الظلم

وهكذا قال كعب بن جابر مسجلاً اعترافاته بهذه الآيات القليلة، وقد أدرك خطأه وتماديّه بموالاة دولة الظلم، أقوالاً ستظل تدينه، وتدين الجيش القاتل ورموز دولة الظلم إلى الأبد.

غداة حسين والرماح شوارع	«سلي تخبرني عني وأنت ذميمة
علي غداة الرّوع ما أنا صانع	ألم أت أقصى ما كرهت ولم يُحل
وأبيض مخشوب الغراين قاطع	معني يزني لم تخنه كعوبه
بديني وإني بابت حرب لقانع	فجردته في عصبة ليس دينهم
ولا قبلهم في الناس إذ أنا يافع	ولم تر عيني مثلهم في زمانهم
ألا كل من يحمي الدمار مقارع	أشد قراعاً بالسيوف لدى الوغى
وقد نازلوا لو أن ذلك نافع	وقد صبروا للطنع والضرب حُسرًا
بأني مطيع للخليفة سامع	فأبلغ عبيد الله إماماً لقيته
أبا خالد لما دعا من يماضع؟ ^(١)	قتلت بريراً ثم حملت نعمة

ولا بد أن كعباً كان يشعر بالندم في قرارة نفسه، إلا أنه كان يحاول أن يوهمها أنه كان على حق، فقد كان يقول في إمارة مصعب بن الزبير: «يا رب انا قد وفينا، فلا تجعلنا يا

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٣. وقد ورد في الشطر الثاني: (أبا منتقد) بدلاً من: (أبا خالد) في بعض المصادر، وربما يقصد به (رضي بن منتقد) الذي انقذه كعب من برير.

رب كمن غدر - فليل له - صدق، ولقد وفي وكرم، وكسبت لنفسك شرا، قال: كلا، اني لم أكسب لنفسي شرا، ولكني كسبت لها خيرا»^(١).

كانت المسألة بنظره، مسألة ولاء (لامام أو خليفة) قد أصبح وجوده أمرا واقعا، لقد وفي ليزيد حقا، والذي لم يرد كعب أن يخوض فيه هو: هل كان وفاؤه ليزيد حقا عليه لازما، كما حاول أن يقنع نفسه بذلك؟

لقد واجه أمامه حاكما وقيل له: إن عليك أن تطيعه، ولم يناقش الأمر؛ لأنه لم يشأ أن يضحى أو يتحمل بعض المشاق اذا ما فعل ذلك، وقد المحنا إلى من حاول اثبات شرعية الدولة بوجودها الفعلي على الساحة وقيامها بالسيطرة على الناس.. وتلك كانت خطة أموية مكررة أرادت بها اثبات شرعيتها هي.

وحتى رضي بن منقذ العبدي الذي أوشك برير أن يقتله، والذي تقدم بالشكر لكعب على انقاذه اياه، عاد فندم على موقفه وتمنى لو أنه لم يعيش حتى ذلك اليوم الذي شهد فيه مصرع الحسين وأصحابه، وهكذا رد على كعب بن جابر جواب قوله، فقال:

ولو شاء ربي ما شهدت قتالهم ولا جعل النعماء عندي ابن جابر
لقد كان ذاك اليوم عارا وسبة يعيره الأبناء بعد المعاشر
فيا ليت أني كنت من قبل قتله ويوم حسين كنت في رمس قابر^(٢)

وقد تمنى كثيرون من أفراد ذلك الجيش لو أنهم ماتوا قبل ذلك اليوم وكانوا في رمس قابر.. تماما كما تمنى رضي بن منقذ العبدي.. لكن اوان ذلك قد فات وضاعت فرصة نصره الحسين والوقوف إلى جانبه من أيديهم إلى الأبد.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٣.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٣.

٦- وللأنصار الآخرين دورهم في الثورة أيضاً

انصار الحسين.. بمستوى المسؤولية.. حب غامر لرسول الله ﷺ وتضحية في سبيل الإسلام

إذا ما أردنا أن نتناول بالبحث دور الأنصار الآخرين، فإن حقيقة مهمة لا بد أن تبرز في سياق هذا البحث، وهي أنهم تمتعوا بنفس العزم والثبات والصلابة التي تمتع بها من تحدثنا عنهم من أنصار الحسين.. لم يهن أحد منهم أو ينكل، ومضوا على بصيرة من أمرهم بنفس القوة التي بدؤوا بها مسيرتهم مع الحسين ﷺ.

وإذ إن العديدين منهم كانوا في سن الشباب المبكر، فلم تتح معلومات كافية عنهم لكتاب التاريخ والسيرة، ولربما أهملت سيرة البعض منهم بشكل متعمد، ولم نحصل إلا على لقطات خاطفة - كانت كافية على قصرها - لكشف طبيعة أولئك المجاهدين البدرين الذين قدموا الطف وهم على يقين أنهم سيستشهدون هناك.

كان اقدامهم على الشهادة بين يدي الحسين ﷺ واستسهال الموت قتلا مع ما رافق ذلك من الآلام الجمة التي تحملوها في سبيل الدفاع عن القضية الكبيرة التي رفعها الامام الحسين ﷺ يدل على وعيهم الاستثنائي بهوم الرسالة وما يلتقاه الإسلام من حملة شرسة محمومة للقضاء عليه وإبعاده عن الحياة، وكانوا يدركون أن فرصة الاستشهاد النادرة في ذلك الموقف قد لا تتاح ثانية وقد تكون مجرد انتحار لا يلتفت اليه بعد ذلك، ان لم يقدموا مع الامام ﷺ على مواجهة القتل هنا في الطف أمام الأمة المهزومة الخائفة ليحرك دمهم المسفوك دماءها الساكنة ولكي يجعلوها تدرك عمق الهوة

التي دفعتها اليها الطغمة الأموية الحاكمة.

كان ثباتهم مرآة لما كان يجيش في نفوسهم من ولاء صادق للإسلام وحب غامر للرسول ﷺ وآله ﷺ. وكانت نظرات الوداع للإمام ﷺ وهم يفارقونه في آخر لحظة ويلقون عليه السلام والتحية قبيل مواجهة القتل، تدل على معرفتهم التامة به واکبارهم تضحيتهم الكبيرة وادراكهم أن تضحياتهم مهما بلغت - مع أنهم كانوا يضحون بأنفس ما لديهم وهي حياتهم - لن تبلغ مستوى تضحية ذلك الامام الذي كان ينبغي أن تفديه الأمة كلها بأرواحها وتقف دونه بمواجهة كل من يريد به بأذى شر.

واذا ما استطاع امرؤ فهم دوافع الكبار الأشداء ذوي العلم والمعرفة والتجربة للوقوف وراء الحسين وتقديم أرواحهم فداء للإسلام، فان معرفة دوافع الشباب اليافعين قد لا تتاح ما لم ندرك أنهم يتمتعون بوعي استثنائي ومعرفة فطرية حميمة مدركة للإسلام وأهميته وضرورته لادامة حياة البشرية على قواعده الحية، بل النابضة بالحياة والعطاء، والا فلماذا ساروا معه إلى النهاية وأقدموا على الاستشهاد بين يديه دون تردد؟ وما هي دوافعهم ان لم يكن حرصهم على الإسلام وخوفهم عليه من الضياع والاندثار؟ وربما كانت الأضواء التي سلطت على من تحدثنا عنهم من أنصار الحسين ﷺ لموقفهم القيادي في المعركة والأدوار الفريدة التي قاموا بها ولفتت اليها الأنظار وسنهم وموقعهم الاجتماعي ومعرفة الناس بهم قد غابت فلم تسلط على البقية من هذه الصفوة المؤمنة، ولعل تجاهل الحدث الكبير بأجمعه كان هدفا كبيرا للدولة واعوانها ومؤيديها، اذ حاولت جهات عديدة تناوله والحديث عنه بزعم ان ذلك يؤدي الى فرقة المسلمين ووزع العداوات بينهم.

تعليم على السير الذاتية لابن الطف

ولو أخذنا - على سبيل المثال - اخوة العباس لأمه، عبد الله وجعفر وعثمان، لرأينا أن استجابتهم الواعية له وتنفيذ أوامره والاقدام على الاستشهاد بين يدي أخيههم وإمامهم الحسين عليه السلام ورفضهم التخلي عنه رغم الفرص التي أتاحها الامام نفسه لهم ورغم عروض الأمان التي قدمت لهم وجاء بها رجال مقربون من ابن زياد، دلالة على حرصهم المؤكد على الشهادة، وادراكهم أنها فرصة نادرة تتاح لهم دون بقية الناس، ونحسب يقينا أنهم كانوا يقدمون عليها بفرحة غامرة وان كان يغلفها الاسى والحزن على هذه الأمة التي تنكرت للإسلام وقادته الحقيقيين فقامت تصدى لهم بالسيف وللقضاء عليهم وبادتهم، وتدل على أن ذلك الحرص للاستشهاد بين يدي الحسين عليه السلام وتقديم أرواحهم فداء له وللإسلام لم يكن يقل عن حرص أخيههم العباس نفسه. غير أن مواقف العباس المعروفة، وهو الرجل القوي الناضج العالم ذو التجربة الطويلة والخبرة الواسعة، قد جعلت الأنظار تتجه اليه دون اخوته الذين تركوا له زمام قيادتهم وتوجيههم.. مع أن ما كتب عن العباس - سواء خلال معركة الطف - أم قبلها كان يشكل غبنا كبيرا له، فشخصية مثل شخصيته ينبغي أن نعرف عنها الكثير لا هذه المعلومات القليلة فقط ... غير أن الأوضاع التي تم فيها الحديث عنه وعن البقية من أصحاب الحسين، بل حتى عن الحسين نفسه كانت في غير صالحهم؛ وإذا إن الحديث عن حياتهم وشخصياتهم كان ناقصا مبتورا، فان هناك من سعى في ظل تلك الأوضاع لتشويهها والنيل منها، ومع ذلك فإن تلك المحاولات لم تنجح لتشويه صورهم ومواقفهم الناصعة.

كل فرد من أنصار الحسين كان صديقا لم يخالج نفسه ريب أو شك بالإسلام ولا بالرسول صلوات الله عليه وآله ولا بخلفائه الحقيقيين الذين سعوا لتثبيت دعائمه رغم الحملة المسعورة

التي شنت عليهم من قبل أعداء الإسلام الذين جعلوا الناس عبيدا وكل ما صار في أيديهم مغنما وتسلطوا على رقابهم بكل وسائل القهر والتسلط. وكان كل واحد منهم يدرك - في الجو المشوش المضطرب المشحون بالعداء للإسلام - وقد أتاحت له فرصة مرافقة الحسين عليه السلام ومعرفة نواياه - ان عليه أن يكون بمستوى المهمة الكبيرة التي كان يقوم بها، وإذ إنهم علموا أنه كان يسعى لتقديم دمه وحياته ثمنا لها، أدركوا أنها فرصة نادرة تتاح لهم ليمتزج دمهم بدمه على أرض كربلاء، لأنها الفرصة الوحيدة التي يمكن بها لفت أنظار الأمة إلى الأخطار الأموية المحدقة، كما أنها الفرصة الأخيرة.

لو وضع الحسين يده بيد يزيد لكان ذلك ايثانا بشرعية الحكم الأموي

لم تكن الأمة تحتاج لكي تعترف بشرعية النظام الأموي الا أن يضع الحسين عليه السلام يده بيد يزيد ويعترف به خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله، لكي يعلن هذا أنه المخول المطلق للتصرف بمقدرات الناس وحياتهم دون قيد أو شرط، مدعيا أنه مفوض الهي، بل أنه ظل الله على الأرض ومن حقه أن يفعل أي شيء دون التقيد بأي قانون أو شريعة، خصوصا وأن الطريق قد مهد له من قبل أبيه معاوية، الذي كانت مجمل تصرفاته خرقا واضحا لقوانين الإسلام، ليتدأى هو إلى أقصى حد يتاح له.

وإذ إن الحسين عليه السلام رفض ذلك، وتحمل مسؤوليته أمام أجيال الأمة كلها، رغم ما في ذلك من خطر محقق على حياته وأمنه، مدركا ان ذلك هو السبيل الوحيد الذي كان عليه انتهاجه، لمنع الخطر عن الأمة. فان هذه الفئة من الأمة، فئة الأنصار - أدركوا جسامه المهمة التي كان يقوم بها الحسين وجسامه التضحية التي كان يقدمها.

كانوا يرون أن قراره هو القرار الوحيد الذي كان عليه أن يتخذه.

وان طريقه هو الطريق الوحيد الذي كان ينبغي عليه أن يسير فيه.

وكانوا يدركون حاجته - بل حاجة الإسلام - لمن يسير معه ويتخذ قراره ويعلن رفضه للنظام الأموي المنحرف، وأن كل فرد يسير معه سيكون شاهداً أمام أجيال الأمة كلها على عدالة قضيته وصحة منهجه، لم تكن حاجته للرجال لكي يدافعوا عنه شخصياً ويمنعوا سفك دمه على أرض كربلاء، بل كانت حاجته لهم ليشخصوا أمام الأمة مدافعين حقيقيين عن الإسلام، وليثبتوا لها أن ما عجزت عنه قد قاموا هم به، وما خافت من الاقدام عليه قد أقدموا عليه هم.

كان الإسلام بنظرهم - كما كان بنظر الحسين عليه السلام - يستحق ذلك الدم المسفوك، ويستحق أن يضحي من أجله لكي يظل باقياً يسود ويحكم من خلال القيادة الواعية العادلة العالمة، من خلال القيادة الشرعية التي تلتزم بكل بنود الاستخلاف وعقوده وتعليقاته، لا القيادة الفرعونية المتسلطة التي ترى كل شيء مباحاً لها وترى نفسها مطلقة التصرف بعيداً عن أي قانون إلهي، إلا قانونها هي. قانون مصالحها وامتيازاتها ومنافعها الشخصية.

كانت كل تصرفات أنصار الحسين عليه السلام في المعركة أو قبلها تدل على وعيهم الخارق بأهمية الثورة الحسينية. أما ماذا كان يحيش بتلك القلوب الكبيرة التي أقدمت على التضحية بكل ذلك الاندفاع والصبر. فلا بد أنه حب الله وحب الإسلام وحب قادتهم الحقيقيين.

وإذ إننا لا نؤرخ هنا - في هذه الدراسة المحدودة - لكل واحد منهم، فإننا نكتفي بعرض موقف لهذا أو قول لذاك نرى من خلاله حقيقة أولئك البدرين الصابرين المجاهدين في سبيل الله ونصرة أوليائه. وليكن مدخلاً لدراسة أوسع وأدق يقوم بها باحثون آخرون جديرة بهم وبمواقفهم الفريدة التي لم تشهد لها الأمة مثيلاً.

يزيد بن زياد بن المهاصر، أبو الشعثاء الكندي.. لوم ونصيحة لأعداء الحسين

فهذا يزيد بن زياد بن المهاصر أبو الشعثاء الكندي، كانا مع الحسين عليه السلام عندما كان يتساير مع الحر، حتى انتهوا إلى نينوى، المكان الذي نزل به، وقد نظر إلى رسول عبيد الله ابن زياد، وقد ورد على نجيب له وعليه السلاح متنكباً قوساً مقبل من الكوفة. فلما انتهى اليهم سلم على الحر بن يزيد وأصحابه، ولم يسلم على الحسين عليه السلام وأصحابه.

وقد حمل أوامر مشددة من ابن زياد للحر تدعوه إلى أن يجمع بالحسين عليه السلام حال بلوغه كتابه وقدم رسولاه عليه، وألاً ينزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء، ووردت إشارة في الكتاب إلى أنه قد أمر رسولاه، وهو مالك بن النسير البدي^(١) أن يراقبه وألاً يفارقه حتى ينفذ رأيه وأمره.

كان ابن النسير وهو أحد كندة أيضاً يبدو معتزاً بمهمته كمبعوث خاص وعين لابن زياد وكان بما أبداه من سوء سلوك بعدم سلامته على الامام وأصحابه، يهول قريبه يزيد بن المهاصر ويزعجه، وقد جاء بهذه المهمة ليرضي ابن زياد وأعوانه ويذهب إلى حد القبول أن يكون جاسوساً له من أجل الحاق الأذى بالحسين عليه السلام.

اعترضه ابن المهاصر وقال له: «ثكلتك أمك، ماذا جئت فيه؟ قال: وما جئت فيه.. أطعت امامي ووفيت ببيعتي.. فقال أبو الشعثاء: عصيت ربك، وأطعت امامك في هلاك نفسك، كسبت العار والنار؛ قال الله عز وجل ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾^(٢)... فهو امامك»^(٣).

(١) قتله أصحاب المختار بعد ذلك.

(٢) القصص: ٣٢.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٩ وسنعمده على الأغلب؛ لأن معظم الروايات الواردة في المصادر الأخرى قريبة لما ورد فيه. وسنشير لبعض المصادر إذا اقتضى الأمر ذلك.

لقد توجه اليه باللوم والنصيحة، كما فعل أغلب أصحاب الحسين مع العديدين من أصحاب ابن زياد وقد شهدنا مواقف مماثلة عديدة في أشد الساعات حرجاً وعسرة، فما كان يهون عليهم أن يهلكوا أنفسهم وهم ينقادون خلف أعدائهم وأعداء أمتهم الإسلامية بأجمعها.

لقد جثا أبو الشعثاء الكندي على ركبتيه بين الحسين عليه السلام «فرمى بهائة سهم ما سقط منها خمسة أسهم، وكان رامياً، فكان كلما رمى قال:

أنا ابن بهدله فرسان العرجله

ويقول الحسين: اللهم سدد رميته، واجعل ثوابه الجنة، فلما رمى بها قام فقال: ما سقط منها الا خمسة أسهم.. وكان في أول من قتل، وكان رجزه يومئذ:

أنا يزيد وأبي مهاصر أشجع من ليث بغيل خادر
يا رب اني للحسين ناصر ولا بن سعد تارك وهاجر

وكان يزيد بن زياد بن المهاصر ممن خرج مع عمر بن سعد إلى الحسين، فلما ردّوا الشروط على الحسين مال اليه فقاتل معه حتى قتل^(١).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٠.

ويناقض هذا ما ورد في الرواية الأولى بأن ابن المهاصر كان مع الحسين عليه السلام حين وصوله كربلاء قبل ثمانية أيام من بدء القتال.. وربما كان معه قبل ذلك.. وربما خرج إلى الحسين عليه السلام عندما رأى الاستعدادات في الكوفة لتحشيد جيش يقاتله.. وربما أريد اقحام مسألة الشروط المفتعلة لتبرير التحاق الحر وابن المهاصر وغيرهما بالحسين.. وقد تحدثنا عن هذا الموضوع وأوضحنا عدم صحته.. اذ لم يقل أحد إنه طلب من ابن سعد أن يذهب إلى يزيد فيضع يده في يده.. وكان مصدر الرواية الأول هو ابن سعد نفسه.. ومتى ما علمنا أنه كان المنفذ المباشر للجريمة وفي مقدمة من نصب العداوة والحرب للحسين أدركنا الدوافع التي دعت له لتلك الرواية ومنها تبرير موقفه بعد انتهاء الواقعة ومحاولة تبيان شرعية خلافة يزيد ما دام الحسين نفسه قد طلب الذهاب اليه ووضع يده في يده.

نافع بن هلال الجملي، «الحمد لله الذي جعل مناينا على يدي شرار خلقه»

وهذا نافع بن هلال الجملي، الذي يبدو أنه قد التحق بالحسين عليه السلام في الطريق بعد أن أحاط به الحر، قد ركب فرسه (الكامل) وحمل لواء العباس، حينما حال عمرو بن الحجاج الزبيدي ومعه خمسمائة من أصحابه، بين الحسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة.. وقد تصدى هو والعباس لأصحاب ابن الحجاج، حتى أخذ أصحابها عشرين قربة من الماء، فكفوههم حتى انصرفوا الى رحالهم، وفي تلك المنازلة طعن نافع ابن هلال أحد أصحاب ابن الحجاج، فمات فيما بعد.

لقد خرج عمرو بن قرظة الأنصاري يقاتل دون الحسين وهو يقول:

قد علمت كتيبة الأنصار أني سأحمي حوزة الذمار

ضرب غلام غير نكس شاري دون حسين مهجتي وداري^(١).

وعندما قتل، ألقى أخوه علي بن قرظة مسؤولية ذلك على الحسين عليه السلام وخاطبه بكلام خشن، وقال له: «أضللت أخي وغررته حتى قتلته، فقال [له الحسين]: ان الله لم يضل أخاك، ولكنه هدى أخاك وأضلك، قال: قتلني الله ان لم أقتلك أو أموت دونك، فحمل عليه»^(٢).

كان يريد أن يبيض صفحته من عمل أخيه وقد وقف إلى جانب الحسين عليه السلام واستشهد دونه، وكان يريد أن يرى رموز دولة الظلم وأعوانها ولاءه وشدة تعلقه بها وانحيازه إليها.. فكأنه كان يعتذر من عمل أخيه وقد حسبه جريمة تمس كرامته وتقلل من قيمته.

غير أن نافع بن هلال الجملي اعترض هذا الفارس الضعيف المتهالك على خدمة

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤.

أسياده، وقد حسب أنهم من ينفع ويضر حقاً، فطعنه وصرعه، فحمله أصحابه فاستنقذوه^(١)، كان نافع بن هلال الجملي يقاتل وهو يقول:

«... أنا الجملي، أنا على دين علي» فخرج اليه رجل يقال له مزاحم بن حريث، فقال: أنا على دين عثمان، فقال له: أنت على دين شيطان، ثم حمل عليه فقتله^(٢).

وكان موقف نافع هذا هو الذي دعا عمرو بن الحجاج ليصبح بالناس: «يا حمقى، أتدرون من تقاتلون، فرسان المصر، قوما مستميتين، لا يبرزن لهم منكم أحد، فانهم قليل، وقلما يبقون، والله لو لم ترموهم الا بالحجارة لقتلتموهم»^(٣).. وقد أيده ابن سعد في هذا وأصدر أوامره بعدم الاقدام على مبارزتهم.

«وكان نافع بن هلال الجملي قد كتب اسمه على أفواق نبله، فجعل يرمي بها مسومة وهو يقول: «أنا الجملي... أنا على دين علي».

فقتل اثني عشر من أصحاب عمر بن سعد، سوى من جرح. فضرب حتى كسرت عضده، وأخذ أسيراً.

فأخذه شمر بن ذي الجوشن ومعه أصحاب له يسوقون نافعاً حتى أتى به عمر بن سعد. فقال له عمر بن سعد: ويحك يا نافع من حملك على ما صنعت بنفسك؟ قال: ان ربي يعلم ما أردت، والدماء تسيل على لحيتي وهو يقول:

والله لقد قتلت منكم اثني عشر سوى من جرحت، وما ألوم نفسي على الجهد، ولو بقيت لي عضد وساعد ما أسرتوني.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٤.

فقال له شمر: أقتله، أصلحك الله.. قال: أنت جئت به، فان شئت فاقتله، فانتضى شمر سيفه، فقال له نافع: أما والله أن لو كنت من المسلمين لعظم عليك أن تلقى الله بدمائنا، فالحمد لله الذي جعل مناينا على يدي شرار خلقه، فقتله»^(١).

أية عزيمة كانت تجيش بقلب نافع، وهو أسير مدمى، مكسور العضدين، وقد وقف تلك الوقفة الفريدة بوجوه أعدائه يتحداهم ويثير غيظهم على قتلاهم ويعلن أسفه من عدم قدرته على مقاتلتهم بعد أن أصبح بتلك الحال.

كان يعرف جرأة أعدائه على سفك الدماء، لا سيما شمر، ومع ذلك ألقى بوجهه تلك الكلمات القوية المعنفة التي لم يشتم منها رائحة الخوف أو التخاذل أو الهزيمة إذ كان واثقا من كل خطوة خطاها مع الامام الحسين عليه السلام، عالما بصواب نهجه وضلال أعدائه.

بنو عقيل، «تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، حتى نرد موردك»

وهؤلاء بنو عقيل (جعفر، وعبد الرحمن، وعبد الله) عزموا على اكمال مسيرة أخيهم مسلم والموت مع الحسين عليه السلام ورفضوا التخلي عنه، حتى بعد أن توجه اليهم بخطابه يدعوهم لذلك، قال لهم عليه السلام: «يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم، اذهبوا، قد أذنت لكم.

قالوا: فما يقول الناس؟ يقولون انا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومنا، خير الأعمام، ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا لا والله لا نفعل، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، حتى نرد

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٨.

موردك، فقبح الله العيش بعدك»^(١).. وقد فدوه بأنفسهم وقاتلوا معه واستشهدوا بين يديه، ووقفوا بوجه أعدائه وقفة ثبات صلبة.

وهكذا فعل عون بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ومحمد أخوه إلى أن استشهدوا بين يدي الحسين عليه السلام.

كانوا قد قرروا المسير مع الحسين عليه السلام والموت معه، ولم يكن أحد بقادر على ثنيهم عن قرارهم البات والحاسم.

وتذكر رواية وردت عن طريق عبد الله بن سليم والمذري بن المشمعل الأسديين وهما ممن حاول ثني الحسين عن المضي بمسيرته وذلك قبل أن يلتقي بالحر، وقد رأيا انقلاب الكوفة عليه، قولهما له: «نشذك الله في نفسك وأهل بيتك الا انصرفت من مكانك هذا، فانه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوف أن تكون عليك، فوثب عند ذلك بنو عقيل بن أبي طالب»^(٢).

ويؤيد هذه الرواية داود بن علي بن عبد الله بن عباس بقوله: «ان بني عقيل قالوا: لا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا، أو نذوق ما ذاق أخونا»^(٣).

ويضيف الأسديان قائلين: «فنظر إلينا الحسين فقال: لا خير في العيش بعد هؤلاء، فعلمنا أنه قد عزم له رأيه على المسير»^(٤).

ان هذه الرواية التي رويت عن الأسديين - والتي قد تكون محوَّرة في بعض أجزائها - قد أيدها داود العباسي، توحى بأن الحسين عليه السلام ربما كان قد عزم على التراجع

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٥-٣١٦.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٣.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٣.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٣.

بعد أن رأى أن موقف الكوفة لم يكن لصالحه، غير أنه لم يفعل ذلك واستمر في طريقه إلى الكوفة استجابة لموقف بني عقيل المطالب بالثأر لمسلم.

ونتساءل هنا: هل أن المسألة هنا مسألة عاطفية تتعلق بجريمة قتل وثأر يطالب به آل القتيل؟ هل نظر الحسين عليه السلام وبني عقيل إلى المسألة من هذه الزاوية؟ ومن يثأر بنو عقيل؟ هل من الدولة كلها أو من ممثليها المحاط بالأعوان المحترسين المدججين بالسلاح؟ وماذا تجدي مطالبتهم بثأر أخيهم إذا ما كانوا سيلحقون به ويضيفون دماءهم لدمه المراق في الكوفة؟

وهل كانوا أشد حبا لمسلم وتعلقا به من ابن عمه الحسين عليه السلام حتى لا يرى ضرورة للثأر - لو أن المسألة مسألة ثأر - ويرونها ضرورية؟

ربما كان الحسين عليه السلام في تلك المرحلة من الطريق وقد وردت إليه أخبار قتل مسلم أراد أن يعرف استعداد اخوته لمواصلة المسير معه فطلب منهم العودة وربما أراد تجنيبهم القتل الذي واجهه مسلم، إلا أنهم رفضوا وقالوا ما قالوه في معرض المواصلة وابداء الاستعداد لاكمال المسيرة حتى النهاية.

ومن المؤكد أن مواقف بني عقيل دلت دائما على احترامهم وحبهم لامام الأمة واستجابتهم التامة له وحرصهم على الاستشهاد بين يديه دعما لقضيته التي فهموها ووعوها وحملوها. وبذلك ساهموا بتنبية الأمة كلها إلى أهميتها لمواجهة الطغيان الأموي الجارف.

سعيد بن عبد الله الحنفي وقف عند الصلاة يحمي الحسين بجسده حتى استشهاد

وهذا سعيد بن عبد الله الحنفي، أحد الثوار الأوائل الذي حملوا رسائل أهل الكوفة

للحسين (عليه السلام) ^(١) يعرب - عند اجتماع أهل الكوفة الأول بمسلم - عما يجيش بنفسه من ولاء للحسين (عليه السلام) واستعداد لنصرة قضيته، وكان أحد المتكلمين الرئيسيين في ذلك الاجتماع مثل عابس بن أبي شبيب الشاكري وحبيب بن مظاهر الأسدي.

لقد ظل ثابتاً على عزمه موطناً النفس على نصرته الحسين (عليه السلام) مهما كانت العواقب، وفي ليلة العاشر من محرم عندما دعا الحسين (عليه السلام) أصحابه للتفرق عنه حتى يفرج الله ويتركونه ليوأجله أعداءه الذين كانوا يستهدفونه بشكل خاص، كان سعيد أحد المتكلمين الرئيسيين في ذلك المقام أيضاً.

قال للحسين (عليه السلام): «والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا حفظنا غيبة رسول الله ﷺ فيك، والله لو علمت أني أقتل ثم أحيأ ثم أأحرق حياً ثم أذر، يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك، وأنا هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً» ^(٢).

وعندما حلت صلاة الظهر يوم المعركة «صلى بهم الحسين صلاة الخوف، ثم اقتتلوا بعد الظهر فاشتد قتالهم، ووصل إلى الحسين، فاستقدم الحنفي أمامه، فاستهدف لهم يرمونه بالنبل يميناً وشمالاً قائماً بين يديه، فما زال يرمى حتى سقط» ^(٣) شهيداً دون إمامه

(١) وكانت الرسالة التي حملها مع هانئ بن هانئ السبيعي للحسين (عليه السلام) تدعو الإمام للقدوم عليهم بأقصى سرعة «أما بعد، فحيهلاً فان الناس ينتظرونك، ولا رأى لهم في غيرك، فالعجل العجل» الطبري: ج ٣ ص ٢٧٧.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٦، وراجع اللهوف: ص ٣٩، وروضة الواعظين: ص ١٨٣، والخوارزمي: ج ١ ف ١١، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٥، والمجلسي: ج ٤٥ ص ٣٩٤، والارشاد: ص ٢١٠ والصدوق م ٣٠، وجمهرة خطب العرب ٢/ ٤٣، والمناقب: لابن شهر آشوب: ج ٤ ص ٩٩، وأنساب الأشراف: ج ٣ ص ١٨٥، ونهاية الأرب للنويري: ج ٢٠ ص ٤٣٥.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٨.

وكانت قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً.

ابو ثمامة الصائدي «لا والله لا تقتل حتى أقتل دونك، وأحب أن ألقى ربي وقد صليت هذه الصلاة»

أما أبو ثمامة عمر بن عبد الله الصائدي فنرى له يوماً قبل يوم الطف، في الكوفة، حيث كان من أصحاب مسلم بن عقيل «وهو الذي كان يقبض أموالهم، وما يعين به بعضهم بعضاً، يشتري لهم السلاح، وكان به بصيراً، وكان من فرسان العرب ووجوه الشيعة»^(١).

وعندما اضطر مسلم لاعلان ثورته قبل الوقت المحدد لها بفعل العمل الغادر الذي قام به ابن زياد عندما قبض على هانئ، واستنفر قواته، عقد لأبي ثمامة الصائدي على ربع تميم وهمدان.

وفي يوم المعركة عندما شن الهجوم الكبير على الحسين وأصحابه، وكان ذلك فيما يبدو عند الظهر وأدركوا أنهم سيقتلون، تقدم أبو ثمامة نحو الحسين عليه السلام وقال له: «يا أبا عبد الله، نفسي لك الفداء، اني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا والله لا تقتل حتى أقتل دونك ان شاء الله، وأحب أن ألقى ربي، وقد صليت هذه الصلاة التي دنا وقتها. فرفع الحسين رأسه ثم قال: ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين، نعم هذا أول وقتها، ثم قال: سلوهم أن يكفوا عنا حتى نصلي»^(٢) وقد صلوا. صلى بهم الحسين عليه السلام صلاة الخوف.

ثم «خرج أبو ثمامة الصائدي، فوقف قبالة الحسين عليه السلام وقال: يا أبا عبد الله، اني قد

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٨٤.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٦.

هممت أن ألحق بأصحابي، وكرهت أن أتخلف وأراك وحيداً.

فقال له الحسين: تقدم فانا لاحقون بك عن ساعة.

وتقدم أمام الحسين، فقاتل حتى أثخن بالجراح، ثم قتله ابن عم له^(١).

قتل أبو ثمامة بعد أن أدى صلاته خلف الحسين ﷺ.. وكانت كل أفعاله على مستوى هذه الأمنية التي تمنّاها، الصلاة، فقد حفظها وأدى شرائطها، وأثبت أنه أحد معتنقي الإسلام ومحبي الرسول ﷺ وآله ﷺ الحقيقيين.

الفتيان الغفاريان «أحببنا أن نقتل بين يديك، نمنعك وندفع عنك..»

وتقدم الفتیان الغفاريان، عبد الله وعبد الرحمن ابنا عزرة نحو الحسين ﷺ، عندما رأى أصحابه أنهم قد كثروا، وأنهم لا يقدرّون على أن يمنعوا حسينا ولا أنفسهم، فقالا: «يا أبا عبد الله، عليك السلام، حازنا العدو اليك، فأحببنا أن نقتل بين يديك نمنعك وندفع عنك. قال: مرحبا بكم، ادنوا مني، فدنوا منه، فجعلنا يقاتلان قريبا منه، وأحدهما يقول:

قد علمت حقا بنو غفار وَخَنَدَفُ بَعْدَ بَنِي نَزَارِ
لنضربن معشر الفجار بكل عَضْب صَارِمٍ بَتَارِ
يا قوم ذودوا عن بني الأحرار بالمشرفي والقنا الخطار^(٢).

الفتيان الجابريان «لا والله ما على أنفسنا نبكي، ولكننا نبكي عليك، نراك قد أحيط بك»
وتبعهما الفتیان الجابريان، سيف بن الحارث بن سريع، ومالك بن عبد بن سريع، وهما ابنا عم وأخوان لأم «فأتيا حسينا فدنوا منه وهما يبكيان، فقال: أي بني أخي، ما

(١) مقتل الحسين للسيد محمد تقي آل بحر العلوم عن (ابصار العين) للساوي: ص ٤٠٣.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٨ ونهاية الارب للنويري: ٢٠ ص ٤٥٣.

بيكيكما؟ فو الله اني لأرجو أن تكونا عن ساعة قريري عين. قالوا: جعلنا الله فداك، لا والله ما على أنفسنا نبكي، ولكننا نبكي عليك، نراك قد أحيط بك، ولا نقدر على أن نمنعك، فقال: جزاكم الله يا بني بوحدكما من ذلك ومواساتكما اياي أحسن جزاء المتقين.

ثم استقدم الفتان الجابريان يلتفتان إلى الحسين ويقولان: السلام عليك يا بن رسول الله. فقال: وعليكما السلام ورحمة الله، فقاتلا، حتى قتلا^(١).

حنظلة بن أسعد الشبامي «يا قوم لا تقتلوا حسيناً فيسحتكم الله بعذاب»

ويشير موقف حنظلة بن أسعد الشبامي إلى حقيقة هذا الرجل وفهمه التام للمهمة الكبيرة التي كان يقوم بها الامام الحسين عليه السلام لمواجهة الانحراف المستشري والذي كاد أن يودي بالامة وينسف كل المكاسب التي حققتها في ظل الإسلام، كان نداء حنظلة في الجيش الضال نداء القرآن الكريم نفسه وكان خطابه يتضمن آيات منه بليغة تنسجم وتلك المناسبة التي ألقاها فيها، وكان ذلك يدل على وعيه بالقرآن وفهمه له وحفظه واستيعابه، كما كان يدل على حسه الرسالي المرفه وهفته على كسب الناس إلى صف الإسلام وإلى صف القيادة الحقيقية الشرعية للمسلمين.

جاء حنظلة بن أسعد الشبامي عند هجوم العدو الشامل - وقد رفض أسلوب المبارزة الذي كان يكلفه خسائر باهظة لا تنسجم وقلة أصحاب الحسين - فقام بين يدي الحسين وأخذ ينادي: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُولُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٨، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٩٢، والنويري: ج ٢ ص ٤٥٣،

والخوارزمي: ج ٢ ص ٢٤.

مِنْ هَادٍ»^(١).

يا قوم لا تقتلوا حسيناً فيسحتكم الله بعذاب... ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾^(٢) فقال له الحسين: يا بن أسعد، رحمك الله، انهم قد استوجبوا العذاب حين ردوا عليك ما دعوتهم اليه من الحق، ونهضوا اليك ليستبيحوك وأصحابك، فكيف بهم الآن وقد قتلوا اخوانك الصالحين؟

قال: صدقت، جعلت فداك، أنت أفقه مني وأحق بذلك، أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بأخواننا؟

قال: رح إلى خير من الدنيا وما فيها، وإلى ملك لا يبلى.

فقال: السلام عليك يا أبا عبد الله، صلى الله عليك وعلى أهل بيتك، وعرف بيننا وبينك في جنته.

فقال: آمين آمين فاستقدم، فقاتل حتى قتل»^(٣).

عابس بن أبي شبيب الشاكري «والله لا جبينكم اذا دعوتهم ولأقاتلن معكم عدوكم» ولعابس بن أبي شبيب الشاكري مواقف لا يمكن أن تغيب عن الذاكرة في الطف وقبلها، وهي مواقف جديرة بالتأمل والدراسة.

فعند قدوم مسلم الكوفة، نزل دار المختار بن أبي عبيد، وقد توافد أهل الكوفة عليه لمبايعة الامام الحسين عليه السلام وتلقي توجيهات مبعوثه، وقد قرأ عليهم مسلم كتاب

(١) غافر: ٣٠-٣٣.

(٢) طه: ٦١.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٩ والخوارزمي: ج ٢ ص ٢٤ واللهموف: ص ٤٦، والبحار: ج ٤٥ ص ٢٤ ونهاية الارب: ج ٢٠ ص ٤٥٤.

الامام اليهم ومضمونه: «قد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالة جلکم: أنه ليس علينا امام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق، وقد بعثت اليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إلى بحالکم وأمرکم ورأيکم، فان كتب إلي أنه قد أجمع رأي ملئکم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت به عليّ رسلکم، وقرأت في كتبکم، أقدم عليكم وشيكا - ان شاء الله - فلعمري ما الامام الا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله»^(١)، فأخذوا ييكون، وكانت تلك اشارة إلى استجابتهم له وتأثرهم بموقفه من النظام المنحرف وثورته بوجهه، غير أن تلك الفورة العاطفية ربما لن يكون لها أن تستمر بمواجهة الارهاب الذي لا بد أن تعد له الدولة وهي ترى تمرد الكوفة عليها، ولربما أصبح العديدون من أولئك الباكين عوناً لهذه الدولة على الحسين، كما كان الحال فعلاً بعد ذلك، ولم يكن احتمال انقلاب الناس على الحسين وتخليهم عنه أمراً غير وارد عند عابس، ولهذا فانه لم يكن يطمئن إلى ثبات موقفهم للحسين ﷺ إلى النهاية، غير أنه كان مطمئناً إلى أمر لا شك فيه، وهو ثباته هو واستعداده للمضي مع الحسين إلى نهاية الشوط ومهما كانت العواقب.

وهذا ما تعهد به لمسلم، وقد وقف امامه في ذلك الحشد قائلاً:

«أما بعد، فاني لا أخبرك عن الناس، ولا أعلم ما في أنفسهم، وما أغرك منهم، والله لأحدثك عما أنا موطن نفسي عليه. والله لأجيبنكم اذا دعوتهم، ولأقاتلن معكم عدوكم، ولأضربن بسيفي دونكم حتى ألقى الله، لا أريد بذلك الا ما عند الله»^(٢).

كان عابس يتمتع ببصيرة نفاذة ومعرفة دقيقة بأمور الناس في ظل أوضاع الظلم،

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٧٨.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٧٩.

ومع أن كفة مسلم تبدو راجحة في ذلك الحين، ومجاميع كبيرة من الناس تفد عليه لمبايعة الحسين عليه السلام، إلا أن عابساً أدرك أن ذلك الاندفاع ما كان له أن يستمر إذا ما كثرت الدولة عن أنيابها وأرسلت غير النعمان واليا على الكوفة.

ورغم معرفته هذه، فإنه لم يعلن أنه ينسحب ويتراجع؛ لأن الناس سينسحبون ويتراجعون، فقد استوعب أبعاد الموقف كله وعرف دوافع الحسين عليه السلام من الثورة، وعرف أن شيئاً ما غيرها لن ينجح بلفت نظر الأمة إلى رداءة أوضاعها في ظل الحكم الأموي المتسلط. وقرر أن يظل مع الحسين عليه السلام وأن يعلن قراره هذا امام ملاً من أهل الكوفة وقفوا يذرفون الدموع أمام مسلم وهو يستمع لرسالة الحسين.

لم يكن يعتقد أن قضية الحسين عليه السلام خاسرة وهو يحتمل تخلي أهل الكوفة عنه، بل كان يراها ضرورية رغم الدم الذي سراق ورغم احتمال انقلاب أهل الكوفة عليه ووقوفهم إلى جانب عدوه، وهكذا أراد أن يضيف دمه لتلك الدماء المراقبة وأن يواجه أعداء الأمة بسيفه ودمه ما دام أن ذلك هو الحل الوحيد لإعلان رفض حكومة الانحراف ولفت نظر الأمة إلى ممارساتها الخاطئة والبعيدة عن الإسلام.

وقد فسح عابس المجال لمتحدثين آخرين كحبيب بن مظاهر وسعيد بن عبد الله الحنفي للكلام في ذلك الحشد، وكانت كلماتهم تتخذ نفس الاتجاه الذي اتخذته كلمة عابس، ولقد وفي ثلاثتهم بوعودهم وصمدوا مع الحسين عليه السلام واستشهدوا بين يديه.

شوذب مولى شاكر «أقاتل دون ابن بنت رسول الله ﷺ حتى أقتل»

ففي يوم المعركة، واشتداد هجمة العدو الذي رفض أسلوب المبارزة مع أصحاب الحسين عليه السلام؛ لأنهم ألحقوا به خسائر فادحة، وعندما لم يبق مع الحسين عليه السلام غير أهل بيته ونفر معدود من أصحابه، «جاء عابس بن أبي شبيب الشاكري، ومعه شوذب مولى

شاكراً، فقال: يا شوذب، ما في نفسك أن تصنع؟ قال: ما أصنع! أقاتل معك دون ابن بنت رسول الله ﷺ حتى أقتل. قال: ذلك الظن بك. أما لا فتقدم بين يدي أبي عبد الله حتى يحتسبك كما احتسب غيرك من أصحابه، وحتى احتسبك أنا، فانه لو كان معي الساعة أحد أنا أولى به مني لسرني أن يتقدم بين يدي حتى أحتسبه، فان هذا يوم ينبغي لنا أن نطلب الأجر فيه بكل ما قدرنا عليه، فانه لا عمل بعد اليوم، وانما هو الحساب. فتقدم فسلم على الحسين، ثم مضى فقاتل حتى قتل»^(١).

كان شوذب الشيخ حليف شاكراً، والذي كان حافظاً للحديث ومن ورَّاد أمير المؤمنين ﷺ ومنتهلي علمه، وقد صحب عابسا إلى مكة، وبقي مع الحسين ﷺ حتى ورد كربلاء... لا يرى مجالا لخيار آخر، والخيار الوحيد أمامه هو أن يقاتل دون الحسين حتى يقتل، وكان تصرفه في تلك اللحظات الدقيقة بمستوى وعيه ومعرفته، فمهمة الحسين لا تنجز الا بالتصدي المعلن المشكوف لنظام الانحراف ومواجهته وكشف زيفه وعدم شرعيته، وإذ إن الأمر كان لا بد أن يقتضي تقديم الدماء - فذلك النظام لن يسكت عن أية مواجهة أو نقد - فان شوذب سارع إلى ذلك وتقدم يسلم على الحسين ﷺ ويقاتل معه، حتى قتل.

وعندما بقي عابس بن أبي شبيب وحيدا بعد قتل شوذب، تقدم نحو الحسين ﷺ ثم قال: «يا أبا عبد الله، أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعز علي ولا أحب إلي منك، ولو قدرت على أن أدفع عنك الضيم والقتل بشيء أعز علي من نفسي ودمي لفعلته. السلام عليك يا أبا عبد الله، أشهد الله على أي هديك وهدي أبيك، ثم مشى بالسيف مصلنا نحوهم وبه ضربة على جبينه»^(٢).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٩ والخوارزمي: ج ٢ ص ٢٣.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٩، والخوارزمي: ج ٢ ص ٢٣، ونهاية الارب: ج ٢٠ ص ٤٥٥.

لم يبذل من الوعود لمسلم، وقد كان بعيداً عن الموت، أكثر مما كان يبذل الآن وقد أصبح بمواجهته.

كان ابن أبي شبيب - بشهادة أعدائه - أشجع الناس وكان مشهوراً بالفروسية والقوة، ولم يكن بمقدور أحد من أعدائه أن يواجهه بمفرده.

وقد ذكر أحد جنود ابن سعد، وهو نفسه الذي حرض الناس عليه، وكان قد عرفه وشاهده في المغازي، ربيع بن تميم الهمداني... قال:

«لما رأيته مقبلاً عرفته وقد شاهدته في المغازي، وكان أشجع الناس، فقلت: أيها الناس، هذا الأسد الأسود، هذا ابن أبي شبيب، لا يخرجن إليه أحد منكم، فأخذ ينادي، ألا رجل لرجل؟ فقال عمر بن سعد: أرضخوه بالحجارة. فرمي بالحجارة من كل جانب.

فلما رأى ذلك، ألقى درعه ومغفره، ثم شد على الناس، فوالله لرأيته يكرد أكثر من مائتين من الناس، ثم انهم تعطفوا عليه من كل جانب، فقتل، فرأيت رأسه في أيدي رجال ذوي عدة، هذا يقول: أنا قتلته، وهذا يقول: أنا قتلته، فأتوا عمر بن سعد، فقال: لا تختصموا، هذا لم يقتله سنان واحد، ففرق بينهم بهذا القول»^(١).

مضى ابن أبي شبيب يواجه أعداء الحسين عليه السلام كلهم بعزيمة صادقة وقلب ثابت لم يعرف الخوف إلا من الله ولم ير لأعدائه شأناً، وكان واثقاً من عدالة القضية التي رفعها الحسين عليه السلام، واثقاً من نجاحها، وكان يدرك أن دمه لن يضيع هدرًا، وأن أجيالاً من الأمة ستطلع إليه كإنسان رسالي حمل همومها كلها ونجح في التغلب على مخاوفه من الموت، مدركا نهاية سعيدة لمثل تلك الوقفة التي كان يقفها مع الحسين عليه السلام.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٩، والخوارزمي: ج ٢ ص ٢٣، والنويري: ج ٢٠ ص ٤٥٥.

جون، مولى أبي ذر «أذب عنهم باللسان واليد»

ويبرز موقف لنصير، شيخ تقدمت به السن، هو جون مولى أبي ذر، الذي التحق بخدمة آل البيت عليه السلام بعد وفاة أبي ذر.. ولا بد أن هذا الشيخ كان نتاجا طيبا لتربية أبي ذر الذي كان من أعلم الناس بموقع آل البيت عليه السلام وأحقيتهم بقيادة الأمة.

طلب جون من الامام عليه السلام أن يسمح له بالنزول إلى ساحة القتال، وقد أشفق عليه الامام لكبر سنه ورفع عنه مسؤولية القتال بحكم موقعه كمولى يتبع مواليه طلبا للعافية والرزق، الا أن حرص جون على القتال والاستشهاد بين يدي الحسين عليه السلام أفصح عن طبيعته الرسالية الفريدة وارتفاعه إلى مستوى حمل هموم الأمة كلها، متجاوزا كل من هادنوا واستسلموا وانهمزوا أمام النظام الأموي المنحرف.

تقدم جون للقتال وهو يقول:

كيف ترى الكفار ضرب الأسود بالسيف ضربا عن بني محمد
أذب عنهم باللسان واليد أرجو به الجنة يوم المورد^(١).

ورغم شيخوخته أبدى بطولة فائقة في القتال حتى استشهد بين يدي الحسين عليه السلام، الذي دعا له قائلا:

«اللهم بيّض وجهه، وطيب ريحه، واحشره مع الأبرار، وعرف بينه وبين محمد وآل محمد»^(٢).

عمرو بن جنادة بن كعب الأنصاري أبسته أمه لامة الحرب: «أخرج وقاتل بين يدي ابن

(١) الخوارزمي: ج ٢ ص ١٩.

(٢) المجلسي: ج ٤٥ ص ٢٣.

رسول الله ﷺ

أما جنادة بن كعب الأنصاري الذي خرج مع الحسين (عليه السلام) من مكة مع ابنه عمرو وأمه، وقيل إن ابنه عمراً هذا كان غلاماً لم يراهق، فقد قتل في الحملة الأولى التي شنّها العدو على أصحاب الحسين.

وكان أمراً عجيباً أن تقدم أم عمرو، المفجوعة بفقد زوجها على إلباس ابنها لامة الحرب قائلة له: «اخرج يا بني وقاتل بين يدي ابن رسول الله ﷺ، فخرج الغلام واستأذن الحسين في القتال فخرج فقال الحسين: هذا شاب قتل أبوه ولعل أمه تكره خروجه، فقال الشاب: أمي أمرتني بذلك ... فبرز إلى الحرب وهو يقول:

أميري حسين ونعم الأمير سرور فؤاد البشير النذير
علي وفاطمة والداه فهل تعلمون له من نظير
له طلعة مثل شمس الضحى له غرة مثل بدر منير^(١).

وعندما قتل، أخذت أمه عمود خيمة حاولت أن تقاتل به، إلا أن الحسين (عليه السلام) أمر بأن ترد إلى المخيم.^(٢)

لم يكن عمرو بحكم سنه مكلفاً بالمشاركة في القتال، وكان متوقعاً من الأم المفجوعة بزوجها أن تحرص على حياة ابنها، غير أن الأمر هنا لم يكن كما يتوقع، وكانت تلك المرأة حريصة أن تلتحق هي وابنها بزوجها، وكان فعلها على مستوى بصيرتها ووعيها، ولا بد أنها أدركت ما لم يدركه الكثيرون من أبناء الأمة وقامت بما عجزت عنه الأمة كلها.

إن عائلة جنادة مثل فريد لمحبي الإسلام والرسول ﷺ... وأهل بيته الأطهار وكانت قوة أفرادها وصلابتهم ووقوفهم أمام الموت بشجاعة، أمراً لا يتاح لنا أن نشهده دائماً

(١) المجلسي: ج ٤٥ ص ٢٧.

(٢) المجلسي: ج ٤٥ ص ٢٨، والخوازمي: ج ٢ ص ٢٢، وابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٤.

كما أنه فوق مستوى اللغة التي نتعامل بها ونعبر بها عن مشاعرنا، ويكفي أن نستعرض هذا الموقف ليخرج كل منا بالصورة التي يراها، وسنرى جميعاً أنها صورة فريدة تحمل كل ما في الإسلام من نور وحيوية واشراق.

الشيخ الجليل، أنس بن الحرث الكاهلي «.. شكر الله سعيك يا شيخ...».

وكان مشهد أنس بن الحرث الكاهلي من المشاهد الجليلة التي لا يمكن أن تتكرر، فابن كاهل الأسدي هذا كان صحابياً، رأى النبي ﷺ وسمع حديثه وشهد معه بدرًا وحنينا وكان شيخاً طاعناً في السن إلا أنه كان على درجة عالية من حدة الذهن ونفاذ البصيرة بحيث كان يدرك كل ما كان يدور حوله ويرى كيف كانت الأمة تستدرج للوقوع في الهاوية الأموية المظلمة.

وكان حديث للرسول ﷺ بخصوص ابنه الحسين عليه السلام يلوح في ذهنه دائماً، فلا يكاد ينساه^(١). وكان المشهد الذي قال فيه هذا الحديث من المشاهد التي لا تنسى أيضاً، وكان ابن الحرث بحضرة الرسول ﷺ في ذلك الحين والحسين عليه السلام في حجره، فيفيض حناناً لرؤياه، وكان وهو ينظر بعين البصيرة ويتطلع إلى مستقبل هذه الأمة، ينطق بما علمه الله إياه على لسان جبرائيل الأمين، كان يرى أن صراعاً كبيراً سيدور، وأن الأمة ستتحاز إلى جانب الظالم الذي سيكون طرفاً في هذا الصراع ويكون الحسين ابنه طرفاً آخر فيه، وقد دعا إلى نصرته، وشهد له بذلك على أنه على الحق. وبذلك أوضح أن فرعون الذي سيقف مقابله سيكون مبطلاً، حتى وإن سكنت الأمة عنه ووقفت أعداد كبيرة من

(١) وهو الحديث الذي ورد في (ينابيع المودة) الباب الستون: للقندوزي - عن أنس بن الحرث، وأسد الغابة: ج ١ ص ٣٤٩، وكنز العمال: ج ٦ ص ٢٣٣، والاصابة: ج ١ ص ٦٨، وريحانة الرسول: لابن عساكر: ص ٢٣٩ «ان ابني هذا يقتل بأرض من العراق، الا فمن شهده فليصره» وقد تحدثنا عن الروايات الواردة عن الرسول ﷺ بخصوص استشهاد الحسين في كربلاء.

أبنائها إلى جانبه وفي صفه.

واذ كانت الأمة مشلولة مخدرة جاهلة، فما عذر هذا الصحابي الجليل الذي سمع هذا الحديث من فم الرسول ﷺ مباشرة. وكأنها قدر الله أن يسمعه هو ليحظى بنعمة الشهادة معه والورود إلى جده ﷺ، يعلمه أنه قد استجاب له ونصره، وأنه لم يضيع حديثه أو ينساه أو يزوره، كما فعل العديدون بأقواله جاعلين من صحبتهم المزعومة له تجارة يشترون بها ودَّ فراعنة الأمة ويغترفون من الأموال التي سرقوها منها.

وبحكم السن والشيخوخة كان بإمكان هذا الشيخ ألا يشارك في القتال، إذ كان معذورا، غير أنه رأى أن لا يضيع فرصة نصره الحسين ﷺ وقد سمع جده ﷺ يأمر بها، وكانت فرصة نادرة جاد بها الزمان عليه وهو في أخريات سنه. وقد التقى بالحسين ﷺ وهو في طريقه إلى العراق، وكان يعلم أنه مقتول هناك، فجاء ليقتل معه.

أية عزيمة جاشت بقلب ذلك الشيخ الجليل، فجعلته يقف قبالة الحسين ويستأذنه في القتال بعد أن قتل معظم أصحابه، وقد برز شادا وسطه بالعمامة رافعا حاجبيه بالعصاة عن عينيه وهو يقول:

قد علمت كاهل ثم دودان والخنذفيون وقيس عيلان

بأن قومي آفة للأقران و أنني سيد تلك الفرسان^(١)

وكان مشهدا استدر الدموع من عيني الحسين ﷺ، وقد رأى كيف أن هذه الأمة المستسلمة لطغاتها تقدم على مقاتلته، وتقتل أصحابه، وتواجه هذا الشيخ الذي يريد انقاذها بالسيف بدل أن تستمع اليه وتسترشد بأقواله ورواياته عن الرسول ﷺ.

(١) الخوارزمي: ج ٢ ص ١٨ وابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٢.

بكى الحسين عليه السلام عندما رآه بتلك الهيأة وقال: «شكر الله سعيك يا شيخ»^(١)، وكما قتل من قبل عمار بن ياسر وهو شيخ كبير، قاتل تحت لواء أمير المؤمنين، بعد أن قتل العديد من أعدائه، فعل هذا الشيخ الصحابي فعله، وقتل بعد أن قتل بعض أعدائه، ولعله في الظرف العادي غير قادر على فعل شيء كهذا، غير أنه وقد وضع الإسلام ورسول الله صلى الله عليه وآله أمامه، استنفر كل ما بقيت له من قوة وجلد وثبات ليقاوم به أعداءهما، وكان يرى أن تلك الساعة التي قاوم فيها أعداء الله هي الجديرة بأن يبذل كل ما كان لديه من جهد ونشاط ليقدم كل ذلك وليقدم نفسه قربانا دون الحسين عليه السلام ودون رسول الله صلى الله عليه وآله والإسلام، ليفد على الرسول صلى الله عليه وآله وقد نصح ووفى ووقف وقفة الحق في الظرف المناسب.

سويد بن عمرو بن أبي المطاع: قاتل بسكين بعد أن فقد السيف

أما سويد بن عمرو بن أبي المطاع فكان له موقف آخر، فقد «صرع فائخن، فوقع بين القتلى مثخنا، فسمعهم يقولون: قتل الحسين»^(٢)، وكان من شأن ذلك أن يصيبه بحالة من الخوف والرعب، إذ تجرأ أولئك القوم على الامام فقتلوه، وكان من شأنه أن يصيبه بحالة من اليأس بجدوى القتال معهم.

غير أنه وقد وجد افاقة «فاذا معه سكين، وقد أخذ سيفه، فقاتلهم بسكينه ساعة، ثم أنه قتل»^(٣) إذ ما تجدي سكينه أمام السيوف المشهورة والرماح المشرعة وهو جريح، بل مثخن بالجراح، غير أن سويد لو لم يكن معه الا أسنانه أو يدها المجردتان لدافع بهما عن الحسين عليه السلام، فقد كان يريد أن يستشهد معه عليه السلام ولم يكن يريد أن تفوته تلك الفرصة

(١) الخوارزمي: ج ٢ ص ١٨ وابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٢.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٥، والبلاذري: ج ٣ ص ٢٠٤، والنويري: ج ٢٠ ص ٤٥٥.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٥، والبلاذري: ج ٣ ص ٢٠٤، والنويري: ج ٢٠ ص ٤٥٥..

الشمينة.

انصار الحسين : نموذج فريد، غير أنه ممكن التكرار

ولا نؤرخ هنا لأصحاب الحسين كلهم، فلعل هذا يحتاج إلى بحث أكثر دقة وتفصيلاً قد لا تتسع له صفحات هذا الكتاب. غير أن الباحث المدقق والقارئ الواعي سيجد لهؤلاء مواقف جديرة بالتأمل والدراسة والنظر، إذ كانوا يعلنون عن انتمائهم للإسلام بفعل واضح قوي معبر، تسجله دماؤهم ووقفاتهم الثابتة غير المترددة مع الحسين (عليه السلام) وهو يسعى للقضاء على الانحراف وتخليص الأمة من خطر داهم أحاق بها فعلاً وهو الخطر الأموي الذي كان يمهّد لانحراف دائم تظل تعيش معه في ظل فراغته مستترين بالإسلام وشرعيته وهم أبعد ما يكونون عن الإسلام.

إن أصحاب الحسين الذين قتلوا بين يديه في واقعة الطف، نموذج فريد، غير أنه ممكن التكرار في أحوال أخرى وظروف مماثلة، فهم لم يمتلكوا تلك الطاقة الكبيرة التي مكنتهم من الصمود بوجه أعدائهم بشجاعة منقطعة النظير، إلا لأنهم امتلكوا زخماً إيمانياً هائلاً، برز فيه الإسلام كأملٍ وحيد وكقيمة عليا وحيدة يمكن أن تنتزعهم من قيم الجاهلية وصراعاتها وتنافسها المحموم للحصول على مكاسب غير مشروعة وغير مباحة.

إن ردود فعلنا على تصرفاتهم، ونحن نستعرض سيرتهم، ينبغي أن لا تتميز بذلك الإعجاب السطحي والاطراء المجرد لتلك التصرفات والمواقف، وإنما ينبغي أن تكون متسمة بالإيجابية والتفاعل والفهم، فذلك السلوك الذي برز في تلك الواقعة ينبغي أن لا يفرض به أو يستعرض كأنه حالة خاصة غير ممكنة التكرار، بل مطلوب في كل ظرف يتكرر فيه ذلك الخرق المفصوح للإسلام، ينبغي أن نضع أنفسنا محل أولئك الذين

تعرضوا لذلك الاختبار الصعب، فنجحوا فيه وهم يدافعون عن الإسلام، ووقفوا بوجه الدولة المنحرفة الجانحة عنه، والتي استأثرت بالثروة والجاه والسلطة تفيض بها على أعوانها ومساعدتها وأتباعها.

اننا ينبغي أن نطرح أسئلة عديدة في خضم النظر بشخصيات أولئك الرجال الشجعان، هل من غير الممكن أن لا نتعرض نحن أو نمر بنفس الظروف التي مروا بها؟ وكيف سيكون موقفنا لو مررنا بها أو تعرضنا لها؟ هل نقف على التل - كما وقفت جماعة من أهل الكوفة وهم ينظرون إلى الحسين من بعيد ويتمنون له النصر - ونتمنى أن ينصر الله الإسلام ويعزه بغيرنا، أم أن علينا أن نكون أدوات ذلك النصر؟

معاوية : خلاصة لجاهليات الأرض

وهل نتناول قضايانا الإسلامية الكبيرة وتاريخنا الإسلامي ومنها قضية الامام الحسين (ع) بمواجهة الدولة الأموية اليزيدية وقبلها قضية أمير المؤمنين (ع) ومعاوية، بالروح اللامبالية التي تناولها بعض المستشرقين المعادين للإسلام وأتباعهم وتلامذتهم والمتأثرون بهم، فنروح نقاش المسألة كحدث يقع بين قائدين من قواد الفرس أو الروم أو الترك أو الديلم، ممن لم يسلموا ولم يعرفوا الإسلام، وان المسألة كلها لم تكن سوى منافسة على كرسي الحكم، الذي استطاع أحدهما الحصول عليه ببراعته ومهارته وحيلته.. وفشل الآخر في الحصول عليه؛ لأنه لم يكن يمتلك ذلك القدر من البراعة والمهارة والحيلة التي امتلكها صاحبه، وأن الجميع ينبغي أن يتقبلوا النتيجة بروح رياضية حتى وان كانوا يقفون في صف (المغلوب)؟

أم أننا ينبغي أن نقاش المسألة برمتها من وجهة نظر إسلامية بحثة لنجد في النهاية: أن الامام علياً (ع) وخطه الذي حاول أن يحفظ التجربة من الانحراف أو الضياع لم

يستبعد ولم يحارب من قبل القوة الأموية والأحزاب المناوئة الأخرى، إلا لأن هذه الأحزاب أرادت أن يستبعد الإسلام نفسه عن حياة الأمة.. فقد كان ﷺ الممثل الوحيد للأمة ومصالحها.

وإذ إن الإسلام قد صور على أنه غير ممكن التطبيق فعليا بكل تشريعاته وقيمه (المثالية) أي غير القابلة للتنفيذ إلا على المستوى النظري، فإن أمير المؤمنين ﷺ نفسه قد صور على أنه انسان (مثالي) أي غير عملي وغير واقعي، وأن ما كان يناادي به كان غير ممكن التطبيق.

وكان شن الحرب عليه وعلى أولاده فيما بعد يعني محاولة استئصال الإسلام من الأساس وجعل المجتمع الاسلامي مجتمعا سطحيا مقطوعا متشرذما، لا يملك رؤية إسلامية واضحة أو تصورا قائما على أساس الإسلام وحده، مجتمعا مؤلفا من طبقة الهمج الرعاع التي تهتم بهومها اليومية البسيطة وحسب، ولا تمتد اهتماماتها لكل مشاكل الأمة ومعاناتها، ولا تشعر أن هناك ظلما يقع عليها.

وقد رأينا كيف أن معاوية قد قام منذ البداية بلغم الإسلام بمجموعة من المفاهيم الغريبة، بحملة منظمة كرس لها طابورا من مدّعي الصحة وواضعي الحديث والقصاصين والوعاظ والمفسرين والشعراء والقادة العسكريين والسبايين وغيرهم، حتى أرسى مفهوما جديدا للدولة الإسلامية وقيادتها، اعتمد كأساس عملي بديل عن ذلك الذي أراده رسول الله ﷺ وربى خليفته من بعده عليه.

وكانت حملة معاوية الأولى بداية للغم الإسلام بالمفاهيم الغريبة الأخرى، التي وردت لنا من جاهليات الأرض كلها، حتى أصبحت مهمتنا في تنقية هذا الدين من شوائب وآثار الجاهليات القديمة والحديثة صعبة لا يمكن أن يتصدى لها أفراد

معدودون أو مؤسسات معينة، بل لا بد من قيام الأمة كلها بذلك، ان هذا يستدعي النظر إلى الإسلام مجددا واستحضار العقلية الإسلامية النقية غير المتأثرة؛ لأننا ينبغي أن لا نعالج قضايانا الإسلامية بعقلية غير إسلامية وأدوات غير إسلامية، وما لم نفكر بذلك بشكل جدي فاننا سنظل نتعامل مع الإسلام تعاملًا سطحيًا ناقصًا.

ان ثورة الحسين عليه السلام من المعالم المهمة والنادرة التي أتيح لأمتنا أن تشهدها عبر تاريخها الطويل، ولن نستطيع فهم تلك الثورة والتعامل مع أحداثها ومعطياتها ما لم نفهم الإسلام حقًا ونحمل عقليته وتصوره.

لم يكن الخيار مفتوحاً أمام الحسين عليه السلام ليقوم بثورته او لا يقوم بها، وقد رأينا أنه قام بها عندما وجد أنها الأسلوب الوحيد لتنبيه الأمة إلى خطر الانحراف المستشري، وما رآه الحسين عليه السلام رآه أصحابه كذلك وأدركوا أن دماءهم لن تذهب هدرا ما داموا يشاركونه بتلك المهمة الكبيرة، مهمة تقويم الأمة وجعلها تلتفت دائماً - حتى وان امتد الزمن - إلى مخاطر كل انحراف محتمل فتتصدى له كما تصدوا هم ووقفوا خلف امامهم ثم استشهدوا بين يديه.

وبالتأكيد، فان ثورة الحسين عليه السلام ستظل معلماً لنهضة دائمية واستعداداً مستمراً لمحاربة الانحراف والشرك والفساد، وسيظل أصحابه وأنصاره مثلاً حياً للثبات على خط الإسلام ومبادئه والاستعداد التام للموت والتضحية في سبيله.

والنساء، نصرن الحسين أيضا

لا نستطيع، في معرض الحديث عن ثورة الحسين، أن نتجاهل الدور الذي لعبته المرأة المسلمة في هذه الثورة.. سواء تلك التي تنتمي إلى آل الحسين أم غيرها.

وكم كانت المآخذ كثيرة على الرجال الذين تراجعوا تحت وطأة الخوف والذل والطمع، تلك العوامل التي كانت من نتاجات دولة الظلم الأموية، واستسلموا وانهمزوا.. ثم اندفعوا بعد ذلك - أمام رغبات أسياهم الجدد - يحققون كل مشاريع أولئك الأسياد ورغباتهم المجنونة في السيادة والسيطرة والاثراء غير المشروع، وانقادوا أمامهم كقطعان من الأنعام المجردة من الحرية والارادة والرأي.. وقد لمس من بعضهم اندفاع غير محدود في الشر والعدوان سجل لهم كمبادرات شخصية، أرادوا بها التقرب من رؤوس الحكم، الا أنهم لم يستفيدوا منها شيئا، ولم يكن من شأنها الا أن تكشف معادنهم الرخيصة وفراغهم من كل مبادئ الإسلام الكبيرة.

وسنجد أن للمرأة في هذه الثورة الكبيرة دورا بارزا مشرفا ظهر بشكل ملفت للنظر حقا، ومع أن عدداً ممن سنتكلم عنهن قليل في هذه الدراسة المحدودة، الا أن هذا كاف ليثبت لنا أن المرأة المسلمة عموما، وحتى المرأة الكوفية التي تخاذل رجلها واستسلم وتراجع وآثر الانحياز في النهاية إلى جانب ابن زياد، كانت تقف موقفا عظيما لم يتح لكثيرين من الرجال أن يقفوه، حتى لقد فاقت كثيرات منهن الرجال الشجعان أنفسهم.

ولو استثنينا السيدة زينب بنت أمير المؤمنين (عليها السلام) باعتبارها ربيبة بيت الرسالة

العظيم، والتي تميزت بما تميز به ذووها من ايمان ومعرفة وشجاعة وبيان، فان مواقف النساء الأخريات وهن لسن من هذا البيت، قد دلت على أنهن كنَّ متفوقات بشكل لا يوصف على العديد من الرجال، بل على أبناء الأمة المتخاذلة كلها، اذ لم يستطع احد أن يقف موقفهن المشرف في تلك الساعات العصيبة التي أبدى أعداء الإسلام فيها نواياهم الحقيقية نحوه وكشروا عن أنيابهم بوجهه وبوجه قيادته الحقيقية الشرعية.

ولا شك أن مواقف تلك النسوة نابع من شعورهن العميق بمسؤولية التغيير والقضاء على الانحراف، ومن فهم واقعي لحقيقة الدور الذي ينبغي أن يلعبه المسلمون كافة، سواء كان رجالاً أم نساء على ضوء معطيات الإسلام وتصورات ومثله.

ولم تكن المرأة المسلمة بمعزل عن الأحداث التي مرت بها، كما أنها لم تكن بعيدة التأثير على مجريات بعضها، لذلك فان حضورها كان واضحاً في بعض تلك الأحداث، بل ملفت للنظر وهذا ما سنجده فعلاً خلال الحوادث التي رافقت ثورة الحسين وخلال المسيرة الملحمية من المدينة حتى كربلاء حيث استشهد هناك وبقية أصحابه وأنصاره.

١. العقيلة زينب بنت أمير المؤمنين عليها السلام ونساء آل الرسول صلى الله عليه وآله في مواجهة العاصفة..

مع الحسين عليه السلام في كل الظروف

زينب بنت أمير المؤمنين كانت في مقدمة النساء اللواتي ضمنهن ركب الحسين عليه السلام وكان لها حضور واضح في بعض المواقف الدقيقة ومنها الموقف الذي استطاعت فيه الدفاع عن الامام زين العابدين عليه السلام - الامام الفعلي للأمة بعد استشهاد والده الحسين عليه السلام - امام ابن زياد، ولمنع هذا الأخير من قتله بعدما استمع لأقواله التي لم يكن يتوقع أن يسمع مثلها ممن كانوا في موقفه، ومنها موقفها أمام يزيد وأهل الشام بعد ذلك.

ولو تأملنا الظروف التي أحاطت بخروج الحسين عليه السلام من المدينة وحتى وصوله كربلاء، مروراً بمكة المكرمة، لرأينا أن تلك الرحلة كانت محفوفة بالمخاطر والمتاعب منذ بدايتها، وأن الامام كان يتعرض لخطر الموت والاعتقال على يد أعوان السلطة الأموية، لذلك فانه خرج على عجل بنسائه وأطفاله وأصحابه، ولا يخفى أن محاولات عديدة جرت لمنعه من الخروج من كلتا المدينتين.

وقد رأينا أن التحذيرات التي تواردت على الحسين كانت كلها تشير إلى أنه مُقدم على مجازفة كبيرة، قد يقتل فيها هو وأصحابه اذا ما سار إلى العراق، كما أن منها ما أرادت منعه من أخذ النساء والأطفال كتحذيرات ابن عباس في مكة^(١) الا أن الامام أصر على أخذهم معه، وقد أخذهم فعلاً.

وكانت المرحلة العصبية من الرحلة، هي التي بدأت عند ورود الخبر بمقتل مسلم ابن عقيل وهانئ بن عروة وانتهت بوصول الحسين عليه السلام وأصحابه كربلاء وخوضهم معركة الطف الدامية ضد أعوان السلطة الأموية.

وهنا لا بد لنا من ملاحظة أن النساء اللواتي كن برفقة الحسين عليه السلام لم يكن بعيادات عن ذلك الجو المنذر العاصف الذي تجمعت فيه غيوم الخطر المرتقب، ولم تكن التحذيرات التي وصلت أسماع الحسين وأصحابه، والأخبار التي وردتهم بعيدة عن أسماعهن، فكان من المتوقع في أمثال تلك الحال، أن يكنّ عامل تخذيل وتخويف لأولئك الذين عزموا على مواصلة المسير، ومع ذلك فاننا لم نر في أية مرحلة من مراحل تلك الرحلة ما يدل على ذلك.

ومن المرجح أنهم كن عازمات على مواجهة أي ظرف قد ينجم عن اكمال تلك

(١) تحدثنا في الفصل الثامن عن بعض الدوافع التي دعت الامام لأخذ عياله ونسائه وأطفاله معه عند ذهابه للعراق.

المسيرة، وأنهن قد وُطدن العزم على ملاقة المتاعب حتى وإن وجدن أنفسهن وحيدات إلا من الصبية والأطفال، وحتى هؤلاء الصبية لم يُتَح لبعضهم العيش - فيما بعد - للرجوع معهن في طريق العودة المحزن.

وكانت مسيرتهن مع الحسين عليه السلام مسيرة ملحمية لا يقل عزمهن فيها عن عزم أولئك الرجال الذين وطنوا أنفسهم على أن يلقوا ما يلقاه، ولم يغادروه كما فعل الأعراب الذين سمح لهم بمغادرته، لا اعتقاده أنهم إنما رافقوه لأنهم حسبوا أنهم سيجنون مكاسب مادية من مرافقته وأنهم سيقدمون على بلد قد استقامت له طاعة أهله، وحتى لو لم يسمح الإمام لأولئك الأعراب بمغادرته فأنهم كانوا سيغادرونه حتماً، فالمهمة التي مضى إليها لم تكن في حدود استطاعتهم ووعيمهم.

عائلة حكيمة.. أعدت نفسها لتحمل المسؤولية

كانت زينب نموذجاً للنساء الأخريات اللواتي رافقن الحسين عليه السلام ومنهن أختها فاطمة وأم كلثوم وليل بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود بن معتب الثقفي زوج الحسين^(١) وأم علي الأكبر الذي استشهد مع أبيه عليه السلام، والرباب بنت امرئ القيس بن عدي بن أوس بن جابر بن كعب بن عليم من كلب، زوج الحسين وأم عبد الله ولده، ورقية بنت أمير المؤمنين عليه السلام زوج مسلم بن عقيل وغيرهن من النساء.

غير أن زينب، وقد كانت أكبرهن سناً^(٢)، وأكثرهن خبرة وعلماً ونضوجاً، وقد قضت فترة طويلة في حضن أبيها أمير المؤمنين عليه السلام وأخويها الحسن والحسين، ولا تزال تطوف بذاكرتها الأوقات التي قضتها في أحضان جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأُمها

(١) وردت بعض الأخبار أنها توفيت قبل واقعة الطف ولا تؤيد ذلك الروايات الكثيرة الموثوقة التي تحدثت عن دورها في الواقعة.

(٢) ولدت عليها السلام في العام الخامس للهجرة.

الزهراء عليها السلام. كانت مؤهلة لتحمل مسؤولية رعاية الجميع بعد غياب الحسين وأهل بيته عليهم السلام. وقد تصرفت بحكمة مكنتها من المحافظة عليهم وارجاعهم سالمين إلى المدينة بعد حصول المذبحة الأليمة، كما أدت دورا اضافيا عندما أشعرت الأمة بطبيعة المعركة.

لماذا أخذ الحسين عياله وأطفاله إلى كربلاء؟

لقد كان وجود بنات أمير المؤمنين عليه السلام وعقائل آل الرسول عليه السلام في ذلك الموكب، اشعاراً للنساء الأمة، ونساء الكوفة على وجه الخصوص، بأهمية المهمة التي كان يشخص إليها الامام عليه السلام، وايدانا بمرحلة جديدة يقمن فيها بحثً وتشجيع أبنائهن وأزواجهن واخوتهن وآبائهن على الالتحاق به وعدم التخلي عن نصرته، خصوصا وأنهم كتبوا اليه يعدونه تلك النصره.

كان الحسين عليه السلام ينشد من وراء جلب عائلة معه إلى اشعار الجميع، وخصوصا أهل الكوفة أنه قد انتقل اليهم بشكل نهائي، وأنه لم يجعل أي سبيل للرجوع، وسيواجه معهم كل المتاعب المحتملة وكل الظروف المؤلمة. اضافة للأسباب الأخرى التي تحدثنا عنها في الفصل الثامن.

قال مخاطبا جنود الحر بن يزيد، عندما أراد الحر اجباره على التوجه إلى الكوفة والاستسلام لابن زياد، وذلك في معرض حثهم على الالتحاق به وترك جانب الدولة الظالمة. «فأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله عليه السلام، نفسي مع أنفسكم، وأهلي من أهليكم، فلكم في اسوة»^(١).

لم يترك عائلته ونسائه في أمن ودعة في بيوتهم ومساكنهم في المدينة أو لدى بعض أقاربه في مكة، وجاء مع أصحابه وأهل بيته فقط ليخوض حربه ضد الدولة الظالمة في الكوفة ليعرض أهلها لرد فعلها العنيف الذي قد يعرض عوائلهم للأذى، ولم يأت

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٧.

اليهم منفردا؛ إذ إن ذلك قد يوحي اليهم بأنه يريد أن يجعل من مدينتهم ساحة حرب، وأنه قد يتراجع في أية لحظة قبل أن يواجه جيشا قويا محتملا.

أما وقد جلب معه عياله وأطفاله، فكأنه قد عقل بعيره أو عقر فرسه منذ البداية وجاء إلى مقره الأخير، فأما أن يسيطر ويستقر ويحكم باسم الإسلام، وأما أن يقتل ولا سبيل بين هذين، فكيف يمكن لشخص مثل الحسين عليه السلام الهرب وترك عياله رهائن في أيدي أعدائه، وفي هذا ما فيه من الخزي والذلة؟ وكيف سيكون الأمر إذا ما كان هذا الشخص هو إمام الأمة الشرعي وابن رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام؟

وهكذا تبين لنا سبب رفضه اقتراح ابن عباس أن يبقى عياله في مكة فلا يأخذهم معه إلى الكوفة واجابته اياه «شاء الله أن يراهن سبايا» فاذ تقوم أمة الرسول صلى الله عليه وآله بسبي عياله واستهدافهم بالأذى والشر. فان ذلك سيكون ادعى لوضوح قضيته، وستبرز حقيقة العدوان عليه وعلى الإسلام وطبيعة المعتدين بأجلى صورة.

لقد كان لمسيرته طابعها التحريضي المحتج أمام الأمة كلها، اذ لم يكن خروجه عملا عسكريا محدود الأهداف ولم تكن حربه من تلك الحروب التي لا يتمكن أحد من تفسيرها أو فهمها أو معرفة دوافعها ومبرراتها، وانما كانت حربا واضحة، خاضها عندما رأى أن الإسلام مستهدف من قبل أعدائه الحاقدين، وألقى فيها بكل ثقله. وكان من أخذهم معه من الصبية والنساء والأطفال صوتا اعلاميا قويا ومؤثرا في الأمة كلها بدأ منذ اللحظة التي بدأت فيها مسيرة الرجوع المعاكسة من كربلاء إلى الكوفة ثم إلى المدينة مروراً بالشام مقر السلطة، وقد ظل صدها يتردد ليhez عرش الدولة الأموية وليبدأ باقتلاعها منذ ذلك الحين، وكان من حضروا المعركة من النساء والأطفال وبعض من سلموا من القتل شهدوا رواوا وقائع تلك المعركة، وما قام به كل فرد من أصحاب الحسين عليه السلام فيها ونهبوا الأمة إلى العنف الأموي الذي كان يستهدف كل أبنائها مهما

كانت مراكزهم ومواقعهم، كما ان مشاهد العنف ضدهم بقيت ماثلة امام الجيش المعتدي واهل الكوفة حتى بعد الواقعة جعلت الكوفة مقرا دائما للمعارضة المسلحة كما سنرى ذلك في الفصول اللاحقة.

وكانت خطب زينب عليها السلام واحتجاجاتها ومواقفها وحواراتها مع ابن زياد ويزيد وكلماها في الكوفة والمدينة بعد ذلك عاملا على توعية الناس وتبصيرهم بالخطر الأموي المحدث، وتأجيج السخط والنقمة ضد الدولة الأموية الظالمة.

واجهت الكارثة بعزيمة منقطعة النظير

واجهت زينب عليها السلام احتمال قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام كأمر بات متوقعا في كل لحظة ومقررا لا بد منه في اللحظة التي دعا ابن سعد فيها جنوده للهجوم على معسكر الحسين عصر اليوم التاسع من المحرم، وتبين لها الأمر الذي كانوا مقبلين عليه فعلا.

ولم يكن تحملها لصدمة تلك اللحظة كتحمل الامام أو أصحابه وهي امرأة وفي النساء الرقة والجزع على حد تعبير الامام زين العابدين عليه السلام. وكان لابد للعواطف الانسانية نحو الأخ والأبناء وأبناء الأخ أن تتصاعد بشكل عنيف، وقد أصبحوا أمام خطر فعلي أوشك الآن أن يحقق بهم فعلا، ولا غرابة أن نراها في هذا الموقف تحزن وتبكي، بل ويغمى عليها، حتى يقوم الحسين عليه السلام بنفسه بتهديتها واسكاتها واعدادها لتقبل فكرة موته على أيدي الأعداء المحيطين بهم ولو بشكل أولي تمهيدي، لتقوم هي بنفس الدور بعد وفاته و وفاة أصحابه. وعندما ردد الامام عليه السلام بعد ذلك في تلك الليلة التي قتلوا في صبيحتها:

يا دهر أف لك من خليل كم لك بالاشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل والدهر لا يقنع بالبديل

وانما الأمر إلى الجليل و كل حي سالك السبيل
ما أقرب الوعد من الرحيل^(١)

اعداد لتقبل المصيبة

وعندما أعادها مرتين أو ثلاثا، وعنده مولى لأبي ذر الغفاري وهو يعالج سيفه ويصلحه، قال الامام زين العابدين عليه السلام، الذي كان في خيمة مجاورة لخيمة والده وعنده عمته زينب تعرضه «فعرفت ما أراد، فخنقتني العبرة، فرددت دمعتي، ولزمت السكوت، وعلمت أن البلاء قد نزل»^(٢) أراد الامام عليه السلام بذلك أن يضعهم أمام الأمر الواقع، وتقبل حقيقة موته وموت أصحابه وأهل بيته لكي يستعدوا لذلك ويتصرفوا بحكمة واتزان اذا ما قتلوا، وربما كانت زينب معنية أكثر من غيرها لمرض الامام زين العابدين عليه السلام وعدم ظهوره أمام السلطة كرجل صحيح الجسم مؤهل للقتال أو العناية بالأطفال والنساء، والا لكان قد قتل، كما حاول ابن زياد ذلك بالفعل عندما جلب الأسارى إلى قصره.

لا شك أن فورة عاطفية وموجة طاغية من الحزن ستتبع سماع زينب والنساء الأخريات بالنبا الصاعق ورؤيتهن أن الأمر بسيه إلى أن يتم، ويقتل الحسين وأصحابه عليهم السلام غير أن شدة المصاب، ودقة الظرف الذي كن يمرن به وما يقتضيه من العناية بالصغار، اقتضى أن تتمتع هذه المرأة بقدره استثنائية تستطيع معها كبح جماح حزنها وألمها، والالتفاف إلى من كان بمعيتها من النساء والأطفال والظهور بجلد وقوة

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٦، والكمال في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٦، والارشاد: ص ٢١٦، وروضة الواعظين: ص ١٨٤، وأنساب البلاذري: ج ٣ ص ١٨٦، والنويري: ج ٢٠ ص ٤٤٧ مع بعض الاختلافات البسيطة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣١٦، والكمال في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٦.

أمامهم، حتى تعينهم على اجتياز المحنة والوصول سالمين إلى بيوتهم في طريق العودة الطويل الذي تخللته محطتان لدى الطاغيتين ابن زياد ويزيد.

لم تستطع زينب، عند سماعها الأبيات الشعرية التي ردها أخوها الحسين عليه السلام أن تسيطر على مشاعرها، فكان ذلك المشهد الحزين بين يدي أخيها عليه السلام والذي لم تستطع احتماله فسقطت مغشيا عليها، ثم بعد أن أفقت من وطأة تلك المشاعر الثقيلة، التي أرهقتها وأفقدتها شعورها، أخذ الامام عليه السلام - وكأنه ليس هو الذي سيقتل - يهدئ من روعها، ويقدم لها توصياته الأخيرة ويعدّها للأمر الجلل، ويربّيها أن ذلك ما دام أمرا لا مفر منه، فان عليها أن تتذكر كلماته وتتمسك بها لكي تستطيع الحفاظ على مجموعة النساء والأطفال وتخفف عنهم آلامهم ومتاعبهم ريثما تعود بهم إلى المدينة حيث بيوتهم ومسقط رؤوسهم.

ويستمر الامام زين العابدين عليه السلام في سرد ذلك المشهد الحزين «فأما عمتي، فانها سمعت ما سمعت، وهي امرأة، وفي النساء الرقة والجزع، فلم تملك نفسها أن وثبتت تجرب ثوبها، وأنها لحاسرة حتى انتهت اليه، فقالت: واثكلاه، ليت الموت أعدمني الحياة. اليوم ماتت فاطمة أمي وعلي أبي وحسن أخي. يا خليفة الماضي، وثمال الباقي.

فنظر اليها الحسين عليه السلام فقال: يا أخية، لا يذهبن حلمك الشيطان. قالت: بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله، استقتلت، نفسي فداك؟ فرد غصته، وترقرقت عيناه، وقال: لو ترك القطا ليلاً لنام.

قالت: يا ويلتي، أفتغصب نفسك اغتصابا، فذلك أقرح لقلبي، وأشد على نفسي، ولطمت وجهها، وأهوت إلى جيبها فشقتة، وخرت مغشيا عليها.

فقام اليها الحسين، فصب على وجهها الماء، وقال لها: أخية اتقي الله، وتعزي بعزاء

الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأن أهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون، وهو فرد وحده.

أبي خير مني، وأمي خير مني، وأخي خير مني. ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله اسوة.

فَعَزَّاهَا بهذا ونحوه، وقال لها: يا أختي، اني أقسم عليك فأبري قسمي، ولا تشقي علي جييا، ولا تخمشي علي وجهها، ولا تدعي علي بالويل والثبور إذا أنا هلكت.. ثم جاء بها حتى أجلسها عندي، وخرج إلى أصحابه»^(١).

لقد تجسمت المصيبة، وغدت واضحة أمام عيني زينب، عندما أدركت الآن بشكل واضح أن الحسين عليه السلام سيموت، وقد أسمعها هو أبياتاً من الشعر تؤكد لها ذلك.

وكان ذلك أمراً مفاجئاً لم تستطع تحمّله وقد أدركت حجم تلك المصيبة التي حملها ذلك الأمر المفاجئ، وكان جواب الحسين عليه السلام تأكيداً آخر على أنه سيموت عندما طلب منها أن تتجلد وتتعزى بعزاء الله، فقد رأت الآن أنه بسبيله إلى أن يقتل على أيدي تلك الطغمة المحتشدة لقتاله وحرّبه، وعندما استوضحته أمر ذلك تفرقت عيناه بالدموع.

ولا شك أن هذا موقف انساني كبير يدل على عظمة الحسين عليه السلام وسمو مشاعره ووجدانه، وهو موقف لا يعرفه القاسي الغليظ الذي تجرد قلبه من الرحمة ومن كل احساس انساني طبيعي، فهل يملك انسان مرهف الحس، يفيض قلبه حبا لكل الناس، حتى لأعدائه أن لا يحزن على أطفال ونساء سيتركهم بين أيدي أعدائه القساة الحاقدين؟ وهل يملك أن لا تترقق عيناه، بل وتفيض بالدموع، وهو يفارق أناس عاش معهم ورعاهم وتنسم أنفاسهم وأحب صورهم؟

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣١٦، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٨٦.

لا شك أنها مشاعر انسانية خالصة اقتضاها حبه لمن سيفارقهم، ولم يكن مبعثها خوفه على حياته هو خاصة.

ولا شك أن دموع الحسين عليه السلام وقوله لها: لو ترك القطا لنام، هي التي فجرت مشاعرها إلى أقصى حد، حتى لطمت وجهها وخرت مغشيا عليها وقد صب الحسين عليه السلام الماء بعد ذلك على وجهها وأيقظها من اغماءتها، وقد استنفذت وامتصت صورة العاطفة الأولى والحزن الأول، ثم بعد أن هدأت، وبدأت تفكر بالواقع الذي كانت على وشك أن تواجهه، بدأت هنا مرحلة أخرى، وهي مرحلة الاستعداد بشكل واقعي لتقبل فكرة قتله وبقيائها راعية وحيدة للنساء والأطفال.

وكان ذلك هو الوقت المناسب لكي تنفّس عن مشاعر الحزن الطافحة في ذلك الوقت المبكر، بدل أن تتملكها في وقت متأخر، وقد تفقد السيطرة عندها على الجمع المحزون المكروب من النساء والأطفال وقد يلحقهم من ذلك ضرر أكثر من الذي لحقهم، إذ قد لا تستطيع في غمرة الحزن أن تتصدى لأعدائها وتحفظ النساء والأطفال وتمنع أعداء الامام زين العابدين عليه السلام من النيل منه أو الحاق الأذى به، وهي مهمة كبيرة وخطيرة بلا شك، تدرك زينب خطرها وأهميتها بشكل واضح، بحكم قربها واطلاعها على مجريات الأمور في بيتها ومعرفتها من آلت إليه الامامة بعد الحسين عليه السلام.

ولعل مهمة الحفاظ على حياته لا تبدو مهمة للبعض بقدر ما بدت لزينب وهي تعلم حقا أنه الامام المرتقب وأنه أمل هذه الأمة المظلومة المضطهدة.

حزنت على الحسين أكثر من حزنها على ابنها الذي استشهد في المعركة

لقد تحملت زينب عبء المحافظة على الجمع المتبقي بعد تلك المذبحة، وكان لا بد لها أن تنفذ وصايا الامام الحسين عليه السلام، والا لكانت الخسارة أبلغ... ولم يكن تحمل ذلك

مما تقدر عليه المرأة العادية ذات الرقة والجزع، مع أن أبلغ المشاعر الانسانية الحساسة والرقة والعطف كانت تجيش بين جنبي تلك المرأة العظيمة.

ولنتصور موقفها أمام نساء فقدن أبناءهن وأزواجهن واخوتهن وأطفال فقدوا آباءهم واخوتهم، كما أنها هي نفسها في خضم خسارتها الكبيرة لأخيها الحسين (عليه السلام) وولديها واخوتها الآخرين وأبناء اخوتها.. وقد قامت تتحمل كل ذلك وتكبت مشاعرها وتغالب حزنها ودموعها لتدير شؤون ذلك الحشد من الأطفال المروعين والنساء المروعيات الحزينات وتخفف عنهم آلام المصيبة، ومتاعب الأسر والسفر ووعثاء الطريق وغلظة المرافقين، لنستطيع بالتالي تقدير المهمة الكبيرة التي قامت بها، اضافة إلى مهمتها الأخرى في استمرار عرض قضية الحسين (عليه السلام) أمام الرأي العام كقضية إسلامية كبيرة تستهدف خلاص جميع المسلمين من ربقة الحكم الأموي الجائر وأغلاله، من خلال خطبها وحواراتها ومواقفها.

وهنا نشير إلى موقف جدير بالتأمل، فقد قتل أحد أولادها (عون بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب) في المعركة، وهو الشاب الذي حمل رسالة أبيه عبد الله بن جعفر مع أخيه محمد (لأبيه)، والتحق به فقتلا كلاهما، وكان حريا بعاطفة الأمومة أن تثير أحزان الأم المتجوعة على ولدها ليكون حزنها عليه أكثر من أي حزن آخر، ومع ذلك فان حزنها على الحسين (عليه السلام) فاق كل حزن آخر، وقد علمت مبلغ الخسارة التي منيت بها الأمة كلها بفقده، اذ أقدمت على قتله بتلك الطريقة المنكرة.

وحيدة إلى جنب الحسين الوحيد.. أهوال وآلام

ولنا ان نتصور زينب وهي ترى أصحاب أخيها يقتلون الواحد بعد الآخر بين يديه، ويتناقص عددهم بتلك السرعة المذهلة، ليظل وحده آخر الأمر بمواجهة أعدائه

الحاقدين المتعطشين لدمه، كان الأمر فوق طاقة امرأة عزلاء تتحمل مسؤولية قافلة كاملة من النساء والأطفال المذعورين الخائفين.

فهل بلغ الأمر بهذه الأمة أن تقدم على قتل ابن بنت نبيها ﷺ وأكرم مخلوق على هذه الأرض بنفس البساطة التي تقدم فيها على مقاومة أعداء الإسلام؟

بأية جريرة يؤاخذ الحسين ﷺ فيقتل ويمثل بجثته ويقطع رأسه؟

هل أن هذه الأمة لا ترى ما يراه حقا؟ وهل اقنعت بصواب نهج أعدائه حتى تقدم على تنفيذ أوامرهم؟ أم أنها قد تخلت عن الإسلام ومبادئه الحقيقية، ولا تعرف عنه إلا الصورة التي قدمها أعداؤه وعرضوها له؟

ان تقدم الأمة على قتل الحسين ﷺ بكل تلك الجرأة، يعني استعدادها لقتل الرسول ﷺ نفسه لو واجهها وواجه حكامها وفراعتها بنفس تلك الجرأة.

آية قيمة لأقوال الرسول ﷺ والقرآن الكريم لدى أولئك القوم، وهم يخالفونها علانية وبإصرار مسبق وعناد مبيت؟ كيف يتسنى لزينب دفع الأذى والقتل عن الحسين ﷺ.

وآية طاقة تمت لو أنها امتلكتها لتقوم بذلك؟

كان مشهد الحسين ﷺ وهو يقارع أعداءه وحيدا بعد أن قتل أصحابه، وبعد أن أئخن بالجراح مشهدا لا يمكن احتماله «شد عليه رجالة ممن عن يمينه وشماله، فحمل على من عن يمينه حتى ابذعروا، وعلى من عن شماله حتى ابذعروا... كانت الرجالة لتتكشف عن يمينه وشماله.. وهو يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع، يتقي الرمية، ويفترص العورة، ويشد على الخيل.. فحمل عليه من كل جانب، فضربت كفه اليسرى ضربة.. وضرب على عاتقه.. وحمل عليه في تلك الحال سنان بن أنس النخعي فطعنه

بالرمح فوق... وقد ضرب قبل ذلك بالسيوف»^(١).

أي هول كانت ترى زينب وأية آلام هائلة كانت تعاني؟ فمشهد الامام الوحيد الجريح وهو يغالب حشد الأعداء ويقاومهم ويقف بوجوههم بذلك الصبر والثبات، يتقي سيوفهم ورماحهم ونبالهم ويشد على فرسانهم وهو يقاتل على رجله، ثم يتلقى بعد ذلك عشرات من الطعنات الغادرة، كان فوق طاقتها حتى وان كانت هي زينب بنت أمير المؤمنين عليها السلام فهل ملك رسول الله ﷺ نفسه دموعه وهو يرى ما سيجري على ولده في كربلاء، حتى تملكها زينب فلا تفيض، ولا تنطلق محاولة انقاذ أخيها واستنهاض ما مات من غيرة وشهامة في نفوس أولئك الذين ادعوا أنهم من محبي وموالي رسول الله ﷺ؟

كان الحسين عليه السلام في تلك الحال «اذ خرجت زينب.. وهي تقول: ليت السماء تطابقت على الأرض.. واأخاه، وا سيده، وا أهل بيته.

وقد دنا عمر بن سعد من الحسين، فقالت: يا عمر بن سعد، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر اليه، فدمعت عيناه وهي تسيل على خده ولحيته. وصرف بوجهه عنها، ولم يجيبها بشيء فنادت: ويلكم أما فيكم مسلم، فلم يجيبها أحد بشيء»^(٢).

كانت تلك المرأة الجليلة تواجه أعداء أخيها عليها السلام وأعداء الإسلام بكل صلابة وثبات، ولم يفقدها حزنها النبيل على أخيها رباطة جأشها. ولم تعدم الكلام المناسب الذي تعبر به عن حزنها أو الذي تخاطب به أعداءها.

ولم ينس أحد ممن حضر تلك الواقعة مجيئها إلى جسد أخيها الحسين عليه السلام وقد بسطت

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٤٤.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٤٤، وسير الأئمة عليهم السلام السيد محسن الأمين - دار التعارف/ بيروت: ج ٢،

يديها تحته وكأنها ترفعه نحو السماء، وقولها في مناجاة حميمة صادقة مع الله «اللهم تقبل منا هذا القربان»^(١).

وكان جسد الحسين عليه السلام هو القربان المقدس الذي أراد تقديمه ليفدي به الأمة كلها، حتى أولئك الذين استخدمهم أعداؤه لقتله وأذاه، ولم يكن مغزى تضحية الحسين عليه السلام ليغيب عن بال زينب، وقد علمت هدفه من وراء تلك المسيرة الملحمية وذلك الموقف الفريد، وأدركت أن ذلك لن يضيع، وأن تلك الدماء التي أريقَت في كربلاء سيكون لها شأن كبير في الأرض ولدى المسلمين كافة، كما هو شأنها، في السماء، وإن الله سيقبلها قبولاً حسناً، وأنه سيجزي عليها أحسن الجزاء وأفضل الجزاء.

بعد الطف: «ويلكم يا أهل الكوفة أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم»

أقام ابن سعد في كربلاء «يومه ذلك والغد، ثم أمر حميد بن بكير الأحمري فأذن في الناس بالرحيل إلى الكوفة، وحمل معه بنات الحسين وأخواته ومن كان معه من الصبيان، وعلي بن الحسين مريض»^(٢).

ولنا أن تصور حال النسوة المفجوعات وقد أصبن بتلك الخسارة الكبيرة، وهن يتركن أولياءهن واعزاءهن في أرض المعركة رهن البلى والدمار بعد أن قطعت رؤوسهم وسير بها إلى ابن زياد اعلاناً ببشرى (انتصاره) في تلك المجزرة.

وكان بإمكان ابن سعد أن لا يلجأ إلى ما لجأ إليه من قطع الرؤوس والتمثيل بالجثث - وهو أمر لم يكن مألوفاً في ظل الإسلام - ولم يكن يسيغه أو يقبله العرب حتى في جاهليتهم، لو كان ذا ارادة حرة وموقف يتيح له التصرف بوعي بعيداً عن التبعية

(١) مقتل الحسين: السيد محمد تقي آل بحر العلوم: ص ٢٨٧.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٦.

الذليلة لابن زياد الذي طلب منه ما طلب، وكان بإمكانه أن يعتذر عن المضي بما فعله من قطع الرؤوس والتمثيل بالجثث إلى النهاية بقوله: حسنا.. لقد قتلت الحسين وأصحابه امتثالا لأوامرك ولأنك ترى أن هذا أمر ضروري للحفاظ على سلامة الدولة، وهذا هو المهم في الأمر كله، وقد أدت مهمتي ولم أدع منهم أحدا، أما قطع الرؤوس والتمثيل بالجثث، فلك أن تكلف أحدا غيري يقوم بذلك، اذ لا يليق بي كقائد انضم تحت لوائه أكثر من ثلاثين ألف مقاتل أن يقوم بذلك.

غير أن ابن سعد ربما كان حاقدا على الحسين فقد ابن زياد عليه، ولعله لم يجد في نفسه الجرأة على مخالفة أوامره وتعليقاته بخصوص قطع الرؤوس والتمثيل بالجثث، وقد أثبت بذلك، كما أثبت الجيش المشارك بالجريمة كله حقه على الحسين وتلفه على الحاق الأذى به لأقصى حد ممكن، كما أثبت موقفه وموقف رجاله من نساء الحسين وأطفاله مدى ذلك الحقد الذي كانوا يضمرونه له، فقد كان بإمكانهم أيضا أن لا يتعرضوا لهن بالسلب والاهانة والأذى كما فعلوا بعد ذلك، وبعد مصرع الحسين مباشرة، فقد «مال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه، فان كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها»^(١).

أية مهانة أشد من تلك التي عوملت بها تلك النسوة المغلوبات الضعيفات بعد الفاجعة، وقد أخذن بتلك الصورة يستعرضن أمام انظار أولئك المسعورين الحقودين الذين نفذوا مجزرة قتل الحسين وأصحابه؟

كيف قضين ذلك اليوم والذي بعده، وقد بقين في العراء أمام جنود ابن سعد؟ وكيف كانت رحلة العودة من كربلاء إلى الكوفة ودخولهن إليها بذلك الشكل المحزن، وقد تركز أجساد الحسين وأصحابه عليه السلام وراءهن بتلك الحال؟

لا شك ان ما شعرن به لا يمكن لأحد وصفه، فأى شيء من تلك الحال يمكن وصفه؟

أما وصولهن إلى الكوفة -التي كن معززات مصونات فيها، أيام أمير المؤمنين (ع)- فقد كان يثير مزيجاً من مشاعر الألم والحزن والقلق مما ستمخض عنه تلك المعاملة اللئيمة من نتائج أكثر ايلاماً وحزناً.

هكذا دخلن الكوفة اذا، دون ان يقدم أحد ممن سلبهن ملابسهن ومتاعهن على ارجاعه اليهن رغم ما ذكر لنا عن طلب ابن سعد منهم ذلك، فقد ذكر أنه قال: «ألا يدخلن بيت هؤلاء النسوة أحد. ومن أخذ من متاعهم شيئاً فليرده عليهم، فوالله ما رد أحد شيئاً»^(١)، ولو ان محاولاته كانت جادة وصادقة لاستطاع ايقاف هياجهم المسعور.

كانت الكوفة تترقب نتيجة المعركة، وان بدت لها تلك النتيجة متوقعة على ضوء ما رآته من استعدادات ابن زياد وتحشيد عشرات الآلاف من الرجال لمقاتلة الحسين (ع) والقضاء عليه، وربما كانت أخبار القتال والاستعدادات له تصل إليها في كل ساعة، وربما كانت تستعد لاستقبال رأس الحسين (ع) ورؤوس أصحابه وتستعد لاستعراض عياله ونسائه.

وكان الناس ما بين فرح مستبشر بهذه النتيجة ومتألم حزين لها، وحتى الذي كان يضمّر الحب له ويتمنى له الغلبة على عدوه ابن زياد، كان يريد أن يتم ذلك النصر بارادة إلهية علياً، وأن ينزل جاهزاً دون أن يكون لأحد يد أو مشاركة فيه.

وهكذا جاء الموكب الحزين، وبدا للناس كأنه موكب من سبايا الروم أو الديلم أو الفرس، لا موكب عائلة الرسول (صلى الله عليه وآله)، الذي كان ينبغي أن يقابل بالتجلة والاكرام، لا

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٥.

بهذه المهانة المخزية، وقد جمعت لمن إحدى النساء مجموعة من الملاء والازر والمقانع.

وكان حريا بأهل الكوفة ألا يخرجوا إلى الطرقات وهم يعلمون أن من سيستعرضونهم هم آل الحسين وعيالات آل أبي طالب، وقد أضافوا بخروجهم ذاك موقفا مخزيا جديدا إلى مواقفهم المخزية السابقة عندما تخلوا عن مسلم ووقفوا في صف قتلة الحسين عليه السلام.

ومن الطريف أن نذكر أنهم كانوا يكونون ويزدرفون الدموع عندما كان المركب يمر من أمامهم، وقد لفتت هذه الظاهرة زينب فاستغلت مرورها بتجمع كبير منهم، فأومأت اليهم أن اسكتوا ثم قالت: «الحمد لله والصلاة على محمد وآله الطاهرين.

أما بعد، يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والعذر، أتبكون! فلا رقأت الدمعة ولا قطعت الرنة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها انكاثا، تتخذون إيمانكم دخلا بينكم، وهل فيكم إلا الصلف النطف والصدر الشنف «إلا الصلف والعجب والشف والكذب»، وملق الاماء وغمز الأعداء، أو كمرعى على دمنة أو كفضة على ملحودة. ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم، ان سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون^(١).

أتبكون وتنتحبون! أي والله، فابكوا كثيرا، واضحكوا قليلا، فلقد ذهبتكم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبدا، وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، وسيد شباب أهل الجنة، وملاذ حيرتكم، ومفزع نازلتكم، ومنار حجتكم (محجتكم) ومدرّة سنتكم، ألا ساء ما تزرّون، وبعدا لكم وسحقا، فلقد خاب السعي، وتبت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة، ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم (فرثتم)، وأي

(١) إشارة لقوله تعالى في سورة المائدة الآية ٨٠ ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

كريمة له أبرزتم؟ وأي دم له سفكتم؟ وأي حرمة له انتهكتم؟ لقد جئتم بها صلعاء عنقاء سوداء فقهاء، نأناء (خرقاء) شوهاء، كطلاع الأرض، أو ملء السماء. أفعجبتكم أن مطرت السماء دما، فلعذاب الآخرة أخزى، وأنتم لا تنصرون^(١)، فلا يستخفكم المهمل، فانه لا يخفره البدار، ولا يخاف فوت الثار، وان ربكم لبالمرصاد^(٢).

وقد روى خزيم بن بشر الأسدي، وهو أحد من حضر ذلك التجمع واستمع لخطبة زينب، قال: «فوالله، لقد رأيت الناس يومئذ حيارى يبكون، وقد وضعوا أيديهم في أفواههم، ورأيت شيخا واقفا إلى جنبي يبكي، حتى اخضلت لحيته وهو يقول: بأبي أنتم وأمي، كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب ونساؤكم خير النساء، ونسلكم خير نسل، لا يخزى، ولا يیزی^(٣)».

كان من شأن هذه الخطبة أن تثير في الناس فورة عاطفة يدركون معها أنهم قد أخطؤوا خطأ كبيرا بحق الحسين عليه السلام وبحق رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، ولعلمهم بعد انتهاء تلك المواجهة العاصفة سيعملون على تقييم الأوضاع والنظر إليها مجددا وتحديد مواقفهم على ضوء رؤية جديدة متأملة.

فقد أدركوا ان الحسين عليه السلام يحمل قضيتهم جميعا وأنه كان يدافع عنهم ويريد عودتهم إلى خط رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام بعيدا عن خطوط الانحراف المتشابكة المتلوية التي تركتهم في حيرة واضطراب شديدين، وقد أدركوا أن هذا الركب الحزين الباكي، ولكن المتماسك السائر بقوة وارادة الإسلام.. كان أقوى من جمعهم الهش المشتت، وأنهم كانوا عرضة للشر والأذى والعدوان، بعد أن لم تتورع دولة الظلم عن الحاق

(١) اشارة لقوله تعالى في سورة فصلت آية ١٦. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾.

(٢) سيرة الأئمة عليهم السلام - السيد محسن الأمين: ج ٢ ص ١٤٢-١٤٣.

(٣) سيرة الأئمة عليهم السلام - السيد محسن الأمين: ج ٢ ص ١٤٣.

الأذى بأكبر شخصية من المسلمين وهو الحسين عليه السلام، وأنها لن ترى حرمة لأي أحد منهم طالما أنها أقدمت على استباحة حرمة.

وهنا تبدو لنا مهمة زينب أبعد من مجرد المحافظة على النساء والأطفال وإيصالهم إلى المدينة سالمين، وكانت تلك القافلة تبدو قافلة اعلامية تقوم بتعبئة الرأي العام ضد يزيد والحكم الأموي الجائر... وكان يبدو أنها تنجح في مهمتها إلى أبعد حد.

في مجلس ابن زياد: «الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وطهرنا تطهيراً»

وكان موقف زينب أمام ابن زياد في مجلسه وفي غمرة الاحتفالات التي أقامها بهذه المناسبة، موقفاً قويا لم يستطع عنده إلا أن يصفها بالشجاعة والسجاعة وقول الشعر بعد أن أفحمته وأسكتته اثر نقاش حاد بينهما أثاره هو بعنجهية متوقعا منها أن تتخاذل وتطلب منه العفو والرحمة والصفح، وقد تكلمنا عن هذا الموقف في معرض الحديث عن ابن زياد.

«لما دخل برأس الحسين وصبياناه وأخواته ونسائه على عبيد الله بن زياد، لبست زينب ابنة فاطمة أرذل ثيابها، وتنكرت، وحفت بها اماؤها.

فلما دخلت جلست. فقال عبيد الله بن زياد: من هذه الجالسة؟ فلم تكلمه.

فقال ذلك ثلاثا، كل ذلك لا تكلمه.

فقال بعض امائها: هذه زينب ابنة فاطمة.

فقال لها: الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم وأكذب أحدوئثكم!

فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد عليه السلام وطهرنا تطهيراً، لا كما تقول أنت، انما يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر.

قال: فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟

قالت: كتب عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاجون اليه، وتخاصمون عنده. فغضب ابن زياد واستشاط. فقال له عمر بن حريث: أصلح الله الأمير، انما هي امرأة، وهل تؤاخذ المرأة بشيء من منطقها؟ انها لا تؤاخذ بقول، ولا تلام على خطأ. فقال لها ابن زياد: قد أشفى الله نفسي من طاغيتك، والعصاة المردة من أهل بيتك، فبكت، ثم قالت: لعمرى قد قتلت كهلي، وأبرت أهلي، وقطعت فرعى، واجتشت أصلي، فان يشفك هذا فقد اشتفيت.

فقال لها عبيد الله: هذه شجاعة، قد لعمرى كان أبوك شاعرا شجاعا.

قالت: ما للمرأة والشجاعة. ان لي عن الشجاعة لشغلا، ولكن نفثي ما أقول..^(١).

لقد حسب ابن زياد أن تلك المرأة في غمرة مصيبتها وألمها لن تقدر الا على النوح والبكاء على فقيدها واستعطافه ولا شيء غير ذلك، غير أنه فوجئ أولا بأنفتها من الحديث معه، وقد حاول، تلافيا لشعوره بالضعة والنقص، الشماتة بها وعرض نفسه كصاحب قضية عادلة، أمكنه الله من عدوه، لأن هذا العدو (و هو الحسين) كان، كما كان جده ﷺ رمز أحدىثة لم تكن معهودة عند العرب من قبل، وان شخصيته ومكانته

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٧، والمجلسي: ج ٤٥ ص ١١٥ - ١١٦، والارشاد: ص ٢٥٩ واللهوف: ص ٦٧. مع اختلافات بسيطة ورد في بعضها أن ابن زياد قال لها: «هذي سجاعة، ولعمرى لقد كان أبوك شاعرا سجاعا»، قالت زينب.. «يا ابن زياد، وما للمرأة والسجاعة، وان لي عن السجاعة لشغلا.. ولكن صدري نفث بها قلت». ولا يخفى ما في تعريض ابن زياد بشخصية الامام امير المؤمنين ﷺ بوصفه اياه بالشاعر السجاع. ويعيد ذلك الى الازهان وصف قريش للنبي الاكرم ﷺ بأنه شاعر وساحر ومجنون وغير ذلك من الاوصاف التي يراد منها التهوين من شخصيته ﷺ ورسالته العظيمة التي لم تستوعبها او تؤمن بها .

وقرأته وامامته ربما لم تكن سوى أسطورة كما كانت شخصية جده ﷺ ومكانته ونبوته بنظر اسلافه، وهو منطق دل على استهانة ابن زياد برسول الله ﷺ وعدم إيمانه برسالته، وكان يريد بذلك تبرير عداء آل أمية للإسلام ووقوف معاوية بوجه أمير المؤمنين ﷺ وابرازه كأنه هو الذي خرج عليه، وأن الحسين هو الذي خرج على يزيد.

كان يريد الغاء مبررات قيام الحسين ﷺ بثورته بوجه الدولة الأموية ورمزها يزيد وأنها لم تكن سوى ادعاءات ليس لها أساس من الصحة، وكان ذلك هو كل ما استطاع أن يقوله، فقد كان هاجس الدولة كلها أن تبقى حية صامدة بوجه كل محاولة للنيل منها، وقد أرادت محو كل ما أرادت القيادة الشرعية المتمثلة برسول الله ﷺ، تثبيته في أذهان أبناء الأمة، ليتسنى لها تنفيذ مخططاتها الكبير لخرق الإسلام والخروج عليه، بل ومحوه دون أن تلقى معارضة واحتجاجات من أي فرد منها.

وكان جواب زينب مفحما مسكتا، لم يملك له ابن زياد ردا أو اجابة، لقد ذكرته بأولئك الذين كان يتحدث عنهم بتلك الاستهانة، فهم آل البيت الذين أكرمهم الله بمحمد ﷺ، وأنهم المطهرون الذين أذهب الله عنهم الرجس بشهادة من الله وارده منه، وفي هذا كفاية لهم، لا كما يدعي ابن زياد الفاسق الفاجر، هو وأميره يزيد. فاذا ما كان لأحد أن يفتضح بفعله وتصرفه، فهو من كان على شاكلتهما ومن أمثالهما.

وقد عاود ابن زياد هنا عبثه ونزعته اللئيمة للشر والعدوان، بعد أن لم يستطع الرد عليها فأبدى شهادته بموت الحسين وأصحابه، وكأن الذي قتلهم غيره، وأبدى فرحه بما تحقق في كربلاء واصفا الحسين ﷺ بالطاغية وآله بالعصاة المردة.

وقد قالت له زينب انهم سيجتمعون به يوم القيامة، فيتحاجون إلى الله ويتخاصمون عنده، مرد الأمر هنا اذا إلى الله، والقضية عادلة واضحة لا لبس فيها، وخروجهم هم

على الحسين وتمردهم عليه وقيامهم بقتله أمر سيبت الله بشأنه يوم الحساب وهو العادل الحكيم.

الغضب والشماتة بمواجهة الصمود والشجاعة

حسب ابن زياد أنه سيجد أمامه امرأة باكية متخاذلة ذليلة، فوجد نفسه بمواجهة امرأة صامدة متماسكة واعية أفحمته وأسكتته، فلم يكن أمامه بعد ذلك، وبعد هزيمته أمامها إلا أن يغضب، بل ويستشيط غضبا ويلجأ إلى ما عرف عنه من بذاءة المنطق والأسلوب، ويبيدي شئاته وسعاداته بموت الحسين عليه السلام وقلته بتلك الطريقة، ويقوم بشتمه ويصف أصحابه وأهل بيته بأنهم عصاة مردة.

لقد تهادى الطاغية في شتائمه وتطاوله على الحسين وأصحابه، وهو في موضع حسب نفسه فيه قويا مقتدرا يحف به أعوانه وجلالوته، حتى لقد أحزن ذلك زينب.

لم تكن زينب تريد أن يتهادى ابن زياد في شتائمه وبذاءاته وتهديداته وامعانه في ترويع النساء والأطفال. ولعلها رأت من سخرية الأقدار، أن يقدم هذا العبد الذليل، وقد وضع نفسه في موضع الكبرياء والعزة والقوة الزائفة المصطنعة، على سب سيد شباب أهل الجنة وسيد أهل الأرض، وكان ذلك من الأمور التي تدعو للبكاء حقا، وقد أوضحت له كم كان جبانا وقاسيا حينما أقدم على قتل آله وذوئها، ثم قام بسبهم وأظهر شئاته وتشفيه أمامها.

ولم يملك ابن زياد إلا أن يسكت ويتراجع، ربما تحت وطأة خجل طارئ من جلسائه، وأراد أن يرير تراجع بقله أنها شجاعة (شاعرة) (سجاعة) كأبيها الذي كان (شاعرا شجاعا)، هكذا أراد أن يصور أمير المؤمنين عليه السلام مبررا استهائته به، وكأن أمير المؤمنين كان أحد شجعان العرب وشعرائهم، وقد وصفه كما وصف مشركو قريش

رسول الله ﷺ تماما واتهموه بأنه شاعر، فهل ان لرسول الله ﷺ قداسة في نفوس أولئك الذين أقدموا على حربه وحرب آله حتى يمتنعوا عن وصفه بما وصفوه به، وحتى يلجؤوا إلى وصف أمير المؤمنين (عليه السلام) بما وصفه به ابن زياد..؟

ان من لجؤوا إلى سبه من على منابر المسلمين لم يتورعوا عن وصفه بصفات عادية تتاح للعاديين من الناس ولا تكاد تميزهم عن الآخرين الا بمواهب يتمتع بها غيرهم أيضا ولا تكاد تجعل منهم شيئا نادرا فريدا.

كانوا يريدون أن يقولوا إنه لم يكن يملك صفة جيدة سوى الشجاعة، وهذا ما كان يضع الدولة الأموية وقائدها معاوية بموقف جيد، لأنه استطاع التصدي لهذا الشجاع، والوقوف بوجهه والصمود أمام بيانه وحججه المفحمة وخطاباته، ووصفها بأنها مجرد شعر أو سجع.

ربما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) أبياتا من الشعر وقد نسبت اليه أبيات في الحكمة والحث على طاعة الله والتمسك به، غير أنه لم يشتهر بأنه شاعر، وأن مواهبه انصبت في قول الشعر وحسب، كما أنه عرف ببيانه الفريد الذي ارتفع به عن كل بيان بشري آخر، وقد رأينا نماذج له في (نهج البلاغة) الذي جمعه الشريف الرضي.

غير أن ما اشتهر به أمير المؤمنين (عليه السلام) حقا هو ولاؤه وحبه لله ورسوله ﷺ وتمسكه بهما والدفاع عن الإسلام، وكان دفاعه هو الذي سبب عداوة الأعداء ووقوفهم منه ذلك الموقف المتجني، وما نرى ابن زياد، عندما وصفه بالشجاعة والشعر، الا أراد به نوعا من الشتيمة أو الاهانة أراد توجيهها له، أمام جلسائه وأمام زينب ابنته.

دفاع عن زين العابدين

واذ لم يستطع ابن زياد الصمود أمام زينب، انقلب إلى زين العابدين، الفتى المريض

المنهك، الذي نالت منه الفاجعة أكثر مما نالت منه علة المرض، وقد حسب أن هذا الفتى سيتخاذل ويضعف أمامه، غير أن الحوار معه كشف له عن معدنه الصلب وقوته في مواجهة أباطيله ومزاعمه وتبجحاته.. وقد جعله ذلك يستشيط غضبا في نهاية الأمر ويأمر بأن يقتل.. غير أن زينب تصدت له مرة أخرى وقالت له مؤنبه: «يا بن زياد، حسبك منا. أما رويت من دمائنا؟ وهل أبقيت منا أحدا؟ أسألك بالله ان كنت مؤمنا ان قتلتها لما قتلتني معه»^(١).

وكانت لفظة بارعة من الامام زين العابدين عليه السلام أن دق على وتر حساس في نفس ابن زياد وهي رغبته في تأكيد انتمائه لأبي سفيان وبني عبد مناف، مع أننا لا نلمس في كلامه أنه كان يعترف لابن زياد بهذا النسب، وإنما يقدمه كأمر يرغب ابن زياد في تأكيده لا غير، قال له: «يا بن زياد، ان كانت بينك وبينهن قرابة، فابعث معهن رجلا تقيا يصحبهن بصحبة الإسلام»^(٢)، وكان بذلك يضعه في موقف حرج دقيق لو أقدم على قتله، وهو ما كان راغبا فيه، غير أنه بنفس الوقت كان راغبا بتأكيد تلك القرابة، ولو أنه قتله لفسح بذلك المجال لجلسائه وغيرهم بعد أن تنتشر الفضيحة وتعم، للهمس والحديث واعادة قصة استلحاق أبيه زياد بأبي سفيان بدعوى أن أمه سمية حملت به سفاحا منه وأن ذلك كان أمرا مشروعا، لأنه وقع في زمن الجاهلية، مع أن رسول الله صلوات الله عليه وآله قد رفض ذلك صراحة، وقد تحدثنا عن هذا الأمر بأسهاب عند استعراض شخصية زياد.

وقد حاول تدارك أمره وأبدى عجزه من تعلق هذه المرأة بابن أخيها وحرصها على أن تموت معه واستماتتها في الدفاع عنه، ولم ير نفسه ملزما بإحداث فضيحة أخرى -ولو

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٧.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٧.

أن ذلك كان يسر يزيد - بقتلها وقتل الامام زين العابدين، وحاول التخلص من ذلك الموقف المحرج الذي وجد نفسه فيه، وقال أمام جلسائه: «عجبا للرحم، والله اني لأظنها ودت لو أني قتلته، أني قتلتها معه.. انطلق إلى نسائك»^(١).

وهكذا نجحت في هذه المهمة الصعبة أيضا رغم أنف ابن زياد، ورغم عنجهيته وكبريائه المفرطة في ذلك الموقف الذي حسب نفسه فيه منتصرا، وجعلته يتراجع عن محاولة قتل الامام زين العابدين عليه السلام أو قتلها هي، رغم أن ذلك أمرا كان محتملا في ذلك الحين.

من سجن الكوفة إلى الشام، على أخشن مركب

وضع ابن زياد الأسارى من آل الرسول صلى الله عليه وآله في سجن - لعله كان قريبا من القصر - ينتظر أوامر يزيد بشأنهم.. وكانوا - كما تدل رواية الطبري عن عوانة بن الحكم الكلبي - يتوقعون أن يقدم على قتلهم أثناء مكوثهم في السجن.

يقول عوانة بن الحكم الكلبي: «لما قتل الحسين وجيء بالأنفال والأسارى حتى وردوا بهم الكوفة إلى عبيد الله، فبينما القوم محتبسون اذ وقع حجر في السجن، معه كتاب مربوط، وفي الكتاب: «... خرج البريد بأمركم في يوم كذا وكذا إلى يزيد بن معاوية، وهو سائر كذا وكذا يوما، وراجع في كذا وكذا، فان سمعتم التكبير، فأيقنوا بالقتل، وان لم تسمعوا تكبيرا هو الأمان ان شاء الله...».

فلما كان قبل قدوم البريد بيومين أو ثلاثة، اذا حجر قد ألقى في السجن، ومعه كتاب مربوط وموسى، وفي الكتاب: «أوصوا واعهدوا، فانما ينتظر البريد يوم كذا وكذا،

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٧.

فجاء البريد ولم يسمع التكبير، وجاء كتاب بأن سرح الأسارى إلى...»^(١).

كان ترقب القتل عامل قلق كبير، ولعله كان شكلا من أشكال الموت البطيء، فأية قيم عليا وأية موانع تمنع يزيد من اصدار أوامره بالاجهاز عليهم داخل ذلك السجن بعد أن أقدم على جريمته الكبرى بقتل الحسين عليه السلام وأصحابه..؟

غير أن تلك الفترة مرت بكل معاناتها وآلامها، وصدرت أوامر يزيد بأن يؤخذوا اليه، وترك أمر ترتيب ذلك لابن زياد الذي كان يحمل شحنة من الحقد كفيفة بأن تجعله يرتب لهم أخشن مركب في سفرهم الطويل إلى الشام.. ويرسل معهم من عرف بعداوته الشديدة لهم.

«دعا عبيد الله بن زياد مخفر بن ثعلبة وشمر بن ذي الجوشن»^(٢) على رأس فريق ضم زحر بن قيس وأبا بردة بن عوف الأزدي وطارق بن أبي ظبيان^(٣)، وجماعة من أهل الكوفة ممن عرفوا بعداوتهم للحسين عليه السلام، وأمرهم بحمل النساء والرؤوس إلى الشام بشكل احتفالي يعرضون فيه أمام أهل المدن التي يمرون بها وكأنهم بقايا جيش نصب العداوة للإسلام وتعرض للمسلمين بالأذى والشر، وكانت الحملة المظلمة تستهدف تميع قضية الحسين كلها وعرضها كأمر استهدف النيل من وحدة المسلمين وأمنهم في ظل الدولة الأموية وقائدها يزيد. ومتى ما علمنا أن جماهير الشام المضللة كانت تتقبل كل أمر تعرضه عليها الدولة كأنه حقيقة من الحقائق ولا تناقش بشأنه؛ لأنها كانت نتيجة تربية معاوية واعداده، فإن الخطط الأموية ظلت تكرر على تلك الجماهير التي رأت أن تمثل الإسلام الأوحاد كان هو رأس الدولة نفسه، ولم تشغل نفسها بالفحص عن

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٤٠، والأغاني: ج ٤ ص ١٥٠.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٤٠.

(٣) البحار: ج ٤٥ ص ١٢٤-١٢٥.

سلوكه الشاذ عن الإسلام وممارساته البعيدة عنه.

وقد روي أن أهل بعلبك -وكتيجة لأوامر أصدرها اليهم والي المدينة الأموي- نشروا الرايات قبيل مقدم موكب السبايا إليها في طريقه إلى دمشق «وخرج الصبيان يتلقونهم على نحو من ستة أميال».. وقد آلم ذلك الامام زين العابدين عليه السلام ونساء الموكب^(١).

استهداف بالأذى

وكان تنظيم الموكب يستهدف وضع النساء أمام أنظار المستعرضين من النظارة والمشاهدين، وإذا إن رفع الرؤوس على الرماح كان أمرا غير مألوف، اذ لم يعتمد اليه أي حاكم قبل ذلك، فان الأنظار كانت تتجه لهذا المشهد الغريب، وقد رأى منظمو الموكب أن يسير حاملو الرؤوس بين محامل النساء ليجعلوا الأنظار تتجه اليهن أيضا، فلا تشغل بمشاهدة الرؤوس وحدها اذا ما أفردت في مقدمة الموكب أو في مؤخرته.

وقد بذلت مساع مع شمر قبيل الوصول إلى دمشق للتخلي عن هذه الخطة التي تستهدف الحاق أكبر قدر من الاذى بنساء آل الرسول عليه السلام، الا أنه أصر على تنظيم الموكب بذلك الشكل، وسلك بهم بين المارة على تلك الصفة حتى أتى بهم باب دمشق، فوقفوا على درج باب المسجد الجامع حيث يقام السبي^(٢).

وقد روي عن سهل بن سعد، وهو صحابي رأى الرسول عليه السلام، قوله: «خرجت إلى بيت المقدس حتى توسطت الشام، فاذا أنا بمدينة مطردة الأنهار كثيرة الأشجار، قد علقوا الستور والحجب والديباج، وهم فرحون مستبشرون، وعندهم نساء يلعبن

(١) البحار: ج ٤٥ ص ١٢٦.

(٢) البحار: ج ٤٥ ص ١٢٧.

بالدفوف والطبول... فقلت في نفسي: لا نرى لأهل الشام عيدا لا نعرفه نحن..؟

قالوا: هذا رأس الحسين يهدى من أرض العراق.

فقلت: واعجباه، يهدى رأس الحسين والناس يفرحون...!

فبينما أنا كذلك، حتى رأيت الرايات يتلو بعضها بعضا، فاذا نحن بفارس بيده لواء منزوع السنان عليه رأس من أشبه الناس وجها برسول الله ﷺ، ومن ورائه نسوة على جمال بغير وطاء^(١).

في مجلس يزيد «اني لأستصغر قدرك»

وقد حاول بعض أهل الشام ابداء فرحهم وسرورهم من حال أفراد الموكب الحزين الذي سيق من الكوفة إلى دمشق بتلك الحال المزرية، والذي تقدمه الامام زين العابدين عليه السلام وقد غلّت يده إلى عنقه بجامعة من الحديد.

ويبدو أن المشرفين على الموكب أرادوا ادخال السرور على قلب يزيد وقد علموا حرصه على الحاق الأذى ببقايا آل الرسول ﷺ، فعمدوا إلى ربط النساء بالحبال وطلبوا منهن حث المسير بين يديه «وكلما قصرُوا عن المشي، ضربوهم حتى أوقفوهم بين يدي يزيد وهو على سريره، فقال علي بن الحسين عليه السلام: ما ظنك برسول الله لو يرانا على هذا الحال؟ فبكى الحاضرون وأمر يزيد بالحبال، فقطعت»^(٢).

وكانت الأبيات التي رددها يزيد بحضورهم تدل على حقه الشديد على رسول الله ﷺ نفسه وعلي أمير المؤمنين عليه السلام.. كما أن ضربه الرأس الشريف بعود كان في يده يدل

(١) البحار: ج ٤٥ ص ١٢٨.

(٢) مقتل الحسين: للمقرم: ص ٣٥٠ عن الأنوار النعمانية ص ٣٤١، واللهوف: ص ١٠١، وتذكرة الخواص: ص ٤٩، والبحار: ج ٤٥ ص ١٣٢-١٣٣.

على رغبته الشديدة بالتعبير عن الحقد المختزن والموروث من آله الذين الحق بهم أمير المؤمنين (عليه السلام) ضربات ماحقة في صدر الإسلام وقتل العديدين من رجالهم.

ولسنا نعتقد أن رجالا من أضراب معاوية ويزيد أجبروا على اعتناق الإسلام والتظاهر به - خصوصا وأنهم أصبحوا بذلك بوضع يتيح لهم جني المكاسب الكبيرة - كانوا من رهاقة الحس والالتصاق بالإسلام وحب الله ورسوله (عليه السلام) بحيث يغفرون ما فعله أمير المؤمنين (عليه السلام) بهم ويتناسون كل تلك الضربات الموجعة التي أنزلها بالعديد من رجالهم البارزين ومنهم أعمام وأخوال له.

كان يزيد ينكت بقضيبي من خيزران ثنايا الحسين (عليه السلام) رغم تحذيرات الصحابي أبي برزة الأسلمي ويتمثل بأبيات ابن الزبعرى:

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جنز الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا طربا	ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم	و عدلناه ببدر فاعتدل
لست من خندف ان لم أنتقم	من بني أحمد ما كان فعل
لعبت هاشم بالملك فلا	خبر جاء ولا وحي نزل ^(١) .

وهي أبيات تدل على كرهه الشديد لمحمد وآله (عليهم السلام) وعلى انكار الرسالة جملة وتفصيلا.. عندما تصدت له زينب بنت علي بن أبي طالب، وقامت تلقي خطبة محذرة منددة جاء فيها: «الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله وآله أجمعين. صدق

(١) الأبيات الثلاثة الأولى لابن الزبعرى قالها في معركة أحد، وقد حسب المشركون أنهم تغلبوا على المسلمين وأضاف يزيد إليها الأبيات الأخرى، يراجع الخوارزمي: ج ٢ ص ٢٦٧، وشرح ابن أبي الحديد: ج ٣ ص ٣٨٣، وروضة الواعظين: ص ١٩١، واللهوف: ص ٧٥، والبداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٢٤، وأعلام النساء: ج ١ ص ٥٠٤، والبحار: ج ٤٥ ص ١٣٣ وغيرها من المصادر الأخرى.

الله كذلك يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاءُوا السُّوْأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١).. أظننت يا يزيد، حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا على الله هوانا وبك عليه كرامة؟! وأن ذلك لعظم خطر كعنده؟ فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسرورا، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا..؟

مهلا مهلا.. أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٢).

أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرك حرائرك واماءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا، قد هتكت ستورهن، وأبديت وجوههن، تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشر فهن أهل المناهل والمناقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والدني والشريف، ليس معهن من رجالهن ولي، ولا من حماتهن حمي؟ وكيف يرتجى مراقبة، من لفظ فوه أكباد الأزركاء، ونبت لحمه بدماء الشهداء؟ وكيف يستبطئ في بغضنا أهل البيت من نظر الينا بالشنف والشنآن والاحن والأضغان؟ ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم:

فأهلوا واستهلوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

متتحيا على ثنايا أبي عبد الله سيد شباب أهل الجنة، تنكتها بمخصرتك، وكيف لا تقول ذلك، وقد نكأت القرحة، واستأصلت الشأفة، بإراقتك دماء ذرية محمد ﷺ ونجوم الأرض، من آل عبد المطلب، وتهتف بأشياخك زعمت أنك تناديهم، فلتردن وشيكا موردهم، ولتودن أنك شللت وبكمت، ولم تكن قلت ما قلت، وفعلت ما فعلت.

(١) الروم: ١٠.

(٢) آل عمران: ١٧٨.

اللهم خذ بحقنا، وانتقم من ظالمنا، وأحلل غضبك بمن سفك دماءنا، وقتل حماتنا.

فو الله، ما فريت الا جلدك، ولا حزرت الا لحمك، ولتردن على رسول الله بما تحملت من سفك دماء ذريته، وانتهكت من حرمة في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم، ويلم شعثهم، ويأخذ بحقهم، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١)، حسبك بالله حاكما، وبمحمد خصيما، وبجبرئيل ظهيرا، وسيعلم من سوى لك، ومكّنك من رقاب المسلمين، بئس للظالمين بدلا، وأيكم شر مكانا وأضعف جندا.

ولئن جرت علي الدواهي مخاطبتك، اني لاستصغر قدرك، واستعظم تقريعتك، واستكبر توبيخك، لكن العيون عبرى، والصدور حرى. ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء، فهذه الايدي تنطق من دمائنا، والأفواه تتحلب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل، وتعفوها أمهات الفراعل. ولئن اتخذتنا مغنما لتجدنا وشيكا مغرما، حين لا تجد الا ما قدمت، وما ربك بظلام للعبيد. فالى الله المشتكى، وعليه المعول، فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحيانا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها. وهل رأيك الا فند، وأيامك الا عدد، وجمعك الا بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين، فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويوجب لهم المزيد، ويحسن علينا الخلافة، انه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل»^(٢).

(١) آل عمران: ١٦٩.

(٢) البحار: ج ٤٥ ص ١٣٣-١٣٥، وسير الأئمة: السيد الأمين: ج ٢ ص ١٥٠-١٥٢، وبلاغات النساء: ص ٢١، والخوازمي: ج ٢ ص ٦٤، والمقرم: ص ٣٥٧-٣٥٩، والانتفاضات الشيعية: هاشم الحسيني: ص ٣٠٤-٣٠٥.

انتصار المهزومين

لقد قوّمت زينب الموقف كله بخطابها، وجعلت يزيد يتيقن أنه كان واهما عندما ظن أنه انتصر على الحسين (عليه السلام)، وقد أطارت النشوة من رأسه وجعلته يتخبط في سلوكه ويتمادى في شذوذه بعد ذلك إلى أبعد حد ويستبيح كل حرمة مما مهد لهلاكه وزوال ملكه.

لم تكن زينب ترى أن الحسين (عليه السلام) قد خسر، وكانت ترى أن حياته التي بذلها في ساحة كربلاء ستعوض بحياة خالدة مع جده (عليه السلام) وأبيه (عليه السلام) ومع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. وكانت بذلك ترسخ مفهوم الثورة في سبيل الله.. سواء حققت تلك الثورة أهدافها على المدى القصير أم لم تحققها، تغلب الثوار على أعدائهم في ساحة المنازلة أم لم تغلبوا، فالمهم هو الانتماء الحقيقي للإسلام والجهاد في سبيل ترسيخ مبادئه وقواعده، وإشعار الأمة أنه دين جدير بالتضحية والفداء؛ لأنه الدين الوحيد الكفيل بتحقيق سعادتها وضمان مستقبلها بعيدا عن سلطان الطواغيت والظلمة والسراق والمستغلين.

لم يكن خطاب زينب امرأة منكسرة ذليلة، وإنما كان خطاب امرأة حازمة ذات موقف ورسالة واضحة المعالم والأبعاد والهدف.

شجاعة وثبات

وكان حوار زينب مع يزيد أشد من ذلك الذي كان مع ابن زياد في الكوفة، فقد روت أختها فاطمة بنت أمير المؤمنين (عليه السلام)، التي كانت ترافقها في هذه السفرة الطويلة، قالت: «لما أجلسنا بين يدي يزيد بن معاوية، قام رجل من أهل الشام أحمر فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي هذه - يعني، فارعدت وفرقت، وظننت أن ذلك جائز لهم، وأخذت

بثياب أختي زينب، وكانت أختي زينب أكبر مني وأعقل، وكانت تعلم أن ذلك لا يكون.

فقالت: كذبت، والله، ولؤمت، ما ذلك لك وله، فغضب يزيد، فقال: كذبت والله، ان ذلك لي، ولو شئت أن أفعله لفعلت!

قالت: كلا والله، ما جعل الله ذلك لك الا أن تخرج من ملتنا، وتدين بغير ديننا. فغضب يزيد واستطار ثم قال: اياي تستقبلين بهذا؟ انما خرج من الدين أبوك وأخوك.

فقالت زينب: بدين الله ودين أبي ودين أخي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدك، قال: كذبت يا عدوة الله.

قالت: أنت أمير مسلط، تشتم ظالما وتقهّر بسلطانك.

قالت: فوالله لكانه استحيا فسكت، ثم عاد الشامي فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي هذه الجارية، قال: اعزب، وهب الله لك حتفا قاضيا...^(١).

وقد كشف هذا الحوار عن شجاعة زينب الفاتكة وثباتها في الوقوف بوجه يزيد والتصدي له، مع أنه كان أكبر رأس في الدولة وأساس البلاء الذي حل بالامة كلها وسبب المصيبة التي لحقت بالحسين وآله وأصحابه عليهم السلام كما أنه، بما عرف عنه من تهور وطيش، جدير بحماسة أخرى من حماقاته المعروفة.. وربما كان باستعراضه موكب النساء والأطفال، وعرضهم بتلك الحال المزرية، التي توقّع فيها أن يجدهم أذلاء خائعين وهم يعرضون مع رأس الحسين وأصحابه، يوجه رسالة للمسلمين كافة يريهم فيها أن هذا مصير كل من سيعمد إلى خلافة وقتاله والخروج على حكمه.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٩، والبحار: ج ٤٥ ص ١٣٦، والارشاد: ص ٢٣١.

وإذ إنه فوجئ بجواب زينب الحاسم للشامي الأحمر، فانه غضب وادّعى أن من حقه أن يفعل ما يشاء.

وهنا يكشف عن طبيعته التي لا تتورع عن الخروج المتعمد عن الإسلام وفعل أي شيء تسول له نفسه فعله.

ولو أنه كان يعلم أن ذلك لن يجز عليه الوبال في النهاية، لكان قد تجرأ حتما بفعل ما لم يفعله أحد قبله، ولأعطى فاطمة بنت أمير المؤمنين عليها السلام للشامي كسبية، إلا أنه علم أنه بقيامه بذلك الفعل، فإنه يعلن رسميا وعلنيا خروجه المتعمد عن الإسلام، هكذا أعلنت له زينب بكل وضوح: «كلا والله، ما جعل الله لك ذلك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا».

ورغم أنه يعلم أن جوابها هذا ووضعها هذه الحقيقة أمامه، يقف عائقا أمام تماديه واحتمال اقدمه على هذا الأمر المشين، فانه رأى أن ينفس عن غضبه حينما ذكرت له ما هو دينها، وما هي ملتها، وهو الإسلام حتما، غير أنه إسلام غير إسلامه وإسلام أبيه وجده، إسلام يرفضه، بل لا يراه.. بل انه يرى أن جدها محمدا عليه السلام وأباها وأخاهما عليهما السلام قد كلفوهم الكثير عندما أرادوا ارساء الإسلام الحقيقي النقي، غير المزيف، ولم يسمحوا أو يتساهلوا بأية (تعديلات أو تحويرات أو اضافة أو حذف).. وأن عليا والحسين بالذات هما اللذان وقفا عقبة في سبيل المطامح الأموية وكانا حجر عثرة أمام الدين الجديد الذي أراد معاوية اقامته على انقاض الإسلام، وهو دين يتوافق مع مصالحه ومشاريعه وطموحاته، ولا يمت للإسلام إلا ببعض الشعائر والطقوس المظهرية.

لقد ذكرته زينب بأخطائه، بل وأعلنت ذلك على الأمة، وأنه انما يحكم باسم الإسلام الذي أقام دعائمه جدها رسول الله صلى الله عليه وآله، وعمل على تقويتها وادامتها أبوها

وأخوها، وأنه إن كان حقاً يدعي أنه مسلم، كما ادعى ذلك أبوه وجده من قبل، وإن كانا بعيدين عن الإسلام، فإن الفضل في ذلك يعود لعلام الهدى أولئك.

وما يملك يزيد أن يقول بعد ذلك؟ هل يستطيع رد الحجة بالحجة والقول بالقول؟ هل يقول لها علانية نحن ننكر دين محمد ﷺ مع أنهم اتخذوه بضاعة يتاجرون بها ووسيلة لغاياتهم ومآربهم؟ وأنهم لم يدينوا به إلا في الظاهر؟ مع أنهم لم يدينوا به إلا في الظاهر فعلاً.

لو كان قد صرح بذلك علانية لألغى مبررات وجوده رأساً للسلطة التي تدعي قيامها على أساس الإسلام وشرعيته، ولكان ذلك تصريحاً بأنه قد أعلن خروجه السافر المتعمد عن الإسلام، وهو ما لم يجرؤ على فعله طالما أنه يدعي الحكم باسم الإسلام، ويجني المكاسب العديدة من وراء ذلك، لم يستطع سوى أن يوجه لها الشتائم بعد ذلك، واذ ذاك أعلمته زينب أن تصرفه ذاك لم يكن سوى تصرف رجل عاجز ضعيف يستطيل بحرسه وأعوانه ومرترقته، (أنت أمير مسلط تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك).

وهل يعدو الأمر أن يكون كما ذكرت زينب؟

موقف زينب أثناء واقعة الطف وبعدها جدير بالانتباه والتأمل، فقد أثبتت في كل لحظة وفي كل مرحلة من مراحل الثورة وبعد ذلك أيضاً، أنها كانت بمستوى رسالة أخيها وثورته.. وأنها لم تكن مجرد امرأة محزونة مكروبة أثقلها هول المصائب وعظم الجريمة، بل كانت امرأة قوية ذات موقف حازم وثابت، وقد ساهمت بلفت الأنظار إلى ثورة الحسين ﷺ ضد الانحراف الأموي المتسارع، وعملت على تهديم ما بنته دولة الظلم، وظلت رمزا للمرأة الرسالية المؤمنة الواعية التي تدرك واجباتها وما ينبغي عليها القيام به في كل ظرف وفي كل وقت.

مواقف حاسمة

ولعل موقف زينب القوي والمؤثر بحكم سنّها وموقعها وعلمها قد طغى على مواقف النساء الأخريات اللائي كنّ أصغر سنا منها، ولعل ما قامت به كان يبهر حتى أعداءها الذين رووا لنا باعجاب تفاصيل وقفتها للدفاع عن الحسين ﷺ وقضيته وثورته، قبل استشهاد وبعد ذلك.

على أن موقف النساء الأخريات ممن كنّ ضمن موكب الحسين ﷺ كان موقفا يتسم بالشجاعة والثبات رغم هول الكارثة التي كنّ مقبلات عليها والتي انتهت باستشهاد الحسين وأصحابه ﷺ وقطع رؤوسهم وارسالها مع موكبهن إلى يزيد خلال مسيرة طويلة بدأت من كربلاء وانتهت بالشام لتبدأ المرحلة الثانية منها من هناك وحتى المدينة. ولنا أن نتصور رد فعل أولئك النساء الخفريات المحجبات ممن كنّ قدوة لكل نساء المسلمين وقد عرضن بشكل مفزع لأقصى ضروب الامتهان والمعاملة الوحشية من قبل قتلة الحسين ﷺ حتى أنهم سلبوا ما كان يسترهن من ملابس وعرضوهن لأنظارهم في ذلك الموقف الدقيق الذي فقدن فيه أحباءهن من الآباء والأخوة والأزواج والأبناء.. ليضيفوا إلى آلام الثكل وفراق الأحبة بذلك الشكل المرعب، آلام الاهانة والتنكيل بأقدس عائلة في المسلمين.

ولعل قيام امرأة من الكوفة بجلب مجموعة من الملاء والازر والمقانع رد اليهن روعهن وجعلهن يتصدّين للجمع المتفرج بوقاحة ودون حياء، بغضب كان جديرا أن ينفجر في تلك اللحظات، والا فماذا بقي للمسلمين ان هم أقدموا على اهانة عائلة الرسول ﷺ نفسه بتلك الطريقة المخزية؟

وقد استمعنا لخطبة زينب في أهل الكوفة المتجمعين لمشاهدة ركب النساء العائد من

كربلاء وهو يشق طريقه بينهم، وكأنهم يشاهدون فرقة من الأشخاص تقوم بتسليتهم أو جماعة تستعرض أمامهم بعض الفعاليات والألعاب المسلية.

فاطمة الصغرى: بلاغة كباغحة أخيها

وكانت فاطمة الصغرى قد ألفت خطبة منددة أخرى بأهل الكوفة، كان بيانها جديرا بمن ربت في بيت البيان، وقد جاء في خطبتها:

«الحمد لله عدد الرمل والحصي، وزنة العرش إلى الثرى، أحمده وأؤمن به، وأتوكل عليه. وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ﷺ، وأن ولده ذبحوا بشط الفرات، بغير ذحل ولا ترات.

اللهم اني أعوذ بك أن افترى عليك الكذب، وأن أقول عليك خلاف ما أنزلت من أخذ العهود لوصيه علي بن أبي طالب، المسلوب حقه، المقتول من غير ذنب، كما قتل ولده بالأمس، في بيت من بيوت الله تعالى، فيه معشر مسلمة بألستهم، تعسا لرؤوسهم ما دفعت عنه ضيما في حياته ولا عند مماته، حتى قبضته اليك محمود النقية، طيب العريكة، معروف المناقب، مشهور المذاهب، لم تأخذه اللهم فيك لومة لائم، ولا عذل عاذل، هديته يا رب للإسلام صغيرا، وحمدت مناقبه كبيرا، ولم يزل ناصحا لك ولرسولك، صلواتك عليه وآله، حتى قبضته اليك زاهدا في الدنيا غير حريص عليها، راغبا في الآخرة، مجاهدا لك في سبيلك، رضيته، فاخترته وهديته إلى صراط مستقيم.

أما بعد: يا أهل الكوفة، يا أهل المكر والغدر والخيلاء، فانا أهل بيت ابتلانا الله بكم، وابتلاكُم بنا، فجعل بلاءنا حسنا، وجعل علمه عندنا وفهمه لدينا، فنحن عيبة علمه، ووعاء فهمه وحكمته، وحجته في الأرض لبلاده ولعباده، أكرمنا الله بكرامته، وفضلنا بنبيه محمد ﷺ على كثير ممن خلق تفضيلا بينا فكذبتمونا وكفرتُمونا، ورأيتم

قتالنا حلالا وأموالنا نهباً، كأننا أولاد ترك أو كابل، كما قتلتم جدنا بالأمس، وسيوفكم تقطر من دماننا أهل البيت، لحقد متقدم، قرت بذلك عيونكم، وفرحت قلوبكم، افتراء منكم على الله، ومكرا مكرتم والله خير الماكرين. فلا تدعونكم أنفسكم إلى الجذل بما أصبتم من دماننا، ونالت أيديكم من أموالنا، فإن ما أصابنا من المصائب الجليلة والرزايا العظيمة ﴿فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(١).

تبا لكم، فانتظروا اللعنة والعذاب، وكأن قد حل بكم، وتواترت من السماء نجمات فيسحتكم بما كسبتم، ويذيق بعضكم بأس بعض، ثم تخلدون في العذاب الأليم يوم القيامة بما ظلمتمونا، ألا لعنة الله على الظالمين.

ويلكم، أتدرون أية يد طاعتنا منكم؟، وأية نفس نزعت إلى قتالنا، أم بأية رجل مشيتم إلينا تبغون محاربتنا! قست قلوبكم، وغلظت أكبادكم، وطبع على أفئدتكم، وختم على سمعكم وبصركم، وسوّل لكم الشيطان وأملى لكم، وجعل على بصركم غشاوة، فأنتم لا تهتدون.

تبا لكم يا أهل الكوفة، أي ترات لرسول الله قبلكم، وذحول له لديكم، بما عندتم بأخيه علي بن أبي طالب عليه السلام جدي وبنيه وعتره النبي الأخيار صلوات الله وسلامه عليهم، وافتخر بذلك مفتخركم فقال:

[قد قتلنا بالطف آل علي]^(٢) بسيوف هندية ورماح
وسبينا نساءهم سبي ترك ونطحناهم فأى نطاح

(١) الحديد: ٢٢/٢٣.

(٢) ورد هذا الشطر هكذا [نحن قتلنا عليا وبنيه علي] وهو لا يستقيم مع الوزن، وربما كان الشطر الذي ذكرناه يستقيم مع الوزن.

بفيك أيها القائل الكثكث و[لك] الأثلب افتخرت بقتل قوم زكاهم الله وطهرهم واذهب عنهم الرجس! فاكظم وأقع كما أفعى أبوك، وانما لكل امرئ ما قدمت يداه، حسدتمونا ويلا لكم على ما فضلنا الله عليكم.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(١) ﴿وَمَنْ لَمْ يُجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾^(٢)...^(٣)

وكان ذلك الموقف الذي تحدث فيه الامام زين العابدين وزينب قبل ذلك مشحونا بالعواطف المتناثرة، عواطف الندم لتخليهم عن نصرة الحسين عليه السلام وقد دعوه لنصرتهم وقيادتهم، والرجاء أن تتاح لهم الفرصة ثانية لمنازلة الدولة الأموية وقد عبروا عن ذلك بالفعل وطلبوا من الامام قيادتهم للانتقام من قتلة أبيه وأنصاره الا أنه رفض ذلك.. وعواطف الحزن والمرارة والألم لأنهم وضعوا أنفسهم في ذلك الموقف الدقيق الذي أحسوا فيه بهوانهم هنا وفي الآخرة، وأنهم مقبلون على حساب شديد فيها حيث لا تنفعهم الأعداء والحجج.

واذ تحدثت فاطمة الصغرى^(٤) وأم كلثوم بنت أمير المؤمنين عليهما السلام، فان الموقف قد تفجر بعواطف الندم والحزن والتذمر من السلطة الأموية وأعوانها في العراق.

ام كلثوم: «قتلتهم خير الرجال بعد النبي»

وقد روى السيد ابن طاووس أن الناس قد ضجت بالبكاء بعد خطبة قصيرة لأم

(١) الجمعة: ٤، الحديد ٢١.

(٢) النور: ٤٠.

(٣) البحار: ج ٤٥ ص ١١٠-١١١، عن اللهوف: ص ١٣٧-١٣٧، والاحتجاج: ص ١٥٥-١٥٦.

(٤) تمييزا لها عن جدتها فاطمة الزهراء عليها السلام بضعة الرسول صلى الله عليه وآله.

كلثوم قالت فيها: «يا أهل الكوفة سوأة لكم، ما لكم خذلتُم حسينا، وقتلتموه وانتهبتم أمواله وورثتموه، وسيبتم نساءه ونكبتُموه، فتبا لكم وسحقا.

ويلكم أتدرون أي دواه دعتكم! وأي وزر على ظهوركم حملتم! وأي دماء سفكتُموها، وأي كريمة أصبتموها، وأي صبية سلبتموها، وأي أموال انتهبتموها..؟! قتلتم خير الرجال بعد النبي، ونزعت الرحمة من قلوبكم الا أن حزب الله هم الفائزون و﴿حِزْبُ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١)...^(٢)

ثم أن الناس ضجوا «بالحنين والنوح، ونشرت النساء شعورهن ووضعن التراب على رؤوسهن، وخشن وجوههن، وضربن خدودهن، ودعن بالويل والثبور، وبكى الرجال، فلم ير باكية وباك أكثر من ذلك اليوم»^(٣).

ومهما يكن من أمر: فماذا كان يمكن أن يتوقع أهل الكوفة من النسوة اللاتي كن بالأمس معززات مكرمات في ظل أعز وأكرم عائلة في المسلمين، عائلة رسول الله ﷺ، وقد تعرضن للاهانة والسلب والأذى على أيديهم عندما جعلوا أنفسهم أدوات بأيدي الظلمة يوجهونها كيفما شاؤوا.

لم يواجهنهم بنفس أسلوبهم وبذاتهم.. وما كان بإمكانهن فعل ذلك حتى لو رغبن فيه، فتربيتهم في بيت الرسالة كانت تجعلهن بمستوى أولئك الذين تعهدوهن بالتربية والتنشئة.

وإذا ما أفضن ببلاغتهن واستشهدن بآيات من القرآن الكريم، فإن ذلك كان بحكم تلك التربية والتنشئة في ظل علي والحسن والحسين ﷺ الذين كانوا قرآنا ناطقا.. وإذ

(١) المجادلة: ١٩.

(٢) البحار ٤٥ / ١١٢ عن اللهوف والاحتجاج.

(٣) البحار ٤٥ / ١١٢ عن اللهوف والاحتجاج.

إنهن حملن هموم الرسالة واندفعن مشاركات في ركب الثورة، فانهن رأين أن مهمتهن لم تنته بعد انتهاء الواقعة وأن عليهن أن يعرفن الأمة بتلك الثورة وأهدافها، ويؤكدن للجميع أن الحسين وأصحابه لم يكونوا خاسرين في تلك المعركة، بل أن الأمة كلها هي الخاسرة عندما عجزت عن تحمل مسؤولياتها والالتحاق بموكب الحسين عليه السلام.

مواقف لنساء أخريات

تطالعنا في خضم الأحداث التي رافقت ثورة الحسين مواقف ونماذج متعددة لنساء كن مع الحسين عليه السلام وثورته، وقد كان لبعضهن مواقف معروفة خاصة بهن ولبعضهن الآخر مواقف اشتركن فيها مع عموم النساء والأخريات.

ومما يلفت النظر حقا أن النساء كن عموما متحيزات لآل البيت عليهم السلام بما فيهن نساء الكوفة وحتى نساء بعض من شاركوا بقتل الحسين عليه السلام وسلبه وحتى نساء يزيد وأم ابن زياد (مرجانة)... ناهيك عن نساء المدينة والبصرة وغيرها من مدن العالم الإسلامي.

ولعل النساء لم يستسلمن بالسهولة التي استسلم بها رجالهن، آباء وأزواجا وأبناء وأخوة، للسلطة في غمرة تعرضهم المباشر لها، وانما احتفظن، بحكم بقائهن بعيادات عن الرقابة وعين السلطة وشعورها - ربما - بقلّة تأثيرهن وضعف دورهن بمجريات الأحداث، بخيط من العلاقة الشفافة المستنيرة مع الإسلام وقادته الحقيقيين، أدركن معه طبيعة القادمين من آل البيت... ومن هم، وخصوصا الحسين عليه السلام الذي برز في تلك المرحلة وكأنه يقف وحيدا بمواجهة كل أعوان الدولة ومرترقتها.

ولعل محاولات معاوية الدؤوبة في غسيل أدمغة عموم المجتمع لم تصل اليهن بعد بشكل مؤثر، ولم يلحق لآلها بين صفوفهن، بعد أن كاد يكملها في قطاعات واسعة في مجتمع الرجال وخصوصا في مجتمع الشام.

ومهما يكن من أمر، فإن الأمر الملفت للنظر حقا، هو عدم اكتفاء العديد من النساء، باستنكار الموقف المخزي الذي وقفته الدولة الأموية وأعوانها من الحسين (عليه السلام) في معركة الطف، وإنما قيام بعضهن بالمشاركة في هذه المعركة ومرافقة أزواجهن وبنينهن إلى كربلاء وبذل جهود كبيرة لحثهم على الدفاع عن الحسين (عليه السلام) بل والنزول إلى الساحة بأنفسهن للمشاركة، وقد قتلت احداهن فعلا في تلك الساحة.

مارية بنت سعد

وقد برز لنا نموذج لامرأة مجاهدة في البصرة «من عبد القيس، يقال لها مارية بنت سعد - أو منقذ - وكان منزلها مألفاً»^(١) يجتمع فيه معارضو النظام والمطالبون بالتغيير وتصحيح الأوضاع المنحرفة.. وكانت تلك الاجتماعات تتم رغم الرقابة الشديدة التي فرضها ابن زياد على البصرة.

وقد حدث أبو المخارق الراسبي أن يزيد بن نبيط - وهو من أقاربها من عبد القيس أيضا - قد أزمع الخروج أيضا إلى الحسين (عليه السلام) .. «فقال لأصحابه في بيت تلك المرأة: اني قد أزمعت على الخروج، وأنا خارج. فقالوا له: انا نخاف عليك أصحاب ابن زياد.. وكان قد كتب إلى عامله بالبصرة أن يضع المناظر ويأخذ بالطريق»^(٢).

الا أنه خرج ومعه ابنان له، حتى انتهى إلى الحسين (عليه السلام) .. «ثم أقبل معه حتى أتى فقاتل معه فقتل معه هو وابناه»^(٣).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٧٨.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٧٨.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٢٧٨.

نسوة مراد.. تحريض الأزواج والأبناء على القتال

وعندما سجن عبيد الله بن زياد هانئ بن عروة بعد أن آمنه واستدرجه إلى قصره، خرج قومه من مدحج يريدون تخليصه من السجن يقودهم عمرو بن الحجاج.. وإذا بهم كانوا غير جادين بمهمتهم وكان ابن الحجاج في باطنه إلى جانب - ابن زياد - وقد كان أحد القواد الذين شاركوا بجريمة قتل الحسين وأصحابه في الطف، فأنهم اكتفوا بشهادة شريح القاضي التي أبلغهم فيها أن هانئاً حي وأن ما بلغهم عن قتله باطل، وأن الأمير لم يفعل شيئاً سوى أن ضربه (لأن الأمير مؤدب) على حد قوله، فأنهم انصرفوا تاركين شيخهم في السجن، حامدين الله على هذه النتيجة التي جنبتهم القتال وقنعوا بالسلامة لأنفسهم رغم أن هانئاً كان معرضاً لخطر القتل، ولم يعملوا على تخليصه، رغم أن عددهم كان كبيراً جداً، وكان بإمكان عشرة منهم أن يخلصوه.

غير أن «نسوة لمراد مجتمعات ينادين يا عثرته يا ثكله»^(١) قد هيجن المشاعر، وجعلن أربعة آلاف من أهل الكوفة يلتفون حول مسلم ليخلصوا هانئاً، ويعلنوا ثورتهم بوجه ابن زياد، وإن كان ذلك قبل أوانها مما أضر بها، إذ قام حشد (الأشراف) الملتفين حول ابن زياد بحملة محمومة لاقناع الناس للتخلي عن مسلم مما أدى إلى أن يتخلوا عنه فعلاً وقتله في النهاية مع هانئ.

طوعة : موقف مبذئي مع مسلم

وفي مشهد آخر نرى (طوعة)، أم ولد كانت للأشعث بن قيس، فأعتقها، ثم تزوجت أحد الحضرميين فولدت له ابناً اسمه بلال «كان شريداً من الناس وقال بعضهم كان يشرب مع أصحاب له»^(٢).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٦.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٦.

لقد استقبلت مسلماً، وآوته في دارها، بعد أن علمت من هو، وعلمت أن الناس قد تخلوا عنه... وحاولت أن تخفيه عن ابنها خوفاً من أن يشي به لدى ابن زياد.

لقد فعلت ذلك رغم معرفتها بقسوة ابن زياد وجده في طلب مسلم، ولم تستسلم للاغراءات والرشوة إذا ما هي قامت بتسليمه أو الوشاية به.

غير أنها لم تفلح في النهاية في التستر عليه أكثر من ذلك.. إذ إن ذلك الابن الشريد السكير قد علم بالأمر ووشى بمسلم رغم محاولات أمه للتكتم عليه وابقائه سالماً.

دلهم بنت عمرو: «اذهب إلى الحسين»، وأم وهب

ونستمع في مشهد آخر لـ (دلهم بنت عمرو) زوج زهير بن القين، عندما تردد في المثل بين يدي الحسين وقد كان يسايره في الطرق، وقد استدعاه الحسين ﷺ ليأتيه.. قالت له: «سبحان الله، أبيعك إليك ابن رسول الله، ثم لا تأتيه، فلو أتيت فسمعت من كلامه، ثم انصرفت»^(١).

وذهب زهير بناء على نصيحتها.. ثم عاد مستبشراً بعد أن قرر أن يذهب مع الحسين ﷺ ويقاوم معه، وقال لامرأته: «الحقي بأهلك فإني لا أحب أن يصيبك من سببي إلا خيراً وقد عذمت على صحبة الحسين.

فقامت إليه وودعته وقالت: خار الله لك، أسألك أن تذكرني عند جد الحسين يوم القيامة»^(٢).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٢، والكمال في التاريخ: ج ٣ ص ٢٧٨، والخوارزمي: ج ١ ف ١١، وروضة الواعظين: ص ٢٧٨، وأنساب البلاذري: ج ٣ ص ١٦٨، والارشاد: ص ٢٠٥، مع اختلافات يسيرة وقد تعرضنا للقصة كاملة عند استعراض سيرة زهير بن القين.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٢.

وبقي زهير مع الحسين عليه السلام، واستشهد بين يديه، وسجل تلك المواقف الفريدة الجديرة بمن صاحبوا الحسين ونصروه.

وتطالعنا أم وهب بنت عبد، زوج عبد الله بن عمير من بني عليم، وقد رافقت زوجها للالتحاق بالحسين عليه السلام بعد أن «رأى القوم بالنخيلة يعرضون ليسرحوا إلى الحسين عليه السلام»^(١) وعندما قال لها: «والله لقد كنت على جهاد أهل الشرك حريصا، واني لأرجو ألا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيهم أيسر ثوبا عند الله من ثوابه اياي في جهاد المشركين»^(٢) قالت له: «أصبت، أصاب الله بك أرشد أمورك، افعل وأخرجني معك.. فخرج بها ليلا، حتى لقي حسينا فأقام معه»^(٣).

وقد استشهد ابن عمير بين يدي الحسين عليه السلام بعد أن أبدى بطولة فائقة.. فأخذت أم وهب عمودا تقاتل به أعداءه، وذلك قبل أن يقتل، وهي تقول له مشجعة: «فداك أبي وأمي، قاتل دون الطيبين، ذرية محمد صلى الله عليه وآله، فأقبل يردها نحو النساء، فأخذت تجاذب ثوبه، ثم قالت: اني لن أدعك دون أن أموت معك»^(٤).

وقد ناداها الحسين عليه السلام قائلا: «جزيتم من أهل بيت خيرا، ارجعي رحمك الله إلى النساء، فاجلسي معهن، فانه ليس على النساء قتال، فانصرفت اليهن»^(٥).

وعندما استشهد زوجها، خرجت اليه ثانية «حتى جلست عند رأسه تمسح عنه التراب وتقول: هنئا لك الجنة، فقال شمر بن ذي الجوشن لغلام يسمى رستم:

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٢.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٢.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٠٢.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢، والنويري: ج ٢٠ ص ٤٥٠، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٩١، والخواارزمي: ج ٢ ص ١٣، والبحار: ج ٤٥ ص ١٦-١٧.

(٥) الطبري: ج ٣ ص ٣٢٦.

اضرب رأسها بالعمود، فضرب رأسها فشدخه، فماتت مكانها»^(١) شهيدة مع أصحاب الحسين عليه السلام.

وتطالعنا أيضا أم وهب بن حباب الكلبي كما طالعنا وزوجته أيضا.. ويبرز مشهد جدير بالملاحظة.. فعندما برز وهب للقتال وقتل جماعة من أعدائه رجع إلى أمه قائلا: أرضيت عني أم لا..

وهنا يرتفع صوتان متباينان، صوت الأم وهي تقول: لا أرضى حتى تقتل بين يدي الحسين بن بنت رسول الله، وصوت الزوجة التي توشك أن ترى نفسها وحيدة دون زوجها وهي تقول: بالله عليك لا تفجعني بنفسك.. وهنا تحته أمه على الرجوع والقتال بين يدي الحسين عليه السلام.

وقد رجع وقاتل حتى قتل. وكان رد فعل الأم والزوجة كلتاها هو رغبتها في الذهاب إلى الساحة بنفسيهما للقتال، وقد ردهما الحسين عليه السلام إلى مخيم النساء.

لقد رأنا عدالة قضية الحسين عليه السلام وكانت من الوضوح لديهما حتى أنهما حسبتا أن على كل فرد أن يشارك فيها حتى ولو كان امرأة لم تكلف بالقتال قبل ذلك.

ونرى أم الشاب الذي قتل أبوه في المعركة، وقد حثته على الخروج والقتال بين يدي الحسين عليه السلام.. وإذ إن هذه المرأة فقدت زوجها، فقد كان من المتوقع أن تكون حريصة على حياة ابنها.. لذلك فإن الامام الحسين عليه السلام حاول منعه من القتال قائلا: «هذا شاب قتل أبوه، ولعل أمه تكره خروجه..»^(٢) إلا أن الشاب أصر على المشاركة بالقتال، وقال للحسين عليه السلام: أمي أمرتني بذلك.. فبرز وهو يقول:

(١) راجع المصادر التي تطرقنا إليها في هذا الفصل ويراجع مقتل الحسين: السيد محمد تقي آل بحر العلوم: ص ٣٤٩-٣٩٥، والبحار: ١٧-١٨.

(٢) البحار: ج ٤٥ ص ٢٧-٢٨ والخوازمي: ج ٢ ص ٢٢ ومناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٤.

أميري حسين ونعم الأمير سرور فؤاد البشير النذير
علي وفاطمة والداه فهل تعلمون له من نظير
له طلعة مثل شمس الضحى له غرة مثل بدر منير^(١).
وعندما قتل هذا الشاب، حاولت تلك المرأة الباسلة أن تحمل على أعداء الحسين
وتقاتلهم إلا أن الحسين عليه السلام أمر بصرفها، ودعا لها.

امراة من بكر بن وائل: يا لثارات رسول الله عليه السلام، وامراة الكندي

وروى حميد بن مسلم أنه رأى امرأة من بكر بن وائل كانت مع زوجها في أصحاب
عمر بن سعد.. أي في الجانب المعادي للامام عليه السلام.. غير أنها عندما رأت أن القوم قد
تمادوا في عدوانهم إلى حد اقتحام فسطاط نساء الحسين عليه السلام وهم يسلبونهن.. أدركت
الدوافع الحقيقية من وراء شن تلك الحرب على الحسين عليه السلام، وأدركت أن تلك الحرب
انما كانت تشن على الإسلام وعلى رسول الله عليه السلام نفسه.. وقد «أخذت سيفاً وأقبلت
نحو الفسطاط، فقالت: يا آل بكر بن وائل، أتسلب بنات رسول الله؟ لا حكم إلا الله..
يا لثارات رسول الله.. فأخذها زوجها وردها إلى رحله»^(٢).

ولم يمنع نداؤها القوم من اخراج النساء من الخيمة واشعال النار فيها.
وعندما أثنى الحسين عليه السلام بالجراح بعد أن بقي وحيداً يقارع أعداءه، تلقى ضربة
غادرة بالسيف على رأسه من قبل رجل من كندة يقال له مالك بن النسير من بني بداء.
وقد قطعت الضربة برنسا كان يضعه على رأسه، وأصاب السيف رأسه فأدماه فامتلاً
البرنس دماً «فقال له الحسين: لا أكلت بها ولا شربت وحشرك الله مع الظالمين.

(١) البحار: ج ٤٥ ص ٢٧-٢٨ والخوارزمي: ج ٢ ص ٢٢ ومناقب ابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٠٤.

(٢) البحار: ج ٤٥ ص ٥٨، والتهوف: ص ٥٥، ومثير الأحزان: ص ٤٠.

فألقي ذلك البرنس، ثم دعا بقلنسوة فلبسها واعتَمَّ.

وجاء الكندي حتى أخذ البرنس - وكان من خز^(١) - وقدم به على امرأته أم عبد الله بنت الحر، أخت حسين بن الحر البدي، وأقبل يغسل البرنس من الدم.. وقد حسب أنه جاء بغنيمة كبيرة وقام بفعل عظيم، وإن من شأن ذلك أن يحسن من صورته لدى امرأته، وأنها ستزداد إعجابا به.

غير أن تلك المرأة -وقد أدركت فداحة الجرم الذي ارتكبه -توجهت إليه باللوم الشديد وطردته من بيتها قائلة: «أتدخل بيتي بسلب ابن رسول الله؟ أخرج عني حشا الله قبرك نارا»^(٢).

«فذكر أصحابه أنه لم يزل فقيرا بشر حتى مات»^(٣) «ويست يدها، وكانت في الشتاء تنضحان دما، وفي الصيف تصيران يابستين كأنهما عودان»^(٤).

لقد وجدت تلك المرأة الشجاعة الكافية لتطرد زوجها الذي حسب نفسه منتصرا وجاء رافعا رأسه أمامها.. وأفهمته أنه لم يكن سوى سفاح انقاد لارادة شريرة جعلته يرتكب تلك الجريمة المنكرة.

النوار بنت مالك: استنكار للجريمة

وروت لنا النوار بنت مالك، التي وقفت موقفا مماثلا لموقف أم عبد الله بنت الحر البدي زوج مالك بن النسير من زوجها، عندما حمل رأس الحسين عليه السلام منتظرا طلوع الفجر ليدخل به على ابن زياد.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣١-٣٣٢.

(٢) البحار: ج ٤٥ ص ٥٣، والطبري: ج ٣ ص ٣٣٢.

(٣) البحار: ج ٤٥ ص ٥٣، والطبري: ج ٣ ص ٣٣٢.

(٤) البحار: ج ٤٥ ص ٥٣.

كان خولي بن يزيد وهو زوج النوار قد ورد الكوفة عند المساء فوجد باب القصر مغلقا، فأتى منزله فوضعه تحت اجانة في منزله، وله امرأتان: امرأة من بني أسد، والأخرى هي النوار بنت مالك بن عقرب.. وهي التي روت لنا ذلك، فقالت: «أقبل خولي برأس الحسين، فوضعه تحت اجانة في الدار، ثم دخل البيت، فأوى إلى فراشه، فقلت له: ما الخبر؟ ما عندك؟»

قال: جئتكم بغنى الدهر، هذا رأس الحسين معك في الدار فقلت: ويلك، جاء الناس بالذهب والفضة، وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ! لا والله لا يجمع رأسي ورأسك بيت أبدا.

فقمتم من فراشي، فخرجت إلى الدار، فدعا الأسدية، فأدخلها اليه، وجلست أنظر. فوالله، ما زلت انظر إلى نور يسطع مثل العمود من السماء إلى الاجانة، ورأيت طيرا أبيض ترفرف حولها^(١).

كان خولي أيضا يحسب أنه سيهر زوجته بما قام به، وكان يحسب أنها ستفرح وقد كان موشكا على نيل المكاسب الكبيرة من ابن زياد.. غير أنه فقد زوجته كما أن ابن زياد لم يمنحه ما كان يتوقع من أموال طائلة.. وقد خاب مسعاه وخسرت تجارتها.

هند بنت عبد الله: «رأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله»

وقد رأينا كيف تعاطفت نساء الشام ونساء آل معاوية أنفسهن مع نساء الحسين ﷺ عندما أدخلن دار يزيد وهن بتلك الحال المزرية.. «فلم تبق من آل معاوية امرأة الا استقبلتهن تبكي وتنوح على الحسين، فأقاموا عليه المناحة ثلاثا»^(٢) فقد «صاح نساء آل يزيد وبنات معاوية ولولن.. فلم تبق امرأة من آل يزيد الا أتتهن»^(٣).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٥-٣٣٦ والبحار: ج ٤٥ ص ١٢٥.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٩.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٣٩.

وحتى زوجة يزيد نفسها - هند بنت عبد الله بن عامر بن كريز - احتجت على تصرف يزيد عندما جلب اليه رأس الحسين (عليه السلام) .. «فتقنعت بثوبها، وخرجت، فقالت: أرأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله»^(١) وكانت بذلك تؤنبه على فعلته بالحسين وأصحابه.. ولم تنتظر أن تلقاه بعد أن يقوم من مجلسه فافتحمت عليه ذلك المجلس بذلك الشكل وخاطبته بتلك الطريقة التي جعلته يعتذر بعد ذلك ويلقي المسؤولية كلها على عبيد الله بن زياد.

وحتى مرجانة استنكرت قتل الحسين (عليه السلام) «يا خبيث قتلت ابن رسول الله ﷺ لا ترى الجنة أبدا».

وحتى مرجانة أم عبيد الله بن زياد أنكرت عليه اقدمه على قتل الحسين (عليه السلام). قال المغيرة: «قالت مرجانة لابنها عبيد الله بعد قتل الحسين: يا خبيث، قتلت ابن رسول الله ﷺ، لا ترى الجنة أبدا»^(٢) وما نحسب أن أمّا تواجه ابنها بها واجهت به مرجانة عبيد الله، لو لم تكن جريمته بتلك الخطورة التي ألحقت الأذى بالمسلمين كافة، لا الحسين وصحبه (عليهم السلام) وحسب.

وسنرى - عند الحديث عن نتائج الثورة - العديد من المواقف الباسلة للمرأة المسلمة التي نصرت الحسين (عليه السلام) ودفعت أباهها وابنها وزوجها وأخاها للسير في طريقه والأخذ بثأره من دولة الظلم وأعوانها... مما ألحق أشد الأذى بهذه الدولة وكل دول الظلم على امتداد تاريخ الإسلام، وجعل الأمة تتنبه بشكل واضح إلى الخطر الأكيد الذي تتعرض له في ظل هذه الدول المنحرفة، وجسامة ما هي مقبلة عليه ان سكنت إلى النهاية ولم تتصد لها، كما تصدى الامام الحسين وصحبه (عليهم السلام).

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٤١.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٤ ص ٦٣، وروى الطبري أنها قالت لعبيد الله حين قتل الحسين (عليه السلام): «ويلك ماذا صنعت! وماذا ركبت!..!» ج ٣ ص ٣٥٣.

المحتويات

الفصل الأول / ملاحظات حول بعض ملامح المجتمع العراقي (في عهد يزيد)

٣ ممثلاً بمجتمع الكوفة

٥ أمير المؤمنين ﷺ وتكوين الطليعة العقائدية

٧ عمل الأئمة ﷺ كان واحداً: تحصين الأمة ضد السقوط.

٨ «فقد كنا، وأبوك فينا، نعرف فضل ابن أبي طالب لازماً لنا»

٩ الأئمة ﷺ يواجهون أساليب دولة الظلم

١٠ مجتمع مستهدف، لا بد من تخطيطه من الداخل

١١ يد تحمل السيف.. ويد تقدم الرشوة

١٣ توسيع طبقة الهمج الرعاع.. خطوة على طريق سلب الشعور بالمسؤولية

١٤ معالم الانحراف وأبطاله: القلوب معك والسيوف مع بني أمية

١٦ أهداف دولة الظلم: الفئة الجاهلة، الفئة الأوسع

٢٠ شجاعة، أم معرفة بواقع حال الخصوم!

٢١ الكوفة.. المدينة المعسكر... الخليط المتنافر

٢٦ ملاحظات عن مجتمع الكوفة

٢٦ مجتمع مستحدث

٢٨ مجتمع الشك

٢٩ الكوفة ودولة الظلم.. استغلال العطاء والرواتب

٣٠ الموالي.. القوة المتنامية

٣١ استقطاب قوى التأثير

٣٣ مطلوبون للعدالة الاموية

٣٣	الروح القبليّة
٣٤	العريف.. والنقيب: توزع الولاء بين القبيلة والدولة
٣٥	(ولا تز وازرة وزر أخرى...) القانون الالهي المعطل
٣٦	المجتمع المستهدف بالظلم: مستنقع تنمو فيه الجرائم القاتلة
٣٨	تنوع الاتجاهات
٤١	الفصل الثاني / أحاديث عن رموز الجريمة في كربلاء
٤٣	عبيد الله بن زياد حاكم الكوفة الأموي
٤٣	نتيجة طبيعية لانحراف الحكم
٤٥	ابن زياد: بين دناءة الأصل ورفعة المنصب
٤٧	القسوة المفرطة تعبير عن الشعور بالنقص
٥٠	ابن زياد كان مرشحاً من قبل معاوية للتصدي للحسين ﷺ
٥٣	بين معاوية وابن زياد: محاورات ومداولات
٥٩	بين لذة الحكم والخوف من فقدان الامتيازات
٦٤	نظام جديد للملك جديد
٦٨	اسطورة في الارهاب وسفك الدماء... مع الخوارج أولاً
٧٥	طاقة الشر التي أريد لها أن تتفجر في الكوفة
٧٦	قانون دولة الظلم
٨١	من يحمي من؟ السلطان أم الجندي
٨٣	شجاعة أم سوء خلق
٨٥	الشك أولاً
٨٦	قانون الطوارئ، سيف مسلط على الرقاب
٨٨	لماذا اختار عمر بن سعد؟
٨٩	افتراءات حول تراجع مزعوم.. مصدرها عمر بن سعد
٩٣	لا تذكر الجريمة الا ويذكر المجرم، ابن زياد في الذاكرة

- ٩٨ القسوة مصدرها ونتائجها
- ٩٨ النفير العام لمواجهة الحسين عليه السلام - فتح خزانة المال والسلاح
- ١٠٣ خصومة الجبناء- بين ابن سعد وشمر
- ١٠٥ (اتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟)
- ١٠٥ (لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ...)
- ١٠٨ جزاء القاتل: اقتلوه أيضاً
- ١٠٩ الوعود كانت كاذبة، صغرت النفوس فهانت
- ١٠٩ عندما يملك العبد: اقتلوا الشيخ المحتج
- ١١٢ التنصل من الجريمة
- ١١٣ التظاهر بالعظمة محاولة للتعويض عن دناءة الأصل
- ١١٤ وكذلك محاولة التقليل من شأن الآخرين
- ١١٦ (إنتصار) المهزومين
- ١٢٠ شركاء الجريمة، أول من يتلقون (النبأ السار)
- ١٢١ جريمة السبي، تؤكد الحقد الأموي على الرسول وآله عليهم السلام
- ١٢٤ (سمية امسى نسلها عدد الحصى)
- ١٢٤ القتل يتبادلون الاتهامات: مالي ولا بن مرجانة...
- ١٢٧ بين حال وحال، قبل وبعد (يزيد)
- ١٣٠ عبد فرعون بمستوى رغبات فرعون: (مروان) سيداً جديداً
- ١٣١ إلى الكوفة، ثانية
- ١٣٢ الاسطورة الزائلة: لا تقبل الارض موتاهم إذا قبروا
- ١٣٦ (قضية).. أم مصالح شخصية
- ١٣٧ حديث (الحوض) ادانة لأعداء محمد صلوات الله عليه وآله
- ١٤٠ لماذا ينكر (ابن زياد) حديث الحوض!؟

- ١٤٥ عمر بن سعد.. الجاسوس القاتل
- ١٤٥ البدايات
- ١٤٨ بين (سعد) و(علي)
- ١٥٠ الكهل الاخرق.. طمعه قتله
- ١٥٣ افتراء تجسس وغدر.. عرفه فأوصاه
- ١٥٤ إنه لا يخونك الامين
- ١٥٦ الجريمة.. لا يبررها الخوف من القتل أو الطمع بملك الري
- ١٥٧ الكذب.. لتبرير الجريمة
- ١٥٨ طموح قديم عاجله سم معاوية: ان الله جنوداً من غسل
- ١٦٢ ذهبت اللقمة الكبيرة، فليقنع بالفتات
- ١٦٤ أترك ملك الري؟ تردد لأن الجريمة هائلة
- ١٦٧ المهزوم يتوقع اعتذار القوي المنتصر / المفاوضات
- ١٧٢ .. فحل بين الحسين وأصحابه، وبين الماء
- ١٧٣ قميص عثمان يرفع ثانية، تلفيق وتزوير
- ١٧٣ لقاء وحديث ملفق.. راويته ابن سعد وحده
- ١٧٥ أمل بالتراجع.. واستسلام ذليل
- ١٧٦ شهادة بحق الحسين ﷺ : لا يستسلم والله حسين...
- ١٧٧ خديعة أم تخادع.. لسان يلحس ويكذب: يا خيل الله...
- ١٧٩ قائد أم تابع
- ١٨٠ إرادة مسلوبة: لو كان الأمر اليّ لفعلت، اشهدوا اني أول من رمى
- ١٨٣ خوف أم يقظة ضمير
- ١٨٤ القائد المتخاذل... بكاء أم دموع التماسيح
- ١٨٥ ابن زياد من ينفع ويضر: لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك
- ١٨٦ استسلام مهين، أم حقد دفين: اوطئ الخيل صدره وظهره!

- ١٨٨ آلة الظلم الخرساء: لا حاجة لنا به بعد الآن
- ١٩٠ كان خاملاً.. وعاد خاملاً
- ١٩٢ المختار.. اختار الثار: لأقتلن غداً رجلاً عظيم القدمين غائر العينين
- ١٩٣ سعى لحتفه بظلفه
- ١٩٧ شمر بن ذي الجوشن الضبابي
- ١٩٧ الكلب الابقع الذي يلغ في دماء أهل البيت
- ٢٠٠ خادم جديد وطاقة كبيرة للشر.. اخلاص مفتعل وحقد أصيل
- ٢٠٢ التحريض على الجريمة
- ٢٠٣ مقرب جديد ومستشار موثوق
- ٢٠٥ الجريمة لا بد أن تتم.. ليُحرَمَ شمر من الفوز: لا ...
- ٢٠٧ محاولة لشق صف أصحاب الحسين (عليه السلام)
- ٢٠٩ شمر.. القائد الحقيقي لجيش ابن زياد
- ٢١١ ظاهرة (شمر).. تلفت الانظار دائماً
- ٢١٦ انحياز تام للشر
- ٢١٧ جبن وغدر
- ٢١٩ القتل.. ثم القتل
- ٢٢٠ عودة إلى الخمول.. بعد ظهور مؤقت
- ٢٢٠ الظهور من جديد بوجه الشوار
- ٢٢٢ لولا جريمته.. ما أشار اليه التاريخ
- ٢٢٢ مسمار صغير في عجلة الدولة الكبيرة
- ٢٢٥ شمر نتاج مجتمع الظلم
- ٢٢٧ أشراف الكوفة- الظلمة المستضعفون
- ٢٢٧ تمهيد
- ٢٢٨ الشريف: وجهان

- ٢٢٩ اشراف الكوفة: خضراء الدمن في دولة النفايات
- ٢٣١ اشراف الكوفة: مصالحنا أولاً
- ٢٣٥ اشراف الكوفة: نلبس لكل حالة لبوسها
- ٢٣٦ لا بأس من العذر ما دام يرضي الأمير
- ٢٣٩ مع (ابن زياد) ضد (مسلم) القوة والمال معه أيضاً
- ٢٤١ يرفضون التغيير.. ثبات الاوضاع يحقق لهم المنافع والامتيازات
- ٢٤٣ الوشاية والغدر لا تؤثران على شرف (الشريف)
- ٢٤٦ هوى فرعون أولاً
- ٢٤٧ كل ما يفعل الامير مقبول حتى وان شتمهم أو أهانهم
- ٢٤٩ (مبادرات) شخصية.. لكي يرضى الأمير
- ٢٥٢ الكذب لا يضر بشرف (الشريف)
- ٢٥٦ الخوف على المصالح: المبرر الدائم للإستسلام
- ٢٥٨ أشراف الكوفة: نهاذج معادة مكررة
- ٢٥٩ **أهل الكوفة.. وسائر الناس**
- ٢٥٩ لا يدركون أن في الحياة ظلماً
- ٢٦٢ هدف أمير المؤمنين (عليه السلام) تقليص فئة الهمج الرعاع
- ٢٦٢ هدف معاوية، زعيم دولة الظلم: توسيع طبقة الهمج الرعاع
- ٢٦٤ وعي مجتمع العراق: ذنب ينبغي أن يحاسب عليه...
- ٢٦٥ القتل على التهمة والظنة والشبهة: قانون دولة الظلم
- ٢٦٧ الكوفة ينبغي أن تظل مستهدفة بظلم فرعون...
- ٢٦٩ شريف يشخص انحدار (الأشراف)
- ٢٧٠ سيوفهم عليك لأنهم فقدوا الارادة والحس والشعور بالمسؤولية
- ٢٧١ الحسين (عليه السلام) أكثر الناس فهماً لمجتمع الكوفة
- ٢٧٤ لا يوقف الانحراف الكبير الا دم الشهداء

- ٢٧٦ (تقلب) طارئ أم أصيل
- ٢٧٨ (التقلب) أحد النتائج الطبيعية للسياسات المستبدة
- ٢٧٨ الحسين عليه السلام لن يتخلى عن الأمة... وان تخلت عنه
- ٢٧٩ ظنوه الحسين عليه السلام فرحبوا به
- ٢٨٠ حماس الرسائل وحماس الموقف العملي
- ٢٨٢ ما أدركه سليمان بن صرد لم يفث الحسين عليه السلام ادراكه
- ٢٨٣ شروط الحسين عليه السلام
- ٢٨٥ وعود دون ضمانات
- ٢٨٥ اي قوم ابن مرجانة! ويحك انما هو الحسين...
- ٢٨٧ البيان الأول، تهديد ووعد
- ٢٨٩ تصعيد الخوف
- ٢٩٠ مظاهرة (عمرو بن الحجاج) مهزلة مضحكة
- ٢٩٢ الخوف والتخاذل نتيجة طبيعية للظلم وغياب القانون
- ٢٩٣ الكوفة تجربة مريرة مع دولة الظلم
- ٢٩٥ ابن زياد طوعت الكوفة له فاستخف بها
- ٢٩٦ مشاهد وتهديدات
- ٢٩٩ تجمع النساء أثار الرجال اعلان الثورة قبل موعدها
- ٢٩٩ هل استدرج ابن زياد الثوار بسجن (هانئ)؟
- ٣٠٢ سباق لحسم الموقف
- ٣٠٣ مع الدولة، لا تراجع
- ٣٠٥ تحذيل الناس سلاح لئيم لجأ اليه (الأشراف)
- ٣٠٩ قدوم الحسين عليه السلام، فرصة لن تتحقق ثانية
- ٣١١ تخلوا عنه فأضاعوا فرصتهم الأخيرة
- ٣١٢ الانسحاب: الأمر الغريب الذي أثار دهشة ابن زياد

- ٣١٣ خلا المسجد من الثوار، فامتلاً بأعوان السلطة
- ٣١٤ مجتمع الكوفة، انحنى أمام العاصفة فظل محني الظهر
- ٣١٥ نماذج أفرزتها دولة الظلم
- ٣١٩ مبادرات، أم محاولات للفت الأنظار
- ٣٢٠ راسلوه ثم التحقوا بالجيش الذي جند لقتاله
- ٣٢٣ جئنا لنسلم عليك... وندعو لك لا لنصرك علينا ديون ولنا عيال
- ٣٢٤ اعدار المتخاذلين وتبريرات المعتدين
- ٣٢٧ **ظواهر على هامش مجتمع الظلم**
- ٣٢٧ تصرف غير مسؤول
- ٣٢٧ فراغ نفسي وخواء عقائدي.. وجهل بالاسلام
- ٣٢٨ لا خلاف عقائدي
- ٣٢٩ خطط معاوية (عقري الشر)
- ٣٣١ في الشر، تساوى الأشراف وسائر الناس
- ٣٣٥ **لقطات ومشاهد ملفتة للنظر نماذج غريبة**
- ٣٣٥ مسلم بن عمرو الباهلي وقلة الماء
- ٣٣٧ كثير بن عبدالله الشعبي حماقة ووقاحة
- ٣٣٩ عبدالله بن أبي حصين، المهرج (ألا تنظر إلى الماء كأنه كبِد السماء)
- ٣٤٠ ابن حوزة النكرة، هدد بالنار فاحترق بها
- ٣٤٢ مرة بن منقذ العبدى، القاتل المتباهي
- ٣٤٣ عمر بن صبيح الصدائي وزملاؤه، وليمة الدم
- ٣٤٤ عمرو بن سعد بن نفيل، اصرار على الجريمة...
- ٣٤٥ حرملة بن كاهل الأسدي، بطولة قتل الأطفال الرضع
- ٣٤٦ ذليل يرضي ذليلاً
- ٣٤٧ حصين بن تميم، غادر قاتل

- ٣٤٧ رجل من بني ابان بن دارم مجهول يريد أن يصير معلوما
- ٣٤٨ يزيد بن معقل الشاهد على نفسه بالكذب، مات ببغيه وكذبه
- ٣٥٠ رضي بن منقذ العبدى.. وكعب بن جابر...
- ٣٥١ ابن منقذ العبدى.. ندم حيث لا يندفع الندم
- ٣٥٢ يزيد بن سفيان التميمي كانت نفسه بيده...
- ٣٥٣ شمر بن ذي الجوشن جعل قضية دولة الظلم قضيته الشخصية
- ٣٥٥ سنان بن أنس، وحش مجنون
- ٣٥٧ اسحاق بن حيوة الحضرمي: سالب القميص المخرق
- ٣٥٧ اسيد بن مالك وجماعته نحن رفضنا الصدر بعد الظهر
- ٣٥٨ عشرات من النماذج المشوهة ظاهرة تبرز في ظل دولة الظلم
- ٣٥٩ **أنصار الحسين الطليعة البدرية الثانية**
- ٣٦١ بدر أول معركة بوجه الشرك واستجابة تامة لله ورسوله
- ٣٦٣ لولا بدر لاندثر الإسلام ودعوة الرسول
- ٣٦٤ نكسات وحروب من الداخل
- ٣٦٤ ابو سفيان: حارب الإسلام.. فألت مكاسب المسلمين إلى أولاده
- ٣٦٥ قبول يزيد خليفة الوصول إلى قرار الهاوية
- ٣٦٧ من أجدر بمهمة رسول الله ﷺ من الحسين عليه السلام؟
- ٣٦٧ بدر.. حالة ممكنة التكرار
- ٣٦٩ البديون موجودون في كل ساحات الصراع «لقد شهدنا في...»
- ٣٧١ اصرار على المضي إلى نهاية الشوط
- ٣٧٢ عبد الله بن بقطر: «انصروا الحسين وأزروه»
- ٣٧٤ الحسين عليه السلام: «اني لا أعلم أصحابا خيرا من أصحابي»
- ٣٧٤ القلوب قبل السيوف: «أنحن نخلي عنك؟!»
- ٣٧٦ انتصارهم للحسين انتصار للإسلام، الأعمال فاقت الأقوال

- ٣٧٧ موقف أنصار الحسين عليه السلام سيبقى في ضمير الأمة إلى الأبد...
- ٣٧٩ اشراف الكوفة: تنكر لقيم الشرف، اضممار الغدر والخديعة
- ٣٨٠ القتل المحقق خير من الاستسلام المهين...
- ٣٨١ إلى موكب الشهادة: «يا ناقتي لا تدعري من زجري»
- التحقوا به رغم علمهم أن الموقف لم يكن لصالحه: «أما
- ٣٨٣ أشراف الناس فهم إلب واحد عليك»
- ٣٨٤ قضية الحسين رابحة في الحالين، النصر أو الشهادة
- ٣٨٤ انحازوا للحسين في صبيحة المعركة «يا رب اني للحسين ناصر»
- ٣٨٧ شخصيات ومواقف
- ٣٨٧ ١. زهير بن القين البجلي
- ٣٨٨ انتبه في الأيام الأخيرة، فكان من أشد المناصرين
- ٣٨٨ تذكر لوصايا سابقة
- ٣٩٠ انحياز للحق... لا للانحراف
- ٣٩١ حوار ومناجاة «ألا ترون إلى الحق...
- ٣٩٢ زهير، لسان الأنصار
- ٣٩٢ «والله لو كانت الدنيا لنا باقية.. لآثرنا الخروج...
- ٣٩٣ تلهف على الشهادة
- ٣٩٥ عشية المعركة «ذكرت به رسول الله صلى الله عليه وآله فرأيت أن أنصره...
- ٣٩٧ «كنت عثمانيا فأصبحت حسينيا»
- ٣٩٨ الليلة الأخيرة .. لوددت أني قتلت ثم نشرت. حتى أقتل فيك...
- ٤٠٠ زهير، قائد الميمنة «نذار لكم من عذاب الله، نذار»
- ٤٠١ حاول تخليصهم من ورطة الوقوف إلى جانب الظالم
- ٤٠٢ بين موقف المنتصر القوي وموقف المهزوم العاجز
- ٤٠٤ التصدي للشمر «ما اياك أخاطب، انما أنت بهيمة...

- ٤٠٥ تعرية المجرمين، تعرية للسائرين في ركا بهم: «لا يغرنكم من...»
- ٤٠٧ وفاء وولاء «أقدم هديت هاديا مهديا فاليوم تلقى جدك النبيا».
- ٤٠٨ إلى اللقاء في الجنة «لا يبعدنك الله يا زهير»
- ٤١١ ٢. الحر بن يزيد الرياحي
- ٤١٢ بين تضليل الدولة ورؤية الواقع
- ٤١٢ ارادوا موت الحسين، وأراد الحسين حياتهم «اسقوا...»
- ٤١٤ الحر صلى خلف الحسين ﷺ مع أنه أمر بمحاصرته
- ٤١٥ تنفيذ أوامر الدولة
- ٤١٧ هل صحح خطأه بعد فوات الأوان؟ حاصر الحسين ﷺ...»
- ٤١٨ لا.. لدولة الظلم
- ٤٢٠ حديث الحسين في أصحاب الحر «ألا ان هؤلاء قد لزموا طاعة...»
- ٤٢١ ذلوا فاستعبدوا «ألا ترون أن الحق لا يعمل به...»
- ٤٢٣ الموت ليس نهاية كل شيء «أفالموت تخوفني.. وهل يعدو...»
- ٤٢٤ سأمضي وما بالموت عار على الفتى...
- ٤٢٥ تردد بين التشدد والتسامح
- ٤٢٦ التحقوا به رغم أنهم رأوا الجيش الذي أعد لقتاله
- ٤٢٧ مسألة للتأمل والنظر
- ٤٢٧ الاوامر أولا... نفذ ولا تناقش
- ٤٢٨ مفاهيم مقلوبة «أطعت إمامي وعصيت ربي»
- ٤٢٩ جواسيس على قادة الجند
- ٤٣٠ مبادئ لا يمكن تخطئها «ما كنت لأبدأهم بالقتال»
- ٤٣١ احكام الحصار «أما بعد: فحل بين الحسين وأصحابه وبين الماء»
- ٤٣٢ الحر تراجع عن الخطأ بعد أن فهم الحجة
- ٤٣٣ امام الحقائق والحجج البالغة

- ٤٣٤ موقف الحسين موقف القوي الصابر «لا والله لا أعطيهم بيدي...»
- ٤٣٥ سكتوا ولم ينطق الا شمر
- ٤٣٥ وضع الصبح لذي عينين، الأذلاء يشهرون سيوفهم
- ٤٣٦ لحظة فاصلة «أخير نفسي بين الجنة والنار...»
- ٤٣٩ آب أخيرا بعد أن اطمأنت نفسه «إني قد جئت لك تائباً..»
- ٤٤٠ انت الحر في الدنيا والاخرة
- ٤٤١ الفئة الباغية نفوس خاوية الا من الذل والاستسلام
- ٤٤٣ سباق مع الزمن لردع القتلة «لا سقاكم الله يوم الظمأ ان لم تتوبوا»
- ٤٤٤ جيش كوفي وولاء أموي
- ٤٤٤ اشراف الكوفة خرج الحر عليهم فكشفهم أمام الأمة
- ٤٤٥ يتباهون بالجرائم
- ٤٤٦ شركاء في الجريمة
- ٤٤٧ التحريض على القتل قتل والسكوت عن الجريمة جريمة
- ٤٤٨ مع زهير يواجهان جيشا كاملا: «آليت لا أقتل حتى أقتلا»
- ٤٤٩ ولنعم الحر حر بني رياح
- ٤٥١ ٣- عبد الله بن عمير الكلبي
- ٤٥١ جهاد الظالمين أيسر ثوابا عند الله
- ٤٥٢ فرصة نادرة لن تتكرر أبدا
- ٤٥٢ رأى أم وهب كراي أبي وهب: جهاد هؤلاء الذين...
- ٤٥٣ عملاق «بطل اني لأحسبه للأقران قتالا»
- ٤٥٤ في مواجهة الأذلاء «ما يخرج اليك أحد من...»
- ٤٥٥ ام وهب «قاتل دون الطيبين ذرية محمد، لن...»
- ٤٥٧ ام وهب شهيدة الإسلام واست زوجها فاغتالها الشمر

الأصحاب الأوائل

٤٥٩

٤٥٩

المقاتلون في بدر والطف نفس الأهداف والعزيمة، نصره الإسلام

٤٦٣

١ - العباس بن علي بن أبي طالب

٤٦٣

الاخ الدافع عن أخيه، المجيب إلى طاعة ربه

٤٦٤

ولاء للإسلام وبيت الرسالة، جوانب من شخصية أبي الفضل

٤٦٥

اداء فريد واستجابة تامة للحق

٤٦٧

العباس: الساعد الأيمن لإمامه الحسين (عليه السلام)

٤٦٨

ساقى العطاشا «لا أشرب منه قطرة وحسين عطشان»

٤٧٠

لا للظالمين «لا حاجة لنا في أمانكم...

٤٧١

شمر يحاول استمالة العباس، والعباس يردعه «لعنك الله ولعن...

٤٧٢

العباس يفاوض القوم ليوقفوا الهجوم

٤٧٣

«فان استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة... لعلنا نصلي لربنا الليلة»

٤٧٤

طلب ينسجم معه واقع حال الخصوم

٤٧٥

ليلة المعركة «اني لا أعلم أصحابا أولى ولا خيرا من أصحابي،...

٤٧٦

العباس مع الحسين دائما.. لن نتخلى عنك «لم نفعل لنبقى بعدك...

٤٧٧

حامل الراية

٤٧٨

تساؤلات المتخاذلين

٤٨٠

تهدة مخاوف النساء

٤٨١

الحسين يلقي الحجة على جيش ابن زياد ويوضح أسباب ثورته

٤٨١

العباس (عليه السلام) المهات الصعبة

٤٨٢

كلنا فداء للحسين (عليه السلام)، العباس يقدم اخوته: «تقدموا يا بني أُمي...

٤٨٣

اخوة العباس «نحن فداء لأخينا الحسين نحمي...

٤٨٤

قتلوا فبقوا أحياء عند ربهم يرزقون

٤٨٥

ان كان لا بد من القتل فلتجلب الماء للعطاشى: «يانفس من...

- ٤٨٦ الايثار بالنفس ومواجهة الموت «نفسى لنفس المصطفى الطهر وقا»
 ٤٨٧ اغتالوه بعد أن لم يستطيعوا مواجهته
 ٤٨٨ «عليك مني السلام أبا عبد الله»
 ٤٩٠ «الآن انكسر ظهري»
 ٤٩١ وأعجب من موقف العباس موقف السيدة أم البنين
 ٤٩٣ ٢. علي (الأكبر) بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام
 ٤٩٣ فهم وبصيرة ووعي
 ٤٩٤ بار بأبيه مسارع إلى طاعة ربه
 ٤٩٥ عرف أهداف أبيه فنصره على عدوه: «ألسنا على الحق؟ إذا...»
 ٤٩٨ فارس مقدم.. حزم مع العدو وعطف ورقة على الأطفال والنساء
 ٤٩٨ يطلب الشهادة قبل الجميع
 ٥٠٠ هل جزاء الاحسان الا الاحسان؟
 ٥٠٢ اللهم اشهد على هؤلاء فقد برز اليهم غلام اشبه الناس...
 ٥٠٣ إلى القتال: «... والله لا يحكم فينا ابن الدعي»
 ٥٠٥ عند الشهادة «هذا رسول الله قد سقاني بكأسه الأوفى شربة...»
 ٥٠٧ ٣- حبيب بن مظاهر الأسدي
 ٥٠٧ انتظر الحسين عليه السلام ليلتحق به الشيخ الذي تشوق للشهادة
 ٥٠٨ داعية للحسين وللإسلام
 ٥٠٩ مواجهة الموت لا تمتنع من توجيه النصيحة للعدو
 ٥١٠ ابحث عن المخبرين
 ٥١١ حبيب يواجه وقاحة شمر «اني أراك تعبد الله على سبعين حرفا...»
 ٥١٢ تسابق إلى الشهادة .. «أوصيك بالحسين أن تموت دونه»
 ٥١٣ وفعل، ووفي بوعد، ومات دون الحسين عليه السلام.
 ٥١٤ الشيخ ينازل الفرسان

- ٥١٥ رغم شيخوخته، كان طودا شامخا «احتسب نفسي وحماة أصحابي»
- ٥١٩ ٤- مسلم بن عوسجة الأسدي
- ٥١٩ الصحابي الجليل
- ٥١٩ مع المخبرين ثانية، الجاسوس الذي خدع مسلم بن عوسجة
- ٥٢١ موقف بطولي قبل الطف
- ٥٢٢ مع الحسين حتى الشهادة «أنحن نخلي عنك؟!»
- ٥٢٤ كاد أن يقتل شمرا لولا أن منعه الحسين
- ٥٢٦ مسلم بن عوسجة: مبارز لا يغلب
- ٥٢٧ صورة وضاءة عند الشهادة
- ٥٢٩ عدوه يشهد له بالفضل.. شبت بن ربعي يشيد بمسلم بن عوسجة
- ٥٣١ ٥- برير بن خضير.. سيد القراء
- ٥٣٤ موقفان: في بدر.. والطف.. عمير.. وبرير هيا إلى الجنة
- ٥٣٥ محاورات ومواقف
- ٥٣٨ الغدر..
- ٥٤٠ اعتراف بالخطأ واصرار على موالاة دولة الظلم
- ٥٤٣ ٦- وللأنصار الآخرين دورهم في الثورة أيضاً
- ٥٤٣ انصار الحسين.. بمستوى المسؤولية.. حب غامر لرسول الله ﷺ...
- ٥٤٥ تعميم على السير الذاتية لابطال الطف
- ٥٤٦ لو وضع الحسين يده بيد يزيد لكان ذلك...
- ٥٤٨ يزيد بن زياد بن المهاصر، أبو الشعثاء الكندي...
- ٥٥٠ نافع بن هلال الجملي، «الحمد لله الذي جعل...
- ٥٥٢ بنو عقيل، «تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، حتى نرد موردك»
- ٥٥٤ سعيد بن عبد الله الحنفي وقف عند الصلاة يحمي...
- ٥٥٦ ابوثامة الصائدي «لا والله لا تقتل حتى أقتل دونك، وأحب أن...

- ٥٥٧ الفتيان الغفاريان «أحببنا أن نقتل بين يديك...»
- ٥٥٧ الفتيان الجابريان «لا والله ما على أنفسنا نبكي...»
- ٥٥٨ حنظلة بن أسعد الشبامي «يا قوم لا تقتلوا...»
- ٥٥٩ عابس بن أبي شبيب الشاكري «والله لا جبينكم اذا دعوتم...»
- ٥٦١ شوذب مولى شاكر «أقاتل دون ابن بنت رسول الله ﷺ حتى أقتل»
- ٥٦٤ جون، مولى أبي ذر «أذب عنهم باللسان واليد»
- ٥٦٤ عمرو بن جنادة بن كعب الأنصاري ألبسته أمه لامة الحرب...
- ٥٦٦ الشيخ الجليل، أنس بن الحرث الكاهلي «.. شكر الله...»
- ٥٦٨ سويد بن عمرو بن أبي المطاع: قاتل بسكين بعد أن فقد السيف.
- ٥٦٩ انصار الحسين: نموذج فريد، غير أنه ممكن التكرار
- ٥٧٠ معاوية: خلاصة لجاهليات الأرض
- ٥٧٣ والنساء، نصرن الحسين أيضا
- ٥٧٤ ١. العقيلة زينب بنت أمير المؤمنين عليهما السلام ونساء آل الرسول ﷺ ...
- ٥٧٦ عالمة حكيمة.. أعدت نفسها لتحمل المسؤولية
- ٥٧٧ لماذا أخذ الحسين عياله وأطفاله إلى كربلاء؟
- ٥٧٩ واجهت الكارثة بعزيمة منقطعة النظير
- ٥٨٠ اعداد لتقبل المصيبة
- ٥٨٣ حزنت على الحسين أكثر من حزنها على ابنها...
- ٥٨٤ وحيدة إلى جنب الحسين الوحيد.. أهوال وآلام
- ٥٨٧ بعد الطف: «ويلكم يا أهل الكوفة أتدرون أي...»
- ٥٩٢ في مجلس ابن زياد: «الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وطهرنا تطهيرا»
- ٥٩٥ الغضب والشهامة بمواجهة الصمود والشجاعة
- ٥٩٦ دفاع عن زين العابدين
- ٥٩٨ من سجن الكوفة إلى الشام، على أخشن مركب

- ٦٠٠ استهداف بالأذى
- ٦٠١ في مجلس يزيد «اني لأستصغر قدرك»
- ٦٠٥ انتصار المهزومين
- ٦٠٥ شجاعة وثبات
- ٦٠٩ مواقف حاسمة
- ٦١٠ فاطمة الصغرى: بلاغة كבלغة أخيها
- ٦١٢ ام كلثوم: «قتلتهم خير الرجال بعد النبي»
- ٦١٤ مواقف لنساء أخريات
- ٦١٥ مارية بنت سعد
- ٦١٦ نسوة مراد.. تحريض الأزواج والأبناء على القتال
- ٦١٦ طوعة: موقف مبدئي مع مسلم
- ٦١٧ دهم بنت عمرو: «أذهب إلى الحسين»، وأم وهب
- ٦٢٠ امرأة من بكر بن وائل: «يا لثارات رسول الله ﷺ، وامرأة الكندي
- ٦٢١ النّوار بنت مالك: استنكار للجريمة
- ٦٢٢ هند بنت عبد الله: «أرأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله»
- ٦٢٣ وحتى مرجانة استنكرت قتل الحسين ﷺ «يا خبيث قتلت ...